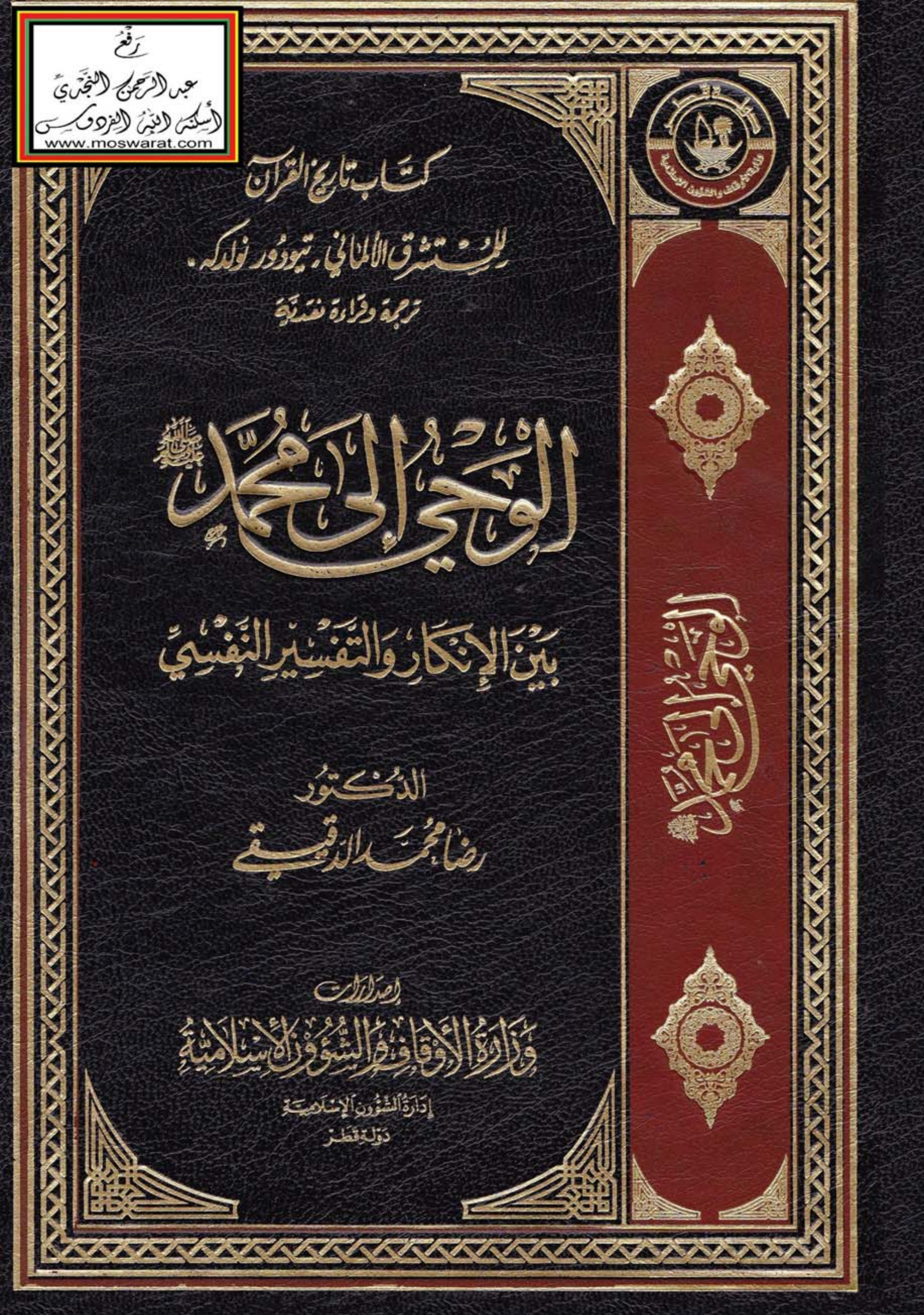


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
كتاب تاريخ القرآن
للمستشرق الألماني، تيودور نولدكه.
ترجمة وقراءة نقدية
الوحي إلى محمد ﷺ
بين الإنكار والتفسير النفسي
الدكتور
رضا محمد الدقيقي
إصدارات
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
إدارة الشؤون الإسلامية
دولة قطر
الوحي إلى محمد ﷺ

كتاب تاريخ القرآن

للمستشرق الألماني "تيودور نولدكه"

ترجمة وقراءة نقدية

الطبعة الأولى
الدوحة ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

قَامَ بِعَمَلِيَاتِ المُرَاجَعَةِ والتَّنْضِيدِ الصَّوْتِيِّ والإِخْرَاجِ الفَنِّيِّ



دار الميمان للنشر والتوزيع

الرياض: هاتف: ١٤٦٢٧٣٣٦ (٩٦٦)+ فاكس: ١٤٦١٢١٦٣ (٩٦٦)+
القاهرة: هاتف: ٢٧٩٤٩٣٧٠ (٢٠٢)+ فاكس: ٢٧٩٦٢٧٣٠ (٢٠٢)+
بريد إلكتروني: info@arabia-it.com الموقع: www.arabia-it.com



كتاب تاريخ القرآن
للمستشرق الألماني "تيودور نولدكه"
ترجمة وقراءة نقدية

الجزء الأول

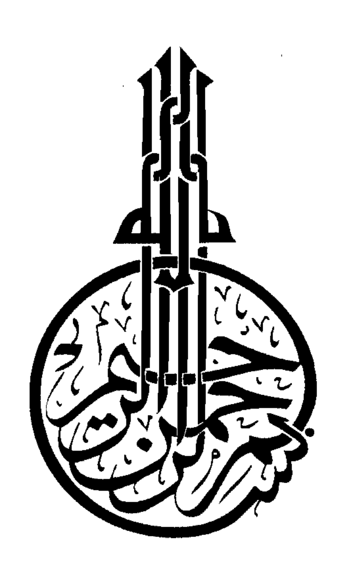


بين الإنكار والتفسير النفسي

الدكتور
رضا محمد الدقيقي

من إصدارات
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
إدارة الشؤون الإسلامية
دولة قطر


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


بسم الله الرحمن الرحيم



أصل هذه الدراسة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وبعد؛ فإن العنوان الذي تحمله هذه الدراسة هو:

كتاب تاريخ القرآن للمستشرق الألماني «تيودور نولدكه»

ترجمة وقراءة نقدية

وهي تتضمن - حتى الآن - ثلاثة أجزاء، عناوينها:

الجزء الأول: الوحي إلى محمد ﷺ بين الإنكار والتفسير النفسي.

الجزء الثاني: الوحي إلى النبي ﷺ: هل هو صوت داخلي؟

الجزء الثالث: مرجعية النبي ﷺ هل ثمة تحول؟.

ولقد كانت هذه الأجزاء الثلاثة في الأصل رسالة نال بها كاتبها درجة «العالِمية» الدكتوراه من جامعتي: الأزهر «المصرية» وجوتنجن «الألمانية» وكان عنوانها:

(شبهات المستشرقين حول العقيدة الإسلامية؛

دراسة تحليلية نقدية؛

القسم الأول من كتاب تاريخ القرآن لتيودور نولدكه نموذجًا)

وقد بدأت العمل في هذه الرسالة في عام ١٩٩٧م، ونوقشت بكلية أصول الدين جامعة الأزهر بطنطا صباح يوم الأحد التاسع من ذي القعدة سنة ١٤٢٣ هـ الموافق

الثاني عشر من يناير سنة ٢٠٠٣ ميلادية. وتكونت لجنة المناقشة من:

أ.د/ محمود حمدي زقزوق[١] (مشرفًا)

وأ.د/ تيلمان ناجل[٢] (مشرفًا مشاركًا)

وأ.د/ عبد الله الشاذلي[٣] (عضوًا)

وأ.د/ محمد شامة[٤] (عضوًا)

* * *

(١) وزير الأوقاف في جمهورية مصر العربية، والأستاذ بكلية أصول الدين بالقاهرة.

(٢) مدير معهد الدراسات العربية بـ «جامعة چورچ أوجست» بـ «جوتنجن» بألمانيا.

(٣) أستاذ العقيدة والفلسفة المتفرغ بكلية أصول الدين بطنطا.

(٤) أستاذ الدراسات الإسلامية بكلية اللغات والترجمة بجامعة الأزهر.



شكر وتقدير

وبمناسبة نشر هذه الدراسة أشكر معالي الوزير أ.د. محمود حمدي زقزوق، الذي أُنجز هذا العمل تحت إشرافه، على الرغم من أعبائه. فقد رعى هذا العمل منذ أن كان نبتة صغيرة بين يديه، وشد من أزر صاحبه، وشجعه على دراسة اللغة الألمانية، وذلَّل له من بعدُ عقبات كثيرة، ولم يضن عليه بوقت أو جهد أو نصح. أسأل الله أن يبارك في عطائه، وأن يتقبله منه، وأن يجزيه خير الجزاء.

وأشكر أ. د. تيلمان ناجل؛ مدير معهد الدراسات العربية بجامعة جوتنجن الألمانية، الذي استضافني مدة تربو على السنتين في المعهد المذكور، وأهداني مؤلفاته، ويسَّر لي الإفادة من مكتبة المعهد ومكتبة المدينة، ودعاني إلى محاضراته داخل المعهد وخارجه. ولقد كانت ملاحظاته القيمة بشأن بعض صعوبات اللغة الألمانية عونًا لي في الترجمة. كما أُقَدِّر له على نحو خاص اتساعَ صدره كثيرًا للاختلاف معه في بعض القضايا. وأشكره كذلك على تكبده عناء السفر للحضور من أجل المشاركة في مناقشتي.

كما أشكر أ. د. عبد الله يوسف الشاذلي الذي درّس لي في مرحلتي الدراسة الجامعية والدراسات العليا وما زلت أنهل من وافر علمه في كل مرة أجلس إليه فيها. وأشكر له عظيم ثنائه الذي شرفني به في مناقشته، وأسأل الله أن يجعلني عند حسن ظنه. كما أشكر أ. د. محمد شامة الذي كان لملاحظاته الدقيقة أثر كبير في تقويم عملي.

* * *

كما أشكر معالي الوزير / أحمد بن عبد الله بن غراب المري وزير الأوقاف القطري الذي قبل أن تنشر وزارة الأوقاف القطرية هذه الدراسة، وجزاه الله كل خير.

لقد كنت - وقت إعدادي لرسالة الدكتوراه - قد انتهيت بفضل الله وتوفيقه من ترجمة القسمين الأول والثاني من كتاب **تاريخ القرآن** لتيودور نولدكه. واقتصرتْ رسالتي للدكتوراه على معالجة آراء نولدكه بشأن الوحي إلى النبي محمد ﷺ في القسم الأول منهما، وأرجو أن يوفقني الله تعالى لتستمر قراءتي النقدية لباقي أفكارهما.

***

وبعد، فإني أسأل الله تعالى أن يكتب لهذه الدراسة القبول، وأن يثيبني على الجهد الذي بذلته فيها، وأن يعينني على متابعة إنجاز المزيد، وأن يغفر لي زلاتي ويقيل عثراتي. وهو حسبنا ونعم الوكيل.

رضا محمد الدقيقي

ألماطي قازاقستان

فجر الأربعاء ١ محرم ١٤٢٩هـ

٩ يناير ٢٠٠٨م



بعض ما قيل في أثناء مناقشة هذه الرسالة

١ - مما قاله الأستاذ الدكتور محمود حمدي زقزوق (المشرف المصري):

- هذه الرسالة في الواقع من الرسائل العميقة التي تعد إضافة ثرية في المكتبة العربية الإسلامية، ولا يجوز بأي حال من الأحوال لمقررات الاستشراق في جامعة الأزهر أن تتجاهل هذه الرسالة، بل ينبغي أن تأخذها في الاعتبار وتجعلها نموذجا يحتذى في الدقة العلمية.

- إن «الدقيقي» باحث جاد وطموح لأبعد الحدود، مجتهد مثابر وتواق للعلم والمعرفة، وهو باحث واعد يبشر بمستقبل مرموق، يجعله قدوة لزملائه الباحثين، والأزهر في أشد الحاجة إلى مثل هذه النوعية من الباحثين.

- لم يكن هم «رضا الدقيقي» الحصول على الدكتوراه، ولو كان هذا همه لكان قد حصل عليها منذ خمس سنوات، ولكان الآن على أعتاب الترقية إلى درجة أستاذ مساعد كما فعل غيره من أقرانه، ولكنه كافح وناضل بعناد من أجل العلم والمعرفة. فهدف «رضا الدقيقي» الأول أن يعرف وأن يزداد علمًا، ومن هنا تَعَلَّم لغةً جديدة فتحت له نافذة جديدة للعلم مباشرة دون وساطة، وأمضى سنوات عديدة ليصل إلى ما وصل إليه.

- إن السيد / «رضا الدقيقي» في أثناء بحثه الذي استمر سنوات طويلة وجدناه - وهذا مما يحمد له - تفتحت له موضوعات أخرى أعدها في صورتها الأولية، وستصدر عمّا قريب في مؤلفات أخرى غير هذه الرسالة، وهذا يدلنا على مدى اجتهاد ومثابرة هذا الباحث الواعد.

- إن «الدقيقي» له من اسمه نصيب؛ فاسمه رضا وقد حاز على رضا لجنة المناقشة، واسمه الدقيقي وهو دقيق في تعبيراته.

٢- مما قاله الأستاذ الدكتور عبد الله الشاذلي:

- إن هذه الدراسة بعد أن تمت يصعب في الحقيقة على قارئ أو باحث عادي يقرأ سريعًا أن يجد فيها ثغرات لدقة ما كتبه هذا الباحث. وأعترف لكم أنني بعد أن قرأت شوطًا قلت في نفسي: ما سوف نقوله من ملاحظات مهما كانت قيمتها فإنها أشبه بطلقات خفيفة لا يمكن أن تؤثر على هذا البناء الوطيد.
- إن شخصية الباحث تبدو عملاقة بحيث إننا لو تناسينا قليلا لمن نقرأ سوف نتصور شخصية كبيرة عظيمة زادها تواضعها رفعة.
- إن شخصية الباحث بدت عميقة الفكر، دقيقة المنهج، رصينة الأسلوب، متمكنة في العرض والربط. إن منهجه محدد الأسس، وإنه ليبرزه من خلال أسلوب وعبارات تثير الإعجاب الشديد.
- إن ردوده ومناقشاته طُرحت في هدوء وتمكن من الإقناع وفي وصول للهدف المنشود. وإنه في كثير من المساجلات بينه وبين مستشرقه الفذ «نولدكه» بدا باحثًا مستغرقًا في التحليل والتصحيح كأعمق ما يكون.
- ولقد قرأت لأفذاذ في هذا الموضوع طالهم أو سبقهم أحيانا. إنه استخرج من المراجع الوفيرة في التخصصات المتعددة أدلة ما هي في الحسبان. ومن خلال تلك الشخصية تجد الرسالة ليس فيها كلف (أي غيم قليل) أو عيوب إبداعية تحجب إشعاعاتها البحثية. وندرت الأخطاء على الجانب اللغوي والمطبعي وصعب على الناقد أن يجد مادة ذات بال يطرحها، وقد لا يجد إلا الانبهار والإعجاب.
- والشخصية والرسالة معًا في إنسانية باحثها تطرح وراءها كثيرًا من الباحثين، وعددًا لا بأس به من أقرانه الذين قطعوا شوطًا على طريق البحث. إن طول الزمن الذي شرف بإبداع هذه الرسالة ليبدو وجيزًا أمام هذا العمل العظيم.

- إنني عندما سرت في هذه الرسالة وقطعت فيها شوطًا لم أجد فيها ما يمكن أن أجده من سلبيات في رسائل تعرض للمناقشة فقلت لنفسي: لماذا لا أعلن أن الرسالة ليس فيها أخطاء تستحق الوقوف عندها، وتُمنح درجتها بلا مناقشة؟

- لقد اتسمت الرسالة بالعمق والتحليل الدقيق حتى إنه كان يورد شبهًا أتوقع أن يرد عليها بنقاط معينة ترد في ذهني بحكم الخبرة؛ فأفاجأ بأنه ساق ردودًا ما خطرت لي على بال، ويرد عليها بردود مفحمة.

- أما الأسلوب؛ فمتنوع، لا يسير بقارئه على وتيرة واحدة توصله إلى الملل بعد قراءة عدة صفحات؛ بل يتنوع فيه فيستخدم مرة أسلوب المقال، ومرة أسلوب الصحافة، ومرة أخرى يستخدم أسلوب اللغة العلمية الرصينة، فينقلك بين متاحف الأسلوب لدرجة أني كنت أضحك أحيانًا وأنا أقرؤها، أضحك انسجامًا من العبارة التي يكتبها متسائلًا كيف ركبها؟

- إن هذه الرسالة هي أول رسالة أناقشها وأكون راضيًا عنها تمام الرضا على الرغم من أنني قد ناقشت رسائل كثيرة.

٣- مما قاله الأستاذ الدكتور محمد شامة:

- إن الباحث كان قويًّا في تحليله لآراء «نولدكه» ورده عليه. وكان في نقده هادئًا عف اللسان، وتلك سمة البحث العلمي. واتسم رده على «نولدكه» بالدقة والموضوعية. كما أنه قد بذل جهدًا كبيرًا في ترجمة النصوص الألمانية.

- إن الباب الرابع فيه عرض جيد، وهو أحسن ما جاء في الرسالة، ولو اقتصر الباحث عليه لكان وحده كافيًا لأن ينال به درجة الدكتوراه.

- إن الباحث رجع إلى النصوص الألمانية مباشرة ولم يرجع إلى الكتب المترجمة.

- إن الموضوع فريد من نوعه؛ حيث يتناول فكر مستشرق بعينه. لأن غالب الكتب التي تتحدث عن الاستشراق تقوم بجمع أقوال المستشرقين في فكرة

معينة، أما أن يأتي باحث ويناقش مستشرقًا بعينه في أفكاره فأظن أنه فريد من نوعه وأظن أنه لم تقدم رسالة في جامعة الأزهر من هذا النوع تناقش فكر مستشرق بعينه.

* * *



نتيجة الرسالة

حصلت الرسالة على درجة: العالمية (الدكتوراه) بمرتبة الشرف الأولى مع التوصية بطبعها على نفقة الجامعة، وتبادلها مع الجامعات الأخرى.

***

تقرير جامعة جوتنجن الألمانية

Seminar für Arabistik
der Universität Göttingen
Direktor: Prof. Dr. Tilman Nagel

D-37073 Göttingen, den 21.09.1999
Prinzenstr. 21
Telefon 0551/39 43 98
Fax 0551/39 93 32

Bericht über den zweijährigen Aufenthalt
von Herrn Reda M. H. El-Dekiki am Seminar für Arabistik
der Universität Göttingen

Herr El-Dekiki hat im Rahmen des „channel system" vom Herbst 1997 bis zum Herbst 1999 am Seminar für Arabistik an seiner Dissertation über die Ansichten Nöldekes und Parets über Islam und Koran gearbeitet.

Nachdem er zunächst seine Deutschkenntnisse vertieft hatte, begann er im Dezember 1997 mit dem Studium seiner Quellen. Er übersetzte mit großer Sorgfalt und Genauigkeit Nöldekes „Geschichte des Qoran" und Parets „Muḥammad und der Koran" ins Arabische; dabei ging er allen, auch den entlegensten, Hinweisen nach, die geeignet waren, die Hintergründe der Auffassungen und Erkenntnisse der beiden Gelehrten aufzuklären. In zahlreichen Gesprächen haben wir einzelne diesbezügliche Fragen erörtert; dabei wurde auch mir deutlich, wie sehr sich die Grundlage, von der aus Paret und Nöldeke ihre Themen betrachten, von derjenigen unterscheidet, die wir heute als selbstverständlich annehmen. Ich bin sicher, daß Herrn El-Dekikis Dissertation in dieser Hinsicht auch für die deutsche Orientalistik aufschlußreich sein wird.

Herr El-Dekiki hat mir vor kurzem einen genauen Abriß der Gliederung seiner Dissertation übergeben, mit deren Niederschrift er nunmehr beginnen und die er nach meiner Meinung zügig zum Abschluß bringen kann. Auch aus der Ferne werde ich diese Arbeit gern begleiten.

Herr El-Dekiki hat im übrigen an mehreren meiner Lehrveranstaltungen teilgenommen. Dabei kamen seine profunde Bildung im klassischen Arabisch und seine Belesenheit auf vielen Gebieten des Islams zur Geltung; er ist in dieser Hinsicht der am besten geschulte junge arabische Gelehrte, der mir bisher begegnet ist. Ich bin mir sicher, daß er in seinem Heimatland einen guten Weg einschlagen und mit großem Erfolg im akademischen Bereich tätig sein wird. Ich wünsche ihm dabei von Herzen alles Gute.

Göttingen, den 21. September 1999

GEORG-AUGUST-UNIVERSITÄT * GÖTTINGEN *

Prof. Dr. Tilman Nagel



ترجمة تقرير جامعة جوتنجن الألمانية

جامعة جوتنجن

معهد الدراسات العربية

المدير: بروفيسور تيلمان ناجل

ألمانيا - جوتنجن

تقرير

عن السنتين اللتين قضاهما السيد / رضا م.ح. الدقيقي في معهد الدراسات العربية بجامعة جوتنجن (بألمانيا) في معهد الدراسات العربية.

إنه ابتداء من خريف ١٩٩٧م وحتى خريف ١٩٩٩م، وفي إطار نظام القنوات العلمية (بين مصر وألمانيا)، وبعد أن عمق في البداية معرفته باللغة الألمانية، عمل السيد / الدقيقي رسالته للدكتوراه حول آراء نولدكه وبارت عن الإسلام والقرآن(١)؛ فبدأ في ديسمبر ١٩٩٧م دراسة مصادره. لقد ترجم بعناية ودقة فائقتين كتابي كل من: نولدكه: (تاريخ القرآن)، ورودي بارت: (محمد والقرآن). ولقد أتى حتى على الإشارات الخفية التي تفيد في كشف خلفيات آراء ومعارف هذين العالمين.

في عدة لقاءات فيما بيننا ناقشنا الملاحظات التفصيلية المتعلقة بهذا؛ ومن خلالها بدا واضحًا لي أيضًا الأسس التي نظر بها كل من «نولدكه» و«بارت» إلى موضوعهما؛ هذه الأسس التي تختلف عما نسلم به اليوم كأمر بديهي. وأنا على يقين أن أطروحة السيد / الدقيقى ستفيد الاستشراق الألماني أيضًا في كشف هذا الجانب.

لقد قدم السيد / الدقيقي لي فصول أطروحته مختصرة دقيقة قصيرة. وحسب تصوري

(١) تم فيما بعد تحديد الموضوع وقصره على كتاب: تاريخ القرآن.

فإنه بهذا الحال الذي هو عليه الآن قد خطا خطوة حثيثة نحو النهاية. وإنه ليسعدني أيضًا أن أرعى هذا العمل عن بعد.

بالإضافة إلى هذا؛ فقد شارك السيد / الدقيقى في كثير من لقاءاتي العلمية التي بدا واضحًا لي من خلالها معرفته بالعربية القديمة، وكثرة علمه بفروع التخصصات الإسلامية الكثيرة، وإنه من هذا الجانب أفضل عالم عربي شاب باحث التقيت به حتى الآن.

إني لعلى يقين أنه سيشق طريقًا طيبًا في وطنه، وأنه سينشط في المجال الأكاديمي بنجاح عظيم.

وأخيرًا فإني أرجو له من صميم قلبي كل خير.

تيلمان ناجل



مقدمة الدراسة

سأتناول في هذه المقدمة تسع نقاط هي:

- التعريف بالمستشرق الألماني تيودور نولدكه.
- وكتابه محل دراستي.
- وأهمية الموضوع.
- والدراسات السابقة.
- ومنهجي في تعريب نص نولدكه.
- وطريقة عرض نص نولدكه.
- ومنهجي في البحث.
- والصعوبات التي واجهتني.
- دور نولدكه في كتاب تاريخ القرآن.

* * *

أولًا: التعريف بـ «تيودور نولدكه» *Theodor Nőldeke*

مولده ووفاته:

ولد «نولدكه» في ٢ مارس ١٨٣٦م بمدينة «هاربورج»[١]، وتوفي في ٢٥ ديسمبر من عام ١٩٣٠م بمدينة «كارلسروهه»؛ فهو قد عاش ٩٤ سنة، كانت رغم ضعف صحته - الذي لازمه طيلة حياته - مليئة بالإنجاز العلمي والنشاط الكبير.

دراسته ونشاطه في تحصيل العلم:

درَس في الفترة من ١٨٤٩ - ١٨٥٣م الآداب اليونانية واللاتينية وألَمَّ كذلك بمبادئ اللغة العبرية، وجهه أستاذه «هينريش إيڤالد» *H. Ewald* لدراسة اللغات السامية؛ فدرس العربية والسريانية والسنسكريتية والفارسية والتركية والآرامية الخاصة بالكتاب المقدس، ثم درس فيما بعدُ سائر لهجاتها وتعمَّق في العبرية. وكان يتحدث كذلك الفرنسية والإنجليزية والإسبانية والإيطالية وحصل على الدكتوراه في العشرين من عمره عام ١٨٥٦م بمرتبة الشرف الأولى.

ذهب إلى ڤيينا لدراسة مخطوطات مكتبتها فبقي بها عاما ١٨٥٦ - ١٨٥٧م، ثم انتقل إلى ليدن فأقام من خريف ١٨٥٧ إلى ربيع ١٨٥٨م؛ فعكف على قراءة المخطوطات العربية الثمينة، وتعرَّف على نظرائه من شباب المستشرقين، ثم رحل إلى مدينة «جوتا» الألمانية فدرس مخطوطاتها لمدة شهر، ثم ذهب إلى برلين في ٢٦ إبريل ١٨٥٨م لنفس الغرض وبقي بها حتى ٢ سبتمبر ١٨٦٠م، وعمل مساعدًا في مكتبتها لعام ونصف أنجز فيهما فهرسًا للمخطوطات التركية التي كانت بين ٢٠٠ و٣٠٠ مخطوط.

(١) أصبحت منذ ١٩٧٧م ضمن إقليم «هامبورج» بألمانيا.

وفي ٢ سبتمبر ١٨٦٠م قام برحلة خارج ألمانيا لمدة ثلاثة أشهر من برلين إلى روما طاف خلالها بالبلاد الرئيسة. ويحق للمرء أن يعجب من أن «نولدكه» لم يزر طيلة هذه الحياة المديدة أي بلد إسلامي أو عربي.

لكن الدكتور صلاح الدين المنجد يقول: إنه كانت لديه رغبة في أن يزور بلاد الشرق لكن هذه الرغبة لم تتحقق وطالما اعتراه الندم على عدم تمكنه من ذلك.

الوظائف التي شغلها ومؤلفاته:

عمل في ديسمبر ١٩٦٠م أمينًا مساعدًا لمكتبة جوتنجن وبقي بها حتى يناير من عام ١٨٦٢م.

وفي يناير ١٨٦١م عُين معيدًا بجامعة جوتنجن؛ فَدَرَّس تفسير سفر (أشعياء)، والنحو العربي، وأفاده هذا في دراسة التفاسير القديمة للعهد القديم وكذلك الشعر العربي القديم.

من أعماله ومؤلفاته المتعلقة بالدراسات العربية والإسلامية:

- **(أبحاث لمعرفة شعر العرب القدماء).**
- دراسة عن الشاعر عروة بن الورد أرفقها بديوانه الذي ترجمه للألمانية ونشره في «جوتنجن» ١٨٦٣م.
- وله كتاب بعنوان:

"Das leben Muhammeds nach den Quellen Pupulaer"

(حياة محمد عرض مبسط لها مستمد من المصادر) نشره في عام ١٨٦٣م في «هانوفر».

- وله بحث بعنوان: **(هل كان لمحمد معلمون نصارى؟)** نشره في المجلة الشرقية الألمانية *ZDMG* سنة ١٨٥٨م.
- وله كتاب بعنوان: **(قواعد العربية الفصحى)** صدر عام ١٨٩٦م.

- وفي عام ١٩٠٤م ألف كتابه: (**أبحاث عن علم اللغات السامية**).
- ثم ألَّف في عام ١٩١١م كتابه: (**أبحاث جديدة عن علم اللغات السامية**).
- وله مقال بعنوان: (**الكعبة**) نشره في المجلة الأشورية عام ١٩٠٩م.
- وبحث عن (**أمية بن أبي الصلت**) نشره في المجلة الأشورية الجزء ٢٧ ص١٥٩- ١٧٢ عام ١٩١٢م.
- وله دراسة بعنوان: (**القرآن والعربية**) نشرها في عام: ١٩٠٤م ردًّا على المستشرق «كارل فولر» (١٨٥٧ - ١٩٠٩م) الذي ادعى أن القرآن كان في الأصل بلهجة مكية.
- وله كذلك: (**مساهمات جديدة حول اللغات السامية**) نشره عام ١٩١٠م.
- وأسهم في نشر **تاريخ الطبري** في الفترة من: ١٨٨٦ - ١٩٠١م.
- وعدَّد له نجيب العقيقي خمسة أبحاث أو كتب باللغة العربية تتعلق بالشعر والقواعد. كما نشر ثمانية دواوين لشعراء عرب. ونشر كتاب (**الإمامة والسياسة**) المنسوب لابن قتيبة. كما له أبحاث ودراسات أخرى كثيرة.
- وإلى جانب ذلك فقد كانت له اهتمامات بغير اللغة العربية؛ فقد ألف كتابًا في قواعد اللغة السريانية. وترجم ما يخص الساسانيين من **تاريخ الطبري** إلى الألمانية ونشره عام ١٨٨٩م.
- وكان له اهتمام في بداية حياته بنقد العهد القديم حيث ألف كتابه:

“Untersuchungen zur Kritik des alten Testaments. Kiel 1869”

(دراسات في نقد العهد القديم ١٨٦٩م)

درَّس في جامعة: «كيل» في الفترة من ١٨٦٤ - ١٨٧٢م، ثم عُين أستاذًا في جامعة «اشتراسبورج»[١] عام ١٨٧٢م وبقي بها حتى عام ١٩٢٠م رغم أنه كان قد بلغ

(١) كانت وقتها ضمن ألمانيا.

سن التقاعد عام ١٩٠٦م، ولم يغادر «اشتراسبورج» رغم إلحاح جامعات «برلين» و«ڤيينا» و«لايبزيج». وكانت هذه الفترة الطويلة التي بلغت أكثر من خمسين عامًا فترة استقرار مكانته ودراساته وبؤرة إشعاعه في عالم الاستشراق.

أسرته وتلاميذه وسنوات شيخوخته:

تزوج نولدكه في عام ١٨٦٤م، وكان في الثامنة والعشرين من عمره، وأنجب عشرة أولاد توفي منهم ستة في حياته.

من تلاميذه:

«إدوارد زخاو» (١٨٤٥ - ١٩٣٠م) و«چورچ ياكوب» (١٨٦٢ - ١٩٣٧م) و«كارل بروكلمان» (١٨٦٨ - ١٩٥٦م) و«فريدريش شفاللي» (١٨٦٣ - ١٩١٩م).

وعندما ترك العمل في «اشتراسبورج» في سنة ١٩٢٠ ذهب إلى ابنه في مدينة «كارلسروهه» الألمانية ليقضي السنوات العشر الأخيرة من عمره حتى توفي في ٢٥ ديسمبر ١٩٣٠م[1].



(١) راجع:

- *Johan Fück: die arabischen Studien in Europa, s. 217-220.*
- *C.H. Becker, Lebensbilder bekannter Islamforscher , "Theodor Nőldeke", Islamstudien, II, Georg Olms Verlag , Hildesheim, 1967, s.514-522.*
- *C. S. Hourgronie ; "Theodor Nőldeke" , ZDMG , B. 85, 1931 S. 239-281 Leipzig, 1931.*

والأخير نقلًا عن *Johan Fück* المرجع المذكور، ود. عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين ص٤١٧ - ٤٢٠. وراجع: كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ج١ ص ١٤١، ١٣٥، ١١٤، ونجيب العقيقي: المستشرقون ج٢ ص٣٧٩ - ٣٨٢ و د.صلاح الدين المنجد: المستشرقون الألمان ١١٥، ١١٦. وتعرفت كذلك على بعض قوائم أبحاثه وكتبه من خلال البحث تحت اسم *Nöldeke Th*. في الحاسب الآلي لمكتبة جامعة جوتنجن.



ثانيًا: التعريف بكتابه: تاريخ القرآن

١- هذا الكتاب هو **تاريخ القرآن** *Geschichte des Qorāns*، للمستشرق الألماني «تيودور نولدكه» *Theodor Nöldeke* (١٨٣٦ - ١٩٣٠م)، كان في أصله رسالة دكتوراه باللغة اللاتينية بعنوان: **(حول نشوء وتركيب السور القرآنية)** تقدم بها الشاب «نولدكه» عام ١٨٥٦م إلى جامعة جوتنجن *Göttinge* للحصول على الدرجة وكان عمره عندئذ عشرين عامًا، وحصل عليها بالفعل بمرتبة الشرف الأولى.

وحصل «نولدكه» عام ١٨٥٨م بهذه الرسالة على جائزة من فرنسا خصصت لأفضل كتاب أُلِّفَ في أوربا عن كتاب مقدس.

ثم عكف بعد ذلك على إعادة كتابتها باللغة الألمانية بمفرده على نحو جديد وصدرت كطبعة أولى سنة ١٨٦٠م تحت عنوان: **(تاريخ القرآن)** *Geschichte des Qorāns*.

٢- ولقد حاولت الحصول على الطبعة الأولى المشار إليها؛ فأُخبِرت أنها لم تعد موجودة. ولعل السبب يعود إلى قلة عدد النسخ التي طبعت منها، ويشهد لهذا أن «فريدريش شفاللي» *Fridrich Schwally* الذي أشرف على الطبعة الثانية - كما سيأتي - بعد أن انتهى من معالجة القسم الأول من **تاريخ القرآن** طلب من كلٍّ من «تيودور نولدكه» و«إجناتس جولدتسيهر»[١] نسختيهما من الطبعة الأولى للنظر

(١) *Ignaz Goldziher* (١٨٥٠ - ١٩٢١م) مستشرق مجري من الطائفة الإسرائيلية. بعد أن أتم دراسته في بودابست عام ١٩٢١م أقام مدة عام في القاهرة حيث كان أول أوربي يدرس الإسلام في الأزهر، واهتم بادئ الأمر بالأبحاث المتعلقة باليهودية، وعمل سكرتيرًا للجالية اليهودية =

فيهما؛ يقول «شفاللي»[1]: (وبعد أن كانت أصول كتابي قد انتهت وضع تيودور نولدكه وجولد تسيهر - تبعًا لطلبي - نسختيهما الشخصيتين تحت تصرفي لبضعة أيام). فلعل هذا يعني أن النسخ المنشورة من الطبعة الأولي كانت قليلة.

٣- والمتاح الآن في المكتبات الألمانية من الكتاب طبعتان هما: الثانية والثالثة.

فالطبعة الثانية - وهي التي سأرجع إليها - جاءت في ثلاثة أقسام كل قسم في مجلد، وصدرت جميعها من دار نشر واحدة هي:

Dieterich'sche Verlagsbuchhandlung, Theodor, Weicher, Leipzig

لكن صدورها تم في سنوات مختلفة؛ فقد صدر القسم الأول في سنة ١٩٠٩م، وصدر الثاني عام ١٩١٩م، وصدر الثالث عام ١٩٣٨م، بعد وفاة نولدكه بثماني سنوات.

= في بودابست لكن الساعات الست التي كان يقضيها يوميًّا في ذلك شقت عليه فتخلى عنها وتفرغ كليًّا للدراسات الإسلامية؛ فأنجز الكثير في هذا الباب. ويعد من أبرز المستشرقين الأوربيين، وأهم كتبه: *muhammedanischen Studien (2 Bde.,1889 -1890)*: دراسات محمدية، من جزأين. وله كذلك *Vorlesungen über den Islam*: محاضرات في الإسلام، الذي ترجم إلى الفرنسية ونقله عنها للعربية الدكتور محمد يوسف موسى وزميلاه تحت عنوان: العقيدة والشريعة في الإسلام. وله كذلك: *Die Richtungen der islamischen Koranauslegung (1920)* مذاهب التفسير الإسلامي. وكان يصف هذا الكتاب بأنه (فلذة كبدي) *Schmerzenskind*، وتوفي بعد تأليفه بسنة، وترجمه للعربية د. عبد الحليم النجار. وله عدة مقالات جَمعتُ المهم منها، وأسأل الله أن يعينني على ترجمتها، وعَمَلِ دراسة لها. راجع بشأنه:

- *Johan Fück: die arabischen Studien in Europa, s. 229 , 231.,*
- *C.H. Becker, Lebensbilder bekannter Islamforscher , "Ignaz Goldziher", Islam-studien, II, s.499 - 513.*

وراجع: محمد علي حشيشو، تعليقات ضمن: المستشرقون الألمان، لصلاح الدين المنجد ص١٢٣، ورودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ترجمة د. مصطفى ماهر ص٣٠، ونجيب العقيقي: المستشرقون ج٣ ص٤١.

(١) مقدمة القسم الأول من تاريخ الطبعة الثانية ص *VIII*.

والطبعة الثالثة – وهي آخر طبعة من هذا الكتاب – كانت في عام ١٩٨١م، ضمت الثلاثة أقسام جميعًا في مجلد واحد، وهي مصورة من الطبعة الثانية، التي رجعت إليها، ولا تختلف عنها في شيء مطلقًا، وقد صدرت عن دار نشر:

Georg Olms Verlag, Hildesheim[1] *und Newyork*[2]

٤- والطبعة التي سأتعامل معها – كما قلت – هي الطبعة الثانية. وقد تعاون في إخراجها ومعالجتها والإضافة إلى نص نولدكه الأصلي – الموجود في الطبعة الأولى – مجموعة من المستشرقين هم: «فريدريش شفاللي» (١٨٦٣ – ١٩١٩م) و«جوتهلف برجشتراسر» (١٨٦٦ – ١٩٣٣م) و«أوتو بريتسل» (١٨٩٣ – ١٩٤١م). وكان تعاونهم بنسب مختلفة. وجاءت بأقسامها الثلاثة في ٨٣٦ صحيفة.

فالقسم الأول من الكتاب – وهو عن أصل القرآن *Über den Ursprung des Qorans* – عالجه «فريدريش شفاللي» ولم يغير في نص نولدكه الأصلي إلا تغييرات لا تكاد تذكر، ونشره في عام ١٩٠٩م بعد أن راجعه «نولدكه» بنفسه وأقرَّه وكتب مقدمة له، وجاء في ٢٦١ صحيفة. وهذا القسم هو الذي سأقتصر عليه في هذه الدراسة وسأعرض فهرس موضوعاته بعد قليل.

والقسم الثاني منه وهو عن جمع القرآن *Die Samlung des Qoran* أصلح فيه «فريدريش شفاللي» نص نولدكه الأصلي إصلاحًا شاملًا، وأضاف إليه تعليقًا تاريخيًّا وثائقيًّا عن المصادر الإسلامية والبحث المسيحي الحديث، لكنه مات في فبراير عام ١٩١٩م بعد أن انتهى منه كمسودة؛ فطبع في ديسمبر من نفس العام. قبل ترك «نولدكه» العمل في جامعة «اشتراسبورج» بعام، وقبل وفاته بإحدى عشرة سنة. وجاء هذا القسم في ٢٢٤ صحيفة.

أما القسم الثالث – وهو يتناول تاريخ النص القرآني *Die Geschichte des Korantext*؛ فقد أَصْلح المستشرقان «جوتهلف برجشتراسر» و«أوتو بريتسل»

(١) مدينة في مقاطعة *Niedersachsen* سكسونيا السفلى بألمانيا.

(٢) المدينة الأمريكية الشهيرة.

نص نولدكه الأصلي إصلاحًا شاملًا - وأضافا ثماني لوحات لمخطوطات قرآنية. وقد وضع أحد الباحثين الألمان في نهاية هذا القسم فهارس للمجلدات الثلاث، شملت: المصادر والأعلام والمصطلحات والآيات القرآنية. ونُشر هذا القسم بعد وفاة «نولدكه» بثماني سنوات أي في عام ١٩٣٨م، وجاء في ٣٥١ صحيفة[١].

٥- فهرس موضوعات القسم الأول محل الدراسة[٢]:

لقد جاء فهرس[٣] موضوعات القسم الأول من كتاب **(تاريخ القرآن)** في طبعته الثانية في عنوانين رئيسين:

الأول: حول نبوة محمد والوحي (١ - ٥٧):

وتحته عنوانان:

أ- محمد نبيًّا: مصادر تعاليمه (١ - ٢٠):

وتحته الموضوعات الآتية:

(١) ذكر د. صبحي الصالح (مباحث في علوم القرآن ص ٢٤١) أن الطبعة الأولى كانت بمساعدة «شفاللي» وهذا خطأ. كما ذكر الدكتور عبد الرحمن بدوي أن «شفاللي» عاون نولدكه في هذه الطبعة فقال (موسوعة المستشرقين ص ٤١٩): (وبعد ذلك بعامين آخرين - أي في سنة ١٨٦٠م - نشر «نولدكه» ترجمة ألمانية منقحة لهذه الدراسة، تحت عنوان تاريخ القرآن، وهذه الطبعة توسع فيها جدًّا فيما بعد بتعاون مع تلميذه شفاللي). وهذا كلام غير دقيق؛ إذ لو كان د. بدوي يقصد أن التوسع في الطرح والمشاركة مع «شفاللي» تمًّا في الطبعة الأولى فهذا غير صحيح؛ والصحيح ما ذكرته أعلاه؛ لأن ما ذُكر في مقدمات الأقسام الثلاثة - وكلهم طبعوا في الطبعة الثانية - يبين أن أول طرح لاسم «شفاللي» لم يتم إلا بعد عام ١٨٩٨م في حين كانت الطبعة الأولى في عام ١٨٦٠م. وإن كان يقصد أن التعاون تم في الطبعة الثانية؛ فإن هذا لا يصدق إلا على القسم الأول وحده؛ أما القسم الثاني فهو إنجاز شخصي لـ «شفاللي»، والقسم الثالث ليس لـ «شفاللي» إلا دور يسير فيه. واللذان قاما بإصلاحه إصلاحًا شاملًا هما المستشرقان: «جوتهلف برجشتراسر *Gothelf Bergsträßer*»، و«أوتو بريتسل *Otto Pretzl*» كما سيأتي.

(٢) محل الدراسة في الأجزاء الثلاثة الأولى منها.

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص*X IX*.

- مصطلح النبوة
- نوع النبوغ النبوي لمحمد
- تأثيرات يهودية ومسيحية
- المصادر الكتابية والشفهية
- انتشار فن الكتابة والقراءة في الجزيرة العربية القديمة
- علاقات محمد بزيد بن عمرو وأمية بن أبي الصلت
- المسحة الوثنية في الإسلام
- العنصر الشخصي في التأسيس الديني المحمدي

ب- حول نصوص وحي محمد (٢٠ - ٥٧):

وتحته الموضوعات الآتية:

- أنواع مختلفة لهذا
- حالات التهييج النفسي
- المرشد المزعوم للنبي
- دحية
- أطوال القطع الموحى بها
- أسماء هذه القطع
- الأسلوب
- القافية
- التكرار
- التلاعب بالكلمات

- بناء الفقرات
- التسجيل الكتابي لنصوص الوحي
- الإضافة والتغييرات الأخرى التي كانت من محمد نفسه
- الأحرف السبعة (القراءات)
- النسخ من نصوص الوحي
- أصالة القرآن وعلاقته بنصوص وحي النبي مُسْلِمة

* * *

الثاني: حول أصل أجزاء القرآن المختلفة (٥٨ - نهاية الكتاب ص٢٦١):

وفيه ما يمكن أن نسميه تمهيدًا وعنوانان:

في التمهيد (٥٨ - ٦٥) حديث لنولدكه عن (وسائل مساعدة للتحديد الزمني للسور وقائمة النزول مرتبة حسب الرواية في ذلك).

أما العنوانان فهما:

أ- أجزاء قرآننا الحالي: السور والآيات (٦٦ - ٢٣٤):

وتحته الموضوعات الآتية:

- **السور المكية (٦٦ - ١٦٤):**

ويتناول هنا (التحديد الزمني العام لها، ومضمون هذا القسم وصفاته، وتقسيم «موير» و«جريمه» و«هيرشفيلد» له).

- **سور الطور المكي الأول**، تأمُّل في سور: العلق والمدثر والمسد وقريش. إلخ السور التي يجعلها نولدكه في هذا الطور. ويقول: وبشكل عام فإن بدايات كثير من السور فيها صيغ القسم (٧٤- ١١٧).

- **سور الطور المكي الثاني**، تأمُّل في سور: القمر، والصافات، ونوح والإنسان... إلخ السور التي يجعلها في هذا الطور. ويقول: (وعمومًا فإنها تحوي اسم الإله الرحمن) (١١٧-١٤٣).
- **سور الطور المكي الثالث**، تأمُّل في سور: السجدة، وفصلت، والجاثية والنحل... إلخ السور التي يجعلها نولدكه في هذا الطور (١٤٣-١٦٤).

• **السور المدنية: (١٦٤ - ٢٣٤):**

وبشكل عام فيها الأحوال السياسية والدينية في يثرب قبل الهجرة. ثم يتحدث نولدكه عن: الشعب الوثني والقبائل اليهودية - النجاح المنقطع النظير للدعاية الإسلامية في هذه المدينة - المنافقون - محتوى وأسلوب السور المدنية - تأمُّل في سور: البقرة والبينة والتغابن والجمعة... إلخ السور المدنية.

ب- نصوص الوحي التي لم تذكر في القرآن (٢٣٤ - ٢٦١):

نصوص وترجمات متفرقة - علامات فارقة للتمييز بين الوحي القرآني وغير القرآني.





ثالثًا: أهمية الموضوع

إن هذا الموضوع يستمد أهميته من كونه متعلقًا بكتاب مهم هو (**تاريخ القرآن**) لمؤلف مهم هو «تيودور نولدكه» في مجال معرفي مهم أيضًا هو (الاستشراق). ولنعالج هذه النقاط بالتفصيل:

١ - مكانة المؤلف:

أحسب أنه مما يكسب هذه الدراسة أهمية في مجال الدراسات الإسلامية أنها تتعلق بمستشرق شهير في مجال هذه الدراسات في الغرب.

يقول المستشرق الألماني «إينو ليتمان» (١٨٧٥ - ١٩٥٨م)[١] عنه: (لقد طبعت مكانتُه العلمية وقوةُ نفوذه حقل الاستشراق بكامله خلال السبعين عامًا الأخيرة بطابع شخصيته، ولولاه لما أمكن أي تطور لهذا العلم)[٢].

ووصفه المستشرق الألماني «يوهان فيُك» *Johan Fück* (١٨٩٤ - ؟)[٣] بالذكاء الحاد والفكر الثاقب والذاكرة القوية التي أتاحت له أن يسلك طريقه في مجالات عديدة؛ فهو لغوي ومؤلف ومترجم ونحوي وناقد. كما قال عنه: إنه يمكن وصفه بأنه أعظم المستشرقين الألمان في عصره *bedeutendste deutsche Orientalist seiner Zeit*)، ووصف[٤] منهجه بالتدبر الحكيم الذي (جعل أبحاثه من الوجهة المنهجية نموذجًا

(١) أستاذ اللغات الشرقية في جامعة «تيبنجن»، كما درَّس في الجامعة المصرية عند إنشائها وشارك في تحرير دائرة المعارف الإسلامية وانتخب عضوًا في مجمع اللغة العربية بمصر، راجع: نجيب العقيقي، المستشرقون ج٢ ص٤٣٨-٤٤٠.

(٢) عن صلاح الدين المنجد: المستشرقون الألمان ١١٥.

(3) *Johan Fück: Die arabischen Studien in Europa, s. 217*

(4) *Ibidem , s.220*

يُحتذى. وعندما تصبح المعارف ووجهات النظر المكتسبة بهذه الطريقة مشاعًا للعلم بالشرق فإنها ستجد المزيد من المعجبين).

ووصفه «جولدتسيهر»[1] بأنه (زعيمنا الأكبر).

وقال «كارل بروكلمان»: (كان نولدكه على رأس مدرسة الاستشراق الألمانية بـ «اشتراسبورج» وطبع حركة الاستشراق سبعين سنة بشخصه)[2].

وقال عنه المستشرق الألماني «رودي بارت»[3] (صاحب أشهر ترجمة لمعاني القرآن في ألمانيا) وكان قد زاره في صيف عام ١٩٣٠م - أي في السنة التي مات فيها - في مدينة *Karksruhe* «كارلسروهه»: (تيودور نولدكه أستاذ الاستشراق الجليل الذي حظي باحترام عالمي في مادته.. كان نولدكه آنذاك في الرابعة والتسعين يعاني طبعًا من طائفة من العلل الجسمانية ولكنه كان من الناحية العقلية نشيطًا يقظًا على نحو يثير الدهشة وكان يضمر وراء كل كلمة من كلماته ذلك الضرب من صفاء الفكر الإنساني.. لقد أحسست في هذا اللقاء كأني واحد من طلاب العلم خرج طلبًا للعلم ليؤدي فروض الاحترام لشيخ ذائع الصيت وليتصل عن طريقه بتقاليد العلم وتراثه صلة مباشرة شخصية)[4]، وقال عنه كذلك: (لقد أسهم في النحو العربي بدراسات قيمة)[5].

وإذا كانت هذه مكانة نولدكه بين زملائه وتلامذته من المستشرقين؛ فقد تمتع بمكانة

(١) مذاهب التفسير الإسلامي. ترجمة د. عبد الحليم النجار ص ٧.

(٢) في مقالة له بالألمانية بعنوان:
Die morgenlandischen Studien in Deutschland , Band 76/77 , 1922/1923.
عن عمر لطفي العالم: المستشرقون والقرآن ٢٦ هامش ١.

(٣) «رودي بارت» أستاذ جامعة تُيبنجن، صنف في العلوم العربية والإسلامية عشرات الدراسات والكتب منها ترجمته للقرآن التي عكف عليها عشرات السنين وانتهى منها عام ١٩٦٦م وكتابه: *Mohammed und der Koran* محمد والقرآن، الذي طبع في ألمانيا أكثر من ست طبعات.

(٤) رودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ترجمة د. مصطفى ماهر ص٧.

(٥) رودي بارت: مرجع سابق ص ٥٨.

طيبة وسمعة حسنة بين العلماء العرب فقد أثنى عليه الشيخ أمين الخولي[١]، والدكتور محمد حسين الصغير[٢].. وقال عنه د. عبد الرحمن بدوي[٣]: (يعد نولدكه شيخ المستشرقين الألمان غير مدافع، وقد أتاح له نشاطه الدائب وألمعية ذهنه واطلاعه الواسع على الآداب اليونانية... أن يظفر بهذه المكانة ليس فقط بين المستشرقين الألمان بل بين المستشرقين جميعا).

٢- أهمية الكتاب:

أ- في الدوائر الاستشراقية:

إن كتاب نولدكه: (**تاريخ القرآن**) يندر أن تجد في الغرب باحثًا متخصصًا في مجال الدراسات الإسلامية لا يرجع إليه، ولأهميته نال جائزة فرنسية كبرى عام ١٨٥٨م كأفضل كتاب ألف في أوروبا - في حينه - عن كتاب مقدس. ولأهميته كذلك؛ فإن ثلاثة من العلماء الألمان قد عملوا على تحقيقه ومعالجته ونشره؛ هم: «شفاللي»، و«برجشتراسر»، و«بريتسل» كما مر.

ولنذكر الآن بعض آراء المستشرقين فيه:

يصف المستشرق المجري «جولدتسيهر»[٤] كتاب **تاريخ القرآن** بأنه (كتاب أصيل بكر).

ويقول عنه المستشرق البريطاني سير «آرثر جفري»[٥]: (إنه أساس كل بحث في علوم القرآن في أوروبا).

ويقول عنه المستشرق الألماني «رودي بارت»[٦]: (لقد أصبح كتاب

(١) ضمن مادة تفسير في دائرة المعارف الإسلامية.
(٢) المستشرقون والدراسات القرآنية ص٨٨.
(٣) موسوعة المستشرقين ص ٤١٧.
(٤) **مذاهب التفسير الإسلامي** ترجمة د. عبد الحليم النجار ص٧.
(٥) في مقدمة كتاب: المصاحف، لأبي داود ص٤.
(٦) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ترجمة د. مصطفى ماهر ص ٢٧.

«**تاريخ القرآن**» منذ زمن طويل كتابًا أساسيًّا من كتب هذا الفرع من التخصص، ولا يحتاج لتبجيل أو تكريم أكثر من هذا.. وعلى من يريد الاشتغال علميًّا بالقرآن على أي نحو أن يعتمد على كتاب نولدكه «**تاريخ القرآن**» ذلك الكتاب الذي سيظل حافظًا لقيمته على مر الأيام).

وقال عنه المستشرق الألماني «جوستاف بفانموللر» *GustafPfannmüller*(١):
(وأما كتاب نولدكه: **تاريخ القرآن** فإنه يفي بكل متطلبات العلم. إنه كتاب عظيم القيمة لكل الذين يدرسون الإسلام ولكنه بالنسبة لغير المستشرقين كتاب شاق الاستعمال).

ويقول عنه المستشرق الألماني «يوهان فُيك» *Johan Fück* (١٨٩٤)(٢):
(لقد أحدث الكتاب هزة مدوية *epochemachend*؛ حيث عولجت [فيه] بذكاء مسألة نشأة الكتاب وجمعه وروايته. ولقد أسست المناقشة النقدية فيه للترتيب الزمني لسور القرآن قاعدة راسخة لكل البحوث التاريخية حول القرآن).

وقال عنه المستشرق الألماني «فريدريش شفاللي»(٣): (إنه يعد في المحيط العلمي من أُمَّات الكتب).

ب- أهمية الكتاب لدى بعض باحثينا:

على الرغم من أهمية هذا الكتاب؛ فقد كانت صلة معظم الباحثين العرب والمسلمين به تتم من خلال دراسات المستعربين باللغتين الإنجليزية والفرنسية(٤)؛ حيث نقل هؤلاء وعلى وجه الخصوص: بلاشير في كتابه:

---

(١) موجز في أدب علوم الإسلام *Handbuch der Islamliteratur* نقلا عن أد. محمود حمدي زقزوق: الإسلام في تصورات الغرب ٩٤.

(2) Johan Fück: Die arabischen Studien in Europa, s 217 - 218.

(٣) نفس الموضع ص *VII*.

(٤) لقد كان هذا هو الحال عند كتابتي لهذه الدراسة. لكن قبل نشرها وفي أثناء كتابة مقدمتي =

مدخل إلى القرآن *Introduction au Coran* فقرات منه.

وصادف أن الفقرات التي نقلها بلاشير لا تتعلق بشكل مباشر بآراء نولدكه بشأن الوحي إلى محمد ﷺ ونبوته وأصل القرآن والمصدر الإلهي للإسلام وغير ذلك من مسائل العقيدة؛ وإنما تتعلق برأي أو ترجيح في مسألة من المسائل الفنية المتعلقة بعلوم القرآن كمكية موضع قرآني أو مدنيته، وسبب نزول آية أو ترتيب زمني للقرآن.

ونتيجة لذلك وتأثرًا بالأحكام الاستشراقية سالفة الذكر بشأنه؛ فقد أغرى الإعجاب الاستشراقي بالكتاب بعض الباحثين المسلمين والعرب بأن يثنوا على الكتاب بشكل مطلق.

فلقد عد الدكتور أحمد سمايلوفيتش[1] كتاب: (تاريخ القرآن) لنولدكه (واحدًا من البحوث القيمة التي كانت بمثابة تحول عظيم في تصحيح مفاهيم الغرب عن الإسلام والعرب، ويعد بحق أدق ما أنتجه الغرب في هذا الميدان حتى الآن؛ إذ بحث صاحبه فيه بتضلع وعمق، وحاول أن يكون موضوعيًّا بقدر الإمكان. وقد تناول البحث حقيقة الوحي والنبوة وما بينهما من علاقة، ثم شخصية الرسول ﷺ وأسباب نزول الآيات).

وعلى الرغم من أن الدكتور صلاح الدين المنجد وصف[2] بعض آراء نولدكه بشأن القرآن بأنها خاطئة تمامًا إلا أنه قال عن كتاب **(تاريخ القرآن)**:

= للنشر علمتُ أن مؤسسة «كونراد – أدناور» الألمانية رعت ترجمة عربية كاملة لهذا الكتاب، وقام بالترجمة: د. چورچ تامر وعبلة معلوف تامر و د.خير الدين عبد الهادي و د.نقولا أبو مراد. ونشرتها دار: «چورج ألمز» في: هيلدسهايم و«زوريخ» و«نيويورك» عام ٢٠٠٤م (أي بعد بداية عملي في هذه الدراسة بثماني سنوات تقريبا، وبعد مناقشتها بعام). وأسعى للحصول على نسخة من هذه الترجمة، لكن يبدو أن قرارات المنع التي صدرت بشأنها ستؤخر ذلك قليلًا.

(١) في كتابه: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، ص٢٠٥، ٢٠٦.

(٢) الاستشراق الألماني في ماضيه ومستقبله، ضمن: (حوار بين الألمان والعرب)، إعداد د. مصطفى ماهر ٨١.

(هو أول مؤلفات «نولدكه» العظيمة الكثيرة، وبه دل على طريق البحث العلمي الصحيح في الدراسات القرآنية، وأظهر هذا الكتاب مبكرًا جميع خصائص نولدكه في البحث: معرفة شاملة على أساس بحث أمين في جميع التفاصيل، وحكم واضح دقيق يرد كل ما هو مشكوك فيه ويرفض ما لا يقبل الاحتمال)[(١)].

كما وصف الدكتور عمر فروخ[(٢)] كتابات نولدكه بشكل مطلق بأنها (يصعب أن يكون فيها تشويه وأن يقصد بها ضرر مباشر) وقدم وصفا جزئيًا عن كتاب **تاريخ القرآن** تحديدًا فقال: (هو كتاب يحاول فيه نولدكه أن يرد سور القرآن وآيات تلك السور إلى ترتيبها التاريخي بحسب نزولها.. وجمع هذا الموضوع في كتاب واحد منسق).

كما أن الدكتور سامي الصقار[(٣)] أشار إلى رسالة نولدكه للدكتوراه (حول نشأة وتركيب السور القرآنية) التي تمثل البدايات الأولى لكتابه (**تاريخ القرآن**) مكتفيًا بما نقله عن نجيب العقيقي من أنها (كانت من الإتقان لدرجة أنها حازت على جائزة مجمع الآداب في باريس عام ١٨٥٨م وقد وسعها ونشرها في عام ١٨٦٠م).

من هنا أيضًا تأتي أهمية هذه الدراسات التي هي إلى جانب كونها بفضل الله أولى الدراسات العربية عن هذا الكتاب المهم؛ فهي أيضًا ستحاول أن تسهم في تقييم موضوعي لكتاب نولدكه: (**تاريخ القرآن**) بعيدًا عن الافتتان بالحضور الطاغي لشخصيته أو الأحكام المطلقة التي قوبل بها كتابه[(٤)].

---

(١) صلاح الدين المنجد: المستشرقون الألمان ١١٦.

(٢) الاستشراق ما له وما عليه، مقال بمجلة المنهل العدد ٤٧١ عدد خاص عن الاستشراق، مايو ١٩٨٩م، ص ١٨.

(٣) دور المستشرقين في خدمة التراث الإسلامي، مقال بمجلة المنهل العدد ٤٧١ عدد خاص عن الاستشراق مايو ١٩٨٩م، ص ١٥٣.

(٤) رغم أن مقدمات البحوث تكتب غالبًا بعد الانتهاء منها، أي بعد أن تتشكل رؤى الباحثين =

ج- نقد نولدكه لكتابه:

مما يشي بأهمية موضوعنا، ويغري بتحمل صعوباته أن نولدكه ذاته قد نقد كتابه وأشار لبعض سلبياته. فمن خلال قراءتي لمقدمة نولدكه للقسم الأول لكتاب (**تاريخ القرآن**) أستخلص الآتي:

لقد نشر نولدكه كتابه (**تاريخ القرآن**) كطبعة أولى باللغة الألمانية سنة ١٨٦٠م، وعرض عليه الناشر عام ١٨٩٨م أن يعيد نشره باللغة الألمانية كطبعة ثانية؛ لكن نولدكه رفض لأسباب عديدة لم يذكرها، واقترح أن ينهض بهذا تلميذه «شفاللي»؛ قال[١]: (لقد فاجأني السيد الناشر في سنة ١٨٩٨م بسؤالي عما إذا كنت مستعدًّا لتقديم الطبعة الثانية من كتابي «تاريخ القرآن» أم أَقْترحُ عليه عالِما يمكنه معالجته معالجة جديدة. ولأسباب عديدة تمنعني من تقديم هذا العمل بشكل مُرْض؛ فإني اقترحت بعد برهة تلميذي القديم وصديقي الأستاذ «فريدريش شفاللي» *F. Schwally*، وقد وافق)[٢].

= وانطباعاتهم ونتائجهم؛ إلا أني أحسب أنه ليس من الصواب أن أعلن عن رأيي في هذه المبالغات بشأن كتاب نولدكه هنا؛ إذ أن القارئ لم يشاركني بعدُ في هذه الآراء والنتائج ولم تتشكل له رؤية إزاءها؛ لذا أترك له تشكيل رأيه أولا بعد فراغه من قراءة هذه الدراسة.

(١) مقدمة القسم الأول من تاريخ القرآن بالألمانية الطبعة الثانية ص*V*.

(٢) يقول الأستاذ عمر لطفي العالم (المستشرقون والقرآن ص٧، ومقال له بمجلة: رسالة الجهاد، الليبية، العدد ٨٨ السنة ٩ مايو٩٠) في معرض حديثه عن ندم وحرقة نولدكه بشأن دراساته: (يؤكد ذلك تصريحه للمستشرِقَيْن «بريتزيل» و«شفاللي» اللذين أرادا الحصول على إذن منه بإعادة طبع كتابه طائر الذكر: تاريخ القرآن؛ فاعتذر، وعبر بأسلوب ملتو عن عدم رضاه عن كتابه المذكور؛ لأنه لم يزل في حيرة من شخصية الرسول ﷺ). ولقد نقلت عبارته كما هي في مرجعيه المذكورين، وفيها عدم دقة تاريخية؛ فـ«شفاللي» و«بريتزيل» لم يطلبا من نولدكه إعادة طبع (تاريخ القرآن)؛ بل الجهة التي طلبت هي دار النشر. ونولدكه هو الذي اقترح اسم «شفاللي» كمعالج للكتاب في طبعته الثانية. أما «أوتو بريتزل» فأول علاقة له بكتاب تاريخ القرآن في طبعته الثانية كانت بالقسم الثالث منه حيث نشره مع «برجشتراسر» سنة ١٩٣٧م =

إننا نلاحظ هنا أن نولدكه كان في الثانية والستين من عمره عندما رفض أن يتولى بنفسه إخراج طبعة ثانية من كتابه (**تاريخ القرآن**). فهل كان رفضه لأسباب صحية؟

أكاد أجزم أن هذه الأسباب لم يكن لها أدنى دخل في رفضه؛ لأنها لو كانت هي السبب لما أخفاها. كما أن رفض نولدكه كان في عام ١٨٩٨م؛ وقد ظل مباشرًا عمله في «اشتراسبورج» حتى العام ١٩٢٠م، واستمر بعد رفضه هذا في تأليف كثير من الأعمال المهمة حتى عام ١٩١١م كما وضحنا في التعريف به. فهذا الاحتمال ضعيف.

وإذا لم يكن رفض نولدكه تم لأسباب صحية؛ فهل يمكن أن يكون السبب هو اطمئنانه لتواجد الكتاب في سوق الكتب وكونه متاحًا بيسر لمن يريد أن يقتنيه بشكل يغني عن إعادة طبعه؟

إن هذا الاحتمال هو الآخر غير قوي؛ لأن عَرْضَ الناشر عليه إعادة الطبع كان في سنة ١٨٩٨م، أي بعد ثمان وثلاثين سنة من تاريخ الطبعة الأولى، وهذه مدة كافية تمامًا لنفاذ أي كتاب - لم يُعد طبعه - من الأسواق. كما أن مؤشر التوافر في السوق هو الناشر الذي لن يُغامر بأمواله في نشر طبعة ثانية إذا كانت الطبعة الأولى مازالت تغمر السوق، وقد طلب بنفسه إعادة الطبع. كما أن «شفاللي» حين تولى أمر إخراج الطبعة الثانية بعد رفض نولدكه استعان بنسخة نولدكه و«جولدتسيهر» من الطبعة الأولى؛ ولو كانت الطبعة الأولى ما زالت متاحة في الأسواق لما لجأ لهذا. فهذا الاحتمال هو الآخرغير مقبول.

= أي بعد وفاة نولدكه بسبع سنوات!!. وبناء على هذا فإن نولدكه لم يصرح بشيء مما ذكره الأستاذ عمر لطفي العَالِم لـ «شفاللي» أو «أوتو بريتزل». كما لم أجد في أسباب امتناع نولدكه عن مباشرة العمل في نشر كتابه بنفسه - عندما طلب منه الناشر - سوى ما نقلته عنه أعلاه وليس فيه (حيرته من شخصية الرسول) كما ذكر الأستاذ عمر لطفي العَالِم دون أن يحيل إلى مرجع.

إذن لا مناص من الاعتراف بأن نولدكه لم يكن راضيًا عن كتابه (تاريخ القرآن). وإذا كنا قد وصلنا لهذه النتيجة عبر الاستنتاج؛ فإن كلام نولدكه في تقدمته للقسم الأول بمعالجة «شفاللي» يؤكد هذه النتيجة.

ففيها يتضح أن نولدكه كان يأمل أن يتفادى «شفاللي» - بإشرافه على الطبعة الجديدة ومعالجته لها - السلبيات الفكرية التي كانت في الطبعة الأولى. لكن بعد أن انتهى «شفاللي» من معالجة الطبعة الثانية من القسم الأول من كتاب نولدكه في أغسطس ١٩٠٩م كتب نولدكه مقدِّمًا لها؛ فاعترف أن السلبيات الفكرية ما زالت على حالها؛ فالتهور في الأحكام ما زال موجودًا، وكثير مما كان يجزم نولدكه بصحته في الكتاب؛ ظهر له فيما بعد أن صحته غير مؤكدة؛ قال[1]: (لقد جعل «شفاللي» هذا الكتاب الذي كتبته بتعجل قبل نصف قرن(٢) متناسبًا بقدر الإمكان مع المقتضيات [العلمية] المعاصرة. وأقول: بقدر الإمكان؛ لأن آثار تهور الشباب *jugendlichen Keckheit* لم تُمحَ بالكامل؛ وإلا لنشأ عمل جديد. إن كثيرًا من المسائل التي اعتقدت وقتئذ[3] صحتها - بكثير الجزم أو قليله - بدت لي فيما بعد غير مؤكدة الصحة).

كما أن نولدكه قد سئل وقد شارف على التسعين إن كان قد شعر بالندم؟ فقال: (إذا كان من ندم فلأنني درست علومًا لم أظفر منها في النهاية بنتائج حاسمة قاطعة)[4].

(١) مقدمة القسم الأول من تاريخ القرآن بالألمانية الطبعة الثانية ص *V*.

(٢) كتب نولدكه ذلك بعد انتهاء «شفاللي» من معالجة القسم الأول وعند طبعه سنة ١٩٠٩، وكانت الطبعة الأولى عام ١٨٦٠م.

(٣) أي: وقت تأليفه الكتاب.

(٤) ضمن مقالة للمستشرق الألماني «سنوك هورجرونيه» *Snouck Hurgronje* في مجلة جمعية المستشرقين الألمان في الذكرى الأولى لوفاة نولدكه عن: عمر لطفي العالم: المستشرقون والقرآن ص ٧.

وأقول هنا: إن نولدكه حصل بسبب هذا الكتاب على جائزة كبرى كما رأينا، وكان الكتاب سببًا رئيسًا في تبوئه المكانة الرفيعة التي نالها بين المستشرقين وغيرهم. ولا يأنف أن يصدر منه هذا الاعتراف دون أن يأبه لعواقبه.

وهذا الاعتراف من نولدكه؛ وإن كان يرفع من قدره كعالم متواضع[(١)] لا يشغله جهل غيره به عن علمه بنفسه؛ إلا أنه كان من المفروض أن يبرر إعادة النظر من قِبل باحثي الدراسات الإسلامية في كثير من النتائج التي توصل إليها الكتاب، لاسيما أن مؤلفه لم يحدد ما هي المسائل التي رأى فيما بعد أن نتائجها كانت تَهَوُّرًا، أو التي ظهر له فيما بعد أن صحتها غير مؤكدة.

ولأن هذا الكتاب كان وما زال يحتل مكانة كبيرة لدى باحثي الدراسات الإسلامية كما بيَّنَّا؛ فقد كان واجبًا على الباحثين في هذا المجال - خاصة الألمان - أن يعيدوا قراءته من جديد بشكل نقدي؛ يدفعهم لذلك تحقيق رغبة أستاذهم على أقل تقدير.

لكن لم يقم أحد منهم بهذا في عمل مستقل حتى الآن، لدرجة أن المستشرق الألماني الدكتور تيلمان ناجل *Tilman Nagel* قد أشار إلى أن هذه الدراسات ستفيد الاستشراق الألماني في كشف الأسس التي نظر بها نولدكه إلى موضوع بحثه في كتابه (تاريخ القرآن)[(٢)].

ولأكون أمينا مع نفسي كما علمني الإسلام؛ فإني أُبَيِّنُ أني أفعل ذلك في المقام الأول بهدف النقاش الهادئ والموضوعي للقضايا التي أثارها

(١) قال يوهان فُيُك *Johan Fück* عنه: عرف «نولدكه» الفن الرفيع في التواضع *Nichtwissens* وهو شيء غير متوافر بكثرة في معظم العلماء.
Johan Fück: Die arabischen Studien in Europa, s. 217

(٢) في تقرير علمي مودع بالملف العلمي لمؤلف هذه الدراسة بكلية أصول الدين بطنطا. راجع ص١٥ من هذا الجزء.

نولدكه في كتابه (تاريخ القرآن) بشأن العقيدة الإسلامية، ولا أدري إن كان في ذلك تحقيق لرغبة نولدكه أوْ لا؛ إذ الوحيد القادر على أن يقرر هو نولدكه نفسه؛ لكن الموت حالَ بينه وبين أي قرار كما حال من قبلُ بينه وبين أي تصحيح، وقد قطع اختلاف الدارين كل سبيل إلى وصول جواب منه. لكني آمل أن يقف على عملي المتواضع هذا من كان قرأ كتاب نولدكه؛ فعسى أن يعينه بوجه ما على الوصول للحق داعيًا الله أن يجنبنا الزلل.

٣- أهمية متعلقة بالإنتاج الاستشراقي ذاته:

أ- يستمد هذا الموضوع أهميته كذلك من أهمية المجال الذي يتعلق به وهو الاستشراق الذي ترجع أهميته إلى عدة جوانب منها:

الجانب الأول: أن الاستشراق هو أحد أهم منشئي الأفكار الغربية عن الإسلام والحضارة الإسلامية، ولنضرب مثلا على ما أقول: «لقد نُشرت على نطاق واسع في أوروبا الحكاية الأسطورية أن محمدًا درب الحمامة لتلتقط حبات القمح من أذنه وبذلك أَقنعَ العربَ أن تلك الحمامة هي رسول الروح القدس الذي كان يُبَلِّغُهُ الوحيَ الإلهي، ولقد بلغ تأثير هذه الحكاية أن شاعرًا إنجليزيًّا في القرن الخامس عشر هو «جون ليدهيت» وضع سيرة لحياة محمد تحدث عن الحمامة المذكورة ولم ينس أن يقول: إن لونها كان حليبيًّا أبيض»[1].

وبلغ من تأثير تلك الأضحوكة كذلك أنها وردت على لسان أحد أبطال رواية «شكسبير»: (هنري الرابع، في الفصل الأول، المشهد الثاني) هو الملك «كارل» الثاني، الذي يخاطب «جان دارك» ساخرًا: ألم تلهم

(1) *Ph. Hitti. Islam and the West, P.50.*

نقلًا عن أليكسي جورافسكي: الإسلام والمسيحية، ترجمة د. خلف محمد الجراد، راجَع المادة العلمية أ.د. محمود حمدي زقزوق ص٧٥.

الحمامة محمدًا؟ أما أنت فإن النسر ربما ألهمك[1])!

وإذا كان هذا هو صدى هذه الحكاية وأمثالها؛ فإن الصدى سيكون أوسع لادعاءاتٍ تخرج من أوساط علمية ذات مستوى أكاديمي. ومن هذا القبيل ما سيأتي تفصيله من تفسير نولدكه وحي الله لمحمد على أنه صوت داخلي ظنه محمد ﷺ وحيًا، يقول[2]: (إن محمدًا عَدّ كل ما يتحرك بداخله شيئًا خارجيًا مرسلًا له من السماء، ولم يختبر أبدًا هذا الإيمان؛ بل انقاد للشعور الغريزي *Instinkt*، الذي قاده مرة إلى هنا ومرة إلى هناك؛ إذ إنه كان يعتبر هذا الشعور الداخلي صوت الله الذي قُدِرَ له بشكل خاص).

فلقد كان لهذا القول انعكاساته على المثقفين الغربيين؛ حيث قال ويلز في كتابه **معالم تاريخ الإنسانية**[3]: إن (محمدًا لم يكن دجّالًا بأية حال وإن كان اعتداده بنفسه يدعوه في بعض الأحيان أن يتصرف كأنما كان الله رهْن إشارته وكأنما كانت أفكاره أفكار الله).

فإذا قارنَّا كلام ويلز هنا بما قاله نولدكه أدركنا مدى انعكاس أفكار كبار المستشرقين بشأن الإسلام على مؤرخي الغرب وكُتَّابه ومثقفيه الذين لا يتمكنون - بسبب عجز لغوي - من التعرف المباشر على الإسلام عبر نصوصه ومصادره الأصلية؛ فلا يبقى لهم من ثَمَّ إلا الولوج إليه عبر البوابة الاستشراقية.

إن المستشرق في موضوعه - كما يقول الشيخ محمود محمد شاكر[4] - (مأمون عند كل أوروبي من أول طبقة الرهبان والساسة إلى آخر رجل من جماهير الناس، مأمون على ما يقوله، مُصدَّق فيما يقوله في أمور لا سبيل

(١) أليكسي جورافسكي: نفس المرجع ص٧٦.
(٢) سيأتي قوله.
(٣) ترجمة عبد العزيز جاويد ج٣ ص٨٠٠.
(٤) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص ٥٧.

لأحد منهم إلى معرفتها لأنها تتعلق بأقوام لسانهم غير لسانهم ولا يقوم بها إلا دارس صابر ذو معرفة بهذا اللسان الغريب).

وهذا يلقي بتبعة أخلاقية في المقام الأول على المستشرقين؛ عليهم أن يقدروها حق قدرها؛ وذلك لأن الثقة التي يوليها المتلقي الغربي لأبحاث المستشرق هي ثقة بلا حدود لأنها (يسَّرت له - ما لم يكن يتيسر البتة - أن يعرف أشياء كثيرة متنوعة في صورة واضحة مُصَوَّرَةٍ بمهارة ومصنوعة بأسلوب مقنع مقبول لا يرفضه عقله، بل لعله يرتضيه كل الرضا.. فهو - أي المتلقي الغربي - غير حريص على التحقق من صحة التفاصيل التي تكونت منها الصورة؛ ولا هو قادر على التشكك في سلامتها من الآفات، ولا يخطر بباله أن يسأل نفسه: أهي صادقة أم كاذبة؟ أهي مطابقة للحقيقة أم غير مطابقة للحقيقة؟).

فإذا كان جزء من الصورة التي يقدمها الاستشراق عن الشرق - والإسلام في قلبه - شائهًا منقوصًا؛ فإننا نصبح بالضرورة إزاء مشكل كبير يعبر عنه إدوارد سعيد أصدق تعبير حين يقول[1]: (ليس في وسع إنسان [في الغرب] يكتب عن الشرق أو يفكر فيه أو يمارس فعلًا متعلقًا به أن يقوم بذلك دون أن يأخذ بعين الاعتبار الحدود المُعَوِّقَةَ التي فرضها الاستشراق على الفكر والفعل. وبكلمات أخرى فإن الشرق بسبب الاستشراق لم يكن موضوعا حرًّا للفكر أو للفعل).

فإني آمل أن تسهم دراساتي هذه لدى من يقرؤها من المعاصرين من المستشرقين في أن يُخْرِجوا أنفسهم من هذه الزاوية التي وضع فيها الاستشراق نفسه عبر تاريخه الطويل وأن يرفعوا تلك المعوقات التي وضعها سلفهم في سبيل فهم جيد للشرق بِمُكَوِّنه الرئيس: الإسلام؛ حتى يسهل على قومهم الوصول للمعرفة الحقيقية بالشرق والإسلام وهم إن

(١) الاستشراق ٣٩.

فعلوا؛ فقد أدوا أمانة العلم وكانوا أهلًا للثقة التي حباهم بها مواطنوهم ومجتمعهم.

الجانب الثاني: أن الاستشراق ما عاد محدود الأثر ببيئته التي نشأ فيها؛ بل تعدى أثره لبيئتنا العربية والإسلامية؛ فلقد فرّخت أفكاره فيها عبر التلقي والتلمذة المباشرة، أو عبر الترجمة؛ فقلَّ ألا تسمع فكرة مارقة عن الإسلام في الغرب دون أن يكون لها صدى يتراوح مداه بين الخفوت والإعلان في بلادنا. وشجع على ذلك ملابسات كثيرة ليس هذا مكان تفصيلها[1] «فلقد ذهبت الأيام التي كان يكتب فيها المستشرقون غالب كتاباتهم ليقرأها مستشرقون مثلهم. ونحن ننحي جانبًا الدراسات الفرعية المتخصصة لنجد معظم الإنتاج الحاضر يقرؤه ويقدره أعداد ضخمة من الباحثين والمثقفين واسعي الأفق في الغرب ومن هؤلاء أعداد قد تكون أكبر في العالم الإسلامي)[2].

يقول الشيخ محمود محمد شاكر[3] عن المسلمين والاستشراق: (هم يتدارسون ما يلقيه إليهم على أنه علم يتزوده المعلم، وثقافة تتشربها النفوس، ونظر تقتفيه العقول، حتى كان كما قال مالك: (إن الأعمال الأدبية لهؤلاء المستشرقين قد بلغت درجة من الإشعاع لا نكاد نتصورها)، وتفصيل أثر هذا الإشعاع في تاريخنا الحديث وفي سياستنا وفي عقائدنا

---

(١) ارجع في هذا إلى الشيخ محمود محمد شاكر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، وأباطيل وأسمار. والدكتور محمد محمد حسين: حصوننا مهددة من داخلها، والاتجاهات الوطنية في الأدب، والإسلام والحضارة الغربية، والدكتور محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي.

(٢) أ. ل. طيباوي: المستشرقون الناطقون بالإنجليزية مقال بمجلة *The Muslim World* عدد يوليو ١٩٦٣م، ونشره د. محمد البهي ضمن كتابه: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص٤٨٤.

(٣) مقدمته لكتاب مالك بن نبي: الظاهرة الاستشراقية ٢١، ٢٢.

وفي كتبنا وفي ديننا وفي أخلاقنا وفي مدارسنا وفي صحافتنا وفي كل أقوالنا وأعمالنا شيء لا يكاد يحيط به أحد).

ولذا يؤكد الدكتور محمود حمدي زقزوق[١] أن حركة الاستشراق (لها آثار كبيرة على قطاعات عريضة من المثقفين في العالم الإسلامي وفي العالم الغربي على السواء ولهذا؛ لابد من التوافر على دراسة الاستشراق دراسة عميقة. وليس يكفي أن نقول: إن ما يكتبونه كلام فارغ؛ فهذا الكلام الفارغ مكتوب بشتى اللغات الحية، ومنتشر انتشارًا واسعًا على مستوى عالمي).

فمن المهم إذن أن تجرى دراسات أكاديمية جادة تعالج الطروحات الاستشراقية في شتى المجالات التي ولجها البحث الاستشراقي، وتأتي إلى ما عسى أن يكون باحث غربي متهور قد أحدثه؛ فتسد الثغرات التي يفتحها، وترتق الخرق الذي يفتقه، وتعيد الصورة التي يشوهها إلى سابق وضاءتها. ولن يكون ذلك ببضعة كلمات إنشائية يكتبها صاحبها كيفما اتفق من أجل المعايشة في سوق الكُتاب؛ بل بأبحاث جادة يقوم بها علماء أكفاء، أو بأبحاث جامعية يقوم بها شباب واعون حسبة لله تحت رعاية علماء أكفاء يساعدونهم في المنهج، ويعينونهم على سلوكه، ويقوِّمون نتاجهم ويجعلونهم أكثر دقة وموضوعية.

وهذا يتوفر معظمه لدراسات (الماجستير) و(الدكتوراه) لذا كانت هذه الدراسات التي أرجو أن تحوز شروط البحث العلمي الجاد. يقول د. حسين مؤنس[٢]: (إن الدنيا لا تحترم كتابًا يكتبه صاحبه وكأنه يتسلى: كلمتان من

---

(١) في مواجهة الاستشراق، مجلة المسلم المعاصر، العددان ٦٥، ٦٦ معًا ص٣٨.

(٢) في دراسة له عن كتاب (مجد الإسلام) لـ «جاستون فييت» نشرت بالملحق الأدبي لأهرام الجمعة، وأعاد د. محمد البهي نشرها ضمن كتابه: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص٤٥٩.

هنا، وكلمتان من هناك، وعنوان.. وهذا هو الكتاب. لكنها تحترم أي مؤلَّف جاد. وليس في الدنيا شيء أدعى للاحترام من العمل الجاد).

٤- هذه الدراسات جزء من الحوار مع المستشرقين:

لا ينبغي أن يماري أحد في أهمية الحوار الديني مع الغرب[١]، وهذا الحوار يتضمن بالضرورة حوارًا مع المستشرقين الذين هم من أهم مكونات الصورة الغربية. وأحسبني في غنى عن بيان أهمية وجدوى مثل هذا الحوار فهي أظهر من أن أطيل في عرضها.

وعن أهمية الحوار مع المستشرقين يرى الدكتور يوسف القرضاوي أن الحوار معهم جزء من الحوار الديني للغرب ومتمم له وهو ضروري لتصحيح الفكرة وتقريب الثقة وتنقية الأجواء وتمهيد الأرض لعلاقات أفضل. وهو حوار ليس مستحيل التحقق إذا صحت عزائم الطرفين وحدد الهدف واتضح الطريق. ويمكن للجامعات والمجامع العلمية ومنتديات الفكر أخذ زمام المبادرة والجمع بين ممثلين للفريقين للبحث في موضوعات معينة ينبغي حسمها في مناخ علمي موضوعي بعيد عن التحيز والاستفزاز[٢].

٥- وقفة مع من يرون عدم أهمية أمثال هذه الدراسات:

لقد اطلعت على رأيين لا يحبذان سلوك طريق الرد على ما يثار حول الإسلام من قبل بعض المستشرقين أو غيرهم.

أول هذين الرأيين يذهب إلى أن هذا الطريق يجعل علماء المسلمين منصرفين إلى هذه المعارك الجانبية التي يفتعلها الاستشراق ليدخلنا في دائرة الدفاع المستمر عن الإسلام الذي حوله الاستشراق إلى متهم بحاجة لمن يدافع عنه.

(١) راجع عن أهمية الحوار مع الغرب الدكتور محمود حمدي زقزوق في حوار أجرته معه جريدة الحياة اللندنية بعنوان: (من الضروري دعم الاتجاه نحو حوار مثمر بين الغرب والإسلام)، العدد ١٣٤٢٦، السبت ٣ رمضان ١٤٢٠هـ - ١١ ديسمبر ١٩٩٩م، ص٢٣.

(٢) جزء من محاضرة للدكتور يوسف القرضاوي بعنوان (مستقبل علاقة الإسلام بالغرب) ألقاها صيف عام ١٩٩٧م بفرنسا. ولَدَيَّ نَصُّها ولا أدري إن كانت قد نشرت.

ويرى هؤلاء أن هذا الجانب نقدي سلبي والأَوْلى منه أن نتجه لبناء معالم الفكر الإسلامي. ويمثل هذا الاتجاه الأستاذ محمد قطب الذي كان قد ألف أولًا كتابه الشهير **(شبهات حول الإسلام)** رد فيه بإجادة وتمكن على بعض ما يثار حول الإسلام، ثم ما لبث أن لام نفسه وراجعها في بعض مؤلفاته على سلوكه هذا الطريق للسبب المذكور قبل قليل.

وأقول بشأن هذا الرأي: إنه من المهم أن نؤكد أننا لا نصدر في هذه الدراسة من منطلق أن الإسلام متهم نحن بصدد الدفاع عنه[(١)]. ومن البديهي أن نشير إلى أنه لم ولن يحدث أن ينشغل علماء وباحثو المسلمين بشكل تام بالرد على المستشرقين وينصرفوا عن الجوانب البنائية الأخرى في الكتابة عن الإسلام، ولا مانع أن يغلب على توجه بعضهم التخصص في هذا الجانب إذا أتقنه وبرز فيه.

ولو أننا لم نناقش الاستشراق في طروحاته أضعنا عليهم فرصة الوصول للصورة الصحيحة التي تأتي عبر الحوار والنقاش والقراءة النقدية لما يكتبون.

وقد أَلَّف الأستاذ محمد قطب نفسه فيما بعد كتابًا للرد على بعض المستشرقين بعنوان: **(المستشرقون والإسلام)**، صدرت طبعته الأولى عام ١٩٩٩م.

وقد يلتمس المانعُ من بعض شبهاتهم القادحة في الإسلام ونبيه مشجعًا على رأيه؛ لكن فاته أن الإسلام دين الله يحفظه ويظهره[(٢)]، ولو كان ذلك مؤثرًا؛ لأثر منذ أن بدأ النبي في تبليغ دعوة ربه، كما أن في التاريخ شواهد كثيرة. ولن يوقف سيرَ دين الله شبهة تقال هنا أو اتهام يقال هناك. ولن يطفئ نورَه عبثُ العابثين وكيد الكائدين الذين ربما يكتشفون في يوم أنهم لم يضروا إلا أنفسهم.

ولو كان الإسلام مما تؤثر به الشبهة، وتَحُدُّ من سيره، وتقلل من مَلْئِه على المسلم

---

(١) ومن ذات الوجهة لَدَيَّ تحفظ على عنوان الكتاب؛ رغم أنه في موضوعه جيد، هذا الكتاب للباحث السوري شوقي أبو خليل، بعنوان: الإسلام في قفص الاتهام.

(٢) ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨]، وراجع: [التوبة: ٣٣] و[الصف: ٩].

عقله وقلبه؛ لما وجدنا في القرآن أدنى أثر لاعتراضات المعترضين؛ ولكان أخفاها ولم يذكرها. لكن من يقرأ القرآن يجد آيات ليست بالقليلة رصدت معظم الشبه التي وُوجِه بها النبي والمسلمون من قِبل كافة الكارهين للحق في عصر البعثة من مشركين ويهود ومنافقين؛ فلا مانع مطلقًا من أن نعالج موضوعًا عالجه القرآن وأن يكون اهتمامنا به على قدر اهتمام القرآن به.

وفي يقيني أننا لن نكون بذلك بعيدين عن التأسي بالقرآن الذي نجد فيه الآتي: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾، ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴾، ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ﴾، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ﴾، ﴿ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴾[1].

فإذا كان الله قد حكى في قرآنه المتعبد بتلاوته طَرَفًا مما قاله هؤلاء؛ فهل نخاف نحن من شبهة تقال مهما كان مصدرها أو حجمها. لا ينبغي لنا إذن أن نمتنع عن مطالعة ما يكتب عنا وعن ديننا خوفا مما قد يثار من شبهات؛ فليس عندنا في الإسلام ما نستحي أن يكشفه المستشرقون أو يشنعوا علينا به؛ ولدى علماء المسلمين بفضل الله تعالى لكل شبهة ردها.

وإذا كان «رودي بارت» يقول عن نقد الدكتور البهي للاستشراق: (أما الرأي المضاد الذي يمثله عالِم الأزهر الدكتور البهي الذي صدر أخيرا باسم: «**المبشرون والمستشرقون**

---

(١) الآيات: ٤، ٥، ٧، ٨ الفرقان، ١٠٣ النحل، ١١ الأحقاف، ١٢ الأحزاب.
وراجع أيضًا الآيات: ٢٥ الأنعام، ٣٢ الفرقان، ٦٧ النمل، ٧، ٤٣ سبأ، ٥١ النساء، ٣٣ الأنعام، ٦١ التوبة، ٩٧ – ٩٩ الحجر، ٤٢ – ٤٤، ٥١ الإسراء، ١٣٠ طه. ١٣ الأحزاب، ٣٦، ١٥١- ١٥٣ الصافات، ٣٩ ق، ٣٠، ٣١، ٣٣، ٣٤ الطور، ٧ المنافقون، ١٠ المزمل.

وموقفهم من الإسلام»[1]. فنحيط به علمًا ونحن هادئو البال)[2]؛ فنحن نقول: ونحن أيضًا أكثر هدوءًا حين نتعامل مع الدراسات الاستشراقية حين تحيد عن الموضوعية.

وثاني هذين الرأيين يذهب إلى أنه من الأفضل أن تنشأ لدينا حركة فكرية مضادة لدراسة الغرب ونقده بدلًا من الرد على ما يثيره مفكروه ومستشرقوه ضدنا؛ فننتقل بذلك من الدفاع إلى الهجوم. ويُذكر هنا كمجال محدد: نقد نصوصهم الدينية؛ فيرى أحد الباحثين[3] أنه إذا كان منهج النقد التاريخي لدى الغرب قد حقق تقدمًا كبيرًا بنقد العهدين القديم والجديد مستفيدًا - دون أن يعترف - بسبق وجهود علماء المسلمين وابتكاراتهم في نفس المجال؛ فإن مجالات مهمة متعلقة بهذا يجب على الباحثين المسلمين الاهتمام بها منها: الوقوف على هذا النقد وتعميق البحث فيه، والتعرف على التعديلات المقصودة وغير المقصودة في الكتاب المقدس التي اكتشفت من خلال مطابقة المخطوطات والترجمات القديمة التي كانت موجودة قبل الإسلام، والتعرف على الدراسات الاستشراقية الحديثة المرتبطة بنقد نصوص العهدين القديم والجديد، والاستفادة في هذا المجال من نتائج الحفريات والآثار التي اكتشفت في العصر الحديث ويرى أن (هذا الأسلوب أفضل من تتبع شبهات المستشرقين والرد عليها).

وأقول هنا: لقد كنت أتصور أن زمن تفضيل مجال بحثي أو علمي عن آخر في الجدوى والإفادة قد وَلَّى بعد أن أصبح تكامل العلوم واتجاهات البحث مبدأ مأخوذًا به بشكل قوي بدلًا من القول بتعارضها.

إن المجال الذي اهتم به الباحث الفاضل مهم لا شك في ذلك لكنه لا يلغي أهمية المجال الذي قلل من أهميته؛ فما زالت تلك الشبهات تجد لها سوقًا رائجة في الغرب،

(١) ألحقه أ. د. محمد البهي بكتابه الشهير الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، مطبعة وهبة، ط١٢، ١٤١١ - ١٩٩١.

(٢) رودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ترجمة د. مصطفى ماهر ص١٠.

(٣) هو الدكتور أحمد محمود هويدي في بحثه: (الدراسات القرآنية في ألمانيا دوافعها وآثارها) عالم الفكر العدد ٢ المجلد ٣١ أكتوبر - ديسمبر ٢٠٠٢م، ص٨٢.

بل انخدع بها بعض باحثينا، ويجدر بكل من تخصص في جانب[1] واستغرق تفكيره وشغل اهتماماته؛ ألا يقلل من أهمية الجوانب الأخرى.

إن استيعاب الإنتاج الاستشراقي - كما يقول الدكتور محمود زقزوق[2] - ودراسته دراسة عميقة هو الخطوة الأولى لنقده نقدًا صحيحًا وإثبات ما يتضمنه من تهافت أو زيف. وهذا يجعل المستشرقين يفكرون ألف مرة قبل أن يكتبوا تحسبًا لما قد يواجههم من نقد علمي يعريهم ويثبت زيف ادعاءاتهم.

ويؤكد هذه الحقيقة المستشرق الفرنسي «مكسيم رودنسون» حين يشير إلى أن هناك طريقًا واحدًا فقط لنقد المستشرقين، وهذا الطريق يسير عبر دراسة تفصيلية لمؤلفاتهم).

***

(١) الباحث يعمل أستاذًا للدراسات اليهودية بكلية الآداب - جامعة القاهرة.

(٢) في مواجهة الاستشراق، مجلة المسلم المعاصر، العددان ٦٥، ٦٦ معًا ص ٣٧.



رابعًا: الدراسات السابقة

١- نولدكه لم يُدرس في عالمنا العربي:

لم يحدث أن تناول باحث موضوع العقيدة الإسلامية عند المستشرق الألماني تيودور نولدكه بدراسة مستقلة متكاملة. كما لم يحدث أن تمت معالجة نقدية لكتاب نولدكه **(تاريخ القرآن)** تتعامل بشكل مباشر مع نص الكتاب بلغته الألمانية التي كتب بها.

ولقد تعرض الدكتور صبحي الصالح[١] لبعض آراء نولدكه التي تعرف عليها من خلال كتاب بلاشير: **المدخل لدراسة القرآن**، حيث قال[٢]: (استعنا بالمدخل إلى دراسة القرآن لـ «بلاشير» في تتبع آراء نولدكه و«شفاللي» كما صنعنا ذلك غالبًا في المؤلفات باللغة الألمانية). فنلاحظ هنا أن ذلك تم - كما قال - من خلال كتاب بلاشير **المدخل إلى دراسة القرآن**.

كما تعرض د. عبد الرزاق بن إسماعيل هرماس[٣] في ما لا يزيد عن خمسة أسطر لما سماه نولدكه: (أخطاء المصحف العثماني)، نقلها عن بعض الكتب التي نقلت عن بلاشير.

٢- لكن هناك دراسات كثيرة ذات صلة منها:

أ- **الرسول في كتابات المستشرقين** لمؤلفه نذير حمدان صادر عن دار المنارة جدة الطبعة الثانية في عام ١٩٨٦م جاءت صفحاته تزيد عن المائتين

(١) مباحث في علوم القرآن صفحات: ١٦٩، ١٧٦، ١٧٧، ٢٤١، ٢٤٢.

(٢) المرجع السابق ص ٣٥٣ هامش١.

(٣) في بحث في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية الصادرة عن مجلس النشر العلمي في جامعة الكويت، عدد ربيع الآخر ١٤٢٠هـ أغسطس ١٩٩٩م.

قليلًا، وعالج في الباب الأول مواقف المستشرقين الإيجابية والمعتدلة، وفي الباب الثاني عالج مواقفهم السلبية والمغرضة، وكما هو واضح فقد قادته مواقف المستشرقين على الجانبين إلى ميادين كثيرة لدى مستشرقين كثيرين أيضًا مما أبعده عن المعالجة العميقة لمعظم القضايا المطروحة.

وهناك دراستان تشتركان في أن كلًّا منهما تناول بالتحليل والنقد كتابًا لمستشرق، الدراستان هما:

ب- **المستشرقون والسيرة النبوية** لمؤلفه الدكتور عماد الدين خليل وهو بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني «مونتجمري وات». نشرت هذه الدراسة لأول مرة ضمن الجزء الأول من مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، ثم أعاد المؤلف نشرها في كتاب لم تتجاوز صفحاته المائة. ويتميز الكتاب بأسلوب رصين ووضوح منهجي وتحليل نقدي موفق.

ولقد ركز على الجذور العميقة التي تقوم عليها أبحاث المستشرقين ويعني بها مناهجهم قائلًا: (إنه لن يعنى بالتفاصيل لأن نقدها كما يقول سيكون بمثابة نقد موقوت يتحرك على السطح ويستهلك نفسه في الجزئيات دون أن يبحث عن الجذور العميقة التي تظل تنبت الشوك والحسك)[١].

لكن لأن السيرة مجال رحب؛ فإنها من هذه الوجهة لا تتيح لمن جعلها حدود بحثه أن يقتصر فيه على جانب العقيدة. لذا فإن هذا الجانب لم يشهد التغطية المناسبة التي حظيت بها الأحداث التاريخية في السيرة، ولعل ذلك بحكم تخصص المؤلف كأستاذ تاريخ[٢].

كما أن الداعي لرؤيته بشأن التركيز في مواجهة الاستشراق على المناهج

(١) عماد الدين خليل: المستشرقون والسيرة النبوية ص ٩.

(٢) ولقد قدم بسبب هذه الحيثية عرضًا رائعًا للسيرة في كتابه: دراسة في السيرة، ط دار الوفاء، المنصورة.

دون التفاصيل والجزئيات هو - كما أرى - مجرد التوافق مع عنوان المجلدين اللذين جاء بحثه لأول مرة في أحدهما. (وكانت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم قد أصدرتهما تحت عنوان: **مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية**)؛ وإلا فهو نفسه قد ناقش الاستشراق في التفاصيل والجزئيات في بعض كتبه الأخرى، بل في البحث المشار إليه.

وفي الحقيقة أن الجمع بين المسلكين أكثر تحقيقًا للهدف وذلك للآتي:

إننا إذا اتفقنا على أن أهداف مناقشتنا للاستشراق هي:

- الوقوف على منهجية البحث الاستشراقي في مصادرنا ومادتنا والنتائج التي انتهى إليها فيه بشأن بعض التفاصيل. وهنا سنفيد بطبيعة الحال الكثير، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها.
- لفت نظر المستشرق إلى ما وقع فيه - هو أو زميله - من أخطاء. وهذا التواصل مطلوب ونسعى إليه وينبغي أن يسعى إليه الباحثون الغربيون أيضًا.
- الوصول من جانب إلى القارئ الأوروبي العادي؛ ومن جانب آخر للقارئ المسلم وقد أصبحا هدفا لرؤيةٍ للإسلام يحاول الاستشراق أن يفرضها عليهما؛ لنبين لهما بالأدلة أن كلمة الاستشراق في الشأن الإسلامي ليست هي الأخيرة.

إذا اتفقنا على هذه الأهداف نصل إلى أن الاقتصار في المناقشة على المناهج دون التفاصيل والجزئيات لن يكون كافيًا لتحقيق كل ما مضى من أهداف، وهو إن حقق بعضها فسيكون بشكل جزئي، كما أنه لن يستطيع تحقيق الباقي. فلا ضير إذن من أن نجمع في مناقشة الاستشراق بين نقد المناهج ونقد التفاصيل.

ج- **منهج «مونتجمري واط» في دراسة نبوة محمد ﷺ**: بحث من أربعين صحيفة للدكتور جعفر شيخ إدريس تناول فيه بالنقد كتاب المستشرق «مونتجمري واط» (**محمد بمكة**)، ونُشر هذا البحث كسابقه ضمن الجزء الأول من: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية المشار إليه من قبل. ولقد ركز المؤلف على أفكار «واط» المتعلقة بوحي الله إلى محمد ﷺ، وهي أفكار يتضمن بعضها دعاوى تتناول بشكل سلبي كيفية تلقي محمد ﷺ وحي الله، ومعنى هذا الوحي، ومصدره. ولقد وضع الدكتور جعفر أفكارَ «واط» في فقرات، ثم ناقشها فقرة فقرة، ثم عقب على ذلك باستخراج منهج «واط» من أفكاره المذكورة.

وتشترك هذه الدراسة مع سابقتها في أنها ذات أسلوب رصين، وتتميز بالوضوح المنهجي والنقدي الموفق؛ لكن اقتصار الدراسة على الأفكار المشار إليها للمستشرق المذكور وحدها، بالإضافة إلى التناول السريع؛ لا يجعلها تغني عن الدراسة التي أقوم بها هنا عن نولدكه.

د- ومن الدراسات التي أشيرُ إليها هنا دراسة الأخ الزميل الدكتور عبد الجليل حسن الديب[1] التي نال بها درجة التخصص (الماجستير) في التفسير وعلوم القرآن في عام ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م وكانت بعنوان: (ترجمة معاني القرآن للمستشرق الإنجليزي «چورچ سيل»[2]، دراسة نقدية لمقدمته وترجمته لمعاني السور من «الفاتحة» إلى آخر «التوبة»)[3].

فقد أجرى المؤلف دراسة نقدية جادة للمقال التمهيدي الذي قدم به «سيل» لترجمته (التي أنجزها في ١٧٣٤م أي قبل وفاته بسنتين ونقل معظمها عن ترجمة «ماراتشي» التي راجت طوال القرن الثالث عشر). ثم تناول

---

(١) الأستاذ المساعد بقسم التفسير بكلية أصول الدين بطنطا.

(٢) (١٦٩٧ - ١٧٣٦).

(٣) نسخة بالآلة الكاتبة بكلية أصول الدين بطنطا.

بالنقد أخطاءه في التفسير للسور التي حددها المؤلف، وهي أخطاء تجعل الرأي القائل: إن سيل منصف للإسلام[1]. محلًّا لإعادة النظر، أو إعادة قراءة ترجمته من جديد. وأرجو لو أكمل المؤلف دراسة الترجمة كلها ثم اختصر ملاحظاته عليها وترجمها للإنجليزية ونشرَها؛ لأن ترجمة سيل رغم أن الزمن - حتى في الغرب - قد تجاوزها؛ إلا أنها ما زالت مرجعًا هناك له قيمته التاريخية، وما زالت بعض أصول الادعاءات التي طرحتها تجد لها سوقًا رائجة.

من هذا نتبين أن المكتبة الإسلامية بحاجة إلى دراسات تحدد كيف نظر نولدكه إلى العقيدة الإسلامية، وتبين إيجابيات وسلبيات تلك النظرة.

* * *

(١) قال د. عبد الرحمن بدوي (موسوعة المستشرقين ٢٥٢): «كان «سيل» منصفًا للإسلام بريئًا رغم تدينه من تعصب المبشرين وأحكامهم السابقة الزائفة.. لأنه كان من أنصار حركة التنوير التي انتشرت في أوروبا في تلك الفترة.



خامسًا: منهجي في الترجمة

لقد كان بالإمكان أن أنقل إلى اللغة العربية بأسلوبي الأفكار الواردة في نص نولدكه الألماني أو مضمونه، وهو أمر يسير؛ لأنه لا يحتاج إلى الوقوف طويلًا عند تفاصيل بِنْيَة جُمل نولدكه الطويلة، كما لا يحتاج إلى بحث كافة خيارات وبدائل المقابل العربي للكلمة الألمانية بل يكتفي بما يفيد المعنى بشكل إجمالي.

ولهذا المنهج ميزته وعيبه:

أما ميزته: فهي أنه يساعد على الانتهاء والإنجاز بشكل أسرع خاصة أنني لن أُخرج - الآن على الأقل - الكتاب مترجمًا إلى العربية بشكل كامل. كما أنه يجعل النص بعد الترجمة قريبًا إلى الأسلوب الذي درج عليه القارئ العربي لأن الذي نُقل إليه هو مضمون النص الألماني في قالبٍ تعبيري وجمل ذات بنية عربية مألوفة لديه.

لكن عيبه: أنه قد يسهم بشكلٍ غير مقصود في أن أفرض فهمي على نص نولدكه أو أن أتسرع فأفهم نصًّا له في ضوء انطباعي عن نص سابق له أيضًا.

لكني اخترت منهجًا آخر حيث حاولت بقدر الإمكان أن أراعي أقصى ما يمكن من الأمانة في نقل جملة نولدكه الألمانية إلى الحرف العربي ملتزمًا إلى حد كبير أن أترجم كل كلمة في الجملة وأن أحافظ على بنيتها وأن أضع في الغالب الجمل البينية والمعترضة مكانها كما هي في السياق الأصلي من أجل أن أنقل كل ما أراد نولدكه أن يقوله من غير اجتزاء من نصه أو تزيد عليه. محاولًا في ذات الوقت أن أجعل الترجمة في أسلوب يألفه القارئ العربي. وأترك الحكم على أفضلية هذا المنهج للقارئ الذي يسهل لديه الاطلاع على نص نولدكه بلغته الألمانية.

سادسًا: طريقة عرض نص نولدكه

لقد جعلت كلام نولدكه مسبوقًا بما يدل على نسبته إليه نحو: "قال" أو "يقول نولدكه"، أو "يرى" أو "في رأي نولدكه أن". مع الإحالة إلى موضع قوله في كتابه موضوعًا بين مزدوجين أو علامتي تنصيص هكذا: " ". وإذا أضفت إلى كلامه عبارة أو كلمة تفسيرية فإني أضعها بين قوسين معقوفين اصطُلح في الغالب على استخدامهما لحصر كلام الكاتب الذي يورده عند نقله كلام غيره على هذا النحو []. وفي كثير من الأحيان كنت أورد نص كلامه أولًا باللغة الألمانية ثم أورد ترجمتي له إلى اللغة العربية.

***

سابعًا: منهج البحث

في رأيي أن بعض مجالات البحث في العلوم الإنسانية لا يجدي فيها الاقتصار على منهج واحد من مناهج البحث المعروفة؛ بل لابد فيها من اعتماد مبدأ التكامل المنهجي سواء صرح الباحث بذلك أو لم يصرح، وليس هنا موضع تفصيل ذلك. لذا سأعتمد في دراستي هذه مبدأ التكامل المذكور بحيث أستفيد من مناهج البحث التي يمكن أن يعود تطبيقها بالفائدة العلمية المرجوة:

- فقد استخدمت في رسالتي المنهج التاريخي، وهو: (منهجٌ يعتمد على النصوص والوثائق التي هي مادة التاريخ الأولى ودعامة الحكم القوية فيتأكد من صحتها ويفهمها على وجهها ولا يُحَمِّلها أكثر من طاقتها، وبذا يستعيد الماضي ويعرض له صورة تطابق الواقع ما أمكن)[1]، واستخدمته في عرض المسألة المطروحة للنقاش ونقل ما وقفت عليه مما جاء عنها في القرآن وكتب السنة الصحيحة وكتب السيرة.
- كما استخدمت كذلك المنهج التحليلي، وهو داخل في عنوان الرسالة. والتحليل قريب مما تحدث عنه علماء المسلمين حين اعتمدوا أسلوب: التقسيم حيث ميزوا وحددوا كل مسألة فرعية ليسهل لهم النظر فيها، وهو أحد خطوات المنهج عند ديكارت حيث قال[2]: (أن أقسم كل واحدة من المعضلات التي سأختبرها إلى أجزاء على قدر المستطاع وعلى قدر ما تدعو الحاجة إلى حلها على خير الوجوه). وأعني به هنا: رد الفكرة إلى عناصرها الأساسية الأولية المكونة لها. واستخدمته في جانبين:

(١) المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية ١٩٥.
(٢) مقال عن المنهج، ترجمة محمود محمد الخضيري، ص ١٩١.

الجانب الأول: نصوص نولدكه[1]؛ حيث كنت أقوم بعرض نصه الذي يعالج موضوع الفكرة موضع الدراسة في الباب أو الفصل أو المبحث، ثم أقوم بتحليله إلى عناصره ومكوناته؛ واضعًا إياه في بنية فكرية إن لم يكن في الأصل كذلك من غير تعسف أو مبالغة. والهدف من استخدام التحليل في هذا المستوى متعدد:

١- الوصول إلى كل ما يريد نولدكه أن يقوله في نصه الذي يدخل في حدود الدراسة الآتي تفصيلها؛ بحيث لا يند عن الحصر عنصر في النص مهما كانت إشارة نولدكه إليه متعجلة أو عبارته بشأنه قصيرة. واستوى في ذلك عندي ما ذكره من نصه المختار في صلب كتابه مع ما ذكره في الهامش.

٢- معرفة الطريق الذي تشكلت عَبرَهُ فكرة أو دعوى نولدكه في النص: المصادر الإسلامية التي استقى منها، وفهمه لما أخذه منها من روايات، ومدى تأثير العقل الاستشراقي الجمعي (إن صح التعبير) على فهمه، والسياق الذي وضع فيه تلك الروايات، وبراهينه التي يعتمد عليها، والنتيجة التي توصل إليها.

٣- الوصول في النهاية من تحليل كافة نصوص نولدكه المعالَجة إلى أهدى سبيل أراه في تصنيفها؛ ومن ثم ساعد ذلك على إنشاء أبواب وفصول هذه الدراسة على النحو الذي هي عليه الآن.

وقد كنت هنا أستنطق نصوص نولدكه، وأعرضها بأمانة ونزاهة حسب ما يأمرني ديني؛ فلم أرها حسب هواي، ولم أُقوِّل الرجل ما لم يقله.

الجانب الثاني: نصوص العقيدة الإسلامية من مصدريها القرآن والسنة؛ حيث كنت أقوم بتحليل هذه النصوص - التي أذكرها ابتداء أو التي ذكرها نولدكه في إطار دعواه - بشرحها، مبينًا العلاقات بينها، ومكوناتها؛ خاصة ما يتعلق بفكرة نولدكه المطروحة أو دعواه؛ معتمدًا على ما يبدو من ظاهرها الواضح أولًا، ثم على ما صح مما ذُكر في التفاسير ثانيًا. والهدف من استخدام التحليل في هذا المستوى مزدوج:

(١) وأقدمها هنا لأن مدار الدراسة عليها ومنطلقها منها.

١- الوصول من خلال القراءة المتأنية للنصوص التي عالجها نولدكه إلى الحكم على فهم نولدكه أو توظيفه لها.

٢- الوقوف على ما تقدمه النصوص التي استشهدَ بها من مكونات، ليتم استخدامها في خطوة تالية من المنهج، هي المنهج المقارن.

- واستخدمت أيضًا المنهج النقدي؛ وهو داخل كذلك في عنوان الرسالة. وأتى استخدامه في جانبين:

الجانب الأول: نصوص نولدكه حيث قمت بنقد عناصرها ومكوناتها ودعاويه وبراهينه عليها، وبيان وجه صوابها من خطئها؛ موحدا معيار الحكم؛ حيث انطلقت من قاعدة النصوص ذاتها التي انطلق منها نولدكه.

الجانب الثاني: النصوص التاريخية من روايات وأحاديث؛ حيث اعتمدت المنهج الذي ابتكره علماء السنة، وهو منهج التحقق من الروايات والتثبت من الأخبار عبر نقد السند ونقد المتن.

- كما استخدمت كذلك المنهج المقارن وهو (مقابلة الأحداث والآراء بعضها ببعض لكشف ما بينها من وجوه شبه أو علاقة)[١]، وطبقته على أيِّ رأيين لنولدكه بدا لي أن بينهما علاقة فكرية سواء أكانت تطورًا أو تناقضًا. كما طبقته كذلك في مناقشتي نولدكه خاصة دعواه أن الوحي صوت محمد الداخلي، وأن الوحي أثر لمرض نفسي.

- واستخدمت المنهج الإحصائي لحصر الآيات أو الأحاديث التي تكشف جانبًا معينًا لرؤية النتيجة التي نخرج بها. وسيلاحظ القارئ أني راعيت في أكثر مباحث هذه الدراسة التفصيل وكثرة إيراد الأدلة والنصوص على ما أطرحه من قضايا وما أبسطه من ردود، ولم أكتف بالإشارة حيث تمكن العبارة. وكنت أهدف من وراء ذلك إلى محاصرة الدعوى من كل جانب ترِدُ منه؛ حتى لا ينخدع بها أحد

(١) المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية ١٩٥.

ممن تمكنت منهم الشبهة، فيدعي أن دفعها قام على نصوص معزولة أو قليلة. وسأجتهد أن تكون معالجتي لموضوعات بحثي ملتزمة الموضوعية تستنطق النصوص والمصادر ولا تقفز إلى نتائج بلا مقدمات. والله الموفق.

* * *



ثامنًا: صعوبات الدراسة

١- صعوبة الترجمة:

لقد كانت الترجمة من الألمانية إلى العربية في ذاتها أمرًا شاقًّا عسيرًا. وزاد من الصعوبة أن كثيرًا من جمل نولدكه طويلة، وكانت تحوي جملًا بينية كثيرة تحتاج ترجمتها إلى صبر. كما أن بعض تعبيرات الكتاب وكلماته ألمانية قديمة أخذ فهمها مني وقتًا أطول من غيرها، وكانت القواميس الألمانية العربية لا تفي تمامًا بالغرض حيث لا توصل أحيانًا إلى ترجمة مُرضية للكلمة، وكنتُ أحيانًا لا أجد فيها بعض الكلمات خاصة ذات الأصل اللاتيني؛ فكنت ألجأ في الحالين للقواميس الألمانية الألمانية والألمانية الإنجليزية والعكس.

٢- كثرة هوامش نولدكه وأهميتها:

لقد كانت الهوامش في الكتاب - موضع دراستي - كثيرة، وكان بعضها إما أن يحيل إلى مصادر الفكرة المعالجة في صلب الكتاب ومراجعها، أو يضيف المزيد إليها. وهنا تكمن أهميتها لأنها؛ تفيد في كشف خلفيات آراء نولدكه(١)، أو تبين تاريخ تناول هذا الرأي أو ذاك؛ من كانوا معه ومن كانوا ضده. فكانت ترجمته هي الأخرى مهمة بنفس درجة أهمية ترجمة الفكرة التي أوردها نولدكه في صلب كتابه. وسنجد أن عددًا غير قليل من الأفكار الرئيسة التي عالجتها هنا وردت أصلًا في كتاب نولدكه في الهامش.

(١) وقد لاحظ هذا الدكتور تيلمان ناجل عند متابعته أثناء وجودي في ألمانيا عملي في الترجمة حيث قال في تقريره المشار إليه من قبل: (لقد أتى [الباحث] حتى على الإشارات الخفية التي تفيد في كشف آراء ومعارف نولدكه).

٣- صعوبة التوصل في البداية للآيات التي يحيل نولدكه لأرقامها:

لقد لاحظت في بداية ترجمة الكتاب - موضع الدراسة - أن أرقام الآيات القرآنية التي يحيل إليها نولدكه لا تعطي نفس الفهم الذي يقدمه لها؛ فهو مثلا يحيل للآية ٢١٤ من سورة البقرة ويقول[١]:

"إنها تشير إلى سرية عبد الله بن جحش"؛

لكن بالرجوع إلى المصحف لم أجد في الآية التي لها رقم ٢١٤ أي إشارة لما قال؛ بل وجدت قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾، وأن الآية التي فيها هذه الإشارة لها رقم ٢١٧ وهي: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾. ويحيل للآية ١٥٦ من سورة الأعراف ويقول[٢]:

"إن فيها كلمة (الأمي)"؛

لكن الآية التي لها نفس الرقم في المصحف هي:﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ وليس فيها كما نرى الكلمة المذكورة. وهكذا في كثير جدًّا من الآيات لدرجة حسبت معها أن الرجل يخطئ في تقديم الرقم الصحيح للآية. وظل هذا رأيي لعدة أشهر من التي قضيتها في الترجمة، إلى أن غلب على ظني أن الخطأ الواحد لا يعقل أن يتكرر ويَطَّرد على هذا النحو من عالم في مكانة نولدكه؛ وظل هذا الأمر يشغلني كثيرًا حتى توصلت بمعونة مشرفي على رسالة الدكتوراه المستشرق الألماني الأستاذ الدكتور تيلمان ناجل إلى أن نولدكه كان يرجع للمصحف

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص ١٨٢.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص ١٥٩.

الذي نشره جوستاف فلوجل[1] وعدُّ الآيات فيه يختلف عن المصاحف المعروفة لدى المسلمين. فاعتمدت على تلك الطبعة.

ولقد قرأت فيما بعد أن الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي قد تعرض لقريب من هذا الإشكال عند اعتماده أثناء تأليفه المعجم المفهرس لألفاظ القرآن على كل من: مصحف «فلوجل»، ومعجمه القرآني المسمى: (**نجوم الفرقان في أطراف القرآن**)[2].

فكان من الضروري إذن أن أبذل جهدي للحصول على نسخة من مصحف (فلوجل) حتى أتمكن من الوصول لإحالات نولدكه للآيات على نحو صحيح. ووفقت بفضل الله للحصول على صورة ضوئية من طبعة فلوجل للقرآن الكريم من مكتبة جامعة جوتنجن مدونًا عليها أنه صدرت في عام ١٨٣٤م في *Leipzig* أي قبل طبعة مصر التي صدرت عام ١٩٢٣م بتسعين سنة تقريبًا لكنها مسبوقة بسبع طبعات للقرآن صدرت قبلها[3]. وبالفعل وجدتها تختلف في عدِّ الآيات عن نسختنا في مواضع كثيرة جدًّا.

ويغلب على ظني أن نسخة جامعة جوتنجن التي حصلت عليها - من مكتبة الجامعة - كانت هي النسخة التي رجع إليها نولدكه عند كتابة الطبعة الأولى لكتابه محل دراستي؛

---

(١) مستشرق ألماني يهودي ١٨٠٢ - ١٨٧٠م ونشر في *Leipzig* سنة ١٨٣٤م طبعة للمصحف ظلت هي الطبعة المعتمدة لدى المستشرقين حتى ظهرت الطبعة القاهرية من المصحف سنة ١٩٢٤م.

(٢) قال: ولما كان صاحب نجوم الفرقان [يعني فلوجل] اعتمد في أرقامه التي يسوقها أمام اللفظة للدلالة على رقم الآية من السورة على مصحفه الذي طبعه خصيصًا لهذا العمل؛ ولما كان قد عد آياته غير مستند في ذلك إلى علم وثيق؛ فقد وقع اختلاف عظيم في ألوف من المواضع بين مصحفه ومصحف الملك... ولقد لقيت من العناء المعَنِّي والنصب المنصب في رد رقم آيات مصحف فلوجل إلى رقم آيات مصحف الملك". مقدمة المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم صفحة (ز).

(٣) أول طبعة للقرآن (النص العربي وليس الترجمة) كانت في البندقية سنة ١٥٣٠ لكنها أعدمت حفاظا على العقيدة المسيحية!!. ثم طبع مرتين كذلك في إيطاليا في ١٦٩٤، ١٦٩٨. ثم طبع من جهة إسلامية في روسيا عام ١٧٨٧. وطبع في طهران مرتين: عام: ١٨٢٨ و ١٨٣٣ إلى أن طبعه فلوجل عام ١٨٣٤. وطبع بعدها في الأستانة ثم في مصر عام ١٩٢٣.

إذ وجدت بها علامات وتحديدات - شملت معظم السور - على مجموعات الآيات التي تناولها في كتابه. وإذا أضيف إلى هذا كونه خريج جامعة جوتنجن أيضا؛ فيمكن أن يترجح ما أقول.

٤- كون كتاب تاريخ القرآن ليس كتابًا في العقيدة:

لقد شكل هذا بالنسبة لي صعوبة أخرى؛ فنولدكه لم يؤلف القسم الأول من: (**تاريخ القرآن**) أساسًا لكي يكون كتابًا لعرض عقيدة الإسلام؛ بل إن عنوانه الفرعي هو: (حول أصل القرآن).

وإذا راجعنا ما ذكرته في الفقرة رقم ٥ عند التعريف بالكتاب تحت عنوان: (فهرس موضوعات القسم محل الدراسة) ظهر لنا أن الكتاب المذكور عالج موضوعات مرتبطة أساسًا بعلوم القرآن.

لكنه على الرغم من ذلك تعرض لبعض قضايا العقيدة بشكل مباشر فيما كتبه تحت عنوان: (حول نبوة محمد ﷺ والوحي) وكذلك في بعض صفحات مما كتبه تحت عنوان (حول نصوص وحي محمد). كما تعرض لها بشكل غير مباشر في كثير من المواضع في كتابه عند تفسير آيات متفرقة من القرآن أو تقييمه لما روي في أسباب وأماكن نزولها. ولقد ألزمني هذا ألا أسير في اختيار أبواب وفصول ومباحث رسالتي على نفس مسار عناوين الكتاب المذكور.. كما أن عناوين الموضوعات والقضايا المعالجة في هذه الدراسة لن نعثر على معظمها في كتاب نولدكه منتظمة في بنية فكرية محددة المعالم مفصلة في بحث مستقل له نفس العنوان الذي ورد به في رسالتي.

وإذا نظرنا إلى النصوص المتعلقة بواحدة من معظم القضايا العقدية التي عالجتها في هذه الرسالة؛ ألفينا أنها في معظمها تنتمي لمواضع متناثرة من كتاب نولدكه.

وكان من الواجب علي إزاء المواضع المتناثرة في كل قضية أود معالجتها أن أجمعها وأصنفها وأضعها في بنية فكرية متكاملة وأن أضع عناوين مناسبة لها، وأن أنشئ أبواب هذه الدراسة وفصولها ومباحثها انطلاقًا مما يفرضه نص نولدكه من فهوم، مع مراعاة أمرين:

ألا أتعسف في أيٍّ مما ذكر.

وألا أنتزع كلام نولدكه عن سياقه الذي ورد فيه.

ولقد شكل الالتزام بهذا صعوبة كبيرة حيث فرض علي أن أراجع اختياراتي مرات كثيرة. وأرجو أن أكون قد وفقت.

* * *



تاسعًا: دور نولدكه في الكتاب

لقد مضى بيان أن نولدكه رفض أن يباشر بنفسه القيام بنشر الطبعة الثانية من كتابه **تاريخ القرآن**، وأنه رشح بدلًا من ذلك صديقه القديم الأستاذ «فريدريش شفاللي» *F. Schwally* للقيام بهذا. ثم تتابع العمل من مستشرقين آخرين على إظهار الطبعة الثانية من الكتاب موضع الدراسة على النحو الذي سنبينه.

وعلى هذا فإن الطبعة الثانية تختلف عن الطبعة الأولى من حيث دور المؤلف فيها، ومن حيث التوسع الذي طرأ عليها؛ يقول نولدكه[١]:

"لقد فاجأني السيد الناشر في سنة ١٨٩٨م بسؤالي عما إذا كنت مستعدًّا لتقديم الطبعة الثانية من كتابي: **تاريخ القرآن** أم أَقترح عليه عالِمًا يمكنه معالجته معالجة جديدة. ولأسباب عديدة، تمنعني من تقديم هذا العمل بشكل مُرْضٍ؛ فإني اقترحت بعد برهة، تلميذي القديم وصديقي الأستاذ فريدريش شفاللي *F. Schwally*، وقد وافق".

ومن المهم هنا أن أوضح أن القسم الأول من كتاب تاريخ القرآن في طبعته الثانية هو عمل خالص لنولدكه بخلاف القسمين الثاني والثالث منه. وذلك للآتي:

١- أن هذا هو الذي يستنتج من مقدمتي «نولدكه» و«شفاللي» للقسم الأول؛ ففيهما حديث واضح عن دور كل منهما والفوارق بين القسم الأول في الطبعتين؛ يقول «شفاللي»[٢]: (عندما شرفت بأن يُطلب مني رعاية إعداد الطبعة الثانية من [كتاب] **تاريخ القرآن** لم أشك للحظة أنني إزاء الإعداد الجديد لهذا الكتاب الذي يعد في المحيط العلمي من أُمَّات الكتب، يجب أن أكون في أعلى درجات الحيطة.

(١) مقدمة القسم الأول من تاريخ القرآن بالألمانية الطبعة الثانية ص*V*.

(٢) نفس الموضع ص *VII*.

وبرغم أنه كان من الأسهل أن يكتب كتاب جديد بالاستعانة بالطبعة الأولى؛ فإني لم أجز لنفسي هذا بل اجتهدت أن أوفِّق بأقل قدر ممكن من التدخل بين النص [الأصلي] والوضع الحالي للبحث. وفي المواضع التي لا تسعف فيها هذه الطريقة أقرر الاستعانة بالإصلاح الجذري، أو بالإضافات الطويلة. وبرغم هذا النهج المحافظ؛ فإن حجم القسم الأول قد زاد خمس صفحات. من المحقق أنه مع أسلوب العمل المستخدم هذا، فإنه لا يمكن تمييز تحولات الطبعة الجديدة عن الطبعة الأولى).

لكن نولدكه اعتمد ما فعله «شفاللي»؛ حيث قام هذا الأخير بعرض النسخة التجريبية من القسم الأول بعد الانتهاء من معالجته لها على نولدكه فراجعها؛ يقول نولدكه[1]: "لقد قرأت من هذا الذي طُبع الآن النسخة التجريبية وعلَّقت عليها بهوامش كثيرة، وتركت له [أي لـ «شفاللي»] حرية أن يأخذها في اعتباره أوْ لا يأخذها". ويضيف[2]: "ولكني مع هذا لم أراجع كل التفاصيل، ولم أقم بأبحاث مثل تلك التي تبدو كما لو كانت دراسة شاملة وافية قمت بها بنفسي. لذا فإن الطبعة الثانية لها ميزة، هي أنها نتيجة لعمل باحِثَين، لكن نقصها أن التبعة قد وزعت".

لكن حديث نولدكه عن توزيع التبعة لا يقلل أبدًا من كونه مسؤولًا عن الأفكار الواردة في القسم الأول من الكتاب المذكور؛ أو من نِسْبة تأليف هذا القسم إليه لعدة أسباب، منها أنني قد نقلت قبل قليل كلام شفاللي، الذي أعد للنشر القسم الأول من كتاب تاريخ القرآن، وأكد فيه أن تدخله كان بأقل قدر ممكن، وأنه لا يمكن تمييز الطبعة الثانية عن الطبعة الأولى. كما أن إصلاحات شفاللي الجذرية لبعض المواضع القليلة[3]. (هذه الإصلاحات التي جعلت القسم الأول في طبعته

(١) مقدمة نولدكه للقسم الأول ص *V, VI*.

(٢) نفس الموضع.

(٣) وهنا أشير أيضًا إلى أن «شفاللي» كان له دور في تدعيم آراء نولدكه بإحالات إلى الكتب حديثة الإصدار التي لم تكن موجودة في زمن كتابة نولدكه للطبعة الأولى لكتابه، راجع مثلا تاريخ =

الثانية يزيد خمس صفحات عن نظيره في الطبعة الأولى) قد أقرها نولدكه الذي راجع الطبعة الثانية من القسم الأول المعالَجَة، ولم يَعترض عليها بشيء، ثم نُشرتْ هذه الطبعة المذكورة عام ١٩٠٩ م، أي قبل أن يموت نولدكه بإحدى وعشرين سنة، وكان عمره عند نشرها ثلاثًا وسبعين عامًا، وكان بإمكانه أن يُظهرَ موقفهُ مما يرى أنه خروج عن توجهاته الفكرية الأساسية، لكن شيئًا من هذا لم يحصل؛ فدل هذا على موافقته على كل ما جاء فيها.

هذا وقد عكس تلك الحقيقة ما كتبه الناشر على غلاف هذه الطبعة؛ إذ نجد الآتي:

تاريخ القرآن لـ «تيودور نولدكه»
الطبعة الثانيةُ
معَالجَةٌ من «فريدريش شفاللي»
القسم الأول
عن أصل القرآن

وهذا يعني إقرارا من دار نشر القسم الأول وهي:

Dieterich'sche Verlagsbuchhandlung, Theodor, Weicher, Leibzig 1909

أن الدور الذي قام به شفاللي في طبعته الثانية لم يتعد المعالجة. من هنا فمسؤولية أفكار القسم الأول يتحملها نولدكه، ويُناقَش فيها.

= القرآن بالألمانية ق١ ط٢ ص ٧١ حيث يحيل «شفاللي» إلى مؤلفات صدرت عام ١٩٠٣، ١٩٠٤م في حين أن الطبعة الأولى التي أنجزها نولدكه كانت عام ١٨٦٠م. لكن نولدكه أقر كل ذلك.

٢- الذي يستخلص من مقدمة القسم الثاني من كتاب تاريخ القرآن في طبعته الثانية أن «شفاللي» قام بعمل إصلاح شامل للقسم الثاني، وغيَّر فيه تغييرات كثيرة بحيث لم يَبْق في نص القسم الثاني الذي كتبه نولدكه عن جمع القرآن، سوى النصوص العلمية المقتبَسة من المصادر والمراجع. ولذا يُعد القسم الثاني إنجازًا شخصيًّا لـ «شفاللي». لكنه مات في فبراير عام ١٩١٩م، قبل نشره وبعد الانتهاء الكامل منه كمسودة؛ فطبع في ديسمبر من نفس العام من قِبل صهره: «هاينريش تسيمرن» *Heinrich Zimmern*، المتخصص في الساميات(١)؛ يقول هذا الأخير(٢): (إن شفاللي قام - بحكم الصداقة - ببعض الإضافات، التي هي عبارة عن استدراكات علمية، عند بعض الأخطاء المسهوِّ عنها، كما ذكر الأعمال ذات الصلة بالموضوع التي كانت قد نسيت أو التي ظهرت فيما بعد)".

ويقول(٣): (هذا القسم الثاني، الذي بين أيدينا من كتاب تاريخ القرآن بتعليقاته التاريخية بشأن المصادر، ليس فقط أكبرَ بكثير من حيث الحجم من القسم الثاني المماثل ومقدمته الأدبية في الطبعة الأولى من عمل نولدكه؛ وإنما أيضًا قد استخدم فيه شفاللي الوفرة الحاشدة من مصادر المعلومات الحديثة، والتقدم المهم في البحث طوال الأعوام الماضية المقاربة للستين).

ويقول(٤):

(إن القسم الثاني - بعكس القسم الأول - من حيث المحتوى؛ قد عولج من جديد تمامًا، وبناء على هذا فإنه - كما أكد شفاللي نفسه - لم يعد يُعرض من النص الأصلي لنولدكه على حالته، سوى النصوص العلمية وحدها.

إن القسم الثاني هذا في معظمه يعد إنجازًا شخصيًّا لشفاللي).

---

(١) مقدمة «هاينريش تسيمرن» للقسم الثاني من كتاب تاريخ القرآن بالألمانية ص *III. IV*.

(٢) السابق: الموضع نفسه.

(٣) السابق: الموضع نفسه.

(٤) السابق: الموضع نفسه.

هذا وقد عكس تلك الحقيقة كذلك ما كتبه الناشر على غلاف هذه الطبعة الثانية للقسم الثاني؛ إذ نجد الآتي:

تاريخ القرآن لتيودور نولدكه

إصلاح شامل

من

«فريدريش شفاللي»

القسم الثاني:

جمع القرآن

مع تعليق تاريخي وثائقي عن المصادر الإسلامية والبحث المسيحي الحديث

Leipzig 1919

كما أن نولدكه لم يراجع هذا الإصلاح الشامل للقسم الثاني رغم أنه نُشر سنة ١٩١٩م؛ وكان نولدكه على قيد الحياة؛ فلقد قال سنة ١٩٠٩م[1]:

"لا أعرف إذا كان ممكنًا أن أقرأ النسخة التجريبية للقسم الثاني؛ لأن الضعف المستمر لبصري يجعل كل قراءة مجهدة للغاية".

٣- والذي تفيده مقدمة القسم الثاني كذلك أن القسم الثالث من كتاب تاريخ القرآن (الذي يدور حول تاريخ النص القرآني في طبعته الثانية)؛ إنما هو لـ«برجشتراسر»

(١) مقدمة نولدكه للقسم الأول ص *VI*.

و«أوتو بريتزل». يقول «هاينريش تسيمرن» *Heinrich Zimmern*[(١)] بشأن القسم الثالث:

(فيما يتعلق بالقسم الثالث: قراءات القرآن، وُجد بهذا الشأن في تركة شفاللي كثير أو قليل من الأعمال التحضيرية المستفيضة، لكن لا يوجد أصول منتهية صالحة للطبع. واستجابة لرجائي من «جوتهلف برجشتراسر» *G. Bergsträsser* (١٨٦٦ - ١٩٣٣م)[(٢)]، خليفة «شفاللي» في كرسي التدريس في «كُينيجسبرجر» *Königsperger*، فقد أبدى استعداده للإخراج الجديد للقسم الثالث، مضيفًا إلى الأعمال التحضيرية لـ«شفاللي» أو المادة المتروكة منه ما استفاده من خلال إقامته في القسطنطينية، ملتزمًا بما تهيأ له من مصادر هناك).

ويستنتج هذا كذلك من خلال قراءة مقدمة القسم الثالث ذاته؛ إذ نجد فيه أن «برجشتراسر» ظل يعمل فيه أربع عشرة سنة: منذ سنة ١٩١٩م إلى أن مات في أغسطس ١٩٣٣م. وأنجز فيه حتى الصفحة[(٣)] ١٤٣، ثم أكمل العمل من بعده الدكتور «أوتو بريتزل» *Dr. Otto Pretzl* (١٨٦٣ - ١٩٤١م) الذي ظل يعمل فيه ما يزيد عن خمس سنوات إلى أن نشره كاملًا في سنة ١٩٣٨م[(٤)].

هذا وقد عكس تلك الحقيقة كذلك ما كتبه الناشر على غلاف هذه الطبعة الثانية للقسم الثاني؛ إذ نجد الآتي:

---

(١) في مقدمته للقسم الثاني من تاريخ القرآن بالألمانية بمعالجة شفاللي ص *IV*.

(٢) حصل على رسالته للدكتوراه في عام ١٩١٤م وكان موضوعها: أدوات النفي والاستفهام وما إليها في القرآن الكريم. راجع رودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ترجمة د. مصطفى ماهر ص٤٠.

(٣) ومجموع صفحات هذا الجزء بدون الفهارس ولوحات مخطوطات القرآن ٢٧٤ صحيفة.

(٤) مقدمة القسم الثالث ص *VII* و*VIII* و*IX*.

تاريخ القرآن

لـ

تيودور نولدكه

طبعة ثانية أُصلحت إصلاحًا شاملًا

القسم الثالث

تاريخ النص القرآني

لـ

«جوتهلف برجشتراسر» و«أوتو بريتسل»

مع ثماني لوحات

Leipzig 1938

كما يؤكد ما وصلت إليه هنا أيضًا، وصفُ المستشرق الألماني «رودي بارت»[(١)] لما فعله برجشتراسر بهذا الجزء بأنه: (إعادة كتابة له على نحو جديد تمامًا).

* * *

(١) راجع رودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ص٤٠.





بين الإنكار والتفسير النفسي



مقدمة الجزء الأول

هذا الجزء بعنوان:

الوحي إلى النبي محمد ﷺ بين الإنكار والتفسير النفسي

وأتناول فيه موقف نولدكه الغريب من كيفيات الوحي التي ثبت في القرآن والسنة أن رسول الله تلقى الوحي من الله بها. كما أتناول ادعاءه كيفيات لا أصل لها.

كما أناقشه في دعواه أن الوحي أثر للتهيج النفسي.

وهو مكون من بابين:

الأول: رفض نولدكه تلقي محمد ﷺ الوحي من الله.

وهو في تمهيد وفصلين:

التمهيد، وأتناول فيه عرضًا لمحتوى الباب، وعلاقته بما بعده، ونص كلام نولدكه فيه، وحصر المآخذ عليه؛ حتى يمكن تحليلها لتسهل مناقشتها وتحرير محل النزاع فيها. كما أبين فيه أساس تقسيم هذا الباب إلى فصلين:

الفصل الأول عنوانه: رفض نولدكه لمعظم كيفيات الوحي، أتناول فيه بالتحليل والنقد رفضه كل كيفيات الوحي التي ثبت في القرآن والسنة أن رسول الله تلقى الوحي من الله بها ولا يستبقي إلا كيفية واحدة سيفسرها فيما بعد تفسيرات خاطئة تبعد رسول الله عن النبوة.

كما أتناول ادعاءه كيفيات لا أصل لها. وجاء هذا الفصل في ثلاثة مباحث:

- **المبحث الأول:** دعواه عدم ثبوت معظم أنواع الوحي.

- **المبحث الثاني**: زعمه كيفيات وحي لم تثبت
- **المبحث الثالث**: رفضه أن يكون ثمة وحي في السماء.

والفصل الثاني عنوانه: تشكيكه في نزول جبريل، وأتناول فيه بالتحليل والنقد إثارته الشكوك حول نزول جبريل عليه السلام على النبي ﷺ سواء كان النزول في صورة جبريل الحقيقية أو على هيئة دحية الكلبي. وسيأتي هذا الفصل في مبحثين:

- **المبحث الأول**: تشكيكه في نزوله في صورته الحقيقية.
- **المبحث الثاني**: تشكيكه في ظهوره على هيئة دحية.

والباب الثاني عنوانه: تفسير نولدكه للوحي إليه ﷺ على أنه مرض نفسي.

وجاء في تمهيد وأربعة فصول.

أناقش في التمهيد والفصلين الأول والثاني أسس دعواه: أدلته عليها والسببين اللذين يزعم أنهما يجعلان رسول الله يتهيج نفسيًا. وأقدم في الفصول التالية الأدلة المضادة لدعواه؛ على النحو التالي:

التمهيد عنوانه: حقيقة رفض نولدكه وصف رسول الله بالصرع. وأتناول فيه رفض نولدكه ادعاء البيزنطيين بأن النبي كان مصابًا بالصرع الحقيقي، واختياره بدلًا من ذلك أنه كان مصابًا بحالات تهيج نفسي، وأجيب عن سؤال: هل كان نولدكه صادقًا حين رفض وصف النبي بالصرع الحقيقي؟

والفصل الأول عنوانه: مناقشة أدلته على دعواه أن الوحي أثر للتهيج النفسي.

وأتناول فيه بالتحليل والنقد ما يظنه نولدكه أدلة على دعواه أن وحي الله إلى نبيه محمد ﷺ أثر لحالة من التهيج النفسي كان يمر بها النبي. وهذه الأدلة المتوهمة هي دعواه أن النبي كان يعاني من نوبات صرع في طفولته وشبابه المبكر، ودعواه أن النبي اعتقد في بداية نزول الوحي عليه أنه مجنون. كما يحاول أن يوظف، ما ثبت من أن النبي ﷺ كانت تلحقه مظاهر خارجية لحظة الوحي، كدليل على دعواه. كما يدعي أن

المسلمين أنفسهم قالوا بقلة الكم القرآني الموحى به كل مرة، لأن الحالة الصرعية التي يَدعي أن النبي ﷺ يمر بها لا ينبغي أن تطول لذا لا يطول كم الوحي كل مرة، ولنفس السبب فإنه يدعي أخيرًا أن قصر سور الطور المكي الأول هو الآخر دليل على ما يدعيه.

وسيأتي هذا الفصل في خمسة مباحث:

- **المبحث الأول**: مناقشة استدلاله بما يدعيه من صرع النبي ﷺ في شبابه المبكر.
- **المبحث الثاني**: مناقشته في استدلاله أن النبي اعتقد في البداية أنه مجنون.
- **المبحث الثالث**: مناقشته في استدلاله بما كان يعتريه ﷺ لحظة الوحي.
- **المبحث الرابع**: مناقشته فيما يستدل به من أن المسلمين قالوا بقلة الكم القرآني الموحى به كل مرة.
- **المبحث الخامس**: مناقشته في استدلاله بقصر سور الطور المكي الأول.

والفصل الثاني عنوانه: مناقشته فيما زعمه من سببين للتهيج النفسي.

وأتناول فيه بالتحليل والنقد ادعاء نولدكه أن التهيج النفسي المزعوم - الذي يفسر به وحي الله لمحمد ﷺ - كان سببه في بداية النبوة: الحماس الشديد؛ وسببه فيما بعد الهجرة: التفكير العميق.

والفصل الثالث عنوانه: تلقي الأوساط المختلفة لوحي النبي ﷺ، أرد فيه على نولدكه تفسيره لوحي الله إلى محمد ﷺ على أنه أثر للتهيج النفسي وذلك بأن أعرض بالتحليل لأدلةٍ ووقائعَ تاريخيةٍ أرصد من خلالها ردود أفعال كافة الأوساط إزاء وحي النبي ﷺ قبل الهجرة وبعدها. وسيأتي هذا الفصل في مبحثين:

- **المبحث الأول**: ردود الأفعال إزاء وحي النبي قبل الهجرة.
- **المبحث الثاني**: ردود الأفعال إزاء وحي النبي بعد الهجرة.

والفصل الرابع عنوانه: رميه النبي بالمرض النفسي أو العصبي لا يتفق مع شخصيته ﷺ

وأرصد فيه الاختلاف التام بين نوبة المرض النفسي أو العصبي وبين لحظة تلقي النبي الوحي. كما أتناول فيه معالم الاستقرار النفسي في شخصية الرسول العظيم محمد ﷺ..
وسيأتي في مبحثين:

- **المبحث الأول**: العلاقة المزعومة بين المرض النفسي أو العصبي والوحي
- **المبحث الثاني**: معالم السواء النفسي في شخص محمد ﷺ.

والله الموفق



الباب الأول

رَفْضُ نُولدكه تَلَقِّي مُحَمَّد ﷺ الوَحي من الله



تمهيد

لقد كانت حقيقة الوحي من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ موضع جدل بين كل المستشرقين تقريبًا، وتراوحت آراؤهم بين رفضه مطلقا وعدم الاعتداد به، وبين الاعتراف به شكلًا مع إلغاء مضمونه.

من هؤلاء الذين يعترفون بوحي رسول الله ﷺ على نحو شكلي نولدكه الذي سنقف في الجزأين الأول والثاني من هذه الدراسة على تفسيره له، مرَّة على أنه نوع من أنواع المرض النفسي، ومرة أخرى على أنه ليس سوى صوت داخلي للنبي ظنه وحيًا قادمًا له من الله.

لكن لأن نولدكه يُظهر أنه يصل لكل هذه الأباطيل من خلال مصادر المسلمين المعتمدة لديهم من القرآن والسنة وسيرة النبي ﷺ؛ فإنه يبدأ أولا بقضية هي غاية في الغرابة - وما أكثر ما يطرحه نولدكه من غرائب - هذه القضية هي: تشكيكه في ثبوت معظم كيفيات الوحي التي قال المسلمون: إن وحي النبي نزل بها.

سنلاحظ أنه لن يناقش المسألة كرجل ملحد ينكر الوحي؛ ولا كرجل مسيحي ملتزم يرى أن نبوة محمد - هكذا وبكلمة واحدة دون دخول في تفاصيل - هرطقة وكذب. لا، لن يفعل نولدكه شيئًا من هذا الذي كان سمة الاستشراق الساذج قبل نولدكه بقرن... أما نولدكه فسنرى أنه يقدم نفسه عبر كل حجة يطرحها كباحث في الإسلام، ينطلق من نصوصه ذاتها التي ينطلق منها الباحثون المسلمون؛ لكنه هو وغيره من زملائه يتميزون بميزة - كما يحلو لهم دومًا أن يقولوا - هي أنهم يبحثون نصوص الإسلام بحثًا حرًّا غير ملتزم برأي العقائديين المسلمين الذين فرضوا على النص ما ليس فيه، وحمَّلوه ما لا يمكن أن يتحمله عبر القراءة النزيهة العلمية المجردة التي باتت حكرًا عليهم. هذا بالضبط ما سنجده في معظم نقاشه في هذا الباب وغيره.

سنجد نولدكه قبل أن يطرح أي تفسير للوحي يتجه أولًا إلى الروايات الصحيحة الثابتة التي لا تؤيد تفسيره، فيشكك فيها ليُكسِب تفسيره الآتي المرجعية الإسلامية، فنجده هنا يرفض معظم الروايات التي ورد فيها كيفيات تلقي رسول الله الوحي من الله تعالى مشككًا في ثبوتها، بدعوى أنها لم ترد في الحديث الذي ثبت عن النبي؛ بل قامت على تفسيراتٍ خاطئة للكتاب والسنة، ولا يستبقي منها إلا كيفية واحدة فقط هي سماعه ﷺ صلصلة الجرس بدعوى أنها الوحيدة التي ثبتت عن النبي.

وسأذكر هنا أولًا نص كلامه، ثم ألخص وأحصر ما يتضمنه من افتراءات لأناقشه فيها؛ يقول[1]:

"Ehe wir jedoch diese Weisen genauer aufzählen bemerken wir, daß die Muslime mit dem Worte Wahy وحي *Offenbarung, nicht bloß den Qoran bezeichnen, sondern jede Inspiration des Propheten, jeden göttlichen Befehl an ihn, auch wenn dessen Worte nie als qoranisch verkündigt worden sind.*

Die meisten der von ihnen aufgezählten Offenbarungsarten betreffen eben die nicht qoranische Offenbarung.

Über die Einteilung derselben gibt es nun abweichende alte Traditionen, die man erst später vom dogmatischen Gesichtspunkt aus zu einem künstlichen System verband.

Auf die Frage, in welcher Weise ihm die Offenbarungen gegeben würden, soll Muhammed der 'Aisa geantwortet haben, bald vernähme er ein Gedröhn wie von einer Glocke, dies griffe ihn am meisten an; wenn aber der Engel sich entfernte, hätte er die Offenbarung empfangen; bald unterrede er sich mit dem Engel wie mit einem Menschen, so daß er seine Worte leicht verstände.

Die Spätern aber, die noch einige andere Überlieferungen hinzunehmen, unterscheiden noch mehr Arten.

Im Itqan 103 werden folgende aufgezählt:

1) Offenbarungen unter Glockenton,

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٠ - ٢٤.

2) *durch Inspiration des heiligen Geistes in Muhammeds Herz,*

3) *durch Gabriel in Menschengestalt,*

4) *von Gott unmittelbar entweder im Wachen, wie bei der Himmelfahrt, oder im Traum. ...*

Aber in Almawahib alladuniya werden diese Stufen مرتبة *also aufgezählt:*

1) *Traum,*

2) *Inspiration Gabriels in des Propheten Herz,*

3) *Gabriel gleichend dem Dahya b. Halifa Alkalbi,*

4) *Unter Glockengetn usw.*

5) *Gabriel in seiner wahren Gestalt, die er nur zweimal gezeigt hat,*

6) *Offenbarung im Himmel, wie die Anordnung der fünf täglichen Gebete*

7) *Gott persönlich, aber verhüllt* من وراء حجاب

8) *Gott unmittelbar ohne Schleier sich offenbarend.*

Andere sollen noch zwei andere Stufen hinzufügen, nämlich:

1) *Gabriel in der Gestalt eines anderen Menschen,*(1)

2) *Gott persönlich im Traume sich zeigend.*

Man sieht leicht, daß viele dieser Arten aus falsch erklärten Überlieferungen oder Qoranstellen entstanden sind. Dies geht schon daraus hervor, daß die Muslime von den frühesten Zeiten an sich darüber stritten, ob Muhammed Gott gesehen und von ihm persönlich Offenbarungen empfangen habe, oder nicht. 'Aisa soll die, welche jenes behaupteten, mit den Zeichen des höchsten Unwillens für gottlos erklärt haben. Dennoch erhielt sich diese Ansicht, die doch ganz gegen Muhammeds Auffassung und nur ans falscher Erklärung einiger Stellen in Sur. 81 und besonders Sur. 53 entstanden ist.

(1) *Auch als Frau* بصورة عائشة *Tabari I,1262,6 ff. Tirm. manaqib und sogar als bissiger Kamelhengst, His. 191, 1, vgl. 258, 5.*

Andere suchten die Schroffheit jener Ansicht zu mildern, und zogen aus Sur. 53, 11 den Schluß, der Propliet hätte Gott mit seinem Herzen (بفؤاده oder بقلبه) gesehen.

Wie diese Art, so ist auch die zu streichen, in welcher Gabriel dem Muhammed in der Gestalt Dahyas erscheint(1).

Denn obgleich einige Schriftsteller sagen, das sei öfter oder meistens في أعم الأحوال *geschehen, so ist doch diese ganze Ansicht erst aus einem Ereignisse des Jahres 5 nach der Higra entsprungen, bei welchem das Heer den voraneilenden Dahya für den Gabriel hilt.*

So ist ferner Stufe 6 aus der Erzählung über die Himmelfahrt, Stufe 5 aus einer andern Erklärung von Sur. 81 und 53 entstanden".

وترجمته:

(قبل أن نحدد أساليب الوحي، نذكر أن كلمة وحي عند المسلمين[٢] لا تشير فقط إلى القرآن، وإنما تشير إلى كل إلهام للنبي، وإلى كل أمر إلهي حتى لو لم تُقدَّم كلماتُه أبدًا

---

(1) Vgl. hierüber Waq. 72 (Wellhausen 211); Ibn Sad ed. IV, 1 p. 184 f.; Bh. im كتاب المناقب *s.v.* باب علامات النبوة في الإسلام *am Ende (II,182),* كتاب فضائل القرآن *§ 1; Muslim Q. IX, 338; Tab. L. u. Zam. zu Sur. 6, sf.; Ibn Hagar I no.2378; Usd al Ghaba II,130. Mehrere von diesen erwähnen, zu Gabriels Ehre, daß Dahya sehr schön gewesen sei (vgl. Sur. 19, 17 und oben 8.9).*

(٢) هود: ٣٩ ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ الآية. والأنبياء ٤٦ ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِ﴾ الآية. والشورى: ٥٠ ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ﴾ الآية. والنجم: ٤ ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾. ويقول: لكن الفعل (أوحى) يستخدم كثيرًا بمعنى عطاء أو إلهام أو وحي إلهي. وجاء بشكل ميسّر من العربية القديمة؛ جاء في ياقوت ج٣ ص٥٢٠: وحْيُ العُيون: كلامُها. وفي هود: ٣٩: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ الآية. والمؤمنون: ٢٧ ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ الآية. وذُكر في الحماسة ص٦١٦، وديوان علقمة: قصيدة ١٣ بيت ٢٦. واستخدم بمعنى التحريض على القتال في ياقوت ج٤ ص١٠٢بيت١٤. كما حمل معنى الإشارة الخفية في ديوان عنترة قصيدة ٢٧ بيت ٢، ومعلقة لبيد قصيدة ٢ وزهير قصيدة ١٥، ١٧ بيت ٣. ومن هنا جاء المعنى الفني في الطبري ج٣ ص٢٤٢٥، وفي لسان العرب ج١٠ ص٢٥٧ سطر ٢٠ وما بعدها. (نولدكه)

على أنها قرآن[1]... إن معظم أنواع الوحي التي فُصِّلت من قبل لا تقتصر على الوحي القرآني[2].

إن هناك روايات قديمة مختلفة عن كيفية تقسيم الوحي؛ رُبط بينها فيما بعد من خلال رؤية عقدية في نظام فني واحد.

ولقد أجاب محمدٌ عائشة عن سؤال: (كيف كان يأتيه الوحي؟) بأنه أحيانًا كان يسمع جَلَبَةً كالتي تصدر من الجرس: (صلصلة الجرس)، وهذه الطريقة كانت تهجم عليه كثيرًا، وعندما يبتعد عنه الملك يكون قد تلقى عنه الوحي. وأحيانًا يتحدث مع الملك مثلما يتكلم مع واحد من الناس بحيث يفهم كلماته بسهولة[3].

لكن المتأخرين يرتضون بعض الروايات التي بها أنواع كثيرة أخرى [أي عن كيفيات الوحي]:

فوحي مع صلصة الجرس.

١- نفث الروح القدس في قلب محمد.

٢- من خلال جبريل في هيئة إنسان.

٣- من الله مباشرة: إما في حالة اليقظة كما في رحلة المعراج، أو في المنام.

وفي كتاب **المواهب اللدنية** تُحصَى هذه الأنواع كالآتي:

١- الرؤيا المنامية.

٢- إلهام جبريل لقلب النبي.

٣- جبريل في صورة دحية بن خليفة الكلبي.

---

(١) يحيل نولدكه هنا إلى الإتقان ص١٠٢، ويقول:
"Auch die Eingebungen des Musailima und Tulaiha werden als Wahy bezeichnet"
(كانت إلهامات مسيلمة وطليحة أيضًا تعد وحيًا). راجع الطبري ص١٩١٧.

(٢) ويحيل في ذلك إلى الإتقان ص١٠٤.

(٣) وأحال هنا إلى مصادر إسلامية واستشراقية.

٤- مع صلصلة الجرس.

٥- جبريل في مظهره الحقيقي، وظهر هكذا مرتين.

٦- وحي في السماء كما في تنظيم الصلوات الخمس اليومية.

٧- الله بنفسه لكن من وراء حجاب.

٨- وحي من الله مباشرة بدون حجاب.

ويضيف آخرون نوعين؛ هما:

١- جبريل في شكل إنسان آخر: (امرأة بصورة عائشة)[١] وفي بعض الأحيان في هيئة فحل جمل عقور[٢].

٢- الله بذاته مُظهرًا نفسه في الرؤيا المنامية.

يبدو للمرء بسهولة أن كثيرًا من هذه الأنواع تقوم على تفسيرات خاطئة للسنة والقرآن، وهذا موجود من البداية؛ حيث اختلف المسلمون فيما إذا كان قد حدث أن محمدًا رأى ربه وتلقى منه الوحي مباشرة أو لم يحدث. وتوضح عائشة أن من زعم هذا [يعني أن النبي رأى ربه مباشرة] فقد أتى - بغير قصد - إثمًا عظيمًا[٣]. مع ذلك فإن هذا الرأي الذي ظهر من خلال التفسير الخاطئ لبعض النصوص[٤]: قد بقي رغم أنه يعارض تمام المعارضة تصور محمد.

---

(١) كما في الطبري ج١ ص١٢٦٢ سطر٦. أو الترمذي: مناقب. (نولدكه)

(٢) ابن هشام ص١٩١، وقارن ص٢٥٨ سطر ٥. (نولدكه)

(٣) ويرجع إلى المصادر الأصلية، وفيها حديث عائشة في البخاري [بشرح ابن حجر ج١٣ص٣٦١ رقم ٧٣٨٠ ط مكتبة الغزالي ومؤسسة مناهل العرفان: وفيه قول عائشة لمسروق: (من حدثك أن محمدًا رأى ربه فقد كذب، وتَلَتْ قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ الآية، وفي مسلم حديث ١٧٧ مجلد ١ ج٣ ص٨ لنفس الناشر: (من زعم أن محمدًا ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية)].

(٤) هذه النصوص في سورة التكوير: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾، وبوجه خاص مطلع سورة النجم، الآية ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ الآيات.

ولقد حاول آخرون أن يخففوا من حدة هذا الرأي، ووصلوا إلى خلاصة مفادها: أن الرسول طبقا لسورة النجم آية: ١١ [١] قد رأى ربه بقلبه[٢].

من هذا القبيل علينا أيضًا أن نستبعد هذا الرأي الذي يظهر فيه جبريل لمحمد في صورة دحية [ويرجع إلى المصادر الأصلية ويقول[٣]]:

"كثير من هؤلاء على القول احترامًا لجبريل: إن دحية كان جميلًا جدًّا، ويشير إلى الآية ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[٤]

على الرغم من أن بعض الكتاب يقولون: إن هذا حصل في أغلب الأحوال[٥]؛ إلا أن هذا الرأي مَرَدُّه إلى حادثة في السنة الخامسة من الهجرة حين رأى الجيشُ دحية يسرع في المقدمة فظنوه جبريل[٦].

وبالمثل فإن النوع السادس[٧] نشأ القول به من خلال رحلة المعراج، والنوع الخامس[٨] قيل به في تفسير آخَر لسورتي التكوير والنجم".

ويدعِي أن عائشة التي روت مع غيرها بعض أحاديث بدء الوحي وفيها الدور الرئيس لجبريل عليه السلام غير ثقة بالمرة؛ يقول[٩]:

" 'Aisa ist aber sehr unzuverlässig, überdies kann ihr Muhammed erst lange nachher von jenem Ereignisse erzählt haben, da sie zur Zeit desselebn noch gar nicht geboren war".

---

(١) ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾.

(٢) ويحيل إلى الترمذي كتاب التفسير، ومشكاة المصابيح للتبريزي ص٤٩٣ - ٥٠١، والمواهب اللدنية، وتفسير البيضاوي لسورة النجم آية: ١١: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾.

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ هامش ٥ ص٢٣.

(٤) مريم، آية: ١٧.

(٥) ويرجع إلى الزمخشري: تفسير الأنعام، آية: ٩: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ الآية.

(٦) ويذكر نولدكه أنه استند في هذا إلى ابن هشام ص٦٨٥، وإلى فايل، هامش ٢٥١.

(٧) هو (وحي في السماء) كما تقدم. [الباحث].

(٨) هو (جبريل في مظهره الحقيقي) كما تقدم. [الباحث].

(٩) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص ٧٨.

وترجمته:

"عائشة غير ثقة بالمرة لأنها قد وُلِدت فيما بعد، ولأن النبي ذكر لها هذه التفاصيل بعد فترة طويلة جدًّا من حدوثها".

وأتناول هنا أمرين: الإشارة إلى قول صائب ورد في كلام نولدكه. وحصر أوجه خطئه في كلامه حتى يمكن تحليله لتسهل بعد ذلك مناقشته وتحرير محل النزاع فيه.

أولًا: لقد أصاب نولدكه حين بيّن أن كلمة وحي عند المسلمين لا تشير فقط إلى القرآن، وإنما تشير إلى كل إلهام للنبي، وإلى كل أمر إلهي حتى لو لم تُقدَّم كلماتُه أبدًا على أنها قرآن؛ ويتضح هذا من الأمثلة الآتية:

- جاء جبريل إلى النبي فقال: (يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من أحببت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌّ به. يا محمد: شرفُ المؤمن قيامُه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس)(١).
- قال عمار بن ياسر: (لما أراد النبي أن يطلق حفصة جاءه جبريل فقال: لا تطلقها، إنها صوامة قوامة)(٢).
- لما أُنزلت: ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾، وارتفع الوحي، قال رسول الله ﷺ: «**خذوا حذركم، قد جعل الله لهن سبيلا: البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة. والثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة**»(٣).
- عندما سئل رسول الله ﷺ: كيف ترى في رجل أحرم بعمرة وهو متضمخ بطيب؟ فسكت ساعة، فجاءه الوحي.. فإذا رسول الله مُحْمَرُّ الوجه وهو يغط، ثم سُري عنه فقال: «.. **اغسل الطيب الذي بك ثلاث مرات، وانزع عنك الجبة، واصنع في**

(١) المستدرك حديث رقم (٧٩٢١) وصححه ووافقه الذهبي، والطيالسي المسند ١ / ٢٤٢، والطبراني: المعجم الأوسط ٤ / ٣٠٦، ومسند الشهاب ١ / ٤٣٥.

(٢) الحاكم: المستدرك ٤ / ١٦، وسكت عنه هو والذهبي.

(٣) الحديث في صحيح مسلم ٣ / ١٣١٦ وفيه «عني» بدل «حذركم» وكذلك في معظم المصادر الأخرى. وراجع: مسند أبي داود الطيالسي ص٧٩ رقم ٥٨٤.

عمرتك كما تصنع في حجتك»[1].

- وقال ابن حجر عن مثل هذه الأحاديث: (واستدل جماعة من العلماء بهذا على أن من الوحي ما لا يتلى)[2].

- وسألته سودة زوجُه فقالت: يا رسول الله، إني خرجت لبعض حاجتي فقال لي عمر: كذا وكذا؛ وكان رسول الله يتعشى وفي يده عَرْقٌ.. فأوحى الله إليه ثم رُفع عنه وإن العَرْقَ في يده ما وضعه فقال: «**إنه قد أُذِن لكن أن تخرجن لحاجتكن**»[3].

- كما ثبت أن جبريل جاءه فقال: (يا محمدُ، كُنْ عجَّاجًا ثجَّاجًا بالتلبيةِ)[4]؛ كما جاءه آمرًا بالشورى في أسرى بدر قائلًا: (خيِّر أصحابك في الأسارى إن شاءوا في القتل وإن شاءوا في الفداء)[5].

ثانيا: لكنه أخطأ:

- حين خلط الحق بالباطل فقال: "كانت إلهامات مسيلمة وطليحة تُعد وحيًا"؛ فلقد كانت الأمانة تقتضيه ألا يُدخل الحديث عمَّا يدعيه هذان الكاذبان لنفسيهما من وحي أثناء حديثه عن وحي الله إلى محمد، أو على الأقل أن يُبين مَن الذي عَدَّ خرافات هذين الكاذبين وحيًا بدلًا من أن يبني الفعل للمجهول في عبارته الألمانية:

“ Auch die Eingebungen des Musailima und Tulaiha werden als Wahy bezeichnet ”

---

(١) البخاري بشرح ابن حجر ج٣ ص ٣٩٣ رقم (١٥٣٦).

(٢) ابن حجر الفتح ج٣ ص ٦١٤.

(٣) مسلم بشرح النووي مجلده ج١٤ ص١٥٠ رقم (٢١٧٠).

(٤) الآحاد والمثاني ج٤ ص١٨ رقم (١٩٦٣).

(٥) السنن الكبرى ج٥ ص٢٠٠ رقم (٨٦٦٢)، وسنن الترمذي ج٤ ص١٣٥ رقم (١٥٦٧) وقال الترمذي: حسن غريب وقال الشيخ الألباني: صحيح. كما صححه ابن حبان وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده قوي: راجع صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ج١١ص١١٨ رقم (٤٧٩٥).

فهل قصد نولدكه من صنيعه هذا أن يُحدث نوعًا من اللبس والخلط لدى القارئ الألماني من حيث التسوية بين كلا الجانبين؛ والإشعار أن الأوساط الإسلامية أيضًا عدَّت فوضى الكاذِبَين المذكورين وحيًا؟

إني أكِلُ أمر المقاصد والنيات لله تعالى؛ لكن المرجع الذي اعتمد عليه نولدكه في هذا هو **تاريخ الطبري** الذي يظهر فيه[1] تمامًا أن الكاذِبيْن وأتباعهما هم فقط الذين عدُّوا ذلك وحيًا؛ فهناك يسأل مُسيلمةُ سجاح المتنبئة الكاذبة: "ما أوحِيَ إليكِ؟ وتسأله هي كذلك: "وقل أنت ما أوحِيَ إليك؟"؛ فكان يسيرًا على نولدكه إذن أن يبين الأمر كما ورد.

- وحين تحدث عمَّا سماه: كيفية تقسيم الوحي؛ حيث ادعى تأخر القول بأنواع الوحي وكيفياته التي استقر عليها المسلمون؛ وأنها لم تثبت عن النبي ﷺ، ورفض وحي الله لنبيه في السماء؛ والوحي إليه بواسطة جبريل الذي يظهر في مظهره الحقيقي؛ أوفي صورة دحية. كما أخطأ حين ادعى كيفيات وحي للنبي لم يقل بها أحد من المسلمين؛ فوضَعَنا بذلك أمام أربع دعاوى:

الأولى: عدم ثبوت معظم أنواع الوحي.

الثانية: رفضه أن يكون الله أوحى للنبي ﷺ في السماء.

والثالثة: زعمه كيفيات وحي للنبي ﷺ لم يقل بها أحد من المسلمين.

الرابعة: رفضه ظهور جبريل للنبي ﷺ.

والفصلان مُكَوِّنا هذا الباب هما:

الفصل الأول: رفض نولدكه لمعظم كيفيات الوحي إلى النبي ﷺ.

الفصل الثاني: رفضه نزول جبريل على النبي ﷺ.

سأتناول في الفصل الأول الدعاوى الثلاث الأُوَل؛ أما الدعوى الرابعة المتعلقة برفضه

(١) ج ٣ ص ٢٧٣.

نزول جبريل بالوحي على النبي فستتم معالجتها في الفصل الثاني. وستكون معالجتي لكل دعوى بأن أعرضها مجملة كما بينَتها كلماته السابقة ثم أناقشها.

* * *



الفصل الأول

رفض نولدكه معظم كيفيات الوحي إلى النبي ﷺ



المبحث الأول
رفضه ثبوت معظم أنواع الوحي

أعالج هنا دعوى نولدكه التي يهدف من ورائها لأن يصل لنتيجة هي: عدم أصالة معظم أنواع الوحي.

فقد ادعى أن الربط بين أنواع وحي الله إلى محمد ﷺ في نظام عقدي واحد قد أحدثه المسلمون فيما بعد، وأن النبي ﷺ لم يتحدث في رواية عائشة إلا عن نوعين هما: أنه كان (يسمع صلصلة الجرس)، (وأحيانا يتحدث معه الملك مثلما يتكلم مع واحد من الناس)؛ أما الأنواع الأخرى فهو يرفض معظمها لسببين:

أولهما: أنها قيلت فقط لأن المتأخرين من المسلمين ارتضوا بعض الروايات الأخرى غير رواية عائشة.

ثانيهما: أنها تقوم على تفسيرات خاطئة للسنة والقرآن.

كما يعمد إلى الخلاف بين علمائنا فيما إذا كان النبي قد رأى ربه أَوْ لاَ؛ فيستغله في تعليل رفضه معظم تلك الأنواع.

ولْنتناول كل جزئية من هذه الدعوى على حدة:

١- إن معتمد نولدكه فيها هو حديث عائشة "أن الحارث بن هشام سأل رسول الله قال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أحيانا يأتيني في مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليَّ فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملَك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول**».[1] حيث

---

(١) البخاري بشرح ابن حجر ج١ ص ١٨ رقم (٢).

فهم أنه ما دام النبي لم يتحدث هنا إلا عن نوعين فقط فإن ما تحدث عنه المسلمون من أنواع أخرى لا يكون له نفس الحجية.

وأود أن أشير أولًا إلى ملاحظتين:

الأولى: أنه لم تكن عائشة هي التي سألت النبي ﷺ بل الحارث بن هشام؛ وهي تروي فقط.

الثانية: أن نولدكه قد استمد هذا الفهم من إيرادٍ أورده ابن حجر على ما اقتضاه الحديث المذكور؛ لكن ابن حجر أجاب عنه؛ فعمد نولدكه - كعادة المستشرقين - إلى الإيراد دون أن يلتفت إلى الجواب[1].

وهدف نولدكه غير المعلن الذي يرمي لتحقيقه من وراء استبعاده كل الروايات التي تثبت أنواع الوحي وكيفياته هو استبعاد كل بعد موضوعي خارجي للوحي وقصره على كونه مجرد أمر ذاتي عاشه النبي ﷺ، أو بسبب طبيعته المرضية الخاصة كما سيأتي.

ولشدة تحكم هذا الهدف في خطة نولدكه وجدناه يطبق مبدأ الاستبعاد هذا (لكن هذه المرة دون إعلان) حتى مع الحديث الذي ارتضاه هو نفسه

(١) قال ابن حجر (الفتح ج١ ص١٩، ٢٠): "وأُورِدَ على ما اقتضاه الحديث - وهو أن الوحي منحصر في الحالتين- حالات أخرى، إما من صفة الوحي: كمجيئه كدوي النحل والنفث في الروع والإلهام والرؤيا الصالحة والتكليم ليلة الإسراء بلا واسطة؛ وإما من صفة حامل الوحي: كمجيئه في صورته التي خلق عليها له ستمائة جناح، ورؤيته على كرسي بين السماء والأرض وقد سد الأفق. والجواب منع الحصر في الحالتين المقدم ذكرهما وحملهما على الغالب.. أو لم يتعرض لصفتي الملك المذكورتين لندورهما فقد ثبت عن عائشة أنه لم يره كذلك إلا مرتين.. ودوي النحل لا يعارض صلصلة الجرس؛ لأن سماع الدوي بالنسبة إلى الحاضرين كما في حديث عمر والصلصلة بالنسبة إلى النبي؛ فشَبَّهه عمر بدوي النحل بالنسبة إلى السامعين، وشبهه النبي بصلصلة الجرس بالنسبة إلى مقامه. وأما النفث في الروع فيحتمل أنه يرجع إلى إحدى الحالتين؛ فإذا أتاه الملك في مثل صلصلة الجرس نفث حينئذ في روعه، وأما الإلهام فلم يقع السؤال عنه؛ لأن السؤال وقع عن صفة الوحي الذي يأتي بحامل، وكذا التكليم ليلة الإسراء. وأما الرؤيا الصالحة فقال ابن بطال: لا ترد؛ لأن السؤال وقع عما ينفرد به عن الناس.".

معبرًا من النبي عن أنواع الوحي (حديث الحارث بن هشام)؛ فيتجاهل تمامًا الشطر الثاني من الحديث الذي يقول فيه النبي:

«**وأحيانا يتمثل لي الملَك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول**».

فلا يتحدث نولدكه على الإطلاق عن هذه الكيفية؛ في حين أننا سنراه في الباب الثاني يُطنب في الحديث عن الشطر الأول منه ليصل تقريبا إلى الصفحتين؛ وما هذا إلا لأن نولدكه يظن أن قول النبي ﷺ: «**أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس**». يفيده في تفسير الوحي لمحمد ﷺ على أنه أمر ذاتي داخلي يأتي إثر حالة صرعية مرضية وليس له أي بعد موضوعي خارجي؛ في حين أن تمثل الملك للنبي رجلًا لا يساعد نولدكه على هذا التفسير. وسيكون الباب التالي بإذن الله موضع نقدنا لنولدكه في هذا.

لكن على أية حال فإنّ فهمَه عن حصر الحديث المذكور لكيفيات الوحي غير صحيح؛ فبالإضافة لما نقلناه عن ابن حجر في هامش الصفحة السابقة؛ فإن الرسول يتحدث هنا عن الصفة الغالبة للحظة نزول الملك عليه بالوحي، ولا يتحدث عن كل أنواع الوحي وكيفياته بإطلاق. كما أن الفكرة المتكاملة عن الموضوع الواحد لا ينبغي أن نستمدها من حديث واحد يتناولها، وإنما على الباحث الموضوعي أن يجمع سائر المستندات النصِّية التي تناولتها، وهذا ما سنبينه في الفقرة٤.

٢- ولو افترضنا جدلًا أن المسلمين هم الذين اخترعوا أنواع الوحي وكيفياته التي يشكك نولدكه في حصولها، فالسؤال الذي ينبغي أن يُسأل: لماذا يفعلون؟ وبأي هدف؟ هل ثمة ثغرة عقدية يجب أن تُسد؟

إن نولدكه لم يبين سببًا واحدًا من أجله أحدث العلماء المسلمون هذه الإضافة.

والحق أن المهم بالنسبة لعقيدة الإسلام ثبوت أصل الوحي إلى النبي محمد ﷺ سواء اقتصر على كيفية نزول واحدة أو تعددت كيفيات

وأساليب نزوله؛ وبالتالي فليس ثمة داع لدى المسلمين لاختراع كيفيات وحي لم تثبت، إن افترضنا أنهم يخترعون شيئًا أصلًا!.

٣- لو كان نولدكه قال: إن معظم القرآن نزل مسبوقًا بتنبيه النبي ﷺ بما يشبه أن يكون صلصلة الجرس لكان ذلك صوابًا، لكنه لم يتحدث عن نزول القرآن فقط بل تحدث عن مطلق الوحي إلى النبي ﷺ فأنكر بإطلاقٍ ثبوت كل الكيفيات الأخرى.

٤- ونقول بهذا الشأن: إن أنواع وحي الله التي اتفق عليها المسلمون ثابتة بالقرآن والسنة ولم يخترعها علماؤهم؛ إذ إنها تُذكر حصرًا في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[1]؛ فقوله: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ يتضمن الرؤيا المنامية الواضحة أو الرمزية، والإلهام؛ فكلها تشترك في الإعلام الخفي. وقوله تعالى: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ يتضمن الكلام المباشر من الله لرسوله الموحَى إليه؛ لكن من وراء حجاب. وقوله تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ يتضمن الوحي بواسطة ملَك؛ فنحن إذن أمام ثلاثة أنواع للوحي:

أ- كلام الله لعبده وحيًا؛ وهنا تأتي الرؤيا المنامية ومنها: رؤيا إبراهيم عليه السلام ورؤيا النبي ﷺ دخوله وأصحابه المسجد الحرام آمنين، وكذا سائر رؤاه الأخرى.

ويأتي كذلك الإلهام ومنه ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[2]، وكذلك إلهام الله مريم أن تهز النخلة لينزل عليها الرطب، وإلهامها أن تمتنع عن الكلام مع المعترضين على ولادتها المسيح بغير أب: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا

(١) الشورى: ٥١.
(٢) القصص: ٧.

فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾[1].

ب- كلام الله لعبده من وراء حجاب؛ حيث يكلم الله النبي الموحَى إليه مباشرة من وراء حجاب بلا واسطة، وقد وقع ذلك وأشار إليه القرآن ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾[2].

ج- إرسال الله رسولًا من الملائكة إلى نبيه من البشر فيوحي إليه ما يريده الله. والملك المكلف عادة من قبل الله بالوحي هو جبريل. لكن لا يمتنع أن يكلف الله ملكًا آخر بذلك[3].

٥- هذا وقد أوحي إلى رسول الله محمد ﷺ بهذه الأنواع الثلاثة:

أ- فقد كانت الرؤيا الصالحة في النوم كما جاء في حديث السيدة عائشة: (أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي؛ فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح)[4]. ولم تقتصر الرؤية الصالحة على بدايات الوحي فقط؛ بل بقيت وسيلةً يوحي الله بها لنبيه محمد أمورًا غير القرآن؛ منها رؤيا النبي دخوله وأصحابه المسجد الحرام آمنين قال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[5].

(١) مريم: ٢٥، ٢٦.
(٢) النساء: ١٦٤.
(٣) ويحصي ابن حجر (الفتح: ج١ ص١٩) كيفيات الوحي؛ فيرى أن منها كيفيات تعود إلى صفة الوحي كمجيئه كدوي النحل وصلصلة الجرس والنفث في الروع والإلهام والرؤيا الصالحة والتكليم ليلة الإسراء بلا واسطة، أو (أخرى) تعود لصفة حامل الوحي كمجيئه في صورته التي خلق عليها له ستمائة جناح ورؤيته على كرسي بين السماء والأرض وقد سد الأفق، والتكليم ليلة الإسراء، أو تمثل الملك رجلًا.
(٤) البخاري بشرح ابن حجر ج ١ ص٢٢ رقم ٣.
(٥) الفتح، آية: ٢٧.

وثبت في السنة أن رسول الله ﷺ رأى في المنام دخوله وأصحابه المسجد الحرام آمنين؛ ومن ثم كان خروجهم بأمره للعمرة عام ستٍّ من الهجرة. لكن لما لم يتمكنوا من ذلك، وتم صلح الحديبية مع المشركين ومن بنوده أن يرجع المسلمون تلك المرة ثم يعودون ليقضوا العمرة العام القادم؛ توجه عمر بالسؤال للنبي ﷺ مستفسرًا عن تلك الرؤيا التي كان النبي قد رآها؛ قائلًا: ألست نبي الله حقًّا؟ قال النبي: «**بلى**». قال عمر: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال النبي: «**بلى**». قال عمر: فَلِمَ نعطي الدنية في ديننا إذًا؟ قال النبي: «**إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري**». قال عمر: أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال النبي: «**بلى؛ فأَخَبَرْتُك أنا نأتيه العام؟**». قال عمر: لا. قال النبي: «**فإنك آتيه ومطوِّف به**»[1].

ومن رؤاه ﷺ: ما يعبر عنها قوله: «**رأيتني دخلت الجنة فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبي طلحة وسمعت خشفةً**[2] **فقلت: من هذا؟ فقال: هذا بلال. ورأيت قصرًا بفنائه جارية فقلت: لمن هذا؟ فقالوا: لعمر. فأردت أن أدخله فأنظر إليه فذكرت غيرتك**». فقال عمر: بأبي وأمي يا رسول الله أعليك أغار؟[3]، وقوله: «**بينا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب فأهمني شأنهما، فأوحي إلي في المنام أن انفخهما، فنفختهما فطارا. فأولتهما كذابين يخرجان من بعدي**». فكان أحدهما العنسي صاحب صنعاء، والآخر مسيلمة صاحب اليمامة[4]، وقوله لعائشة: «**أريتك في المنام مرتين إذا رجل يحملك في سَرَقَة من حرير فيقول: هذه امرأتك فَأَكشِفُها فإذا هي أنت.**

(١) البخاري بشرح ابن حجر ج٥ ص٣٣١ - ٣٣٢ رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢.

(٢) حركة أو صوتًا ليسا شديدين.

(٣) البخاري بشرح ابن حجر ج٧ ص٤٠ رقم (٣٦٧٩).

(٤) مسلم بشرح النووي مجلد ٥ ج١٥ ص ٣٤ رقم (٢٢٧٤).

فأقول: إن يكن هذا من عند الله يمضه»[1].

كما رأى في منامه الجنة والنار وقال: «**إني أُريت الجنة فتناولت عنقودًا ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، وأُريت النار فلم أر منظرًا كاليوم قط أفظع**»[2].

ورأى في نومه أم حرام بنت ملحان أنها من أول من يركب البحر غَزْوًا في سبيل الله، فحصل لها ذلك في عهد معاوية بن أبي سفيان[3].

كما رأى في نومه ما أُوِّلَ على أنه ولاية عمر طويلة المدة إثر ولاية أبي بكر القصيرة[4].

أما القرآن فلم يثبت أن شيئًا منه أوحي منامًا، وسنوضح هذا أكثر فيما بعد.

ب- كما كلم الله محمدًا ﷺ من وراء حجاب ليلة المعراج، وفرض الصلاة عليه عندئذ.

ولقد بين القرآن إمكان ذلك فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾[5]. وجاء الخبر الصحيح بوقوعه للنبي ﷺ؛ فلقد كان مما تحدث به النبي عن المعراج قوله: «**... ثم ذُهب بي إلى السدرة المنتهى وإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال**». قال: «**فلما غشيها من أمر الله ما غشى تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها فأوحى الله إليَّ ما أَوْحَى**»[6]؛ ففَرَض

(١) البخاري بشرح ابن حجر ج٩ ص١٢٠ رقم (٥٠٧٨).

(٢) البخاري بشرح ابن حجر ج٢ ص٥٤٠ رقم (١٠٥٢).

(٣) البخاري بشرح ابن حجر ج٦ ص١٠ رقم (٢٧٨٨، ٢٧٨٩).

(٤) البخاري بشرح ابن حجر: كتاب التعبير: باب نزع الذنوب والذنوبين بضعف: رقم ٦٦١٨، دار الريان، القاهرة ١٤٠٧هـ.

(٥) الشورى: ٥١.

(٦) قال القاضي عياض (الشفا ج١ ص١٦٤) بشأن قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾: (أكثر =

عليَّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة فنزلتُ إلى موسى، فقال: ما فرض ربُّك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا يطيقون ذلك فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم. قال: فرجعت إلى ربي، فقلت: يا رب! خفف على أمتي، فحطَّ عني خمسًا، فرجعت إلى موسى فقلت: حطَّ عني خمسًا. قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. قال: فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال: يا محمد، إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فذلك خمسون صلاة...»[1] الحديث.

وينبغي الإشارة هنا إلى أنه لم يثبت أن شيئًا من القرآن أوحي بهذه الكيفية. ولقد أخطأ نولدكه حين نقل عن السيوطي (الإتقان ٦٢) اعتباره كلام الله محمدًا ﷺ من وراء حجاب من أنواع الوحي؛ دون أن ينقل عنه قوله في نفس الموضع: (وليس في القرآن من هذا النوع شيء فيما أعلم) وكانت الأمانة تقتضيه أن ينقله.

ج- كما رأى رسول الله ﷺ ربه منامًا وأوحى إليه غير القرآن ففي مسند **الإمام أحمد** أن رسول الله ﷺ قال: «**أتاني ربي عز وجل الليلة في أحسن صورة** - أحسبه يعني في النوم - **فقال: يا محمد، هل تدري**

= المفسرين على أن الموحِي هو الله عز وجل إلى جبريل، وجبريل إلى محمد إلا شذوذًا منهم فذُكر عن جعفر بن محمد الصادق فأوحى إليه بلا واسطة، ونحوه عن الواسطي. وإلى هذا ذهب بعض المتكلمين أن محمدًا كلم ربه في الإسراء. وحكي عن الأشعري، وحكوه عن ابن مسعود وابن عباس، وأنكره آخرون). ثم قال (نفس المرجع ١٦٥): (وكلام الله تعالى لمحمد ﷺ ومن اختصه من أنبيائه جائز غير ممتنع عقلًا ولا ورد في الشرع قاطع يمنعه، فإن صح في ذلك خبر اعتمد عليه. وكلامه تعالى لموسى كائن حق مقطوع به نصُّ ذلك في الكتاب وأكده بالمصدر - يقصد قوله تعالى: ﴿تَكۡلِيمٗا﴾ - دلالة على الحقيقة). انتهى كلام القاضي، وأضيف: إننا قد رأينا الحديث الصحيح أعلاه الذي يثبت الوحي بهذه الكيفية.

(١) مسلم بشرح النووي مجلد١ ج٢ ص ٢١٤ رقم (١٦٢).

فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت: لا». قال النبي ﷺ: «فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي». أو قال: «نحري، فعلمت ما في السماوات وما في الأرض. ثم قال: يا محمد، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت: نعم يختصمون في الكفارات والدرجات. قال: وما الكفارات والدرجات؟ قال: المكث في المساجد والمشي على الأقدام إلى الجمُعات وإبلاغ الوضوء في المكاره؛ ومن فعل ذلك عاش بخير ومات بخير وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه. وقل يا محمد إذا صليت: اللهم إني أسألك الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وإذا أردت بعبادك فتنة أن تقبضني إليك غير مفتون. قال: والدرجات بذل الطعام وإفشاء السلام والصلاة بالليل والناس نيام»[١].

ولم يكن محمد ﷺ أول من أوحي إليه بهذا النوع من الوحي: فقد تحدث سفر التكوين[٢] عن كلام الله لإبراهيم في النوم. كما جاء في سفر صموئيل الثاني[٣]: (وفي تلك الليلة كان كلام الرب إلى ناثان قائلا اذهب وقل لعبدي داود). والدليل على أن الحديث هنا عن (رؤيا): ما نجده في الفقرة ١٧ من ذات السفر، وهي: (فحسب جميع هذا الكلام وحسب كل هذه الرؤيا كلام ناثان داود). كما جاء في سفر أخبار الأيام الثاني[٤]: (في تلك الليلة تراءى الله لسليمان).

(١) مسند أحمد ج١ ص ٣٦٨ رقم (٣٤٨٤) وقد روى الترمذي هذا الحديث عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ بطوله وقال: «**إني نعست فاستثقلت نومًا فرأيت ربي في أحسن صورة فقال: فيم يختصم الملأ الأعلى**» سنن الترمذي ج٥ ص٣٦٧ رقم (٣٢٣٤). وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٢) ١٥: ١ - ٢.

(٣) ٧: ٤.

(٤) ١: ٧.

د- هذا بالإضافة إلى النوع الثالث الذي نزل كل القرآن به، وهو أن يرسل الله أمين الوحي جبريل عليه السلام؛ الذي كان لنزوله عدة كيفيات أو حالات:

الحالة الأولى: أن يأتي الملك النبيَّ في صورته الملكية التي خلقه الله عليها؛ ولأهمية هذه الحالة ومركزيتها في صدقية وحي الله للنبي محمد ﷺ؛ ولأن نولدكه يفردها بالإنكار على نحو خاص؛ فسأعالجها معالجة مستقلة في الفصل التالي. لكن أكتفي هنا لبيان أصالة هذه الحالة بذكر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[1]، وحديث النبي الذي يؤكد على أن بداية الوحي كانت على يد الملك في هيئته الحقيقية يقول النبي: «**فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فجئثت منه رعبًا فرجعت فقلت: زملوني زملوني فدثَّروني**» الحديث[2]. ولم ينزل بهذه الكيفية من القرآن سوى بداية سورة العلق إلى ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

الحالة الثانية: أن يأتي جبريل في صورة دحية. ولنفس التعليل المقدم في الحالة السابقة سأتناول النصوص المثبتة لهذه الحالة بالتفصيل بعد قليل؛ لكن أكتفي هنا لبيان أصالتها أن أذكر هذا الحديث الصحيح: روى الطبراني من حديث عفيرة بن معدان عن قتادة عن أنس عن النبي ﷺ: «**كان جبريل يأتيني على صورة دحية الكلبي**»[3].

الحالة الثالثة (وهي التي يُقِرُّ بها نولدكه؛ لكنه يفسرها بإصابة النبي بحالة صرعية مرضية؛ وسيأتي تفصيل ذلك في المبحث التالي)

(١) النجم ٨-٩، وسيأتي بيان أن الحديث هنا عن رؤية النبي لجبريل عليه السلام وليس عن رؤيته لله.

(٢) البخاري بشرح ابن حجر ج٨ ص ٦٧٨، ٦٧٩ رقم (٤٩٢٥).

(٣) ابن حجر: الإصابة ج١ ص٤٦٣ رقم (٢٣٩٠)، دار الكتاب العربي بيروت.

وفيها يأتي الملكُ النبيَّ فيشعر بمقدِمه بسماعه صوتًا يشبه صلصلة الجرس، في حين يشعرالحاضرون بدوي كدَوِيِّ النحل، ويعتري النبي عندئذ ما يشبه الحُمَّى؛ فيَعْرِقُ في اليوم البارد؛ قال النبي: «**أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليَّ فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال**»[١]. وقالت عائشة رضي الله عنها: (ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا)[٢]؛ وقالت تصف إحدى لحظات نزول الوحي[٣] على النبي أمام عينيها وفي بيتها: (فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحَاء حتى إنه ليتحَدَّر منه العرق مثل الجمان وهو في يوم شاتٍ من ثِقَل القول الذي أنزل عليه)[٤]. وقال عمر رضي الله عنه عن ذات اللحظة: (يُسمع عنده كدوي النحل)[٥]، و(دوي النحل لا يعارض صلصلة الجرس لأن سماع الدوي بالنسبة إلى الحاضرين كما في حديث عمر والصلصلة بالنسبة إلى النبي؛ فشَبَّهَهُ عمر بدوي النحل بالنسبة إلى السامعين وشبهه النبي بصلصلة الجرس بالنسبة إلى مقامه)[٦].

والحكمة في تقدم صلصلة الجرس - كما يقول ابن حجر[٧] (أن يقرع سمعَه الوحيُ فلا يبقى فيه مكان لغيره). أما عرقه في اليوم الشديد البرد فيفسره أيضًا على أنه (دلالة على كثرة معاناة التعب والكرب عند نزول الوحي لما فيه من مخالفة العادة وهو كثرة العرق في شدة البرد فإنه يُشْعِرُ بوجود أمر طارئ زائد على الطباع

(١) البخاري بشرح ابن حجر ج١ ص١٨ رقم (٢).
(٢) البخاري بشرح ابن حجر ج ١ ص ١٨ رقم (٢).
(٣) وهو في هذه الحالة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡ﴾ إلى عشر آيات من سورة النور.
(٤) البخاري بشرح ابن حجر ج٧ ص٤٣٤ رقم (٤١٤١).
(٥) المصدر السابق ج١ ص١٩ رقم (٢).
(٦) المصدر السابق ج١ ص١٩.
(٧) ابن حجر: الفتح ج ١ ص٢٠

البشرية)[1]، ويقول[2]: (قوله: «**وهو أشدُّه عَلَيَّ**» يُفهم منه أن الوحي كله شديد ولكن هذه الصفة أشدها، وهو واضح لأن الفهم من كلام مثل الصلصلة أَشكلُ من الفهم من كلام الرجل بالتخاطب المعهود... وقال شيخنا شيخ الإسلام البلقيني: سبب ذلك أن الكلام العظيم له مقدمات تؤذن بتعظيمه للاهتمام به... وفائدة هذه الشدة ما يترتب على المشقة من زيادة الزلفى والدرجات). وهذه الكيفية هي التي أوحي بها كل القرآن عدا بداية سورة العلق.

الحالة الرابعة: أن يأتيه الملك في صورة رجل غير معروف فيكلمه؛ وثبت ذلك بحديث عمر حيث طلع عليهم - وهم جلوس مع الرسول - رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثرُ السَّفَرِ ولا يعرفه منهم أحد، وسأل النبي عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وأماراتها؛ وكان كلما أجابه النبي قال له: صدقت؛ فعجب الصحابة لذلك؛ ولما انصرف قال النبي: «**إنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**»[3]. وفي حديث الحارث بن هشام حين سأل النبي ﷺ: كيف يأتيك الوحي فقال: «.. **وأحيانًا يتمثل لي الملَك رجلًا** (دون تحديد) **فيكلمني فأعي ما يقول**»[4]. يشمل هذا الرجل المعروف وغير المعروف. ولم يُوحَ بهذه الكيفية شيء من القرآن.

الحالة الخامسة: أن يأتيه الملك جبريل في صورةٍ ما لا تحددها روايات السنة ولا يدرك تلك الصورة إلا النبي؛ فقد ورد في السنة عن السيدة عائشة أنها قالت: (لما كانت ليلتي التي كان النبي فيها

(١) ابن حجر: الفتح ج ١ ص٢٠

(٢) ابن حجر: الفتح ج ١ ص٢٠

(٣) مسلم بشرح النووي مجلد ١ ج١ ص١٥٠ وما بعدها، رقم (٨).

(٤) البخاري بشرح ابن حجر ج١ ص١٨ رقم (٢).

عندي انقلب، فوضع رداءه وخلع نعليه فوضعهما عند رجليه، وبسط طرف إزاره على فراشه فاضطجع؛ فلم يلبث إلا ريثما ظن أن قد رقدت؛ فأخذ رداءه رويدًا وانتعل رويدًا وفتح الباب فخرج، ثم أجافه رويدًا، فجعلت درعي في رأسي واختمرت وتقنعت إزاري، ثم انطلقت على إثره حتى جاء البقيع، فقام فأطال القيام، ثم رفع يديه ثلاث مرات، ثم انحرف فانحرفت، فأسرع فأسرعت، فهرول فهرولت، فأحضر[1] فأحضرت فسبقته فدخلت، فليس إلا أن اضطجعت فدخل فقال: «**ما لكِ يا عائش حشيا رابية!**». قالت: قلت: لا شيء! قال: «**لتخبريني أو ليخبرني اللطيف الخبير!**». قالت: قلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي. فأخبرته. قال: «**فأنت السواد الذي رأيت أمامي؟**». قلت: نعم، فلَهدني[2] في صدري لهدة أوجعتني، ثم قال: «**أظننتِ أن يحيف الله عليك ورسوله؟**». قالت: مهما يكتم الناس يعلمه الله نعم. قال: «**فإن جبريل أتاني حين رأيت فناداني فأخفاه منك، فأجبته فأخفيته منك، ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك؛ وظننت أن قد رقدت فكرهت أن أوقظك، وخشيت أن تستوحشي؛ فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم**». قالت: قلت: كيف أقول لهم يا رسول الله قال: «**قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون**»[3].

---

(١) أحضر الفرسُ أو الرجل وثب في عدوه، والإحضار: الإسراع (المعجم الوسيط ج١ ص ١٨٧، والنهاية في غريب الحديث والأثر ج١ ص٣٩٨).

(٢) اللهد: الدفع الشديد.

(٣) مسلم بشرح النووي المجلد٣ ج٧ ص ٤٢ وما بعدها رقم: (٩٧٤) وقوله: «**حشيا رابية**» بمعنى ما لك قد وقع عليك الحشأ، وهو الربو والتهيج الذي يعرض للمسرع في مشيته والمحتد في كلامه من ارتفاع النفس وتواتره. راجع: النهاية في غريب الحديث والأثر ج١ ص٣٩٢.

فنحن نلاحظ هنا أن الصورة التي جاء عليها جبريل غير محددة ولم ترها عائشة. ولم يوح بها شيء من القرآن.

الحالة السادسة: أن يلقي في روعه الكلام إلقاءً كما في الحديث: «**إن جبريل عليه السلام ألقى في روعي أن أحدًا منكم لن يخرج من الدنيا حتى يستكمل رزقه**»(١). ولم يوح شيء من القرآن بهذه الكيفية.

استغلال نولدكه الخلاف الحاصل بشأن الرؤية:

وبعد أن أسقطنا محاولة نولدكه الاستدلال على استبعاد حالاتِ وأنواعِ الوحي التي لا يريد إثباتها للنبي ﷺ بما فهمه من أن النبي حصر الوحي في نوعين؛ أتناول الآن استغلاله للخلاف الحاصل في مسألة رؤية النبي لربه ليلة المعراج من أجل أن يثير الشكوك حول سائر أنواع الوحي وكيفياته.

لقد مر بنا قوله: "يبدو للمرء بسهولة أن كثيرًا من هذه الأنواع تقوم على تفسيرات خاطئة للسنة والقرآن، وهذا موجود من البداية؛ حيث اختلف المسلمون فيما إذا كان قد حدث أن محمدًا رأى ربه وتلقى منه الوحي مباشرة أوْ لم يحدث. وتوضح عائشة أن من زعم هذا [يعنى أن النبي رأى ربه مباشرة] فقد أتى - بغير قصدٍ - إثمًا عظيمًا(٢).

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ج٢ ص٥ رقم (٢١٣٦)، وسكت عنه، وأورده المنذري في الترغيب والترهيب ج٣ ص٧، وعزاه إلى الحاكم مصدِّرًا إياه بصيغة: عن، دون أن يشير إلى عيب في السند؛ مما يعني صحة الحديث أو حُسنه عنده وفقًا لما قال في مقدمته ج١ ص٤. والحديث بتمامه: «**ليس من عمل يقرب إلى الجنة إلا قد أمرتكم به، ولا عمل يقرب إلى النار إلا قد نهيتكم عنه، لا يستبطئن أحد منكم رزقه. إن جبريل عليه السلام ألقى في رُوعِي أن أحدًا منكم لن يخرج من الدنيا حتى يستكمل رزقه فاتقوا الله أيها الناس وأجملوا في الطلب فإن استبطأ أحد منكم رزقه فلا يطلبه بمعصية الله فإن الله لا ينال فضله بمعصيته**».

(٢) ويرجع إلى المصادر الأصلية، وفيها حديث عائشة (البخاري بشرح ابن حجر ج١٣ ص٣٦١ رقم٧٣٨٠)، وفيه قول عائشة لمسروق: (من حدثك أن محمدًا رأى ربه فقد كذب). وتلت قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ الآية، وفي (مسلم بشرح النووي حديث (١٧٧) مجلد ١ =

مع ذلك فإن هذا الرأي الذي ظهر من خلال التفسير الخاطئ لبعض النصوص(١) قد بقي على الرغم من أنه يعارض تمام المعارضة تصور محمد. ولقد حاول آخرون أن يخففوا من حدة هذا الرأي ووصلوا إلى خلاصة مفادها أن الرسول طبقا لسورة النجم آية: "(٢)١١ قد رأى ربه بقلبه"(٣). ولا يعنينا هنا أن نحلل الآراء المختلفة بشأن إثبات أو نفي رؤية النبي(٤) ربه ليلة المعراج؛ لأن المسلمين متفقون غالبا أنها لم تكن وسيلة

= ج٣ ص٨): (من زعم أن محمدًا ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية).

(١) هذه النصوص في سورة التكوير: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾، وبوجه خاص مطلع سورة النجم، الآية ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ الآيات.

(٢) ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾.

(٣) ويحيل إلى الترمذي كتاب التفسير، ومشكاة المصابيح للتبريزي ص٤٩٣ - ٥٠١، والمواهب اللدنية، وتفسير البيضاوي لسورة النجم آية ١١: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾.

(٤) اختلف السلف في رؤية النبي ربه؛ فذهبت عائشة وابن مسعود وأبو هريرة إلى إنكارها؛ قالت عائشة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾: (ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجل، وإنه أتاه هذه المرة في صورته التي هي صورته فسد الأفق). (البخاري بشرح ابن حجر ج ٦ ص٣١٣ رقم ٣٢٣٥)، وورد عن زر بن حبيش عن نفس الآيات قال: حدثنا ابن مسعود أنه (أي النبي) (رأى جبريل له ستمائة جناح). (البخاري بشرح ابن حجر ج٦ ص٣١٣ رقم (٣٢٣٢) وراجع مسلم بشرح النووي مجلد ١ ج٣ ص٣). لكن عروة بن الزبير أثبتها، وكان يشتد عليه إذا ذكر له إنكار عائشة. كما أثبتها ابن عباس وسائر أصحابه؛ لكنه قال: لم يره بعينه إنما رآه بقلبه. وأثبتها كعب الأحبار والزهري وصاحبه معمر وآخرون. وكذا الأشعري وغالب أتباعه. واختلف عن أبي ذر؛ فعند مسلم من حديث أبي ذر أنه سأل النبي ﷺ عن ذلك فقال: «**نور أنَّى أراه**». ولأحمد عنه قال: «**رأيت نورًا**». وحُكي عن الحسن أنه حلف أن محمدًا رأى ربه؛ لكن حكي عنه كذلك أنه رأى جبريل. وقال القاضي عياض: "رؤية الله سبحانه وتعالى جائزة عقلًا وثبتت الأخبار الصحيحة المشهورة بوقوعها للمؤمنين في الآخرة؛ وأما في الدنيا فقال مالك: إنما لم يُر سبحانه في الدنيا لأنه باقٍ؛ والباقي لا يُرى بالفاني. فإذا كان في الآخرة ورزقوا أبصارًا باقية رأوا الباقي بالباقي. ثم قال: وليس في هذا الكلام استحالة الرؤية إلا من حيث القدرة، فإذا قوَّى الله من شاء من عباده عليها لم تمتنع. وخلص القاضي عياض إلى أنه لا يوجد أثر قاطع متواتر عن النبي ﷺ عن هذا. وقد رجح القرطبي في المفهم قول الوقف في هذه المسألة، وعزاه لجماعة من المحققين وقواه بأنه ليس في الباب دليل قاطع؛ وغاية ما استدل به للطائفتين ظواهر متعارضة قابلة للتأويل، قال: (وليست المسألة من العمليات فيكتفى فيها =

لتنزيل القرآن على النبي. لكن الذي يعنينا هنا هو شأن منهجي؛ إذ عمد نولدكه وهو الناقد الموضوعي لتاريخ الأديان! إلى أنواع الوحي الثابتة بالقرآن والسنة[1] فشكك فيها زاعمًا أنه من السهل أن نكتشف أن هذه الأنواع تقوم على تفسيرات خاطئة للسنة والقرآن مستندًا إلى قول بعض السلف أن رسول الله رأى ربه ليلة المعراج.

فهو يرى أنه ما دام البعض قد أخطأ في تفسير آيتين ففهم منهما أن رسول الله ﷺ رأى ربه؛ فلا بد أن يكون المسلمون قد قالوا بأنواع الوحي هذه أيضًا بناء على تفسيرات خاطئة كذلك للقرآن والسنة. لكنه بهذا وقع في الأخطاء الآتية:

أ- دون أن نتطرق لقبولنا تقييم نولدكه لهذا الرأي أو عدم قبوله؛ فقد انطلق من تخطيئه له إلى أن يحكم بسهولة - كما قال - بخطأ ثمانية كيفيات للوحي؛ من غير أن يكترث بوقوعه في خطأ التعميم؛ لأننا حتى لو سلمنا جدلًا أن رؤية النبي ربه في المعراج كانت كيفية من كيفيات الوحي؛ فليس معنى خطأ القول بكيفيةٍ للوحي معينةٍ أن القول بالكيفيات الثمانية الأخرى خطأ كذلك؛ إلا أن يكون نولدكه قد وضع يده على قواعد بحث علمي جديد لا نعرفها.

ب- إن معيار الحكم بثبوت وسيلة للوحي أو عدم ثبوتها هو القرآن والسنة. ونولدكه نفسه حينما اعتمد كيفية الوحي التي فيها يسمع النبي صوتًا يشبه صلصلة الجرس؛ اعتمدها بناءً على حديث للنبي ﷺ؛ فلماذا لا يتوحد لديه معيار الحكم على كل كيفيات الوحي الثمانية الأخرى خاصة أننا رأينا ثبوتها بالقرآن إجمالًا وبالسنة تفصيلًا؟

الحق أن لهذا الثبوت تحديدًا جعل نولدكه معيار الحكم مختلفًا حتى لا يضطر إلى التسليم بها وهي ضد قوله بذاتية الوحي المحمدي.

= بالأدلة الظنية وإنما هي من المعتقدات فلا يكتفى فيها إلا بالدليل القطعي. ووجدت التوقف هذا مذهبَ سعيد بن جبير: قال: لا أقول رآه ولا لم يره). راجع القاضي عياض: الشفا ص١٥٧- ١٦٤ و ابن حجر: فتح الباري ج٨ ص٦٠٦ - ٦١٠.

(١) أُذَكِّر القارئ هنا أن معيار الإثبات لكيفية الوحي التي أقرها نولدكه كانت هي ثبوتها بالسنَّة؛ والسبب الذي من أجله رفض الكيفيات الأخرى هو أنها - حسب زعمه - قامت على تفسيرات خاطئة للقرآن والسنة؛ لذا فليس بعيدًا عن الموضوعية أن نحاكمه إليهما.

ج- ذكر نولدكه أن كثيرًا من هذه الأنواع يقوم القول بها على تفسيرات خاطئة للسنة والقرآن؛ ولم يبين على الإطلاق أي أنواع الوحي يقصد؛ أو أي تفسيرات خاطئة هي التي قام عليها القول بهذا النوع أو غيره؛ بل جاء كلامه هكذا مرسلا دون أن يعضَّد بدليل مقبول. وحينما تحدث عما له علاقة بهذا لم يذكر سوى الخلاف بشأن رؤية النبي ربه في المعراج وهي غير معدودة أصلا من كيفيات الوحي.

وبعد؛ فقد أثبتنا استنادًا إلى القرآن الكريم والسنة أن رسول الله محمدًا أوحي إليه من الله تعالى بالرؤيا الصالحة، وكلام الله له من وراء حجاب، وبواسطة ملك الوحي جبريل في صورته الحقيقية الملكية؛ أوفي هيئة يتشكل فيها جبريل على صورة دحية بن خليفة الكلبي أو رجل غير محدد الشخصية. أو بواسطة جبريل أيضًا لكن النبي ﷺ لا يراه وإنما يسمع ما يشبه صوت الجرس. أو بإلقاء جبريل في روع النبي.

فثبت إذن أصالة أنواع الوحي التي ادعى نولدكه تأخر القول بها وعدم ثبوتها عن النبي ﷺ، وبطلت بذلك دعواه أن القول بهذه الأنواع إنما تم بسبب تفسيرات خاطئة للسنة والقرآن.

***

المبحث الثاني
قوله بكيفيات وحي للنبي لم تثبت

كما أخطأ نولدكه حين استبعد ثبوت معظم كيفيات الوحي؛ أخطأ كذلك حين أضاف كيفيتين لم تثبتا. فلقد ادعى أن آخرين (لم يُسَمِّهِم) أضافوا أن من أنواع الوحي كيفيتين لنزول جبريل على محمد ﷺ؛ هما:

أ- نزوله في شكل إنسان آخر: (امرأة بصورة عائشة).

ب- نزوله في بعض الأحيان في هيئة فحل جمل عقور.

ولي مع خطأ نولدكه هذا ملاحظتان:

الأولى: متعلقة بموضوع الدعوى وجوهرها.

والثانية: متعلقة بمنهجها وشكلها:

أما الملاحظة المتعلقة بموضوع الدعوى وجوهرها؛ فصحيح أن بعض المؤلفين المسلمين بالغوا في عد أنواع الوحي وكيفياته؛ لكن مبالغتهم لم تتجاوز بأي حال كونهم قد عمدوا إلى بعض صفات لحظات تنزل الوحي فعدوها أنواعًا بذاتها. من هذا القبيل ما نقله ابن حجر عن الحليمي أن الوحي كان يأتيه ﷺ على ستة وأربعين نوعًا؛ حيث عقب ابن حجر بقوله: وغالبها من صفات حامل الوحي، ومجموعها يدخل فيما ذُكر (من أنواع)[1].

لكن رغم هذا فإن أحدًا من علمائنا لم يزعم كيفية للوحي لا أصل لها؛ فلم نجد عالمًا واحدًا محبًّا لواحد من كبار أصحاب النبي كأبي بكر وعمر وعثمان وعليٍّ مثلًا؛ يضيف

(١) ابن حجر: الفتح ج ١ ص٢٠.

أن من مناقب أَيٍّ منهم نزول جبريل بالوحي على النبي وهو متشكل في صورته!! كما أن علماءنا كانوا في معظمهم في مثل هذه القضايا وقّافين - في الإثبات أو النفي - عند حدود القرآن والسنة[1]؛ وبالتالي فلم أتقبل - لأول وهلة - دعوى نولدكه وجود قول لبعض المسلمين فيه أن جبريل نزل بالوحي على النبي في شكل امرأة بصورة عائشة أو في هيئة فحل جمل عقور؛ لأن نصًّا يحمل هذا المعنى لم أقف عليه طيلة حياتي العلمية. ولأحاول تجلية موقفي أكثر بشأن ادعائه على علمائنا قولهم بنزول الوحي على النبي في شكل امرأة بصورة عائشة؛ فإن أحدًا منهم لم يقل به. والمصدران اللذان أحال إليهما هما: **تاريخ الطبري**، و**سنن الترمذي**: كتاب المناقب؛ وبالرجوع إليهما وجدت الطبري[2] يروي عن عائشة (في سياق تحديثها بنعمة الله عليها وتميزها عن باقي زوجات النبي) أن الملك نزل بصورتها، قالت: (نزل الملك بصورتي) أي: نزل عارضًا صورتها على النبي، وليس متشكلًا في صورتها!!.

وبالرجوع كذلك إلى الترمذي وجدت حديث (أن جبريل جاء بصورتها في خرقة حرير خضراء إلى النبي فقال: إن هذه زوجتك في الدنيا والآخرة)[3].

كما روى البخاري هذا أيضًا حيث قال النبي لعائشة: «**إني أُريتك في المنام مرتين، إذا رجل يحملك في سرقة** - أي قطعة - **من حرير فيقول: هذه امرأتك، فأَكْشِفُها فإذا هي أنت، فأقول: إن يكن هذا من عند الله يُمضه**»[4].

ليس في واحد من هذه الأحاديث إذن أن جبريل نزل بالوحي متشكلًا بصورة عائشة على غرار تشكله بصورة دحية الكلبي كما حاول نولدكه أن يوهمنا حصوله؛ وبالتالي لم يضع واحد من علمائنا هذه الأحاديث في سياق ذكره لكيفيات نزول الوحي على

(١) راجع ما ذكرته من توقف سعيد بن جبير والقرطبي والقاضي عياض وجماعة من المحققين في الحكم برؤية النبي ربه ليلة المعراج.

(٢) التاريخ ج٢ ص ٣٩٩.

(٣) سنن الترمذي ج٥ ص٧٠٤ رقم (٣٨٨٠)، وقال الترمذي: حسن غريب. وقال الألباني: صحيح.

(٤) البخاري بشرح ابن حجر ج٩ ص١٢٠ رقم (٥٠٧٨).

النبي ﷺ. فهل تسبب ضعفٌ لغويٌ ما في جعل نولدكه يفهم عبارة: (نزل الملك بصورتي) على أنها تعني تَشَكُّل الملك في صورتها؟! لئن جاز أن يُعذر لهذا السبب في فهمه للعبارة التي أخذها من الطبري فلا يوجد ثمة عذر في فهمه حديث الترمذي على النحو نفسه.

وبشأن ادعائه على علمائنا كذلك قولهم بنزول الوحي في شكل فحل جمل عقور؛ فالمصدر الذي أحال إليه نولدكه هو السيرة النبوية لابن هشام؛ وبمراجعته لم أجد فيه أن الوحي كان ينزل على رسول الله في صورة فحل جمل عقور كما ادعى نولدكه؛ ولكن فيه أن أبا جهل حاول إيذاء رسول الله بأن رفع عليه حجرًا حتى إذا دنا منه رجع منهزمًا منتقعًا لونه قد يبست يداه على حجره ولم يستطع أن ينال من النبي، فقال له أصحابه: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل به؛ فلما دنوتُ منه عرض لي دونه فحل من الإبل فَهَمَّ بي أن يأكلني.

وقال ابن إسحاق: ذُكِرَ لي أن رسول الله قال: «**ذلك جبريل عليه السلام؛ لو دنا لأخذه**»[1].

كما جاء فيه أيضًا أن رجلًا من أراش لجأ لرسول الله في مكة ليرد له حقه المالي الذي اغتصبه منه أبو جهل، فذهب معه النبي وطلب للرجل حقه من أبي جهل فاستجاب أبو جهل سريعًا على غير ما توقع أصحابه المشركون الذين سألوه عن سر هذه الاستجابة السريعة فقال أبو جهل: والله ما هو إلا أن ضرب عَلَيَّ بابي وسمعت صوته فملئت رعبًا، ثم خرجت إليه وإنَّ فوق رأسِه لفحلا من الإبل ما رأيت مثلَ هامته ولا قَصْرته ولا أنيابه لِفَحْلٍ قط؛ والله لو أبيت لأكلني[2]. والقصة ذاتها ذكرها البلاذري في **أنساب الأشراف**[3].

إن الحادثة الأولى وحدها - كما رأينا - هي التي رُوِي فيها أن الملَك المتشكل كان جبريل، أما الحادثة الثانية فلم يُذكر فيها اسم الملَك الذي نصر رسولَ الله، وليس في

(١) السيرة النبوية ج١ ص ١٧٩.
(٢) السيرة النبوية ج٢ ص ٢٤٣ - ٢٤٤.
(٣) ج١ ص ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠

الحالتين ما يشير من قريب أو من بعيد إلى أن ثمة وحيًا إلى رسول الله تَمَّ فيهما - كما أوهم نولدكه قارئه - بل إنهما كانتا حالتي دَفْع عن النبي لقُوَّةِ أبي جهل الغاشمة.

وأما الملاحظة الثانية المتعلقة بمنهج دعواه وشكلها؛ فلا يسعني أن أنتهي من مناقشة نولدكه موضوعيًا إلا بعد أن أوقف القارئ على منهجه في تعامله مع المصدر الإسلامي، آخذًا هذه الجزئية نموذجًا.

لنُعِدْ معًا تأمل قول نولدكه عن أنواع الوحي:

فبعد أن أشار إلى حديث النبي الذي يتحدث عن صلصلة الجرس وتمثل الملك رجلًا قال[1]: "لكن المتأخرين يرتضون بعض الروايات التي بها أنواع كثيرة أخرى [أي عن كيفيات الوحي]:

ففي **الإتقان** يُعَدِّد الآتي:

١- وحي مع صلصة الجرس.

٢- نفث الروح القدس في قلب محمد.

٣- من خلال جبريل في هيئة إنسان.

٤- من الله مباشرة: إما في حالة اليقظة كما في رحلة المعراج؛ أو في المنام.

وفي كتاب **المواهب اللدنية** تُحصَى هذه الأنواع كالآتي:

١- الرؤيا المنامية.

٢- إلهام جبريل لقلب النبي.

٣- جبريل في صورة دحية بن خليفة الكلبي.

٤- مع صلصلة الجرس.

٥- جبريل في مظهره الحقيقي، وظهر هكذا مرتين.

(١) راجع نصه المذكور من قبل في سياقه.

٦- وحي في السماء كما في تنظيم الصلوات الخمس اليومية.

٧- الله بنفسه لكن من وراء حجاب.

٨- وحي من الله مباشرة بدون حجاب.

ويضيف آخرون نوعين؛ هما:

١- جبريل في شكل إنسان آخر: (امرأة بصورة عائشة)[١]، وفي بعض الأحيان في هيئة فحل جمل عقور[٢].

٢- الله بذاته مُظهرًا نفسه في الرؤيا المنامية".

لقد أبطلنا قبل قليل دعوى نولدكه من حيث موضوعها وجوهرها؛ لكن يلفت الانتباه هنا أيضًا منهجها الذي يجب أن نتوقف عنده قليلًا:

لا نحتاج لكثير نظرٍ أن نتبين أن نولدكه عمد إلى نصوص موجودة بالفعل في المصادر الإسلامية التي ذكرها، فوضعها في سياق جديد مختلف تمامًا عن السياق الذي وردت فيه في تلك المصادر. ولا يجب أن يُفهَم هنا أني أفرض وجوب الالتزام منهجيًّا بإيراد نص الاستدلال المقتبَس من المصدر الإسلامي في نفس الباب الذي أورده فيه مصدره. ولا أتوقع كذلك من نولدكه أو غيره ألا يجتهد في البحث عن نصوص استدلالاته من مظانها أو غيرها.. لكني أرى وبحزم أن المنهج العلمي يقتضي ألا أقدِّم النص المقتبس من المصدر الإسلامي في سياق جديد، زاعمًا بغير حق أنه هو سياق المصدر الإسلامي؛ لكن نولدكه ارتكب هذه الشناعة. ولكي نعرف ذلك نكتفي بأن ننظر في مصادره التي ذكرها:

إن الطبري والترمذي[٣] لم يوردا حديث مجيء جبريل بصورة عائشة في سياق ذكر كيفيات الوحي كما ادعى نولدكه؛ بل كان إيراد الطبري له في سياق مختلف تمامًا، هو: تحديث السيدة عائشة بفضل الله عليها. وأورده الترمذي في باب فضل عائشة.

(١) كما في الطبري ج١ ص١٢٦٢ سطر ٦. أو الترمذي: مناقب. (نولدكه)

(٢) ابن هشام ص١٩١، وقارن ص٢٥٨ سطر ٥. (نولدكه)

(٣) تاريخ الطبري ج٢ ص ٣٩٩ وسنن الترمذي ج٥ ص ٧٠٤ رقم (٣٨٨٠).

وكذلك لم يورد ابن هشام (ظهور الملك على هيئة جمل) في سياق ذكر كيفيات الوحي - كما ادعى نولدكه أيضًا - بل أورده في موضعين:

أولهما[1] بعنوان: (ما دار بين رسول الله وبين رؤساء قريش).

وثانيهما[2] بعنوان: (أمر الأراشي الذي باع أبا جهل إبله).

لكن من يقرأ نص نولدكه أعلاه - مهما كانت سعة علمه - لا بد أن يتسلل إليه انطباع أن المصادر المذكورة كانت بصدد تعداد كيفيات الوحي إلى رسول الله؛ وهو انطباع كاذب أوصله إليه منهج نولدكه. فهل هذه هي الأمانة العلمية والموضوعية التي تُزعم له؟

***

(١) ج١ ص١٧٩.
(٢) ج٢ ص٢٤٣.



المبحث الثالث
رفضه أن يكون الله أوحى للنبي في السماء

يرفض نولدكه الروايات المتعلقة بهذه الكيفية من الوحي، وعلل رفضه بأن القول بها نشأ من القول بالمعراج الذي يشكك نولدكه فيه أصلًا؛ يقول[1]:

"وبالمثل فإن النوع السادس[2] نشأ القول به من خلال رحلة المعراج".

لكن هذا النوع من الوحي ثابت وقد قدمنا من قبل حديثًا صحيحًا يثبت أن الله أوحى لمحمد ﷺ الصلاة بهذه الكيفية أثناء رحلة المعراج. أما ثبوت المعراج ذاته فيشير إليه النبي ﷺ في حديث:

«فُرِج عن سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففَرَج صدري، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانا فأفرغه في صدري ثم أطبقه ثم أخذ بيدي فعَرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئت إلى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء: افتح. قال: من هذا؟ قال: هذا جبريل. قال: هل معك أحد؟ قال: نعم معي محمد. فقال: أُرسل إليه؟ قال: نعم. فلما فتح علونا السماء الدنيا، فإذا رجل قاعد على يمينه أَسْوِدَة وعلى يساره أسوِدة إذا نظر قِبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل يساره بكى فقال: مرحبًا بالنبي الصالح والابن الصالح. قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نَسَمُ بنيه فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر قِبل شماله بكى، حتى عرج بي إلى السماء الثانية فقال لخازنها: افتح. فقال له خازنها مثل ما قال الأول ففتح». قال أنس: فذكر أنه وجد في السماوات

---

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٤.

(٢) هو (وحي في السماء) كما تقدم. [الباحث].

آدم، وإدريس، وموسى، وعيسى، وإبراهيم صلوات الله عليهم، ولم يُثْبِت كيف منازلهم؛ غير أنه ذَكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا وإبراهيم في السماء السادسة. قال أنس: فلما مر جبريل بالنبي ﷺ بإدريس قال: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح. فقلت: «من هذا؟ قال: هذا إدريس. ثم مررت بموسى فقال: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا موسى. ثم مررت بعيسى فقال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا عيسى ثم مررت بإبراهيم فقال: مرحبًا بالنبي الصالح والابن الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم عليه السلام».

قال ابن شهاب فأخبرني ابن حزم أن ابن عباس، وأبا حبة الأنصاري كانا يقولان: قال النبي ﷺ: **«ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع صريف الأقلام»**. قال ابن حزم، وأنس بن مالك قال النبي ﷺ: **«ففرض الله عليَّ خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى أمرَّ بموسى فقال موسى: ما الذي فُرض على أمتك؟ قلت: فرض عليهم خمسين صلاة. قال: فراجع ربك؛ فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت فراجعت ربي فوضع شطرها. فرجعت إلى موسى فقال: راجع ربك فذكر مثله فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى فأخبرته فقال: راجع ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك. فرجعت فراجعت ربي فقال: هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدي. فرجعت إلى موسى فقال: راجع ربك فقلت: قد استحييت من ربي. ثم انطلق حتى أتى السدرة المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ما هي. ثم أُدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك»**[1].

فهذه الكيفية من الوحي ثابتة إذن بالسنة وليست من اختراع العلماء المتأخرين كما زعم نولدكه في قوله الذي أوردناه من قبل من أن "المتأخرين يرتضون بعض الروايات التي بها أنواع كثيرة أخرى"... ذكر منها: "من الله مباشرة.. في حالة اليقظة كما في رحلة المعراج".

لكنا نضيف هنا أنه لم يثبت أن رسول الله ﷺ أوحي إليه قرآن بهذه الكيفية.

(١) البخاري بشرح ابن حجر ج٦ ص٣٧٤ رقم (٣٣٤٢).



الفصل الثاني

رفْضُه نُزُولَ جِبْريل عَلَى النَّبي ﷺ

تمهيد

إن نولدكه يزعم أن القول بظهور جبريل للنبي ليس سوى مجرد قول تفسيري لبعض آيات سورتي التكوير والنجم. كما يزعم أن عائشة التي روت حديث ظهوره ليست ثقة. كما رفض كذلك ظهور جبريل للنبي على هيئة دحية؛ وادعى أن ذلك قام على ظن خاطئ من المسلمين حين رأوا دحية في مقدمة الجيش فظنوه جبريل.

ونرد الآن على جزئي هذه الدعوى في مبحثين:

الأول: الرد على رفضه ظهور جبريل في هيئته الحقيقية للنبي.

الثاني: الرد على رفضه ظهور جبريل في هيئة دحية.

***

المبحث الأول
الرد على رفضه ظهور جبريل في هيئته الحقيقية للنبي

١- إنه يزعم ذلك استنادًا إلى أن القول بذلك الظهور لم يثبت عن النبي[1] بل كان فقط مجرد تفسير لبعض الآيات؛ وأن عائشة التي روت حديث الظهور الحقيقي لجبريل ليست ثقة.

أ- أما مستنده الأول وهو أن رؤية جبريل على حقيقته لم تثبت عن النبي ﷺ وأن بعض العلماء المسلمين هم الذين اخترعوا هذا القول ليفسروا به قوله تعالى في سورة التكوير: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ وفي سورة النجم: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾؛ فلقد مرّ قوله: "والنوع الخامس[2] قيل به في تفسير آخَر لسورتي التكوير والنجم".

وأقول هنا: إن هذا وَهْمٌ؛ لأن هذا القول ثابت بأحاديث عن النبي ﷺ منها ما ترويه عائشة عنه قالت: (أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم؛ فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه، وهو تعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود

(١) هناك بعض المستشرقين الذين خالفوا نولدكه في حكمه هذا؛ يقول ساسي سالم الحاج (الظاهرة الاستشراقية ج١ ص ٢٤٩): (اعتقد المستشرق الفرنسي الشهير لويس ماسينون أن رسول الله قد سمع ورأى الملك جبريل وهو ينزل عليه القرآن من الله وكان الرسول مخلصًا صادقًا فيما قاله حول الوحي الإلهي). ويقول بلاشير عن رسالة النبي ﷺ (القرآن؛ نزوله، ترجمته وتأثيره ص ٥٠): (إن الرسالة الإلهية بلغها الملك جبريل، وما محمد إلا منذر للأجيال الآتية).

(٢) هو (جبريل في مظهره الحقيقي) كما تقدم. [الباحث].

لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال: اقرأ! قال: «**ما أنا بقارئ**». قال: «**فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني؛ فقال: اقرأ! قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني. فقال: اقرأ! فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال:** ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾». فرجع بها رسول الله يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: «**زملوني زملوني**». فزملوه حتى ذهب عنه الروع. فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «**لقد خشيت على نفسي...**» الحديث[1].

فالحديث واضح في أنه ﷺ يتحدث عن الملك وليس عن تشكله في أي هيئة أخرى. ولأنه لو لم يكن في صورته الملكية الحقيقية ما ترتب على أخذه للنبي وضغطه له كل هذا الأثر الذي جعل رسول الله يرجف فؤاده ويدخله الروع ويخشى على نفسه ويشعر بالبرد الشديد.

إني على يقين أنه لو كانت الهيئة التي أتى عليها جبريل رسول الله في ذلك اللقاء هيئة عادية ما كان لها أن تُحدث كل ذلك التأثير المذهل على كيان النبي. كما أن النبي يتحدث هنا صراحة عن الملك الذي: «**أخذني فغطني**»، ثلاث مرات و«**أرسلني**»، ثلاث مرات، «**قال: اقرأ**»، ثلاث مرات ابتداء. ولا علاقة لهذا الحديث بتفسير الآيتين المذكورتين كما ادعى نولدكه.

وبالإضافة لهذا الحديث فإن رؤية النبي لجبريل على حقيقته يُستدل عليها كذلك من حديث لجابر بن عبد الله الأنصاري الذي لا يقول فيه برأيه، بل يصرح فيه بالسماع من النبي؛ يقول: سمعت النبي وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: «**فبينا أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السماء فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فجئثت منه رعبًا فرجعت فقلت: زملوني زملوني. فدثروني**»

(١) البخاري بشرح ابن حجر ج١ ص ٢٢ رقم ٣.

الحديث[1].

فنلاحظ هنا استمرار النبي في التأكيد على أن الذي رآه بحراء هو الملك الذي أحدثت رؤيته هذه المرة نفس الأثر الذي أحدثته في مرة حراء.

كما يستدل عليها من حديث آخر حيث يقول جبريل: «**يا محمد، أنا جبريل وأنت رسول الله...**» الحديث[2].

كما ثبت كذلك أن رسول الله رأى جبريل له ستمائة جناح[3].

وفي ابن هشام[4] نجد قول النبي: «**فخرجت، حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتًا من السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل**». قال: «**فرفعت رأسي إلى السماء أنظر فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل... وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك**».

ب- وإذا كان نولدكه هنا قد افترى على (اعتقاد المسلمين بوحي من الله بواسطة جبريل في هيئته الملكية الحقيقية) فوصفه بأنه لم يثبت عن النبي، وأنه مجرد قول تفسيري من العلماء المسلمين لبعض آيات سورتي التكوير والنجم؛ فإن الحق يأبى إلا أن يفرض نفسه عليه فوجدناه في مكان آخر يثبت أن النبي ذاته قال بظهور جبريل له وأن هذا الظهور له نفس القدر من الواقعية التي لظهور الملك في الكتاب المقدس"؛ يقول[5]:

"Muhammed gab vor, seine Offenbarungen durch den

---

(١) المصدر السابق ج٨ ص ٦٧٨ ٦٧٩ رقم (٤٩٢٥).

(٢) تاريخ الطبري ج٢ ص٢٩٨ - ٢٩٩.

(٣) البخاري بشرح ابن حجر ج٦ ص٣١٣ رقم ٣٢٣٢ وراجع صحيح مسلم بشرح النووي مجلد ١ ج٣ ص٣.

(٤) ج١ ص١٤٧.

(٥) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص ٢٠-٢١.

heiligen Geist روح القدس، الروح *(hebr.), den er als einen Engel auffaßt und in medinischen Suren auch* جبريل *Gabriel nennt, zu empfangen."*

وترجمته:

"ادّعى محمد أنه تلقى وحيه بواسطة الروح القدس ذات الأصل العبري واعتبره ملكا[1]، كما دعاه في السور المدنية جبريل".

ويفسر اعتقاد النبي ظهور جبريل له بقوله[2]:

"Die Hauptsache bleibt, daß Muhammed an leibhaftige Engelerscheinungen glaubte. Diese haben darum für den Religionshistoriker in demselben Maße als Realitäten zu gelten, wie die Engelerscheinungen der Bibel".

وترجمته:

"الأمر المهم هنا يبقى أن محمدًا كان يؤمن بظهور جسدي للملائكة. لذلك فإن هذا الأمر بالنسبة لمؤرخي الأديان له نفس القدر من الواقعية التي لظهور الملك في الكتاب المقدس".

ويحق لنا إذن أن نتساءل: إذا كان نولدكه يعترف بما لا سبيل لإنكاره وهو أن الكتاب المقدس بعهديْه قد وردت فيه حالات كثيرة عن ظهور الملك؛ فلماذا يحاول جاهدًا صرف هذا الظهور للنبي عن حقيقته في بعض الأحيان، أو نفيه في أحيان أخرى.

جاء في سفر دانيال[3] على لسانه: (وكان لما رأيت أنا دانيال الرؤيا وطلبت

---

(١) سورة النحل، آية: ١٠٢ ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ الآية، والشعراء: ١٩٢ وما بعدها ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص ٧٩ هامش ٢.

(٣) الإصحاح ٨ فقرة ١٥، ١٦، ١٧. وراجع نفس المصدر الإصحاح ٩ فقرات ٢٠ – ٢٣.

المعنى، إذا بشبه إنسان واقف قبالتي وسمعت صوت إنسان بين أولائي[1] فنادى وقال: يا جبرائيل!! فَهِّم هذا الرجل الرؤيا. فجاء إلى حيث وقفت، ولما جاء، خفت وفررت على وجهي. فقال لي: افهم يا بن آدم).

وجاء في إنجيل لوقا [2] (فأجاب الملاك وقال له: أنا جبرائيل الواقف قُدَّام الله وأرسلت لأكلمك وأبشرك بهذا).

فإذا كان هذا الظهور قد حصل في الكتاب المقدس بالفعل.. فلِم يتم استبعاد حصوله إذا تعلق الأمر بمحمد ﷺ؟

إن ظاهرة الوحي متماثلة عند جميع الأنبياء، وإذا أقر باحث بحصولها ولو مرة واحدة لشخص؛ فلا ينبغي أن يكون رفضه حصولها لشخص آخر معزولا عن إبداء أسباب تتعلق بهذا الشخص وتؤيد هذا الرفض؛ لكن نولدكه لم يفعل.

والحق أن محمدًا ﷺ أوحى الله إليه كما أوحى إلى غيره من إخوانه الأنبياء السابقين؛ قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾[3].

ج- وبعد أن أثبتنا أن القول بـ (الوحي عن طريق نزول جبريل في صورته الحقيقية) لم تنفرد عائشة بروايته منسوبًا للنبي؛ أقول:

وعلى فرض انفراد عائشة بهذا؛ فلا وجه لاعتراض نولدكه على روايتها المذكورة بقوله: إن عائشة "غير ثقة بالمرة، لأنها قد ولدت فيما بعد، ولأن النبي ذكر لها هذه التفاصيل بعد فترة طويلة جدًّا من حدوثها".

(١) كذا في النص.
(٢) الإصحاح ١ فقرة ١٩.
(٣) النساء، الآية: ١٦٣.

إن نولدكه لا يستند في (رفضه نزول جبريل على النبي) إلى عدم معاصرة عائشة لواقعة الوحي الأول؛ وإنما أيضًا إلى طول الفترة بين حصول تلك الواقعة وحديث النبي عنها؛ وهو بهذا لا يطرح الثقة من عائشة وحدها، بل يشكك في قدرة النبي على الاحتفاظ بالواقعة حية في ذهنه طوال هذه المدة. إننا نجد نولدكه يقول عن النبي في نفس الصفحة[1]: "ربما لم تبق الملابسات (عن الوحي الأول) ثابتة بتفاصيلها تمامًا في نفسه لوقت قصير بعدها". لكن هذا الاعتراض غريب؛ لأنه على فرض أن صحابيًّا آخر معاصرًا للواقعة هو الذي يرويها - وهو الأمر الحاصل بالفعل - لاصطدمنا أيضًا بتشكيك نولدكه في قدرة النبي على الاحتفاظ بالواقعة في ذهنه طوال هذه المدة؛ وما ذلك إلا لأن رفض نولدكه لم ينبع من دليلٍ؛ وإنما ينبع من إرادة الرفض لديه.

وأيًّا ما كان الأمر.. فإن تشكيكه في ثقتنا برواية عائشة وقدرة ذاكرة النبي على استبقاء التفاصيل باطل؛ لقيامه على غير أساس:

أما تشكيكه في ثقتنا برواية عائشة؛ فهي لا تروي هنا مدعية كونها شاهدة عيان لواقعة الوحي الأول؛ لأن تلك المعاينة لم تحصل لها ولا لغيرها؛ وإنما تروي باعتبارها سمعت من النبي وهو يُحدّث فيما بعد عن تجربته مع الوحي الأول. وهذا السماع لا يمكن أن ينفيه نولدكه. فروايتها إذن ليست مجرد رأيٍ لها أو حتى حكاية عن أحد من الصحابة؛ إنما هي سماعٌ من النبي الذي هو في نفس الوقت زوجها الذي كان "الوحي أحيانًا ينزل عليه في فراشها بخلاف باقي زوجاته"[2].

وألفاظ روايتها في الحديث المذكور لم تترك المجال للظن في هذا؛ فقد صرحت فيه بألفاظٍ يفهم منها أنها سمعته من الرسول ﷺ. هذه الألفاظ

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص ٧٨.

(٢) علوم القرآن عند المفسرين ج١ ص ٢٥٤، وانظر الطبري: التاريخ ج٢ ص ٣٩٩.

هي: قال (أي النبي): «**فأخذني فغطني، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني؛ فقال: اقرأ! قلت: ما أنا بقارئ؛ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني. فقال: اقرأ! فقلت: ما أنا بقارئ؛ فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال:...**» الحديث.

وأما افتراضه نسيان الرسول ﷺ لتفاصيل تلك الواقعة فقد أخطأ فيه نولدكه كذلك؛ لأنه على المستوى العادي؛ فإن الحوادث المصيرية الكبرى في حياة الأشخاص الأسوياء لا تذهب الأيام بتفاصيلها من وعيهم؛ فكيف بالرسول الذي يتلقى الوحي من الله.

ومما يساعد على بقاء الأحداث حية في ذاكرة أولئك الأفراد اقترانها بمظاهر مادية ملموسة؛ وحتى هذه فإن حظ واقعة الوحي الأول منها وافر؛ فالمظاهر التي صاحبت ظهور جبريل للنبي ﷺ هي: أخذُ الملك له وضغطُه ضغطًا شديدًا حتى بلغَ من النبي الجَهدُ ورجفَ قلبُه وشعرَ بالبرد الشديد فطلب التدفئة من زوجته. ثم رؤيةُ النبي بعد ذلك جبريلَ جالسًا على كرسي بين السماء والأرض..

هذه المظاهر وغيرها هي بلا شك غير عادية، ولعل أحد أهدافها كان أن تظل تفاصيل تلك اللحظة - التي واكبت البداية - حاضرة في ذهن النبي.. هذا إذا نظرنا للأمر في المستوى العادي.

لكن الأمر بالنسبة للنبي يزداد خصوصية تستبعد تمامًا إمكان النسيان؛ فالله لم يَكِلْ نبيه - في تذكر محتوى الوحي - إلى نفسه وقدراته، بل نهاه عن أي دور إيجابي لتحصيل ذلك فأوحى إليه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾[(١)] لدرجة أن الأمر كان كما يقول ابن عباس: (فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك - أي بعد نزول الآيات المذكورة - إذا أتاه جبريل استمع؛ فإذا انطلق جبريل قرأه النبي

(١) القيامة، الآيات: ١٦-١٩.

كما قرأه)[1]؛ فكيف - بعد كل هذا - يمكننا أن نصدق إمكان نسيان النبي تفاصيل واقعة الوحي الأول؟

* * *

(١) من حديث في البخاري بشرح ابن حجر ج١ ص٢٩ رقم (٤).



المبحث الثاني
الرد على رفضه ظهور جبريل على هيئة دحية

لقد زعم نولدكه أن هذا القول مبني على ظن خاطئ من المسلمين حين رأوا دحية في مقدمة الجيش فظنوه جبريل. كما زعم أن القول بجمال دحية إنما حصل احترامًا لجبريل.

١- أما زعمه أن القول بنزول جبريل على صورة دحية بن خليفة الكلبي مبني على ظن خاطئ من المسلمين حين رأوا دحية في مقدمة الجيش فظنوه جبريل؛ فهو زعم باطل للآتي:

أ- إن الأحاديث المتعلقة بالواقعة التي يشير إليها نولدكه لا تؤدي لهذه النتيجة التي وصل إليها، بل تثبت أن الرسول ذاته هو الذي أخبرهم أن الشخص الذي يبدو من صورته أنه دحية؛ لم يكن سوى جبريل وقد تشكل في صورة دحية وليس الأمر مجرد ظن من المسلمين.

لقد ذكر نولدكه أنه استند في دعواه إلى **السيرة النبوية** لابن هشام، وبالرجوع إليها[1] وجدت النص الآتي:

ومر رسول الله ﷺ بنفر من أصحابه بالصورين (موضع قرب المدينة) قبل أن يصل إلى بني قريظة، فقال: «**هل مر بكم أحد؟**». قالوا: يا رسول الله، قد مر بنا دحية بن خليفة الكلبي على بغلة بيضاء عليها رحاله، عليها قطيفة ديباج، فقال رسول الله: «**ذلك جبريل بُعث إلى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم ويقذف الرعب في قلوبهم**».

---

(١) ج٢ ص١٧١ - ١٧٢ ط دار التراث العربي نفس الموضع المذكور مع اختلاف الطبعة.

وثبت أيضًا أن عائشة روت[1] أنه بعد هزيمة المشركين في غزوة الخندق مر رسول الله على بني غنم - وهم جيران المسجد - فقال لهم: «من مرَّ بكم؟». فقالوا: مر بنا دحية الكلبي. وكان يُشَبَّه وجهه بجبريل.

فهنا نجد أن الرسول سأل عن جبريل (الذي تَشكل في صورة دحية) كلًّا من: بني غنم (وهم جيران المسجد) ونفرًا من أصحابه بمنطقة: الصورين؛ وذلك ليستشعر أكبر عدد من المسلمين معية الله وتثبيت ملائكته لهم في مواجهتهم التي توشك أن تبدأ مع بني قريظة حتى يثبتوا وينقلوا هذا لإخوانهم. ويضيف أنس بن مالك كشاهد عيان (واصفًا موكب جبريل وقتئذ) فيقول: (كأني أنظر إلى الغبار ساطعًا في زقاق بني غنم موكب جبريل حين سار رسول الله إلى بني قريظة)[2].

ب- كما أن معرفة رسول الله بتشكله على هيئة دحية لم تكن متأخرة إلى الوقت الذي رُئي فيه جبريل كذلك في مقدمة الجيش؛ وإنما كانت قبله؛ فلقد ثبت عن عائشة أن رسول الله ﷺ لما رجع يوم الخندق ووضع السلاح واغتسل أتاه جبريل وقد عصب رأسَه الغبارُ، فقال: وضعتَ السلاحَ؟ فوالله ما وضعتُه، فقال رسول الله: «فأين؟». قال: ههنا، وأومأ إلى بني قريظة. قالت: فخرج إليهم رسول الله[3].

ج- ورؤية جبريل على هيئة دحية قبل ذهابه ليكون في مقدمة الجيش لم تكن قاصرة على النبي وحده، بل رأته السيدة أم سلمة زوج النبي ﷺ؛ فقد ثبت في الحديث الصحيح أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ وهي عنده، فجعل يحدث، ثم قام، فقال النبي ﷺ لأم سلمة: «مَن هذا؟». أو كما قال. قالت: هذا دحية. قالت أم سلمة: (وايم الله ما حسبته إلا إياه، حتى سمعت

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٣ ق٢ ص٣.

(٢) البخاري بشرح ابن حجر ج٧ ص ٤٠٧ رقم (٤١١٨).

(٣) البخاري بشرح ابن حجر ج ٦ ص ٣٠ رقم (٢٨١٣).

خطبة نبي الله بخبر جبريل)[1]. وعنها أيضًا قولها:

رأيت رسول الله يناجي رجلًا فلما دخل سألته، قال: «بمن تشبهينه؟». فقالت بدحية بن خليفة. قال: «**ذاك جبريل، أمرني أن أمضي إلى بني قريظة**»[2].

د - كما وردت أحاديث لا علاقة لها بغزوة الخندق وتتحدث عن تشكل جبريل في بعض مرات الوحي على النبي في هيئة دحية الكلبي؛ فلقد روى النسائي بإسناد صحيح عن يحيى بن يعمر عن ابن عمر كان جبريل يأتي النبي في صورة دحية الكلبي. وروى الطبراني من حديث عفيرة بن معدان عن قتادة عن أنس عن النبي: «**كان جبريل يأتيني على صورة دحية الكلبي**»[3].

كما كان الرسول ﷺ يشبه دحية بجبريل، دون أن يكون لذلك علاقة بغزوة الخندق؛ قال ﷺ: «**رأيت جبريل، فإذا أقرب من رأيت به شبهًا دحية بن خليفة**»[4].

وقال ابن عبد البر[5]: ذكر موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال: كان رسول الله يشبه دحية الكلبي بجبريل عليه السلام. وقال النبي ﷺ عن دحية: «**أشبه من رأيت بجبريل**»[6].

هـ- ورآه في بعض هذه المرات شهود عيان.. فهذا حارثة بن النعمان يقول: (رأيت جبريل من الدهر مرتين، يوم الصورين، حين خرج رسول الله إلى بني قريظة حين مر بنا في صورة دحية بن خليفة الكلبي فأمرنا بلبس السلاح. ويوم موضع الجنائز، حين رجعنا من حُنين مررت وهو يكلم النبي؛ فلم

(١) البخاري بشرح ابن حجر ج٩ ص٣ رقم (٤٩٨٠).
(٢) ابن حجر: الفتح ج٩ ص٥ - ٦ وعزاه للبيهقي في الدلائل.
(٣) ابن حجر: الإصابة ج٢ ص ٢٨٤ وما بعدها
(٤) صحيح مسلم بشرح النووي مجلد١ ج٢ ص ٢٣١ وما بعدها.
(٥) الاستيعاب ج٢ ص٤٦١، ٤٦٢.
(٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٤ ق١ ص١٨٤.

أُسَلِّم، فقال جبريل: من هذا يا محمد؟ قال: «**حارثة بن النعمان**». فقال (أي جبريل): أما إنه من المائة الصابرة يوم حنين الذين تكفل الله بأرزاقهم في الجنة ولو سلَّم لرددنا عليه)[1].

و- وأخيرًا أقول: إن نولدكه يدعي أن القول بظهور جبريل في هيئة دحية؛ نشأ من أن الصحابة رأوا هذا الأخير في مقدمة الجيش فظنوه جبريل وأشاعوا أن جبريل يتشكل في صورة دحية. ولو كان ما يدعيه صحيحًا؛ فَلِمَ لم يصحح دحية بنفسه هذا الظن؟

إن هذا الأخير نفسه لم ينقل عنه تشكيكه في هذا الظهور؛ وقد كان بإمكانه - وقد تناقل الناس مجيء جبريل على صورته - أن يصحح لهم الواقعة قائلًا: انتبهوا إن من رأيتموه في مقدمة الجيش لم يكن جبريل في صورتي، بل كنت أنا حقيقة. غير أنه لم يقل هذا؛ مما يدعم حقًّا أن الوحي نزل بهذه الكيفية أيضًا على خلاف ما يزعم نولدكه.

لكن قد يتبادر إلى ذهن من تمكنت الشبهة من قلبه أن دحية لم يعلن ذلك خوفًا من أن يلحقه ضرر من قبل المسلمين أو النبي. أو لأنه هو الآخر كان صاحب مصلحة في أن يُشاع أن جبريل ينزل على صورته. لكن كلا الافتراضين غير صحيح:

أما الأول وهو (افتراض لحوق ضرر به إن هو أعلن)؛ فينبغي ألا يُفترض أصلًا؛ لأن نزول جبريل في هيئة دحية لم يكن الكيفية الوحيدة للوحي، ولا يعتمد ثبوت الوحي في أصله عليها، ولم ينزل بها قرآن أصلًا، ولا يؤثر عدم وجودها بين كيفيات الوحي على أصل ثبوته. ثم لماذا يَخشى دحية من الضرر إن هو أعلن وأمامه عبد الله بن أبي ابن سلول الذي على الرغم مما فعل لم يلحقه هذا الضرر المتوهم!!

وأما الثاني وهو (افتراض أنه لم يعلن لأنه هو الآخر كان صاحب مصلحة في أن يُشاع أن جبريل ينزل على صورته)؛ فنود أن نقرر هنا أنه ليس ثمة ميزة معنوية

(١) المصدر نفسه ج٣ ق٢ ص ٥٢.

تضاف لدحية بسبب نزول جبريل في صورته؛ يقول ابن حجر[1]: (إن اتفاق الشبه لا يستلزم إثبات فضيلة معنوية، وغايته أن تكون له مزية في حسن الصورة، وقد قال ﷺ لابن قطن حين قال: «**إن الدجال أشبه الناس به**». فقال: أيضرني شبهه؟ قال: «**لا**»).

فكما أن وجود شبه بين ابن قطن والدجال لا يضر الأول؛ فكذلك وجود شبه بين دحية وجبريل (لحظة تشكله البشري) لا يفيد دحية.. فالضرر والفائدة يرجعان إلى ما هو أعمق من قضية الشبه الخارجي.

وبعد

فإن القول بنزول جبريل بالوحي إلى النبي متشكلًا في صورة دحية؛ لم يكن المسلمون مصدرًا له حتى يَرُدَّ نولدكه القول به إلى ظنهم؛ بل هو منسوب ابتداء للنبي الذي لم يقل به ظنًّا بل يقينًا؛ ولم يقل به عندما ظهر جبريل في مقدمة الجيش، بل قبل ذلك، ورأته عندئذ معه السيدتان عائشة وأم سلمة؛ كما كان الرسول بشكل عام يشبه دحية بجبريل. كما وردت أحاديث - لا علاقة لها بغزوة الخندق - فيها نزول جبريل بالوحي إلى النبي متشكلًا في صورة دحية ورآه في بعض هذه المرات شهود عيان مثل حارثة بن النعمان.

٢- ونُلمح هنا إلى أن التشكل الجسدي للملائكة قد ورد في الكتاب المقدس بعهديه؛ فقد جاء جبريل في صورة رجل إلى زوجة (منوح) وبشرها (وهي العاقر)؛ أنها ستلد ابنًا. ثم ظهر لزوجها، وولد لهما شمشون[2]، وجاء جبريل إلى مريم في صورة رجل[3] يبشرها قائلًا: (هاأنت تحبلين وتلدين ابنا اسمه يسوع).

فلماذا يقبل نولدكه بتشكل الملك بشرًا لأنبياء وأولياء الكتاب المقدس ويرفضه في الإسلام؟

---

(١) الفتح ج٩ ص٦.

(٢) القضاة ١٣: ٣، ١٠، ١٣، ١٦.. إلخ.

(٣) انظر لوقا ١: ٢٦ - ٣١.

٣- وأما زعمه أن القول بجمال دحية إنما حصل احترامًا لجبريل؛ فإن الروايات الإسلامية تقول إنه كان جميلًا؛ ولعل هذا كان أحد الأسباب التي جعلت النبي يرسله إلى عظيم بصرى ليرسله إلى هرقل[١].

يقول ابن حجر: (كان دحية يُضرب به المثل في حسن الصورة وكان جبريل ينزل على صورته)[٢]، ويقول ابن عباس: (كان دحية إذا قدم المدينة لم تبق معصر[٣] إلا خرجت تنظر إليه)[٤]؛ فإذا كانت الروايات الإسلامية تثبت جمال دحية؛ ثم يأتي نولدكه (الذي لم يشاهده) لينفي (وليس معه من دليل)؛ فمن نصدق إذن؟ إن المثبت مقدم على النافي؛ وبخاصة أنه ليس لدى النافي على ما يقول دليل.

إن نولدكه لو كان قد أراد الصواب، وبحث المسألة بعيدًا عن التحيز؛ لكان قد أقر أنه ليس في كيفية نزول الوحي هذه، أي إضافة تخالف الواقع.

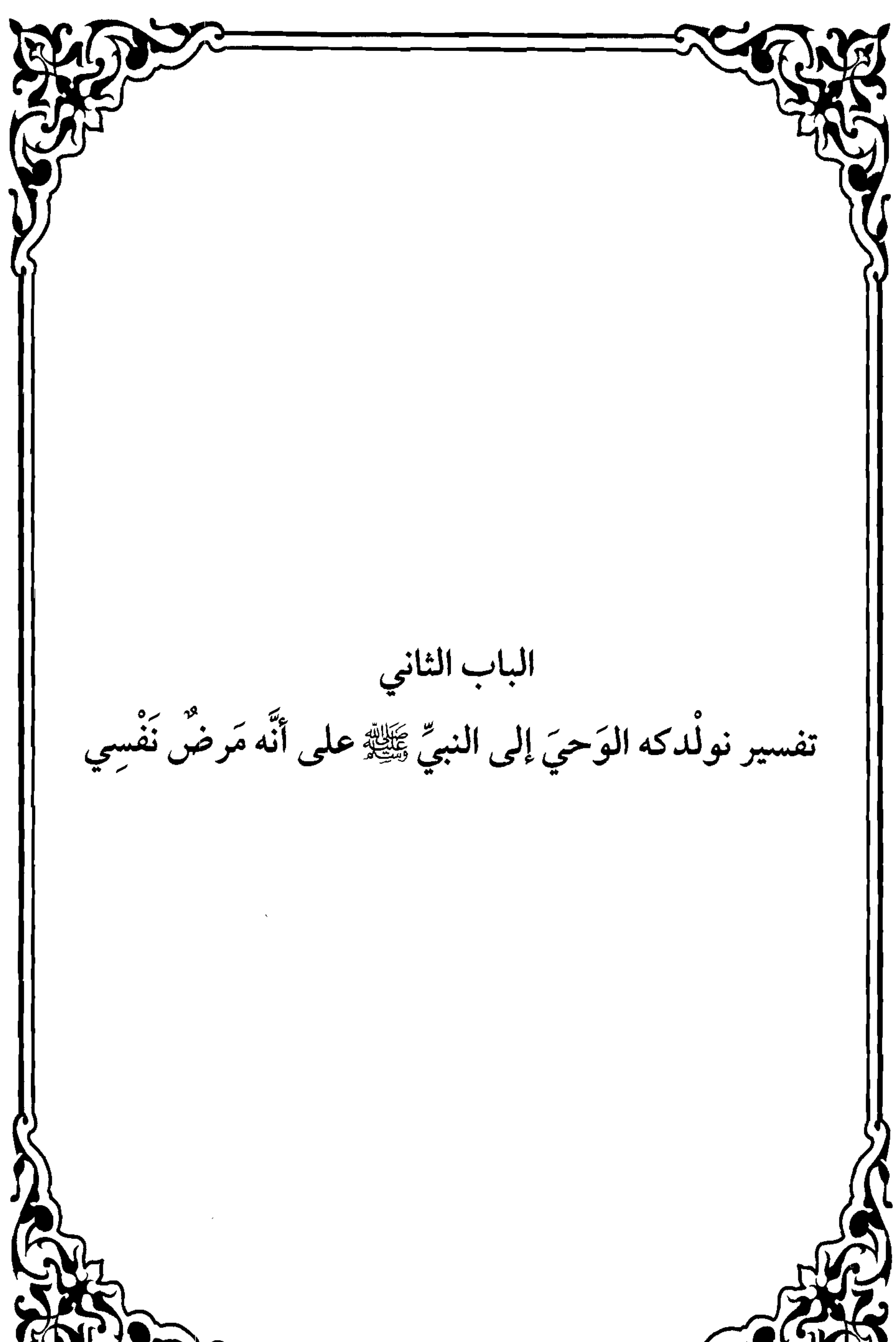
***

(١) البخاري بشرح ابن حجر ج١ ص٣٢ رقم (٦).

(٢) ابن حجر: الإصابة ج١ ص ٤٦٣ رقم ٢٣٩٠ دار الكتاب العربي بيروت.

(٣) المعصِر: الجاريةُ أوّلَ ما تَحيض لانْعصار رحمها (النهاية في غريب الحديث ج٣ ص ٢٤٧).

(٤) الإصابة ج٢ ص ٣٨٤ رقم (٢٣٩٢) طبعة دار الجيل بيروت، و ج١ ص٤٦٣ رقم (٢٣٩٠) طبعة دار الكتاب العربي بيروت.



الباب الثاني

تفسير نولْدكه الوَحيَ إلى النبيِّ ﷺ على أنَّه مَرضٌ نَفْسِي



الباب الثاني[1]
تفسير نولْدكه الوَحيَ إلى النبيِّ ﷺ على أنَّه مَرضٌ نَفْسِي

بعد أن ادعى نولدكه عدم أصالة معظم أنواع الوحي؛ وبعد أن رفض وحي الله لنبيه في السماء؛ ورفض القول بظهور جبريل للنبي في مظهره الحقيقي أو على شكل دحية؛ لا يستبقي إلا كيفية واحدة من كيفيات الوحي بهدف أن يضمِّنها بشكل قسري عدة مضامين سلبية عن أمراض نفسية ادعاها للنبي.

وسنلاحظ أيضًا استمرار نفس خطة نولدكه (العلمية!!): إظهار أنه ينطلق من النصوص الإسلامية، ويستدل بها ليخيل لنا أننا لسنا أمام باحث من القرون الوسطى؛ بل أمام باحث علمي من مدرسة النقد التاريخي الأوربية في القرن التاسع عشر عمدته النصوص وحدها؛ يقول[2]:

"Dagegen sind uns viele Angaben über die 4. Stufe erhalten. Muhammed, erzählt man, ward beim Empfange der Offenbarung oft von einem schweren Anfall ergriffen, so daß ihm der Schaum vor den Mund trat, das Haupt niedersank, das Antlitz blaß oder glühend rot ward; er sehrie wie ein Kamelfüllen; der Schweiß troff dabei einst von ihm nieder, obgleich es winterliches Wetter war, usw.

Dieser Anfall, von dem wir noch mehr Zeichen anführen kǫnnten, wird von Buhari und Waqidi 322 ein schweres Fieber برحاء *genannt; Weil (S. 42ff.) aber hat zuerst bewiesen, daß Muhammed an einer Art Epilepsie litt, was schon die Byzantiner behauptet hatten , während es einige Neuere leugneten.*

---

(١) يعالج هذا الباب الأفكار التي طرحها نولدكه في كتابه موضع دراستي صفحات: *IX*، ٣، ٢٤-٢٦، ٣٠، ٧٦، ٦٩ - ٧٠، ٧٦، ٧٩، ٩٤، ٩٩، ١٢١، ١٤٨، ١٥١ - ١٥٢، ١٦١، ١٦٢، ١٨٤.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٤ - ٢٦.

Da aber zu den Symptomen der eigentlichen Epilepsie die Ausschaltung des Erinnerungsvermögens geöhrt, wird eher von psychogenen Erregungszuständen (Rob. Sommer) zu reden sein. Hieran soll er schon von früher Jugend an gelitten haben(1).

Da die mit diesen und ähnlichen Krankheiten Behafteten von den Arabern, wie von allen alten Völkern, für besessen مجنون *gehalten wurden, so scheint Muhammed, der anfangs denselben Glauben hegte, später in diesen Anfällen gerade eine besondere Einwirkung des einen und wahren Gottes gesehen zu haben.*

Wahrscheinlich trafen ihn jene Anfälle öfter, seitdem er als Prophet aufgetreten war, besonders in der ersten Zeit, in der sein Geist wild erregt war; doch traten sie auch nach der Flucht noch zuweilen ein(2).

Wenn er so, während er in tiefem Nachdenken war, plötzlich von der Ohnmacht ergriffen ward, da glaubte er, daß eine göttliche Kraft in ihn führe; aber, wie wir oben sahen, die Offenbarung ward ihm erst deutlich, wenn ihn der Engel verließ, d. h. wenn er nach der gewaltigen Aufregung zu klarem Bewußtsein kam.

Diese Anfälle, welche gewiß durch die geistige Erregtheit, in der er sich oft befand, besonders begünstigt wurden, trafen ihn, nach der Erzählung der Muslime, sowohl bei der Offenbarung von Qoranstellen, wie bei göttlicher Entscheidung über andere Dinge" (3).

---

(1) *Vgl. die Stellen, die unten bei Sur. 94 angeführt werden. Ein solcher Anfall scheint auch in dem von His. 117, 1 13-17 (vgl. die Anmerkung dazu; Buhari, kit. al-salat § 8; Ibn Sa'd ed. I, 1, p.93; Azraqi 105 o.107 u.; Muslim I, 217 Q II, 407f. (kit.-al-haid) erzählten Ereignis zu liegen, dem freilich die Muslime eine andere Wendung geben. Auf diese Überlieferungen ist aber kein Verlaß. Manches spricht dafür, daß jene Anfälle den Propheten erst nach seiner religiösen Erweckung heimsuchten. Vgl. auch M.J. de Goeje, Die Berufung Muhammeds, "in Orientalische Studien, Thedor Nöldeke zum 70. Geburtstag gewidmet", Gießen 1906, I, S 5.*

(2) *Hierher gehört z. B. die Ohnmacht während der Schlacht bei Badr: His.444; Tabari I, 1321; Waq.65; Aghani IV, 27; vgl. Weil 157.*

(3) *Vgl. z. B. die Tradition Ya'la's bei Bh. im* كتاب المغازي، باب غزوة الطائف *(III, 45)* كتاب فضائل القرآن *§ 2 Ende (III. 145) =*باب العمرة *§ 10 (1, 202); Misk. 522 (530): auch Mibani IV.*

وترجمته:

"في مقابل هذا (أي كل ما قاله من كيفيات الوحي التي رفضها وشكك فيها) فإن لدينا الكثير من المعلومات عن النوع الرابع[(١)]؛ فمحمد - كما يُروى - كانت تعتريه عند تلقي الوحي نوبة شديدة، بحيث تخرج الرغوات من فمه، وينحني الرأس، ويمتقع الوجه، ويصرخ مثل الفصيل، ويتفصد جبينه عرقًا رغم برودة الجو[(٢)]... إلخ.

هذه النوبة يمكننا أن نستدل عليها بإشارات أكثر من البخاري[(٣)] والواقدي ص٢٢٣، (ويسميانها: بُرَحاء)، وفايل *Weil* صفحة ٤٢ وما بعدها. لكنه (أي فايل) توصل إلى أن محمدًا كان مصابًا بنوع من الصرع الذي كان يدَّعيه عليه البيزنطيون[(٤)]. في حين أن هناك كتَّابًا مُحدَثين أنكروا هذا[(٥)].

---

(١) هو (جبريل مع صلصلة الجرس) كما تقدم [الباحث].

(٢) ويرجع إلى الموطأ ص٧٠، وابن هشام ٧٣٦، والواقدي ص٣٢٢، وابن سعد الطبعة الأولى ج١ ص١٣١، والبخاري باب كيف كان بدء الوحي وكتاب التفسير: سورة المدثر، ومراجع أخرى.

(٣) في حادثة الإفك كتاب الشهادات باب١٥، وكتاب المغازي باب ٣٦. (نولدكه).

(٤) *Theophanes* ثيوفانس ج١ص ٥١٢، ويذكر عدة مراجع عن هذا، ويقول هذا الرأي الذي قيل ضد نبوة محمد انتشر بقوة أيضًا عند المسيحيين الشرقيين. (نولدكه).

وثيوفانس هذا (الذي يذكره نولدكه) هو كاتب بيزنطي نظر إليه على أنه قديس، نشأ في دير مار سابا بفلسطين، سجن لأنه كان يعظم الأيقونات، فمات في السجن حوالي ٨١٨ م. له تاريخ مهم عن القرون المسيحية الأولى، وله كتاب بعنوان: حياة النبي، لعله هو الذي يشير نولدكه إليه هنا. راجع د. خلف محمد الجراد في ترجمته لكتاب الإسلام والمسيحية مرجع سابق هامش ص٧٣ وج. فون جروينباوم: حضارة الإسلام ترجمة عبد العزيز جاويد ٦٧.

(٥) ويرجع إلى: أوكلي: تاريخ السراسنة ج١ ص٣٠٠، (وهو كتاب نشره في مطلع القرن الثامن عشر س. أوكلي، أستاذ اللغة العربية في جامعة كمبردج، وهو أول كتاب علمي ينشر في إنجلترا عن تاريخ العرب، راجع أليكسي جورافسكي: الإسلام والمسيحية ترجمة د. خلف محمد الجراد راجع المادة العلمية أ.د. محمود حمدي زقزوق ص ٩٦). ويرجع كذلك لتفسير جورج سيل لسورة المزمل. ويقول: وهذا الموضوع بالمناسبة ليس له على الإطلاق تلك الأهمية التي تعطى له في العادة.

لكن لأن توقف قدرة الذاكرة يكون من أعراض الصرع الأصلي؛ فإن الحديث عن حالات تهيج نفسي يصبح هو الأوْلَى.

ولقد كان مصابًا بها منذ شبابه المبكر[1].

ولأن الناس المصابين بهذه الأمراض أو مثيلاتها كان الواحد منهم يقال عنه من العرب والشعوب القديمة: مجنون[2]؛ فإن محمدًا ظهر في البداية ولديه نفس هذا الاعتقاد. ولقد نُظِر فيما بعد إلى هذه الحالات بعينها على أنها مؤثر خاص من الإله الواحد الحق.

من المحتمل أن هذه الحالات اعترته وبخاصة في وقت بداية نبوته، حيث كانت روحه في ذروة حماسها. لكنها أيضًا حدثت له بعد الهجرة بعض الأحيان[3].

فعندما كان محمد يذهب في تفكير عميق[4]؛ فإنه كان في أثناء ذلك تأخذه إغماءة مفاجئة، وعندها كان يعتقد أن قوة إلهية تسري فيه. لكن - وكما رأينا سابقًا - فإن الوحي

(١) ويحيل نولدكه إلى ابن هشام ص١١٧، والبخاري، كتاب الصلاة، باب ٨، وابن سعد ج١ ص٩٣، والأزرقي (يقصد تاريخ مكة) ص ١٠٥ وص١٠٧، ومسلم ج١ص٢١٧ كتاب الحيض. ويقول: "تُذكر هذه الحالات في المراجع الإسلامية؛ حيث يفسرها المسلمون بشكل آخر، لكن لا ثقة في هذه الأحاديث؛ والبعض منها يذكر أن هذه الحالات جاءت بعد أن ابتُلي بالبعثة الدينية". ويقول شفاللي: راجع أيضًا دي جوي: (رسالة محمد) في: دراسات استشراقية، أهديت إلى نولدكه بمناسبة بلوغه السبعين *Gießen* ١٩٠٦ ج١ ص٥.
وهي تتناول مسألتي شق صدر النبي وحفظه من التعري.

(٢) ويقول في الهامش: النظرة القديمة للصرع على أنه مرض مقدس عالجها فرنسي اسمه *Littre*.

(٣) مثلًا: الإغماءة التي حدثت في غزوة بدر. انظر فيما يتعلق بهذا: ابن هشام ص٤٤٤، والطبري ج١ص١٣٢١، والواقدي ص٦٥، والأغاني ج٤ ص ٢٧، وفايل ص١٥٧. (نولدكه). وأقول:لم يعبر واحد من هؤلاء عنها بالإغماء؛ وإنما قالوا خَفَقَ رسول الله، أي نام، وسيأتي ذلك. [الباحث]

(٤) إذن هو يرى أن السبب في حالات التهيج المزعومة هذه مختلف باختلاف وقت حدوثها فعند بداية النبوة كان سببها هو الحماس وعندما حصلت في بعض أوقات ما بعد الهجرة كان سببها التفكير العميق!!!! [الباحث]

يصبح واضحًا، عندما يفصم عنه الملك[١]، أي عندما يعود إلى الوعي الكامل بعد حالة الهيجان الشديدة تلك.

وحسب حكايات المسلمين؛ فإن تلك الحالات، التي كان يعتريه فيها هياج نفسي عد نفسه مفضَّلا به؛ كانت تحدث له عند تلقي النصوص القرآنية[٢]، وكذلك الأحكام الإلهية بشأن الأمور الأخرى[٣]".

ويتحدث في مكان آخر عن حالة الصرع المدعاة للنبي؛ فيدعي أن المسلمين قالوا: إن النصوص الموحى بها كل مرة كانت قصيرة، وأن من أسباب قولهم هذا هو ما يقال من أن محمدًا ﷺ تلقى القرآن في أثناء الحالات الصرعية التي لا يمكن أن تكون طويلة؛ فيقول[٤]:

Die falsche Ansicht der Muslime über die ursprüngliche Kürze der Offenbarungen kann aus verschiedenen Ursachen entstanden sein.. Man wußte, daß manche................................. Endlich mag zu jener Ansicht noch der Glaube beigetragen haben. Muhammed habe alle Qoranverse während der epileptischen Zufälle erhalten, da man sich diese doch nicht als lange anhaltend denken durfte [5].

وترجمته:

إن "الرأي الخاطئ للمسلمين، بشأن القصر الأصلي للنصوص الموحى بها يمكن أن

---

(١) (ويفصم عني وقد وعيت ما قال أو فأعي ما قال). (نولدكه).

(٢) راجع على سبيل المثال أحاديث عمر في التفسير الكبير للفخر الرازي، وفي الترمذي كتاب التفسير لسورة (المؤمنون) (نولدكه).

(٣) يحيل نولدكه هنا إلى مرويات يعلى عند البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة الطائف ج٣ ص ٤٥. وإلى غيره من المصادر. والحديث الذي يشير إليه من كتاب المغازي في البخاري فيه أن أحد أصحاب النبي هو يعلى كان يريد أن يراقب النبي لحظة يوحى إليه، وساعده عمر على ترقب هذه اللحظة، وعندما توقعها عمر نادى عليه ليشهدها بنفسه. (البخاري بشرح ابن حجر ج٨ ص٤٧ رقم (٤٣٢٩)) وسأذكر الحديث فيما بعد.

(٤) تاريخ القرآن بالألمانية ق ١ ص ٣٠.

(٥) [ويرجع في هذا إلى *Sprenger* في الترجمة الإنجليزية لكتابه حياة محمد ص ١٥٢ هامش ٤].

يكون قد نشأ لعدة أسباب [نختار منها ما يتعلق بالعقيدة وهو قوله]: ".. وأخيرًا، مما يزيد الإيمان بهذا الرأي: ما يقال من أن محمدًا كان قد تلقى كل آيات القرآن أثناء الحالات الصرعية *epileptischen Zufälle*، حيث لا يُتصَور أن تكون هذه الحالات طويلة المدة".

ويرى أن ليس كل القرآن أوحي به في حالات التهيج الشديدة المزعومة؛ يقول[1]:

"Aber freilich wird schon ein flüchtiger Leser leicht einsehen, daß nicht der ganze Qoran so im höchsten Grade der Ekstase entstanden sein kann. In mannigfachen Abstufungen kommt der Geist von jener bis zum einfachen angestrengten Nachsinnen. Überhaupt konnte Muhammed in der heftigen Erregung nicht ganze Teile des Qorans, sondern nur einzelne Worte und Gedanken zu vernehmen glauben. Für die historische Forschung ist ein selbständiger Qoranabschnitt aus diesem Grunde nicht Offenbarung schlechthin, sondern die literarische Form, in welcher der Prophet den Inhalt einer ihm zuteil gewordenen Offenbarung ausgeprät hat. Naturgemäß war die Stärke des prophetischen Rausches von bestimmendem Einfluß auf den Stil des Schriftstellers. Als jene ungeheure Erregbarkeit mit der Zeit abnahm, wurden die Suren daher immer ruhiger".

وترجمته:

"لكن والحق يقال فإن القارئ السطحي يرى بسهولة أنه ليس من الممكن أن يكون القرآن كله قد تكون في أقصى درجات حالة الجذب. وتتدرج الروح في درجات شتى، بدءا من هذه المذكورة [أقصى حالات الجذب] وانتهاء بأبسط حالات إنعام الفكر المقصود. ولم يكن محمد يحسب على الإطلاق أنه يستطيع استيعاب كل أجزاء القرآن في حالة التهيج الشديدة؛ بل كلمات وأفكار بعينها فقط".

ويربط بين القِصَر الموجود في سور الطَّوْر المكي الأول وما يدَّعيه على النبي ﷺ من التهيج فيقول[2]:

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص ٢٦.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص ٧٦.

"Die meisten Suren dieser Periode sind kurz - von 48 Suren haben 23 weniger als 20 und 14 weniger als 50 Verse - da die hohe Bewegung der Seele, welche sie hervorrief, nicht lange anhalten konnte".

وترجمته:

إن "معظم سور هذا الطَّوْر قصيرة: فمن ثمان وأربعين سورة[١] لدينا:

ثلاثٌ وعشرون في كل واحدة أقل من عشرين آية.

وأربع عشرة سورة في كل واحدة أقل من خمسين آية.

وذلك لأن تهيج الروح العالي الذي استثارها لا يستطاع الاحتفاظ به طويلًا".

وَيجعل بعضَ الوحي انعكاسًا لحالة قلق نفسي، أو ناشئًا في وقت اكتئاب عميق، أو أثرًا لحالة نفسية بصفة عامة؛ يقول[٢]:

"Die leidenschaftliche Unruhe tritt gleich in den kurzen Versen der Sur. 101 hervor."

وترجمته:

"تظهر حالات القلق النفسي بشكل مباشر في الآيات القصار لسورة القارعة".

ويقول[٣]:

"V.255-259 sind nicht leicht in einer bestimmten Situation unterzubringen. Denn der Grundsatz, daß bei der Bekehrung zum Islam kein Zwang ausgeübt werden solle V.257, konnte ebensogut in Zeiten tiefster seelischer Depression wie in solchen höchster Siegesgewißheit aufgestellt werden".

وترجمته:

---

(١) هذا هو عدد سور الطور المكي الأول وفق ترتيبه: تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص*IX*. راجع ملحق هذا الجزء [الباحث].

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص ٩٩.

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص ١٨٤.

"إن الآيات ٢٥٥-٢٥٩ من سورة البقرة(١) ليس من السهل أن توضع في موضع محدد؛ إذ إن مبدأ عدم ممارسة إكراه على الدخول في الإسلام في الآية ٢٥٧ البقرة(٢) يمكن أن يكون قد نشأ في وقت اكتئاب عميق. كما يمكن بنفس الدرجة أن يكون قد نشأ في وقت ثقة تامة بالنصر".

ورغم اعتراف نولدكه بإمكان ظهور جبريل طبقًا للكتاب المقدس؛ إلا أنه يبين أنه لا يستطيع إثبات أو نفي أن اعتقاد النبي به يعود إلى حالات هلوسة مرَّ بها أو لإيمانه ﷺ بالأشباح؛ يقول(٣):

"Die Frage, ob diese und andere Erscheinungen auf Halluzinationen oder auf dem Brockengespenst ähnlichen Nebelbildern (M. J. de Goeje in Orientalische Studien, Th. Nőldeke zum 70. Geburtstag gewidmet, Gießen 1906 I. 3f.) beruhen, ist nicht zu entscheiden. Die Hauptsache bleibt, daß Muhammed an leibhaftige Engelerscheinungen glaubte. Diese haben darum für den Religionshistoriker in demselben Maße als Realitäten zu gelten, wie die Engelerscheinungen der Bibel".

وترجمته:

"لا نستطيع أن نجيب عن السؤال عمَّا إذا كان هذا الظهور هذه المرة وغيرها يعود إلى حالات هلاوس *Halluzinationen*، أو شيء من الإيمان بالأشباح *Brockengespenst*، أو ما يشبه الصور الضبابية *Nebelbildern*. إن السبب الرئيس الذي يبقى هو أن محمدًا كان يؤمن بظهور جسدي للملائكة. لذلك فإن هذا الأمر بالنسبة لمؤرخي الأديان *Religionshistoriker* له القدر نفسه من الواقعية التي لظهور الملك في الكتاب المقدس".

ونقول:

---

(١) من: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ إلى... ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾.

(٢) ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾.

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص ٧٩ هامش ٢.

إن مجمل ما يطرحه نولدكه هنا يتلخص في رفض وصف الرسول بالصرع الحقيقي، واستدلاله على رفضه، وزعمه بدلًا من ذلك أن النبي كان مصابًا بحالات تهيج نفسي منذ شبابه المبكر، ثم أدلته على هذا الزعم.

ثم يقدم نولدكه ما ادعى أنه أسباب هذا التهيج النفسي بالتفريق فيه بين مرحلتين: مرحلة بداية النبوة؛ ومرحلة ما بعد الهجرة؛ فالأولى كان سبب التهيج النفسي فيها هو الحماس الشديد. والثانية كان سببه: التفكير العميق؛ ويقدم ما يسميه: إغماءة غزوة بدر نموذجًا.

ثم يخلص إلى تفسير كيفية الوحي التي ارتضاها وحدها من بين كيفيات الوحي وأنواعه وهي أن النبي كان يأتيه الوحي بأن يسمع أحيانًا جَلَبَةً كالتي تصدر من الجرس: (صلصلة الجرس). وهذه الطريقة كانت تهجم عليه كثيرًا، ويفسر الوحي هنا على أنه حالة تهيج تعتري النبي عند الحماس الشديد أو التفكير العميق فيدخل في إغماءة مفاجئة يعتقد معها أن قوة إلهية تسري فيه وعندما يرجع إليه وعيه يصبح الوحي واضحًا وهكذا يفسر نولدكه قول النبي الذي مر في الباب الأول:

«أحيانًا يأتيني في مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي ويفصم عني الملك وقد وعيت عنه ما قال».

لكنه بعد أن يتحدث عن الوحي باعتباره تهيجًا نفسيًّا؛ يعود فيتحدث باعتبار بعضه انعكاسًا لحالة قلق نفسي، أو اكتئاب عميق.

وستأتي مناقشة هذه الأفكار والآراء هنا في تمهيد وأربعة فصول:

أناقش في التمهيد وأول فصلين أسس دعوى نولدكه:

أدلته عليها، والسببين اللذين يزعم أنهما يجعلان رسول الله يتهيج نفسيًّا.

ثم أقدم في الفصلين التاليين: الأدلة التي تدحض دعواه. وذلك كله على النحو التالي:

التمهيد: تبيان حقيقة رفضه وصف رسول الله بالصرع.

الفصل الأول: مناقشة أدلته على دعواه أن الوحي أثر للتهيج النفسي.

الفصل الثاني: مناقشته فيما زعمه من أسباب لهذا التهيج النفسي.

الفصل الثالث: تلقي الأوساط المختلفة لوحي النبي.

الفصل الرابع: رميه النبي ﷺ بالمرض النفسي أو العصبي لا يتفق مع شخصيته ﷺ.

***



تمهيد
تبيان حقيقة رفضه وصف رسول الله بالصرع

١- إن نولدكه يرفض القول بأن النبي كان مصابًا بالصرع الحقيقي، ويزعم بدلًا من ذلك أنه كان مصابًا بحالات تهيج نفسي؛ أما الصرع فكان البيزنطيون يدَّعونه عليه، وأنهم قالوه ضد نبوة محمد ﷺ، وأنه انتشر بقوة أيضًا عند المسيحيين الشرقيين. وأنه في النهاية ليس له على الإطلاق تلك الأهمية التي تعطى له في العادة.

وبهذه المناسبة أشير إلى مدى الجناية التي جناها الكتاب البيزنطيون على التاريخ والحقيقة: أنهم كانوا أداة التشويه الرئيسة التي تعرف الغربيون لأجيال طويلة على الإسلام من خلالها.

يرى جوستاف بفانموللر *Gustaf Pfannmüller*[1] أن تَعَرُّف الأوربيين الأَوَّل على الإسلام كان عبر وساطة البيزنطيين خاصة ثيوفانس *Theophanes* وهي كما يقول: (وساطة لا يوثق بها إلا قليلًا، وإلى هذا الأخير ترجع غالبية الأساطير التي قيلت عن محمد في العصور الوسطى).

ولقد ألف ثيوفانس كتابًا سماه: حياة النبي، قال عنه ج. فون جروينباوم[2]: (إنه صار مرجعًا هامًّا لمن أتى بعده من الكتاب. وكان مما ادعاه فيه أن النبي أصيب بمرض عصبي).

كما يذكر ج. فون جروينباوم أن من هؤلاء البيزنطيين: يوليوس القرطبي *Eulogius*

---

(١) موجز في أدب علوم الإسلام *Handbuch der Islamliteratur* نقلًا عن أ.د. محمود حمدي زقزوق: الإسلام في تصورات الغرب ١١٨.

(٢) حضارة الإسلام ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ٦٦ - ٦٧.

of Cordova (ت ٨٥٩)، وقال عنه: (إنه يورد عن الرسول معلومات خالية من الضبط والدقة وأكاذيب وتخرصات عجيبة، وقد اعترف هو نفسه أنه لم يبذل أي محاولة للتحقق من معلوماته حول النبي).

ومنهم كذلك جبرت النوجنتي (ت١١٢٤) الذي رغم أنه يعترف بعدم كفاية مصادره؛ فإنه يمعن في نقل الأباطيل وإذاعتها بين أبناء دينه[١].

٢- على أية حال فإنه يحسب لنولدكه هنا تلك الإشارة السريعة إلى ادعاء البيزنطيين وصف رسول الله بالصرع وقوله: إن "هذا الموضوع بالمناسبة ليس له على الإطلاق تلك الأهمية التي تعطى له في العادة".

ويعلل رفضه لكون النبي مصابًا بالصرع بأن "من أعراض هذا المرض توقف قدرة الذاكرة".. لكن رغم دقة هذا التوجيه ووجاهته؛ إلا أنه ينبغي أن نتساءل: هل كان نولدكه صادقًا أو على الأقل جادًّا حين رفض وصف النبي بالصرع الحقيقي؟

٣ - سيساعدنا مبدئيًّا في الإجابة عن هذا التساؤل الحذِر ملاحظتُنا أن تعليله لرفض رمي النبي بهذا المرض لم يتجاوز ذكرَ عرَضٍ من أعراضه هو توقف قدرة الذاكرة *Ausschaltung des Erinnerungsvermögens* دون أن يبين تعارض ذلك مع حالة محمد ﷺ؛ وكان بوسعه - لو أراد، أو كان جادًّا في نفيه عنه - أن يقارن بين حالة المصروع وحالة النبي.

ولا يمكن أن يُعتذر عنه بأن الطب النفسي لم يكن قد أحاط بتفاصيل حالة الصرع وقت تأليفه كتابه؛ لأن المطلوب منه لم يكن أكثر من أن يثبت من خلال المقارنة المفترَضة الاختلافَ الواضح بين الشخصيتين: شخصية المصروع وشخصية النبي من زاوية الصفة التي عرَفَها عن المصروع وذكَرها وهي: (توقف قدرة الذاكرة)؛ دون غيرها من الصفات.

وفي اعتقادي أنه كان من الواجب على نولدكه - إن كان صادقًا في نفيه - أن

(١) حضارة الإسلام ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ٦٦ - ٦٧.

يتوسع في تجلية ذلك الأمر؛ حتى يساهم في مواجهة ما أشيع عن النبي من قِبل أسلاف نولدكه ومعاصريه من المستشرقين متأثرين بأساطير القرون الوسطى حول النبي؛ ولا يكتفي في نفي تهمة تقليدية موغلة في عمق الذهنية الغربية منذ القرون الوسطى بأن يدفعها باعتراض في أقل من سطرين.

أقول هذا وأمامي في القسم الأول من كتابه عشرات القضايا التي تعرض لها فأفاض في تناولها لحد الاستطراد؛ وقد كان الأجدر به أن يفعل نفس الشيء أو قريبًا منه مع نقطة البحث المهمة هذه. كان هذا حق الأمانة العلمية عليه وحق قرائه كذلك.

٤- إنه مما يساعد على الإجابة عن السؤال المطروح هنا أن ندرك أن المسافة جدُّ قصيرة بين زعمه عن حالات تهيج شديد للنبي؛ وبين الصرع الذي أظهر أنه يرفضه؛ وذلك لأن ثلاثة من الأدلة التي يطرحها هو دليلا على التهيج الشديد الذي يزعمه كذبا للنبي ﷺ؛ يطرحها غيره دليلا على وصف النبي بالصرع. ولذا فلن نفاجأ أنه بعد نفيه الصرع عن النبي في الصفحة ٢٥ من كتابه موضع الدراسة؛ يعود فيصفه به بعد خمس صفحات فقط فيقول متخذًا شبرنجر مصدرًا[١]: "مما يزيد الإيمان بهذا الرأي: القولُ بأن محمدًا كان قد تلقى كل آيات القرآن أثناء الحالات الصرعية *epileptischen Zufälle*، حيث لا يُتصَور أن تكون هذه الحالات طويلة المدة"[٢].

هل تم حسم الجواب عن السؤال؟.

٥- كما يساعدنا في هذا الشأن كذلك أن نرصد الاضطراب في كلامه هنا:

لننظر إلى هذا الكم من المصطلحات التي وردت في نص نولدكه لوصف وحي الله إلى محمد ﷺ لنتبين مدى الاضطراب الذي يقع فيه التفكير المادي عند تناوله لظاهرة الوحي، ولنصل كذلك إلى بيان حقيقة موقفه من وصف النبي

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق ١ ص ٣٠.

(٢) [ويرجع في هذا إلى *Sprenger* في الترجمة الإنجليزية لكتابه حياة محمد ص١٥٢ هامش ٤].

بهذا المرض:

إنه بعد أن يرفض نولدكه كون وحي محمد ﷺ صرعًا *Epilepsie*؛ يميل لربطه بـ (حالات تهيج نفسي) *psychogenen Erregungszustände*. لكنه يعود فينسبه للصرع الذي رفضه من قبل فيتحدث عن: الحالات الصرعية *epileptischen Zufälle*؛ كما مرَّ، ولا يستمر في هذا ويستخدم بدلًا منه المصطلحات الآتية:

- استثارة نفسية للنبي *die leidenschaftliche Erregung des Propheten*
- قلق نفسي *leidenschaftliche Unruhe die*
- هياج نفسي *die geistige Erregtheit*
- أقصى درجات حالة الجذب *höchsten Grade der Ekstäse*
- أبسط حالات إنعام الفكر المجهدة *einfachenangestrengten Nachsinnen*

وكما اضطرب في فهمه للوحي؛ اضطرب كذلك في تفسير رؤية النبي لجبريل؛ فيتردد بين كونها من قبيل الهلاوس: *Halluzinationen* أو الإيمان بالأشباح: *Brockengespenst* أو الصور الضبابية: *Nebelbildern* ثم يعترف أخيرًا أنها لها نفس القدر من الواقعية التي لظهور الملك في الكتاب المقدس"[(١)]!!!!!.

لذلك كله فإننا لا نجاوز الحقيقة إذا قلنا إن نولدكه يرجع وحي النبي إلى كل هذه الأمراض النفسية: الصرع والتهيج والاكتئاب والقلق النفسي والهلاوس... إلخ.

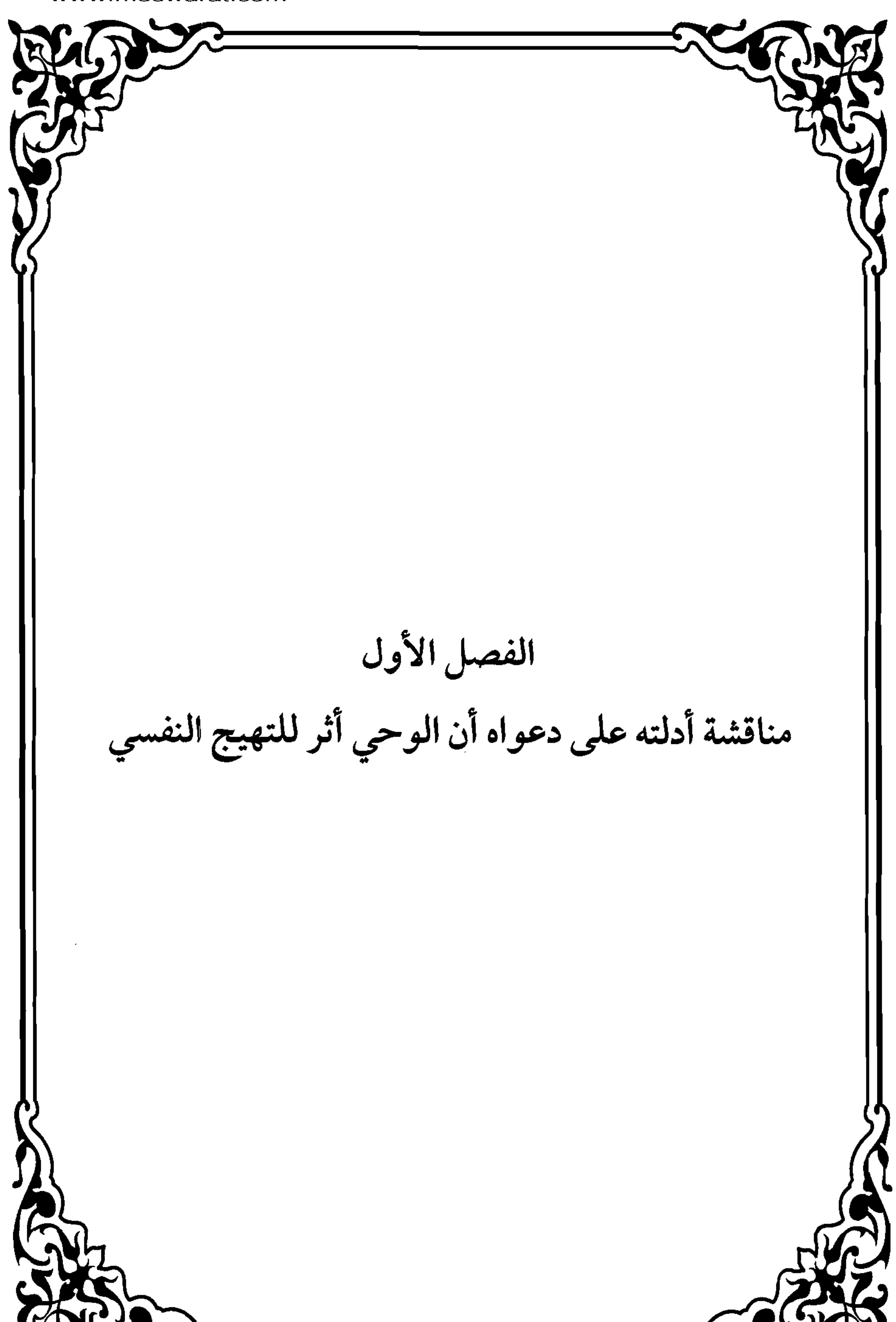
٦- لكن يبقى محل تساؤل: لماذا لجأ نولدكه إلى إظهار أنه يرفض وصف النبي بالصرع رغم أنه غير صادق في نفيه هذا أو على الأقل غير جاد فيه؟ قد يكون هذا ناتجًا من إخضاع ظاهرة الوحي لآليات البحث المادية مما أنشأ الحيرة والاضطراب

(١) حالات ظهور الملك في الكتاب المقدس بعهديه أكثر من أن تحصى هنا؛ فعلى سبيل المثال: قد ظهر لإبراهيم وموسى ودانيال وأشعياء ومريم.. إلخ. راجع في العهد القديم: تك ١٨: ٢-٨، خروج ٣: ١ - ٣، قضاة ١٣: ٢ - ١٣، أشعياء ٦: ٢ - ٤، دانيال ٩: ٢٠ - ٢٢. وفي العهد الجديد: لوقا ١: ٢٦ - ٣١، متى ٢٨: ٢- ٣.. إلخ [الباحث]

والتناقض. وقد يكون الأمر محاولة لم تكتمل لإرضاء الضمير العلمي أو الظهور بمظهر الباحث الموضوعي الذي لم تؤثر فيه خرافات القرون الوسطى الأوربية حول شخصية النبي؛ لكن هذه المحاولة انهارت في النهاية تحت تأثير سلطان شبرنجر الذي نقل عنه نولدكه عبارته الأخيرة التي عبر فيها عن الوحي بالحالات الصرعية.

من أجل هذا أجد لزامًا عليَّ ألا أغتر بعبارة نولدكه القصيرة التي ينفي فيها الصرع عن النبي؛ وأن أتعامل مع الواقع الذي أظهرته الإجابة عن السؤال السابق؛ فاتهام النبي بالصرع وتفسير وحي الله إليه على أنه نتاج حالات صرعية مرَّ بها ﷺ أو حالات تهيج؛ يجب أن ننظر إليه على أنه اتهام ما زال يجد من يقول به من بين مستشرقي العصر الحديث، ولم يستطع نولدكه أن ينجو منه.





الفصل الأول

مناقشة أدلته على دعواه أن الوحي أثر للتهيج النفسي



تمهيد

إن نولدكه يقدم ما يظنه أدلة على زعمه أن الوحي أثر للتهيج النفسي؛ فيستدل بالآتي:

- أن النبي ﷺ كان مصابًا بالصرع منذ شبابه المبكر.
- وأن النبي اعتقد في البداية أنه مجنون بسبب ما كان يعتريه من حالات تهيج.
- كما يستدل بما كان يعتريه ﷺ لحظة الوحي.
- ما ادعى أن المسلمين قالوه من أن الكم الموحى به للنبي كل مرة كان قصيرًا؛ ويفسر هذا بأن الحالة الصرعية لا يتصور لها أن تدوم طويلًا.
- ما لاحظه من أن سور الطور المكي الأول المليء حماسًا قصيرة. وفسر قصرها بأن التهيج الشديد الذي استثارها لا يدوم. ويقوم بعمل إحصاء لإثبات هذا.

***



المبحث الأول
مناقشة استدلاله بما يدعيه من صرع النبي ﷺ في شبابه المبكر

١- زعمه الاستناد للمصادر الإسلامية:

إن نولدكه يحيل للمصادر الإسلامية زاعمًا أن بها حالات يظهر منها إصابة النبي بحالات التهيج منذ شبابه المبكر ويقول: "إن المسلمين يفسرونها تفسيرًا آخر".

لقد مر قوله: "ولقد كان مصابًا به منذ شبابه المبكر، وتُذكر هذه الحالات في المراجع الإسلامية[١]؛ حيث يعطيها المسلمون وجهة أخرى، لكن لا ثقة في هذه الأحاديث. والبعض منها يذكر أن هذه الحالات جاءت بعد أن ابتُلى بالبعثة الدينية".

وقوله: "ولقد نُظِر فيما بعد إلى هذه الحالات بعينها على أنها مؤثر خاص من الإله الواحد الحق".

وقوله عن الهياج النفسي *geistige Erregtheit*: إن النبي "كان يعُدُّ نفسه مفضَّلا به".

ويصف في مكان آخر حادثة شق الصدر بأنها أسطورة متهافتة دون أن يتحدث عنها باعتبارها مظهرًا على التهيج؛ فيقول[٢]:

---

(١) ويحيل نولدكه إلى ابن هشام ص١١٧، والبخاري -كتاب الصلاة- باب ٨، وابن سعد ج١-٩٣، والأزرقي ص ١٠٥ أو ص١٠٧، ومسلم ج١ ص٢١٧ كتاب الحيض. وإلى: دي جوي:(رسالة محمد) في: دراسات استشراقية أهديت إلى نولدكه بمناسبة بلوغه السبعين *Gießen* ١٩٠٦ ج١ ص٥.

(٢) ق١ ص ٩٤ هامش ٣.

Aus einer falschen buchstäblichen Erklärung von Sur 94. I, verbunden mit der Überlieferung über Muhammeds epileptische Zufälle im Kindesalter, ist die elende Fabel entstanden, welche wir bei His. 105f Ibn Sa'd ed. I, I, p. 74f.; Bh. im bab al mi'rag und anderen Stellen; Muslim kit. al - iman § 72 (Q. II, 60ff.); Tab pers. II, 241f.; Mas'udi IV, 131; Misk. 516 (524 bab 'alamat al - nubuwa Anfang) usw finden. Vgl. Weil Anm. 11. Sprenger Life 78, Leben 2 I, 21 usw. Andere bringen die Geschichte über die Öffnung seiner Brust mit der über die Himmelfahrt in Verbindung (siehe die Zitate bei Sur. 17).

وترجمته:

"بالربط بين التفسير الحرفي الخاطئ لسورة: الشرح[1] والرواية عن حالات صرع محمد في طفولته نشأت أسطورة شق الصدر المتهافتة. نجد ذلك في ابن هشام ص١٠٥ وابن سعد ج١ ص٧٤، والبخاري باب المعراج، ومسلم كتاب الإيمان باب ٧٢ والطبري باللغة الفارسية ج٢ ص٢٤١ وما بعدها، والمسعودى ج٤ ص١٣١ ومشكاة المصابيح باب علامات النبوة. ويربط آخرون بين حكاية شق الصدر وقصة المعراج. راجع الشواهد عند سورة الإسراء".

٢- **ولنا هنا في البداية عدة ملاحظات منهجية:**

إن نولدكه رفض من قبل حديث السيدة عائشة عن بدء الوحي بدعوى أنها لم تشاهد الواقعة، أو بتعبير علم مصطلح الحديث أن روايتها كانت (مرسل صحابي)؛ لكنه هنا يقبل حديث جابر بن عبد الله عن حادثة نهي النبي عن التعري رغم أنه أيضًا لم يشاهد الواقعة وروايته في هذا الشأن تعد (مرسل صحابي)[2] كذلك!!

فلماذا لم يلتزم نولدكه منهجًا واحدًا من (مرسل الصحابي): إما القبول دائمًا كما فعل المسلمون وهو الصواب، أو الرفض دائمًا؟. لقد رفضه حين لم يساعده على

(١) وفيها: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾. [الباحث]

(٢) راجع ابن حجر: الفتح ج١ ص٤٧٤.

دعم فكرته المسبقة وقبله حين ظن أنه يدعم هذه الفكرة؛ فهل هكذا يكون المنهج العلمي؟

كما أنه هنا يكتفي بتوجيه النقد للمسلمين أنهم يفسرون تلك الحالات بوجهة أخرى بما يبعدها عن كونها علامة على التهيج، ثم يعود فينزع الثقة من هذه الأحاديث دون أن يذكر أصلًا هذه الحالات من خلال الأحاديث ليُعَرِّف قارئه بها. فهل هذا من الأمانة العلمية؟ وألا يكون بذلك قد أخل بقواعد المنهج العلمي؟ لأنه من الممكن عند ذكره لها أو إشارته إليها؛ ألا يشاركه قارئه فهمَه لهذه الحالات على أنها حالات صرع ومن ثم يتبنى نفس التفسير الإسلامي لها.

كما أنه وقع في خطأ منهجي آخر.

لقد كنا نتوقع منه أنه (وقد أعلن أنه لا يثق في أحاديث شق الصدر والنهي عن التعري) أن يسقطها من الاعتبار تمامًا... لكنه لم يفعل.. وفاجأنا أنه يبني عليها دعواه إصابة النبي بالتهيجات منذ شبابه المبكر؟ فأين المنهج العلمي؟

٣- لكن على أية حال فإني لكي أقف على حقيقة الأمر رجعت إلى مواطن إحالته إلى المراجع الإسلامية فوجدت أن في بعضها ذكرًا لحادثة شق صدر رسول الله ﷺ وهو صغير؛ وفي بعضها الآخر ذكرًا لحادثة عدم تمكينه ﷺ عن التعري وهو كبير لكن قبل البعثة.

لقد صح أن النبي قد شق صدره مرتين إحداهما وهو صغير في بادية بني سعد وهو في الخامسة من عمره[١]، والثانية عند المعراج[٢].

(١) الذي حدد هذا السن هو ابن سعد الطبقات ١/ ١١٢، طبعة دار صادر، بيروت. وهناك رواية أخرى عند الإمام أحمد ج٥ ص ١٣٩ رقم ٢١٢٩٦ أنه كان في العاشرة، لكن الدكتور أكرم ضياء العمري قال عنها (السيرة النبوية الصحيحة هامش٣ ص١٠٣): "في إسنادها معاذ بن محمد بن معاذ عن أبيه وكلاهما مجهول كما قال ابن المديني، وارجع إلى الذهبي: ميزان الاعتدال".

(٢) وردت روايات تفيد وقوع شق الصدر قبيل البعثة غير ما ذكرته أعلاه قال عنها د أكرم ضياء العمري (السيرة النبوية الصحيحة هامش٢ ص١٠٣): "إنها ساقها أبو نعيم الأصبهاني (دلائل النبوة ٦٩) والطيالسي (منحة المعبود في ترتيب مسند الطيالسي أبي داود ٢/ ٨٦ ط١ سنة =

أ- أما حادثة شق الصدر لرسول الله ﷺ وهو صغير فلم ترد في **ابن هشام** وحده - كما يتضح من إحالة نولدكه - بل وردت كذلك في **صحيح مسلم**[1].

فعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان؛ فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب فاستخرج منه علقة، فقال هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمَهُ ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه (يعني ظئره) فقالوا: إن محمدًا قد قُتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره.

أما عند ابن هشام فإن أخاه من الرضاع ذهب إلى أبويه يقول: إن رجلين عليهما ثياب بيض أخذا الطفل محمدًا فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه؛ فخرجت حليمة مرضعته وزوجها فوجداه قائمًا منتقعًا وجهه فقال لهما: **«جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني وشقا بطني فالتمسا شيئًا لا أدري ما هو»**[2].

وروى البخاري حادثة شق صدره ليلة الإسراء قال النبي: **«فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانًا فأفرغه في صدري ثم أطبقه ثم أخذ بيدي**

= ١٣٧٢هـ المطبعة المنيرية، الأزهر) وفي إسنادها داود بن المحبر وهو متروك، فروايته ساقطة لا يعول عليها". كما وردت روايات تفيد أنه ﷺ شُق صدره عند البعثة؛ قال ابن حجر (الفتح ج١ ص٤٦٠) "وقد روى الطيالسي والحارث في مسنديهما من حديث عائشة أن الشق وقع مرة أخرى عند مجيء جبريل له بالوحي في غار حراء والله أعلم". لكن الدكتور أكرم ضياء العمري (السيرة النبوية الصحيحة هامش ٣ ص ١٢٨) يضعف القول بشق الصدر عند البعثة فيقول عنه: إنه روي في "مسند الطيالسي ٢١٥ - ٢١٦ بسند ضعيف فيه مبهم، ومتنه منكر (وفي) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ١٤٢ - ١٤٤ من مرسل الزهري ضعيف (وفي) الخصائص الكبرى للسيوطي ١/ ٩٣ بسند مرسل وفيه ابن لَهيعة: ضعيف".

(١) مسلم بشرح النووي المجلد ١ ج٢ ص٢١٦ رقم (١٦٢).

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ج١ ص١٠١، ١٠٢ وانظر ١٠٣.

فعرج بي إلى السماء الدنيا...» الحديث.[1].

فبشأن تفسير شق صدره: نحن نعلم أن رسول الله ﷺ لم يسجد لصنم قط، وأنه لم يمارس شيئًا مما كان عليه أهل الجاهلية من انحرافات، وهذا كله لم يكن ليتم لولا أن الله حفظه.

ولأن النهايات تفسِّر البدايات؛ فإن شق صدره وهو صغير كان سببًا في حفظه وهو كبير... من الشرك والوثنية.. من أخلاق الجاهليين وعاداتهم.. من الرزيلة والفسق.. إلخ.

وعلى الرغم من أن الله كان قادرًا على حفظه دون شق... إلا أنه تعالى - وهو سبحانه أعلم - اختار الحفظ عن هذا الطريق ليقف النبي على ما ينتظره وما يجريه الله به من عناية وإعداد وليزداد يقينه؛ قال ابن حجر[2]: (الحكمة في شق قلبه مع القدرة على أن يمتلئ إيمانًا وحكمة بغير شق: الزيادة في قوة اليقين، لأنه أعطي برؤية شق بطنه وعدم تأثره بذلك ما أمن معه من جميع المخاوف العادية. فلذلك كان أشجع الناس وأعلاهم حالًا ومقامًا، ولذلك وصف بقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾).

ويقول ابن حجر كذلك بشأن شق الصدر في المرتين: (فالأول وقع فيه من الزيادة كما عند مسلم من حديث أنس: «**فأخرج علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك**». وكان هذا في زمن الطفولة فنشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان... ثم وقع شق الصدر عند إرادة العروج إلى السماء ليتأهب للمناجاة)[3].

ولا يجوز أن تفسر هاتين الحادثتين على أنهما حالتا صرع كما يدعي نولدكه للأسباب الآتية:

(١) البخاري بشرح ابن حجر ج١ ص ٤٥٨ رقم (٣٤٩).

(٢) الفتح ج٧ ص ٢٠٦.

(٣) الفتح ج٧ ص ٢٠٥ وراجع كذلك ج١ ص ٤٦٠.

طبقًا لرواية الحادثة الأولى؛ فإن هناك من شاهدوا بالفعل الملك الذي شق صدر الطفل محمد.

كما أن أنس بن مالك (الذي كان قريبًا من النبي باعتباره خادمه) كان يلاحظ أثر المخيط في صدر النبي.

كما أن تفسير هاتين الحادثتين لا يمكن أن يكون العمدة فيه النظر العقلي المجرد؛ لأن هذا الأخير يحار أصلًا في تفسير ظاهرة الوحي؛ وبالتالي فإنه يحار كذلك في تفسير مقدماتها. لذا فالارتكان لحكمه وحده مضلل.

ب- وأما حادثة عدم تمكينه من التعري؛ فقد وردت كما قال نولدكه في البخاري ومسلم وتاريخ مكة للأزرقي، وغيرها من المصادر.

ففي البخاري[1] عن جابر بن عبد الله أن رسول الله كان ينقل معهم الحجارة للكعبة وعليه إزاره فقال له العباس: يا ابن أخي؛ لو حللتَ إزارك فجعلته على منكبك دون الحجارة قال: فَحلَّه فجعله على منكبيه، فسقط مغشيًّا عليه، فما رئي بعد ذلك عريانًا.

وفي مسلم[2] عنه أيضًا: لما بنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ وعباس ينقلان حجارة فقال العباس للنبي ﷺ: اجعل إزارك على عاتقك من الحجارة ففعل، فخر إلى الأرض، وطمحت عيناه إلى السماء. ثم قام فقال: «**إزاري إزاري**». فشد عليه إزاره.

وفي **أخبار مكة** مثله، وزيادة: فبينا هو ينقلها (الأحجار) إذ انكشفت نمرة كانت عليه فنودي يا محمد: عورتَك؛ وذلك أول ما نودي، والله أعلم، فما رئيتْ لرسول الله عورةٌ بعد ذلك. ولَبَجَ[3] رسول الله من الفزع حين نودي،

---

(١) بشرح ابن حجر ج١ ص٤٧٤ رقم (٣٦٤).

(٢) مسلم بشرح النووي مجلد٢ ج٤ ص٣٤.

(٣) لبج: سقط من قيام، المعجم الوسيط ج٢ ص٨٤٥.

فأخذه العباس بن عبد المطلب فضمَّه إليه... وقال النبي: «**ما أصابني هذا إلا من التعري**»[1].

وكما كان الشأن في حادثتي شق صدره ﷺ فإنه لكذلك هنا؛ فقد كانت تفاصيل الأمر كله أمام ناظري العباس عم النبي الذي يستطيع أن يعرف إن كانت هذه الحادثة تشنجًا كالذي يعتري مرضى الصرع أو لم تكن؛ ولو كان قد لاحظ شيئًا مريبًا لما كان هو الذي يستوثق فيما بعد من صدق المتعاهدين مع النبي من الأنصار في بيعة العقبة الثانية[2]؛ ولما صار بعد ذلك مسلما من أتباع محمد. ثم إن النبي نفسه أدرك أن الحادثة لا تحمل معنى المرض، بل معناها هو الذي عبر عنه بقوله: «**ما أصابني هذا إلا من التعري**».

فكيف يسوغ منهجيًّا أن يفسر نولدكه هذه الحادثة دون أن يعنى في تفسيرها بموقف ورَدِّ فعل من شاهدها أو بِقول من حصلت له؟

إن التفسير الوحيد هو أن كشف العورة في ذاته قبيح؛ والنبي ﷺ صانه الله عن كل قبيح؛ ومنه انكشاف عورته للناس؛ لأنه سيصير نبيًّا. ولئلا يأتي واحد بعد نبوة محمد ﷺ ليقول أنت الذي ظهرت عورتك في يوم كذا، تدَّعي أنك نبي؟!!

(١) ص ١٥٨ و ١٦١.

(٢) عن هذه البيعة يتحدث كعب بن مالك وغيره فيقولون: "إن رسول الله أتى ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، فتلا رسول الله علينا القرآن فأجبناه وصدقناه.. ثم إن العباس بن عبد المطلب تكلم فقال: يا معشر الخزرج إن محمدًا منا حيث قد علمتم، وإنا قد منعناه ممن هو على مثل ما نحن عليه وهو في عشيرته وقومه ممنوع. (صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ج١٥ ص٤٧٣ رقم ٧٠١١) وصححه ابن حبان وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: "إسناده قوي، وأخرجه أحمد ٣/ ٤٦٠-٤٦٢ والطبراني ١٩/ ١٧٤ والحاكم ٣/ ٤٤١ ". وزاد الطبري (تاريخ..ج٢ ص٣٦٢) وابن إسحاق (طبقًا لسيرة ابن هشام ج٢ ص ٢٧٩): "وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم؛ فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك؛ وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه".

وهذا يندرج تحت إطار عام ثابت هو صيانة وحفظ الله لنبيه ﷺ قبل البعثة من كل قبيح عقدي أو خلقي:

أما حفظه رسوله من القبيح العقدي فيتضح مما أخرجه الإمام أحمد[1] بسند صحيح إلى هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه قال: حدثني جار لخديجة قال: سمعت النبي ﷺ يقول لها أي خديجة: «**والله لا أعبد اللات أبدًا، والله لا أعبد العزى أبدًا**». ومما ثبت أنه ﷺ نهى زيد بن حارثة عن مس الأصنام أثناء الطواف قائلًا: «لا تَمسَّها»[2].

وأما حفظُه رسولَه من القبيح الخلقي بالإضافة إلى عدم التمكن من التعري؛ فيتضح مما أخرجه الحاكم في المستدرك[3] عن علي بن أبي طالب أن النبي قال: «**ما هممت بما كان أهل الجاهلية يهمون به إلا مرتين من الدهر، كلاهما يعصمني الله تعالى منهما: قلت ليلة لفتىً كان معي من قريش في أعلى مكة في أغنام لأهلها ترعى: أبصر لي غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما تسمر الفتيان، قال: نعم، فخرجت، فلما جئت أدنى دار من دور**

(١) ج٥ ص ٣٦٢ رقم (٢٣١١٧) وقال الهيثمي (مجمع الزوائد كتاب علامات النبوة باب عصمته ﷺ ٨ / ٢٢٨، ط مؤسسة المعارف بيروت، سنة ٨٦) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٢) والحديث بتمامه: قال زيد بن حارثة: (طفت مع رسول الله ﷺ ذات يوم فلمست بعض الأصنام فقال لي رسول الله ﷺ: «لا تمسها». فقلت: لأعودن حتى أبصر ما يقول، ثم مسستها فقال: «ألم تنه عن هذا؟». قال: فوالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلمت صنمًا حتى أكرمه الله بالذي أكرمه). أخرجه الطبراني: المعجم الكبير ج٥/ ٨٧ / ٤٦٦٥، وقال الهيثمي: المرجع السابق ٢٢٩: (رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح)، وجاء جزءًا من حديث في المستدرك ج٣ ص ٢٣٨ رقم (٤٩٥٦)، وقال الذهبي في التلخيص: على شرط مسلم.

(٣) ج٤ ص ٢٧٣ رقم (٧٦١٩). وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وأقره الذهبي في التلخيص، وهو في صحيح ابن حبان ١٤/ ١٦٩/ ٦٢٧٢. وقال المحقق الشيخ شعيب الأرنؤوط: (إسناده حسن، وأورده السيوطي في الخصائص ١/ ٨٨-٨٩ وقال ابن حجر: إسناده حسن متصل ورجاله ثقات)، وقال الهيثمي (مجمع الزوائد كتاب علامات النبوة باب عصمته ﷺ ٨/ ٢٢٦): رواه البزار ورجاله ثقات.

مكة سمعت غناء وصوت دفوف وزمر، فقلت: ما هذا؟ قالوا: فلان تزوج فلانة، لرجل من قريش تزوج امرأة، فَلَهوتُ بذلك الغناء والصوت حتى غلبتني عيني فنمت؛ فما أيقظني إلا مس الشمس؛ فرجعت فسمعت مثل ذلك فقيل لي مثل ما قيل لي، فلهوتُ بما سمعت وغلبتني عيني فما أيقظني إلا مس الشمس.ثم رجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلتَ؟ فقلت: ما فعلتُ شيئًا». قال رسول الله ﷺ: «**فوالله ما هممت بعدها أبدًا بسوء مما يعمل أهل الجاهلية حتى أكرمني الله تعالى بنبوته**».

فإذا كان الله قد حفظ نبيه من كل ذلك ألا يحفظه من التعري؟

فحادث عدم التمكين من التعري الذي معنا إذن ليس حادثًا معزولًا للنبي أو فريدًا في بابه؛ وعليه فلا يستطيع أحد أن يبتعد به عن هذا الإطار الذي هو فيه: (إطار حفظ وصيانة الله لنبيه) شاء العقل المادي أم أبى.

٤- ولنتساءل الآن: هل كان معاصرو النبي جاهلين بهذه النوعية من الأمراض؛ وبالتالي لا يستطيعون اكتشاف المصابين بها؟ وأقول:

يجب أن نقرر منذ البداية أن معاصريه ﷺ قبل وبعد البعثة كانوا على دراية بمرض الصرع ويعرفون أعراضه الظاهرة، واحتمال جهلهم بهذا غير ممكن، ويعترف نولدكه نفسه بهذا حين يقول: إن "الناس المصابين بهذه الأمراض أو مثيلاتها كان الواحد منهم يقال عنه من العرب والشعوب القديمة: مجنون".

وفي صحيح السنة ما يؤكد معرفة العرب بذلك: فلقد كان يأتي مكة رجل من أزد شنوءة يسمى ضمادًا وكان يرقِي من هذه الأمراض[1].

٥، ٦- إذا كان رسول الله مصابًا بحالات التهيج أو الحالات الصرعية كما سماها نولدكه - منذ شبابه المبكر؛ فلماذا لم ينتج عن هذه الحالات وحي إلا بعد الأربعين؟

ولماذا لم يلاحظ أحد من القريبين من النبي قبل البعثة أو بعدها هذا المرض إلى

(١) مسلم بشرح النووي المجلد ٢ ج٦ ص ٨٦٨.

أن يأتي نولدكه الذي فَصَل بينه وبين النبي اثنا عشر قرنًا فيدعي هذا، ويُجلس رسول الله ﷺ في عيادته على أريكة المريض النفسي؟

هل يمكن أن يظل مرض مثل هذا يلحظ القاصي والداني أعراضه ثم يبقى المرض مستورًا لا يعلمه أحد؟ إذا أمكن هذا في حالة مريض معزول عن العالم فلا يمكن في حالة محمد ﷺ الذي عرف بعض تفاصيل حياته قبل البعثة، وصار بعد الأربعين نبيًّا وقائد دعوة؛ ثم أضيف إليه بعد الثالثة والخمسين قيادة جيش ودولة؛ وكانت حياته كلها (حتى الشأن الخاص منها) محط اهتمام وعناية أتباعه.

٧- **مكانة محمد ﷺ قبل البعثة ترد دعوى نولدكه:**

مما ينفي أن يكون محمد ﷺ في شبابه المبكر وقبل البعثة مصابًا بصرع أو تهيجات ما ثبت أنه كان يتمتع بمكانة طيبة وسمعة ممتازة بين مواطنيه المكيين؛ فلقد كانوا يسمونه الصادق الأمين؛ ويظهر هذا من معطيات كثيرة منها:

أ- قولهم عند تحكيمه في وضع الحجر الأسود: (أتاكم الأمين)[(١)]، وأنهم شهدوا لماضيه فقالوا له: (ما جربنا عليك إلا صدقًا)[(٢)]. كما يصفه الجاهلي النضر بن الحارث بقوله: (قد كان محمد فيكم غلامًا حدثًا، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة)[(٣)].

ويشهد أبو سفيان أمام هرقل بأنهم: (ما كانوا يتهمون محمدًا بالكذب قبل أن يقول ما قال)[(٤)]. وهذا أمية بن خلف (أبو صفوان) يشهد بابتعاده ﷺ عن الكذب بقوله: والله ما يكذب محمد إذا حدث. والقول ذاته قالته امرأته

(١) وهذا القول يرويه عبد الله بن السائب المخزومي الذي شاهد هذه الواقعة عيانًا ونقلها، مسند أحمد ج٣ ص٤٢٥ رقم (١٥٥٤٣).

(٢) البخاري بشرح ابن حجر ج٨ ص٥٠١ رقم (٤٧٧٠). وبلفظ: (ما جربنا عليك كذبًا) عند: الطبري: تاريخ ج٢ ص ٣١٩، ابن سعد: الطبقات الكبرى ج١ ق١ ص١٣٣.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ج١ ص١٧٩.

(٤) الحديث في البخاري بشرح ابن حجر ج١ ص ٣٢ رقم (٦).

بشأن نفس الواقعة قالت: فوالله ما يكذب محمد[1].

ب- ولقد تمكن قبل البعثة بخمس سنوات (بسبب هذه المنزلة) أن يجنب قريشًا الاقتتال بسبب نزاعها بشأن من يضع الحجر الأسود في موضعه من الكعبة بعد أن أتموا بناءها؟ إذ إنهم بعد نزاع استمر أربع ليال أو خمسًا؛ اقترح أحدهم أن يُحَكِّموا أول داخل عليهم. فكان هو محمد؛ الذي أمر بثوب فوضع فيه الحجر الأسود وقال: «لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعًا». حتى إذا بلغوا موضعه وضعه بيده ثم بنى عليه[2]. وكان عمره عند بنائها خمسًا وثلاثين سنة[3]. ولا عبرة بنفي المستشرق الفرنسي «مكسيم رودنسون» لهذه الحادثة[4].

(١) البخاري بشرح ابن حجر ج٦ ص ٦٢٩ رقم (٣٦٣٢). وفحوى القصة أن سعد بن معاذ انطلق معتمرًا فنزل على أمية بن خلف أبي صفوان... (وقال له): إني سمعت محمدًا ﷺ يزعم أنه قاتلك! قال: إياي؟ قال: نعم، قال: والله ما يكذب محمد إذا حدث؛ فرجع إلى امرأته فقال: أما تعلمين ما قال لي أخي اليثربي؟ قالت: وما قال؟ قال زعم أنه سمع محمدًا يزعم أنه قاتلي قالت: فوالله ما يكذب محمد. فلما خرجوا إلى بدر وجاء الصريخ (أي الداعي لهم للخروج لإنقاذ القافلة) قالت له امرأته: أما ذكرت ما قال لك أخوك اليثربي؟ فأراد أن لا يخرج؛ فقال له أبو جهل: إنك من أشراف الوادي فسر يومًا أو يومين، فسار معهم فقتله الله".

(٢) أحمد ٣/ ٤٢٥ (١٥٤٤٣) من رواية السائب بن عبد الله، وقال المحقق حمزة الزين: (إسناده صحيح ورواه الحاكم ١/ ٦٢٨ (١٦٨٣) وصححه ووافقه الذهبي). وراجع: ابن هشام ج١ ص١١٩ والتي تليها، والطبري: تاريخ ج٢ ص٢٨٩، ٢٩٠، وأبا عبد الله المقدسي: الأحاديث المختارة ج٢ ص٦٣ عن علي وقال: إسناده حسن. كما أخرجه الهيثمي مجمع الزوائد (ج ٨ ص٢٣٢) وقال: (رجاله رجال الصحيح غير هلال بن خباب، وهو ثقة. ورُوي عن علي بن أبي طالب، ورجاله رجال الصحيح غير حفص بن عمر الضرير وخالد بن عرعرة وكلاهما ثقة). وراجع فتح الباري (ج٧ ص ١٤٦)، وقال الشيخ الألباني عن رواية أحمد (في تخريجه لأحاديث فقه السيرة للشيخ الغزالي ٨٥): إنه حديث حسن.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف ج١ ص٩٩، وفي طبعة دار الفكر ج١ ص١٠٨.

(٤) إن رفضه لها غير مبرر؛ فلقد قال بلا أدنى دليل: (في كتابه *Mahomet* ٧٤-٧٦ نقلًا عن د. ساسي سالم الحاج: الظاهرة الاستشراقية ج٣، ٤ص ٧٠): (إنها قصة مخترعة وضعت لأسباب دينية تبريرية)؛ دون أن يبين ما الدليل على وضعها؟ ودون أن يفطن إلى أن هذا =

ولقد اعترف نولدكه نفسه قبل قليل أن العرب كانوا على دراية بهذه النوعية من الأمراض؛ فلو كان محمد ﷺ مصابًا بها منذ شبابه المبكر وقبل النبوة كما ادعى نولدكه؛ لما حَظي بالمكانة التي كانت له بين أهل مكة... فهل يتوقع باحث منصف أن محمدًا ﷺ لو كان يعاني من اضطرابات نفسية منذ شبابه أكانت قريش توكل إليه مهمة التحكيم في هذا الأمر الخطير ثم ينفذ الجميع الحكم طواعية واختيارًا؟.

قد يقول قائل: إنها لم تحكمه لشخصه إنما حَكَّمته: كأول داخل!! لكني أقول: لقد كان بإمكانهم أن يتراجعوا عن هذا إذا وجدوا أن أول داخل هو شخص يعاني من مرض كان القدماء ينظرون لصاحبه نظرة احتقار[1]؛ فلولا أنهم قبلوا شخصه ما قبلوا حكمه.

ثم إنهم لم يقبلوا حكمه كشخص عادي وإنما أضافوا إليه قولهم: (أتاكم

= الحدث ليس بالشيء العظيم الذي تتوقف نبوة محمد على حصوله حتى يدعى أن المسلمين اخترعوه. ثم إن المسلمين لديهم من الشجاعة الأدبية والأمانة العلمية ما يجعلهم يقفون موقفًا متشددًا إزاء ما هو أقل من الموضوع والمخترع مما ينسب إلى الرسول حتى لو كان يحوى مدحًا لرسول الله أو رفعًا لقدره؛ فكيف بهما؟. إن علماء المسلمين وقفوا ومازالوا أمام كل محاولة من هذا القبيل أو ما يسمى:(السيرة الشعبية للنبي) موقفًا قويًّا يقظًا؛ في الوقت الذي يحفل بها بعض الباحثين الغربيين ومن يسير في فلكهم من أجل أن يختلط الحق بالباطل فيتطرق الشك إلى الجميع. ولو كان المسلمون يقبلون المختَرَع والموضوع ويمررون نسبته هكذا بسهولة إلى الرسول ﷺ؛ فلماذا نجد - كباحثين - المادة المروية عن رسول الله في مرحلة ما قبل البعثة قليلة إلى حد كبير إذا قيست بالمروي عنه متعلقًا بمرحلة ما بعد البعثة؟ ألم يكن بإمكانهم أن يخترعوا لكل سنة من سنواته الأربعين قبل البعثة عدة أحداث، ويمرروها عبر أسانيد قوية مُرضية؟ ما الذي منعهم من ذلك؟ إنه الدين وتقوى الله والخوف من الكذب على الرسول ﷺ القائل: «**من كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**». ليس معنى هذا عدم حصول الكذب على النبي؛ لكن معناه أن الكذب اكتشفه مدققو علوم الحديث بما وضعوه من معايير صارمة لقبول الروايات. هذا وقد مر حكم علماء الحديث بصحة الرواية.

(١) استمرت هذه النظرة حتى في أوروبا إلى بدايات القرن العشرين.

الأمين)[١] أو (هذا الأمين رضينا به حكمًا)[٢].

ثم لننظر نتيجة هذا التحكيم؛ ألم يتمخض عن حل عاقل متزن يراعي التوازنات القبلية ويجعل الجميع يشعر أنه نال بنفسه هذا الشرف؟. فهل هذا الحل الرائع الذي غاب عن أذهان العقلاء الكبار الحاضرين يسمح لأحد أن يتهم صاحبه بمرض نفسي أيًّا ما كان هذا المرض؟

ج- ولم تكن واقعة التحكيم وحدها المظهر الوحيد الذي تتجلى فيه هذه المكانة؛ فلقد اختارته خديجة ليتاجر بمالها[٣]، ثم زوَّجها له من بعدُ عمُّها عمرو بن أسد[٤].. وهي لم تختره للتجارة مضطرة بحكم صلة أو قرابة؛ فقد كان خروجه لتجارتها قبل زواجه منها. كما لم تفعله لندرة من يقوم لها بذلك؛ فقد وجد غيره من تجار مكة الأغنياء الذين لم يعانوا اليتم والفاقة مثله. لكنها فعلته لأنها وجدت فيه من الأمانة والصدق والكفاءة والقدرة ما لم تجده في غيره. وهنا يأتي السؤال: هل لو كان محمد ﷺ مصابًا بهذه الأمراض منذ شبابه المبكر - كما ادعى نولدكه - كانت امرأة مثل هذه صاحبة مال وأعمال تصطفيه وتأتمنه على ثروتها وبعيدًا عن إشرافها المباشر ورقابتها؟ هل يمكن أن يدير من يعاني من حالات التهيج والصرع تجارة على هذا النحو؛ ثم يتوَّج ذلك كله بقبول صاحبة التجارة إياه زوجًا؟

إن خديجة كانت توصف بأنها: (أوسط نساء قريش نسبًا وأعظمهن شرفًا وأكثرهن مالًا؛ كل قومها كان حريصًا على ذلك منها لو يقدر عليها)[٥]؛

(١) وهذا القول يرويه عبد الله بن السائب المخزومي الذي شاهد هذه الواقعة عيانًا ونقلها، مسند أحمد ج٣ ص٤٢٥ رقم (١٥٤٤٣) وسبق الحكم عليه ص ١٧٧ هامش٢.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ٩٩ - ١٠٠، وفي طبعة دار الفكر ١٠٩.

(٣) الطبري: التاريخ ج٢ ص ٢٨٠.

(٤) الطبري: التاريخ ج٢ ص ٢٨٢.

(٥) الطبري: التاريخ، ج٢ ص ٢٨١.

فهل لو كان ما يدعى على محمد حقيقيًا كنا نجد امرأة مثل هذه ترضى أن يرتبط مصيرها بمصيره في علاقة زوجية؛ رغم وجود الكثيرين الذين يتمنون الزواج منها؟

د - ثم نجد محمدًا ﷺ يشارك في تجارته قبل البعثة السائب بن أبي السائب[1]؛ فقد روى الإمام أحمد عنه أنه (كان يشارك رسول الله ﷺ قبل الإسلام في التجارة؛ فلما كان يوم الفتح جاءه فقال النبي ﷺ: «**مرحبا بأخي وشريكي كان لا يداري ولا يماري، يا سائب، قد كنت تعمل أعمالًا في الجاهلية لا تقبل منك، وهي اليوم تقبل منك**». وكان ذا سلف وصلة.

فَلِم لم يجد عليه هذا الشريك شيئًا من الخبال الذي يظهر على المرضى من هذا القبيل؟ ولو وجد لما استمرت المشاركة ولَمَا أسلم السائب هذا فيما بعد في فتح مكة كما هو واضح في الحديث.

هـ- ولقد شارك الشاب محمد (وهو ابن العشرين عامًا) في حلف الفضول في دار عبد الله بن جدعان بهدف نصرة المظلوم[2]، وقال: «**شهدت حلف المطيبين مع عمومتي وأنا غلام فما أحب أن لي حُمْرَ النَّعم وأنِّي أنكثه**»[3]؛ وهذا كله لا يتصور إلا للأسوياء وليس للمصروعين أو المرضى النفسيين.

و- كما أن زيد بن حارثة (الذي كان رقيقًا عند النبي) قد خَيره النبي بين الرق معه أو الحرية بعيدًا عنه فاختار الرق معه. يروي أخوه جبلة فيقول: أتيت النبي (بمكة) فقلت: (يا رسول الله ابعث معي أخي زيدًا). فقال: «**هو ذا،**

---

(١) مسند أحمد ج٣ ص٤٢٥ رقم (١٥٤٤٤)، وقال محقق الكتاب: إسناده صحيح. وراجع المقريزي: إمتاع الأسماع ج١ ص ٣٦.

(٢) ابن هشام السيرة النبوية ج١ ص٨٤، وإمتاع الأسماع ص ٣٨.

(٣) الحاكم في مستدركه ج٢ص٢٣٩ رقم (٢٨٧٠)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي. وسنن البيهقي الكبرى ج٦ ص٣٦٦ رقم (١٢٨٥٦).

هو إن أراد لم أمنعه». فقال زيد: (لا والله لا أختار عليك أحدًا). قال جبلة: (فقلت: إنَّ رَأْيَ أخي أفضل من رأيي)[1]. وفي رواية[2] أنه قال: (هيهات هيهات ما أريد برسول الله بدلًا ولا أؤثر عليه والدًا ولا ولدًا).

فهل يتوقع من رجل كزيد بن حارثة أن يختار العبودية مع رجل يُصرع ويصاب بنوبات هياج مضحيًا في سبيل ذلك باجتماع شمله مع أهله فضلًا عن حريته؟

ثم إن جانبًا طبيًّا في الأمر ينبغي أن نتوقف عنده: إن أحد المصادر الطبية[3] يسمي بعض النوبات الصرعية التي تصيب الأطفال: بـ (نوبات الذهول)؛ وهي طبقًا لهذا المصدر: لون من ألوان التشنجات الصرعية الكلية[4]، تنتقل بالوراثة، وتبدأ أعراضها في سن الطفولة وغالبًا ما تنتهي قبل سن العشرين. ويحدث في هذه النوبة فقدان مؤقت للوعي لا تزيد مدته عن خمس إلى عشر ثوان مع الحفاظ على التوتر العضلي للجسم مما يؤدي إلى احتفاظ الجسم بوضعه (أي لا يقع على الأرض، بل يبقى كما هو جالسًا أو قائمًا دون حراك). وقد تكون النوبة مصحوبة بتحريك رموش العينين أو بميل الرأس إلى أحد الجانبين. ويعود المريض إلى وعيه وإدراكه بعد انتهاء النوبة مباشرة". وأقول هنا:

إن نولدكه قال من قبل عن النبي: "لقد كان مصابًا بها [أي التهيجات النفسية] منذ شبابه المبكر. وتُذكر هذه الحالات في المراجع الإسلامية؛ حيث يعطيها المسلمون وجهة أخرى، لكن لا ثقة في هذه الأحاديث".

---

(١) المستدرك على الصحيحين ج٣ ص ٢٣٧ رقم (٤٩٤٨) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقال الذهبي في التلخيص: صحيح.

(٢) المستدرك على الصحيحين ج٣ ص ٢٣٥ رقم (٤٩٤٦) ولم يذكره الذهبي في التلخيص.

(3) *Roger P. Simon , Michael J. Aminoff , David A. Greenberg: clinical Neurology p.257-258.*

(٤) هناك نوبات صرع جزئي.

إن هذا القول أوصلنا إلى النتيجة التي ادعاها بمنتهى الجزم ودون أن يدع كلامُه أي فرصة للاحتمال؟ فهل هكذا يكون المنهج العلمي؟ وهل يمكن أن يكون نولدكه قد أتيح له إجراء فحص طبي لمحمد وهو طفل، ثم وهو شاب، وصل من خلاله لهذه النتيجة؟ أم هل قام غيره من المعاصرين للطفل محمد بهذا ثم اعتمد نولدكه نتائجهم؟ أم هل تأكد لديه أن محمدًا الطفل ورث عن أبويه أو أحدهما هذا المرض؟

بطبيعة الحال لم يعتمد نولدكه على شيء مما ذُكر، ولم يَجْر في كلامه حديث عن دليل أصلًا؛ فكيف واتته الشجاعة أن يلقي بحكمه في قضية خطيرة كهذه بهذا الحسم؟

إننا لو لاحظنا الأعراض التي تنتاب الطفل المصاب بهذا النوع من التشنج لوجدناها مختلفة عن الحادثتين اللتين أشار إليهما نولدكه؛ فلم يفقد محمد ﷺ وعيه فيهما. كما أن مرض طفل بهذا المرض لا يعني استمراره به، بل تنتهي الحالة غالبًا قبل سن العشرين.

ثم إن نولدكه لما أراد أن يغالط؛ فَسَّر حادثتي شق الصدر والنهي عن التعري بجعلهما أصلًا في الدلالة على المرض؛ أما تفسير المسلمين؛ فهو عنده لا يعدو كونه: "وجهة أخرى" على حد قوله. فكأن على الباحثين إذن أن يقروا أن الوجهة الأصل هي وجهة نولدكه ورفاقه؛ ولا حق للمسلمين في فهم نصوصهم!!

أليس هذا وجهًا يبرز بجلاء اقتناع صفوة المجتمع الأوربي بما اصطلح على تسميته "مركزية الأوربي" حيث يظهر هنا أحد معالمها، وهو أن يعطي الأوربي لنفسه الحق كل الحق في أن يقدم (رؤيته النهائية غير المستدل عليها) للآخر الحضاري، وفي نفس الوقت يتجاهل رؤية هذا الآخر لذاته ونصوصه؟

* * *



المبحث الثاني
استدلاله بما ادعاه (أن النبي اعتقد في البداية أنه مجنون)

لقد ادعى نولدكه أن النبي اعتقد في البداية أنه مجنون بسبب:

- حالات التهيج التي زعم نولدكه أنها كانت تحصل له.
- وبسبب أن العرب كانت تعتبر هذه الحالات جنونًا... لكن النبي ﷺ ما لبث أن اعتقد أن هذه الحالات مؤثر خاص من الله؛ يقول:

"ولأن الناس المصابين بهذه الأمراض أو مثيلاتها كان الواحد منهم يقال عنه من العرب والشعوب القديمة: مجنون؛ فإن محمدًا ظهر في البداية ولديه نفس هذا الاعتقاد.. ولقد نظر فيما بعد إلى هذه الحالات بعينها على أنها مؤثر خاص من الإله الواحد الحق".

كما كرر نولدكه نفس الزعم؛ إذ إنه حين تعرض لاتهام من وصفهم بالحصفاء من شعب النبي وصفهم إياه: إنه شاعر ملتاث العقل أو كاهن متصل بالجن أو مجنون؛ زعم أن النبي لم يكن خلوًا من اعتقاده في نفسه أنه كذلك فقال[1]:

"Wenn nun Muhammed unter seinen nüchternen Landsleuten dergleichen Offenbarungen vortrug, so konnte es nicht ausbleiben, daß er von den meisten für einen Wahnsinnigen oder für einen Lügner gehalten wurde. Man nannte ihn einen übergeschnappten Poeten, einen mit den Ginnen verbündeten Wahrsager oder einen Besessenen (magnun). Diese Ansichten, von deren letzterer er anfangs wohl selbst nicht ganz frei war".

---

(١) تاريخ القرآن بالألمانية، ق١، ص٧٦.

وترجمته:

"عندما تلا محمد آيات كهذه (هو يتحدث عمّا نزل من القرآن في بدايات البعثة) على قومه ذوي المشاعر الباردة وصفه معظمهم بالجنون أو الكذب، وقالوا عنه: إنه شاعر مخبول أومدع لمعرفة الغيب أو مجنون. ولم يكن محمد ذاته في البداية خلوًا تمامًا من هذه الآراء عن نفسه ومنها الأخير".

إن لنولدكه هنا زعمين هما: أن رسول الله كانت تعتريه حالات تهيج وصرع؛ وأنه اعتقد في البداية أنه مجنون. وقد أبطلنا من قبل زعمه تَعَرُّضَ رسول الله لحالات مثل هذه في طفولته وشبابه قبل البعثة؛ وهذا المبحث يدور معظمه حول إبطال زعمه تعرضه ﷺ للتهيج والصرع بعد البعثة.

أما دعواه أن النبي اعتقد في البداية أنه مجنون فيجب أن نؤكد إجمالًا أن أحكام الباحث على المواقف والأحداث لا بد أن تنطلق من النصوص الصحيحة ذات الصلة وتؤسس عليها؛ وإلا لتحول البحث العلمي إلى مجموعة من الانطباعات والآراء الفارغة عديمة الصدقية. فأين هي النصوص الصحيحة التي اعتمد عليها نولدكه ليؤسس حكمه أن رسول الله كان يعرف إصابته بتهيجات أو حالات صرعية؟ وأين تلك النصوص التي اعتمد عليها لينتهي إلى أنه قد قيل عن محمد قبل البعثة: إنه مجنون؟.

إن هذه كلها دعاوى بلا دليل لا تتجاوز كونها كلامًا مرسلًا لا يليق أن يجري على لسان أي مبتدئ، فكيف بمن يوصف أنه (باحث علمي ناقد كبير)؟

وأقول بهذا الشأن تفصيلًا:

١- لم يذكر نولدكه الرواية التي استند إليها ليدعي أن رسول الله خاف على نفسه الجنون. وإذا ذهبنا إلى حديث السيدة عائشة(١) المتعلق ببدء الوحي على رسول الله ﷺ ونزول الملَك عليه؛ لا نجد فيه - حسب كتب السنة التي راعت أعلى معايير الصحة والتحري كالبخاري ومسلم - أنه خشي على نفسه الجنون؛ والذي ورد فيهما: «لقد

(١) الموجود في الصحيحين، وسائر كتب السنة.

خشيتُ على نفسي». هكذا دون أن يحدد الرسول ما كان يخشاه؛ وبالتالي فإن أي حديث عن خوفه ﷺ من الجنون هو تزيد وادعاء غير مقبولين.

٢- لكن ما الذي خشيه رسول الله إذن طبقًا لحديث الصحيحين؟

لقد خاف على نفسه المرض أو الموت ولم يخش جنونًا أو كهانة أو شيئًا من قبيلهما. ولا أقول ذلك انطلاقًا من اعتبارات عقدية مسبقة، كما قد يتصور من يفسرون دوما تفسيرات الباحثين المسلمين؛ بل أقوله انطلاقًا من ثلاثة أمور:

أولها: أن هذا هو الافتراض المنطقي والمتوقع.

ثانيها: أن هذا هو ما حصل للأنبياء قبل محمد.

ثالثها: الاعتماد على الروايات الصحيحة.

أما كونه هو الافتراض المنطقي والمتوقع؛ فلأن:

أ- هذا هو المتبادَر إلى الذهن للوهلة الأولى؛ لأن رسول الله بشر، والوحي إليه لم يمح بشريته؛ فلا يستبعد أن يخاف الموت أو المرض على نفسه؛ ولم يكن الله قد وعده بحفظه بعد.

ب- ولأننا إذا حللنا الأمر وجدنا أنفسنا إزاء رجل لم يقابل في حياته مثل تلك الشدة، ولم يكن يتوقعها؛ ولم يكن في تمهيدات الوحي السابقة من رؤية الضوء وسماع الصوت ثم وحي الرؤية المنامية شيء منها؛ ثم يتعرض فجأة وهو وحده في غار حراء لنزول الملك عليه، وأخذِه بشدةٍ، وغَطِّهِ (أي عَصْرِهِ) حتى يبلغ منه الجهد مبْلَغَه، وحتى يَظن أنه الموت.. فماذا يكون ردُّ فعل محمد (البشر)؟ بالتأكيد، سيؤخذ ويفاجأ ويضطرب ويخاف على نفسه من الآثار الصحية المترتبة على كل هذا من مرض وموت إلخ... وهو خوف فطري منطقي ومتوقع في ظرفٍ كالذي مر به رسول الله الذي فوجئ بالرسالة: قال تعالى[1] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا

(١) الشورى: ٥٢.

ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وأما إن هذا هو ما حصل للأنبياء قبل محمد فإنه طبقًا لما جاء بسفر التكوين؛ فإن الوحي لما جاء إبراهيم عليه السلام سقط على وجهه[1]. وجاء بسفر الخروج كذلك أن موسى عليه السلام قد مر بحالة خوف؛ حيث إنه عند بداية الوحي إليه "غطَّى وجهه لأنه خاف أن ينظر إلى الله"[2]. كما أنه لما قال له الله: اطرح عصاك إلى الأرض، فطرحها فصارت حية هرب موسى منها. ثم قال الرب لموسى: مد يدك وأمسك بذنبها"[3]..

وقد جاء القرآن بهذا الموقف فقال تعالى لموسى بشأن عصاه: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ الآية[4]، وقال: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾[5].

ولما ظهر جبريل للنبي (دانيال) سقط على وجهه؛ يقول دانيال[6]: " فنادى وقال: يا جبرائيل، فَهِّم هذا الرجل الرؤيا، فجاء إليَّ حيث وقفت، ولما جاء خفت وخررت على وجهي.. فلمسني وأوقفني على مقامي".

وفي العهد الجديد كذلك، وتحديدًا في إنجيل لوقا[7] ظهر ملاك الرب لزكريا "فلما رآه اضطرب ووقع عليه خوف".

فإذا كانت النبوة لم تُلْغِ بشرية إبراهيم الذي سقط على الأرض من هول المفاجأة؛

(١) "ولما كان إبرام ابن تسعة وتسعين ظهر الرب لأبرام وقال له: أنا الله القدير، سر أمامي وكن كاملًا، فاجعل عهدي بيني وبينك وأكثرك كثيرًا جدًّا فسقط أبرام على وجهه". تك ١٧: ١-٣.

(٢) خروج ٣: ٦.

(٣) خروج ٤: ٢، ٣.

(٤) طه: ١٩ - ٢١.

(٥) القصص: ٣١.

(٦) دانيال ٨: ١٥ - ١٩.

(٧) ١: ١٢.

ولم تلغ بشرية موسى ودانيال وزكريا وخوفهم الفطري؛ وتقبلُ العقلية الغربية كل ذلك؛ فكيف يقفون هذا الموقف المريب من خوف محمد ﷺ على نفسه الآثار الصحية، وقد عاين ما عاين عند الوحي الأول؟

ولماذا يتم قبول (سقوط) إبراهيم عند بداية الوحي و(خوف) كل من زكريا ودانيال و(سقوط) الأخير على وجهه عند رؤية جبريل.. يتم قبول ذلك كله بأريحية تامة ودون أن يسترعي ذلك انتباه أحد؛ لكن الدنيا تقوم ولا تقعد؛ ويخرج الأطباء النفسيون من عياداتهم ويستحضرون كافة ألفاظ الطب النفسي لقول الصادق الأمين محمد ﷺ: «**خشيت على نفسي**»؟

وإذا كانوا فعلوا ذلك مع مجرد (خشية)؛ فماذا كانوا سيفعلون لو كان محمد ﷺ قد (سقط على وجهه) كما حصل لإبراهيم عليه السلام أو دانيال؟ أتوقع أنهم كانوا سيصرخون: اضبطوا: حالة إغماء وفقدان وعي وتشنج وصرع وتهيج واستثارة... إلخ ألفاظ هذا القاموس المرضي التي لا يلقيها الشيطان على أفواههم إلا بشأن النبي محمد.

وأما كونه[1] معتمدًا على الروايات الصحيحة المتعلقة بالموضوع (وهي التي ينبغي أن تكون الإطار المرجعي الذي لا يتجاوزه باحث، حتى لو كان غير مسلم) فيتجلى في الآتي:

أ- إن دلالة الألفاظ الواردة في حديث عائشة على هذا التفسير قوية؛ فهو ﷺ قد رجع إلى خديجة (يرجفُ فؤادُه)، وفي رواية أخرى للبخاري أيضًا (ترجف بوادرُه)[2] قائلًا: «**زملوني زملوني**»؛ فزملوه حتى ذهب عنه الروعُ[3].

---

(١) أي تفسير «**خشيت على نفسي**» بأنه خاف على نفسه المرض أو الموت.

(٢) البخاري بشرح ابن حجر، ج١٢، ص ٣٥١، رقم (٦٩٨٢)، وجاء في الفتح (ج١٢، ص٣٥٨): "البوادر: جمع بادرة: وهي اللحمة التي بين المنكب والعنق، وجرت العادة أنها تضطرب عند الفزع. وقيل: هي ما بين المنكب والعنق، ولا تختص بعضو واحد".

(٣) البخاري بشرح ابن حجر ج١، ص٢٢، رقم (٣).

إن وقوفنا عند هذه الألفاظ الواردة على لسان النبي وبطرقٍ صحيحة إليه؛ تبين بشكل لا لبس فيه أن ما تعرض له رسول الله عند لقائه الأول بجبريل قد أحدث آثارًا صحية ظاهرة على النبي هي الرعشة الشديدة والشعور بالبرد؛ مما استدعى الحاجة لأن تلفه خديجة بثيابٍ؛ ومن ثم ذهب عنه الروع. ويعطينا هذا إشارة قوية للإجابة عن سؤال: ما الذي خافه الرسول على نفسه عند أول لقاءٍ بجبريل:

إنه ما دامت الأعراض التي ظهرت نتيجة لهذا اللقاء كانت صحية؛ فخوف النبي على نفسه كان صحيًّا كذلك؛ فقد خشي على نفسه المرض أو الموت.. وهو خوف فطري طبيعي متسق مع الجانب البشرى للنبي ولا يتنافى مع تمام اليقين المتحصل له بالنبوة.

ب- واستحضارنا الآن ما كان يتعرض له رسول الله فيما بعدُ عند كل مرةٍ كان ينزل عليه فيها الوحيُ؛ يساعد في الإجابة عن سؤال: ما الذي خافه الرسول على نفسه عند أول لقاءٍ بجبريل:

لنقرأ قولَه لعبد الله بن عمرو لما سأله: هل تحس بالوحي؟ فقال: «**أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك فما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تَفِيضُ**»[1].

فإذا كان هذا هو ما يشعر به رسول الله ﷺ طيلة حياته عند كل مرة يوحى إليه فيها (برغم أن هذه المرات جميعًا لم يعصره فيها الملك، ولم يتوفر فيها عنصر مفاجأة المرة الأولى المذهلة) فمن باب أولى يكون قد شعر بهذا عند لقائه الأول بجبريل[2]. وبهذا الشعور وحده يُفَسَّر قولُ رسول الله:

(١) أحمد ٢ / ٢٢٢، رقم: (٧٠٧١).

(٢) و(يُستأنس) في هذا بما ورد في مرسل عبيد بن عمير بن قتادة الليثي (الطبري: التاريخ ٢/ ٣٠١، ابن هشام السيرة النبوية ١/ ١٤٧) «**فغتني حتى ظننت أنه الموت**»، وذلك لأن أصله في الصحيح كما هو واضح أعلاه.

«خشيتُ على نفسي». حيث خاف على نفسه الآثار الصحية المترتبة على ما تعرض له؛ من المرض أو الموت.

ج- كما أن الروايات الصحيحة الأخرى غير حديث عائشة تتحدث عن مرور النبي ﷺ بأمور كانت تمهيدًا للنبوة[1] منها أن الحجر كان يُسلم عليه قبل البعثة، وأنه كان يرى الضوء ويسمع الصوت، ثم مر بمرحلة الرؤية المنامية التي استمرت ستة أشهر قبل نزول جبريل عليه... كل هذه الممهدات - بما تؤسسه من يقين لا يُحتمل معه خوف الجنون - تمنع أن يكون النبي ﷺ خشي شيئًا من هذا القبيل على نفسه عند نزول جبريل عليه؛ لكن لا تمنع أن يكون خاف على نفسه المرض أو الموت؛ لأنها وإن أسهمت في الدعم الروحي والنفسي للنبي؛ إلا أنها لا تمحو بشريته؛ ولم يكن الله قد وعده بحفظه بعد؛ فلا يُستبعد أن يخاف الموت أو المرض على نفسه.

د- ثم إن ما صاحب لقاءه ﷺ بجبريل من ملابسات ملموسة مفارِقة ليست ذاتيةً بحال، يشترك السمع والبصر والكلام في إدراكها والتفاعل معها، ويشعر بها النبي ويحسها، من فجأة جبريل النبي وظهوره أمامه، وتعدد مرات الغطِّ الشديد[2] ومرات الأمر بالتلاوة،.. كل هذه الملابسات تجعل من المستبعد معه أن يكون النبي قد ظن الوحي جنونًا.

هـ- وهذا الخوف الفطري - على عكس ما يقول نولدكه - يقدِّم إفادةً مهمة؛ فلأن محمدًا أعلن بتلقائية شديدة استفساره هذا ولم يخفه؛ فهو بهذا الإعلان يؤكد أن أمر نبوته لم يكن يخضع لخطة مسبقة من قبله.

(١) سيأتي ذكرها بعد قليل.

(٢) والغط: حبس النفس؛ ومنه غطَّه في الماء.. ومنه الخنق؛ ولأبي داود الطيالسي في مسنده بسند حسن: فأخذ بحلقي. وقوله: «**حتى بلغ مني الجهد..**». أي: بلغ الغط مني غاية وُسْعِي. راجع ابن حجر الفتح، ج١، ص٢٤.

٣- ونؤكد مرة أخرى أنه لم يرد في أيٍّ من الروايات الصحيحة أنه ﷺ خاف الجنون على نفسه عند لقائه جبريل لأول مرة.

أما ما ورد عن خوف النبي الجنون، أو أن يكون كاهنًا، في بعض طرق الحديث المتعلق بـ(نزول جبريل لأول مرة ومعه صدر سورة العلق)؛ فقد قال ابن حجر[١]: (إن هذا جاء مصرحًا به في عدة طرق، وأبطله أبو بكر بن العربي، وحق له أن يُبْطِل).

ولم أطلع في الحقيقة على إبطال ابن العربي، كما لم يتوسع ابن حجر بشأن الطرق التي أبطلها. لكن يُقصد بها - في غالب ظني - تلك الزيادة التي جاءت في **تاريخ الطبري** كرد فعل لرؤية جبريل: «**ما أراني إلا قد عُرِض لي**»[٢] أو "إن الأبعد لشاعر أو مجنون"[٣]. ويقصد بها كذلك ما ذكره ابن سعد من طريق شيخه الواقدي كرد فعل على نفس الرؤية كذلك: «**والله ما أبغضت بغض هذه الأصنام شيئًا قط، ولا الكهان، وإني لأخشى أن أكون كاهنًا**»[٤].

وهي زيادات[٥] لا يُحتج بها.

إن زيادتي الطبري من المرسل الذي هو أحد أنواع الضعيف؛ فالأولى مرسل لعبد الله بن شداد[٦] وهو من كبار التابعين ولم يسمع من رسول الله، ولم يصرح بالسماع من صحابي؛ والثانية من مرسل عبيد بن عمير بن قتادة الليثي.

(١) الفتح ابن حجر، ج١، ص٢٤.
(٢) تاريخ الطبري، ج٢، ص٢٩٩.
(٣) وينتهي سندها إلى عبيد بن عمير بن قتادة الليثي، تاريخ الطبري، ج٢، ص٣٠١.
(٤) ابن سعد: الطبقات القسم الأول من ج١، ص١٢٩ - ١٣٠.
(٥) أشار نولدكه على عجل لمواضع بعض تلك النصوص دون أن يذكرها راجع: تاريخ القرآن بالألمانية، ق١، ص٧٦، هامش٣.
(٦) سئل الإمام أحمد: أسمع عبد الله بن شداد من النبي شيئًا؟ قال: لا؛ وهو من كبار التابعين وثقاتهم، ابن حجر الإصابة، ج٥، ص١٣، رقم (٦١٨١)، العِجْلي: معرفة الثقات، ج٢، ص٣٦، رقم (٩٠٣).

أما زيادة ابن سعد عن رد فعل النبي على نزول جبريل؛ فلقد رواها ابن سعد عن طريق شيخه الواقدي الذي قال عنه البخاري: متروك الحديث[(١)].

ننتهي هنا إذًا إلى تقرير حقيقة أنه لم يرد في أي رواية صحيحة أن رسول الله خاف على نفسه الكهانة أو الجنون عندما جاءه جبريل بأول ما نزل من القرآن.

٤- لكن لاحظنا أن ابن سعد ذكر تخوُّفَ رسول الله من أن يكون به جنن ضمن حديث آخر لا علاقة له باللقاء الأول مع جبريل؛ فقال: (أخبرنا يحيى بن عباد وعفان بن مسلم قالا: أخبرنا حماد بن سلمة، قال: أخبرنا عمار بن أبي عمار، قال يحيى بن عباد: قال حماد بن سلمة: أحسبه عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «**يا خديجة إني أسمع صوتًا وأرى ضوءًا، وإني أخشى أن يكون بي جنن**». فقالت: لم يكن الله ليفعل بك ذلك يا ابن عبد الله. ثم أتت ورقة بن نوفل فذكرت له ذلك فقال: إن يك صادقًا فهذا ناموس مثل ناموس موسى، فإن يبعث وأنا حي فسأعزره وأنصره وأومن به[(٢)].

(١) وتركُه أشبه الإجماعَ؛ نقل ذلك كل من صنف في المجروحين والضعفاء؛ فقد تركه أحمد وابن نمير وابن المبارك وإسماعيل بن زكريا، وقال عنه صاحب لسان الميزان: متروك مع سعة علمه، وقال عنه أحمد بن حنبل: هو كذاب، وقال عنه النسائي: ليس بثقة، وقال الحاكم أبو أحمد: ذاهب الحديث، وقال عنه أبو أحمد الجرجاني في الكامل في الضعفاء: حدث بالمناكير عن الثقات وسرق الحديث، راجع: تذكرة الحفاظ ١/ ٣٤٨، رقم (٣٣٤)، ضعفاء العقيلي ٤/ ١٠٧، رقم (١٦٦٦)، الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٨/ ٢٠، رقم (٩٢) الكامل في ضعفاء الرجال ٤/ ٣١٨، رقم (١١٥٠)، المجروحين من المحدثين والضعفاء ٢/ ٢٩٠، رقم (٩٩٠)، لسان الميزان ٧/ ٥٢١، رقم (٥٨٦٩)، تهذيب الكمال ٢٦/ ١٨٠، رقم (٥٥٠١)، تهذيب التهذيب ٩/ ٣٢٣، رقم (٦٠٦)، تاريخ بغداد ٣/ ٣، رقم (٣٣٩).

(٢) إسناده صحيح؛ فيحيى بن عباد ليس به بأس؛ كما جاء في ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل ٩/ ١٧٣، رقم (٧١٢). وأخرج البخاري له في المناقب واللباس (الباجي: التعديل والتجريح لمن خرَّج له البخاري في الصحيح ٣/ ١٢١٥، رقم ١٤٦٩)، وعفان بن مسلم الصفار ثَبْتٌ صاحب سنة: (معرفة الثقات ٢/ ١٤٠، رقم (١٢٥٦)، وتذكرة الحفاظ ١/ ٣٧٩، رقم ٣٧٨)، وحماد بن سلمة ثقة رجل صالح حسن الحديث، وكان لا يُحدث حتى يقرأ مائة آية نظرًا في المصحف (معرفة الثقات ١/ ٣١٩، رقم ٣٥٤) وعمار بن أبي عمار قال عنه أحمد بن حنبل:=

وهذا الحديث يستفاد منه بهذا الشأن أن رسول الله مرَّ قبل نبوته بمرحلة كان يسمع فيها الصوت ويرى الضوء، وأنه في هذه المرحلة اشتكى لخديجة كما نرى، وأنها ذهبت به لورقة. فمن المحتمل هنا أن تكون الزيادة التي تتحدث عن خشية رسول الله الجنون على نفسه تابعة لمرحلة رؤية الضوء وسماع الصوت وليست تابعة لمرحلة بداية رسالته ﷺ برؤية جبريل ونزول صدر سورة (اقرأ) الذي يستفاد من حديث عائشة.

٥- ولقد قويَ هذا الاحتمال لديَّ بمجيء هذا الحديث الأخير في مسند الإمام أحمد (وهو أكثر دقة وتحريًا من تاريخ الطبري وطبقات ابن سعد) مصرحًا فيه بالرفع لعبد الله بن عباس: أن النبي ﷺ قال لخديجة: «**إني أرى ضوءًا وأسمع صوتًا وإني أخشى أن يكون بي جنن**». قالت: لم يكن الله ليفعل ذلك بك يا ابن عبد الله، ثم أتت ورقة بن نوفل فذكرت ذلك له، فقال: إن يك صادقًا فإن هذا ناموس مثل ناموس موسى، فإن بعث وأنا حي فسأعزره وأنصره وأومن به[1].

فهذه هي الحالة الوحيدة التي وردت فيها عبارة: «**أخشى أن يكون بي جنن**». أو ما في معناها.

ولقد أحصيت قدر الوسع الصيغ التي جاءت بها هذه العبارة في الأحاديث المختلفة فوجدت الآتي: «**لقد خشيت على نفسي**»[2] و«**لقد أشفقت على نفسي بلاء**»[3] و«**والله لقد أشفقت على نفسي**»[4]؛ ولم ترد صيغة «**أخشى أن يكون بي جنن**» إلا مرة واحدة في الحديث الذي معنا. فيمكن أن يكون لفظ: (جَنَن) قد جاء

= ثقة. وقال غيره: ثقة لا بأس به. (الجرح والتعديل ٦/ ٣٨٩، رقم ٢١٦٧).

(١) مسند أحمد، ج١، ص ٣١٢، رقم (٢٨٤٦)، وطبعة دار الحديث القاهرة ١٤١٦، ١٩٩٥، ج٣، ص٢٦١، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٢) البخاري بشرح ابن حجر، ج٦، ص٣٧٤، رقم (٣٣٤٢)، والآحاد والمثاني، ج٥، ص٣٨٦، رقم (٣٠٠٢).

(٣) مسند أحمد، ج٦، ص٢٢٣، متن دون تحقيق، ط دار الفكر العربي.

(٤) مسند أبي داود الطيالسي، ص٢٠٦، رقم (١٤٦٧).

على سبيل التفسير من أحد الرواة؛ فَسَّر به الخوف أو البلاء الواردين في الروايات الأخرى. ورواية الحديث بالمعنى تجعل هذا أمرًا محتملًا.

وحتى إذا أخذناه حرفيًا على أنه من كلام رسول الله؛ فإن هذا لا يشهد لنولدكه أن رسول الله ظن الوحي والنبوة جنونًا؛ وذلك لأن الحديث الذي ورد فيه هذا التخوف يتناول مرحلة مرَّ بها النبي قبل وحي الرؤية المنامية وبعثته؛ وقبل إرساله ورؤيته الملك ونزول القرآن عليه.

٦- فالذي يُفهم من الأحاديث الصحيحة إذن أن النبي ﷺ قبل أن ينزل عليه جبريل في هيئته الحقيقية - إيذانًا ببدء رسالته - مرَّ بمرحلتين:

المرحلة الأولى: كان يرى فيها الضوء ويسمع الصوت ويُسَلِّم عليه فيها الحجر. وهذه المرحلة دل عليها حديث ابن عباس المذكور الذي يتحدث عن سماع الصوت ورؤية الضوء؛ أما تسليم الحجر فهو ثابت في حديث جابر بن سمرة أن النبي قال: «**إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث؛ إني لأعرفه الآن**»[١].

وهذه المرحلة التي يؤكد النبي نفسه أنها كانت قبل بعثته؛ كانت من قبيل الإعداد الروحي للنبي، تمهيدًا للنبوة التي جاءت في المرحلة التالية؛ ومن ثم الرسالة التي جاءت فيما بعد بنزول جبريل بصدر سورة اقرأ. وهذه التهيئة كانت لأجل أن يقل تأثير هول مفاجأة رؤية الملك إلى الحد الذي تطيقه نفس الرسول باعتباره بشرًا. يقول العلَّامة ابن حجر[٢] عن رؤيا النبي الصالحة: (وبدئ بذلك ليكون تمهيدًا وتوطئة لليقظة. ثم مهد له في اليقظة أيضًا رؤية الضوء وسماع الصوت وسلام الحجر).

وفي هذه المرحلة لا يمتنع أن يخشى النبي على نفسه؛ وذلك لأنه لم يكن لديه في هذه المرحلة اليقين الكامل الذي خلقه الله فيه بنبوته؛ إذ لم يكن قد بُعث بعد.

(١) مسلم بشرح النووي مجلد ٥ ج١٥ ص ٣٦ رقم (٢٢٧٧).

(٢) الفتح ج١ ص ٢٧وما بعدها رقم (٣).

ويمكن أن يكون هذا رد فعل طبيعي من شخص فوجئ بمقدمات ومظاهر غير مألوفة وغير متوقعة أو منتظرة ولم تكن تشغل أي حيز من تفكيره.

ولأنه لم يكن في هذه المرحلة يستطيع تفسير ما يتعرض له من مقدمات الوحي؛ إذ لم يكن له اطلاع سابق على حالات وحي الله لأنبيائه السابقين و(لم يكن في وعي النبي تعاليم دينية سابقة تساعده على فهم ما حدث واستيعابه)[1]؛ فليس بقادح أبدًا أن ينصرف تفكيره في تفسير ما يتعرض له في هذه المرحلة إلى شيء من بيئته التي لم يكن بها وحي سابق معاصر له.

المرحلة الثانية: مرحلة الرؤية الصادقة في النوم؛ وهي تستفاد من حديث عائشة: (أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح)؛ فقد قالت عن تلك الرؤيا التي كانت قبل نزول جبريل بالقرآن على النبي: إنها: (أول ما بدئ به من الوحي)؛ فهي إذن وحي، لكنه وحي النبوة وليس وحي الرسالة؛ لأن هذا الأخير تحقق بنزول القرآن على يد جبريل.

وجاء تحديد مدة الرؤيا الصادقة قي حديث أورده البيهقي في الدلائل. وفي هذه المرحلة لا يتصور أن يكون رسول الله يشعر بشيء من الشك في نبوته لما تقدم من التمهيد وموالاة عناية الله تعالى به.

وكذلك الأمر من باب أولى عندما نزل عليه جبريل في حراء بالرسالة فقد كان اليقين يملأ صدر رسول الله ﷺ بنبوته ورسالته؛ لأن الفترة التي سبقت نزول جبريل بما كان فيها من مقدمات، وعلى رأسها الرؤيا الصادقة التي كانت أول وحي لرسول الله... تلك الفترة عملت على ترسيخ اليقين لديه ﷺ بما لا يرد معه على الإطلاق ادعاء نولدكه أن النبي ظن الجنون بنفسه عند لقاء جبريل.

٧- نخلص إذن إلى أن النص الذي يشير إلى أن تخوف الرسول على نفسه أن يكون به جنن لم يرد في حديث عائشة الذي يتناول بدء نزول القرآن والرسالة؛ وإن صح

(١) سيد خميس: القصص الديني بين التراث والتاريخ ص١١٨.

ورودُ تلك العبارة بلفظها في حديث آخر فهي تتناول المرحلة التي مهدت للنبوة، وهي مرحلة سماع الصوت ورؤية الضوء وتسليم الحجر عليه ﷺ؛ وليس لها علاقة بلقاء جبريل الأول وبدء نزول القرآن والرسالة في غار حراء طبقا لحديث عائشة.

٨- لكن السؤال الذي يجب أن يُسأل هنا هو: هل دام هذا الشعور إن كان قد حصل في تلك المرحلة التي سبقت نزول الوحي بـ (اقرأ)؟

إن نولدكه نفسه يقول: إنه زال ولم يدم، وهذا صحيح؛ إذ لم يثبت أنه تحدث عن أي خوف لخديجة أو غيرها بعد ذلك. إلا أن نولدكه يجعل زواله أمرًا ذاتيًّا أراده النبي؛ يقول: "فإن محمدًا ظهر في البداية ولديه نفس هذا الاعتقاد.. ولقد نظر فيما بعد إلى هذه الحالات بعينها على أنها مؤثر خاص من الإله الواحد الحق".

إن كلامه هنا يُفهم منه أن زوال الخوف حصل لأن النبي نظر إلى ما يأتيه على أنه مؤثر من الله الحق؛ ونظرُ النبي هذا أمر ذاتي قد يكون موضوعيًّا وقد لا يكون. وهو بذلك غض الطرف عن الآيات التي أوحيت للنبي لتثبيت اليقين في نفسه ونفي أي أثر لاتهام السفهاء له بالجنون؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ و﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ و﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ و﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ و﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾[(١)].

ولهذا فإني أعبر عن عميق الصدمة من تجاهل نولدكه هذه الآيات، وهو بصدد ذكره نقطة البحث هذه رغم أنه يعلم أن الآيات المذكورة وثيقة الصلة بها:

إنه خطأ منهجي بيِّن؛ لأنه في حين اعتمد روايات ضعيفة لإثبات خوف النبي الجنن على نفسه عند رؤيته جبريل؛ فإنه تجاهل تمامًا تلك الآيات القرآنية التي تنفي سائر تلك التهم عن النبي وتطمئنه إلى اختيار الله له نبيًّا.

(١) ومواضع هذه الآيات: القلم: ٥١، التكوير: ٢٢، القلم: ٢، الطور: ٢٩، الذاريات: ٣٩، ٥٢.

كما أنه تضليل متعمد من باحث أريب لقارئ غربي غير مدقق عادة؛ إذ إنه أخفى عنه هذه الآيات رغم أنها فاصلة في الحكم، وهو أمر لا يليق بمثله أن يقع فيه.

٩- أما ما ادعاه من أن وحي النبي كانت العرب تعتبره جنونًا فنرد عليه بتساؤل: ولماذا لم تعتبره خديجة وورقة كذلك؟ لقد قالت له خديجة: (أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق). وقال له ورقة: (هذا الناموس الذي أنزل على موسى. يا ليتني فيها جذعًا أكون حيًّا حين يخرجك قومك!!.. وإن يدركني يومُك أنصرك نصرًا مؤزرًا).

وإذا كان نولدكه قد فسر وحي محمد ﷺ تفسيرًا مرضيًا (باثولوجيا)، وادعى أن العرب كانت كذلك تفسره هذا التفسير؛ فقد ظهر لنا كذبه وافتراؤه عمليًّا من إيمان جماعي بوحي محمد في العهدين المكي والمدني على النحو الذي بيناه.

* * *



المبحث الثالث
مناقشته في استدلاله بما كان يعتري النبي ﷺ لحظة الوحي

لقد مرت إشارة نولدكه لهذا الدليل بقوله: "فمحمد - كما يُروى - كانت تعتريه عند تلقي الوحي نوبة شديدة بحيث تخرج الرغوات *Schaum* من فمه، وينحني الرأس، ويمتقع الوجه، ويصرخ مثل الفصيل *Kamelfüllen*، ويتفصد جبينه عرقًا رغم برودة الجو[1] إلخ.

ولنا ملاحظتان هنا على هذا الاستدلال:

الملاحظة الأولى: بشأن مبالغة نولدكه في تضخيم الأعراض المصاحبة للوحي:

١- لقد بالغ نولدكه في عرض ما كان يعتري النبي عند الوحي؛ ففي حين أن تفصد الجبين عرقًا رغم برودة الجو قد ثبت في أحاديث صحيحة؛ فإن ما تحدث عنه نولدكه مما يسميه (نوبة شديدة)؛ وما ذكره من (خروج الرغوات من فمه) و(الصراخ) ليس سوى ادعاءات بلا دليل؛ فلم أقرأ في أي حديث صحيح نسبةَ شيء من ذلك للنبي؛ ولم يذكر نولدكه النص الذي استند إليه ليقرر هذا الحكم. ولقد ذهبت للمراجع الإسلامية التي ذكر أنه رجع إليها، ولم أجد فيها ما ادعاه.

٢- أما الأعراض التي ثبت أنها حصلت لرسول الله عند تلقي الوحي فتتحدث السيدة عائشة عنها فتقول: (ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم

---

(١) ويرجع إلى الموطأ ص٧٠، وابن هشام ٧٣٦، والواقدي ص٣٢٢، وابن سعد الطبعة الأولى ج١ ص١٣١، والبخاري باب كيف كان بدء الوحي، وكتاب التفسير: سورة المدثر، ومراجع أخرى.

عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقًا)[١]، وتقول واصفة إحدى لحظات نزول الوحي عليه ﷺ: (فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء[٢]، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان[٣] من العرق وهو في يوم شات من ثقل القول الذي ينزل عليه؛ فلما سري عنه سري عنه وهو يضحك)[٤].

وقد لا يكون الوحي منشئًا حالة العرق لدى النبي؛ فمن المحتمل أنه كان بطبعه كثير العرق؛ فمن مراسيل الزهري: (أن رسول الله قال لعثمان بن طلحة: «**ائتني بمفتاح الكعبة**». فأبطأ عليه، ورسول الله قائم ينتظره حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق، ويقول: «**ما يحسه**» فسعى إليه رجل)[٥].

كما يقول عمر بن الخطاب: (كان النبي ﷺ إذا أنزل عليه الوحي سُمع عند وجهه كدوي النحل)[٦]. ويقول عبادة بن الصامت: (كان النبي إذا نزل عليه الوحي كرب وتربد لذلك وجهه)[٧]، وعنه أيضًا: (كان رسول الله إذا نزل عليه الوحي نكَّس رأسه، ونكس أصحابه رؤوسهم، فلما أتلى عنه – ارتفع عنه – رفع رأسه)[٨].

---

(١) البخاري بشرح ابن حجر ج ١ ص ١٨ رقم (٢).

(٢) البرحاء: أصل التبريح المشقة والشدة، وبرح به إذا شق عليه، وبرحت بي الحمى أي: أصابني منها البُرحاء أي: شدتها؛ والمعنى هنا شدة الكرب من ثقل الوحي، راجع النهاية في غريب الأثر ج١ ص١١٣.

(٣) اللؤلؤ الصغار، وقيل: حب يتخذ من الفضة مثل اللؤلؤ: راجع النهاية في غريب الأثر ج١ ص٣٠١.

(٤) البخاري بشرح ابن حجر ج ٨ ص ٤٥٤ رقم (٤٧٥٠).

(٥) المعجم الكبير ج٩ ص٦١ رقم (٨٣٩٥).

(٦) سنن الترمذي ج٥ ص ٣٢٦ رقم (٣١٧٣) وتكملة الحديث: (فأنزل عليه يومًا فمكثنا ساعة، فسري عنه فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال: «**اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وارض عنا**». ثم قال ﷺ: «**أنزل علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة**» ثم قرأ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ حتى ختم عشر آيات).

(٧) مسلم رقم (٢٣٣٤). و ابن سعد: الطبقات ١/ ١٩٧ دار صادر بيروت ٨ أجزاء.

(٨) مسلم بشرح النووي مجلد ٥ ج١٥ ص٨٩ رقم (٢٣٣٥).

ويصف الرسول نفسُه الوحي (في حال نزوله في مثل صلصلة الجرس) بقوله: «**وهو أشده علي**». وقال عبد الله بن عمرو: سألت رسول الله ﷺ: هل تحس بالوحي؟ فقال رسول الله: «**أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تفيض**»[1]. وقال ابن عباس: (كان رسول الله يعالج من التنزيل شدة)[2].

٣- ولقد أوحي القرآن كله مسبوقًا بهذه الشدة على النبي ﷺ، كما في مرة الوحي الأولى التي رأى فيها النبي جبريل؛ وقد مر الحديث عنها، ثم في المرات التالية، حيث يسمع الرسول صلصلة الجرس ويكون الوحي شديدًا عليه، كما أخبر النبي بنفسه.

وكانت هذه الأعراض تعتريه أيضًا عند وحي غير القرآن أحيانًا؛ يروي أبو هريرة أنه عندما ظن الأنصار أن النبي سيستقر بمكة بعد فتحها نزل الوحي عليه آمرًا بالاستمرار معهم في المدينة[3]. وفي كتاب المغازي عند البخاري[4] (أن يعلى كان يقول: ليتني أرى رسول الله حين يُنزَل عليه. قال: فبينا النبي في الجِعرانة وعليه ثوب قد أظل به، معه فيه ناس من الصحابة، إذ جاءه أعرابي عليه جبة

(١) أحمد ٢ / ٢٢٢ رقم (٧٠٧١).

(٢) البخاري بشرح ابن حجر ج ١ ص٢٩ رقم (٤)، وابن سعد: الطبقات ١ / ١٩٧ دار صادر بيروت ٨ أجزاء.

(٣) يقول: (كان لا يخفى علينا إذا نزل الوحي ليس أحد منا ينظر لرسول الله، بل يطرق حتى ينقضي الوحي، فلما قضي الوحي قال رسول الله: «**يا معشر الأنصار، قلتم إن الرجل قد أدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته**». قالوا: قد قلنا ذلك يا رسول الله. فقال رسول الله: «**كلا، إني عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم، المحيا محياكم، والممات مماتكم**». فأقبلوا يبكون، ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا ضنًّا بالله وبرسوله. قال: «**وإن الله ورسوله ليصدقانكم ويعذرانكم..**». صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ج١١ ص٧٣، وقال عنه الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، وبلفظ مقارب في مسلم بشرح النووي مجلد ٤ ج١٢ ص١٣٣ رقم (١٧٨٠).

(٤) بشرح ابن حجر ج٨ ص٤٧ رقم (٤٣٢٩).

متضمخ بطيب فقال: يا رسول الله، كيف ترى في رجل أحرم بعمرة في جبة بعدما تضمخ بالطيب؟ فأشار عمر إلى يعلى بيده أن تعال! فجاء يعلى فأدخل رأسه، فإذا النبي مُحْمَرُّ الوجه يَغِطُّ كذلك ساعة ثم سري عنه فقال: «**أين الذي يسألني عن العمرة آنفًا**». فالتُمِس الرجل فأُتي به، فقال: «**أما الطيب الذي بك فاغسله ثلاث مرات، وأما الجبة فانزعها، ثم اصنع في عمرتك كما تصنع في حجك**».

الملاحظة الثانية: بطلان الاستدلال بالأعراض المذكورة على مرض نفسي للنبي:

١- إننا إن لم نأخذ حالة النبي ﷺ في الاعتبار فإن النظر إلى الأعراض المذكورة على أنها دليل على مرض نفسي... باطل لأنه يستلزم أن تكون هذه الأعراض علامةً مميِّزة بذاتها، أو بتعبير المناطقة دالة دلالة مطابقية على ذلك المرض النفسي ذاته، بحيث لا يتخلف وجود المرض إذا وجد العرض، وألّا يشاركه فيها غيره من الأمراض.

لكن الأمرين غير حاصلين في الحالة التي معنا؛ فليس كل من يعرق عرقًا شديدًا في اليوم البارد يكون مصابًا بالضرورة بمرض نفسي؛ إذ قد تكون ثمة أمراض عضوية لا تمس النفس، وقد تكون طبيعة شخصية لا علاقة لها بمرض أصلًا[(١)]. يقول مالك بن نبي[(٢)]: (إن الأعراض العضوية نفسها ليست خاصة بحالة التشنج التي تحدث شللًا ارتعاشيًّا (إن صح التعبير) عند الفرد المحروم مؤقتًا من قواه العقلية والجسمية).

وما دام هذا الدليل تطرق إليه الاحتمال فقد سقط به الاستدلال.

٢- أما إذا أسقطنا المسألة على حالة النبي محمد ﷺ فإنه:

أ- سبق أن قلنا: إن كثرة العرق قد تكون طبيعة شخصية لا علاقة لها بمرض

(١) يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي (دفاع عن محمد ﷺ ضد المنتقصين من قدره ص٦٤) في هذا الصدد: (نذكر حالة السادات في الكنيست في القدس في نوفمبر ١٩٧٧م حيث كان جبينه يتصبب عرقًا طوال الوقت، ولكنا لم نجد فردًا واحدًا يقول: إن هذا العرق في هذا المكان البارد كان أحد أعراض الهيستريا!).

(٢) الظاهرة القرآنية ١٥٣ - ١٥٤.

أصلًا. وقد كان ذلك شأن النبي حتى في غير حالة نزول الوحي عليه؛ فقد حدث أن قام النبي ينتظر عثمان بن طلحة يوم الفتح ليأتيه بمفتاح الكعبة فأبطأ عليه، فتحدر منه مثل الجمان من العرق وأرسل ليتعجله[١].

كما قالت أم سُلَيْم: إن النبي كان كثير العرق[٢].

ب- لو كانت الأعراض المرتبطة بظاهرة الوحي أعراضًا لمرض نفسي عند النبي لما تعدى تأثيرها لآخرين؛ لكن هذا التأثير تعدى ليصل إلى من يجاورون النبي بل وناقة النبي أيضًا؛ ولم يوجد بعدُ ولن يوجد أبدًا ذلك المرض النفسي الذي يمرض به شخص فتظهر الأعراض على آخرين!!!.

أما تأثيرها على من يجاورون النبي:

فقد أخبر عمر بن الخطاب بصفته شاهد عيان لظاهرة الوحي أن من يجلس بجوار النبي كان يسمع عنده أو عند وجهه أثناء الوحي: (دَوِيٌّ كدَوِيِّ النحل)[٣].

كما قال زيد بن ثابت، وله نفس الصفة المتقدمة لعمر: (إن رسول الله ﷺ أملى عليه: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ فجاءه ابن أم مكتوم وهو يملها عليَّ؛ قال: يا رسول الله، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت؛ وكان أعمى؛ فأنزل الله على رسوله، وفخذه على فخذي فثقلت عليَّ حتى خفت أن ترض[٤] فخذي ثم سُري عنه؛ فأنزل الله:﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾)[٥].

(١) الطبراني: المعجم الكبير ج٩ ص٦١ رقم (٨٣٩٥).

(٢) عن أنس عن أم سُلَيْم (أن النبي كان يأتيها فيقيل عندها، فتبسط له نطعًا فيقيل عليه، وكان كثير العرق).. الحديث في مسلم بشرح النووي مجلد٥ ج١٥ ص٨٧ رقم (٢٣٣٢).

(٣) البخاري بشرح ابن حجر ج١ ص١٩ رقم (٢)، وسنن الترمذي ج٥ ص ٣٢٦ رقم (٣١٧٣).

(٤) تشل لا تتحرك، وفي المعجم الوسيط (١/ ٣٦٣) الأَرَضُّ: القاعد لا يبرح، وأَرَضَّ: ثقل وأبطأ.

(٥) البخاري بشرح ابن حجر ج٨ ص٢٥٩ رقم (٤٥٩٢)، والجامع الصحيح لسنن الترمذي ج٥ ص٢٤٢ رقم (٣٠٣٣)، وغيرهما من كتب السنة.

وأما تأثيرها على ناقة النبي:

فقد روى هشام بن عروة عن عائشة قالت: (كان النبي إذا أوحي إليه وهو على ناقته وضعت جرانها[1] فلم تستطع أن تتحرك)، وتلت قول الله عز وجل: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[2].

وقال أبو أروى الدوسي: (رأيت الوحي ينزل على النبي وإنه على راحلته، فترغو وتفتل يديها حتى أظن أن ذراعها ينقصم، فربما بركت وربما قامت موتدة يديها حتى يسرى عنه من ثقل الوحي، وإنه ليتحدر منه مثل الجمان)[3].

وأورد البيهقي في الدلائل: (وإن كان ليوحَى إليه وهو على ناقته فيضرب حزامها من ثقل ما يوحى إليه)[4].

فهل تعدت مظاهر المرض النفسي من النبي إلى الحاضرين معه؛ وإلى ناقته؟

إن قائمة الأمراض النفسية لم تكن تضم في زمن نولدكه وحتى الآن مرضًا من هذا القبيل تتعدى مظاهره على النحو الذي ذُكر.

والحق الذي لا ينبغي أن يُمارَى فيه أن هذا الدوي الذي يسمعه الآخرون؛ والثقل الشديد على فخذ كاتب الوحي التي تصادف وجودها تحت فخذ النبي؛ وكذلك على ناقته ﷺ التي صادف أنه يركبها لحظة الوحي... كل ذلك لا يمكن تفسيره إلا بافتراض كون ظاهرة الوحي ظاهرة مفارقة لذات النبي، ولا يمكن أبدًا أن يكون لها علاقة بمرض نفسي.

---

(١) جران الناقة: باطن عنقها، النهاية في غريب الأثر ج١ ص٢٦٣.
(٢) المستدرك ٢/ ٥٤٩ رقم (٣٨٦٥)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وقال محقق الكتاب مصطفى عبد القادر عطا: قال الذهبي في التلخيص: صحيح. وورد في مسند إسحاق بن راهويه ٢/ ٢٥٤ رقم (٧٥٦).
(٣) ابن سعد: الطبقات ق١ ج١ ص١٣١.
(٤) ابن حجر: الفتح ج ١ ص٢١.

ج- لو كانت الأعراض المرتبطة بظاهرة الوحي أعراضًا لمرض نفسي عند النبي لكانت مستمرة؛ ولما كانت مرتبطة بلحظة الوحي؛ لكن أعراض لحظة الوحي غير مستمرة، ومن يراجع أيًّا من كتب السنة المطهرة يدرك هذا تمامًا؛ يقول مالك بن نبي[١]:

(إن الأعراض الجسمية التي رويت عن النبي لا تظهر إلا اللحظة التي تعتريه فيها الظاهرة القرآنية، وفيها وحدها أي في اللحظة الخاطفة للوحي)؛ وهي بهذه الصفة تختلف عن أعراض المرض النفسي.

د- وارتباط الأعراض بالوحي لدى النبي هو ميزة أخرى لتلك الأعراض، يجعلها مختلفة عن أعراض المرض النفسي؛ حيث إنه لم يثبت على الإطلاق أن أعراض الوحي أتت النبي دون أن يعقبها وحي: قرآن أو سنة.

هـ- لو كانت أعراض وحي النبي أعراضًا لمرض نفسي أو عصبي لكانت أشمل مما ذُكر؛ ولما توقفت عنده؛ فإن المريض بالصرع مثلًا تتوقف ذاكرته أثناء المرض؛ ولقد لاحظ هذا المستشرق «فرانتس بول»[٢] فقال:

(لأن محمدًا كان يحتفظ بوعيه طوال هذه الأعراض؛ فإن تفسير حالته بالصرع لا يكون دقيقًا).

ويقول المستشرق البريطاني «مونتجمري وات»[٣]: (لقد أكد أعداء الإسلام غالبًا أن محمدًا كان مصابًا بالصرع، وأن تجاربه الدينية لهذا لا قيمة لها. لكن الأعراض الموصوفة [للنبي] لا تشبه أعراض الصرع؛ لأن هذا النقص [الصرع] يؤدي إلى تخاذل جسدي وعقلي، بينما ظل محمد حتى آخر حياته مالكًا لقواه العقلية).

(١) الظاهرة القرآنية ص١٥٤.

(٢) حياة محمد ص ١٣٨ عن د/ عبد الرحمن بدوي: دفاع عن محمد ﷺ ضد المنتقصين من قدره ص٦١.

(٣) محمد في مكة ص١٠١.

كما يَعقد مالك بن نبي المقارنة النفسية بين حالة النبي ﷺ عند الوحي وحالة الشخص المصاب بالصرع أو التشنج من زاوية الأعراض المصاحبة لكلٍّ؛ يقول[1]:

(من الضروري أن نأخذ في اعتبارنا قبل كل شيء الواقع النفسي المصاحب الذي لا يمكن أن يفسره أي تعليل مرضي..... فإذا نظرنا إلى حالة النبي؛ وجدنا أن الوجه وحده هو الذي يحتقن، بينما يتمتع الرجل بحالة عادية وبحرية عقلية ملحوظة من الوجهة النفسية، ليستخدم ذاكرته استخدامًا كاملًا خلال الأزمة[2] نفسها؛ على حين ينمحي وعي المتشنج وذاكرته خلال الأزمة؛ فالحالة بناء على هذه الملاحظات ليست حالة مرض كالتشنج).

٣- وليس محمد ﷺ من بين الرسل بدعًا فيما كان يعتريه عند الوحي؛ فبذكر طرف من تاريخ الأنبياء، كما جاء في الكتاب المقدس، نجد أعراضًا قد صاحبت عملية الوحي إليهم.

فقد جاء في سفر الخروج[3]: (وكان لما نزل موسى من جبل سيناء، ولوحا الشهادة في يد موسى عند نزوله من الجبل أن موسى لم يعلم أن جلد وجهه صار يلمع في كلامه معه. فنظر هارون وجميع بني إسرائيل موسى وإذا جلد وجهه يلمع فخافوا أن يقتربوا إليه... ولما فرغ موسى من الكلام معهم جعل على وجهه برقعًا).

وجاء في سفر أشعياء[4] أن أحد الملائكة طار إليه (وبيده جمرة مس بها فمه).

وجاء في سفر حزقيال[5] أن هذا الأخير قال واصفًا مرة أوحي إليه فيها: (ثم حملني

(١) الظاهرة القرآنية ص١٥٣ - ١٥٤.
(٢) أُفَضِّلُ تعبير: (الحالة) هنا وليس: (الأزمة).
(٣) ٣٤: ٢٩ - ٣٥.
(٤) ٦: ٦.
(٥) ٣: ١٢ - ١٤.

روح، فسمعت خلفي صوت رعد.. وصوت أجنحة الحيوانات المتلاصقة الواحد بأخيه.. ويد الرب كانت شديدة علي).

من هنا نقول: إن أعراض الوحي لم تكن خاصة بمحمد ﷺ، ولا يمكن أن تكون علامات على أمراض لديه؛ وإلا لأصبح كل الأنبياء مرضى؛ فتبطل بذلك النبوات. ونولدكه لم يقل بأن تلك الأعراض هي مرضية أيضًا بشأن الأنبياء الآخرين؛ فلا ينتمي للمنهج العلمي أن تكون أعراض وحي محمد دون غيرها دليلًا على مرض لديه.

٤- وبعد إبطال استدلال نولدكه بالأعراض المصاحبة للوحي على كونه صرعًا؛ فليس أمامه من سبيل سوى أن يقبل التفسير الإسلامي لهذه الأعراض:

إن تفسيرها يقوم على كونها أعراضًا مؤقتة، تطرأ على النبي لحظة الوحي، ولا تتعداها لغيرها من أوقات الرسول الأخرى، ولا علاقة لها بمرض عضوي أو نفسي يُزعم له، ولا علاقة لها كذلك بحماس أو تفكير عميق.

كما أنها لا دخل للنبي فيها؛ إذ إنه لا يجلبها ولا يصرفها؛ فهي مرتبطة بالوحي وجودًا وعدمًا؛ ابتداء وانتهاء؛ فإذا جاء الوحي جاءت وإذا انتهى سُرِّي عنه ﷺ.

وما دامت هذه الأعراض مرتبطة بالوحي هذا الارتباط الوثيق فلا بد أن يكون لها شيء من صفاته؛ ومنها أننا لا نستطيع أن نعرف بالتفصيل: كيف يمكن للبشر أن يتصل بالملك؟ وما التغييرات التي تطرأ على طبيعة وجبلة كل منهما ليمكن التلاقي؟ وما الفرق - من حيث كيفية تلقي النبي - بين وحي الملك وهو في هيئته الحقيقية وبين وحيه وهو في غيرها.. إلخ تلك التساؤلات التي تجعل من ظاهرة الوحي في كثير من جوانبها غيبًا إلا ما شاء الوحي ذاته أن يكشف لنا منها.

ولقد أدرك بعض علمائنا هذا الجانب عند تفسير تلك الأعراض؛ فهذا ابن حجر يصفها بقوله: (هي حالة يؤخذ فيها عن حال الدنيا من غير موت، فهو مقام برزخي، يحصل له عند تلقي الوحي، ولما كان البرزخ العام ينكشف فيه للميت كثير من

الأحوال خص الله نبيه ببرزخ في الحياة، يلقي إليه فيه وحيه المشتمل على كثير من الأسرار)[1].

إننا ليس لدينا نص قرآني قاطع الدلالة في تفسير ما يعتري النبي؛ ومن ثم فإن التفسيرات الإسلامية اجتهادات تنطلق من أنها أعراض تعتري الرسول (البشر) عند اتصاله بالملك نظرًا للاختلاف البَيِّن بين الجِبلَّتَيْن: البشرية والملكية. يقول ابن حجر[2] عن قول السيدة عائشة في الحديث الذي مر: (.. في اليوم الشديد البرد): إنه (دلالة على كثرة معاناة التعب والكرب عند نزول الوحي لما فيه من مخالفة العادة، وهو كثرة العرق في شدة البرد، فإنه يُشعر بوجود أمر طارئ زائد على الطباع البشرية).

وتُدَعِّم هذا التفسير بعضُ آيات هي من أوائل ما نزل على النبي من القرآن؛ حيث فيها أمر للنبي أن يهيئ نفسه ليتعايش مع هذا الواقع الجديد الطارئ عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾[3].

إن الثقل الذي أشارت إليه الآيات حدثتنا عنه السنة حين ذكرت ما كان يعتريه ﷺ أثناء الوحي؛ فلا بد أن ثمة ارتباطًا بين ثقل الوحي وطروء أعراضه وعلاماته، وبخاصة أن تلك الأعراض كانت مصاحبة له ليست سابقة عليه ولا لاحقة له.

ولقد وقفت على تفسير صريح لهذه الأعراض قالته السيدة عائشة حين وصفت إحدى لحظات نزول الوحي عليه ﷺ. تقول: (فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق، وهو في يوم شات من ثقل القول الذي ينزل عليه؛ فلما سري عنه سري عنه وهو يضحك)[4].

(١) فتح الباري ج١٢ ص٣٥٨.
(٢) ابن حجر: الفتح ج١ ص ٢١
(٣) المزمل: ١ - ٦.
(٤) البخاري بشرح ابن حجر ج ٨ ص ٤٥٤ رقم (٤٧٥٠).

ظهر إذن أن هذه الأعراض مردها إلى الثقل الذي يعانيه رسول الله من جراء نزول الوحي عليه، وذلك لثقل الوحي أولًا ولاختلاف الطبيعتين الملكية والبشرية ثانيًا.

ولقد شاء الله أن يستمر ثقل الوحي على النبي ﷺ دون أن يخففه عنه، ليرتبط في ذهنه الوحي بهذا الثقل؛ فلا يتسلل إليه شك (في كل مرةٍ وحيٍ) شعورُ أن يكون هو مصدرَ ما ينزل عليه.

كما يحدثنا ابن حجر عن سببين هما أن (يستجمع قلبه فيكون أوعى لما يسمع، ولما يترتب عليها من المشقة وزيادة الزلفى)[1].

والثقل - بوصفه مظهرًا من مظاهر الوحي - ليس خاصًّا بنبينا محمد ﷺ وحده، فقد تعرض له الأنبياء عند الوحي؛ فقد روى الحاكم [2] بسنده عن وهب، أن يونس بن متى لما حملت عليه أثقال النبوة ولها أثقال لا يحملها إلا قليل فتفسخ تحتها تفسخ الرُّبَع[3] تحت الحِمْلِ[4].

***

(١) ابن حجر ج١ ص ٢٢، وما بعدها.

(٢) المستدرك ٢/ ٦٣٩ رقم (٤١٢٨)، قال محقق الكتاب مصطفى عبد القادر عطا: سكت عنه الذهبي في التلخيص.

(٣) الرُّبَعُ: الفصيل ينتج في الربيع وهو أول النتاج، المعجم الوسيط ج١ ص ٣٣٧.

(٤) الحمل ما يحمل على الظهر ونحوه، المعجم الوسيط ج١ ص ٢٠٦.



المبحث الرابع
مناقشته فيما ادعاه من أن المسلمين قالوا بقلة الكم القرآني الموحى به كل مرة

يدعي نولدكه أن المسلمين قالوا: إن الكم الموحى به للنبي كل مرة كان قصيرًا. ويفسر هذا بأن الحالة الصرعية لا يتصور لها أن تدوم طويلًا، ولذا يأتي الكم القرآني الموحى به قصيرًا متناسبًا مع قصرها؛ يقول[1]:

إن "الرأي الخاطئ للمسلمين بشأن القِصر الأصلي للنصوص الموحى بها يمكن أن يكون قد نشأ لعدة أسباب [نختار منها ما يتعلق بالعقيدة وهو قوله]: ".. وأخيرًا مما يزيد الإيمان بهذا الرأي: القولُ بأن محمدًا كان قد تلقى كل آيات القرآن أثناء الحالات الصرعية *epileptischen Zufälle*، حيث لا يُتصَور أن تكون هذه الحالات طويلة المدة"[2]

ويرى أن ليس كل القرآن أوحي به مصحوبًا بمظاهر الشدة التي يسميها افتراءً وكذبًا: تهيجًا؛ يقول[3]:

"إن الأخبار عن هياج الروح *Seelenbewegun* صحيحة في مجملها، حيث تُثبَت على أحسن حال في نصوص قرآنية خيالية بدائية *phantastischen wilden Qorànstücke*، قدمها محمد في سِنِي نبوته الأولى.... لكن والحق يقال، فإن القارئ السطحي يرى بسهولة أنه ليس من الممكن أن يكون القرآن كله قد تكون في أقصى درجات حالة الجذب *höchsten Grade der Ekstäse*. وتتدرج الروح في درجات شتى، بدءًا من

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق ١ ص ٣٠.

(٢) [ويرجع في هذا إلى *Sprenger* في الترجمة الإنجليزية لكتابه حياة محمد-١٥٢ هامش٤].

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص ٢٦.

هذه المذكورة [أقصى حالات الجذب]، وانتهاء بأبسط حالات إنعام الفكر المجهدة *einfachenangestrengten Nachsinnen* ولم يكن محمد يحسب على الإطلاق أنه يستطيع استيعاب كل أجزاء القرآن في حالة التهيج الشديدة، بل كلمات وأفكار بعينها فقط".

هو يدعي - بتأثير واضح من شبرنجر كما هو واضح من هامش بعض فقراته - أن المسلمين قالوا بالقصر الأصلي للنصوص الموحى بها (الكم الموحى كل مرة ينزل فيها جبريل). ويُخَطِّئُ هذا الرأي. ويخترع سببًا وهميًّا جعلهم يقولون به؛ فيُبَيِّنُ أن مما جعلهم يذهبون إليه هو القولُ[1] بأن محمدًا كان قد تلقى كل آيات القرآن أثناء الحالات الصرعية؛ ولأن هذه الحالات لا يُتصَور أن تكون طويلة المدة؛ لذلك لا تزيد الآيات الموحى بها كل مرة ينزل فيها جبريل عن خمسة؛ حتى لا تطول الحالة الصرعية. ثم يدفع هذا السبب الوهمي - الذي زعم أنه كان وراء قول المسلمين بقلة كمِّ ما يوحى - برأيه أن ليس كل القرآن أوحي به في حالات التهيج الشديدة المزعومة، بل فقط كلمات وأفكار بعينها. **وأقول هنا:**

١- أما دعوى أن المسلمين قالوا بقِلّة الكم الموحى به كل مرة ينزل فيها جبريل؛ فهي دعوى خاطئة نشأت - سواء لدى نولدكه أو شبرنجر - عن قراءة متعجلة غير ناقدة لرواية ضعيفة، وتجاهلٍ تام للروايات الصحيحة الكثيرة ولآراء العلماء المسلمين بهذا الشأن:

أ- فالرواية الضعيفة التي أعنيها هنا هي قول علي بن أبي طالب: (أُنزل القرآن خمسًا خمسًا إلا سورة الأنعام فإنها نزلت جملة)؛ حيث قال السيوطي عن هذه الرواية[2]: (أخرجها البيهقي في **الشُّعَب** بسندٍ فيه من لا يُعرف). لكن نولدكه الباحث الناقد في تاريخ الإسلام والقرآن اعتمد على هذه الرواية

(١) مَن الذي قال؟ هل المسلمون، أم المستشرقون؟ لم يبين نولدكه، وإن كان مفهوم الكلام يقتضي أن المسلمين هم الذين قالوا؛ لأنه جعل هذا القول مؤديًا بهم للإيمان بقلة الكم الموحى.

(٢) الإتقان: ٥٩.

الضعيفة، ولم يكلف نفسه عناء التحقق منها، أو ذكر ما قاله علماء المسلمين بشأنها. كما فعل ما هو أكثر؛ إذ نسب القول بذلك إلى المسلمين... هكذا كل المسلمين!! ثم تطوع ليبين سبب قول المسلمين بأن القرآن نزل خمسًا خمسًا. فهل هكذا هي أصول المنهج العلمي؟

ب- والسيوطي الذي ذكر الرواية المذكورة، وبين عوار سندها تناول رواية أخرى وضح أنها لو صحت لما كان لها علاقة بحالة النبي عند نزول الوحي عليه، بل علاقتها بتيسير الحفظ فقط، حيث يقسم جبريل للنبي الكم الكبير الموحى خمسًا خمسًا حتى يسهل على النبي حفظه، ولا تعني ألا يزيد ما ينزل كل مرة عن خمس آيات؛ قال[1]: (أما ما أخرجه البيهقي في **الشعب** من طريق أبي خلدة عن عمر قال: تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات؛ فإن جبريل كان ينزل بالقرآن على النبي ﷺ خمسًا خمسًا.. فالجواب أن معناه - إن صح - إلقاؤه إلى النبي هذا القدر حتى يحفظه ثم يلقى إليه الباقي؛ لا إنزاله بهذا القدر خاصة، ويوضح ذلك ما أخرجه البيهقي أيضًا عن خالد بن دينار قال: قال لنا أبو العالية: تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات، فإن النبي ﷺ كان يأخذه من جبريل خمسًا خمسًا).

ج- أما تجاهله للروايات الصحيحة الكثيرة وآراء العلماء المسلمين بهذا الشأن؛ فقد قال السيوطي[2]:

(الذي استقرئ من الأحاديث الصحيحة وغيرها أن القرآن كان ينزل بحسب الحاجات خمس آيات وعشرًا وأكثر وأقل؛ وقد صح[3] نزول العشر آيات في قصة الإفك جملة، وصح نزول عشر آيات من أول المؤمنين جملة[4]،

---

(١) الإتقان: ٥٩.

(٢) الإتقان: ٥٩.

(٣) تأكدت من مواضع الروايات التي أشار إليها السيوطي كما هو موضح بهوامشها.

(٤) الآيات من ١ - ١١، والحديث في مسند الإمام أحمد ج١ ص٣٤ رقم (٢٢٣). والمستدرك ج١ ص٧١٧ رقم (١٩٦١)، والترمذي ج٥ ص٣٢٦ رقم (٣١٧٣).

وصح نزول ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾[1] وحدها[2] وهي بعض آية، وكذا قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[3]؛ وذلك بعض آية) وحده[4]. كما بين السيوطي كذلك أن العلماء لم يقيدوا الكم الموحى بعدد من الآيات صغر أو كبر؛ فقال[5]:

قال النكزاوي في كتاب الوقف: (كان القرآن ينزل مفرَّقًا: الآية والآيتين والثلاث والأربع وأكثر من ذلك).

وقال مالك بن نبي[6]: (الوحدة القرآنية ليست ثابتة؛ فهي لا تماثل الوحدة التي تزيد في مجموعة الأعداد حين يضاف واحد إلى ثلاثة أو أربعة أو خمسة؛ ليؤدي إلى الوحدة العددية التالية، فإن للوحي مقياسًا آخر هو كميته أو سعته تلك السعة التي تتراوح بين حد أدنى هو الآية، وحد أقصى هو السورة).

وعن عثمان قال: كان رسول الله ﷺ كثيرًا ما ينزل عليه السورة ذات العدد، فإذا نزل عليه الشيء، يعني منها: دعا بعض من كان يكتب فيقول: «ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا»[7].

د- ونضيف إلى ما ذكره السيوطي من مواضع قرآنية تؤيد القول بنزول أكثر من خمس آيات في مرات وحي عديدة، ما ثبت من نزول عشر آيات من سورة النور في حادثة الإفك جملة[8]، ونزول تسع آيات من سورة النساء

(١) النساء: من الآية ٩٥.
(٢) البخاري بشرح ابن حجر ج٨ ص٢٥٩ رقم (٤٥٩٢).
(٣) التوبة: من الآية ٢٨.
(٤) البيهقي: السنن الكبرى ج٩ ص١٨٥ رقم (١٨٤١٥)، وقال: رواه البخاري، وفتح الباري ج٨ ص٣١٧.
(٥) الإتقان: ٥٩.
(٦) الظاهرة القرآنية ١٨٢.
(٧) ابن حجر: الفتح ج ٩ ص ٤٣ رقم (٤٧٠٧).
(٨) البخاري بشرح ابن حجر ج٨ ص ٣٦٣ رقم (٤٦٩٠)، ص٤٥٤ رقم (٤٧٥٠).

من قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ الآية. إلى: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1]، ونزول سورة الفتح كلها[2].

٢- وما ادعاه من سبب وهمي وراء ما نسبه للمسلمين هنا من رأي؛ فإنه على الرغم من أن نولدكه لم يكن واضحًا في عبارته التي يقول فيها: (وأخيرًا، مما يزيد الإيمان بهذا الرأي: القولُ بأن محمدًا كان قد تلقى كل آيات القرآن أثناء الحالات الصرعية) حيث لم يبين من صاحب هذا القول: هل هم المسلمون، أم المستشرقون؟ إلا أن مفهوم الكلام يقتضي أن المسلمين هم الذين قالوا ذلك. لأنه جعل هذا القول مؤديًا بهم للإيمان بقلة الكم الموحى الذي نسب القول به إليهم.

فهو يدعي إذن أن المسلمين يقولون إن النبي كان قد تلقى كل آيات القرآن أثناء الحالات الصرعية؛ ولأن هذه الحالات لا يُتصَور أن تكون طويلة المدة؛ لذا لا تزيد الآيات الموحى بها كل مرة ينزل فيها جبريل عن خمسة؛ حتى لا تطول الحالة الصرعية... وهذا الادعاء باطل جملة وتفصيلًا؛ وذلك للآتي:

أ- إنه سبب وهمي اخترعه نولدكه، لم يقل به أحد من المسلمين لا على النحو الذي ذكره نولدكه حين سماها: حالات صرع، ولا على نحو آخر. فلا توجد رواية، أو حتى قول لعالم مسلم فيه (أن الكم الموحى به للنبي كان قصيرًا؛ لأن الأعراض المصاحبة للوحي كانت شديدة على نفس النبي فلم يُرِد الله إعناته وإرهاقه).

(١) النساء: من الآية ١٠٥ إلى الآية ١١٤ منها، راجع سنن الترمذي ج٥ ص٢٤٤ رقم (٣٠٣٦)، وقال: حسن غريب، وقال الألباني: حسن. ويروي الطبراني أن الآيات التي نزلت في الواقعة المذكورة ثمانية إلى الآية ١١٣: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ المعجم الكبير ج١٩ ص٩ رقم (١٥)، وروى الحاكم أنهن إحدى عشرة آية إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ آية ١١٦. وصححه الحاكم وسكت عنه الذهبي في التلخيص. لكن نلاحظ هنا أن الجميع متفقون أن ما نزل في هذه المناسبة لم يقل عن ثمانية.

(٢) البخاري بشرح ابن حجر ج٧ ص٤٥٢ رقم (٤١٧٧)، ج٨ ص ٥٨٢ رقم (٤٥٣). ومسند الإمام أحمد.

أقول.. لا توجد رواية أو قول من هذا القبيل؛ لأن المسلمين يعلمون أن الله قادر على أن يوحي لرسوله بغير تلك الشدة المصاحبة، لكنه أرادها لحكمة بينتها من قبل؛ وأراد معها كذلك أن يتحملها رسول الله بإقدار الله له، مهما بلغت شدتها.

فلماذا عمد نولدكه إلى هذا التلفيق؟

في اعتقادي أنه فعل ذلك ليعطي للقارئ الأوربي انطباعًا أن المسلمين كذلك يقرون بهذه الحالات الصرعية، بدليل أنهم يرون أنها كانت سببًا وراء قولهم قصر الكم الموحى كل مرة.

ب- إن القول الضعيف لعليّ بن أبي طالب؛ الذي نعتقد أنه كان معتمَد نولدكه في دعواه؛ قد استثنى سورة الأنعام التي تزيد آياتها عن الـ ١٦٥ آية؛ ففيه أنها نزلت مرة واحدة. وهذا الاستثناء يطرح تساؤلين؛ أولهما منهجي، والثاني موضوعي.

أما المنهجي: فإن قول عليّ الذي ورد فيه نزول القرآن خمسًا خمسًا - رغم ضعفه - استثنى سورة الأنعام، وجاء فيه عنها: أنها نزلت جملة؛ فلماذا ارتضى نولدكه بعض القول، ولم يشر إلى بعضه؟ أليس في إقرار القول بنزول سورة الأنعام جملةً إبطالًا لدعواه؟ فهل هذه الانتقائية أحد قواعد منهج علمي جديد يبشر به نولدكه؟

وأما الموضوعي: فإنه لو كان المسلمون يرون - حسب زعم نولدكه - أن سبب قصر الكم الموحى هو ارتباطه بحالات صرع للنبي؛ فلماذا رأوا أن معظم سورة الأنعام نزل مرة واحدة؟ ولماذا اعتمدوا روايات أخرى عديدة فيها أن الكم الموحى أكبر من خمس آيات كما سبق أن بينا؟

٣- ثم يأتي نولدكه إلى الأعراض المصاحبة لنزول الوحي (التي جرى تفصيلها من قبل)؛ فيدعي أنها لم تصاحب نزول جميع القرآن؛ فيزعم أن ليس كل القرآن أوحي به مصحوبًا بمظاهر الشدة التي يسميها افتراءً وكذبًا: تهيجًا؛ يقول:

"إن الأخبار عن هياج الروح *Seelenbewegun* صحيحة في مجملها، حيث تُثبَت على أحسن حال في نصوص قرآنية خيالية بدائية *phantastischen wilden Qorànstücke*، قدمها محمد في سِنِي نبوته الأولى.... لكن والحق يقال؛ فإن القارئ السطحي يرى بسهولة أنه ليس من الممكن أن يكون القرآن كله قد تكون في أقصى درجات حالة الجذب *(höchsten Grade der Ekstäse)* وتتدرج الروح في درجات شتى، بدءًا من هذه المذكورة [أقصى حالات الجذب]، وانتهاء بأبسط حالات إنعام الفكر المجهدة *(einfachenangestrengten Nachsinnen)*. ولم يكن محمد يحسب على الإطلاق أنه يستطيع استيعاب كل أجزاء القرآن في حالة التهيج (!!) الشديدة، بل فقط كلمات وأفكار بعينها".

وأقول:

إنه هنا يسلم بصحة الروايات بشأن (الأعراض المصاحبة لنزول الوحي على النبي ﷺ) ويسميها: (هياج الروح). ويجعل ما يسميه (النصوص الخيالية البدائية في سنوات نبوة النبي الأولى) دليلًا على دعواه: الهياج الروحي الشديد للنبي في ذلك الوقت، ودليلًا كذلك على تعرضه ﷺ لأقصى حالات الجذب. ويضيف: إن من يقرأ القرآن يجد أنه ليس من الممكن أن يكون كله قد تكون في أقصى درجات حالة الجذب (أي مع مُصَاحبة أعراض الوحي). ويستدل بأن الروح تتدرج من هذه الحالة إلى أبسط حالات إنعام الفكر المجهدة؛ وبأن النبي نفسه لم يكن يظن أنه يستطيع استيعاب كل أجزاء القرآن في حالة التهيج الشديدة، بل كلمات وأفكار بعينها فقط.

أما تسليمه بصحة الروايات عن (الأعراض المصاحبة لنزول الوحي على النبي ﷺ) فهو أمر مقبول؛ لكن غير المقبول منه أنه يسميها كذبًا وافتراء؛ تهيجًا أو حالات صرعية.

ولقد سبق أن رددنا هذا الافتراء الظالم لنولدكه وأثبتنا بطلانه، وفسرنا تلك الأعراض بأنها ليست سوى أعراضٍ تصاحب حالة الوحي، وتعتري الرسول

(البشر) عند اتصاله بالملك، نظرًا للاختلاف البَيِّن بين الجِبِلَّتَيْن: البشرية والملكية. كما انتهينا إلى أنها مؤقتة، تطرأ على النبي لحظة الوحي، ولا تتعداها لغيرها من أوقات الرسول الأخرى، ولا علاقة لها بمرض عضوي أو نفسي يُزعم له ﷺ. ولا علاقة لها كذلك بحماس أو تفكير عميق. كما أنها لا دخل للنبي فيها؛ إذ إنه لا يجلبها ولا يصرفها؛ فهي مرتبطة بالوحي (وبخاصة: القرآن) وجودًا وعدمًا؛ ابتداء وانتهاء.

إذا انتهينا إلى تقرير هذا فلا تعنينا في شيء تسميات نولدكه لهذه الأعراض، سواء سماها حالات تهيج، أو حالات صرعية.. إلخ؛ فإطلاق نولدكه تلك الأوصاف الشائهة على أعراض الوحي المصاحبة لا يجعلنا ننفيها عن النبي، أو نُسَرُّ لنفي نولدكه لها أو تقليله فترات حصولها؛ فالهدف من وراء ذلك جعل وحي النبي أمرًا ذاتيًّا[1].

وأما استدلاله على أعراض الوحي بوجود ما سماه (النصوص القرآنية الخيالية البدائية في سنوات نبوة النبي الأولى) فهو استدلال مغرض، مرجعه إلى النظر للقرآن على أنه انعكاس لحالة النبي النفسية وواقعِه المجتمعي. وهي الدعوى التي عكف عليها عدد من المستشرقين، وتولى كبرها جولد تسيهر وغيره، وسأعالجها إن شاء الله في دراسة لاحقة.

لكن نولدكه وقع هنا في خطأين منهجيين:

أولهما: أنه لم يقدم نموذجًا لتلك النصوص.

وثانيهما: أنه وقع باستدلاله هذا في مشكل منهجي يصعب تجاوزه؛ هو أن الروايات عن أعراض الوحي الطارئة على النبي؛ التي أقر نولدكه بصحتها؛ إنما وردت بشأن نصوص مدنية؛ ولم تأت واحدة منها بشأن نص مكي[2].

(١) سيتم إن شاء الله معالجة تفسيره الوحي على أنه (شعور ذاتي) في الجزء الثاني من هذه الدراسة.

(٢) وإن كنا نسلم أن تلك الأعراض شملت الوحي المكي والمدني، لكنا نبين عوار منهجه.

إن نولدكه عمد إلى سنوات نبوة النبي الأولى فجعلها وحدها دليلًا على أعراض الوحي، رغم أنه لم يَرِد بشأنها رواية واحدة تربط بينها وبين تلك الأعراض[1]، ثم استثنى بجرأة عجيبة ما بعد سنوات نبوة النبي الأولى؛ ومنها السنوات المدنية التي وردت الروايات أصلًا واصفة حال النبي عند نزول الوحي عليه أثناءها؛ وأتساءل: كيف ساغ له ذلك منهجيًّا؟

وتكتمل دائرة التجني على المنهج والتاريخ بما أضافه لهذا، حين ادعى أن من يقرأ القرآن يجد انطباعًا، أنه ليس من الممكن أن يكون كله قد تكوَّن[2] في أقصى درجات حالة الجذب (أي مع مصاحبة أعراض الوحي). ويستدل بأن الروح تتدرج من هذه الحالة إلى أبسط حالات إنعام الفكر المجهدة؛ وبأن النبي نفسه لم يكن يظن أنه يستطيع استيعاب كل أجزاء القرآن في حالة التهيج الشديدة، بل كلمات وأفكار بعينها فقط؛ وأرد بالآتي:

أ- إن وحي القرآن كله أوحي إلى رسول الله ﷺ مصحوبًا بأعراض نزول الوحي المصاحبة التي جرى تفصيلها من قبل. وقد مرت شهادات عائشة وعمر وعبادة بن الصامت وابن عباس ويعلى، بالإضافة إلى شهادة الرسول ذاته التي جاءت في ألفاظ عامة لا تنطبق على وحي دون وحي، ولا فترة دون فترة. فهو يسمع صلاصل كل مرة؛ وما من مرة يوحى إليه إلا ظن أن نفسه تقبض: «**أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك فما من مرة يوحى**

(١) أما حديث عمر عن سماعٍ من بجوار النبيِّ دويَّ النحل عندهُ لحظةَ الوحي؛ فصحيح أن هذا الحديث كان بشأن الآيات العشر الأول من سورة (المؤمنون) المكية إلا أنه لا يتناول شأن النبي لحظة الوحي، وإنما يتناول ما يسمعه من بجواره ولا يتعرض لوصف حالة النبي ذاته. كما أن نولدكه لا يجعل سورة (المؤمنون) - في ترتيبِهِ سورَ القرآن الذي ألحقته بهذا الجزء - إلا في الطور المكي الثاني الذي أوحي به في المدة من ٥-٦ للبعثة. والحديث في مسند الإمام أحمد ج١ ص٣٤ رقم (٢٢٣). والمستدرك ج١ ص٧١٧ رقم (١٩٦١)، والترمذي ج٥ ص٣٢٦ رقم (٣١٧٣).

(٢) لاحظ قوله: تَكَوّن، وليس أُنزل.

إلي إلا ظننت أن نفسي تقبض»[1]. ولقد حصل هذا أيضًا عند وحي بعض السنة[2].

وبالتالي نقرر أنه لم ينزل على رسول الله شيء من القرآن إلا وكان مرتبطًا بهذه الشدة. كما أنه لم يتغير شيء مما مهد الله حصوله لنبيه حين قال له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[3].

فإذا كنا هنا إزاء تمهيد للرسول بأن قولًا ثقيلًا سيلقى عليه وحيًا؛ فليس ثمة ما يشير إلى تغير طرأ على هذه الصفة لهذا القول.

وعلى مدار سنوات تنزل القرآن الثلاثة والعشرين لم يثبت أن شيئًا من القرآن نزل غير مصحوب بحالة الثقل تلك مع الأعراض المصاحبة لها. وعلى من يدعي عكس ذلك أن يقدم الدليل.

ب- وإذا كان لدى نولدكه أو غيره من المستشرقين نص بخلاف ذلك فليعلنوه؛ لكنه أبى هنا إلا أن يحول البحث العلمي إلى أحكام مطلقة مؤسسة على مسلمات عقدية من قبيل قوله: "ليس من الممكن أن يكون القرآن كله قد تكون فيما يسميه (أقصى درجات حالة الجذب)" دون أن يبين بالدليل:

---

(١) أحمد ٢ / ٢٢٢ رقم (٧٠٧١).

(٢) على سبيل المثال ما أورده البخاري في كتاب المغازي بشرح ابن حجر ج٨ ص٤٧ رقم (٤٣٢٩). أن يعلى كان يقول: ليتني أرى رسول الله حين يُنزل عليه. قال: فبينا النبي في الجِعرانة وعليه ثوب قد أظل به معه، فيه ناس من الصحابة إذ جاءه أعرابي عليه جبة متضمخ بطيب، فقال: يا رسول الله، كيف ترى في رجل أحرم بعمرة في جبة بعدما تضمخ بالطيب؟ فأشار عمر إلى يعلى بيده أن تعال، فجاء يعلى فأدخل رأسه فإذا النبي مُحْمَرُّ الوجه يَغِطُّ كذلك ساعة ثم سري عنه فقال: «**أين الذي يسألني عن العمرة آنفًا**». فالتُمِس الرجل فأُتي به. فقال: «**أما الطيب الذي بك فاغسله ثلاث مرات، وأما الجبة فانزعها، ثم اصنع في عمرتك كما تصنع في حجك**».

(٣) المزمل: ١ - ٦.

لماذا يكون هذا ليس من الممكن!!.

أو من قبيل استدلاله بقضية هي في ذاتها بحاجة لدليل، وهي أن الروح تتدرج من أقصى درجات حالة الجذب إلى أبسط حالات إنعام الفكر المجهدة.

أو من قبيل نفي حسبان النبي بهذا الشأن أو غيره، دون أن يبين نولدكه كذلك أين الرواية التي اعتمد عليها ليصل لهذا الحكم؟

كما لم يبين نولدكه كيف فرَّق بين تلك الكلمات والأفكار القرآنية (التي يصدق عليها أنها جاءت مصاحبة لأعراض الوحي)؛ وبين غيرها التي لم تكن كذلك؟ ولم يذكر لنا حالة واحدة تم فيها وحي قرآني نتج عن مرور النبي بما سماه نولدكه (حالة إنعام الفكر المجهدة).

فهل يمكن لباحث يحوي منهجه كل تلك الأغاليط الاستدلالية في جزئية واحدة؛ أن يصل للحقيقة؟ من هنا أقول: إن من أهم ما منع نولدكه وغيره من التعرف على حقيقة الإسلام ونبيه؛ فساد المنهج لديهم إذا تعلق الأمر بالمرتكزات الأساسية للإسلام؛ كنبوة محمد والقرآن، رغم ما يطنطن به المتعصبون لهم من تميزهم المنهجي بإطلاق.





المبحث الخامس
مناقشته في استدلاله بقِصَرِ سُوَرِ الطور المكي الأول

أناقش نولدكه هنا فيما ادعاه من أنه لاحظ قِصَرَ سُوَرِ الطور المكي الأول؛ الذي قال إنه مليء بالحماس؛ حيث ادعى أن التهيج النفسي الشديد (الذي أثار النبي فأتى بهذه السور حسبما يدعي) لا يدوم. فقصر هذه السور إذن سببه أن التهيج الذي أثارها هو الآخر قصير. يقول[1]:

إن "معظم سور هذا الطَّوْر قصيرة؛ فمن ثمان وأربعين سورة[2]؛ لدينا ثلاث وعشرون؛ في كل واحدة أقل من عشرين آية، وأربع عشرة سورة؛ في كل واحدة أقل من خمسين آية؛ وذلك لأن تهيج الروح العالي الذي استثارها لا يستطاع الاحتفاظ به طويلًا".

وسيكون نقاشي لنولدكه في استدلاله هذا بأن أذكر ترتيبه الزمني[3] لسور القرآن، وأذكر سور الطور المكي الأول الثماني والأربعين التي أشار إليها، ثم أقدم ملاحظة مبدئية وإشارة، ثم أبين أخطاء نولدكه المنهجية هنا:

أولًا: ذكر ترتيب نولدكه الزمني لسور القرآن:

لقد رتبه إلى سور مكية وأخرى مدنية. فالمدنية حسب قوله ٢٤ سورة.

أما المكية فقد قسمها إلى:

---

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٧٦.

(٢) التي هي عدد سور الطور المكي الأول كما يزعم ص*IX*.

(٣) ذكر نولدكه هذا الترتيب في القسم الأول من تاريخ القرآن بالألمانية ص*IX. X*، ووضعته في جدول ملحق في نهاية هذا الجزء.

سور الطَّوْر المكي الأول: (ويقول: إنها تكونت في المدة من سنة ١ للبعثة إلى سنة ٥ منها)، وعددها ٤٨ سورة.

سور الطور المكي الثاني: (ويقول: إنها تكونت في سنتي: ٥، ٦ للبعثة تقريبًا)، وعددها ٢١ سورة.

سور الطور المكي الثالث: (ويقول: إنها تكونت في المدة من سنة ٦ إلى ١٣ للبعثة)، وعددها ٢١ سورة.

ثانيًا: ذكر سور الطور المكي الأول موضع استدلاله:

لقد أشار نولدكه في مطلع كتابه: تاريخ القرآن[1] إلى أرقام السور الثمانية والأربعين التي تنتمي للطور الأول المكي حسب تقسيمه. ورتب أرقام تلك السور بترتيب النزول وفقًا لرؤيته.

وهذه السور بأسمائها هي:

العلق ١٩	المدثر ٥٦	**المسد**	**قريش**	**الكوثر**	**الهمزة**
الماعون	**التكاثر**	**الفيل**	الليل ٢١	البلد ٢٠	**الشرح**
الضحى	**القدر**	**الطارق**	**الشمس**	**عبس٤٢**	القلم ٥٢
الأعلى ١٩	**التين**	**العصر**	البروج ٢٢	المزمل ٢٠	**القارعة**
الزلزلة	**الانفطار ١٩**	التكوير ٢٩	**النجم ٦٢**	الانشقاق ٢٥	**العاديات ١١**
النازعات ٤٦	المرسلات ٥٠	النبأ ٤٠	الغاشية ٢٦	الفجر ٣٠	القيامة ٤٠
المطففين ٣٦	الحاقة ٥٢	الذاريات ٦٠	الطور ٤٩	الواقعة ٩٦	المعارج ٤٤
الرحمن ٧٨	**الإخلاص**	**الكافرون**	**الفلق**	**الناس**	**الفاتحة**

ثالثًا: ملاحظة مبدئية وإشارة:

ألاحظ مبدئيًا أن السور التي قال نولدكه في نصه الذي معنا: (إن في كل منها أقل من

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص*IX*. وراجع الملحق بآخر هذا الجزء.

عشرين آية) هي ست وعشرون سورة، وليست ثلاثًا وعشرين فقط[١].

كما أشير إلى أن هذه السور الستة والعشرين كتبتها في الجدول بالخط الثقيل. وأن السور التي قال إن في كل منها أقل من خمسين آية أربع عشرة، وقد ميزتها بوضع خط تحتها. وأن السور التي لم يُدخلها في إحصائه (وهي ما زاد عددُ آياتها عن الخمسين آية)؛ عددها سبعة، وقد ميزتها بوضع خطين تحتها[٢].

رابعًا: أخطاء نولدكه المنهجية هنا:

بالإضافة إلى ما ذكر من نقد لنولدكه فإنه قد وقع هنا في عدة أخطاء منهجية أفقدت دليله حجيته؛ فقد أسس حكمًا خطيرًا على دليل مظنون، وتحكم في التقسيم والعدد، وتغاضى عما لا يؤيد نتائجه، وخالف الروايات لتسلم له دعواه، وتفصيل هذا على النحو الآتي:

١- تأسيس حكم خطير على دليل مظنون:

فيما يتعلق بترتيب نزول سور القرآن الكريم، فأنا على يقين أن الأسس التي أقام عليها بعض علمائنا ترتيبهم لنزول بعض سور القرآن لا تخلو من مآخذ تجعلها جديرة بالمراجعة؛ وذلك لأنه لم تثبت رواية صحيحة تُلزم أن يُصار إلى علم صحيح يقيني في هذه المسألة. ولقد قال القاضي أبو بكر بن العربي[٣] بهذا الشأن: إنه "أمر عسير لم تبلغ إليه معرفة العلماء على التحقيق، ولا ثبت فيه النقل على الصحيح، وإنما أراد الله أن يكون كذلك في سبيل الاحتمال حتى تختلف بالمجتهدين الأحوال"[٤].

(١) ليسوا ثلاثًا وعشرين سورة كما قال؛ بل هي ست وعشرون؛ (والسبب في هذه الزيادة هو الاختلاف في العدِّ بين نسخة المصحف التي رجع إليها نولدكه، وهي نشرة فلوجل، ونُسخ المصحف المتعارف عليها بين المسلمين).

(٢) ولم تختلف نسخة فلوجل بشأن هذه القائمة عن نسختنا سوى في عدد آيات سورة المدثر؛ فهي هناك خمس وخمسون بدلًا من ست وخمسين في نسختنا.

(٣) الناسخ والمنسوخ ص١٦.

(٤) وبهذه المناسبة أشير إلى أن لجنة طباعة المصحف الشريف بمجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة أثبتت في مقدمة كل سورةٍ ترتيبَ نزولها؛ قالت مثلًا عن سورة الزخرف (نزلت بعد=

لكن هذا لا يعني أن يكون البديل هو ترتيب نولدكه المشار إليه. فنولدكه، وإن كان قد حاول ترتيب سور القرآن الكريم؛ إلا أنه أهمل في الغالب[1] القواعد العلمية في الترجيح، وحركته أغراض مسبقة يريد توظيف هذا الترتيب لدعمها، وأسقط الروايات من الاعتبار.

ولقد فطن نولدكه نفسه إلى ما في ترتيبه من خلل؛ فقد اعترف أنه لا يمكن وضع ترتيب زمني تقريبي للسور المكية إلا بقدر قليل جدًّا من الدقة، وذلك بسبب أنها نادرًا ما تذكر فيها الأحداث التاريخية قال[2]:

"Um so weniger wird es moeglich für die mekkanischen Suren, in denen äusserst selten auf ganz sichere geschichtliche Ereignesse Rücksicht genommen wird, eine auch nur ungefähre Zeitbestimmung aufzustellen, um darnach die einzelnen Perioden abzuteilen"

وحتى السور التي قال نولدكه إن بها أحداثًا تاريخية (مثل سور النجم، وطه، والروم) فإنه أكد أن أدلة الترتيب الزمني بشأنها غير مؤكدة تمامًا.. يقول[3]:

"Die wenigen chronologischen Anhaltspunkte, von denen auch nicht ein einziger ganz sicher ist"

وبسبب عدم تأكد نولدكه من التاريخ - كما قال - فإنه تعهد أن يلتزم أشد الحذر عند حديثه عن الأطوار المختلفة، ووعد ألا يتحدث سوى عن التطور الداخلي للسور، وأن يصرف النظر عن التحديد الزمني غير المؤكد.. يقول[4]:

= الشورى).. وهكذا في غيرها اعتمادًا على رواية ابن عباس المذكورة، وعلى كتب: غيث النفع للسفاقسي، وناظمة الزهر وشرحها، وكتاب أبي القاسم عمر بن محمد بن عبد الكافي (انظر تعريفًا بالمصحف ص٥٢٦، طبعة الشمرلي ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م). وأميل في هذا الشأن إلى ما كان عليه السلف من تجريد المصحف من غير القرآن. كما أن بعض أدلة ترتيب النزول لا تسلم من النقد.

(١) نقر هنا أن نولدكه كانت له اجتهادات جيدة إلى حد كبير بشأن ترتيب وزمن نزول بعض الآيات والسور.

(٢) ٦٩، ٧٠.

(٣) ٦٩، ٧٠.

(٤) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص ٧٠.

“Es wird daher am vorsichtigsten sein, wenn wir bei den Suren der einzelnen Perioden nur die innere Entwicklung ohne Rücksicht auf die ganz unsichere Chronologie im Auge behalten“

كما اعترف بعدم إمكانية الترتيب الزمني الدقيق لبعض الآيات، وكذلك السور المدنية الطويلة قال[١]:

“Eine genaue chronologisch zerteilende Anordnung der einzelnen Stellen würde besonders bei den großen medinischen Sueren unstatthaft und unmöglich sein“

كما أقر بأنه كلما طالت دراسته للقرآن فإنه (على الرغم من إمكان تكوين مجموعات من السور المكية يمكن الفصل بينها) إلا أنه من المستحيل إمكانية عمل ترتيب زمني دقيق للسور القرآنية. واعترف أن الأدلة التي كان يثق فيها من قبل في هذا الاتجاه، ظهر له فيما بعد أنها ليست جديرة بالثقة، وأن كثيرًا من مزاعمه التي منحها من قبل ثقته العالية، ظهر له بعد التمحيص المتكرر والدقيق أنها ليست أكيدة يقول[٢]:

“Das sich unter den mekkanischen Suren zwar einzelne Gruppen ausscheiden lassen, nicht aber eine im einzelnen irgend genaue chronologische Anordnung aufgestellt werden kann, ist mir immer klarer geworden, je genauer ich im Lauf vieler Jahre den Qoran untersucht habe. Manches Indicium, das ich mir diesem Zweke gemarkt hatte, hat sich als unzuferlässig herausgestellt, und manche Behauptung, die ich früher als ziemlich gewiss ausgabe, erwies sich bei wiederholter und sorgfältigerer Prüfung als unsicher“

كما ذكر أنه (وإن كان من السهل إجراء شيء من الترتيب الزمني لسور الطور المكي الثاني) إلا أن هذا سيكون عموميًا، وبشكل واسع. ومن غير المؤكد الحكم بمكان محدد لكل سورة في مقابل أخرى، يقول[٣]:

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص ٦٥.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص ٧٤.

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص ١٢١.

"Wie wir schon oben gesagt haben, lassen sich die suren dieser zeit etwas leichter in eine Art von chronologischer ordnung bringen. Natürlich gilt das nur im ganzen und großen, den genauen Platz jeder einzelne Sure gegenüber den andern könen wir auch hier durchaus nicht mit Sicherheit bistimmen"

وأقر كذلك بضعف إمكانية القيام بترتيب تاريخي لسور الطور المكي الثالث أكثر مما كان يسري على الطورين الأول والثاني[1]:

"Da in den Suren der dritten Periode so gut wie gar keine Entwicklung mehr sichtbar ist, so könen wir noch weniger als in denen der älteren Perioden eine irgend sichere chronologische Reihenfolge aufstellen"

وبعد فيجدر بنا أن نعيد ذكر عبارات نولدكه الماضية في وصفه ترتيبه الزمني لسور القرآن الكريم فهي من قبيل:

وصف ترتيبه بعدم الدقة، وأنه غير مؤكد، وأنه من المستحيل عمل هذا الترتيب الزمني، وأن أدلته التي استند إليها فيه غير جديرة بالثقة.

وأن نُذَكّر بتعهده التزام أشد الحذر في هذا الشأن.

وأقول: إذا كان هذا التقسيم لم يحز على الثقة حتى من صاحبه؛ فبأي منهج علمي يمكن أن يقبل نولدكه توظيف نتائجه على هذا النحو الخطير؟

إن المدهش في الأمر أن الاحتمالية وعدم اليقين في أساس هذا التقسيم، حسب اعتراف نولدكه كما بيّنا، كانا يتحولان بشكل مريب إلى يقين تام وقطعية مطلقة عند توظيف نتائجه؛ وما أكثر ما وظفها نولدكه في أحكامه حول القرآن والنبي.

فكيف ارتضى ضميره العلمي ذلك المسلك؟

وكيف مر هذا التجاوز المنهجي على من هيئوا الكتاب للنشر من بعده من كبار المستشرقين؟ وكيف لم ينتبهوا لنقد نولدكه لأدلته، واعترافه أنها لم تكن محل ثقة؟

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٤٤.

٢- **تحكم نولدكه في التقسيم والعدد:**

لقد لاحظنا أن نولدكه قسَّم السور إلى سور أقل من عشرين آية وأخرى أقل من خمسين آية... وهذا يطرح إشكالات قصر السور وعدد الآيات:

فلماذا هذان القسمان تحديدًا؟ ولماذا جعل ما تحت الخمسين معيارًا للقصر؛ وما فوقها معيارًا للطولِ؟ وماذا لو اختلف العدّ بين نسختي المصحف المذكورتين (كما أظهرنا أنه حصل بالفعل)؟ وماذا بشأن قصر الآيات في ذاتها أو طولها؟ ولماذا لم يضع في حسبانه ما هو مستقر تمامًا (حتى لدى أي دارس مبتدئ لعلوم القرآن) أن كثيرًا من سور القرآن لم تنزل مرة واحدة؟ هل لم يدر، وهو عالم الإسلاميات الكبير أن هذا ينطبق أيضًا على بعض السور التي ذكرها: العلق، القلم، المزمل، وغيرها؟ لماذا لم يفطن لهذا؟ ألم تثر كل تلك التساؤلات في ذهن نولدكه وهو يقرر مثل هذه الأحكام؟. وهل من الجائز الاعتماد على عدد الآيات في كل سورة من أجل الوصول إلى الحكم الذي وصل إليه نولدكه هنا؟

٣- **تغاضي نولدكه عما لا يؤيد نتائجه:**

لقد لاحظنا أن نولدكه جعل سور الطور المكي الأول ٤٨ سورة، ذكر أن:

- ٢٣ سورة منها تحوي كل واحدة أقل من ٢٠ آية.
- ١٤ سورة منها تحوي كل واحدة أقل من ٥٠ آية.
- فالمجموع إذن ٢٣ + ١٤ = ٣٧.

ولم يتحدث نولدكه عن السور الإحدى عشرة المتبقية، على الرغم من أنها تنتمي لهذا الطور الذي يتحدث عنه وفق ترتيبه هو. فلماذا هذا التجاهل؟

لتقرأ من جديد قوله:

"معظم سور هذا الطَّوْر قصيرة؛ فمن ثمان وأربعين سورة لدينا ثلاث وعشرون؛ في كل واحدة أقل من عشرين آية، وأربع عشرة سورة؛ في كل واحدة أقل من

خمسين آية؛ وذلك لأن تهيج الروح العالي الذي استثارها لا يستطاع الاحتفاظ به طويلًا".

إننا نلاحظ (بالنظر إلى الجدول الأخير الذي وضعت فيه سور الطور المكي الأول كما رتبه نولدكه) أن من بين السور التي لم يجر لها ذكر في كلامه هنا، ولم يُدخلها في إحصائه: سبع سور، زاد عددُ آيات كل واحدة منها عن خمسين آية، وهي: المدثر (٥٦ آية)، القلم (٥٢ آية)، النجم (٦٢ آية)، الحاقة (٥٢ آية)، الواقعة (٩٦ آية)، الرحمن (٧٨ آية)، الذاريات (٦٠ آية).

أين نولدكه من هذه السور؟ لم ينبس عنها ببنت شفة. صمت مطبق، وتجاهل تام!! لماذا؟

إنه التغاضي عما لا يؤيد النتائج المعدة سلفًا.

إن استدعاء هذه السور إلى الذهن سيثير التساؤل: لماذا هي طويلة، على الرغم من أنها تنتمي للطور المكي الأول، وفق رأي نولدكه؟ وهذا يقدح في نتيجة استدلاله، ويهدم أساس دليله؛ حيث إنه ربط بين قصرِ سور هذا الطور وبين قصر المدة التي يبقى فيها ما سماه تهيجًا يصاحب نزول كل منها على حدة، معتقدًا أن مدة التهيج لا بد أن تكون قصيرة؛ وبالتالي لا بد أن تكون السور كذلك قصيرة. وذكر هذه السور ووضعها في الواجهة يهدم دعوى نولدكه أن "تهيج الروح العالي الذي استثارها لا يستطاع الاحتفاظ به طويلًا"؛ فقد أمكن الاحتفاظ بهذا التهيج طويلًا حتى ينتهي وحيُ هذه السور الطويلة!!.

فلماذا يفتح نولدكه على نفسه أبواب التساؤلات؟

لذا اختار أن يلوذ بالصمت، واختار عدم ذكر قائمة تلك السور السبعة مع القائمتين اللتين ذكرهما، معتمدًا على أن أحدًا لن يَعُدَّ وراءه.

ولا يجدي فتيلًا استخدامُ نولدكه صيغة التغليب في صدر نصه المذكور حين قال: إن "معظم سور هذا الطَّوْر قصيرة"؛ وذلك لأن استخدامه لها لا يُفهِم إلا أن بعض

سور ذلك الطور طويلة دون أن يعالج ما ترتب على وجود تلك السور الطويلة من نقض لدليله.

٤- **مخالفة الروايات لتسلم الدعوى:**

أ- إن نولدكه عمد إلى سور قصيرة متأخرة النزول بمكة (الملك، والنبأ، والنازعات، والانفطار، والانشقاق، والمطففين) فجعلها متقدمة النزول، ومنتمية للطور الأول[(١)].

فعل ذلك - في غالب ظني - لأنها سور قصيرة ليزداد بذلك عدد السور القصيرة في الطور المكي الأول لتسلم له دعواه.

ب- وفي المقابل؛ عمد إلى سور طويلة متقدمة النزول بمكة (ص، والأعراف، ويس، والفرقان، وفاطر، ومريم، وطه، والشعراء، والنمل، والقصص) فاستبعدها من الطور الأول مخالفًا الروايتين المشار إليهما عن ابن عباس.

وفعل نولدكه ذلك - في غالب ظني - لأنها سور طويلة؛ فاستبعدها من أن تكون متقدمة النزول؛ لتسلم له دعواه أن سور الطَّوْرِ المكي الأول قصيرة؛ لأن الهياج المدعى للنبي لا يدوم طويلًا!!!

* * *

(١) راجع ما رواه عثمان بن عطاء الخراساني عن أبيه عن ابن عباس، وذكره السيوطي في الإتقان ص١٤، وما رواه كريب عن ابن عباس، وذكره ابن العربي في كتابه الناسخ والمنسوخ ص١٧. ولقد اعتمدت لجنة طباعة المصحف الشريف بالقاهرة هاتين الروايتين في ترتيب النزول وأشارت لذلك في مطلع كل سورة؛ معتمدين كذلك على كتب: غيث النفع للسفاقسي، وناظمة الزهر وشرحها، وكتاب أبي القاسم عمر بن محمد بن عبد الكافي، انظر تعريف بالمصحف ص٥٢٦ طبعة الشمرلي ١٩٩٩م.



الفصل الثاني

مناقشته فيما زعمه من سببين للتهيج النفسي المزعوم للنبي



تمهيد

لقد ادعى نولدكه أن سبب هذا التهيج في مرحلة بداية النبوة كان الحماس الشديد؛ وسببه فيما بعد الهجرة كان التفكير العميق؛ يقول:

"... من المحتمل أن هذه الحالات اعترته في هذا الوقت الذي ظهر فيه كنبي، وبخاصة في بداية نبوته، حيث كانت روحه في ذروة حماسها، لكنها أيضًا حدثت له بعد الهجرة بعض الأحيان؛ على سبيل المثال: الإغماءة التي حدثت في غزوة بدر[1]؛ فعندما كان محمد يذهب في تفكير عميق[2]، فإنه كان في أثناء ذلك تأخذه إغماءة مفاجئة، وعندها كان يعتقد أن قوة إلهية تسري فيه".

* * *

إن نولدكه يدعي أن الحماس الشديد هو الذي كان يهيج الوحي قبل الهجرة؛ أما بعدها فقد كان التفكير العميق هو المسبب له.

أولًا: الحماس الشديد كسبب للتهيج المدعى:

١- إن هذه الدعوى تخلف وراءها عدة تساؤلات بلا إجابة منها: أن نولدكه لم يبين كيف يكون الحماس الشديد سببًا وراء الوحي؟ أو كيف يكون الحماس مقدمة

---

(١) انظر فيما يتعلق بهذا: ابن هشام ص٤٤٤، والطبري ج١ ص١٣٢١، والواقدي ص٦٥، والأغاني ج٤ ص ٢٧، وفايل ص١٥٧. (نولدكه).

(٢) إذن هو يرى أن السبب في حالات التهيج المزعومة هذه مختلف باختلاف وقت حدوثها: فعند بداية النبوة كان سببها هو الحماس، وعندما حصلت في بعض أوقات ما بعد الهجرة كان سببها التفكير العميق!!!! [الباحث].

ينتج عنها الوحي؟ وهل لهذا واقع طبي نفسي مدوَّن؟ وهل من الممكن أن يأتي لنا واحد من المستشرقين (المتحمسين) لإهدار نبوة محمد ﷺ وتفريغها من مضمونها؛ بشخص لديه حالة حماس أو تهيج شديد، ثم أنتج هذا الشخص وحيًا مستقيمًا لا عوج فيه ولا اضطراب، مثل القرآن وصحيح السنة؟

ولماذا نبوة محمد وحده من بين سائر الأنبياء هي التي تفسَّر بأنها نتاج حالة حماس شديدة، كالتي يُدَّعى أن النبي محمدًا ﷺ مر بها؟

ثم إن افتراض نولدكه حماسًا شديدًا للنبي هو الذي حرك فيه الوحي طيلة الفترة التي سبقت الهجرة.. هذا الافتراض لا يقدم تفسيرًا لتأخر الوحي لسن الأربعين.

إن محمدًا إن لم يكن صاحب حماس شديد إلا بعد الأربعين.. فالسؤال المطروح: ما الذي جدَّ في حياته أوصله لهذه الحالة؟ لا تفسير لدى نولدكه.

وإن كان صاحب حماس شديد قبل الأربعين؛ فلماذا لم يُنتِج حماسُه الوحي إلا بعد الأربعين؟ إن نولدكه أتعب نفسه وأجهدنا في مناقشته حين ادعى من قبل تعرض النبي لحالات تهيج منذ شبابه المبكر، فلماذا لم ينتج عنه وحي وقتها؟ لا تفسير لدى نولدكه كذلك.

٢- ولماذا محمد وحده يتميز بهذا الحماس الشديد؟ ولماذا لم يأت الوحي للذين كانوا أشد منه حماسًا كالحنفاء؟ فهذا واحد منهم هو زيد بن عمرو بن نفيل كان يبحث عن الدين الحق بهمة ونشاط لم يكونا موجودين في محمد ﷺ قبل البعثة؛ وكان يعيب ما عليه قومه من شرك ووثنية ويعلن ذلك لدرجة أنهم عادوه[(١)]؛ يقول

(١) لقي زيد بن عمرو بن نفيل محمدًا ﷺ قبل البعثة فقال له محمد: **«ما لي أرى قومك قد شنفوك؟»**. فقال له: أما والله إن ذلك لغير ثائرة كانت مني إليهم، ولكني أراهم على ضلالة.. فخرجت أبتغي هذا الدين حتى قدمت على أحبار يثرب فوجدتهم يعبدون الله ويشركون به، فقلت: ما هذا بالدين الذي أبتغي، فخرجت حتى أقدم على أحبار أيلة، فوجدتهم يعبدون الله ويشركون به، فقلت: ما هذا بالدين الذي أبتغي. فقال لي حبر من أحبار الشام: إنك تسأل عن دين ما نعلم أحدًا يعبد الله به إلا شيخًا بالجزيرة، فخرجت حتى قدمت إليه، فأخبرته الذي خرجت له، فقال: إن كل من رأيته في ضلالة، إنك تسأل عن دين هو دين الله ودين ملائكته، =

ابن هشام: (وكان زيد بن عمرو بن نفيل قد أجمع الخروج من مكة ليضرب في الأرض يطلب الحنيفية دين إبراهيم، حتى بلغ الموصل والجزيرة كلها. ثم أقبل فجال الشام كله... حتى إذا توسط بلاد لخم [أثناء العودة إلى مكة] عدوا عليه فقتلوه)(١).

إن محمدًا ﷺ لم تؤثر عنه مثل تلك العداوة بينه وبين قومه بسبب وثنيتهم قبل البعثة؛ ولم يكن يعاني من مشكلة عقدية مثلما عانى زيد الذي التمس حلها بكل هذا التطواف. فلو كان الحماس الشديد هو السبب وراء الوحي قبل الهجرة لكان أولى به زيد هذا.

ثم إن هناك إلى جانب هذا قائمة كبيرة من الحنفاء الآخرين لم يكن ينقصهم الحماس الديني مثل: قس بن ساعدة الإيادي، وعلاف بن شهاب التيمي، وأمية بن أبي الصلت، والقلمس بن أمية الكناني(٢)، وسويد بن عامر المصطلقي، وأسعد أبو كرب الحميري، وكعب بن لؤي بن غالب(٣)، وورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث بن أسد، وحنظلة الراهب، وحنظلة بن صفوان(٤)، وخالد بن سنان العبسي(٥).

وهناك من كانوا يعيبون مسالك المشركين ويجاهرون بهذا؛ فبعضهم كان يؤمن بالله الخالق في الجاهلية مثل: النابغة الذبياني، وعامر بن الظرب العدواني،

= وقد خرج في أرضك نبي، أو هو خارج يدعو إليه، ارجع إليه وصدقه واتبعه وآمن بما جاء به، فرجعت فلم أحسن شيئًا بعد. أخرجه الحاكم في المستدرك ج ٣ ص ٢٣٨ رقم (٤٩٥٦)، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. قال محقق الكتاب مصطفى عبد القادر عطا: قال الذهبي في التلخيص: على شرط مسلم.

(١) سيرة ابن هشام ج١ مجلد ١ ص ١٤٣.

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل ص ٢٣٨ - ٢٤٠، ٢٤٢.

(٣) د. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام ص٤٣٥.

(٤) الذي يذكر ابن حبيب عنه أنه نبي أصحاب الرس.

(٥) يروى عن ابن عباس أنه كان نبيًا: المسعودي: مروج الذهب ج١ ص٤٥٣.

وزهير بن أبي سلمى المزني، وعبد لطابخة بن ثعلب بن وبرة من قضاعة[1].

وبعضهم حرم الخمر؛ وهم: "قيس بن عاصم التميمي، وصفوان بن أمية بن محرس الكناني، وعفيف بن معدي كرب الكندي"[2].

ألا يعد كل ذلك حماسًا لم يدَّع نولدكه شيئًا منه لمحمد قبل البعثة؟

فلماذا محمد وحده، وليس واحد من هؤلاء، هو الذي ينتج حماسُه وحيًا؟

٣ - **النصوص التشريعية في القرآن المكي:**

إن نولدكه يزعم هنا أن روح النبي كان - في بداية النبوة - في ذروة الحماس. ومن قبل زعم قريبًا من هذا حين قال:

"إن الأخبار عن هياج الروح *Seelenbewegun* صحيحة في مجملها، حيث تُثبَت على أحسن حال في نصوص قرآنية خيالية بدائية *phantastischen wilden Qorànstücke*، قدمها محمد في سِنِي نبوته الأولى".

ومن هذا يتحصل أنه يربط بين ما يزعمه من ذروة حماس النبي وهياج روحه في بداية النبوة؛ وبين ما يدعيه من نصوص قرآنية خيالية بدائية في ذلك الوقت.

وهذه دعوى دائمة الطرح من المستشرقين وسأفردها - بمشيئة الله - بدراسة خاصة، إن كان في العمر بقية. وسأكتفي هنا بإيراد اعتراضات من إقرارات نولدكه نفسه:

إننا نسأل: إذا سلمنا جدلًا أن نصوص اليوم الآخر والقيامة سببها الحماس الشديد؛ فهل ليس في القرآن المكي إلا هذا؟ وهل النصوص التشريعية التي نزل بها الوحي في مكة تعد من هذا القبيل أيضًا؟ لقد جاء في سورة الأنعام المكية:

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ

(١) الشهرستاني: الملل والنحل ص٢٣٩.

(٢) نفسه، وراجع ابن هشام: السيرة النبوية ج١ ص١٣٨ - ١٣٩.

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1]، وجاء في سورة النحل المكية كذلك: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] والآيتان باعتراف نولدكه مكيتان كذلك.

كما أنه يقول[3]:

"إن الآيات ١١٥-١١٨ من سورة النحل يمكن أن تعد مكية". والآيات هي:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[4]. وهي أيضًا آيات تشريعية.... فهل هذه النصوص التشريعية تدخل أيضًا ضمن النصوص القرآنية الخيالية البدائية المزعومة؟

٤ - ثم إن هناك إقرارين آخرين يأتيان ضمن أقوال نولدكه؛ لكنهما يقفان بشكل مباشر ضد ما يزعمه من ذروة حماس النبي وهياج روحه في بداية النبوة؛ وما يدعيه من نصوص قرآنية خيالية بدائية في ذلك الوقت:

أما أولهما: فإنه يقر[5] أن سورة الأنعام، وهي سورة مكية تُظهر ما يسميه: "تماثلًا فوق العادة في الاتصال التعبيري والمعجمي"

"Doch zeigt die Süre in stilistischer wie lexikalischer Beziehung eine außerordentliche Glechmäßigkeit"

ويضرب أمثلة كثيرة على هذا بـ "وجود عبارات ومفردات تكررت في مقاطع

(١) الأنعام: ١٤٥.
(٢) النحل: ١١٥.
(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٦٢ هامش ٣.
(٤) النحل: ١١٥ - ١١٨.
(٥) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص ١٦١ مع هامش ١ بنفس الصفحة.

السورة مثل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ الواردة ثلاث مرات، و"خسر" الواردة أربع مرات، و"صدف" التي لم ترد في القرآن إلا هنا، وجاءت ثلاث مرات... إلخ. وهو يرى أن سبب هذا هو "أن معظم أجزاء السورة نشأت في فترة زمنية محدودة".

فهل يمكن أن يوصف هذا التماثل غير العادي في الاتصال التعبيري والمعجمي؛ بأنه ضمن نصوص خيالية بدائية نشأت من ذروة حماس النبي وهياج روحه في بداية النبوة في ذلك الوقت؟

وأما الثاني فإنه قال[1] بشأن سورة هود المكية:

"Die einzelnen Teile dieser Sura hängen im allgemeinen fest zusammen"

وترجمته:

"بشكل عام ترتبط كل أجزاء سورة هود ببعضها تمام الارتباط" ويستشهد على ذلك بأن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ التي ذكرت في أول قصة وردت في السورة في الآية ٢٥ وهي قصة نوح؛ لم تذكر فيما بعد في مطلع قصص: هود (الآية٥٠)، وصالح (الآية٦١)، وشعيب (الآية٨٤) يقول[2]:

"Vgl. z. B. die Auslassung von لقد أرسلنا *V. 52. 64. 85, weil die Phrase schon V. 27 vorgekomnmen war".*

وترجمته:

"قارن مثلًا عبارة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ في الآية ٢٥ وهي قصة نوح؛ لم تذكر فيما بعد في "(الآية ٥٠) و(الآية ٦١) و (الآية ٨٤)"[3]:

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٥١.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٥١ هامش ٨. مع الإشارة إلى أننا اعتمدنا أرقام الآيات وفق نسخة المصحف التي بين أيدينا الآن.

(٣) وأضيف إلى ما لاحظه هنا أننا نجد أن العبارة القرآنية الكريمة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ ذكرت في أول قصة وردت في السورة، وهي قصة نوح (الآية ٢٥) كما ذكرت في آخر قصة، وهي قصة موسى =

ويقول عن نفس السورة[1]:

"V. 112-123 beziehen sich zwar unverkennbar auf die vorher genannten Geschlechter (V. 118), Städte (V. 119) und Propheten (V. 121), indessen sehen schon V. 102-111 wie ein rekapitulierender Schluß aus".

وترجمته:

"إن الآيات ١١٢ - ١٢٣ منها[2] تشير حقًّا بشكل واضح إلى الأجيال (القرون): ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾، والمدن: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾، والأنبياء: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. وفي غضون

= (الآية ٩٦)، ولم تذكر فيما ورد من قصص بينهما (الآية ٥٠)، و(الآية ٦١)، و(الآية ٨٤). وهو أمر يؤكد الارتباط الوثيق بين موضوعات السورة، حيث التأكيد في أول قصة وآخر قصة على مصدر الرسالة دون الحاجة إلى ذلك التأكيد فيما بينهما. وكأن السورة أنزلت على النبي في نفس واحد.

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٥٢. مع الإشارة إلى أننا اعتمدنا أرقام الآيات وفق نسخة المصحف التي بين أيدينا الآن، وليس الأرقام التي ذكرها.

(٢) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ذلك تبدو الآيات من ١٠٢ - ١١١[(١)] كما لو أنها خاتمة تلخيصية وتركيز لما سبق تناوله".

فهل يمكن أن توصف سورة كهذه ترتبط مقاطعها بشكل محكم دقيق، وترصد بدقة معالم العقيدة عبر القرون والأجيال ودعوات الرسل على النحو الذي استرعى انتباه نولدكه نفسه... هل يمكن أن توصف بأنها نصوص خيالية بدائية نشأت من ذروة حماس النبي وهياج روحه في بداية النبوة في ذلك الوقت؟

إنه لأمر عجيب أن نولدكه الذي أفهمنا أنه وجد في الوحي إلى محمد غموضًا فسعى لتفسيره؛ ينشأ عن هذا التفسير ما أوردته من الأسئلة، وما سأورده دون أن يقدم نولدكه أي إجابة عنها. فهل بعد كل هذا الغموض و الضبابية يمكن أن يتابع أحد نولدكه في دعواه أن الحماس الشديد للنبي هو الذي حرك فيه الوحي طيلة الفترة التي سبقت الهجرة.

***

ثانيًا: التفكير العميق سببًا للتهيج:

وأما بشأن ما يزعمه من أن حالة تفكير عميق كانت تسبق وحي محمد ﷺ بعد الهجرة؛ فقد مر قوله: "فعندما كان محمد يذهب في تفكير عميق، فإنه كان أثناء ذلك تأخذه إغماءة مفاجئة.. وعندها كان يعتقد أن قوة إلهية تسري فيه".

---

(١) ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾.

لكن ما دامت الروايات هي معتمد نولدكه، يحاول أن يتحسسها من هنا وهناك حتى لو كانت ساقطة مردودة؛ فلماذا لم يقدم رواية واحدة يُفهَم منها أن أي وحي إلى النبي كان قد سُبق بأن "يذهب محمد ﷺ في تفكير عميق" كما ادعى. أم أن الأمر لا يعدو كونه مجرد انطباعات يقحمها في دائرة البحث العلمي؟

إن الرواية التي وردت في كلامه - دون أن يستدل بها - كانت بشأن رواية ابن إسحاق[1] عن مناجاة رسول الله ربه يوم بدر؛ قال: "ورسول الله يناشد ربه ما وعده من النصر ويقول فيما يقول: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد..**» وقد خفق[2] رسول الله خفقة وهو في العريش، ثم انتبه فقال: «**أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثنايا النقع..**»" لكنها لم تكن حالة إغماء، كما صرح نولدكه، بل كانت سِنةً عارضة من النوم، كما يتضح من لفظ (خفق).

وفي إمتاع الأسماع للمقريزي: "فاضطجع، فغشيه نوم غلبه.... فاستيقظ "[3]؛ والوحي لرسول الله منامًا غير القرآن ثابت كما مر.

وليس في الرواية التي ذكرها نولدكه بشأن غزوة بدر، ولا في غيرها من الأحاديث التي تحدثت عن النبي لحظة يوحى إليه، ما يشير إلى حالة تفكير عميق كان يدخل فيها النبي قبل الوحي فهذه الحالة المدعاة ليست سوى من بنات خيال نولدكه الواسع.

ومن الروايات عن وحي النبي ﷺ التي لم يشر نولدكه إليها، هذه الرواية التي ترويها عائشة؛ تقول: (كان رسول الله ﷺ يقول وهو صحيح: «**لم يُقبض نبي قط حتى يَرى مقعدَه من الجنة ثم يُخَيَّرُ**». فلما نزل به ورأسه على فخذي غشي عليه ساعة ثم أفاق فأشخص بصره إلى السقف ثم قال: «**اللهم الرفيق الأعلى**»؛ قلت: إذا لا يختارنا، وعلمت

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٤١٦، والنص في الأغاني (لأبي الفرج الأصفهاني ج٤ ص ٢٧) الذي رجع إليه نولدكه: "وقد خفق رسول الله خفقة وهو في العريش ثم انتبه فقال: «**يا أبا بكر أتاك نصر الله هذا جبريل آخذ بعنان فرسه...**»".

(٢) أي (نام)، المعجم الوسيط ج١ ص٢٥٦.

(٣) ج١ ص٨٨.

أنه الحديث الذي كان يحدثنا وهو صحيح). قالت: (فكانت تلك آخر كلمة تكلم بها: «**اللهم الرفيق الأعلى**»).

وتضعنا هذه الرواية التي ترويها السيدة عائشة كشاهدة عيان أمام حالة وحي للنبي ﷺ قبيل وفاته بدقائق خُيِّرَ فيها النبي ﷺ بين الموت ولقاء الله سبحانه؛ وبين طول العمر؛ فاختار الموت ولقاء الله. وذَكَّرها هذا بما كان قد قاله لها من قبلُ عن أن هذا التخيير هو حال الأنبياء مع ربهم تعالى(١).

إن لحظة الوحي هذه لم تُسبق يقينا بحالة حماس شديد، أو تفكير عميق (وهما سببا الوحي المزعومين عند نولدكه)؛ إذ كيف يتسنى له الدخول في أحدهما وهو ﷺ يعالج سكرات الموت حيث تكون القدرات الذهنية والعاطفية شبه معطلة، فضلًا عن كثير من وظائف الجسد العادية(٢).

---

(١) ولا يجوز أن يُتوهم أن ذلك كان مجرد ظن من عائشة؛ فقد سبق أن أدرك أبو بكر نفس ما أدركته عائشة حين سمع رسول الله يقول: «**إن عبدًا خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده**». حيث بكى لأنه فهم أن العبد المخير هو رسول الله (الحديث في البخاري بشرح ابن حجر ج٧ ص١٢ رقم (٣٦٥٤). فلابد أن يكون ذلك تم للنبي بوحي. كما أن النبي ﷺ أسر لفاطمة أنه سيقبض من مرضه هذا، وأنها أول أهل بيته لحوقًا به؛ ولا يمكن أن يكون هذا أيضًا إلا بوحي إليه صلوات ربي وسلامه عليه. ولقد تحقق ما أسر به إليها؛ يقول العلامة المدقق ابن حجر معلقًا على إخباره فاطمة بهذا (الفتح ج٨ ص١٣٦): (وفي الحديث إخباره بما سيقع فوقع كما قال فإنهم اتفقوا على أن فاطمة عليها السلام كانت أول من مات من أهل بيت النبي بعده حتى من أزواجه).

(٢) للتدليل على مرض جسده ﷺ قبل موته بأيام أورد هنا قول ابن عباس: (يوم الخميس وما يوم الخميس، اشتد برسول الله وجعه.. الحديث). (البخاري بشرح ابن حجر ج٨ ص١٣٢ رقم (٤٤٣١)، وهذا يعني أن رسول الله اشتد عليه الوجع من الخميس حتى الاثنين الذي مات فيه. وأورد كذلك قول عائشة: (لما ثقل رسول الله واشتد به وجعه استأذن أزواجه أن يمرض في بيتي فأذنَّ له فخرج وهو بين الرجلين تخط رجلاه في الأرض بين عباس بن عبد المطلب وبين رجل آخر). وكانت عائشة تحدث أيضًا: (أن رسول الله ﷺ لما دخل بيتي واشتد به وجعه قال: «**هريقوا عليَّ من سبع قرب لم تحلل أوكيتُهن**»). البخاري بشرح ابن حجر ج٨ ص١٤٠ وكان يقول عند موته: «**لا إله إلا الله إن للموت لسكرات**». (نفس المرجع رقم ٤٤٥٠).

نخلص إذن إلى أن الوحي للرسول وهو في هذه الحالة لا يمكن أن يفسر بأنه أثر لما زعمه نولدكه من حماس شديد أو تفكير عميق.

***

الفصل الثالث

تلقي الأوساط المختلفة لوحي النبي



تمهيد

مما يهدم دعوى نولدكه في أساسها أن الأوساط المختلفة التي تعامل معها النبي بشكل مباشر لا يَظهر من ردود أفعالها على وحي النبي أنها كانت تلاحظ أي أثر يدل على أنه كان أثرًا لأي مرض نفسي.

يتبين لنا هذا من خلال رصد ردود أفعال كافة تلك الأوساط إزاء وحي النبي ﷺ.

وسيتم هذا الرصد من خلال مبحثين: الأول: قبل الهجرة، والثاني بعدها.

***



المبحث الأول
ردود الأفعال إزاء وحي النبي قبل الهجرة

من خلال رصدنا لبعض مواقف الأوساط المختلفة قبل الهجرة عند تلقيهم قول محمد ﷺ: إنه يوحى إليه من الله؛ نستطيع أن نستنتج بشكل يقيني أن المشركين قبل الهجرة لم يطرحوا جديًّا مسألة صرع النبي أو إصابته بأي مرض نفسي، بل كان منهم نفي لهذا الأمر؛ كتفسير لدعواه الوحي؛ وأن المؤمنين قد قدموا عمليًّا عشرات من أدلة النفي لهذا التفسير:

أما مواقف المشركين فتتبين منها أنهم نفوا أن يكون محمد ﷺ مريضًا؛ وتراوح ذلك النفي بين أن يكون مباشرًا أو غير مباشر.

١- **فمن قبيل مجيئه غير مباشر:**

- لا يخفى على أحد أن أبا طالب الذي ورث قيادة بني هاشم ذات المكانة بعد عبد المطلب؛ هو الذي رباه وكفله بعد وفاة عبد المطلب، وعاش النبي قرابة ثلثي عمره قريبًا منه، بما يتيح لأبي طالب أن يعايش أدق تفاصيل حياة ابن أخيه. فماذا يُتوقع من رَدَّةِ فعله على قول محمد: إن الله أوحى إليه، إن كان لدى أبي طالب سابق علم بمرض نفسي ألم بابن أخيه؟

لو كان لديه أدنى علم بهذا؛ لصرف ابن أخيه من البداية عن المضي قدمًا في أمر سيجعل المرض المستور يظهر في العلن مما يجلب العار على بني هاشم جميعًا!! ولو تمادى محمد، والحال هكذا، لكان المتوقع من أبي طالب أحد أمرين: إما أن يُكَذِّب محمدًا علنًا؛ أو يكتفي بالرفض السلبي فيتخلى عنه. لكن

شيئًا من هذا لم يحصل: فرغم أن ربقة التقليد وقيوده قد حالا[1] بين أبي طالب وبين متابعة النبي في الحق الذي جاء به؛ فإنه دافع عن محمد ﷺ وتصدى بقدر ما يستطيع لكل محاولات النيل منه[2]، وشاركه بعزيمة في تحمل ما لم يستطع أن يدفعه عنه من حصار[3]. فلو كان لدى أبي طالب أي شك في أن مرضًا ما، هو الذي يقف وراء دعوى محمد نزول الوحي عليه لما خاطر أبو طالب بالوقوف معه على النحو الذي ذكرناه.

- أن قريشا أرسلت بعثة من رجالاتها إلى الحبشة لتستعدي ملكها عليهم ليسلمهم إليهم فلما أبى "شفعوا إليه بقواده، فلم يجبهم إلى ما طلبوا، فَوَشَوْا إليه أن هؤلاء يقولون في عيسى: إنه عبد"[4]؛ ولو كان لمرضٍ ما، علاقة بدعوة النبي، لكان ذلك على رأس ما شنعوا به عليه توسلًا لتحقيقٍ هدفهم بتسليم أتباعه.

- ومنه أيضًا أن عمه أبا لهب كان يمشي خلفه في كافة التجمعات التي يفد عليها النبي في مواسم الحج قبل الهجرة، يصد الناس عنه بقوله: "إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقيش، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه ولا تسمعوا له"[5]. ولو كانت مسألة صرع النبي أو مرضه مرضًا نفسيًّا مطروحة بشكل جدي، لما تورع أبو لهب عن استغلالها في الدعاية ضده ﷺ.

- كما كان بعض قيادات المشركين يذهبون ليتسمعوا القرآن الذي يتلوه رسول الله في أثناء صلاته، واستمر فعلهم هذا رغم تعاهدهم معًا على عدم المعاودة[6].

(١) ابن هشام السيرة النبوية ج٢ ص٢٦٤.
(٢) ابن هشام السيرة النبوية ج١ ص١٦٥، ج٢ ص٢٣٢، ٢٦٣، والطبري: تاريخ ج٢ ص٣٢٦، ٣٢٧.
(٣) ابن هشام السيرة النبوية ج٢ ص٢٣٤ – ٢٣٦ والطبري: تاريخ ج٢ ص٣٣٦.
(٤) المقريزي: إمتاع الأسماع ج١ ص ٤٥ وابن هشام: السيرة النبوية ج١ ص٢٠٥ – ٢٠٨.
(٥) الطبري: تاريخ.. ج٢ ص٣٤٩.
(٦) ابن هشام: السيرة النبوية ج١ ص١٩٢ – ١٩٣.

فهل هكذا يمكن أن يؤثر فيهم شخص مصروع أو متهيج؟

- وعندما سأل رجل من هذيل أبا جهل: "أما تخرجونه من أرضكم؟ فقال: لئن خرج من بين أظهرنا فسمع كلامه وحلاوة لسانه قوم أحداث ليتبعنه، ثم لا نأمن من أن يكر علينا بهم"[١].

إن هذا التخوف من أبي جهل يؤكد أنه لا يرد وحي النبي إلى جنون أو صرع، لسبب جوهري هو أن الشخص المريض المبتلى بالصرع لا يستطيع أن يحوز ما تخوف منه أبو جهل.

- وعلى صلة بهذا كذلك؛ فإن أبا سفيان القائد السياسي والعسكري الذي قاد عدة حروب ضد النبي ﷺ يجيب هرقل بمدينة (إيلياء)[٢] عن أسئلته بشأن النبي[٣] فلا يأتي على ذكر شيء له أدنى صلة بإصابة النبي بمرض من هذا القبيل[٤]. ولو كانت لدى أبي سفيان ذرة من شك أو أدنى شبهة في احتمال إصابته ﷺ بشيء من هذا لما كان أفضل من هذه الفرصة ليشنع بها عليه، مطمئنًّا أن رفاقه لن يكذبوه بهذا مادام هناك ثمة شبهة.

- كما أن وصف النبي بهذا المرض لم يَرِد من بين الأسباب التي أعلن المشركون أنها وراء عدم إيمانهم بالنبي:

أ - فهذا أبو جهل يبين أن سبب امتناعه عن متابعة النبي هو الاعتراض على أن يحوز بنو عبد مناف هذا الشرفَ؛ فيقول: "تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرفَ: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا

---

(١) البلاذري أنساب الأشراف ج١ ص١٢٨.

(٢) في الفترة بعد صلح الحديبية عام ست وفتح مكة عام ثمان من الهجرة.

(٣) الحديث في البخاري بشرح ابن حجر ج١ ص٣٢ رقم (٦).

(٤) لا يمنع كون هذه الحادثة في السنة السادسة وقبل الثامنة من الهجرة من أن أوردها هنا لأن شهادة أبي سفيان كما كانت تصف حاضر النبي كانت كذلك تستدعي ماضيه.

نبي يأتيه الوحي من السماء؛ فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه"[١].

كما كان معترضًا على سبق الضعاف لمتابعته ﷺ؛ يقول: "لو كان دينه خيرًا ما سبقتنا إليه زنيرة! أفتسبقنا زنيرة إلى رشد؟"[٢].

ب- وكان سبب امتناع أمية بن أبي الصلت عن متابعته هو أنه قد أشاع بين جليساته من نساء قبيلته أنه هو النبي المنتظر؛ فماذا يكون موقفه أمامهن لو صدَّق محمدًا؟

يشهد بذلك أحد أصدقائه القدامى وهو أبو سفيان بن حرب حيث روى الطبراني[٣] من حديث معاوية بن أبي سفيان عن أبيه أن أمية بن أبي الصلت قال له: إني أجد في الكتب صفة نبي يبعث من بلادنا، وكنت أظن أني هو، ثم ظهر لي أنه من بني عبد مناف؛ فنظرت فلم أجد فيهم من هو متصف بأخلاقه إلا عتبة بن ربيعة. إلا أنه جاوز الأربعين ولم يوح إليه، فعرفت أنه غيره. قال أبو سفيان فلما بعث محمد قلت لأمية عنه فقال: أما إنه حق فاتبعه. فقلت له: فأنت ما يمنعك؟ قال: الحياء من نسيات ثقيف أنِّي كنت أخبرهن أني هو؛ ثم أصير تبعًا لفتى من بني عبد مناف".

ج- وأعلن الوليد بن المغيرة أن يُتْمه ﷺ وقلة ما بين يديه من مال كانا السبب وراء عدم إيمانه؛ فلقد تمنى نزول القرآن على رجل من أهل مكة أو الطائف أو أمية بن خلف أو على رجل من ثقيف؛ فأنزل الله:﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ج١ ص١٩٣.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ج١ ص١٩٦.

(٣) المعجم الكبير ج٨ ص٥ رقم (٧٢٦٢)، وابن حجر: الفتح ج٦ ص٥٨٣ والإصابة ج١ ص٢٤٩ رقم (٥٥٢).

بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[1].

د- كما أشارت بعض آيات الكتاب العزيز إلى شروط وضعها بعض المشركين لإيمانهم؛ ولما لم تتحقق فإنهم امتنعوا عن الإيمان. ولم يُشَر فيها إلى مرض ألَم بالنبي؛ قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[2].

تبين هذه المواقف والنصوص إذن بعض أهم الأسباب التي أعلنها المشركون كمبرر لعدم اتباعهم النبي ﷺ.

ولقد أشار القرآن إلى ذلك فقال: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[3].

ولم يعلن واحد منهم أنه لا يؤمن بمحمد لأنه مريض بالصرع أو التهيج أو أي مرض نفسي!!

هـ- وكان للصداقات القديمة والروابط الاجتماعية دورها كذلك في عدم إيمان بعضهم؛ فلقد أسلم أبي بن خلف وارتد؛ لأن صديقه القديم عقبة بن أبي معيط قال له: وجهي من وجهك حرام إن لم تكفر به وتتفل في وجهه"[4].

(١) الزخرف: ٣١-٣٢، وراجع في هذا البلاذري أنساب ج١ ص١٢٨.
(٢) الإسراء: ٩٠-٩٣.
(٣) الأنعام: ٣٣.
(٤) البلاذري: أنساب الأشراف ج١ ص١٣٧ - ١٣٨.

٢- ومجيء نفي مرضه ﷺ بصرع أو ما شابهه؛ مباشرًا وصريحًا يتضح من الآتي:

أ- قول زعيم مكي مشرك هو: النضر بن الحارث لقومه: "يا معشر قريش إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعدُ؛ قد كان محمد فيكم غلامًا حدثًا أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر، لا والله ما هو بساحر. لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم. وقلتم: كاهن؛ لا والله ما هو بكاهن؛ قد رأينا الكهنة وتخالجهم، وسمعنا سجعهم. وقلتم: شاعر؛ لا والله ما هو بشاعر؛ قد رأينا الشعر وسمعنا أوصافه كلها: هزجه ورجزه. وقلتم: مجنون؛ لا والله ما هو بمجنون؛ لقد رأينا الجنون؛ فما هو بخنقه[١] ولا وسوسته[٢] ولا تخليطه[٣]. يا معشر قريش فانظروا في شأنكم؛ فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم"[٤].

وقال الوليد بن المغيرة مثل ذلك، ونفى عن النبي الجنون فقال: "ما هو بمجنون؛ لقد رأينا الجنون وعرفناه؛ فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته"[٥].

ب- شهادة رجل من أزد شنوءة يدعى: ضمادًا؛ الذي قدم مكة (كما جاء في صحيح مسلم[٦] عن ابن عباس): "وكان يرقي من هذه الريح (أي من مس الجن) فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمدًا مجنون؛ فقال: لو

(١) انعصار الحلق المعجم الوسيط ج١ ص٢٦٩.

(٢) الوسوسة أحد معانيها: "مرض يختلط معه الذهن" و "الحديث بما لا نفع فيه ولا خير"، ووسوس فلان: "تكلم بكلام خفي لم يبينه" راجع المعجم الوسيط ج٢ ص١٠٧٥.

(٣) "اختلط عقله فسد" المعجم الوسيط ج١ ص٢٥٩.

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية ج١ ص١٧٩.

(٥) ابن هشام: السيرة النبوية ج١ ص١٦٣.

(٦) مسلم بشرح النووي المجلد ٢ ج٦ ص١٥٦ رقم (٨٦٨)، وابن حجر الإصابة ج ٣ ص٤٨٦ رقم (٤١٨١).

أنى رأيت هذا الرجل، لعل الله يشفيه على يدي!! قال (أي ابن عباس): فلقيه فقال: يا محمد إني أرقي من هذه الريح، وإن الله يشفي على يدي من شاء فهل لك؟ فقال رسول الله: «إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد». فقال (ضماد): أَعِدْ عليَّ كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله ثلاث مرات. فقال: لقد سمعتُ قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعتُ مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس البحر[1]؛ فهات يدك أبايعك على الإسلام، فبايعه".

***

انتهينا إذن إلى أن المشركين نَفَوْا أن يكون محمد ﷺ مصابًا بالصرع أو أي مرض آخر؛ وتراوح ذلك النفي بين أن يكون مباشرًا أو غير مباشر.

٣- ويتدعم هذا بما أراه من أن رمي النبي بالجنون لم يكن سلوك كل المشركين ضد رسول الله ﷺ؛ بل السفهاء وحدهم هم الذين فعلوا ذلك؛ وأنهم فعلوه بسبب الدين الجديد، وليس لسبب يتعلق بصفات النبي. وأنهم فعلوا ذلك لمدة وجيزة من المرحلة المكية لا جميعها.

أما كونه سلوك السفهاء وحدهم؛ فبالإضافة إلى ما قدمته من أقوال ومواقف؛ فإن ابن عباس ينسب وصف النبي بذلك في حديث ضماد المذكور إلى (سفهاء من أهل مكة). فليس الأمر إذن كما زعم نولدكه حين ادعى أن معظم أبناء شعب النبي الحصفاء رموه بهذه التهمة؛ قال[2]:

"Wenn nun Muhammed unter seinen nüchternen Landsleuten dergleichen Offenbarungen vortrug, so konnte es nicht ausbleiben,

(١) أي قعره الأقصى.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٧٦.

daß er von den meisten für einen Wahnsinnigen oder für einen Lügner gehalten wurde. Man nannte ihn einen übergeschnappten Poeten, einen mit den Ginnen verbündeten Wahrsager oder einen Besessenen (magnun).

Diese Ansichten, von deren letzterer er anfangs wohl selbst nicht ganz frei war, mußte er natürlich mit aller Gewalt der Rede bekämpfen, nachdem er sich unzweifelhaft als Gesandten Gottes erkaunt hatte".

"عندما ألقى محمد مثل هذا القرآن أمام أبناء شعبه الحصفاء، كان من المنتظر أن يعده معظمهم، إما مجنونًا، أو كذابًا. لقد دُعي شاعرًا مُلتاثَ العقل، أو عرافًا له حليف من الجن، أو مجنونًا. ولم يكن محمد في البداية خلوًا من هذه الآراء خاصة الأخير منها[١]. ومن الطبيعي أنه كان عليه[٢] أن يقاوم هذا الكلام بكل عنف بعد أن تكشّف له بغير شك أنه رسول الله".

إن السفهاء وحدهم هم الذي نحوا هذا المنحى. وأما كونهم فعلوا ذلك بسبب الدين الجديد وليس لسببٍ يتعلق بصفات النبي الشخصية فلأنه ثبت أن من كان يدخل في الإسلام كان يُتهم كذلك بالجنون وليس محمدًا ﷺ وحده؛ فقد اتهموا رفاعة بن رافع الأنصاري بذلك حين وفد إلى مكة، واقتنع بالإسلام قبل بيعة العقبة الأولى، وصاح عند الكعبة: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله؛ فاجتمع الناس عليه وقالوا: مجنون! رجل صبأ[٣].

(١) عالجت من قبل زعمه اعتقاد النبي في البداية أنه مجنون.

(٢) لم يكن النبي هو الذي قاوم هذه الدعوى، بل الذي قاومها هو الله في القرآن.

(٣) ففي الحديث أن رفاعة بن رافع خرج وابن خالته معاذ بن عفراء حتى قدما مكة يقول: فلما هبطنا من الثنية رأينا رجلًا تحت شجرة قبل خروج الستة الأنصاريين (يعني بيعة العقبة الأولى) فسلمنا عليه تسليم الجاهلية فرد علينا بسلام أهل الإسلام، وقد سمعنا بالنبي ﷺ فأنكرنا؛ فقلنا: من أنت؟ قال: «**انزلوا**»؛ فنزلنا، فقلنا: أين الرجل الذي يدعي ويقول ما يقول؟ فقال: «**أنا**»، فقلت: فاعرض عليَّ فعرض علينا الإسلام، وقال: «**من خلق السماوات والأرض والجبال؟**». قلنا: خلقهن الله؛ قال: «**فمن خلقكم؟**». قلنا: الله، قال: «**فمن عمل هذه الأصنام التي تعبدونها؟**». قلنا: نحن، قال: «**فالخالق أحق بالعبادة أم المخلوق؟ فأنتم أحق أن تعبدكم وأنتم عملتموها،**=

فاتهام النبي بالجنون من قيل سفهاء المشركين إذن لم تكن منطلقاته أسبابًا مُدعاة متعلقة بشخصه من تهيج أو غيره؛ بل بسبب ما جاء به من دين جديد؛ بدليل أن الاتهام بالجنون شمل هذا الصحابي أيضًا.

وأما كونه لمدة وجيزة من المرحلة المكية لا جميعها؛ فلأن القراءة الزمنية لآيات القرآن التي ردت على المشركين اتهامَهم النبي بالجنون تدعم الرأي بأن ذلك الاتهام تردد لمدة وجيزة من المرحلة المكية لا جميعها ولنبين ذلك:

إن الآيات المذكورة ست عشرة آية؛ ينتمي ثلاث عشرة آية منها[1] لسور نزلت - حسب تقسيم نولدكه[2] - في أوائل الفترة المكية وأواسطها:

فالآيات ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾ و﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ﴾ و﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ و﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ﴾ و﴿كَذَٰلِكَ مَآ

= والله أحق أن تعبدوه من شيء عملتموه؛ وأنا أدعو إلى عبادة الله وشهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وصلة الرحم وترك العدوان بغصب الناس». قلنا: لا والله لو كان الذي تدعو إليه باطلًا لكان من معالي الأمور ومحاسن الأخلاق؛ فأمسِك راحلتنا حتى نأتي بالبيت. فجلس عنده معاذ ابن عفراء. قال: فجئت البيت فطفت وأخرجت سبعة أقداح فجعلت له منها قدحًا فاستقبلت البيت فقلت: اللهم إن كان ما يدعو إليه محمد حقًّا فأخرج قدحه سبع مرات فضربت بها فخرج سبع مرات فصحت: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فاجتمع الناس علي وقالوا: مجنون، رجل صبأ. قلت: بل رجل مؤمن. ثم جئت إلى أعلى مكة فلما رآني معاذ قال: لقد جاء رفاعة بوجه ما ذهب بمثله فجئت وآمنت وعلمنا رسول الله ﷺ سورة يوسف و﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ ثم خرجنا راجعين إلى المدينة.. المستدرك ٤/ ١٦٥ رقم (٧٢٤١). قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(١) والآيات التي عنت بهذا الشأن في الطور المكي الثالث (من ٧ - ١٣ للبعثة) لم تكن سوى ثلاثة؛ وهي: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾ و﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ و﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ (سبأ: ٨، الأعراف: ١٨٤، سبأ: ٤٦).

(٢) ولقد اعتمدت في هذا التحديد الزمني على نولدكه ذاته (راجع ملحق هذا الجزء) والإتقان ص١٢، ١٤.

﴿أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾، ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾[(1)]؛ تنتمي لسور يقول نولدكه إنها نزلت في الطور المكي الأول الذي يحدد له الفترة من ١-٥ للبعثة.

والآيات: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ﴾ و﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجۡنُونِۭ﴾، ﴿أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾، ﴿ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ﴾، ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ﴾، ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ﴾، ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ﴾[(2)]؛ تنتمي لسور يقول نولدكه إنها نزلت في الطور المكي الثاني الذي يحدد له الفترة ٦، ٧ من البعثة.

فماذا يعني هذا؟ إنه يعني أن اتهام محمد ﷺ بالجنون من قبل السفهاء من مشركي مكة بدأ يتلاشى شيئًا فشيئًا مع مرور الوقت. وبالتوازي مع هذا كثرت الآيات التي تدفع الاتهام عن النبي في بداية العهد المكي ثم قلت في وسطه.

وحتى لو كان كل المشركين قالوا عن رسول الله مجنون؛ فهل يجوز منهجيًا أن يُتخذ قول أعداء رسول الله: (إنه مجنون) دليلًا على دعوى نولدكه أنه كان مصابًا بنوبات صرعية؟ إن ادعاء المشركين المذكور هو في حد ذاته بحاجة لدليل؛ فبأي منطق يصيره نولدكه دليلًا؟ أم أن المنطق يطاح به إذا تعلق الأمر برسول الله كما جرت العادة؟

ثم أين هو النبي أو الرسول الذي لم يتهمه قومه بالجنون أو أي شيء آخر يشين؟ قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾[(3)]

(١) ومواضع هذه الآيات: القلم: ٥١، التكوير: ٢٢، القلم: ٢، الطور: ٢٩، الذاريات: ٣٥، ٥٢. مع ملاحظة أن الآية الأخيرة وإن كانت تتناول ما قيل عن موسى عليه السلام إلا أنها تستحضر مما هوجم به ذلك النبي الكريم ما يواسي محمدًا ﷺ الذي يواجه نفس الافتراء؛ لذا ينظر إليها في السياق أعلاه.

(٢) ومواضع هذه الآيات: الحجر: ٦، الصافات: ٣٦، المؤمنون: ٧٠، الدخان: ١٤، الشعراء: ٢٧، القمر: ٩، المؤمنون: ٢٥. مع ملاحظة أن الآيتين الأخيرتين تتناولان ما قيل عن نوح عليه السلام، لكنهما يوضعان في سياق موضوعنا لذات السبب الذي بينته في الهامش السابق.

(٣) الذاريات: ٥٢، ٥٣.

وإذا لم يكن في القرآن لنولدكه الغَنَاءُ في إثبات عموم مواجهة الرسل بهذه التهمة؛ ألم يرد في سفر أعمال الرسل[1] من العهد الجديد أن المستهزئين اتهموا بالسُّكْر من حل عليهم الروح القدس، حسب السفر المذكور؟

لقد جاء فيه: "وامتلأ الجميع من الروح القدس، وابتدءوا يتكلمون بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا. فلما صار هذا الصوت اجتمع الجمهور وتحيروا.. وكان هناك آخرون يستهزئون قائلين: إنهم قد امتلئوا سلافة فوقف بطرس.. وقال إن هؤلاء ليسوا سكارى كما أنتم تظنون".

* * *

لقد تحدثنا فيما سبق عن مواقف للمشركين قبل الهجرة تبينا منها أنهم نفوا إما بشكل مباشر أو غير مباشر أن يكون محمد ﷺ مريضًا بشيء مما ادعاه المستشرقون؛ والآن نتناول لهذا أيضًا أدلة عملية قدمها المؤمنون الأوائل:

١- قريب مما قلناه عن أبي طالب، نقول عن حمزة بن عبد المطلب عم النبي. لكن نضيف بشأن حمزة أنه أسلم؛ حيث رفع إسلامه واتِّبَاعُه محمدًا ﷺ من قيمة الاستدلال بموقفه على عدم وجود مرض نفسي يقف وراء دعوى محمد ﷺ نزول الوحي عليه.

فهو عمه المطلع على أحواله؛ فلو كان محمد ﷺ حقًّا مصابًا بما رماه به هؤلاء الكاذبون لحالت منزلة حمزة ومكانته من متابعة محمد في دعواه؛ ولكان له مع ابن أخيه شأن آخر ليعود به إلى مرفأ الصحة والعافية...

وكذلك شأن بعض (أبناء عمه الحارث بن المطلب) الذين آمنوا به، وهم: عبيدة؛ (وكان أسن من النبي بعشر سنين)، وأسلم قبل دخول دار الأرقم، و(الطفيل) الذي هاجر وشهد بدرًا، و(الحصين)[2].

(١) ٢: ٢-١٩.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٣ ق١ ص٣٤، ٣٥.

٢- ولو اقتصر أمر المتابعة على قرابة النبي المذكورين؛ لأمكن لقائل أن يدعي أنهم تغاضوا عما وجدوا من مرض مدفوعين بدافع العصبية؛ لكن شاء الله أن يتأسس الإيمان بمحمد في الفترة المكية على قاعدة مجتمعية عريضة.

وهي إن كانت قليلة العدد إلا أنها شملت كافة شرائح المجتمع المكي فلم يكن اتِّبَاعُه ﷺ مقتصرًا على فئة اجتماعية أو عصبية بعينها؛ كما لم يكن خاصًّا بمرحلة عمرية واحدة؛ فقد تبعه "الأحرار والعبيد والرجال والنساء الشباب والشيوخ والفتيان"[(١)].

وابن هشام[(٢)] يأتي إلى الذين هاجروا إلى الحبشة بهدف التمكين للدين فينسبهم إلى قبائلهم فإذا هم من سائر القبائل: بني هاشم، وبني مخزوم بن يقظة، وبني أمية، وبني عبد شمس بن عبد مناف، وبني نوفل بن عبد مناف، وبني تيم بن مرة، وبني عدي بن كعب، وبني زهرة بن كلاب، وبني جمح بن عمرو، وبني سهم بن عمرو، وبني أسد بن خزيمة، وبني عامر بن لؤي، وبني الحارث بن فهر، وبني عبد الدار، وهذيل، وبهراء.

وكان الأمر بحيث "انضم لهذا المجتمع أفراد من شتى الفروع من قريش وغيرها... فلا تكاد تخلو عشيرة في مكة من شخص أو اثنين"[(٣)] أو أكثر ممن اتبعوا رسول الله محمدًا ﷺ...

وأتساءل: هل كان هؤلاء بحال من الغفلة لأن يسلموا قيادهم لرجل يدعي عليه نولدكه وزملاؤه زورًا وكذبًا مرضًا نفسيًّا؟

٣- ثم يكون من بين هؤلاء المتَّبعين محمدًا من بدايات العهد المكي عدد من ذوي المكانة في مجتمعهم مثل أبي بكر الذي يقول ابن إسحاق عنه[(٤)] "وكان أبو بكر

(١) منير محمد الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية ج١،٢ ص٢٤.
(٢) ابن هشام السيرة النبوية ج١ ص١٩٧ - ٢٠٣.
(٣) منير محمد الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية ج١،٢ ص٢٤.
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص١٥٥.

رجلًا مألفًا لقومه، محببًا، سهلًا. وكان أنسب قرشي لقريش، وأعلم قرشي بها، وبما كان فيها من خير أو شر. وكان رجلًا تاجرًا، ذا خلق ومعروفًا، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر: لعلمه، وتجارته، وحسن مجالسته". مثل: عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله وعمر بن الخطاب...وغيرهم.

فهل يمكن أن ينخدع هؤلاء لرجل مريض، ثم يفهموا جميعًا أن أعراض مرضه ليست سوى وحي الله ثم ينقادون له، ويأتي نولدكه ويكتشف لهم أنهم وقعوا ضحية لمهتاج مريض النفس؟

٤- ويكون من بين الذين تابعوه برضًا وحب كذلك عدد من أبناء القرشيين الكبار:

فلقد أسلمت أم حبيبة: رملة بنت أبي سفيان، وهاجرت إلى الحبشة.

وأسلم من أولاد سهيل بن عمرو ابنته: سهلة، وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة، وابنته أم كلثوم، وهاجرت للحبشة، وكذلك أسلم ابنه عبد الله، وأسلم أخوه أبو حاطب بن عمرو[١].

كما أسلم عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية، وامرأته فاطمة بنت صفوان بن أمية، وأخوه خالد بن سعيد بن العاص، وهاجر إلى الحبشة، وكان خامس أو سادس من أسلم[٢].

ولعل من المفارقات العجيبة، التي ترد معنا هنا، أن عتاة المجرمين الذين كانوا يعذبون المسلمين أو يستهزئون بهم، قد أسلم إخوتهم أو أبناؤهم:

فلقد "أسلم الوليد بن الوليد بن المغيرة، وسلمة بن هشام (أخو أبي جهل)، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة"[٣]، وارتضى هذا الأخير أن يهاجر إلى الحبشة مع زوجته سهلة بنت سهيل بن عمرو.

(١) ابن عبد البر: الدرر ٤٧، وانظر ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٣ ق١ ص٢٩٦.

(٢) ابن عبد البر: الدرر ص٤٠، ٥١، والاستيعاب ص١٩١، وابن هشام السيرة النبوية ج١ ص١٩٨.

(٣) ابن عبد البر: الدرر ٤٧.

كما أسلم فراس بن النضر بن الحارث، وهشام بن العاص بن وائل، وهاجروا جميعا إلى الحبشة سنة ٥ للبعثة؛ مما يؤكد أنهم كانوا من أوائل المسلمين[١].

ووجه الاستدلال بإسلام هؤلاء هنا هو أنه يغلب في العادة أن يتبع هؤلاء آباءهم وعائلاتهم للمحافظة على مصالحهم وأوضاعهم الاجتماعية إلا إذا قام لديهم دافع قوي للغاية يجعلهم يضحون بكل ذلك؛ فهل يجد باحثٌ ناقد أن اتِّباعَ شخص غير سوي فيما يقول؛ يمكن أن يكون هو هذا الدافع الذي يجعل أمثال هؤلاء يضحون بكل شيء من أجل الإيمان به لدرجة ترك الوطن والأهل؟

٥- ولقد قبل أوائل الداخلين في الإسلام:

أ- الابتلاء في أنفسهم بنفس راضية واحتساب، يُذَكِّرُنا بنظيره بين أتباع الرسل[٢].

---

(١) ابن عبد البر: الدرر ٥١، ٥٢، ٥٣.

(٢) حاول نولدكه أن ينكر تعرض أوائل الداخلين في الإسلام للتعذيب من قبل المشركين وادعى أنها قد بولغ في وقائعها فقال (تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٤ هامش ١):

"Freilich darf man ja nicht allen Nachrichten über seine vor der Auswanderung erlittenen Verfolgungen glauben. Schwerlich durften seine Feinde je bis zu körperlichen Mißhandlungen gehen, denn dann hätte es die Ehre seiner Beschützer und aller Banu Hasim, der gläubigen wie der ungläubigen, gefordert. Rache zu nehmen. Auch die Berichte über Mißhandlungen seiner schutzlosen Anhänger sind gewiß vielfach übertrieben"

وترجمته:

"غير مسموح لنا بالطبع أن نصدق كل الروايات عن الابتلاءات التي تعرض لها محمد قبل الهجرة؛ إذ من العسير على أعدائه أن يكونوا تمادوا إلى حد الإساءة الجسدية؛ لأن هذا لو حدث لحمل المدافعين عنه وبني هاشم كلهم -مؤمنين وغير مؤمنين- إلى الثأر دفاعًا عن شرفهم. كما أن المرويات عن الاضطهادات التي نالت أتباعه العزل قد بولغ فيها إلى حد كبير".

لكنه تناقض مع نفسه حين عاد فاعترف بما حاول أن ينكره. فعند حديثه عن الآية ١٠٨ من سورة النحل: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ قال (تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٤٨):

Alle anderen aber beziehen ihn mit Recht auf die Muslime ohne Vermögen und Ansehen, welche vor der Higra vielen Belästigungen seitens der Mekkaner ausgesetzt waren

=

فهذا عثمان بن مظعون عندما رد جوار الوليد بن المغيرة ظل المشركون يضربونه حتى فقد إحدى عينيه، فقال له الوليد في شماتة: ما كان أغناك عن هذا؟ فقال: إن عيني الأخرى لفي حاجة إلى ما نال هذه، فقال له: هل لك أن تعود إلى جواري؟ فقال: لا أعود إلى جوار غير جوار الله"[١].

وهذا النبي جالس في أصحابه، ويدخل مصعب عليه قطعة نَمِرَة قد وصلها بإهاب قد رَدّنَه، ثم وصله إليها... فقال النبي: الحمد لله لتقلب الدنيا بأهلها، لقد رأيت هذا: يعني مصعبًا، وما بمكة من فتى من قريش أنعم عند أبويه نعيمًا منه، ثم أخرجه من ذلك الرغبة في حب الله ورسوله"[٢].

وهذا بلال بن رباح، الذي يصبر على ما ناله من تعذيب بسبب اتباعه محمدًا فقد كان "أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، فيقول: أحد أحد"[٣].

وهؤلاء آل ياسر، حيث قُتِلت الأم، وعذب الأب والابن، تعذيبًا فوق طاقة البشر[٤]..

فمَن يستطيع أن يدعي أن تضحياتهم كانت اتباعًا لرجل مريض نفسيًّا.

كما قابل أوائل المسلمين ما فرض عليهم من حصار في شعب أبي طالب فترة طويلة من ٧ - ١٠ للبعثة.. قابلوه بالصبر على الحرمان والقطيعة مع

= وترجمته:
"كل الروايات تربطها بحق بالمسلمين الذين لا يملكون القوة والجاه وأخضعوا قبل الهجرة من قبل المكيين لابتلاء كبير".

(١) راجع ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٢ ص٥٣.
(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٣ ق١ ص٨٢.
(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ج١ ص١٩٤.
(٤) ابن هشام: السيرة النبوية ج١ ص١٩٦.

بيوتهم وقبائلهم. وشارك الجميع في تحمل ذلك إلى جانب رسول الله؛ بما فيهم أبو بكر الذي كان متقدم الإسلام، وعمر وحمزة بن عبد المطلب [1].

فهل يمكن أن يكون كل هذا الاحتمال من أناس عقلاء لم يستطيعوا أن يفهموا أن الذي عند محمد ﷺ لم يكن سوى مرض لا علاقة له بالوحي؟

ب- كما قبل كثيرون منهم التضحية بترك الوطن؛ فهل يمكن أن يقبل عاقل أن يقوم ثلاثة وثمانون [2] مسلمًا - من بيئة قبلية يعز عليها ترك الوطن والقبيلة - بالهجرة إلى الحبشة، تمكينًا لدينهم، ثم يهاجر كل المسلمين فيما بعد إلى المدينة، لذات الهدف، ويأتي نولدكه ليكتشف لهم أن تضحيتهم كانت من أجل حالات تهيج أو صرع اعترت رجلًا مصروعًا؟ حاشا أن يوصف رسول الله بما يدعيه.

ج- كما ضحى أغنياؤهم بالمال أيضًا؛ فهذا أبو بكر يبعث النبي وعنده أربعون ألف درهم، فكان يعتق منها، ويقوي المسلمين حتى قدم المدينة بخمسة آلاف درهم، ثم كان يفعل فيها ما كان يفعل بمكة" [3]. والذين أعتقهم هم: بلال، وعامر بن فهيرة، وأم عبيس، وزنيرة، والنهدية، وابنتها، وجارية بني مؤمل [4]".

انتهينا إذن إلى أن إيمان أوائل المؤمنين بمحمد ﷺ في مكة دليل عملي على شخصيته السوية، وامتناع أن يفسر وحي الله إليه بأنه أثر لصرع أو تهيج أو أي مرض نفسي آخر.

---

(١) وجعل الطبري (التاريخ ج٢ ص٣٣٥) إسلام حمزة قبل إسلام عمر وإسلام حمزة وعمر قبل الحصار.

(٢) كان الذين هاجروا إلى الحبشة أول مرة أحد عشر رجلًا وأربع نسوة وذلك في رجب سنة ٥ من البعثة (ابن سعد: الطبقات الكبرى ج١ ق١ ص١٣٦ - ١٣٧). وكان جملة من هاجر في المرتين ثلاثة وثمانين رجلًا (ابن هشام: السيرة النبوية ج١ ص٢٠٣).

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٣ ق١ ص١٢٢.

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية ج١ ص١٩٥ - ١٩٦.

وأتساءل **الآن**:ما موقف نولدكه من دليلنا هذا؟

إن تفسير نولدكه وحي الله إلى محمد ﷺبافتراضه أنه كان يعاني من الصرع أو أي مرض نفسي آخر وكان شعوره بالوحي عرضًا لهذا المرض؛ هذا التفسير يستلزم أن يفترض كذلك أن أوائل الداخلين في الإسلام الذين سبقت الإشارة إليهم لم يكونوا سوى مجموعة من البله والمجانين!

لكن نولدكه فوق كونه لم يجرؤ على أن يقول هذا؛ فإنه اعتمد على نقيضه ليثبت أن محمدًا ﷺلم يكن مهرجًا أو مازحًا في دعواه النبوة؛ يقول[1]:

"لو كان محمد مجرد مهرج *Gaukler*، فهل كان يسانده في السراء والضراء، مع ولاء مطلق، كثير من المسلمين النبلاء *edle* والعقلاء؛ وبخاصة صديقاه القريبان منه أبو بكر وعمر؟ ترتفع بشكل خاص قيمة شهادات عديد من أتباعه بوصفهم رجالًا من عائلات مرموقة نشئوا في نسب رفيع بين العرب الأرستقراطيين؛ وعن حماس للنبي وتعاليمه انضموا لطائفته التي كان أكثرها عبيدًا *Sklaven*، أو عتقاء *Freigelassenen*، أو أناسًا آخرين ذوي طبقة دنيا، وكانوا يَعرفون أن ذلك يُعد من وجهة نظر مواطنيهم عارًا عليهم".

فإذا كان نولدكه يتخذ من مساندة وولاء المسلمين النبلاء والعقلاء للنبي دليلًا على صدقه وأنه لم يكن مهرجًا.. ألا يعد ذلك في حد ذاته دليلًا على أن هؤلاء النبلاء كذلك يستطيعون أن يتبينوا أن وحيه ﷺلم يكن تنفيسًا عن نوبات صرع أو تهيج، وإلا لما كانوا عقلاء؟

وألَا يُعد نولدكه بإصراره على خطئه في تفسير الوحي المحمدي برغم قوله بتلك المساندة؛ متناقضًا مع نفسه حين يجعل هؤلاء يتعايشون طيلة هذه المدة الطويلة مع صرع يزعمه للنبي؟

لقد كان بإمكانه – لو أراد – أن يهتدي بهذا الدليل إلى ما اهتدينا إليه ويهتدي إليه كل

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٣.

منصف من أن إيمان أوائل المؤمنين بمحمد ﷺ في مكة وبذلهم وتضحيتهم وصبرهم على الابتلاء مع تعدد خلفياتهم الاجتماعية والقبلية يقدم عدة أدلة عملية على امتناع أن يكون شخص محمد المعصوم ﷺ مصابًا بأي شيء مما ادعاه نولدكه أو غيره من صرع أو تهيج أو أي مرض نفسي آخر. لكن هكذا أراد لنفسه.

* * *



المبحث الثاني
ردود الأفعال إزاء وحي النبي بعد الهجرة

من خلال رصدنا لبعض مواقف المشركين والمؤمنين بعد الهجرة إزاء وحي الله لنبيه ﷺ؛ نستطيع أن نقدم ما ينفي احتمال طرح مسألة صرع النبي أو إصابته بأي مرض نفسي كتفسير لدعواه الوحي:

أولًا: بشأن ردود أفعال المشركين وأهل الكتاب؛ نجد:

١- أن يهود المدينة رغم عداوتهم الشديدة للنبي، إلا أن واحدًا منهم لم يرم رسول الله بمثل هذا. كما لم يذكر واحد منهم أن ما يمنعه عن الإيمان بالنبي هو مرضه بالصرع؛ بل كانت أسباب امتناعهم عن الإيمان به راجعة إليهم لا إلى النبي، وسنفصلها في الجزء الثالث من هذه الدراسة.

لكن نذكر هنا أن كون جبريل عليه السلام هو الذي ينزل على رسول الله بالوحي كان أحد الأسباب التي منعتهم من الإيمان بالنبي؛ قال بعضهم للنبي: "... إنما بقيت واحدة، وهي التي نبايعك إن أخبرتنا بها، فإنه ليس من نبي إلا له ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا مَن صاحبك؟ قال: «**جبريل عليه السلام**». قالوا: جبريل؟؟! ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب؛ عدونا؛ لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر لكان. فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ إلى آخر الآية[1]

٢- نجد أن عددًا ممن بقي على قيد الحياة ممن كانوا قادة في عدائهم لمحمد ﷺ قد تخلوا عن عداوته في النهاية واعترفوا بخطئهم واتبعوه:

---

(١) مسند الإمام أحمد ج١ ص٢٧٤ رقم (٢٤٨٣).

أ- فنجد عمرو بن العاص الذي حارب النبي كثيرًا ينتهي به الأمر لأن يسلم في أول صفر سنة ٨ من الهجرة ثم يقول: (قد رأيتني ما من الناس من أحد أبغض إلي من رسول الله، ولا أحب إلي من أن أستمكن منه فأقتله؛ فلو مِتُّ على تلك الطبقة لكنت من أهل النار). وعند إسلامه يقول للنبي: (أردت أن أشترط)، فقال: «**تشترط ماذا؟**». قال: (أشترط أن يُغفر لي!). فقال له النبي: «**أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله**»[(١)].

ب- ونجد سهيل بن عمرو، الذي كان يحارب رسول الله، وأوثقَ ابنه عبد الله الذي أسلم، وحاول فتنته عن دينه، وقام خطيبًا على النبي في مواطن كثيرة، وهو الذي مَثَّلَ المشركين في التفاوض في الحديبية، ورفض أن يفتتح الوثيقة بالبسملة أو يَكتب فيها: "محمد رسول الله"؛ هذا الرجل يُسلم، وعندما يموت ابنُه المذكور شهيدًا في سنة ١٢هـ ويعزيه أبو بكر فيَرُدُّ عليه: لقد بلغني أن رسول الله قال: يشفع الشهيد لسبعين من أهله فأنا أرجو ألا يبدأ ابني بأحد قبلي"[(٢)].

ج- وهذا عروة بن مسعود الثقفي من سادات ثقيف، وأرسلته قريش للنبي مفاوضًا عام الحديبية، وذهب إلى جُرَش (بالأردن حاليًا) يتعلم صنعة المنجنيق والدبابات (حسب تعبير ابن سعد) وعاد فنصبهما في الطائف ليحارب النبي، وأعَدَّ للقتال، ثم ألقى الله في قلبه الإسلام وغَيَّره عما كان عليه فأسلم، ثم استأذن رسول الله في أن يذهب لقومه يدعوهم إلى الإسلام، فقال النبي: «**إنهم إذًا قاتلوك**». فقال له: لَأنا أحبُّ إليهم من أبكارِ أولادهم. ثم استأذنه الثانية ثم الثالثة فقال له النبي: «**إن شئت فاخرج**». فخرج؛ فدعا قومه إلى الإسلام، ولما طلع الفجر أَوْفَى على غرفة له فأذن بالصلاة، فخرجت ثقيف من كل ناحية فرماه رجل فأصاب أكحله[(٣)] فقام

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٤ ق٢ ص٦.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٣ ق١ ص٢٩٦.

(٣) وريد في وسط الذراع. المعجم الوسيط ج٢ ص٨٠٩.

البعض ليثأروا له ولبسوا السلاح؛ فقال: تصدقتُ بدمي إلى صاحبه وهي كرامة أكرمني الله بها وشهادة ساقها الله إليَّ، ادفنوني مع الشهداء الذين ماتوا مع رسول الله[1]. ومات فدفنوه معهم، وبلغ رسول الله خبره فقال: «**مثله كمثل صاحب ياسين دعا قومه إلى الله فقتلوه**»[2].

د- كما أسلم خالد بن الوليد في أول صفر سنة ٨هـ بعد مشاركته في عدة غزوات ضد المسلمين وقال النبي: «**قد كنت أرى لك عقلًا رجوت ألا يُسْلِمَك إلا إلى خير**». وبايع النبي، وقال: (استغفر لي كل ما أوضعت فيه من الصد عن سبيل الله). فقال النبي: «**إن الإسلام يجب ما كان قبله**»[3].

وغير هؤلاء كثير: عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وأبو سفيان بن حرب، وزوجته هند، ووحشي بن حرب، وهما قاتلا حمزة عم النبي، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح... إلخ.

فهل يمكن أن يصدر من باحث جاد: أن في إمكان مريض نفسيًّا أن يكون سببًا في مثل هذا التحول العجيب في النفس البشرية؟

٣- ويأتي في هذا السياق أيضًا إيمان عدد من أهل الكتاب بعد الهجرة برسول الله ﷺ.

فلقد أسلم منهم عبد الله بن **سلام**، أحد كبار أحبارهم، بعد أن عرف رسولَ الله بصفته واسمه وزمانه... ودَعا عمته: خالدة بنت الحارث، وأهل بيته فأسلموا[4].

كما أسلم مخيريق بن الفطيون، الذي كان من أحبار يهود بني ثعلبة المتعنتين مع

---

(١) غالبًا يقصد الذين استشهدوا أثناء حصار ثقيف.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج١ ق٢ ص٥٢ - ٥٣.

(٣) ابن سعد: المصدر السابق ج٤ ق٢ ص١.

(٤) ابن هشام ج٢ ص٣٢٨، والبخاري (بشرح ابن حجر: ج٧ ص٢٧٢ رقم ٣٩٣٨) قصة إسلامه وكانت في بداية مقدم رسول الله المدينة، والبيهقي: الدلائل ج٢ ص٥٣٠.

الرسول[1]. وكان إسلام هذين في بداية مقدم النبي المدينة[2].

وأسلم يامين بن عمير، وأبو سعد بن وهب[3] من يهود بني النضير[4].

وأسلم ثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وأسد بن عبيد من بني قريظة[5]، وإن كان البيهقي في الدلائل[6] وابن اسحاق - وفقًا لما نقله ابن هشام[7] عنه - و ابن حزم[8] يقولون: إنهم من يهود بني هذل، أو هدل، من بني عم قريظة والنضير.

وأسلمت ريحانة بنت عمرو بن خنافة من بني قريظة[9] كذلك.

وأسلم محيصة بن مسعود، وأخوه حويصة[10].

وأسلمت صفية بنت حيي بن أخطب التي تزوجها النبي وكان أبوها من أشد اليهود

(١) أسلم يوم غزوة أحد حين قال لليهود: والله إنكم تعلمون أن نصر محمد عليكم لحق. قالوا: إن اليوم يوم سبت، قال: لا سبت لكم. ثم أخذ سلاحه فخرج حتى أتى رسول الله في أحد، وأوصى، وكان غنيًّا: إن قتلت هذا اليوم، فأموالي لمحمد يصنع فيها ما أراه الله، واستشهد بالفعل في المعركة، وكان رسول الله يقول: «**مخيريق خير يهود**». ابن هشام ج٢ ص٣٢٦- ٣٢٩ والطبري تاريخ ج٢ ص٥٣١.

(٢) قال المقريزي (إمتاع الأسماع ص ٦٢): "وأسس حينئذ مسجد قباء وأتاه عبد الله بن سلام فأسلم ثم أسلم مخيريق اليهودي".

(٣) أبو سعيد في فتح الباري.

(٤) ابن هشام السيرة النبوية ج٣ ص١٤٠، وابن حزم جوامع السيرة ١٤٥، وابن حجر: فتح الباري ج٧ ص٣٣١، وترجم لهما الأخير في الإصابة ج٧ ص١٧٣ رقم (١٠٠٠٣).

(٥) البيهقي: السنن الكبرى ج٩ ص١١٤ رقم (١٨٠٤٢)، وترجم لهم ابن حجر: الإصابة ج١ ص٥٢، ٨٠ رقم (١٠٠)، (١٠١)، (١٧٧).

(٦) ج٢ ص٨٠.

(٧) السيرة النبوية ج٣ ص١٧٤.

(٨) جوامع السيرة ١٥٣.

(٩) ابن هشام ج٣ ص١٧٩.

(١٠) ابن حزم جوامع السيرة ١٢٣. وورد ذكر محيصة في حديث للبخاري على أنه مسلم ج٣ ص١١٥٨ رقم (٣٠٠٢)، ويقول عنه ابن حجر الإصابة ج٦ ص٤٥ رقم (٧٨٣٠) إنه كان من يهود الأوس. كما ذكر حويصة في الإصابة ج١ ص٣٤ رقم (٥٣).

عداوة للنبي والمؤمنين.

كما أسلم غلام منهم عاده الرسول في مرض موته، ودعاه للإسلام فنظر إلى أبيه فقال له: أطع أبا القاسم(١).

كما أسلم من أولاد بني قريظة الذين كانوا صغارًا عند قتل آبائهم: عبد الرحمن بن الزبير، وعطية القرظي، ورفاعة بن شموئيل القرظي(٢). بالإضافة إلى بعض النصارى مثل: الجارود بن عمرو من بني عبد القيس(٣). وغيرهم.

ونقرر هنا أنه طبقًا لاستنتاج نولدكه السابق الذي انتهى فيه إلى أن إيمان أصحابه المكيين به دليل على صدقه وأنه لم يكن مهرجًا؛ فإن ولاء أصحاب الكتاب الأول واتِّبَاعَ عدد من المعاصرين منهم محمدًا، يعد دليلًا كذلك على أنهم كانوا يرون أن وحي النبي ﷺ لم يكن تنفيسًا عن نوبات صرع أو تهيج. ولا يمكن أن يكون كل هؤلاء تعرضوا لعملية خداع كبرى جعلتهم ينظرون إلى أعراض الصرع أو التهيج إلى أنها وحي من الله لمحمد ﷺ؟

ثانيًا: بشأن المؤمنين بعد الهجرة نجد أنهم قد قدموا عمليًّا عشراتٍ من أدلة النفي لهذا التفسير:

١- فلقد كان المسلمون والرسول في مقدمتهم على دراية بهذه النوعية من الأمراض؛ ثبت ذلك في:

أ- حديث المرأة التي جاءت النبي "فقالت إني أُصرَع وإني أتكشَّف، فادع الله لي، قال: «**إن شئتِ صبرتِ ولك الجنة وإن شئت دعوت الله أن يعافيك**». فقالت: أَصبِر، فقالت: إني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف، فدعا لها"(٤).

(١) البخاري بشرح ابن حجر ج٣ ص٢١٩ رقم (١٣٥٦)، وأبي داود: السنن ج٣ ص١٨١ رقم (٣٠٩٥).

(٢) ابن حزم: جوامع السيرة ١٥٤.

(٣) ابن حجر: الإصابة ج١ ص٤٤١ رقم (١٠٤٣).

(٤) البخاري بشرح ابن حجر ج١٠ ص١١٥.

ب- كما ثبت أن امرأة أتته بابن لها به جنة، فبرأ بدعاء رسول الله له[1]". وثبت كذلك أن رجلًا قال: يا رسول الله، إن ابني هذا به جنون، وإنه يأخذه عند غدائنا وعشائنا فيفسد علينا. فمسح رسول الله ﷺ صدره ودعا" فشفاه الله[2].

ج- كما سأل رسول الله رجلًا اعترف بالزنا قبل الحد: «**أبك جنون**»[3]؟ ليدرأ جنونه - إن كان - عنه الحد.

د- وعالج أحدُ أصحاب النبي ﷺ رجلًا مجنونًا موثقًا بالحديد كما جاء في الرواية، لأن أهله قالوا لذلك الصحابي: "إنا قد حُدثنا أن صاحبكم هذا (يقصدون رسول الله) قد جاء بخير؛ فهل عنده شيء يداويه؟ قال: «**فرَقيتُه بفاتحة الكتاب**». (قال وكيع ثلاثة أيام كل يوم مرتين) فبرَأ[4].

هـ- كما قال أبو هريرة: "لقد رأيتني وإني لأخِرُّ فيما بين منبر رسول الله ﷺ إلى حجرة عائشة مغشيًّا علي، فيجيء الجائي فيضع رجله على عنقي، ويرى أني مجنون، وما بي من جنون، ما بي إلا الجوع"[5].

٢- ثبت أن أصحابه كانوا مؤمنين به يقدرونه أعظم تقدير يمكن أن يُقدَّم لبشر؛ فهل يمكن لمريض بهذا المرض أن يحظى بهذه المكانة بين عقلاء أكفاء مرموقين في أقوامهم؟ وأمامنا شهادات من واقع أحوال الذين آمنوا به نتبين منها أن علامات الانقياد الطوعي والحب والفداء الصادرة من المؤمنين بعد الهجرة للنبي؛ لا يمكن أن تصدر منهم لشخص يعاني من نوبات صرعية أو تهيج؛ لأنه لم يثبت أنه حصل في الماضي لشخص ما في التاريخ، ولم نشاهد حصوله لأحد في الحاضر؛ ولذا فافتراضه في حالتنا هذه لا دليل عليه، ولا سابقة تشهد له.

---

(١) أوردت الحديث مختصرًا وهو بتمامه في مسند أحمد ج٤ ص١٧٣ رقم (١٧٦٠١).

(٢) أوردت الحديث مختصرًا وهو بتمامه في المصدر السابق ج١ ص٢٥٤ رقم (٢٢٨٨).

(٣) أوردت الحديث مختصرًا وهو بتمامه في مسلم بشرح النووي المجلد٤ ج١١ رقم (١٦٩٥).

(٤) أوردت الحديث مختصرًا وهو بتمامه في مسند أحمد ج٥ ص٢١٠ رقم (٢١٨٨٤).

(٥) البخاري بشرح ابن حجر ج١٣ ص٣٠٣ رقم (٧٣٢٤).

وعلى أية حال:

أ- فهذه شهادة عروة بن مسعود الثقفي التي قالها قبل إيمانه؛ فقد أرسلته قريش للنبي مفاوضًا قبيل صلح الحديبية؛ حيث "جعل يرمق أصحاب النبي بعينيه.. ولما رجع عروة إلى أصحابه قال: أي قوم!! والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إنْ رأيتُ ملِكًا قطُّ يعظمه أصحابُه ما يعظم أصحابُ محمد محمدًا؛ والله إنْ تنخم نُخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر[1] تعظيمًا له".

ب- ولنستمع كذلك إلى أبي سفيان قبل إيمانه؛ فقد قال لزيد بن الدثنة عندما وقع أسيرًا في أيديهم وصلبوه تمهيدًا لقتله: أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدًا عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإني جالس في أهلي فقال أبو سفيان: ما رأيت أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا"[2].

ج- وهذا عمر بن الخطاب يفضل أسامة بن زيد على ابنه عبد الله ويعلل ذلك بأنه كان أحب إلى رسول الله من ابنه[3]، ويقول للعباس: "والله لإسلامُك يوم أسلمتَ كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم لأن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب"[4].

(١) يعمقون النظر فيه وفي المعجم الوسيط (ج١ ص١٦٧): حد بصره إليه نظر إليه نظرة انتباه.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ج٣ ص١٢٧ وابن سعد: الطبقات ج٢ ق١ ص٤٠، وعند ابن حجر (الفتح ج٧ ص٣٨٤) في رواية أبي الأسود عن عروة فلما وضعوا فيه السلاح وهو مصلوب نادوه وناشدوه أتحب أن محمدًا مكانك قال: لا والله العظيم ما أحب أن يفديني بشوكة في قدمه".

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٤ ق١ ص٤٩.

(٤) الطبراني: المعجم الكبير ج٨ ص٩ رقم (٧٢٦٤)، أبو جعفر الطحاوي: شرح معاني الآثار ج٣ ص٣١٩، ابن كثير: التفسير ج٤ ص١١٥.

د- وأبو بكر يقول لعليّ: "والذي نفسي بيده لقرابةُ رسولِ الله أحب إلي أن أصل من قرابتي"[1]، ويقول: "والله لأن تخَطَّفَني الطير أحب إلي من أن أبدأ بأمر قبل أمر رسول الله"[2].

هـ- وهذا عمه حمزة بن عبد المطلب الذي استشهد في أحد ولا يجدون ثوبًا واحدًا كاملًا يكفنونه به[3].

و- ولما قال "عبد الله بن أبي ابن سلول: والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال له ابنه عبد الله بن عبد الله: والله لا تنقلب حتى تقر أنك الذليل ورسول الله العزيز؛ ففعل[4].

ز- وهذا أبو طلحة (وهو زيد بن سهل الأنصاري) "لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ، وأبو طلحة بين يدي النبي مُجَوِّبٌ عليه (مترس) بحَجَفَةٍ (أي بترس) له، وكان أبو طلحة رجلًا راميًا شديد النزع، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثًا، وكان الرجل يمر معه بجُعْبَةٍ من النبل فيقول: «**انثرها لأبي طلحة**».. ويشرف النبي ينظر إلى القوم فيقول أبو طلحة: بأبي أنت وأمي!! لا تشرف يصيبك سهم"[5].

ح- ولم يكن هذا الإيثار ميزة فردية لهذا الرجل؛ فهؤلاء خمسة من الأنصار كلهم استشهدوا بالفعل دفاعًا عن النبي في غزوة أحد حيث "قاتلوا دون رسول الله رجلًا ثم رجلًا حتى يقتلوا دونه"[6].

كما ترس أبو دجانة دون رسول الله، ووقع النبل في ظهره وهو منحن

(١) البخاري بشرح ابن حجر ج٧ ص٧٨ رقم (٣٧١٢)، ابن كثير: التفسير ج ٤ ص١١٥.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٤ ق١ ص٤٧.

(٣) المصدر السابق ج٣ ق١ ص٩.

(٤) سنن الترمذي ج٥ ص٤١٧ رقم (٣٣١٥) و قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

(٥) البخاري بشرح ابن حجر ج٧ ص٣٦١.

(٦) ابن هشام السيرة النبوية ج٣ ص٦٠.

عليه حتى كثر فيه النبل. وكذلك كان سعد بن أبي وقاص يرمي عن رسول الله[1].

ثم يقتل من المسلمين سبعون ليس منهم من المهاجرين سوى أربعة وسائرهم - كما يقول ابن سعد[2] - من الأنصار.

ط- ولم تكن تلك الفدائية بعيدة عن النساء فهذه "أم عمارة نسيبة بنت كعب الأنصارية تباشر القتال عن رسول الله حتى خلصت إليها الجراح منها جرح أجوف له غور[3].

ي- وهذا سعد بن الربيع يرسل له النبي - بعد أن انتهى قتال أحد - من يتفقده: «**أفي الأحياء هو أم في الأموات؟**». فإذا به يعاني من آثار جراحاته التي أصيب بها في غزوة أحد، وهو يدرك أنها جراحات قاتلة، دون أن يجعله ذلك يتراجع عن حبه لمحمد ﷺ وانقياده له، أو يندم على انتهاء حياته التي سيفقدها بعد قليل؛ بل ويوصل رسالة لبني قومه محذرًا من التخلي عن نصرة رسول الله؛ فقال سعد وملؤه الثقة: "أنا في الأموات، فأبلغ رسول الله عني السلام وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك جزاك الله عنا خير ما جزى نبيًّا عن أمته، وأبلغ قومك عني السلام وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خُلِص إلى نبيكم ﷺ ومنكم عين تطرف. ثم مات"[4].

فهل يمكن بعد كل هذا أن يكتشف لنا نولدكه وإخوانه أن النبي؛ (الذي تصل محبة أتباعه له لدرجة أن بعضهم يعرض حياته هو للموت دفاعًا عنه).. كان رجلًا مريضًا بالصرع؟

(١) ابن هشام السيرة النبوية ج٣ ص٦١.
(٢) الطبقات الكبرى ج٣ ق١ ص٩
(٣) ابن هشام السيرة النبوية ج٣ ص٦١.
(٤) ابن هشام السيرة النبوية ج٣ ص٧١.

ك- وهذه "امرأة من بني دينار، وقد أصيب زوجُها وأخوها وأبوها (استشهدوا) مع رسول الله بأحد، فلما نُعوا لها قالت: فما فعل رسول الله؟ قالوا: خيرًا يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين. قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فأشير لها إليه حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل"(١) أي صغيرة.

فليرينا الفضلاء المستشرقون رجلًا مريضًا بالصرع أو مصابًا بنوبات تهيج حدث معه مثل هذا الموقف!!

***

(١) ابن هشام السيرة النبوية ج٣ ص٧٥.



الفصل الرابع

رميه النبي بالمرض النفسي أو العصبي لا يتفق مع شخصيته ﷺ



تمهيد

رغم أن نولدكه وصف النبي ﷺ بالذكاء في قوله[1]:

إن النبي "كان يمتلك ذكاء عمليًا شديدًا لم يكن باستطاعته بدونه أن ينتصر على أعدائه".

"Er eine große praktische Klugheit besaß, ohne die es ihm nie gelungen wäre, über alle Feinde zu triumphierin"

وقوله[2] وهو يتحدث عن فتح مكة: "حيث كان محمد ذكيًا بما فيه الكفاية بحيث لم ينتهز الفرصة للانتقام"

"Wo Muhammed allerdings Klug genug war, die Glegenheit zur Rache nicht zu benutzen. "

أقول: رغم هذا الوصف إلا أننا رأينا أنه يفسر وحي الله إلى رسوله ﷺ على أنه مرض نفسي على النحو الذي رأيناه.

وبعد أن ناقشت في تمهيد هذا الباب وفصليه الأول والثاني أسس دعواه هذه. وبعد أن قدمت في الفصل الثالث أدلة ترد على تلك الدعوى وترصد كيفية تلقي الأوساط المختلفة لوحي النبي ﷺ؛ أقدم بعون الله تعالى هذا الفصل الذي أرصد فيه الاختلاف التام بين نوبة المرض النفسي أو العصبي وبين لحظة تلقي النبي الوحي. كما أتناول فيه معالم الاستقرار النفسي في شخصية الرسول العظيم محمد ﷺ.

لقد تسبب الشطط الفكري عند عدد من المستشرقين ومنهم نولدكه أن تحول الواحد

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٤.
(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٤٩.

منهم - كما يقول عمر لطفي العالم[1] - إلى "أستاذ للتحليل النفسي، أجلَسَ فيه تاريخ الإسلام على أريكة فرويد وراح يتحدث عن محمد الرسول وكأنه مريض يتردد على عيادته الخاصة" دون أن يقارن واحد منهم بين حالة الشخص المريض بمرض نفسي أو عصبي وبين حالة الوحي عند النبي ﷺ.

وسيأتي هذا الفصل في مبحثين:

المبحث الأول بعنوان: العلاقة المزعومة بين المرض النفسي أو العصبي؛ والوحي.

المبحث الثاني بعنوان: معالم السواء النفسي في شخص محمد ﷺ

***

(١) المستشرقون والقرآن ٣٨.



المبحث الأول
العلاقة المزعومة بين المرض النفسي أو العصبي والوحي

١- إذا أخذنا أولًا مرض الصرع لننظر الفارق بين حالة المريض به وحالة النبي ﷺ فإن:

الفارق الأول يتعلق بالوعي والتذكر لدى كل منهما؛ حيث إن من يصاب بالصرع "خاصة نوبة التشنجات الكلية المتصلة؛ فإن المريض يفقد وعيه مع بداية النوبة دون إنذار ثم يعود إلى الوعي تدريجيًا خلال فترة تتراوح بين ١٠، ٣٠ دقيقة. بل قد تتوالى النوبات من هذا النوع وتتواصل بحيث لا يفيق المريض بين النوبات، بل يعبر من نوبة إلى النوبة التالية مباشرة وهو فاقد للوعي"(١).

بناء على هذا فلا يتذكر مريض نوبة التشنج الصرعي الكلية المتصلة - بعد إفاقته - الحوادث التي مرت به وقت صرعه، بل ينساها تمامًا؛ فهل كان الرسول يحصل له بعد الوحي هكذا؟ وللجواب نقول:

أ، ب- إن الرسول كان يتذكر تمامًا محتوى ما يحصل عليه كل مرة يوحى إليه؛ في أي وقت كان: نهارًا أو ليلًا، وفي أي مكان كان: إقامة أو سفرًا، وفي أي زمان كان: صيفًا أو شتاءً؛ وفي أي ظرف: نصرًا أو غيره؛ فرحًا أو حزنًا؛ كبر هذا المحتوى أو صغر. وكان واعيًا لدرجة أنه يأمر على الفور كتاب الوحي بتدوين المحتوى الموحى به إن كان الذي أوحي به قرآنًا؛ ويسأل عن شخص تسبب سؤاله أن تنزل الإجابة على رسول الله ﷺ وحيًا ليجيبه عن سؤاله(٢).

---

(1) 543 Roger P. simon, Michael J. Aminoff, David A. Greenberg: clinical Neurology, 257

(٢) وذلك في مثل حديث يعلى في البخاري (بشرح ابن حجر ج ٨ ص٤٧ رقم ٤٣٢٩) عن الأعرابي الذي يسأل عن الطيب في العمرة وجاء الجواب رسول الله وحيًا.

ج- وحتى الحديث الذي لم يرتض نولدكه غيره معبرًا عن كيفية الوحي يؤكد فيه النبي - قبل أن تثار أمثال هذه الدعاوى - على إثبات وعيه وحضور ذهنه قبل الوحي وفي أثنائه وبعده؛ فيقول ﷺ: «**أحيانًا يأتيني في مثل صلصلة الجرس - وهو أشده علي - فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال؛ وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا فيكلمني فأعي ما يقول**»[1].

فالنبي هنا واع باستقلال ذاته عن ذات وسيط الوحي[2]. واع كذلك بحالة ذلك الوسيط حين يأتيه؛ لدرجة أنه يفرق بين حالين لمجيئه من حيث هيئة ذلك الوسيط[3] وأثر هذه الهيئة على النبي[4]، واع أخيرًا بما أودعه إياه من وحي[5].

ولقد فطن إلى ذلك الكاتب الفرنسي موريس جودفروا ديمومبين[6] حيث قال: "رأى الآخرون في محمد إنسانًا مصروعًا... لكن الصرع يسلب ذاكرة المريض بينما القرآن كتاب معتبر ويدل على انتباه وفصاحة".

د- ثم إن النبي كان يجتهد لحظة الوحي أن يحفظ ما يلقى إليه أولا بأول؛ فيحرك به لسانه لحظة التنزل ظنًّا منه أن حفظه موكول إليه فلن يتم إلا هكذا؛ حتى نهاه الله عن تحريك اللسان وعن العجلة في هذا الشأن؛ فقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾، وقال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن

(١) البخاري بشرح ابن حجر ج١ ص١٨ رقم (٢).

(٢) (يأتيني، فيفصم عني) (يتمثل لي الملك، فيكلمني).

(٣) (أحيانًا يأتيني مثل صلصة الجرس) (وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا).

(٤) وهو أشده علي.

(٥) (وقد وعيت عنه ما قال) (فأعي ما يقول). كما أن الشعور والإدراك يتعطلان. والأعراض المصاحبة لنزول الوحي تختلف عن الأعراض المصاحبة للصرع.

(٦) في كتابه: محمد ٧٢ عن د. عبد الرحمن بدوي: دفاع عن محمد ﷺ ضد المنتقصين من قدره ص٦٤.

يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾[١].

ألا تعد هذه كلها مظاهر لوعي حاضر وذهن لم يغب؟.

الفارق الثاني: شعور الآخرين بالفرق بين الحالة المرضية وحالة النبوة: إن الوحي ظل يتنزل على رسول الله ﷺ نحوًا من ثلاث وعشرين سنة؛ يوافيه في الأسبوع الواحد مرات عديدة إلا ما ندر؛ فهل يمكن أن يلازم الصرع الإنسان طيلة هذه المدة دون أن يفطن أحد لكونه مريضًا به.

الفارق الثالث يتعلق بالأعراض المصاحبة للوحي؛ والأعراض المصاحبة لنوبة التشنجات الصرعية؛ فقد انتهينا من قبل إلى إثبات كون مظاهر حالة الوحي مؤقتة لا تستمر، لا علاقة لها بمرض أو بصحة، مرتبطة بوحي ولا تأتي منعزلة عنه؛ محدودة وليست شاملة، يتعدى تأثيرها للآخرين.

أما أعراض النوبة الصرعية[٢] فمختلفة حسب نوع النوبة؛ فنوبة التشنج الكلية المستمرة المنقطعة يحدث في مرحلتها الأولى - التي تستمر من ١٠-٢٠ ثانية - تشنج مستمر في جميع عضلات الجسم تقريبًا مما يؤدي إلى انحناء الجسم إلى الخلف في شكل قوس. وتتوقف عملية التنفس، وهذا يؤدي إلى زرقة الجلد والأغشية المخاطية. وكثيرًا ما يجرح المريض لسانه نتيجة لانقباض عضلات المضغ بشكل مفاجئ فيغلق الفكين وبينهما اللسان.

وفي مرحلتها الثانية - التي تستمر من ٣٠-٦٠ ثانية - تحدث تشنجات متقطعة تتميز بحركات لا إرادية ناتجة عن انقباض العضلات وانبساطها بشكل متكرر، وقد تؤدي هذه المرحلة إلى سلس البول وانفلات البراز نتيجة لحدوثها في العضلات العاصرة المتحكمة في عمليتي الإخراج. كما أن من أعراض بعض تشنجاته سقوط المريض فجأة دون إنذار، وقد يؤدي ذلك إلى حدوث إصابات به.

---

(١) القيامة: ١٦-١٩، طه: ١١٤.

(٢) المذكور هنا عن النوبة الصرعية ترجمته بتصرف يسير عن:
Roger p. Simon. J. aminoff, David A. Greenberg: clinical Neurology, p. 257 & 258.

وفي مرحلتها الثالثة - وتستمر من ١٠-٣٠ دقيقة - يعود المريض إلى وعيه تدريجيًّا، وقد يحدث في أثنائها لون من ألوان الشلل المؤقت لبعض الأعضاء لكنه لا يدوم أكثر من ٢٤ ساعة.

وقد تتوالى النوبات من هذا النوع وتتواصل بحيث لا يفيق المريض، بل يعبر من نوبة إلى النوبة الثانية مباشرة وهو فاقد للوعي".

وإذا كانت هذه سمات نوبة التشنج الصرعي الكلية فهناك نوبة أخرى جزئية لكنها قسمان: بسيطة ومركبة:

النوبة التشنجية الجزئية البسيطة تبدأ ببعض الأعراض الحركية مثل: التشنجات في الوجه أو في أحد الأطراف. أو تبدأ بالأعراض اللاإرادية مثل: الشحوب، العرق الشديد، القيء، انتصاب الذكر، سلس البول. أو تبدأ بالأعراض النفسية مثل: الخوف، الاكتئاب، أوهام الذاكرة، الوسواس القهري، الهلاوس. وتمثل هذه الأعراض كلها إرهاصات النوبة. ويحتفظ المريض بوعيه خلال هذه المرحلة ولا يفقده إلا عند حدوث التعميم، وهو انتشار النشاط الصرعي إلى بقية أجزاء القشرة المخية. وقد يتبعها الشلل المؤقت الذي ينتهي خلال فترة تتراوح بين ٣٠ دقيقة و٣٦ ساعة.

وهناك التشنجات الجزئية المركبة التي تتميز بانخفاض درجة الوعي دون فقده تمامًا، وتتخذ أعراض النوبة أشكالًا متعددة لكنها تتكرر في المريض الواحد بنفس الأعراض التي قد تكون في شكل متاعب في المعدة أو خوف غير مبرر، أو أوهام في الذاكرة، بحيث يتخيل الإنسان أنه رأى هذا الشيء من قبل وهو لم يحصل أو الهلاوس الشمية: أي شم روائح غير موجودة، أو حركات آلية للفم واللسان والقيام والقعود بشكل متكرر، وحركات الرأس والعنق وتستمر هذه النوبة من دقيقة إلى ثلاث دقائق وقد تتطور إلى نوبة كلية كسابقتها عن طريق انتشار النشاط الصرعي إلى بقية أجزاء القشرة المخية وقد يتبعها الشلل المؤقت المذكور آنفًا الذي ينتهي خلال فترة تتراوح بين ٣٠ دقيقة و٣٦ ساعة".

وجوه الاختلاف:

إذا كنا قد ذكرنا من قبل مظاهر حالة الوحي إلى رسول الله ﷺ بشكل مجرد؛ فإننا بعد أن نقارنها بأعراض النوبات الصرعية على اختلاف أشكالها ودرجاتها نجد أنه لم يحدث أن أثر الوحي في جسد النبي ﷺ فيحدث فيه انحناء إلى الخلف في شكل قوس. ولم يحدث أن توقف لديه عملية التنفس، وبالتالي لم يأخذ جلده اللون الأزرق، ولم يثبت أنه جرح لسانَه في أي مرة أوحي إليه فيها، ولم تحدث منه حركات لا إرادية ولا سلس بول أو انفلات براز، ولم يسقط رسول الله ﷺ على الأرض في أي مرة أوحي فيها إليه؛ بل قد ثبت أنه أوحي إليه فوق دابته ولم يؤد ذلك لأن يفقد توازنه أبدًا. ولم يحدث له أي لون من ألوان الشلل لا الدائم ولا المؤقت. كما لم يحصل له تشنجات في الوجه أو في أحد الأطراف. ولم يُر رسول الله ﷺ في يوم خائفًا أو قلقًا. وما كان أحد يكره الوسوسة بكافة أنواعها القهرية منها والعارضة، مثله. ولم يُنقل عنه أنه أتى بحركات آلية للفم واللسان أو القيام والقعود بشكل متكرر.

ولم يكن ثمة ما يشكل تحرجًا من نقلها لو كانت قد حصلت، حيث لم تكن في ذلك الحين ذات دلالة مرضية كما هي الآن.

الفارق الرابع: إن من تعتريهم نوبات الصرع بكافة أنواعها كثيرون، فلماذا لا تنتج نوبات صرعهم - وما أكثرها - قرآنًا؟

وأخيرًا فإني أورد هنا قول المستشرق الفرنسي كلود كاهان[(١)]: "لم يعد في وسع المؤرخين تأييد الشبهات والاتهامات الصادرة عن النقاد الغربيين ولا مساندة التفسير الصبياني بإلصاق مرض الصرع بالوحي السماوي. ينبغي أن نرى في هذا الرجل (الحديث عن النبي العظيم محمد ﷺ) إحدى الشخصيات الرفيعة التي سعت بإخلاص لا يشق له غبار إلى رفع المستوى الخلقي والعقلي للإنسان".

(١) في مقال له بمجلة: (رسالة الجهاد) عدد ٨٦ السنة ٨ مارس ٩٠.

كما يرفض المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون[١] تفسير وحي الله إلى النبي بكونه صرعًا أو هلوسة أو انفصامًا في شخصيته.

٢- وإذا تناولنا حديث نولدكه عن الوحي باعتبار بعضه ناشئًا عن قلق نفسي أو اكتئاب عميق نجده يقول[٢]:

"تظهر حالات القلق النفسي *die leidenschaftliehe Unruhe* بشكل مباشر في الآيات القصار لسورة القارعة".

ويقول[٣]: "إن الآيات ٢٥٥-٢٥٩ من سورة البقرة[٤] ليس من السهل أن توضع في موضع محدد؛ إذ إن مبدأ عدم ممارسة إكراه على الدخول في الإسلام في الآية ٢٥٧ البقرة[٥] يمكن أن يكون قد نشأ في وقت اكتئاب عميق. كما يمكن بنفس الدرجة أن يكون قد نشأ في وقت ثقة تامة بالنصر".

أ- فبشأن ما ادعاه من قلق نفسي وراء نشأة!! سورة القارعة أقول:

إن الشخص "تسيطر عليه في حالات القلق مشاعر الخوف والاكتئاب والشعور بالعجز عن اتخاذ قرارات حاسمة، وسرعة اتخاذ قرارات لا تنفذ. وغالبًا ما تظهر اضطراباته في شكل: تبني اتجاهات وأفكار لا منطقية، والميل للنقد الشديد للذات ووضع متطلبات صارمة عمّا يجب أن يفعله وما لا يجوز أن يفعله. أما طرق التفاعل الاجتماعي للشخص في حالة القلق فتميل إلى التناقض والحمق والتطرف في العلاقات مع الآخرين"[٦].

---

(١) في مقدمة كتابه بالفرنسية: (محمد) عن سامي الحاج: الظاهرة الاستشراقية ج ٢ ص٣٥٦.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٩٩.

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٨٤.

(٤) من: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ إلى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٥٥ - ٢٥٨].

(٥) ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

(٦) د. عبد الستار إبراهيم: الحكمة الضائعة، الإبداع والاضطراب النفسي والمجتمع (ص٣٧-٣٨ بتصرف يسير).

فماذا وجد نولدكه في آيات سورة القارعة من هذا كله؟ إنها تتناول بعض مظاهر يوم القيامة، وارتباط المصير الأخروي برصيد المرء من الحسنات والسيئات. فماذا في هذا يدل على القلق النفسي؟ أليس اليوم الآخر معلمًا من معالم الإيمان في اليهودية والمسيحية كذلك؟ فلماذا الإنكار على القرآن إذن؟

ب- وبشأن ما ادعاه من تفسير لنشأة!!! ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[1] فيجب أن أبين كيف نظر الطب النفسي إلى الاكتئاب:

إننا نجد فيه أنه "ما من شخص إلا وانتابته لحظات من عمره - إثر أزمة خارجية أو فقدان قريب أو صديق - شعر فيها بالحزن والضياع. مثل هذا الشعور إذا استمر بشكل أقوى أو أطول مما هو معتاد، سمي بالاكتئاب الذي يكون مصحوبًا في كثير من الأحيان بالقلق واليأس والأرق ومشاعر الذنب المبالغ فيها وفقدان الشهية والبكاء المتكرر وانعدام الثقة بالنفس والتأنيب المستمر للذات وتبلد النشاط وتقلص العلاقات الاجتماعية وتقوقع الشخص المكتئب على ذاته في خيبة أمل وعجز. وتسيطر على المكتئبين أفكار: أن حياتهم عديمة الجدوى؛ وقد ينهونها في الحالات الشديدة بالانتحار. كما تسيطر على بعضهم هواجس أنهم عديمو النفع والجدوى وأن الحياة عبث لا قيمة لها، ويسيطر عليهم الشعور بالملل والفراغ[2].

كما ترى بعض المراجع الطبية الأخرى أن الاكتئاب هو أحد الأمراض النفسية التي تنتمي إلى سلسلة الأمراض الذهانية حيث يغرق المريض في سيل من الضلالات والهلاوس ولا يدرك حقيقة مرضه، وأحيانًا - وفي بعض درجاته - لا يعد المريض مسئولًا عن تصرفاته[3].

---

(١) البقرة: ٢٥٧.

(٢) د. عبد الستار إبراهيم: الحكمة الضائعة - مرجع سابق (ص٣٨ - ٣٩ بتصرف يسير).

(3) 261 James H. National Medical Series (NMS) Psychiatry (3rd edition) 1996

هذه معالم الاكتئاب عند أهل الذكر... فهل نجد لها أثرًا في شخصية الرسول الكريم محمد؟

ليخبرنا أي مستشرق فاضل: أين نجد في حياة النبي أو سلوكه أثرًا لأي من اليأس، والأرق، والشعور بالذنب، والبكاء المتكرر، وانعدام الثقة بالنفس، والتأنيب المستمر للذات، وتبلد النشاط، والتقوقع على الذات، والخيبة، والعجز، والانتهاء إلى أن الحياة عديمة الجدوى، والملل؟ هذا من حيث المبدأ..

أما بشأن الآية التي ذكرها نولدكه مدعيًا أنها إما أن تكون قد نشأت!! في وقت اكتئاب عميق أو في وقت ثقة تامة بالنصر؛ فلي هنا ملاحظات عدة:

الأولى: كيف يمكن أن يكون البديل الذي يضعه نولدكه للاكتئاب... الثقة التامة في النصر؟! إن كلًّا منهما ينتمي إلى عالم نفسي مختلف تمامًا عن الآخر. ومن عجب أنهما أصبحا عند نولدكه خيارين بديلين!!.

الثانية: لم يبين لنا نولدكه: كيف يكون مبدأ عدم الإكراه في الدين ناشئًا عن اكتئاب... وليس فقط مجرد اكتئاب، بل عميق أيضًا؟... وكأن مبدأ الحرية الدينية الذي أقرته الأمم المتحدة منذ منتصف القرن الماضي قد جاء به المعتوهون!!.

ولم يبين نولدكه أين يكمن الارتباط العقلي بين (إقرار النبي مبدأ: ألَّا إكراه في الدين) وبين (زعم نولدكه أنه ﷺ كان يعاني وقتها من اكتئاب عميق).

الثالثة:

أ- بعيدًا عن الترابط العقلي المفقود - إلا من ذهن نولدكه - أتساءل: هل يصلح الاكتئاب تفسيرًا لهذا الإعلان؟

إن ملامح الاكتئاب قد بينها قبل قليل أطباء النفس. وأقل ما فيه: أنه شعور باليأس؛ وهو لا يتفق أبدًا مع مبدأ: ألَّا إكراه في الدين.. ذلك المبدأ العالي الذي يجسد منطقية عالية؛ حيث يُظهر بوضوح كيف أن العقيدة الدينية تخالط القلب الذي لا سلطان لأحد عليه ليغيره فيدين بعقيدة أخرى.

وبالتالي فإن الإكراه؛ حتى إن أخضع الظاهر؛ فسيبقى القلب في مأمن من الإكراه مستعصيًا عليه.. هذا المنطق. كيف يتصور نولدكه أن يصدر من شخص[1] يائس؟ إن اليائس لا تصدر عنه أقوال أو أفعال منطقية.

ب- وهل تصلح الثقة التامة بالنصر تفسيرًا لهذا الإعلان؟

إن نولدكه فسر ما سماه نشأة الآية بأنه من المحتمل أن رسول الله كان لديه وقت نشأتها!! ثقة تامة بالنصر.

لكن هذا الاحتمال غير مسلم؛ لأن من لديه الثقة التامة بالنصر قد يحصل لديه معها إحساس جارف بضرورة حملْ الناس قسرًا على أن يكونوا معه ما دام يثق بالنهاية المنتصرة دون أن يتوسل إلى ذلك بالتودد إليهم وإشعارهم - ولو ظاهريًا - أن لهم الاختيار بين الانضمام إليه أو عدمه. وعلى هذا فلا تصلح الثقة بالنصر تفسيرًا لهذا الإعلان.

الرابعة: إنه لعجيب أن يجعل نولدكه للاكتئاب في حياة النبي وقتًا، وللثقة التامة في النصر وقتًا آخر.

إن رسول الله لم يعرف الاكتئاب أبدًا؛ وذلك لأنه لم يخل على الإطلاق من الثقة في الله... تلك الثقة التي لا يمكن تفسيرها إلا بأنه كان يوحى إليه؛ لأنها كانت موجودة لدى النبي وهو خلو من كل أسباب المنعة المادية.

إنه هو القائل في العهد المكي: «**كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه. والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**»[2].

---

(١) يقيننا أن مصدر هذا الإعلان ليس محمدًا ﷺ. وإيراد التساؤل هو من قبيل الافتراض فقط مجاراة لنولدكه.

(٢) البخاري بشرح ابن حجر ج ٦ ص٦١٩ رقم (٣٦١٢).

خامسًا: بعد بطلان التفسير المرضي لنزول هذه الآية؛ لابد أن ننظر إلى هذا المبدأ من أين جاء؟

إن عدم الإكراه مبدأ أصيل في الإسلام نجد جذوره العميقة في العهد المكي، وليس ناشئًا - كما يزعم نولدكه - في وقت الثقة التامة بالنصر في أواخر العهد المدني.

لنقرأ الآيات المكية الآتية: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ۝١٠٨ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾[1].

وتحت عنوان: "القرآن يأمر بالدعوة والإقناع، وينهى عن الإكراه؛ يذكر توماس أرنولد[2] آية مكية تعد أصلًا في هذا الباب هي: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[3].

ومما يدل على تجذر هذا المبدأ وأصالته، وعدم الارتباط بينه وبين الثقة بالنصر - الذي يدعي نولدكه أن له وقتًا متأخرًا - أن عمر بن الخطاب كان حتى السنة السادسة متزوجًا من امرأتين مشركتين، ولم تكرها على الدخول في الدين، ولما نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ فارقهما عمر وأرسلهما إلى أهلهما في مكة[4] ومن هنا يعترف المستشرق الألماني «جوزيف فان إس» أن[5] "الإسلام

(١) يونس: ٤١، ١٠٨. النحل: ٨٢، الرعد: ٤٠.
(٢) الدعوة إلى الإسلام ص٢٧ - ٣٠.
(٣) النحل: ١٢٥.
(٤) البخاري بشرح ابن حجر ج ٥ ص٣٣٢ رقم (٢٧٣٢).
(٥) الإسلام والديانات الأخرى ص١٧٠-١٧١ عن د. السيد الشاهد: التوحيد والنبوة والقرآن في حوار المسيحية والإسلام ص٦١.

ينتشر ببساطته ووضوح مبادئه وسماحته التي تصل مباشرة إلى الإنسان، أيًّا كان مركزه الاجتماعي أو مستواه الثقافي، وفي ذلك يمتاز الإسلام عن المسيحية".

ليست الآية الكريمة إذن نابعة من النبي بسبب اكتئاب أو ثقة بالنصر ولا مفر أمام نولدكه أو غيره من الإقرار بمرجعية الوحي الإلهي.

* * *



المبحث الثاني
معالم السواء النفسي في شخصية محمد ﷺ

أتناول في هذا المبحث معالم الاستقرار النفسي في شخصية الرسول العظيم محمد ﷺ. وقبل أن أبدأ في عرض بعض معالم شخصية النبي ﷺ أعرض أولًا صفات الشخصية السوية، كما يقرر علم النفس.

أولًا: إن هناك مجموعة من الصفات التي يعتبرها أطباء النفس[1] مؤشرًا على أن شخصًا ما يتمتع بالصحة والاستقرار النفسي، أو ما اصطلح على تسميته بحالة (السواء)؛ منها:

١- أن يكون قادرًا على: التحكم في تقلباته الوجدانية والمزاجية، وحل مشكلاته التي يواجهها؛ والتصرف باتساق في مختلف المواقف من دون تصلب أو جمود. ومقاومة الضغوط ومعالجة نتائجها السلبية، والبحث النشط عن دور أو أدوار ذات معنى في الحياة، والتعبير عن المشاعر الإيجابية، وتكوين علاقات شخصية اجتماعية فعالة، وضبط الانفعالات السلبية الهدامة؛ كالقلق، والعدوان، والاكتئاب، والغضب، والمخاوف التي لا معنى لها.

٢- أن يكون متسامحًا مع الأخطاء الشخصية.

٣- أن يوجد لديه إحساس متميز بهويته وذاتيته.

٤- أن يحس بمشاعر الآخرين ودوافعهم وحاجاتهم الفاعلة في أداء الدور أو الأدوار

(١) راجع: د / عبد الستار إبراهيم: الحكمة الضائعة، الإبداع والاضطراب النفسي والمجتمع (ص٣١-٣٢ بتصرف يسير).

الاجتماعية التي يقوم بها.

ثانيًا: إذا أردنا أن نبحث عن حالة (السواء) هذه في شخصية النبي ﷺ وجدنا الآتي:

١- **الاستقرار النفسي في علاقة محمد ﷺ بالله. حيث وجدناه ﷺ:**

يخشاه ويراقبه: فلقد كان مرة "نائمًا فوجد ثمرة تحت جنبه، فأخذها فأكلها، ثم جعل يتضور من آخر الليل، وفزع لذلك بعض أزواجه فقال: «**إني وجدت ثمرة تحت جنبي فأكلتها فخشيت أن تكون من ثمر الصدقة**»[١].

ولم يكن هذا التحوط خاصًّا به، بل كان يخشى الأمر نفسه على أهل بيته؛ فقد أخذ الحسن بن علي تمرة من تمر الصدقة فجعلها في فيه فقال النبي: «**كخ كخ**» ليطرحها، ثم قال: «**أما شعرت أنا لا نأكل الصدقة**»[٢].

كما تتجلى خشيته لله أيضًا في هذه الحادثة: عن عبد الله بن أبي بكر عن رجل من العرب قال: زحمت رسول الله ﷺ يوم حنين وفي رجلي نعل كثيفة فوطئت بها على رجل رسول الله ﷺ فنفحني نفحة بسوط في يده وقال: «**بسم الله، أوجعتني!**». قال: فبت لنفسي لائمًا أقول: أوجعت رسول الله ﷺ. قال: فبت بليلة كما يعلم الله. قال: فلما أصبحنا إذا رجل يقول: أين فلان؟ قال: قلت: هذا والله الذي كان مني بالأمس!. قال: فانطلقت وأنا متخوف. فقال لي رسول الله ﷺ: «**إنك وطئت بنعلك على رجلي بالأمس فأوجعتني فنفحتك نفحة بالسوط؛ فهذه ثمانون نعجة، خذها بها**»[٣].

وبسبب هذه الخشية فقد عرض رسول الله ﷺ القصاص من نفسه، ثم قال: «**واعلموا أن أولاكم مني، رجل كان له من ذلك شيء فأخذه، أو حللني فلقيت**

(١) أحمد ج٢ ص١٨٣ رقم (٦٧٢٠).

(٢) البخاري بشرح ابن حجر ج٣ ص٣٥٤ - ٣٥٥ رقم (١٤٩١).

(٣) الدارمي ١ / ٤٨ / ٧٢ وفي سنده مبهم.

ربي وأنا محلل، ولا يقولن رجل إني أخاف العداوة والشحناء من رسول الله، فإنهما ليستا من طبيعتي ولا من خلقي»(١).

وخشية محمد ﷺ لربه لم تكن من النوع الذي يقطع أي أمل في الرجاء أو يطغى على أي أمل في رحمة الله؛ فأحاديثه في بيان حب العبد لربه وحب العبد لله ورحمة الله وعفوه؛ وحبه لعبده الطائع وقربه منه وسماعه له واستجابته دعاءه، وفرحه بعبده العاصي الذي يتوب، وتوبته عليه، وتبديله سيئاته حسنات... كل ذلك يعكس على نحو ما استقرار نفسيته ﷺ وتوازنها بين الخوف والرجاء.

والملاحظ هنا أن قرب الله من عبده لا يجعل الأمر يقترب إلى دائرة التصورات الشاذة؛ من حلول أو اتحاد أو تلاش للفوارق بين مقام الرب ومكان العبد. ويزداد هذا الأمر وضوحًا في حالة محمد ﷺ ذاته الذي لم يستغل رحلة المعراج - على حد قول لويس ماسينون - ليدعي نوعًا من الاتحاد بينه وبين الله. بل كان محمد قبلها وبعدها وإلى أن لقي ربه ملحًا على بشريته، مستغرقا في مقام عبوديته لله، ناظرًا إليها على أنها قمة التشريف له. وظل يطلب من أصحابه ألا يطروه فقال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده فقولوا: عبد الله ورسوله**»(٢).

فانظر إلى هذا التوازن العجيب بين كل ما ذكر، ثم لتقر معي أنه علامة واضحة على استقرار نفسي تام.

٢- وإذا وقفنا على طرف من أخلاقيات النبي ﷺ الراقية في تعاملاته مع الناس، ألفينا شخصية محمد ﷺ هي التي تضع لنا معايير حالة السواء، وليس العكس، وتستوقفنا هنا الأمثلة الآتية:

لقد كان ﷺ صاحب موقف أخلاقي ثابت حتى مع أهل مكة الذين آذوه "فلقد أثر عنه أنه جعل من مهام علي رضي الله عنه - الذي كلفه بالمبيت مكانه في فراشه ليلة الهجرة - أن يرد أمانات المشركين إليهم، وقد كانوا استأمنوه عليها

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٢ ق٢ ص٤٥.
(٢) البخاري بشرح ابن حجر ج٦ ص٤٧٨ رقم (٣٤٤٦).

رغم خلافهم معه. فلم تفلح ضغوط المشركين عليه أن يغير - ولو وقتيًّا - موقفه الأخلاقي تجاههم فيظلمهم أو يستولي على أماناتهم....

فهل هناك استقرار نفسي أكثر من هذا؟

ولقد رفض بعد بدر - وهو المنتصر الذي لا يهمه أن يُقَوّم أحد سلوكه تجاه أعدائه - أن ينفذ اقتراحًا بأن ينزع بعض الأسنان الأمامية من فم خطيب مشرك يهاجمه هو سهيل بن عمرو؛ حتى لا يقوم عليه خطيبًا في موطن آخر... ولخص سبب رفضه بقوله: «**لا أمثل به حتى لا يمثل الله بي يوم القيامة**»[(١)].

إن لم يدل هذا على نفس سوية مبرأة من العوج فعلام يدل؟

كما كان حريصًا على مشاعر الناس: فيشهد أنس بن مالك أن النبي ﷺ كان لا يواجه أحدًا في وجهه بشيء يكرهه"[(٢)]. وعن أنس أيضًا أن رجلًا دخل على رسول الله ﷺ وعليه أثر صفرة، وكان رسول الله ﷺ قلَّما يواجه رجلًا في وجهه بشيء يكرهه، فلما خرج قال: «**لو أمرتم هذا أن يغسل ذا عنه**»[(٣)]!!

كل هذا الحرص على مشاعر الآخرين حتى في أثناء تقويمهم، أليس دليلًا على نفس مستقرة؟

وعنه كذلك قال: "ما رأيت رجلًا التقم أذن رسول الله ﷺ فينحي رأسه حتى يكون الرجل هو الذي ينحي رأسه، وما رأيت رجلًا أخذ بيده فترك يده حتى يكون الرجل هو الذي يدع يده"[(٤)].

كما تشهد السيدة عائشة أنه كان إذا بلغه عن رجل شيء لم يقل: ما بال فلان يقول؟ ولكن يقول: «**ما بال أقوام يقولون؟**»[(٥)].

(١) المقريزي: إمتاع الأسماع ج١ ص٩٧.

(٢) ابن حجر: الفتح ج٦ ص٥٧٥، وعزاه للإمام أحمد.

(٣) سنن أبي داود ج٤ ص٢٥١ رقم (٤٧٨٩).

(٤) سنن أبي داود ج٤ ص٢٥٢ رقم (٤٧٩٤).

(٥) المصدر السابق ج٤ ص٢٥١ رقم (٤٧٨٨).

وكان يتبسط مع أصحابه؛ يضحك معهم ويضحكهم: فلقد قدم صهيب على النبي ﷺ وبين يديه تمر وخبز قال: «**ادن فكل!**». فأخذ يأكل من التمر. فقال له النبي ﷺ: «**إن بعينك رمدًا!**». فقال: يا رسول الله إنما آكل من الناحية الأخرى!! قال: فتبسم رسول الله ﷺ[1].

وتروي أم سلمة أن رسول الله ﷺ وأصحابه ضحكوا مدة طويلة من موقف لأحد البدريين اسمه نعيمان، وكان رجلًا مضحاكًا مزاحًا دبر مزحة لسويط بن حرملة[2].

فضَحكُ النبي وابتسامُه رغم ثقل أمانته وأعبائه دون أن يرى في ذلك تعارضًا مع الجدة المطلوبة، أو حتى مع خوفه من الله؛ دليل على حالة السواء والاستقرار النفسي التي كان يحياها ﷺ.

وكان حكيمًا في تعليمه الناس: يقول معاوية بن الحكم السلمي: بينا أنا مع رسول الله ﷺ في الصلاة إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله! فحدقني القوم بأبصارهم، فقلت واثكلاه! ما لكم تنظرون إليّ؟ فضرب القوم بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يسكتونني قلت: مالكم تسكتونني؟ لكني سكت. فلما انصرف رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي! ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه. والله ما ضربني ولا كهرني ولا سبني، ولكن قال: «**إن صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هي التسبيح والتكبير وتلاوة القرآن**»[3].

كذلك نجد هذه الحكمة في رده على الفتى الشاب الذي جاءه فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا! فأقبل القوم عليه فزجروه؛ قالوا: «مه مه!». فقال النبي ﷺ: «**ادنه!**». فدنا منه قريبًا. فجلس، فقال: «**أتحبه لأمك؟**» قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «**ولا الناس يحبونه لأمهاتهم**». قال: «**أفتحبه لابنتك؟**» قال: لا والله

(١) مسند أحمد ج٤ ص٦١ رقم (١٦٦٤٢).

(٢) المصدر السابق ج٦ ص٣٦١ رقم (٢٦٧٢٩).

(٣) المصدر السابق: ج٥ ص٤٤٧ رقم (٢٣٨١٣).

يا رسول الله، جعلني الله فداءك، قال: «**ولا الناس يحبونه لبناتهم**». وعدد له النبي: أختك؟ عمتك؟ خالتك؟ ثم وضع يده عليه وقال: «**اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه**». فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[1].

وكان يفتح أبواب الأمل أمام أصحاب الكبائر ولا يقنطهم من رحمة الله؛ فلقد جاءه رجل أخبره أنه كان في الجاهلية قد وأد ابنته، فقال له: «**إن الله قد وضع عن الجاهلية ما عملوا؛ فاستأنف عملك**»[2].

وكان لا يتسرع فيحكم على الإنسان من موقف: فبعد الانتصار في حنين يسمع رجلًا يسخر من الأذان فيطلب منه النبي أن يؤذن، ويمسح على ناصيته، ويعلمه الأذان كلمة كلمة. ويطلب الرجل منه أن يتخذه مؤذنًا بمكة فيستجيب له ﷺ[3].

وكان لا يميل إلى التشديد على الآخرين؛ قالت عائشة: (ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثمًا؛ فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه)[4].

وكان قليل الكلام، حيث تشهد عائشة أنه: (كان يحدث حديثًا لو عده العاد لأحصاه)[5].

وكان صابرًا على الإيذاء حتى وهو ذو سلطان: إذ إنه يوم حنين لما آثر بالزيادة في العطاء بعض حديثي العهد بالإسلام، وذلك لأهداف شرعية؛ قال رجل: والله إن هذه القسمة ما عدل فيها وما أريد بها وجه الله!!. فقال: «**فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله. رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر**».

وعن عائشة قالت: إن رهطًا من اليهود دخلوا على النبي ﷺ فقالوا: السام عليك!

(١) مسند أحمد ج٥ ص٢٥٦ رقم (٢٢٢٦٥).

(٢) سنن الدارمي ج١ ص١٤ رقم (٢)، والحديث مرسل حيث يرفعه الوضين بن عطاء بن كنانة - المتوفى عام ١٥٦هـ - ولم يلق الصحابة - إلى النبي، لكن رغم ذلك فرجاله ثقات.

(٣) سنن النسائي لشرح السيوطي وحاشية السندي ج٢ ص٧ كتاب الأذان، الأذان في السفر.

(٤) البخاري بشرح ابن حجر ج٦ ص٥٦٦ رقم (٣٥٦٠).

(٥) المصدر السابق ج٦ ص٥٦٧ رقم (٣٥٦٧).

فقال النبي ﷺ: «**عليكم**». فقالت عائشة: بل عليكم السام واللعنة! فقال النبي ﷺ: «**يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله**». قالت عائشة: ألم تسمع ما قالوا؟ قال: «**قد قلت: عليكم!**»[(١)].

كما حدث أن "أعرابيًا أدرك النبي فجبذه بردائه، فحمر رقبته، وكان رداء خشنًا، فالتفت، فقال له الأعرابي: احمل لي على بعيري هذين؛ فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك، فقال النبي ﷺ: «**لا وأستغفر الله، لا وأستغفر الله، لا وأستغفر الله، لا أحمل لك حتى تقيدني من جبذتك التي جبذتني**». فكل ذلك يقول له الأعرابي: والله لا أقيدكها. ثم دعا النبي رجلًا فقال له: «**احمل له على بعيريه هذين: على بعير شعيرًا وعلى الآخر تمرًا**». ثم التفت إلى أصحابه فقال: «**انصرفوا على بركة الله تعالى**»[(٢)].

ولم يكن ينتقم لنفسه؛ فعن عائشة: (ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها)[(٣)].

ولذات الدلالة يأتي حديث السيدة عائشة حيث قالت: (ما ضرب رسول الله ﷺ خادمًا ولا امرأة قط)[(٤)].

وكان يربي الناس على ألا يوغر أحدهم صدره على أحد؛ قال: «**لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئًا؛ فأنا أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر**»[(٥)].

وكان لا يعطي المسؤولية لمن طلبها؛ قال: «**إنا لا نستعين في عملنا من سألناه**»[(٦)].

(١) الترمذي ج٥ ص٦٠ رقم (٢٧٠١)، وقال: حسن صحيح.
(٢) سنن أبي داود ج٤ ص٢٤٧ رقم (٤٧٧٥)، وابن سعد: الطبقات الكبرى ج١ ق٢ ص١٥٢.
(٣) البخاري بشرح ابن حجر ج٦ ص٥٦٦ رقم (٣٥٦٠).
(٤) سنن أبي داود ج٤ ص٢٥٠ رقم (٤٧٨٦).
(٥) مسند أحمد ج١ ص٣٩٥ رقم (٣٧٥٩).
(٦) المصدر السابق ج٤ ص٤١٧ رقم (١٩٧٥٦).

وكان متواضعًا؛ يتجلى ذلك في قوله: «**لا يقام لي، إنما يقام لله**»[1]. كما يظهر في أنه كان يداعب الصبيان ويسري عنهم؛ فعن أنس بن مالك أن النبي ﷺ كان يدخل على أم سليم، ولها ابن من أبي طلحة يكنى: أبا عمير وكان يمازحه، فدخل عليه فرآه حزينًا فقال: «**مالي أرى أبا عمير حزينًا؟**» فقالوا: مات نغره الذي كان يلعب به. فجعل يقول: «**أبا عمير! ما فعل النغير؟**»[2]. كما كان يلقي السلام على الصبيان[3]... إلخ.

إن ما ذكرته هنا أمثلة يسيرة للدلالة على تمتعه ﷺ بنفس هادئة مستقرة متوازنة سليمة؛ وذلك لأن أي مرض نفسي مهما اجتهد صاحبه في تعاملاته أنه يخفيه بعض الوقت؛ فإنه لن يستطيع ذلك كل الوقت، وسيظهر بلا ريب في بعض تعاملاته.

٣- وفي منهج سيره ﷺ بدعوة الله أيضًا نلمح في شخصيته ﷺ بشكل جلي أسس الاستقرار النفسي كما ينبغي أن يكون:

فهو ﷺ لم تكن تستغرقه اللحظة المؤلمة؛ بل يتعالى فوق الجراح، ويستشرف المستقبل: روى ابن إسحاق[4] أنه لما ذهب رسول الله إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف فدعاهم إلى الله فقال أحدهم: إنه يمزق ثياب الكعبة إن كان الله أرسله، وقال آخر: أما وجد الله أحدًا يرسله غيرك؟ وقال ثالث: لئن كنت رسولًا فأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك الكلام. ولئن كنت تكذب على الله فما ينبغي لي أن أكلمك. وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه، ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة. فما كان منه ﷺ سوى أن دعا الله تعالى: «**اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين...**». إلخ الدعاء.

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج١ ق٢ ص١٠٥.
(٢) مسند أحمد ج٣ ص١٨٨ رقم (١٢٩٨٠).
(٣) المصدر السابق ج٣ ص١٧٤ رقم (١٢٨٠٧).
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٢٦٤ - ٢٦٥.

وعن الحادثة ذاتها تروي السيدة عائشة - حسب البخاري[1] - أن رسول الله ﷺ أخبرها أنه رفض أن يدعو على هؤلاء بالهلاك؛ وأنه قال بدلًا من ذلك: «**بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا**».

فنلاحظ هنا أنه رغم إعراض أهل الطائف عنه ﷺ، وتكذيبهم به، وسخريتهم منه، ودفعهم الغلمان والسفهاء لرميه بالحجارة؛ إلا أنه لم يزد عن أن بث شكواه لله دون أن يرد عليهم؛ أو حتى يدعو الله أن ينتقم منهم. ولم يكتف بذلك، بل استشرف بنور بصيرته المستقبل وتطلع إليه دون أن تستغرقه اللحظة المؤلمة الحاضرة، أو تتحكم فيه الرغبة في الانتقام لشخصه.

كما أنه ﷺ يتعالى فوق جراح الألم إثر أحد، ولا يسمح أن تتحول الهزيمة العسكرية إلى هزيمة نفسية؛ فعندما نادى أبو سفيان: اعل هبل! اعل هبل! قال النبي ﷺ: «**ألا تجيبوا له؟**» قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله أعلى وأجل**». قال أبو سفيان: إن لنا العزى ولا عزى لكم! فقال النبي ﷺ: «**ألا تجيبوا؟**» قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم**»[2].

ثم إنه كذلك يقلل من آثار انتصار المشركين بالسير خلفهم إلى حمراء الأسد[3]، حتى لا يفكروا في العودة إلى المدينة بعد أن أغراهم النصر.

وغير هذين المثلين كثير؛ منه ثباته النفسي عند الضيق والشدة في كل من: الخندق وحنين. وعند فقده في حياته كلًّا من: زوجته خديجة، وعمه وأولاده إلا فاطمة. وعند مواجهة الحروب النفسية التي شنها المنافقون واليهود والمشركون.

ويزيد أهمية هنا ثباته النفسي عند النصر في بدر، وبوجه خاص عند فتح مكة التي دخلها ساجدًا لله على راحلته آمرًا بعدم القتال إلا عند الاضطرار وفي أضيق نطاق. يدخلها وقد صفح عن ظالميه وطارديه ومعذبيه.

(١) البخاري بشرح ابن حجر ج٦ ص٣١٢، ٣١٣ رقم (٣٢٣١).
(٢) صحيح البخاري دار ابن كثير - بيروت ١٤٠٧، ج٣ ص١١٠٥ رقم (٢٨٧٤).
(٣) ابن هشام السيرة النبوية ج٣ ص٩٢.

والحق: إن التحليل النفسي لوقائع وتفاصيل هذا الحدث الأخير يؤكد - ليس فقط تربع رسول الله على عرش حالة السواء النفسي - بل يتيح أيضًا الوصول إلى معايير جديدة لقمة هذه الحالة، ما دام الكمال البشري مجسدًا في شخص محمد ﷺ قد استطاع أن يصل إليها[1].

٤- **أما النبي في ذاته فقد كان:**

- **قوي الجسد ليس فيه كسل:**

فعن ابن عباس أن النبي ﷺ كان إذا مشى مشى مجتمعًا ليس فيه كسل[2]. وعن جابر قال: مكث النبي ﷺ وأصحابه وهم يحفرون الخندق ثلاثًا لم يذوقوا طعامًا، فقالوا: يا رسول الله، إن ههنا كدية من الجبل. فقال رسول الله ﷺ: «**رشوها بالماء**»؛ فرشوها، ثم جاء النبي ﷺ فأخذ المعول أو المسحاة ثم قال: «**بسم الله!**» فضرب ثلاثًا، فصارت كثيبًا يهال. قال جابر: فحانت مني التفاتة فإذا رسول الله ﷺ قد شد على بطنه حجرًا"[3]. فهو على الرغم من حالة الجوع التي كان يعاني منها مثل غيره من المسلمين في تلك الشدة؛ إلا أن قوة جسده مكنته من أن يفعل في الصخرة ما لم يقو غيره من أصحابه أن يفعله.

- **رقيق الشعور عظيم العاطفة:**

فعن الوضين أن رجلًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنا كنا أهل جاهلية وعبادة أوثان فكنا نقتل الأولاد، وكانت عندي ابنة لي فلما أجابت وكانت مسرورة بدعائي إذا دعوتها، فدعوتها يومًا فاتبعتني، فمررت حتى أتيت بئرًا من أهلي غير بعيد فأخذت بيدها فرديت بها في البئر، وكان آخر عهدي بها أن تقول: يا أبتاه!! يا أبتاه!!. فبكى رسول الله ﷺ حتى وكف دمع عينيه. فقال

(١) وقد أحاول يومًا عمل دراسة نفسية لأحداث السيرة. اسأل الله أن يعين.

(٢) مسند أحمد ج١ ص٣٢٨ رقم (٣٠٣٤).

(٣) المصدر السابق ج٣ ص٣٠٠ رقم (١٤٢٤٩).

له رجل من جلساء رسول الله ﷺ: أحزنت رسول الله ﷺ فقال له النبي: «**كُف؛ فإنه يسأل عما أهمه**». ثم قال له: «**أعد علي حديثك**»؛ فأعاده. فبكى النبي حتى وكف الدمع من عينيه على لحيته. ثم قال له: «**إن الله قد وضع عن الجاهلية ما عملوا؛ فاستأنف عملك**»[1].

- **عف اللسان:**

يقول عنه عبد الله بن عمرو: "لم يكن فاحشًا ولا متفحشًا"[2]. ويقول أبو هريرة: ما عاب طعامًا قط؛ إن اشتهاه أكله وإلا تركه"[3].

٥- ومما قاله بعض من عاصروه:

"دائم الفكرة، ليست له راحة، لا يتكلم في غير حاجة، طويل السكت، يعظم النعمة وإن دقت، لا يذم منها شيئًا، لا يذم ذواقًا ولا يمدحه، جل ضحكه التبسم"[4]."لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر، لا يوطن[5] الأماكن، وينهى عن إيطانها. وإذا جلس إلى قوم جلس حيث انتهى به المجلس، ويأمر بذلك. دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، لا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه... ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز؛ فيقطعه بنهي أو كلام"[6].

يقول د. أكرم ضياء العمري[7]: "ومن دراسة سيرته وقراءة الأحاديث النبوية في صفاته العقلية تطالعنا صور التواضع المقترن بالمهابة، والحياء المقترن بالشجاعة، والكرم الصادق البعيد عن حب الظهور، والأمانة المشهورة بين الناس، والصدق

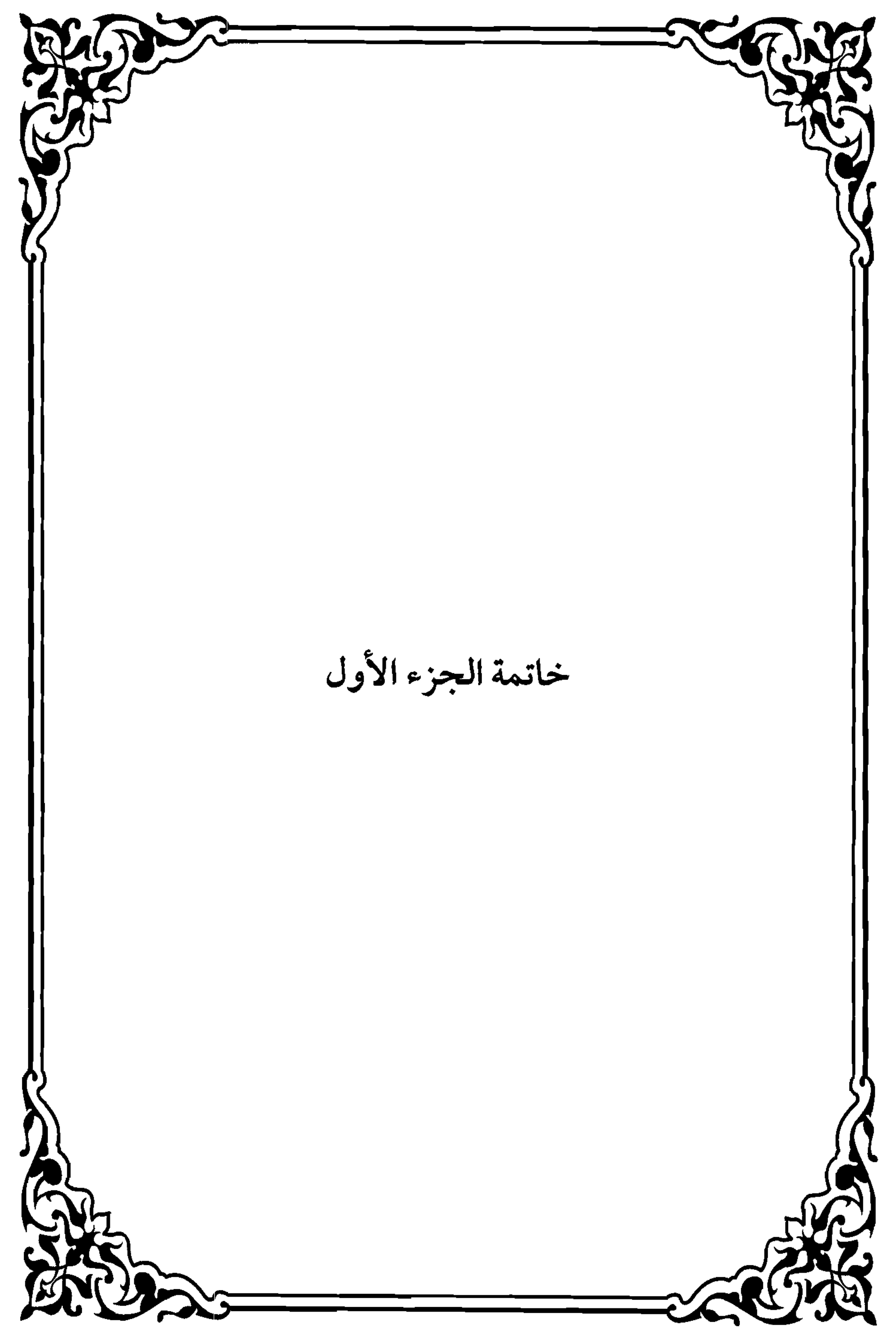
(١) الدارمي ج١ ص١٤، والحديث مرسل، حيث يرفعه الوضين بن عطاء بن كنانة - المتوفى عام ١٥٦هـ ولم يلق الصحابة - إلى النبي. لكن رغم ذلك فرجاله ثقات.
(٢) البخاري بشرح ابن حجر ج٦ ص٥٦٦ رقم (٣٥٥٩).
(٣) المصدر السابق ج٦ ص٥٦٦ رقم (٣٥٦٣).
(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج١ ق٢ ص١٢٩.
(٥) لا يختار في الجامع مكانًا معينًا.
(٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج١ ق٢ ص١٣١.
(٧) السيرة النبوية الصحيحة ج١ ص٨٩.

في القول والعمل، والزهد في الدنيا عند إقبالها، وعدم التطلع إليها عند إدبارها، والإخلاص لله في كل ما يصدر عنه، مع فصاحة اللسان وثبات الجنان، وقوة العقل، وحسن الفهم، والرحمة للكبير والصغير، ولين الجانب، ورقة المشاعر، وحب الصفح والعفو عن المسيء، والبعد عن الغلظة والجفاء والقسوة، والصبر في مواطن الشدة، والجرأة في قول الحق".

ونريد الآن من الذين قبلت أقلامهم العابثة أن يدخلوا رسول الله ﷺ عياداتهم النفسية، ويسارعوا بالتفسيرات المرضية لوحيه؛ بلا أدنى ضمير علمي، أو حتى مسؤولية أمام مواطنيهم الذين ائتمنوهم على العلم وجعلوهم مرجعية فيما يتعلق بالإسلام ونبيه... نريد منهم أن يجيبوا:

شخصية هذه صفاتها... هل يمكن أن تكون لرجل مريض نفسيًّا أم لرجل في قمة السواء والصحة والاستقامة؟!

* * *



خاتمة الجزء الأول



الخاتمة

أثبت هذا الجزء من الدراسة أصالة كافة أنواع (الوحي إلى محمد ﷺ)، وأن ثبوتها جاء بالقرآن والسنة، ولم تكن اختراعًا من علماء المسلمين الذين كانوا - في إثبات كيفيات الوحي للنبي - وقَّافين عند حدود القرآن والسنة، ولم يخترعوا شيئًا منها كما ادعى نولدكه.

كما أظهر فهم نولدكه الخاطئ لحديث عائشة: (نزل الملك بصورتي)؛ حيث فهم منه أن جبريل نزل بالوحي في هيئة عائشة.

وكذلك أظهر خطأه في فهمه لما في سيرة ابن هشام من قصة الأراشي الذي استعان بالنبي في رد ماله من أبي جهل؛ حيث فهم منها أن جبريل نزل بالوحي للنبي في صورة جمل.

وأثبت أن الأحاديث الصحيحة تؤكد (ظهور جبريل في هيئته الحقيقية للنبي ﷺ خلافًا لزعم نولدكه أنها لا تُثبت ذلك.

وأثبت أن (تشكل جبريل في صورة الصحابي دحية الكلبي) ثابت بالسنة الصحيحة، وليس مبنيًّا على ظن كما وهَم نولدكه.

وأظهر أن نولدكه لم يكن جادًّا في نفيه وصف رسول الله بالصرع، وأنه أخطأ في دعواه (إصابة النبي بنوبات التهيج النفسي منذ طفولته وشبابه المبكر). كما أظهر أن (حادث شق صدره ﷺ) هو تطهير لشخص النبي من حظ الشيطان، وهو ما انعكس على سلوكه فيما بعد حتى قبل البعثة، ولا علاقة لهذا الحادث بنوبات صرعية كما زعم نولدكه.

وأظهر كذلك أن (سقوطه ﷺ على الأرض، وهو ابن الخامسة والثلاثين أثناء بناء الكعبة وقبل البعثة) لم يكن سوى صيانة من الله له من أن تكشف عورته، ولا علاقة له أيضًا بنوبات صرعية، كما زعم نولدكه.

كما أظهر هذا الجزء المكانة التي كان يتمتع بها محمد ﷺ قبل البعثة؛ مما يدحض أي ادعاء بمرضه النفسي أو العصبي في طفولته أو شبابه المبكر.

وأظهر كذلك بطلان دعوى نولدكه (أن النبي اعتقد في البداية أنه مجنون).

وكشف عن خطئه في (استدلاله على دعوى التهيج النفسي للنبي ﷺ بما كان يعتريه عند الوحي من أعراض). وانتهى بشأن هذه الأعراض إلى أنها مؤقتة، تطرأ على النبي لحظة الوحي ولا تتعداها لغيرها، ومردها إلى الثقل الذي يعانيه رسول الله من جراء نزول الوحي عليه (وذلك لثقل الوحي أولًا ولاختلاف الطبيعتين الملكية والبشرية ثانيًا). وألا علاقة لهذه الأعراض بمرض عضوي أو نفسي أو عصبي يُزعم للنبي ﷺ. ولا علاقة لها كذلك بحماس أو تفكير عميق. كما أنها لا دخل للنبي في جلبها أو صرفها؛ فهي مرتبطة بالوحي وجودًا وعدمًا؛ ابتداء وانتهاء. وأنها لا تختص بالنبي، بل شاركه في الشعور بها أنبياء آخرون.

كما أبطل هذا الجزء من الدراسة استدلال نولدكه على دعواه (أن الوحي أثر للصرع) بقلة الكم الموحى به للنبي كل مرة، وبقصر سور الطَّوْرِ المكي الأول.

وبَيَّن أن القرآن كله أوحي إلى رسول الله مصحوبًا بمظاهر نزول الوحي. وأبطل ما ادعاه نولدكه من أن حماس النبي الشديد (في مرحلة بداية النبوة)، والتفكير العميق (في مرحلة ما بعد الهجرة) كانا السبب وراء التهيج النفسي الذي يدعيه نولدكه للنبي.

ومن خلال رصد ردود أفعال كافة الأوساط إزاء وحي النبي ﷺ أثبت هذا الجزء من الدراسة أن المشركين قبل الهجرة وبعدها؛ (وكذلك اليهود بعد الهجرة) لم يطرحوا جديًّا مسألة صرع النبي أو إصابته بأي مرض نفسي أو عصبي؛ بل كان منهم نفي لهذا الأمر، وأن المؤمنين قد قدموا عمليًّا عشرات من أدلة النفي لهذا التفسير.

كما أثبت هذا الجزء أن رمي النبي محمد ﷺ بالمرض النفسي لا يتفق مع ما ثبت تاريخيًّا من صفات لشخصيته ﷺ؛ وذلك بطريقين:

الأول: رصد الاختلاف التام بين نوبة المرض النفسي أو العصبي، وفق المراجع الطبية، وبين لحظة تلقي النبي الوحي، وفق الأحاديث الثابتة.

الثاني: بيان معالم الاستقرار النفسي في شخصية الرسول العظيم محمد ﷺ؛ حيث رصدناها في علاقته بالله، وتعاملاته مع الناس، ومنهج سيره ﷺ بدعوة الله.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

* * *



ملحق

(تقسيم نولدكه الزمني لسور القرآن الكريم)

الطور المكي الأول من ١ – ٥ للبعثة	الطور المكي الثاني ٥ و ٦ للبعثة	الطور المكي الثالث من ٧ – ١٣ للبعثة	المرحلة المدنية
العلق، المدثر، المسد، قريش، الكوثر، الهمزة، الماعون، التكاثر، الفيل، الليل، البلد، الشرح، الضحى، القدر، الطارق، الشمس، عبس، القلم، الأعلى، التين، العصر، البروج، المزمل، القارعة، الزلزلة، الانفطار، التكوير، النجم، الانشقاق، العاديات، النازعات، المرسلات، النبأ، الغاشية، الفجر، القيامة، المطففين، الحاقة، الذاريات، الطور، الواقعة، المعارج، الرحمن، الإخلاص، الكافرون، الفلق، الناس، الفاتحة. ٤٨ سورة	القمر، الصافات، نوح، الإنسان، الدخان، ق، طه، الشعراء، الحجر، مريم، ص، يس، الزخرف، الجن، الملك، المؤمنون، الأنبياء، الفرقان، الإسراء، النمل، الكهف. ٢١ سورة.	السجدة، فصلت، الجاثية، النحل، الروم، هود، إبراهيم، يوسف، غافر، القصص، الزمر، العنكبوت، لقمان، الشورى، يونس، سبأ، فاطر، الأعراف، الأحقاف، الأنعام، الرعد. ٢١ سورة	البقرة، البينة، التغابن، الجمعة، الأنفال، محمد، آل عمران، الصف، الحديد، النساء، الطلاق، الحشر، الأحزاب، المنافقون، النور، المجادلة، الحج، الفتح، التحريم، الممتحنة، النصر، الحجرات، التوبة، المائدة. ٢٤ سورة



الفهرس المفصل للموضوعات



الفهرس المفصل للموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *

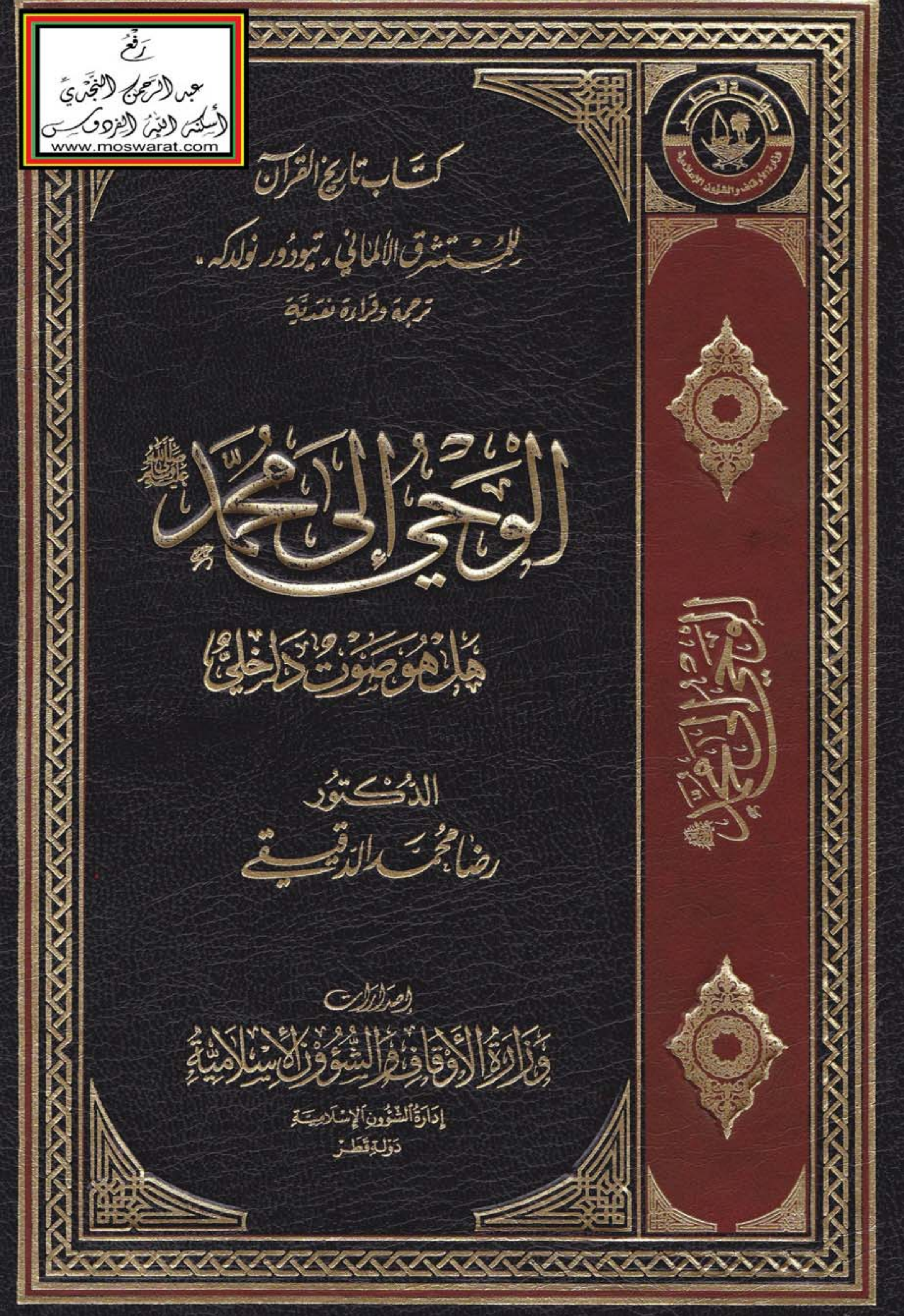
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: ٤٩٦ / ٢٠٠٩

الرقم الدولي (ردمك) : ١ - ٥٢ - ٤٤ - ٩٩٩٢١



مطابع قطر الوطنية
تليفون: ٤-٣-٤٤٤٨٤٥٢ - فاكس: ٤٤٤٩٥٥٠
ص.ب: ٣٥٥ الدوحة - قطر


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
كتاب تاريخ القرآن
للمستشرق الألماني "تيودور نولدكه"
ترجمة وقراءة نقدية
الوحي إلى محمد ﷺ
هل هو صوت داخلي
الدكتور
رضا محمد الدقيقي
إصدارات
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
إدارة الشؤون الإسلامية
دولة قطر


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

كتاب تاريخ القرآن

للمستشرق الألماني "تيودور نولدكه"

ترجمة وقراءة نقدية

لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

إدارة الشؤون الإسلامية

دولة قطر

الطبعة الأولى

الدوحة ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

قَامَ بِعَمَلِيَّاتِ المُرَاجَعَةِ وَالتَّنْضِيدِ الضَّوْئِي وَالإِخْرَاجِ الفَنِّيِّ



دار الميمان للنشر والتوزيع

الرياض: هاتف: ٤٦٢٧٣٣٦ ١ (٩٦٦)+ فاكس: ٤٦١٢١٦٣ ١ (٩٦٦)+

القاهرة: هاتف: ٢٧٩٤٩٣٧٠ (٢٠٢)+ فاكس: ٢٧٩٦٢٧٣٠ (٢٠٢)+

بريد إلكتروني: info@arabia-it.com الموقع: www.arabia-it.com



كتاب تاريخ القرآن
للمستشرق الألماني "تيودور نولدكه"
ترجمة وقراءة نقدية

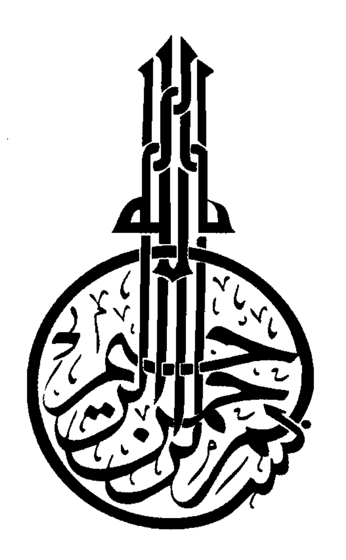
الجزء الثاني



هل هو صوت داخلي

الدكتور
رضا محمد الدقيقي

من إصدارات
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
إدارة الشؤون الإسلامية
دولة قطر


بسم الله الرحمن الرحيم



المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله

وبعد...

١- فلقد أوقفنا الجزء الأول من هذه الدراسة على خطأ نولدكه فيما ادعاه من أن الوحي إلى محمد ﷺ لم يثبت بقرآن أو سنة. كما أوقفنا على بطلان تفسير نولدكه لوحي الله إلى محمد ﷺ على أنه عرَض لمرض نفسي يدعي نولدكه أن رسول الله كان مصابًا به منذ شبابه المبكر، وظل يعاوده على فترات متقطعة فيما يسميه نولدكه نوبات صرعية.

٢- وهذا هو الجزء الثاني من الدراسة، وهو بعنوان:

الوحي إلى محمد ﷺ: هل هو صوت داخلي[1]؟

وأتناول فيه رؤية نولدكه أن رسول الله كان صادقًا حين قال إنه قد أوحي إليه. لكن نولدكه يرى أن الوحي إليه ﷺ لم يكن سوى صوت نما بداخله (كرد فعل على شرك قومه). وكان سبب ظهور هذا الصوت الداخلي عاملان هما: الخلوة الطويلة في الغار، والتفكر في عقائد أهل الكتاب. لكن محمدًا ظن أن هذا الصوت الداخلي صادر له من الله تعالى وذلك بسبب الطبيعة النفسية الساذجة التي يدعيها نولدكه للنبي محمد ﷺ.

(١) نجد في هذا الجزء الآراء التي طرحها نولدكه في القسم الأول من كتاب: تاريخ القرآن بالألمانية صفحات: ١-٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٢٠-٢٤، ٢٧-٢٨، ٩٥-٩٦، ١١٦، ١١٨، ١٤٨-١٤٩، ١٩٣، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢١٥-٢١٦، ٢١٧، ٢٣٢، ٢٤٢، ٢٥٣، ٢٥٩-٢٦١.

٣- آراء نولدكه التي يعالجها هذا الجزء:

يقول نولدكه[١]:

"Wenn Muhammed aber das von Fremden Empfangene in langer Einsamkeit mit sich herumtrug. es auf seine Denkweise wirken und nach dieser wieder sich umformen ließ. bis ihn endlich die entschiedene innere Stimme zwang. trotz Gefahr und Spott damit vor seine Landsleute zu treten. um sie zu bekehren. So müssen wir darin den oft bis zum Fanatismus gesteigerten Propheteneifer erkennen".

"عندما حمل محمد في خلوته الطويلة أفكار الغرباء[٢] وتركها لتتفاعل مع فكره؛ أخذت تتشكل بداخله إلى أن أجبره الصوت الداخلي أخيرًا أن يتقدم لمواطنيه ليهديهم، رغم الخطر والاستهزاء. بهذا يجب أن نفهم حماس النبوة الذي يصل لدرجة التعصب".

ويقول[٣]:

"Je genauer man die besten Biographien und die unverfälschte Quelle für die Erkenntnis seines Geistes den Qoran. kennen lernt. desto fester wird man davon überzeugt. daß Muhammed innig an die Wahrheit seines Berufs glaubte. den falschen Götzendienst der Araber durch eine höhere. selig machende Religion zu ersetzen. Wie hätte er sonst im Qoran mit solchem Feuer gegen die Lügner predigen können. denen er die schrecklichsten Höllenstrafen verspricht. so daß er erklärt. er würde selbst der göttlichen Strafe verfallen sein. wenn er nicht die ganze Offenbarung verkündete?"

"إن المرء كلما تعرف على روح محمد أكثر من خلال أفضل السِّيَر والقرآن، الذي هو المصدر الصحيح الذي ليس عليه غبار، ازداد ثقة أن محمدًا قد آمن بحقية

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٣.

(٢) يقصد اليهود والنصارى. [المؤلف]

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٣.

رسالته، وأنه عليه تبديل عبادة الأوثان الخاطئة عند العرب؛ وإلا فكيف قويَ على أن ينذر المكذبين برسالته، متوعدًا إياهم بأشد عذاب في جهنم؛ لدرجة أنه يوضح أيضًا أنه ذاته سيقع تحت عقوبة الله إذا لم يبلغ الوحي كاملًا؟".

ويستدل نولدكه[1] على ما يسميه: (خوف النبي من عدم التبليغ) بالآيات: المائدة ٦٧، والأنعام ١٥، ويونس ١٥، والزمر ١٣.

ويزعم نولدكه أن النبي كان لديه في البداية خوف شديد هو الذي منعه من إعلان دعوته؛ لكنه فيما بعد قاوم بالصوت الداخلي ذلك الخوف حيث أوجب عليه البلاغ؛ يقول[2]:

"Dazu kommt noch die Tatsache. welehe freilich die Muslime zu verdecken suchen. daß Muhammed von Natur weich. ja furchtsam war. so daß er zuerst gar nicht wagte. öffentlich aufzutreten; aber die innere Stimme liess ihm keine Ruhe: er mußte predigen und mußte sich so oft er den Mut hatte sinken lassen. immer wieder emporraffen. trotz der Schmähungen und Beleidigungen von seiten seiner früheren Freunde".

"إضافة إلى هذا، تأتي حقيقة يحاول المسلمون التغطية عليها، وهي أن محمدًا كان بطبيعته ليِّن الجانب، أو قُل: خوافًا؛ حيث لم يجرؤ أبدًا في البداية أن يعلن دعوته، لكن الصوت الداخلي [3]لم يدعه في راحة؛ لقد أوجب عليه أن يبلِّغ، وكان يشُدُّ من أزر شجاعته كلما وهنت برغم إهانات وتوبيخ أصدقائه القدامى".

وادعى نولدكه أن النبي عدَّ ذلك الصوت معيارًا للحكم على كل القضايا، مما نتج

---

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٣ هامش ٢. مع مراعاة أن نسخة القرآن التي اعتمدها هي طبعة فلوجل.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٤.

(٣) لدى مونتجمري وات: (محمد في مكة ص ٨٤) فكرة مماثلة؛ حيث ادعى أن كلمة جبريل للنبي: «**أنت رسول الله**» يمكن ألا تكون تعبيرًا خارجيًّا، بل هي تعبير فكري (داخلي) أي أنه لم يسمع، ولم يخيل إليه أنه يسمع".

عنه خلط النبي بين الديني والدنيوي؛ قال[1]:

"Da er nicht imstande war Geistliches und Weltliches scharf auseinanderzuhalten. gebrauchte er die Autorität des Qorans oft um Dinge anzuordnen. die nichts mit der Religion zu tun hatten. Man darf aber bei der Beurteilung dieser Tatsache nicht übersehen. daß für seine Zeit Religion und Gesellschaftsordnung noch enge miteinander verbunden waren. und daß das Herabziehen Gottes in die allermenschlichsten Angelegenheiten auf der anderen Seite das Alltagsleben in eine höhere. göttliche Sphäre erhebt.

Ein naiver Denker. wie er war. mußte Muhammed alles für erlaubt halten. was der Stimme seines Herzens nicht geradezu widersprach".

"هنا لم يكن باستطاعة محمد أن يفصل بين الديني والدنيوي؛ فلقد استعمل سلطة القرآن كثيرًا لتنظيم أشياء لا علاقة لها بالدين. ولتقييم الأمر يجب ألا ننسى أن الدين ونظام المجتمع في عصره كانا مرتبطين فيما بينهما. وإنزال الله إلى أبسط الأمور في الحياة العادية يجعلها في أفق إلهي سام.

إن مفكرًا ساذجًا مثل محمد كان يجب عليه أن يَعد كل ما لا يعارض صوت قلبه مباحًا".

لكن لماذا اعتبر النبي ذلك الصوت الداخلي وحيًا من الله؟ يجيب نولدكه عن هذا في ضوء تصوره للنبوة على إطلاقها؛ إذ هي عنده مكونة من ثلاثة عناصر: الخيال الخَصب، والإلهام القريب من الشعور، وبدرجة أقل: النظر العقلي. وهذا الأخير لم يكن للنبي محمد - في زعم نولدكه - حظٌ منه؛ لذا اعتبر أن شعوره الداخلي هو صوت الله؛ يقول[2]:

"Aber der Geist Muhammeds ist mit zwei großen Mängeln behaftet. die seine Hoheit sehr beeinträchtigen. Wenn überhaupt

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٥.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٤.

die Prophetie mehr aus der erregten Phantisie und unmittelbaren Eingebungen des Gefühls entspringt. als aus der spekulierenden Vernunft. so fehlte es Muhammed ganz besonders an dieser. Während er eine große praktische Klugheit besaß. ohne die es ihm nie gelungen wäre. über alle Feinde zu triumphieren. ermangelte er fast gänzlich des logischen Abstraktionsvermögens. Darum hielt er das. was sein Inneres bewegte für etwas ganz äusserlich vom Himmel her Hineingelegtes und prüfte nie seinen Glauben. sondern folgte dem Instinkt. der ihn bald hierhin. bald dorthin trieb. denn er hielt ja gerade diesen für Gottes Stimme. die ihm besonders zuteil würde".

"لكن روح محمد مرتبطة بنقصين كبيرين يقللان من قدره:

فإذا كانت النبوة على إطلاقها تصدر عن الخيال الخَصب، والإلهام القريب من الشعور، بدرجة أكبر من صدورها عن العقل النظري؛ فإن محمدًا كان ينقصه هذا الأخير[1] بشكل فادح[2].

وفي حين أنه كان يمتلك ذكاء عمليًّا شديدًا، لم يكن باستطاعته بدونه أن ينتصر على أعدائه؛ فلقد كان ينقصه - بشكل رهيب - القدرة على التجريد المنطقي[3]؛ لذا فقد اعتبر كل ما يتحرك بداخله شيئًا خارجيًّا مرسلًا له من السماء، ولم يختبر أبدًا هذا الإيمان؛ بل انقاد للشعور الغريزي، الذي قاده مرة إلى هنا ومرة إلى هناك؛ إذ إنه كان يعتبر [هذا الشعور الداخلي] صوت الله الذي قُدِرَ له بشكل خاص".

ويدعي نولدكه أنه بسبب هذا اعتُقد في (التلقي الحرفي للوحي) أساسًا للإسلام، ونظر النبي إلى السور التي يزعم نولدكه أن فيها برهنة على التفكير الواعي لمحمد؛ والأخرى التي يدعي أنها تُعد نِتاجًا لحالته النفسية الهائجة العنيفة؛ على أنهما معًا

(١) [النظر العقلي].
(٢) [هذا هو النقص الأول المزعوم]. [المؤلف]
(٣) [وهذا هو النقص الثاني المزعوم]. [المؤلف]

رسالةٌ إلهيةٌ حقيقيةٌ دون تفريق، وأن هذا فُعل أيضًا من الأنبياء الإسرائيليين. وأن هذا لم يكن من محمد خداعًا؛ وإنما سببه: الإيمان الساذج؛ يقول[1]:

"Daher kommt auch jene äusserliche. buchstäbliche Auffassung der Offenbarung. die dem Islam zugrunde liegt.

Hiermit hängt zusammen. daß Muhammed Suren die er nachweisbar mit bewußter Überlegung und Benutzung fremder Erzählungen anfertigte. ganz wie ersten Erzeugnisse seines glühend erregten Gemütes für wirkliche Gottesbotschaften ausgab.

Indessen könnte dieser Vorwurf auch den israelitischen Phopheten gemacht werden. welche ihre schriftstellerischen Erzeugnisse als "Worte von Jahve Zebaoth" publizierten.

Im allgemeinen aber wird solche Formulierung. hier wie dort. nicht von der bewussten Absicht. zu täuschen. eingegeben sein. sondern von dem naiven Glauben.

Die Propheten sind ja nicht nur in der Ekstase Medien der Gottheit. vielmehr kann ihnen ihr ganzes Denken und Tun als unmittelbarer Ausfluß göttlichen Wirkens erscheinen.

Trotzdem hat Muhammed. wie wir später noch sehen werden. weder jede Offenbarung zur Aufnahme in den Qoran bestimmt noch viel weniger seine Aussprüche alle für Offenbarungen ausgegeben".

"من هنا يأتي الأخذ الحرفي للوحي الذي هو[2] أساس الإسلام.

ويتعلق بهذا أن محمدًا نظر إلى السور التي فيها برهنة على التفكير الواعي لديه[3] واستخدم فيها القصص؛ على أنها مثل [الأخرى التي هي] نتاج حالته النفسية الهائجة العنيفة في كونها رسالةً إلهيةً حقيقيةً. وقدمها على أنها كذلك.

بهذا يمكن أن يؤخذ نفس المأخذ على الأنبياء الإسرائيليين الذين نشروا أعمالهم الكتابية على أنها (كُتبت من رب الصباؤوت).

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٤، ٥.

(٢) [أي الأخذ الحرفي].

(٣) لم يذكر نولدكه مثالًا واحدًا لهذه السور.

وبشكل عام، فإن هذه التعبيرات هنا أو هناك لم توضع عمدًا بهدف الخداع؛ وإنما مرجعها إلى الإيمان الساذج.

لم يظهر الأنبياء في حالة جذب وسيط الألوهية وحدها [ملك الوحي]؛ بل في مرات عديدة ظهر كل تفكيرهم وعملهم على أنه إفراز مباشر للفاعلية الإلهية ذاتها.

وبالرغم من هذا فإن محمدًا - كما سنرى ذلك أيضًا فيما بعد - لم يُدَوِّن جميع الوحي في القرآن، كما لم يقل أيضًا: إن جميع تصريحاته تُعد وحيًا".

كما فهم نولدكه النبوة مطلقًا: على أنها مجرد شعور لدى أي نبي أنه مدفوع من قوة إلهية للتبليغ.

يقول[1]:

"Das Wesen des Propheten besteht darin, daß sein Geist von einer religiösen Idee erfüllt und endlich so ergriffen wird, daß er sich wie von einer göttlichen Macht getrieben sieht, jene Idee seinen Mitmenschen als von Gott stammende Wahrheir mitzuteilen.......

Jesus von Nazareth wollte mehr sein als ein Prophet. Denn er fühlte sich als der von den Propheten Israels verheißene Messias und als der Begründer einer neuen Religion des Herzens und der Gesinnung; ja er wußte seiner Gemeinde die Gewissheit einzuhauchen, daß er als der Sohn Gottes und der Herr der Gläubigen, trotz Martern und Tod, in die Herrlichkeit des Vaters einginge".

"إن طبيعة الأنبياء تجعل روح النبي ممتلئة بفكرة دينية يتأثر بها إلى درجة تجعله يشعر أنه مدفوع من قوة إلهية ليبلغ فكرته هذه إلى مواطنيه على أنها حقيقة مأخوذة من الله...

إن مسيح الناصرة أراد أن يكون أكثر من نبي؛ لأنه كان يشعر أنه هو المسيح الذي وعد به أنبياء بني إسرائيل. وباعتباره مؤسسًا لدين القلب والفكر الجديد؛ فقد

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١، ٢.

عرف كيف يبث الثقة في طائفته أنه هو ابن الإله وسيد المؤمنين؛ الذي رغم العذاب والموت؛ قد ذهب في عظمة الأب".

والنبوة عند نولدكه مكونة من ثلاثة عناصر: الخيال الخَصب، والإلهام القريب من الشعور، وبدرجة أقل: النظر العقلي؛ يقول[1]:

"....überhaupt die Prophetie mehr aus der erregten Phantisie und unmittelbaren Eingebungen des Gefühls entspringt. als aus der spekulierenden Vernunft..."

إن "النبوة على إطلاقها تصدر عن الخيال الخَصب، والإلهام القريب من الشعور، بدرجة أكبر من صدورها عن العقل النظري".

ويقول[2]:

"Die Propheten sind ja nicht nur in der Ekstase Medien der Gottheit. vielmehr kann ihnen ihr ganzes Denken und Tun als unmittelbarer Ausfluß göttlichen Wirkens erscheinen".

"لم يظهر الأنبياء في حالة جذب وسيط الألوهية وحدها؛ بل في مرات عديدة ظهر كل تفكيرهم وعملهم على أنه إفراز مباشر للفاعلية الإلهية".

والدليل على إيمان محمد المطلق بنبوته - عند نولدكه - هو وجود أتباع كثيرين له من المسلمين: نبلاء، وعقلاء، وذوي نسب رفيع؛ يقول[3]:

"Wie hätten ihm so viele edle und verständige Muslime. vorzüglich seine nächsten Freunde Abu Bekr und Omar in Glück und Unglück mit ausdauernder Treue zur Seite stehen können. wenn er bloß ein Gaukler gewesen wäre?

Ganz besonders erhöht den Wert des Zeugnisses vieler Anhänger noch der Umstand. daß sie. Männer aus angesehenen Familien. in allem Geschlechtshochmut des durch und durch aristokratischen

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٤.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٥.

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٣، ٤.

Arabers aufgewachsen. aus Begeisterung für den Propheten und seine Lehre sich einer Sekte anschlossen. die größtenteils aus Sklaven. Freigelassenen und andern Leuten der niedrigsten Klasse bestand. obgleich ihnen dies von ihren Landsleuten zur größten Schande angerechnet wurde".

"لو كان محمد مجرد مهرج، فهل كان يسانده في السراء والضراء مع ولاء مطلق، كثير من المسلمين النبلاء والعقلاء؛ وبخاصة صديقاه القريبان منه أبو بكر وعمر؟

ترتفع بشكل خاص قيمة شهادات عديد من أتباعه بوصفهم رجالًا من عائلات مرموقة نشئوا في نسب رفيع بين العرب الأرستقراطيين؛ وعن حماس للنبي وتعاليمه انضموا لطائفته التي كان أكثرها عبيدًا أو عتقاء أو أناسًا آخرين ذوي طبقة دنيا، وكانوا يَعرفون أن ذلك يُعد من وجهة نظر مواطنيهم عارًا عليهم".

***

هذه هي نصوص نولدكه التي يطرح فيها تفسيره للوحي المحمدي على أنه صوت داخلي؛ ويمكن لنا أن نصنفها إلى النقاط الآتية:

- دخل النبي في خلوة طويلة.
- تفاعلت بداخله أثناءها أفكار الغرباء (يقصد أهل الكتاب).
- فنشأ صوت داخلي ظنه وحيًا من الله.
- دليله على وجود هذا الصوت الداخلي عند النبي ﷺ هو أن النبي كانت لديه قوة كبيرة على إنذار المشركين رغم أنه كان شديد الخوف؛ كما كان لديه خوف شديد من عذاب الله إذا قصَّر في تبليغ دعوته؛ فافتراض هذا الصوت الداخلي هو التفسير الوحيد لوجود هذين الأمرين.
- ويجيب نولدكه عن سؤال: لماذا نظر النبي إلى ذلك الصوت الداخلي على أنه قادم له من الله وحيًا؟ فيرى أن النبي لم يكن لديه حظ من النظر العقلي أو التجريد المنطقي.

ترتب على هذا أن:

- أصبح (التلقي الحرفي للوحي) أساسًا للإسلام.
- نظر محمد ﷺ - كعادة الأنبياء الإسرائيليين - إلى كل السور الواعية (سواء الهادئة أو الحماسية)؛ على أنهما رسالةٌ إلهيةٌ حقيقيةٌ. وهذه النظرة ليست خداعًا من محمد؛ بل بسبب الإيمان الساذج.
- عَدَّ محمد صوته الداخلي معيارًا للحكم على كل القضايا.
- سكب هذا الصوت في شعور محمد ﷺ الإيمان المطلق بنبوته.
- نشأ عن هذا الصوت حماس النبوة الذي وصل لدرجة التعصب.
- أعطى هذا الصوت النبي القوة لأن يتوعد الكافرين بالعذاب إذا لم يستجيبوا له.
- أجبر ذلك الصوت محمدًا على التبليغ، وجعله يعلن خوفه هو أيضًا من عذاب الله إذا لم يبلغ.

من هنا يأتي هذا الجزء في ثلاثة فصول:

الفصل الأول عنوانه: نشأة الصوت الداخلي.. مناقشة ورد

أعرض فيه بالتحليل والنقد لحديث نولدكه عن الملابسات التي أنشأت الصوت الداخلي الذي يزعمه للنبي محمد. كما أتناول كذلك الدليل الذي يطرحه نولدكه على وجود ذلك الصوت.

وسيأتي هذا الفصل في مبحثين:

- **المبحث الأول**: مناقشة دليله على وجود الصوت الداخلي المزعوم.
- **المبحث الثاني**: تفسيره لنشأة ذلك الصوت.

والفصل الثاني عنوانه: دعواه افتقاد النبي التجريد المنطقي. وأعرض فيه بالتحليل والنقد لدعوى نولدكه أن النبي كان ينقصه بشكل فادح كل من النظر العقلي والتجريد

المنطقي؛ لذا فإنه عد كل ما يتحرك بداخله صوتًا لله، وخلط بين ما هو ديني وما هو دنيوي.

وسيأتي هذا الفصل في مبحثين:

- **المبحث الأول** بعنوان: الرد عليه في تصوره الخاطئ للنبوة.
- **المبحث الثاني** بعنوان: الرد عليه في وصفه النبي بعدم القدرة على التجريد المنطقي.

والفصل الثالث عنوانه: تهافت قوله بالصوت الداخلي تفسيرًا للوحي.

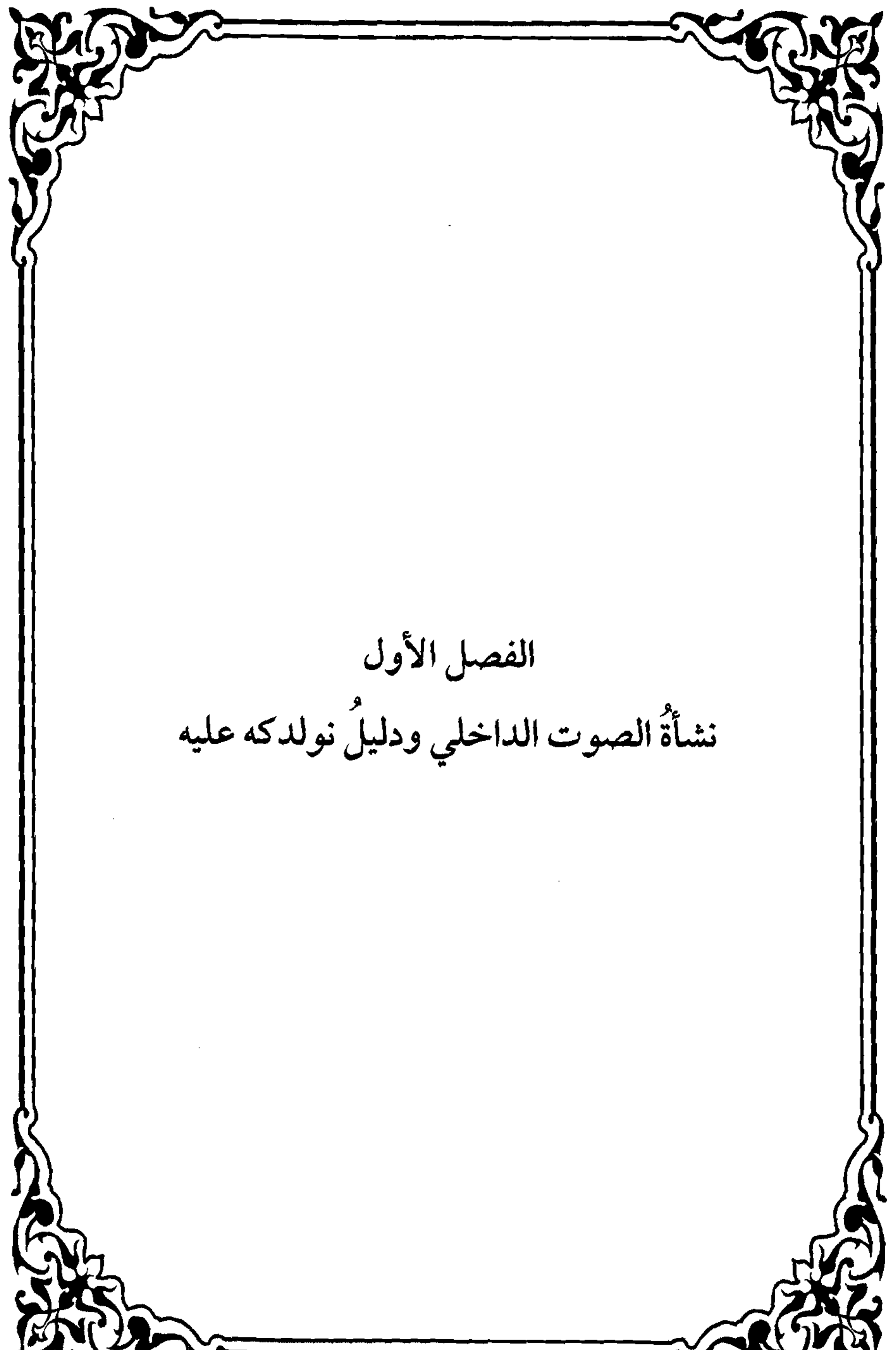
أرصد فيه حوادث تاريخية صحيحة لواقع العلاقة بين النبي والقرآن، وواقع العلاقة بين النبي وحالة الوحي ذاتها. وأحلل تلك الحوادث. كما أناقش نولدكه فيما زعمه من آثار قال: إنها ترتبت على زعمه عد النبي صوته الداخلي وحيًا.

وسيأتي هذا الفصل في ثلاثة مباحث:

- **المبحث الأول**: تناقض القول بالصوت الداخلي مع واقع العلاقة بين النبي والقرآن.
- **المبحث الثاني**: تناقض القول بالصوت الداخلي مع حالة الوحي ذاتها.
- **المبحث الثالث**: تهافت حديثه عن آثار الصوت الداخلي المدعى.

وأسأل الله تعالى دوام التوفيق





الفصل الأول

نشأةُ الصوت الداخلي ودليلُ نولدكه عليه



تمهيد

أعالج في هذا الفصل الدليل الذي يطرحه نولدكه على ادعائه وجود صوت داخلي لدى النبي، وتفسيره لنشأته؛ وسيأتي في مبحثين:

المبحث الأول: مناقشة دليله على وجود الصوت الداخلي للنبي.

المبحث الثاني: تفسيره لنشأته.

* * *



المبحث الأول
مناقشة الدليل على وجود الصوت الداخلي المزعوم لدى النبي

يستدل نولدكه على وجود الصوت الداخلي عند النبي بدليلين؛

أولهما: أنه ﷺ كانت له صفة يحاول المسلمون إخفاءها هي أنه كان شديد الخوف؛ لكنه رغم ذلك وجدت لديه قوة كبيرة على إنذار المشركين؛ ولا يمكن تفسير هذا إلا بافتراض أنه مدفوع من صوته الداخلي.

وثانيهما: أنه كان لديه خوف شديد من عذاب الله إذا قصَّر في تبليغ دعوته؛ ولا يمكن تفسير هذا إلا بافتراض أنه مدفوع من صوته الداخلي؛ يقول[1]:

"إن المرء كلما تعرف على روح محمد أكثر من خلال أفضل السِّيَر والقرآن، الذي هو المصدر الصحيح الذي ليس عليه غبار، ازداد ثقة أن محمدًا قد آمن بحقية رسالته وأنه عليه تبديل عبادة الأوثان الخاطئة عند العرب؛ وإلا فكيف قويَ على أن ينذر المكذبين برسالته متوعدًا إياهم بأشد عذاب جهنم؛ لدرجة أنه يوضح أيضًا أنه ذاته سيقع تحت عقوبة الله إذا لم يبلغ الوحي كاملًا؟".

ويستدل[2] على ما يسميه: خوف النبي من عدم التبليغ بالآيات: المائدة ٦٧، والأنعام ١٥، ويونس ١٥، والزمر ١٣؛ وهي بالترتيب:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٣.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٣ هامش ٢.

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾، ﴿قُلۡ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّى عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾، ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّى عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾، ﴿قُلۡ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّى عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾.

كما يزعم نولدكه أن النبي كان لديه في البداية خوف شديد هو الذي منعه من إعلان دعوته؛ لكن الصوت الداخلي شجعه على البلاغ؛ يقول[1]:

إضافة إلى هذا تأتي حقيقة يحاول المسلمون التغطية عليها، وهي أن محمدًا كان بطبعه ليِّن الجانب أو قل خوافًا؛ حيث لم يجرؤ أبدًا في البداية أن يعلن دعوته، لكن الصوت الداخلي *Innere Stimme* لم يدعه في راحة؛ لقد أوجب عليه أن يبلِّغ، وكان يشُدُّ من أزر شجاعته كلما وهنت برغم إهانات وتوبيخ أصدقائه القدامى".

أولًا: الرد على دليل نولدكه الأول:

إن نولدكه يزعم أن محمدًا ﷺ كانت له صفة يحاول المسلمون إخفاءها هي أنه كان شديد الخوف؛ لكنه رغم ذلك وجدت لديه قوة كبيرة على إنذار المشركين؛ ولا يمكن تفسير هذا إلا بافتراض أنه مدفوع من صوته الداخلي.

ونلاحظ هنا أن هذا الدليل بني على ثلاث قضايا واستنتاج.

الأولى أن النبي كان خوافًا، و**الثانية** أن المسلمين أخفوا ذلك، و**الثالثة** أنه كانت لديه قوة كبيرة لإنذار المشركين. واستنتاجه هو: أنه ﷺ ما دام كان يملك القوة الكبيرة على الإنذار بالرغم من كونه خوافًا؛ فلا بد أن يكون محركه هو الصوت الداخلي.

والقضية الثالثة مُسَلَّمة؛ وبالتالي فلا تعليق لنا عليها؛ لكن **الأولى والثانية** يحتاجان لرد:

أما القضية الأولى وهي دعوى كونه ﷺ خوافًا؛ فهي قضية كاذبة؛ لأن ما نقله شهود العيان عن شجاعته ﷺ وثباته وقوة تحمله يثبت عكس ذلك تمامًا:

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٤.

أ- عن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ قال: «**كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون**»[(١)]؛ فهل هذا خطاب خائف؟!

ب- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق الناس قِبل الصوت فاستقبلهم النبي ﷺ قد سبق الناس إلى الصوت وهو يقول: «**لم تراعوا، لم تراعوا**»[(٢)]؛ فهل هذا سلوك خائف؟

ج- عن عليٍّ رضي الله عنه قال: (لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأسًا)[(٣)]، وعنه كذلك قال: (كنا إذا احمَرَّ البأس ولقيَ القومُ القومَ اتقينا برسول الله فما يكون منا أحد أدنى من القوم منه)[(٤)]. فالنبي هو الأقرب للعدو والمسلمون يلوذون به وهو أشد المقاتلين يوم بدر بأسًا؛ فهل هكذا يكون الخائف؟ وإذا كان الخائف هكذا فكيف يكون الشجاع؟

د- عندما كان النبي وأبو بكر في الغار ويسمعان وقع أقدام المشركين على فم الغار - قبل أن يصرفهم الله عنه - قال أبو بكر للنبي: (لو نظر أحدهم تحت قدمه

(١) البخاري بشرح ابن حجر ج٦ ص٦١٩ رقم (٣٦١٢).
(٢) البخاري بشرح ابن حجر ج١٠ ص٤٥٥ رقم (٦٠٣٣).
(٣) مسند أحمد ج١ ص٨٦ رقم (٦٥٤)، وانفرد به أحمد.
(٤) المستدرك ج٢ ص١٥٥ رقم (٢٦٣٣)، (قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال محقق الكتاب مصطفى عبد القادر عطا: قال الذهبي في التلخيص: صحيح)، ومسند أحمد ج١ ص١٥٦ رقم (١٣٤٦).

لرآنا)؛ فيقول له رسول الله: «**ما ظنك باثنينَ الله ثالثهما؟**»[1].. فهل هذا قول رجل خائف؟

هـ- كما أنه لم يكتف بممارسة مهمة القيادة في الحرب، بل مارس القتال بنفسه في معظم غزواته. وفي غزوة أحد لبس درعين من حديد[2] وكُسرت خوذته على رأسه، وأدمي وجهه وكسرت رباعيته، وشج وجهه، وجعل الدم يسيل عليه[3].

وبعد هزيمة المسلمين في أُحُد قاد في اليوم التالي سبعين من المسلمين وتبع المشركين المنتصرين[4] إلى منطقة حمراء الأسد، على بعد ثمانية أميال من المدينة، وأقام بها ثلاثة أيام؛ دون أن يعبأ بتخذيل المثبطين. وكان ذلك بهدف ألا يطمع المشركون في المسلمين ويفكروا في الرجوع إلى المدينة[5]؛ وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾[6] فهل هذه الخطة وهذا السلوك يُتوَقَّعان من خائف؟

و- كما أنه يوم الحديبية، وقبل أن يمضي رسول الله ﷺ صلحها؛ جاءه بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة.. فأخذ يُخوِّفه من جَمْع قريش وما أعدت، وقال: هم مقاتلوك وصادوك عن البيت. فقال رسول الله ﷺ: «**إنا لم نجئ لقتال أحد ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشًا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم؛ فإن شاءوا ماددتهم مدة ويُخَلُّوا بيني وبين الناس؛ فإن أَظْهَرْ فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل**

(١) البخاري بشرح ابن حجر ج٧ ص١٢ رقم (٣٦٥٣)، مع شرح ابن حجر له.

(٢) مسند أحمد ج٣ ص٤٤٩ رقم (١٥٧٦).

(٣) مسند أحمد ج١ ص٣٠ رقم (٢٠٨)، ج٣ ص٩٩ رقم (١١٩٧٤). وسنن ابن ماجه ج٢ ص١٣٣٦ رقم (٤٠٢٧) وقال: في الزوائد: إسناده صحيح، رجاله ثقات.

(٤) البخاري بشرح ابن حجر ج٧ ص٣٧٤ رقم (٤٠٧٧).

(٥) تفسير الطبري وابن كثير للآيتين ١٧٢ - ١٧٣ آل عمران.

(٦) آل عمران: ١٧٢ - ١٧٣.

فيه الناس فعلوا؛ وإلا فقد جموا[1]، وإن هُم أبَوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي[2] ولينفذن الله أمره»[3].

فالرسول هنا لا يؤثِّر فيه التخذيل والتخويف، ولديه من الثبات والتوازن النفسيين ما يجعله يعلن - بشكل عفوي وفي كلمات قليلة - عن نيته زيارة بيت الله، ورغبته في السلم والصلح أو الهدنة وإظهار محاسنهما، والتنبيه لخطورة الحرب مع الاستعداد لها إن فرضتها قريش، والاستعداد الشخصي منه أيضًا أن يُقتل فيها؛ فهل هذه نفسية خائف؟ وهل هذه العروض المتوازنة تتفق ونفسية الشخص الخائف؟ فأين هو النبي الذي وصفه نولدكه بأنه كان بطبعه خوافًا؟

ز- عن يوم حنين يروي شهود عيان كثيرون، منهم: جابر بن عبد الله؛ أنهم في هذه الغزوة؛ وفي عماية الصبح؛ فوجئوا بأعدائهم؛ وقد كمنوا لهم في شعاب واد من أودية تهامة وفي أجنابه ومضايقه، قد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا؛ قال: فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدت علينا شدة رجل واحد، وانهزم الناس راجعين، فاستمروا لا يلوي أحد منهم على أحد، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، ثم قال: «**إليّ أيها الناس، هلم إليّ، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله**»[4].

ومن أولئك الشهود كذلك: أَنَس بْن مَالِكٍ وأبو عبد الرحمن الفهري اللذان يرويان أن المسلمين لما ولَّوْا يوم حنين إثر مفاجأة المشركين لهم في عماية الصبح؛ نادى فيهم رسول الله: «**يَا عِباد اللَّهِ أَنَا عَبدُ اللَّهِ وَرَسولُه، يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنَا عَبدُ اللَّهِ وَرَسولُه**»[5].

ومنهم أيضًا البراء بن عازب الذي يسأله رجل قائلًا: يا أبا عمارة، أَوَلَّيْتُم يوم

(١) استراحوا من جهد الحرب.

(٢) السالفة: صفحة العنق، والمراد يُقتل.

(٣) البخاري بشرح ابن حجر ج٥ ص٣٣٠ رقم (٢٧٣٢).

(٤) مسند أحمد ج٣ ص٣٧٦ رقم (١٥٠٦٩).

(٥) مسند أحمد ج٣ ص١٩٠ رقم (١٣٠٠٠)، وج٥ ص٢٨٦ رقم (٢٢٥٢٠).

حنين؟ قال البراء: أما رسول الله ﷺ لم يولِّ يومئذ؛ كان أبو سفيان بن الحارث آخذًا بعنان بغلته، فلما غشيه المشركون نزل فجعل يقول: «**أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**»، فما رئي من الناس يومئذ أشد منه[1].

فهنا نجد أن جنود النبي؛ رغم كثرة عددهم، ونظرًا لعنصر المفاجأة الذي أحسن أعداؤهم استغلاله؛ ساد بينهم الهرج والمرج، وانهزموا راجعين، واستمروا لا يلوي أحد منهم على أحد - حسب تعبير جابر بن عبد الله - ولم يبق حول النبي منهم أحد؛ وأحاط الأعداء بهم من كل جانب؛ ثم يختار النبي في أثناء معركة مثل هذه وفي أتونها؛ أن ينادي بأعلى صوته داعيًا الناس إليه باسم النبوة، ليعيد من جديد تنظيم صفوفهم، والكرة بعد الفرة، دون أن يبالي أن صوته قد يكشف مكانه؛ فيكون وصول أعدائه - المحيطين به - إليه أسرع من وصول جنوده المتفرقين البعيدين عنه المأخوذين من هول المفاجأة.

وأسأل الآن من يتجرأ ويرمي رسول الله بالخوف: هل هذا قرارٌ لقيادة خائفة؟ وهل توجد الآن قيادة سياسية أو ميدانية تختار طوعًا أن تفعل مثل ما فعل النبي في ظرف مشابه؟!

وكيف خفيت كل تلك الشواهد من التاريخ الصحيح عن نولدكه القارئ المدقق؟ أم أنه لا يتوقف عند ما يعارض رؤاه المسبقة؟

أما القضية الثانية وهي دعواه أن المسلمين أخفوا كونه ﷺ خوافًا؛ فمردود عليها بالآتي:

أ- ما دمنا انتهينا إلى أن الخوف لم يكن صفة لرسول الله ﷺ؛ وأثبتنا عكس ما ادعاه نولدكه؛ فيحق لنا أن نتساءل:

من أين جاء نولدكه بأن النبي كان خوافًا بطبعه؟ هناك احتمالان:

إما أن يكون قد قال هذا مجرد انطباع دون الرجوع للروايات الإسلامية؛ وبالتالي لا يُعتد بقوله لمخالفته الروايات الصحيحة كما مر.

(١) البخاري بشرح ابن حجر ج٦ ص١٦٤ رقم (٣٠٤٢).

وإما أن يكون قد اعتمد في هذا على رواية من روايات المسلمين؛ وبالتالي فلا يصح إذن ما زعمه من أن المسلمين حاولوا التغطية على أن النبي كان "خوافًا بطبعه، وأنه لم يجرؤ أبدًا في البداية أن يعلن دعوته..".

ب- إن زعم أن المسلمين أخفوا شيئًا من صفات رسول الله، أيًّا ما كان المخفي؛ فهو زعم متهافت؛ وذلك لسبب يسير هو أنه ما كان لديه شيء يستحيي المسلمون عند إظهاره حتى يجتهدوا في التغطية عليه وإخفائه.

وبشكل عام فإن دعوى إخفاء المسلمين بعض الأشياء بشأن النبي هي دعوى كثيرًا ما تلوكها ألسنة الباحثين الغربيين عندما يفاجئون أن الروايات عن النبي ليس فيها ما يشينه في هذا الشأن أو ذاك؛ لذا فبدلًا من أن يستنتج المستشرق أن مقتضى ذلك أنه لم يكن في حياته ﷺ ما يشين؛ فإنه يدعي أن المسلمين أخفوا كل ما يشير إلى نقص مزعوم له ﷺ.

وأقول: إنه على فرض وجود مثل تلك الأشياء لديه ﷺ؛ لما أمكن أحدًا إخفاؤها حتى إن أراد؛ لأن النبي لم يكن شخصية هامشية في مجرى التاريخ والأحداث؛ بل كان فضلًا عن كونه نبيًّا؛ شخصية عامة ملأ السمع والبصر؛ ولم يكن له مثل ما لقادة هذه الأيام من دوائر مقربة تحجب عن الناس ما لا يراد كشفه؛ بل كانت حياته وصفاته وسائر أقواله وأفعاله مرصودة من الناس في غير تجسس، ويعتبرون - بحق - نقلها للناس بابًا للتقرب إلى الله، لدرجة أن زوجاته كذلك نقلن لنا مواطن الأسوة في حياته ﷺ الخاصة كزوج.

كما أنه ﷺ ما كان يجهله أحد من معاصريه، واتسعت شبكة علاقاته ﷺ بعد الإسلام لدرجة يصعب معها السيطرة على ما يقال بشأنه، ولم تقتصر على دوائر قريبة منه موالية له؛ بل تعدت إلى خصومه وأعدائه. لذا فمن المستحيل مع كل هذا أن ينجح أحد في إخفاء أية حقيقة بشأنه، وبخاصة أنه لم تخل القرون الإسلامية الأولى من رافضين

للإسلام كارهين[1] له متتبعين لما يصرف الناس عنه مما يجعل أي محاولة للإخفاء، عبثًا لا طائل منها.

عودة إلى دعوى الخوف:

إن نولدكه لم يأت لنا بمثال واحد حاول المسلمون إخفاءه بسبب أنه يثبت اتصاف رسول الله بالخوف. لكن إذا حاولنا نحن أن نبحث عما يمكن أن يُشعر بوجود ذلك الخوف الذي يدعيه نولدكه للنبي لم نجد سوى رواية واحدة أوردها البيهقي في السنن الكبرى[2] وفيها:

"عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال رسول الله ﷺ: «**عرفتُ أنّي إنْ بادأت بها قومي رأيت منهم ما أكره؛ فَصَمَتُّ عليها؛ فجاءني جبريل عليه السلام فقال: يا محمد، إنك إن لم تفعل ما أَمَرَكَ به ربك عذبَك ربك**».

ووجود هذه الرواية في حد ذاته رد على اتهام نولدكه للمسلمين بمحاولات الإخفاء التي زعمها.

لكنها على الرغم مما تُشعر به لا تشهد لنولدكه في دعواه أن رسول الله خاف أولًا من تبليغ دعوة الله، وصوته الداخلي هو الذي حركه للتبليغ؛ وذلك لأن الرواية - إن

(١) يمكن الإشارة هنا إلى مجادلة البطريرك يوحنا اليعقوبي للصحابي عمرو بن العاص فاتح شمال سوريا ومصر، وكذلك إلى يوحنا الدمشقي الذي نشر رسالة تساعد المسيحي على أن يرد على العربي المسلم في جداله حول الدين، وعلى الرغم من ذلك كان الخلفاء الأمويون يستخدمونه في أعمال الدولة؛ وفي هذا إشارة - كما يقول أودين أ. كالفبرلي - إلى سماحة المسلمين، "ومن ذلك ما حدث في مجلس المأمون ببغداد سنة ٨٦١م حين جلس عبد المسيح بن إسحاق الكندي يجادل عبد الله بن إسماعيل الهاشمي وأخذ كل منهما يدافع عن دينه في أدب وهدوء" راجع في ذلك: أودين أ. كالفبرلي: مقال (الدين الإسلامي)؛ ضمن كتاب (الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته) تحرير ت. كويلرنج.

(٢) ج٩ ص٧ رقم (١٧٥٠٤).

صحت - تُفصح عن تخوف لحظي لم يدم طويلًا؛ إذ سرعان ما نزل جبريل للنبي يحذره من عدم التبليغ.

ولا يعنينا في قليل أو كثير إنكارُ نولدكه نزولَ جبريلَ وجعلُه - بلا أدنى مبرر من تاريخ الأنبياء أو منطق العقل - صوتَ محمد الداخلي بدلًا منه. فلكلٍّ عقيدته التي نَكِلُ أمرها لله ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[1].

ولقد عاش محمد ﷺ أربعين سنة خالي الذهن من التفكير في مشكلات دينية قبل نبوته، وقال الله يخاطبه: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾[2]؛ فلا ينقص من قدره أن يشعر ببعض الحذر حين يكلف بمبادأة قومه بما يكرهون وتبليغهم رسالة الله التي تخالف ما هم عليه وتدمغه بالبطلان.

ولأن الخوف الفطري متوقع؛ فقد وجدناه عند أنبياء آخرين قبل محمد ﷺ:

يحكي القرآن عن موسى وهارون عليهما السلام أنهما عند التكليف بإنذار فرعون قد: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[3]. وقال تعالى بشأن موسى أيضًا: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[4]

ولا ضير في ذلك، لا لمحمد ولا لغيره من الأنبياء، فهم بشر يعتريهم ما يعتري البشر لكن الله يثبتهم.

لكن على الرغم من هذا فلم يستمر هذا التخوف اللحظي المؤقت - كما في حالة موسى وهارون - بل زال تمامًا بمجرد تحذير جبريل للنبي؛ ولذا فإن نفس المصدر، وهو سنن البيهقي الكبرى، يأتي قبل الرواية المذكورة بأخرى تفيد قيام النبي بواجب التبليغ خير قيام امتثالًا للآية المذكورة؛ هذه الرواية هي:

(١) الشعراء: من الآية ٢٢٧.
(٢) الشورى: من الآية ٥٢.
(٣) طه: ٤٥، ٤٦.
(٤) طه: ٦٧، ٦٨.

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: «**وا صباحاه**». فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد. قال: فاجتمعوا إليه، فقال: «**يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب، أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا تخرج بسفح هذا الجبل؛ أكنتم مصدقي؟**». قالوا: ما جربنا عليك كذبًا. قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**». قال: فقال أبو لهب: تبًّا لك! ما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام، فنزلت هذه الآية: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾[1]، وقال: رواه البخاري ومسلم[2].

مرة أخرى أتساءل: هل هكذا يكون تبليغ الخائف؛ وهل هذه نفسية خائف يعاني من صراع داخلي مع نفسه: يبلغ أو لا يبلغ، إلى أن أجبره صوته الداخلي أن يبلغ؟!

وأما استنتاجه؛ فلقد ذهب نولدكه إلى أنه ما دام النبي ﷺ كان يملك القوة الكبيرة على الإنذار على الرغم من كونه خوافًا؛ فلا بد أن يكون محركه هو الصوت الداخلي.

فاستنتاجه أن الصوت الداخلي هو الذي حرك النبي للتبليغ غير مُسَلَّمٍ؛ لبطلان إحدى مقدمتيه وهي كونه خوافًا.

ثم إن هذا الاستنتاج إنشائي، بمعنى أن نتيجته غير متضمنة في مقدمتيه[3]؛ فليس (كون الذي يحرك محمدًا ﷺ هو الصوت الداخلي) مُتضَمَّنًا بالضرورة في كونه (يبلغ وهو خائف). وبالتالي فإن افتراض نولدكه الصوت الداخلي كتفسير وحيد لتبليغ النبي على الرغم من كونه خائفًا[4] هو تحكم[5]؛ لأنه قد يكون هناك محرك آخر غير الصوت الداخلي الذي يفترضه نولدكه.

---

(١) المسد: ١.

(٢) سنن البيهقي الكبرى ج٩ ص٧ رقم (١٧٥٠٣). والبخاري بشرح ابن حجر ج٨ ص٧٣٧ رقم (٤٩٧١).

(٣) راجع: د. عبد المنعم الحفني: المعجم الفلسفي ١٩.

(٤) على فرض ثبوت خوفه. وهو غير ثابت.

(٥) لا يخضع للقوانين العقلية ويصدر من غير دليل، راجع: المعجم الفلسفي، إصدار مجمع اللغة العربية ص٤٠، ٤١.

لماذا لا يفترض نولدكه كتفسير: أن الله هو الذي قوى محمدًا على التبليغ، وأيده، وربط على قلبه، كما فعل مع كل الأنبياء؟

ثانيًا: الرد على دليل نولدكه الثاني:

إنه يزعم أن النبي كان لديه خوف شديد من عذاب الله إذا قصَّر في تبليغ دعوته؛ ويدعي أنه لا يمكن تفسير تبليغه دعوة الله إلا بافتراض أنه مدفوع من صوته الداخلي. ويستدل[1] على ما يسميه: (خوف النبي من عدم التبليغ) بالآيات الكريمة: [المائدة ٦٧، والأنعام ١٥، ويونس ١٥، والزمر ١٣] وهي بالترتيب:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾، ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾، ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾.

وأقول: لم يكن إعلان القرآن خوف النبي من عذاب الله متعلقًا فقط بعدم تبليغه قومه، بل كان متعلقًا بكل ما فيه معصية لله تعالى:

أ- فقد بينت آيات سورة يونس أمر الله أن يقول للمشركين: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾، وذلك حين عرضوا عليه أن يأتي بقرآن غير القرآن أو يبدله، ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾[2].

ب- وقد جاء قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ في سورة الأنعام تعقيبًا على أمر الله له أن يستنكر اتخاذ ولي غير الله، وأن يكون أول من أسلم، وألا يكون من المشركين؛ ومن ثم فهو يخاف من معصيته في ذلك: ﴿قُلۡ

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٣ هامش ٢.

(٢) يونس: ١٥.

أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾[1]

ج- وجاء قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في سورة الزمر تعقيبًا على أمر الله له أن يقول لهم: إنه مأمور بإخلاص العبادة لله وأن يكون أول المسلمين؛ ومن ثم فهو يخاف من معصيته في ذلك، ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾[2].

د- إذن فليس في آيات ثلاث من الأربعة التي أتى بها نولدكه ما يدل على أنها تبين أن "النبي ذاته سيقع تحت عقوبة الله إذا لم يبلغ الوحي كاملًا" كما ادعى نولدكه.

والآية الوحيدة التي تأمر رسول الله بتبليغ ما أنزله الله إليه هي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

هـ- لكن المفاجأة هنا أن هذه الآية مدنية، نقل القرطبي[3] الإجماع على مدنيتها، وكذلك سورة المائدة كلها، وقال ابن كثير[4]: (إنها مدنية ومن أواخر ما نزل).

والعجيب أن نولدكه نفسه يرفض أي قول بمكيتها ويخطئه، يقول[5]: "ورد بتأثير تأويلات خاطئة أن الآية [٧١ من سورة المائدة][6] واحدة من أقدم الآيات المكية، ولا قيمة لهذا عندنا"

---

(١) الأنعام: ١٤ - ١٦. (٢) الزمر: ١١ - ١٥.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، المجلد ٣ ج٦ ص٣٠، ٢٤٤.
(٤) تفسير القرآن العظيم ج٢ ص٧٤.
(٥) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٣٢ وهامش ٢ بنفس الصفحة.
(٦) حسب ترقيم فلوجل.

"Ohne Gewicht für uns sind die ausfalschen Deutungen geflossenen Erklärungen von V. 71, z. B. er sei einer der ältesten mekkanischen Verse".

ويستشهد بموقف السيوطي من الرواية (التي تربط نزولها بحراسة أبي طالب ورجال من بني هاشم للنبي) حيث يسبقها السيوطي بوصفها أنها من الغريب يقول: (ومن غريب ما ورد في سبب نزولها)[1].

فكيف يتفق قول نولدكه بمدنيتها مع إيراده إياها لبيان نشأة الصوت الداخلي لدى النبي في بداية دعوته في مكة؟!

وعلى ذلك لا يكون لهذه الآية علاقة ببداية الدعوة حيث مورد دعوى نولدكه.

لكن أيًا ما كان الأمر فليس فيها ثمة دليل على أن خوف رسول الله من عذاب الله إن لم يُبَلِّغ رسالته كان مصدرَه صوت داخلي نابع منه.

كما أن ذات الآية تحمل دليلًا للرد على نولدكه؛ فلقد وعد الله فيها رسوله ﷺ أنه سيحفظه من كيد كل الناس فلا يقدر أحد أن ينال من حياته أو يصل في إيذائه لدرجة القتل. ولقد أنشأ هذا الوعد لدى النبي ثقة لا حدود لها في أن الله حافظه ليبلغ دعوته.

ولقد انعكست هذه الثقة على تصرفاته؛ فمن ذلك ما روى الترمذي[2]: كان النبي ﷺ يحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة فقال لهم: «**يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله**». فهكذا أمر رسول الله من كانوا يحرسونه بأن يتركوه في حماية الله الذي وعده بحفظه. ولا يمكن أن يجازف النبي في أمر خطير كهذا.

(١) راجع السيوطي: أسباب النزول ١٣١.

(٢) السنن ج٥ ص٢٥١ رقم (٣٠٤٦). قال الترمذي: حديث غريب، و قال الشيخ الألباني: حسن. والحاكم في المستدرك ج٢ ص٣٤٢ رقم (٣٢٢١)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. قال محقق الكتاب مصطفى عبد القادر عطا: قال الذهبي في التلخيص: صحيح.

وبالفعل أنجز الله لرسوله ما وعده به؛ فَحَفِظَهُ - كما قال ابن كثير[١] "من أهل مكة وصناديدها وحسادها ومعانديها ومترفيها مع شدة العداوة والبغضة ونصب المحاربة ليلًا ونهارًا بما خلقه الله من الأسباب العظيمة بقدرته وحكمته العظيمة، فصانه في ابتداء الرسالة بعمه أبي طالب؛ إذ كان رئيسًا مطاعًا كبيرًا من قريش، وخلق الله في قلبه محبة طبيعية لرسول الله ﷺ لا شرعية؛ ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفارها وكبارها. ولكن لما كان بينه وبينهم قدر مشترك في الكفر هابوه واحترموه. فلما مات عمه أبو طالب نال منه المشركون أذًى يسيرًا ثم قيض الله له الأنصار؛ فبايعوه على الإسلام، وعلى أن يتحول إلى دارهم - وهي المدينة - فلما صار إليها منعوه من الأحمر والأسود. وكلما هم أحد من المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله ورد كيده عليه، كما كاده اليهود بالسحر فحماه الله منهم، وأنزل عليه سورتي المعوذتين دواء لذلك الداء. ولما سمه اليهود في ذراع تلك الشاة بخيبر أعلمه الله به وحماه منه".

ولقد جاء في البخاري[٢] أن جابر بن عبد الله حدث أنهم كانوا مع رسول الله ﷺ "فنزل تحت شجرة وعلق بها سيفه، ونمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، وإذا عنده أعرابي، فقال: إن هذا اخترط عليَّ سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتا، فقال: من يمنعك مني؟ فقال: «الله»، (ثلاثًا) ولم يعاقبه وجلس".

فرغم تمكن الأعرابي من رسول الله إلا أنه يراجعه ثلاثًا. وهذه المراجعة يؤخذ منها كما يقول ابن حجر[٣] "أن الله سبحانه وتعالى منع نبيه ﷺ منه؛ وإلا فما أحوجه إلى مراجعته مع احتياجه إلى الحظوة عند قومه بقتله". كما أن النبي ﷺ لم يزد عن أن قال: «الله»، أي هو الذي يمنعني؛ وفي ذلك - كما يقول ابن حجر[٤] أيضًا - "غاية التهكم به وعدم المبالاة به أصلًا".

(١) تفسير القرآن العظيم ج٢ ص٧٥.

(٢) البخاري بشرح ابن حجر ج٦ ص٩٦ رقم (٢٩١٠).

(٣) الفتح ج٧ ص٤٢٧.

(٤) الفتح ج٧ ص٤٢٧.

وأُتِي النبي ﷺ برجل فقيل: هذا أراد أن يقتلك. فقال النبي ﷺ: «**لم تُرَعْ لم تُرَعْ؛ ولو أردتَ ذلك لم يسلطكَ الله عَليَّ**»[١].

إن خوف رسول الله من عذاب الله إن هو لم يبلغ رسالته؛ لم يكن مصدره صوت النبي الداخلي، بل كان مصدره وحي الله تعالى إليه، وذلك وفقًا للحديث الذي مرَّ وفيه قول جبريل للنبي: «**فجاءني جبريل عليه السلام فقال: يا محمد، إنك إن لم تفعل ما أَمَرَكَ به ربك عذبك ربك**».

ثالثًا: خلوة النبي ليست بهدف تحصيل النبوة:

يفهم من كلام نولدكه هنا أن النبي كان يقصد بخلوته تحصيل النبوة؛ وهذا في الحقيقة رأي بعض المستشرقين، حيث يدعي وليم موير أن خلوة النبي قضاها "مفكرًا في مصير قومه، ومشككًا في عبادتهم وفي التعاليم اليهودية والنصرانية التي لم ترض شعوره الديني، والتي كانت تضغط بشدة على عقليته، وهذه الأمور مجتمعة قادته إلى الوحدة في غار حراء يتأمل مفكرًا في إيجاد حلول لها، وأحيانًا كانت زوجته الوفية ترافقه إلى هذا المكان، وبدلًا من أن تطمئنه هذه الخلوة والوحدة وتحد من قلقه جعلته أكثر قلقًا وأكثر تلهفًا على الوصول إلى ما يطمئن ضميره، وأصبح خائفًا من أن يدركه الموت كما أدرك زيد بن عمرو بن نفيل قبل أن يصل إلى الحقيقة التي يبحث عنها"[٢].

والحق أن النبي لم يكن يقصد بخلوته القصيرة تحصيل النبوة؛ لأننا نلاحظ أن النبي طبقًا لحديث عائشة (حُبِّب إليه الخلاء)؛ مما يعطي دلالة على عدم كونه فعلًا مقصودًا مارسه النبي بهدف تحصيل النبوة؛ وإنما كان تقديرًا وعناية من الله يهيئانه لأن ينزل عليه جبريل في إحدى هذه الخلوات.

فلم يدخل النبي نفسه بالخلوة في مرحلة إعداد مقصود، ولم يكن يسير بها سيرًا حثيثًا

(١) مسند الإمام أحمد ج٣ ص٤٧١ رقم (١٥٩٠٨).

(٢) *life of Mahomet p57* نقلًا عن د. ساسي سالم الحاج: الظاهرة الاستشراقية ج٣ ص١٢٦.

وبخطى محكمة لاستجلاب الوحي[1]. ولم تأت رواية واحدة عن واحد من المؤمنين أنه كان ينتظر هذا الوحي أو يعمل له.

ولو كان النبي قاصدًا الإعداد؛ لما فوجئ بالطارئ الجديد الذي أدخل عليه الروع.

إن محمدًا لو كان قد دخل بخلوته في مرحلة إعداد مقصود هادف عبر الرياضات والتأمل؛ لكان استقباله للوحي استقبال الساعي لكسبه المنتظر المتشوق لشيء متوقع عليه ولما قال: «**لقد خشيت على نفسي**»[2].

إن عنصر المفاجأة البادية في خشية النبي على نفسه عند فجأة جبريل له في الغار يؤكد أن النبي لم يكن يُعد نفسه لشيء، ولم يكن ينتظر تحولًا جديدًا في حياته، ولم يكن يهيئ نفسه لهذا الحادث؛ وإلا لما خافه على نفسه لحظة حصوله. لأن النفس المرتقبة لشيء الباحثة عن كمال الاستعداد لقدومه لا تخشاه حين يحدث.

يقول مالك بن نبي: (ليس هناك من سبب لأن ننسب للصادق الأمين نية مبيتة للتأمل في مشكلة ميتافيزيقية)[3]. (إن المشكلة الغيبية لم تساور ضميره؛ فقد كان عنده حلها وجزء من هذا الحل إلهامي وجزء آخر موروث لأن إيمانه بإله واحد إنما يأتيه من الجد البعيد إسماعيل)[4].

لكن عدم قيام النبي بخطوات إعداد مقصود لنفسه لا يعني أن شخصيته لم تكن مؤهلة روحيًا وبدنيًا لقبول الوحي؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾[5]. ويقول: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[6]؛ لكنه يعني أن هذا الاستعداد ليس كسبيًا صادرًا من نفس

(١) إن كان ذلك ممكنًا أصلًا وهو في التصور الإسلامي غير ممكن.
(٢) راجع في الجزء الأول من هذه الدراسة معنى خشية النبي على نفسه.
(٣) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ١١٩.
(٤) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ١٢٢.
(٥) الأنعام: ١٢٤.
(٦) الحج: ٧٠.

النبي وجهوده. وهذا في عقيدة الإسلام يصدق على كل الأنبياء وليس على محمد ﷺ وحده.

* * *

المبحث الثاني
تفسير نولدكه لنشأة الصوت الداخلي المزعوم للنبي

إن نولدكه يفسر نشأة ما يدعيه للنبي من صوت داخلي بأن النبي دخل في خلوة طويلة تفاعلت بداخله أثناءها أفكار أهل الكتاب؛ فنشأ صوت داخلي ظنه النبي وحيًا من الله.

وهي دعوى كما نرى مركبة من عدة قضايا:

القضية الأولى: أن فترة الخلوة بغار حراء كانت طويلة.

الثانية: أن النبي كانت لديه أفكار الغرباء.

الثالثة: أن هذه الأفكار تفاعلت بداخله بسبب الخلوة الطويلة، فنشأ عن ذلك التفاعل، صوت داخلي.

* * *

ولنناقش الآن أولى هذه القضايا؛ وهي أن مدة الخلوة بغار حراء كانت طويلة، فنقول:

١- إنه لم يثبت أن المدة التي كان رسول الله يتحنث أو يخلو بنفسه فيها قبل البعثة كانت طويلة؛ فقد جعلها عبد الله بن الزبير شهرًا في السنة؛ قال[1]: (كان رسول الله يجاور في حراء من كل سنة شهرًا وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية).

وروى ابن إسحاق[2] من مرسل عبيد بن عمرو بن قتادة الليثي: (فكان رسول الله يجاور ذلك الشهر من كل سنة). لكن لم تحدد أيٌّ من الروايتين: في أي سنة من سني عمره بدأ رسول الله هذه الخلوة.

---

(١) تاريخ الطبري ج٢ ص٣٠٠، وانظر: السيرة النبوية: ابن هشام ج١ ص١٤٦.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص١٤٧.

وبين ابن حجر أن هذا الشهر لم يكن انقطاعًا كاملًا، بل كان يقسمه النبي إلى مراحل؛ قال[1]: (فقد كان يتزود لبعض ليالي الشهر، فإذا نفد الزاد رجع إلى أهله قدر ذلك؛ من جهة أنهم لم يكونوا في سعة بالغة من العيش، وكان غالب زادهم اللبن واللحم وذلك لا يدخر منه كفاية الشهور لئلا يسرع إليه الفساد، ولا سيما وقد وصف بأنه كان يطعم من ورد عليه).

يظهر لنا أنه حتى لو كانت مدة اعتكاف النبي ﷺ شهرًا كل سنة - على النحو الذي قاله هؤلاء - فإنها لا يمكن أن تكون خلوة طويلة، وذلك من ثلاثة وجوه:

أ- إن القائلين بهذا الرأي لم يحددوا: في أي سنة من سني عمره بدأ النبي يخلو بنفسه شهرًا في السنة؛ إذ من الممكن أن يكون ذلك بدأ في الحصول فقط في السنوات الخمس التي سبقت البعثة. وحتى لو ذهبنا بعيدًا وافترضنا جدلًا - كما يقول د. محمد عبد الله دراز[2] - (أن هذا الشهر من الاعتكاف قد داوم عليه الرسول في كل عام منذ زواجه وحتى نزول الوحي، يبقى أن نلاحظ أن أحد عشر من اثني عشر شهرًا من سني حياته في هذه الفترة قد قضاها في محيط اجتماعي وأمام أعين مواطنيه).

ب- من المعروف أن رسول الله كان سنه خمسًا وثلاثين سنة عند بناء الكعبة[3] وهذا يسهم بشكل مباشر في تجلية الأمر هنا؛ إذ يتضح منه أنه لم يكن منعزلًا عن الحياة بهذا الشكل الذي تفترضه دعوى نولدكه عن الخلوة الطويلة.

ج- كما أن أعباءه المعيشية زوجًا ووالدًا لا تتيح له هذه العزلة الطويلة حتى لو أرادها؛ فلقد تزوج محمد ﷺ خديجة وأنجب منها في الخمس عشرة سنة التي سبقت البعثة ستة أولاد: زينب ورقية وأم كلثوم اللائي ولدن ونشأن

(١) ابن حجر: فتح الباري ج١٢ ص٣٥٥ - ٣٥٦.

(٢) د. محمد عبد الله دراز في مقدمته لكتاب الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي ١٤.

(٣) أنساب الأشراف: البلاذري ج١ ص٩٩.

وتزوجن قبل البعثة[١]، وفاطمة التي ولدت قبل البعثة بخمس سنوات[٢] ثم القاسم وعبد الله اللذين ولدا قبل البعثة كذلك، هذا بالإضافة لرعايته لعلي بن أبي طالب. فهل يمكن مع كل هذه الأعباء أن يلجأ محمد ﷺ للعزلة الطويلة؟

إن إحدى الروايات المتعلقة ببدء الوحي يذكر فيها أن خديجة انتابها قلق على محمد ﷺ فأرسلت رسلها في طلبه[٣]؛ فإذا كان هذا القلق ولَّده اعتزالُ مرة واحدة؛ فهل يتصور أن يكون ما يدعيه نولدكه من عزلة طويلة صحيحًا؟

د- ثم ألا يعد القول بالعزلة الطويلة متناقضًا منهجيًّا مع المقولة الاستشراقية الدائمة التي ما فتئ المستشرقون يرددونها؛ وهي أن رسول الله كان يعمل بالتجارة المتجولة وأنه استفاد معلومات كتابية كثيرة من طول تطوافه. فليستقروا أولًا على اتهام: هل كان طوافًا جوالًا أو كان منعزلًا؟

٢- إن الروايات الأقوى المتعلقة بهذا الأمر هي التي يجب أن تُعتد في الحكم؛ وهي:

قوله ﷺ: «**إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن أبعث؛ إني لأعرفه الآن**»[٤].

وقوله لخديجة قبل نزول جبريل: «**إني أرى ضوءًا وأسمع صوتًا**»[٥].

وحديث عائشة: (أول ما بدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم

(١) راجع د. عائشة عبد الرحمن: تراجم سيدات بيت النبوة: مبحث الأخوات الأربع من كتاب: بنات النبي.

(٢) ابن سعد: الطبقات ٨/ ١٩ دار صادر بيروت.

(٣) من مرسل عبيد بن عمرو: ابن هشام: السيرة النبوية ج١ ص١٤٧.

(٤) مسلم بشرح النووي مجلد٥ ج١٥ ص٣٦ رقم (٢٢٧٧).

(٥) مسند أحمد ج١ ص٣١٢ رقم (٢٨٤٦)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث[1] فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ..) الحديث.

كما ورد حديث يبين أن وحي الرؤية المنامية الذي سبق الخلوة كان قبل ظهور جبريل (بستة أشهر) كما روى البيهقي[2].

فهذه الأحاديث تقدم لنا في جملتها الترتيب التالي:

مرحلة ما قبل الوحي:

- كان يسلم عليه الحجر.
- كان يرى الضوء ويسمع الصوت.

مرحلة بداية الوحي:

- الوحي لرسول الله عبر الرؤيا الصالحة في النوم.
- تحقق رؤى النبي مثل فلق الصبح.
- حبب الله إلى رسوله الخلاء في غار حراء حيث يتعبد الليالي ذوات العدد.
- بعد ستة أشهر فَجَأَهُ جبريل وأنزل عليه: (اقرأ..).

إن ترتيب الخلوة هنا كان الخامس. فقد سُبق بسلام الحجر عليه ﷺ، ورؤيته للضوء، وسماعه للصوت، والرؤى المنامية الصالحة، وتحققها.

وما دامت الرؤى استمرت ستة أشهر وأعقبها نزول جبريل أثناء الخلوة؛ وما دامت الخلوة حببت إلى النبي بعد الرؤية الصالحة؛ فلا يمكن أبدًا أن تكون الخلوة أطول

(١) يتحنث: بمعنى يتحنف، أي يتبع الحنيفية، وهي دين إبراهيم. والفاء تبدل ثاء في كثير من كلامهم، وقد وقع في رواية ابن هشام في السيرة يتحنف بالفاء. (ابن حجر: الفتح ج١ ص٢٧).

(٢) نقلًا عن ابن حجر: الفتح ج١ ص٢٧.

من الستة أشهر هذه؛ بل لا بد أن تكون يقينًا أقل منها، وبالتالي لا يمكن أن تكون الخلوة طويلة كما ادعى نولدكه.

ولقد تحدثت رواية عائشة عن تعبد (الليالي ذوات العدد) وليس السنوات ولا الأشهر.

كما حدد رسول الله بنفسه المدة التي جاورها بحراء فلم تزد عن شهر؛ قال جابر بن عبد الله: أحدثكم ما حدثنا رسول الله. قال: «**جاورت بحراء شهرًا، فلما قضيت جواري نزلت فاستبطنت بطن الوادي فنوديت، فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي فلم أر أحدًا، ثم نوديت فنظرت فلم أر أحدًا، ثم نوديت فرفعت رأسي فإذا هو على العرش في الهواء يعني جبريل عليه السلام فأخذتني رجفة شديدة...**»[1].

من هنا يقول د. دراز[2]: (تحدد المصادر الوثيقة جدًّا في الواقع تاريخ هذا الاعتكاف بالضبط بشهر قبل نزول القرآن. كما تحدد بدقة أكثر أن هذا الشهر تخللته عودة إلى منزله مرات عدة كيما يتزود، وقد سبقت هذا الشهر أيضًا رؤى واضحة كان يراها الرسول في منامه ثم ما يلبث أن يجدها حقيقة كفلق الصبح).

٣- هل الخلوة تفسر الوحي؟

إنه مهما كان طول الخلوة؛ فهي لا يمكن أن تقدم تفسيرًا للوحي على النحو الذي ادعاه نولدكه؛ وذلك للآتي:

إن نولدكه يزعم أن الخلوة أنتجت صوتًا داخليًّا ظنه محمد وحيًا.

لكن الإشكال الذي يعترض نولدكه هنا هو أنه ما دام قد أوجد بين الخلوة والوحي (الذي يسميه صوت النبي الداخلي) علاقة السببية؛ فيلزمه إذن أن تدوم الخلوة وتبقى ما دام الوحي ينزل. والوحي استمر ينزل على النبي حتى مات في السنة

(١) مسلم بشرح النووي مجلد١ ج٢ ص٢٠٨ رقم (١٦١).

(٢) د. محمد عبد الله دراز في مقدمته لكتاب الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي١٤.

الثالثة والستين من عمره؛ أي ظل ينزل ثلاثًا وعشرين سنة وكان للقرآن - الذي هو أعظم الوحي - هذه الصفة كذلك، فقد نزل منجمًا[1]. لكن أقصى تقدير لدى نولدكه أن تلك الخلوة انتهت بنزول (اقرأ)؛ أي عند بلوغه ﷺ الأربعين. ولم يقل إن النبي استمر في الخلوة بعد النبوة. وهذا يصلنا إلى نتيجة هي أنه مهما كان طول مدة الخلوة قبل البعثة فلا تصل أن تكون تفسيرًا لوحي استمر في التدفق على النبي من علٍ طيلة تلك المدة الطويلة[2].

***

القضية الثانية: أن النبي كانت لديه أفكار الغرباء؛ ونولدكه يقصد بهم أهل الكتاب عامة واليهود خاصة. لكن لم يبين لنا نولدكه لماذا لم يلاحظ أحد من معاصري محمد ﷺ قبل البعثة وجود أفكار غرباء لديه إلى أن أتى نولدكه فاكتشفها بعد كل تلك القرون؟

(١) تحدث الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني (مناهل العرفان في علوم القرآن ج١ ص٥٢-٦٢) عن تنجيم القرآن الكريم، فانتهى إلى ما ملخصه: أن القرآن الكريم نزل مفرقًا إلى أجزاء: آيات أو مقاطع أو سورًا؛ تثبيتًا لفؤاد النبي، وتيسيرًا عليه وعلى المسلمين المعاصرين في فهمه وحفظه، وتدرجًا في تربية الأمة، ومسايرةً للحوادث والطوارئ في تجددها وتفرقها، وتنبيهًا إلى مصدر القرآن وأنه كلام الله وحده الذي على الرغم من نزوله آحادًا مفرقة في أكثر من عشرين عامًا؛ مما يستلزم في مجرى العادة التفكك والانحلال؛ إلا أنه من أوله لآخره محكم السرد قوي الاتصال متآلف البدايات والنهايات لا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك ولا تخاذل. وهذا لا يمكن أن يتأتى لكلام بشر. ويقول أ. مالك بن نبي: (الظاهرة القرآنية ١٧٩): (الوحي القرآني ظاهرة مؤقتة أو خاطفة. ولقد نزلت الآيات منجمة: بين كل وحي وما يليه مدة انقطاع، تتفاوت طولًا وقصرًا. ولقد ينقطع الوحي مدة أطول مما ينتظره النبي، وبخاصة عندما يحتاج أن يتخذ قرارًا يعتقد أنه من الواجب). وأغلب توجيهات العلماء مستمدة من الآيات الكريمة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٢، ٣٣]. ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

(٢) ومن هنا يقف (كون القرآن منجمًا) عقبة في وجه كل محاولة لجعله داخل دائرة الذات المحمدية؛ يقول أ. مالك بن نبي (الظاهرة القرآنية ١٨٠): "ألم يكن من الممكن أن يتدفق (القرآن) جملة واحدة من العبقرية الإنسانية التي ربما يكون قد صدر عنها"؟

ولبيان ضلال هذه الدعوى أورد روايتين تبين أولاهما عدم قدرة النبي على حفظ كلام عربي حلو بليغ، وتبين ثانيتهما خلو ذهن النبي قبيل البعثة من الأفكار التي كانت تشغل ذهن الحنفاء:

فأما الأولى؛ فعن ابن عباس قال: لما قدم أبو ذر على النبي ﷺ قال له: «**يا أبا ذر، ما فعل قس بن ساعدة؟**». قال: مات يا رسول الله. قال: «**رحم الله قسًّا! كأني أنظر إليه على جمل أورق تكلم بكلام له حلاوة لا أحفظه**». فقال أبو بكر: أنا أحفظه. قال: «**اذكره**»؛ فذكره؛ وفيه الشعر..[1].

وهنا نلاحظ أن رسول الله رغم إعجابه بحلاوة كلام قس إلا أنه لم يتمكن من حفظه. فهل يمكن أن يكون النبي لم يتمكن من حفظ كلام قس هذا؛ ويتمكن في ذات الوقت من حفظ كلام أهل الكتاب الغرباء (الذي لا يضاهي كلام قس في حلاوته وفصاحته وقربه إلى الحافظة العربية ولا يستطيع أهل الكتاب أنفسهم حتى الآن أن يحفظوه).

وأما الثانية؛ فإن زيد بن حارثة مولى النبي ورفيقه في غالب شؤونه قبل البعثة وبعدها يقول عن النبي قبيل البعثة بوقت وجيز جدًّا: أقبل رسول الله ﷺ وهو يسير مردفي في يوم حار من أيام مكة حتى إذا كنا بأعلى الوادي لقيه زيد بن عمرو بن نفيل فحيَّا أحدهما الآخر بتحية الجاهلية، فقال له رسول الله ﷺ: «**يا ابن عم! ما لي أرى قومك قد شنفوك؟**». فقال: أما والله إن ذاك لغير ثائرة كانت مني فيهم، ولكني كنت أراهم على ضلال، فخرجت أبتغي هذا الدين؛ فأتيت على أحبار يثرب فوجدتهم يعبدون الله، ويشركون به؛ فقلت: ما هذا بالدين الذي أبغي. فخرجت حتى أتيت أحبار خيبر فوجدتهم يعبدون الله ويشركون به؛ فقلت: ما هذا بالدين الذي أبغي. فخرجت حتى أتيت أحبار الشام فوجدتهم يعبدون الله ويشركون به. فقلت: ما هذا بالدين الذي أبغي. فقال لي حبر من أحبار الشام: إنك لتسأل عن دين ما نعلم أحدًا يعبد الله تعالى به إلا شيخًا بالجزيرة. فخرجت فقدمت عليه فأخبرته بالذي خرجت له فقال لي: إن كل من رأيت على ضلالة؛ فمن أنت؟ قلت: أنا من أهل بيت الله تعالى ومن الشوك والقرظ. قال: فإنه قد خرج في بلدك نبي أو هو خارج،

(١) الإصابة ج٥ ص٥٥١ وما بعدها رقم (٧٣٤٥).

قد خرج نجمه فارجع فاقصده واتبعه وآمن به. فرحلت فلم أُخْبَرْ بشيء[1].

وبتحليل هذه الواقعة نحصل على عدة نتائج مفيدة للغاية في نقطة بحثنا هنا.

نحن نلاحظ أن النبي سأل زيدًا عن سبب عداء قومه له، وأجاب زيد أن التماسه الدين الحقيقي كان وراء ذلك؛ فلو كان لمحمد نفس اهتمامات زيد لترتب على هذا أمران:

أولهما: أن يتعرض لنفس العداء الذي تعرض له زيد؛ وبالتالي لن يكون للسؤال وجه أو معنى؛ لأن توجيهه للنفس التي تتعرض لنفس الظروف حينئذ سيكون أولى من توجيهه للغير.

ثانيهما: أن يعرف كل منهما تلك الاهتمامات لدى الآخر؛ لأن هذا هو المتوقع عند تشابه الاهتمامات مع وحدة الموطن المتحققة لكل من زيد بن عمرو ومحمد ﷺ.

ونلاحظ أن حديث زيد بن عمرو عن محاولاته التماس الحقيقة لدى أهل الكتاب لم يسترع أي قدر من انتباه النبي، ولم يظهر منه ﷺ ما يشير إلى أن هذه المحاولة تمثل وجه اشتراك بينهما يستدعي التنسيق والتعاون؛ وفي هذا إشارة إلى خلو بال النبي من أي فكرة كتابية.

كما نلاحظ أن النبي لم يظهر منه حتى مجرد تشجيع زيد بن عمرو على مسلكه؛ ولا يمكن أن يكون هذا رد فعل من يحمل نفس الأفكار.

ونتساءل هنا: هل كان من الممكن أن يكون رد فعل النبي على هذا النحو الذي ظهر؛ لو كان لديه قبل البعثة أدنى حظ من أفكار أهل الكتاب التي يزعم نولدكه أن النبي كان يطوي عليها وقتئذ جوانحه[2]؟

(١) الآحاد والمثاني ١/ ١٩٩/ ٢٥٧ وورد كذلك في السنن الكبرى ٥/ ٥٤/ ٨١٨٨ والمعجم الكبير ٥/ ٨٦/ ٤٦٦٣، وأورده الحاكم في مستدركه ٣/ ٢٣٨/ ٤٩٥٦، وقال محقق الكتاب مصطفى عبد القادر عطا: قال الذهبي في التلخيص: على شرط مسلم. كما ورد في مسند أبي يعلى ١٣/ ١٧٠/ ٧٢١٢ وقال الشيخ حسين أسد: إسناده حسن.

(٢) أكتفي هنا بهذا الرد إلى أن أعالج في دراسة لاحقة الدعوى الاستشراقية ذائعة الانتشار عن تأثير أهل الكتاب على النبي والوحي.

القضية الثالثة: أن أفكار الغرباء بسبب الخلوة الطويلة تفاعلت بداخل النبي فنشأ عن ذلك التفاعل صوت داخلي.

وبرغم عدم التسليم بوجود خلوة طويلة وأفكار غرباء كما قدمنا؛ فإن نولدكه لم يفسر لنا كيف حدث التفاعل داخل نفس النبي لينتج الصوت الداخلي المزعوم. إنه يضعنا هنا أمام شبيه ما هو موجود في صياغة المعادلات الكيميائية على النحو التالي:

خلوة طويلة مر بها النبي + أفكار الغرباء (أهل الكتاب) + تفاعل "نولدكي" لا ندري كيف وقع؟ = صوت داخلي.

ولا ندري وفقًا لأي منطق وصل نولدكه لهذه النتيجة؛ وذلك للآتي:

١- لا يماري نولدكه أو غيره في حقيقة أنه كان يوجد في الجزيرة العربية أو في أطرافها وفي معظم المواطن التقليدية للمسيحية كثير من القساوسة والرهبان النصارى اعتزلوا الحياة في خلوة طويلة جدًّا لدرجة أنها استوعبت حياتهم كلها.

ففي بصرى من أرض الشام كان راهب يقال له: بحيرى[١].

وفي الحيرة: بَنَتْ هندُ بِنْتُ النعمان، أو أخته ديرًا، وترهبنت فيه وبقي لمدة طويلة معروفًا بعد الإسلام باسم (دير هند الصغرى)[٢].

كما أن الحالة المصرية[٣] تحديدًا؛ زاخرة بهذا النمط من الخلوة والاعتزال؛ حيث بدأت الرهبنة هروبًا مارسه بعض رجال الدين المسيحي القبط من ملاحقة الرومان الوثنيين أولًا، ثم المخالفين في المذهب المسيحي ثانيًا. وبدأت في نهاية القرن الثالث تأخذ شكل الظاهرة المتكررة. ومع الوقت أصبحت نمطًا في العبادة والتنسك. ووصل عدد الأديرة في مصر مع نهاية القرن العشرين إلى

(١) الطبري: التاريخ ج٢ ص٢٧٧.

(٢) د. حسين مؤنس تعليق هامش ص٢٤١ من كتاب جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام. وراجع: جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام ج٤ ص٩٧.

(٣) راجع بشأنها: د. حسين كفافي: المسيحية والإسلام في مصر، فصل: الطريق إلى الرهبنة ٤٤-٦٢.

قرابة المائة دير على امتداد الخريطة المصرية؛ منها دير الأنبا أنطونيوس في الزعفرانة: غرب ساحل البحر الأحمر، وهو أقدم أديرة العالم، ودير الأنبا بولا: ثاني دير في العالم، ودير (أبو مقار الكبير)، ودير السريان، ودير مريوط غرب الإسكندرية، ودير الزجاج بنفس المنطقة. وفي صعيد مصر توجد أديرة كثيرة منها: الدير المحرق، ودير الأنبا بيشوي ودير (أبو فانا) ومار بقطر وأنبا صموئيل القلموني والأنبا يؤنس كامي. وبمنطقة المعادي بالقاهرة يوجد دير (شهران). وخرج من هذه الأديرة معظم آباء الكنيسة المرقسية المصرية: سبعون أبًا من أصل مائة وسبعة عشر.

٢- وبطبيعة الحال كانت لدى كل هؤلاء الأفكار المسيحية الأصلية كما تصوروها. ورغم ذلك لم يتم التفاعل الذي افترضه نولدكه في حالة النبي محمد ﷺ؛ ولم ينتج ذلك الصوت الداخلي الذي قال نولدكه: إنه جعل النبي محمدًا ﷺ يقع في حماس النبوة الذي وصل لدرجة التعصب، وعده وحيًا صادرًا له من الله، وأجبره رغم الخطر والاستهزاء أن يتوعد المكذبين بأشد عذاب في جهنم، وجعله يعد كل ما لا يعارض صوت قلبه مباحًا، وكان يعضد شجاعته كلما وهنت.

إنه رغم وجود مُدخلات معادلة نولدكه التي زعمها للنبي؛ إلا أن مخرجاتها لم تتحقق في حالة هؤلاء القساوسة والرهبان؛ وكان الأمر كالآتي:

خلوة طويلة مر بها الرهبان والقساوسة + أفكار (مسيحية أصلية كما تصوروها) + تفاعل نولدكي لا ندري كيف حدث؟ = لا شيء مما زعمه نولدكه في حالة النبي.

والتساؤل الآن: إذا كان وحي الله إلى نبيه الأمين محمد ﷺ لم يكن سوى نتاج خلوة طويلة تفاعلت بداخله أثناءها أفكار الغرباء (أهل الكتاب) فتكوَّن صوت داخلي لديه ظنه وحيًا؛ فلماذا لم يصل أولئك الرهبان والقسس لمثل ما وصل إليه محمد ﷺ رغم وجود نفس الظروف لدى الطرفين مع تميز الأُوَل بكونهم هم أصحاب أفكارهم المسيحية وليست غريبة عنهم؟

كما أن الخلوة بحراء لم تكن شيئًا ابتدعه محمد ﷺ، ولا شيئًا خاصًّا به لم يشركه فيه غيره، بل كانت أشبه ما تكون بسلوك عام مارسه كثير من القرشيين.

"كان إذا دخل رمضان خرج من يريد التحنث منها إلى حراء؛ فيقيم فيها شهرًا ويطعم من يأتيه من المساكين، حتى إذا رأى هلال شوال لم يدخل الرجل على أهله حتى يطوف بالبيت، فكان رسول الله يفعل ذلك"(١).

وكان من بين من مارسه زيد بن عمرو بن نفيل الذي ذكروا عنه أنه "كان لا يذبح للأصنام، ولا يأكل الميتة والدم، وذلك قبل أن يبعث النبي، وكان الخطَّاب قد آذاه حتى أخرجه إلى أعلى مكة فنزل حراء"(٢).

ويقول ابن حجر(٣): (وكأنه مما بقي عندهم من أمور الشرع على سنن الاعتكاف، وأن الزمن الذي كان يخلو فيه كان شهر رمضان، وكان جد النبي عبد المطلب يخلو فيه كذلك ويتبعه في ذلك من قريش من كان يتأله؛ ولذا لم تنازع قريش النبي في ذلك).

فإذا كان الأمر على النحو الذي ظهر لنا (بشأن خلوة الرهبان النصارى، وخلوة من كان يتأله من قريش)؛ فلماذا محمد وحده هو الذي يأتيه هذا الصوت الداخلي ويظنه وحيًا دون أن يأتي مثل ذلك لمن مروا بنفس التجربة الروحية؟

ولم يستطع نولدكه أن يميزه بوجود أفكار كتابية لديه؛ إذ إنها رغم كونها دعوى بلا دليل فإن رهبان النصارى لديهم أصول تلك الأفكار ولم يحصلوا الصوت الداخلي المزعوم.

* * *

(١) البلاذري: أنساب الأشراف ج١ ص١٠٥.

(٢) محمود شكري الألوسي: بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب ج٢ ص٢٥١.

(٣) ابن حجر: فتح الباري ج١٢ ص٣٥٥.



الفصل الثاني

دعواه افتقاد النبي ﷺ التجريد المنطقي



تمهيد

انتهينا في الفصل الأول إلى إبطال حديث نولدكه عن نشأة الصوت الداخلي المزعوم كتفسير لوحي الله إليه؛ بأن أبطلنا جميع ادعاءاته عن الخلوة الطويلة التي زعمها للنبي، وعن وجود أفكار غرباء لديه ﷺ. كما أنه لم يستطع في هذا الشأن أن يميزه ﷺ بوجود أفكار كتابية لديه هي التي أنتجت - بفعل الخلوة - الصوت الداخلي؛ إذ ظهر لنا أنها رغم كونها دعوى بلا دليل؛ فإن رهبان النصارى وبعض معاصريه من متألهي العرب كانت لديهم أصول تلك الأفكار ولم يحصِّلوا الصوت الداخلي المزعوم.

لكن نولدكه لا يمل من متابعة دعواه؛ فنراه يبحث عن سبب عد النبي ﷺ الصوت الداخلي المزعوم وحيًا، أو بمعنى آخر: يجيب عن سؤال:

لماذا نظر النبي إلى ذلك الصوت الداخلي على أنه قادم له من الله وحيًا؟

يجيب نولدكه على هذا في ضوء تصوره للنبوة بشكل عام؛ إذ هي عنده تصدر عن ثلاثة عناصر: الخيال الخَصب و الإلهام القريب من الشعور والعقل النظري. وهذا الأخير لم يكن للنبي محمد حظ منه، لذا اعتبر أن شعوره الداخلي هو صوت الله؛ يقول[١]:

"لكن روح محمد مرتبطة بنقصين كبيرين يقللان من قدره: فإذا كانت النبوة على إطلاقها تصدر عن الخيال الخَصب[٢]، والإلهام القريب من الشعور، بدرجة أكبر من صدورها عن العقل النظري؛ فإن محمدًا كان ينقصه هذا الأخير[٣] بشكل فادح[٤].

---

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٤.

(٢) في هذا الاتجاه يأتي قول هاملتون جب (اتجاهات ١١٦): "إن إمكانية نوع من البعث الفردي بعد الموت تتطلب خيالًا خصبًا جيدًا".

(٣) [النظر العقلي].

(٤) [هذا هو النقص الأول المزعوم].

وفي حين أنه كان يمتلك ذكاء عمليًا شديدًا؛ لم يكن باستطاعته بدونه أن ينتصر على أعدائه؛ فلقد كان ينقصه التجريد المنطقي بشكل رهيب[1]؛ لذا فقد عَدَّ كل ما يتحرك بداخله شيئًا خارجيًّا مرسلًا له من السماء، ولم يختبر أبدًا هذا الإيمان؛ بل انقاد للشعور الغريزي الذي قاده مرة إلى هنا ومرة إلى هناك؛ إذ إنه كان يعتبر [هذا الشعور الداخلي] صوت الله الذي قُدِرَ له بشكل خاص".

وادعى نولدكه أن النبي عدَّ ذلك الصوت معيارًا للحكم على كل القضايا، مما نتج عنه خلط النبي بين الديني والدنيوي، مُرجعًا الأمر لما زعمه من سذاجة النبي؛ قال[2]:

"هنا لم يكن باستطاعة محمد أن يفصل بين الديني والدنيوي؛ فلقد استعمل سلطة القرآن كثيرًا لتنظيم أشياء لا علاقة لها بالدين. ولتقييم الأمر يجب ألا ننسى أن الدين ونظام المجتمع في عصره كانا مرتبطين فيما بينهما. وإنزال الله إلى أبسط الأمور في الحياة العادية يجعلها في أفق إلهي سام".

"إن مفكرًا ساذجًا مثل محمد كان يجب عليه أن يَعدَّ كل ما لا يعارض صوت قلبه مباحًا".

إن الرد عليه هنا يقتضي أن نرد على أمرين:

أولهما: تصوره الخاطئ للنبوة.

ثانيهما: ما ذكره من تعليل في حالة النبي من مزاعمه عنه أنه يفتقد التجريد المنطقي (ساذج)، ويخلط بين ما هو ديني وما هو دنيوي. ومن هنا سيأتي هذا الفصل في مبحثين:

أولهما: الرد عليه في تصوره الخاطئ للنبوة.

ثانيهما: الرد عليه في نفيه القدرة على التجريد المنطقي عن النبي.

***

(١) [وهذا هو النقص الثاني المزعوم].

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٥.

المبحث الأول
الرد عليه في تصوره الخاطئ للنبوة

إن نولدكه مهما كان أمر اتجاهه النقدي؛ هو نتاج ثقافة يهودية مسيحية تقدم أدبياتها تصورًا مختلفًا للنبوة والأنبياء والوحي عن التصور الذي يقدمه الإسلام؛ فليس بمستغرب إذن أن يفهم النبوة - كما ذكر - على أنها تصدر عن الخيال الخَصب، والإلهام القريب من الشعور، وبقدرٍ مَا: العقل النظري.

وأبين هنا بعض ملامح الغبش في التصور اليهودي والمسيحي للنبوة، وكلام نولدكه في تفسيره لكل من النبوة والوحي، وأركز على جعل نولدكه النبوة في داخل المجال الذاتي للنبي، ثم أوضح تصور العقيدة الإسلامية للنبوة والوحي، وأجيب عن سؤال: هل يوافق أهل الكتاب على التفسير الذاتي للنبوة؟

بعض ملامح الغبش في التصور اليهودي والمسيحي للنبوة:

أ- في اليهودية[1] كَثُرَ عدد الأنبياء لدى اليهود، وكانوا يحاولون الوصول إلى النبوة كما يفهمونها ويمارسونها بأنواع من التريض والكسب. لنقرأ النص التالي من صموئيل الأول:

"فقال له: هو ذا رجل الله في هذه المدينة، والرجل مكرم، كل ما يقوله يصير، لنذهب الآن إلى هناك لعله يخبرنا عن طريقنا التي نسلك فيها... وقال: هو ذا يوجد بيدي ربع شاقل فضة فأعطيه لرجل الله فيخبرنا عن طريقنا. سابقًا في إسرائيل هكذا كان يقول الرجل عند ذهابه ليسأل الله: هلم نذهب إلى الرائي، لأن

(١) سبق أن ذكرنا بعض تفاصيل بهذا الشأن في الجزء الأول لكن نعيدها هنا لأهميتها.

النبي اليوم كان يدعى سابقًا رائي"(١).

وفي صموئيل الأول: "ويكون عند مجيئك إلى هناك إلى المدينة أنك تصادف زمرة من الأنبياء نازلين من المرتفعة وأمامهم رباب ودُفٌّ وناس وعود وهم يتنبأون، فيحل عليك روح الرب فتتنبأ معهم وتتحول إلى رجل آخر... ولما جاءوا إلى هناك إذا بزمرة من الأنبياء لقيته فحل عليه روح الله فتنبأ في وسطهم"(٢).

هؤلاء هم - مع الأسف - رجال الله والأنبياء الذين يريد نولدكه أن يحاكم وحي الله إلى النبي محمد ﷺ إلى أحوالهم؛ ولا يقبل منه إلا ما كان على شاكلتها.

ب- أما في المسيحية فالغبش يأتي من زاوية التناقض في النظرة للوحي لديهم؛ ففي حين تأتي نصوص تبين أن كل ما يقوله الأنبياء ليس من أنفسهم إنما هو من فعل الروح القدس وأن نبوتهم ليست كسبية؛ تأتي نصوص أخرى لتبين أن كل موحى إليه منهم يكتب حسب خواصه العقلية.

فمن النصوص الأولى قول بطرس: "عالمين هذا أولا أن كل نبوة الكِتاب ليست من تفسيرٍ خاصٍ لأنه لم يأت نبوة قط بمشيئة إنسان بل تكلم أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس"(٣).

كما أن الوحي أو الإلهام عند المسيحية الإنجيلية: "هو عمل روح الله القدس في العقل البشري الخاص بتأهيل الأنبياء والرسل وكتبة الأسفار المقدسة لإظهار الحق الإلهي بنوع خال أو معصوم من الغلط"(٤)، ولا يتأتى باكتساب فهو "فائق الطبيعة... لأنه غير ناشئ عن علم الإنسان ولا عن استعداده الطبيعي ولا عن ظروفه الخارجية، بل عن فعل الروح القدس فيه رأسًا؛ لغاية معلومة"(٥)، وأن

---

(١) صموئيل الأول ٩: ٦ - ٩.

(٢) صموئيل الأول ١٠: ٤ - ١٠.

(٣) ٢ بط ١: ٢٠، ٢١.

(٤) علم اللاهوت النظامي ١٠٢.

(٥) علم اللاهوت النظامي ١٠٣.

"كَتَبَةَ الكتاب هم آلات بيد الله، وأقوالهم معصومة من الغلط"(١) و"الوحي يشمل ألفاظ الكتاب ومعانيه، لأن المعنى هو في الألفاظ وله أهمية كلية في إيضاحه"(٢)، وأن الموحى إليهم لم يكن لهم دور في الوحي بل "كانوا آلات في يد الله، بمعنى أنهم ما علموه أو كتبوه هو تعليم الله لا أنه تعالى غير طبيعتهم أو قادهم على كيفية مخالفة لقواهم الطبيعية"(٣).

ومن النصوص الأخرى ما جاء في **قاموس الكتاب المقدس** عن الوحي أنه: "حلول روح الله في روح الكتاب الملهمين لاطلاعهم على الحقائق الروحية والأخبار الغيبية من غير أن يفقد هؤلاء الكتاب بالوحي شيئًا من شخصياتهم، فلكلٍّ منهم نمطه في التأليف وأسلوبه في التعبير"، وأن الوحي لا يوقف قُوَى الموحَى إليهم "مدة وجوده؛ ولا ينزع ما امتاز به أحدهم عن الآخر من السجايا والقوى؛ فالعامي منهم تكلم كلام العامي كعاموس، والعالم كلام العالم، وذو العواطف اللينة ومحب التأمل حسب طبيعته كيوحنا، وذو العقل المنطقي كلامَ المنطقي المائل إلى إيراد الأدلة بكل ضبط كبولس؛ أي أن كلًّا كتب حسب خواصه العقلية؛ ولذلك نرى في جميع الأسفار المقدسة ما يدل على خواص كتبتها كأنهم لم يكونوا تحت سلطان الوحي، ومع كل ذلك كانوا آلات حقيقية في يد الروح القدس"!!(٤).

فالعهد القديم إذن ينظر إلى النبي على أنه مجرد (رائي) يتلقى أجرًا نظير محاولة التعرف على الغيب الشخصي!! ويرى أن النبوة تكتسب بمجرد الجلوس في زمرة أناس يسميهم العهد القديم (أنبياء) نازلين من المرتفعة وأمامهم رباب ودُفٌّ وناس وعود وهم يتنبأون، ومن ثم تحل روح الرب على الجالس فيتنبأ معهم، ويتحول إلى رجل آخر!!

---

(١) علم اللاهوت النظامي ١١٢، ويوحنا ١٠: ٣٥.

(٢) علم اللاهوت النظامي ١١٣.

(٣) علم اللاهوت النظامي ١٠٤.

(٤) علم اللاهوت النظامي ١٠٤. وعلامتا التعجب من عندي.

والتصورات المسيحية عن الوحي والنبوة متناقضة كما رأينا، وهي ليست بعيدة عن تصور العهد القديم كذلك؛ لأنهم يدخلونه في اعتقادهم.

***

كلام نولدكه في تفسيره للنبوة:

إننا نجد قوله[١]:

"Können wir gleich nicht leugnen. daß sich auch bei vielen andern Völkern hier und da etwas der Prophetie ähnliches zeigt. so ist doch allein bei den Israeliten das Prophetentum aus sehr primitiven Anfängen eine das ganze Gebiet der Religion und des Staats bewegende und bestimmende Macht geworden.... Innerhalb des Judentums ist die prophetische Bewegung zurückgetreten. aber niemals ganz ausgestorben. wie die sog. falschen Messiasse und Propheten der römischen Zeit beweisen".

"لا نستطيع نَفْيَ ظهور شيء شبيه بالنبوة، عند شعوب هنا وهناك. لكن عند بني إسرائيل وحدهم ظهرت النبوة في صورة بدايات بسيطة جدًّا، ثم تطورت إلى سلطة مسيطرة على كل مجال للدين والدولة... وفي داخل اليهودية خفتت حركة النبوة لكنها لم تمت تمامًا، ووجود مُسَحَاء كذبة، وكذا أنبياء الحقبة الرومانية، دليل على ذلك".

وقوله[٢]:

"Etwas ähnliches mögen die altarabischen Kahine gehabt haben von denen wir aber wenig Sicheres wissen. Ich bemerke hier. daß die übrigen semitischen Sprachen ihr Wort für "Prophet" alle erst aus dem hebräischen נָבִיא *abgeleitet haben".*

وترجمته:

"حصل الكُهان العرب القدامى - الذين نعرف عنهم القليل المؤكد - على شيء

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١ - ٢.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ هامش١.

مشابه لذلك (النبوة)، وأسجل هنا أن اللغات السامية اشتقت الكلمة الدالة على النبي بداية من الكلمة العبرية נָבִיא ".

وقوله(١):

"Die Prophetie im höchsten Sinne ist demnach eine göttliche Kunst. Sobald man aber anfängt. dieselbe in Schulen zu lehren oder gar zu vererben. und die Propheten sich zunftmäßig organisieren. wird die Kunst zum Handwerke erniedrigt".

وترجمته:

"النبوة في أسمى معانيها: فن إلهي. لكنها تنحط إلى مهنة، عندما يتعلمها المبتدئ في المدارس، أو يرثها، أو عندما ينتظم الأنبياء في نقابات أو روابط"(٢).

كما أن جناية نولدكه لم تكن على وحي الله إلى محمد أو نبوته فقط، بل كانت على سائر صور الوحي والنبوات السابقة بجعلها داخل المجال الذاتي لأي نبي؛ فقد مر قوله(٣):

"إن طبيعة الأنبياء تجعل روح النبي ممتلئة بفكرة دينية يتأثر بها لدرجة تجعله يشعر أنه مدفوع من قوة إلهية، ليبلغ فكرته هذه إلى مواطنيه على أنها حقيقة مأخوذة من الله.

---

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١ هامش٢.

(٢) لكن جاء في سفر عاموس ٧: ١٤ ما يبين أن النبي لا يختار نفسه نبيًّا، بل الله هو الذي يختاره. ولقد قرأ نولدكه هذا النص وأورده في كتابه (ق١ ص١ هامش٢) قال:

"Sehr charakteristisch für das Wesen des echten Propheten ist die Stelle Amos 7.14 f.. „Ich bin kein Prophet (dem Stande nach). noch eines Propheten Sohn. sondern ein Rinderhirt und Maulbeerzüchter. aber Jahve nahm mich von der Herdeweg. und sprach zu mir: "wohlan. rede als Prophet zu meinem Volke Israel"".

"في سفر عاموس ٧: ١٤ بعض الصفات الشخصية المميزة للأنبياء الحقيقيين: (لست نبيًّا، ولا ابن نبي، بل أنا راع وجاني جميز، فأخذني الرب من وراء الضأن وقال لي الرب: اذهب تنبأ لشعب إسرائيل)". فلماذا تجاوز نولدكه هذه الرؤية؟

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١ – ٢.

إن مسيح الناصرة أراد أن يكون أكثر من نبي، لأنه كان يشعر أنه هو المسيح الذي وعد به أنبياء بني إسرائيل. وباعتباره مؤسسًا لدين القلب والفكر الجديد؛ فقد عرف كيف يبث الثقة في طائفته أنه هو ابن الإله وسيد المؤمنين؛ الذي رغم العذاب والموت؛ قد ذهب في عظمة الأب".

وقوله[1]: "لم يظهر الأنبياء في حالة جذب وسيط الألوهية وحدها [ملك الوحي]؛ وإنما في مرات عديدة ظهر كل تفكيرهم وعملهم على أنه إفراز مباشر للفاعلية الإلهية".

كما مرت رؤيته أن النبوة على إطلاقها تصدر عن الخيال الخَصب، والإلهام القريب من الشعور، وبدرجة أقل: العقل النظري.

إن كلام نولدكه هذا يبين أنه يفهم النبوة في عمومها على أنها: امتلاء روح الأنبياء بفكرة دينية تجعلهم يشعرون أن قوة إلهية تدفعهم لتبليغ أفكارهم على أنها وحي الله. وحتى المسيح كما صوره العهد الجديد كانت نبوته وسائر ما نسب إليه فيه مجرد شعور لديه.

كما تبين نصوصه كذلك أن النبوة عنده مكونة من: خيال خصب وإلهام قريب من الشعور (وبدرجة أقل) عقل نظري. وحتى حين اقترب شيئًا ما من موضوعية الوحي أعادته من جديد ألفاظه إلى دائرة الشعور؛ قال[2]:

"لم يظهر الأنبياء في حالة جذب وسيط الألوهية وحدها، وإنما في مرات عديدة ظهر كل تفكيرهم وعملهم، على أنه إفراز مباشر للفاعلية الإلهية".

إن هذا التصور الذي يقدمه نولدكه للنبوة هو تصور غير مقبول؛ لأنه لم يقدم دليلًا عليه، وإنما ذكره هكذا كمُسَلَّمَة، وما أكثر مسلماته!!

إنه يجعل النبوة مجرد شعور ذاتي داخل نفس أي نبي ليس لها أي بعد موضوعي

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٥.
(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٥.

خارجي، وليس لها ظل من واقع. وهو في الحقيقة معذور لأن الانطباعات السلبية التي تركتها بعض تصورات أهل الكتاب بوجه خاص عن النبوة والأنبياء كفيلة بتكوين صورة شائهة ومنقوصة عن هذين الأمرين.

وقبل قليل نقلنا أقواله عما يسميه: (شبه النبوة) أو (بدايات نبوة) و(أن الكهان العرب حصلوا على ما يشبه النبوة) و(النبوة تنحط إلى مهنة) و(تتعلم في المدارس) و(تورث) و(ينتظم الأنبياء في نقابات)(١).

تحت ظلال هذا الغبش يتم تفسير نولدكه لنبوة محمد ﷺ.

النبوة والوحي في العقيدة الإسلامية:

أيًا ما كانت الخلفية التي تشكلت فيها آراء نولدكه فإنه ما دامت النبوة لديه باقية في إطار الشعور؛ وما دام الخيال والنظر العقلي مكونين لها؛ فلا يمكن لنولدكه أن يستوعب العقيدة الإسلامية في النبوة والوحي وبالتالي سيخطئ حتمًا في تفهم نبوة محمد ﷺ:

فالعقيدة الإسلامية في النبوة تبين أنها تقوم على الاصطفاء المطلق من الله. ولا علاقة لها بالكسب ولا تتأتى بقرابة لنبي أو وساطة إليه أو مجاورة له ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴾(٢).

وحين تحدث القرآن عن إبراهيم ومن صار نبيًا من ذريته دار الحديث بمعاني الهبة والهداية والتفضيل والاجتباء والإيتاء مع نسبة كل الأمر لذات الله العلية فقال:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ كُلًّا هَدَيْنَاۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ

(١) والنقطة الإيجابية الوحيدة في كلامه هنا أنه وصف النبوة في أسمى معانيها بأنها (فن إلهي)، وأنه اختار قولًا من سفر عاموس كما مر (يجلي إلى حد ما حقيقة النبوة، وأنها اختيار من الله، ليس للبشر فيها تدخل). لكنه لم يكمل الطريق حتى آخره.

(٢) الحج: ٧٥.

وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾[1].

وبعد ذكر موسى وهارون وإسماعيل وإدريس في سورة مريم قال تعالى:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾[2].

وقال الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[3]، وقال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾[4].

فالآيات الكريمة سالفة الذكر لا تدع مجالًا لمن يظن أن النبوة كانت خيارًا من أحد من هؤلاء الأنبياء لذاته؛ بل التأكيد هنا واضح على إسناد أمر الاختيار لله وحده. ومن أجل عظَمِ قدرها فلا نثبتها لأحد إلا بدليل.

أما العقيدة الإسلامية في الوحي؛ فمن خلال الثابت من الأحاديث المتعلقة بنزوله على النبي نصل إلى أنه: مفارق لذات النبي: كل نبي، لا علاقة له بشعور أو خيال خصب أو مجدب، ولا علاقة له كذلك بنظر عقلي لدى النبي. يتلقى النبي الوحي بمعزل عن إرادته وقوته العقلية، لا يتعجله أو يستجلبه بتغيير روحي أو مادي يجريه على ذاته، وهو لا دخل له فيه، يقتحم عليه ذاته، لا يقوى على دفعِه إذا جاء، أو جلْبه إذا تأخر. لا يرتبط بوقت ولا حال ولا ظرف. وليس له أن يعدل فيه من تلقاء ذاته، لا يزيد فيه حرفًا ولا ينقص منه.

كما أن القرآن يبين أن الوحي جاء النبي حالة كونه لا يدري عنه شيئًا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ

(١) الأنعام: ٨٤ – ٩٠.
(٢) مريم: ٥٨.
(٣) الأعراف: ١٤٤.
(٤) الأنعام: جزء من الآية ٤٨، الكهف: ٥٦.

إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1]، ولذا فهو لو شاء لرفع ما أوحاه إليه لكنه يبقيه فضلًا منه عليه: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾[2].

ويبين أنه تنزيل من الله وأن النبي لا يقوى على التقول على الله ما لم يقله ولو فعل لعاقبه؛ قال تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾[3].

ويبين أن تنزل الوحي ليس اختيارًا لجبريل ولا لمحمد إنما هو بأمر الله ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[4].

ويبين أن النبي لا دخل له في القرآن؛ لا يتجاوزه ولا يبدله من تلقاء نفسه، بل يتبع ما يوحى إليه من ربه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ۙ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[5].

وإذا كان الأمر كذلك بشأن كل الوحي؛ فكذلك بعض محتواه (وهو ذكر من مضى من الرسل السابقين). فإخبار الله لنبيه هو الطريق لمعرفته: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾[6].

وإذا كان الوحي في أصله هبة ومِنَّةً منه تعالى؛ فإن دلائله كذلك (من آيات ومعجزات

(١) الشورى: ٥٢.
(٢) الإسراء: ٨٦، ٨٧.
(٣) الحاقة: ٤٣ – ٤٧.
(٤) مريم: ٦٤.
(٥) يونس: ١٥، ١٦.
(٦) غافر: ٧٨.

للأنبياء) هي منه تعالى لا تأتي من قبلهم بل بإذن الله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[1].

وكل ما سبق تقريره في القرآن بشأن وحي الله إلى محمد ﷺ هو نفسه المقرر بشأن كل وحي سبق لنبي من أنبيائه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾[2]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[3].

بعد الذي قررناه إسلاميًّا هنا بشأن النبوة والوحي بشكل عام؛ فإن جعلهما من قِبل نولدكه في مجال الشعور الذاتي لأي نبي هو أمر مرفوض إسلاميًّا؛ سواء أكان بشأن محمد ﷺ أو بشأن أي نبي من أنبياء الله تعالى. وكذلك الأمر بشأن ادعائه أن النبوة مكونة من (خيال خصب، وإلهام قريب من الشعور، ونظر عقلي).

* * *

هل يوافق أهل الكتاب على التفسير الذاتي للنبوة؟

إذا كنا قد انتهينا إلى أن هذا هو المقرر إسلاميًّا؛ فإننا نجد أن بعض[4] ما لدى أهل الكتاب في الشأن الذي معنا يسير في الاتجاه نفسه ويتسق معه؛ وإن كان الأمر في الإسلام أوضح وآكد باعتباره الدين الخاتم المهيمن على ما سبقه من الكتب.

فقد أوجد العهد القديم الاعتقاد أن (النبي الرائي[5]) يرى الله؛ إذ ورد في سفر

(١) الرعد: من الآية ٣٨.

(٢) النساء: ١٦٣.

(٣) الشورى: ٥١.

(٤) أقول: (بعض) لأن بعض ما لديهم كذلك يجعل للموحى إليه بعض الدخل في مادة الوحي. لكن لعل هذا التناقض يرجع إلى التحريف الذي ما عاد خافيًا على أحد حصوله للعهدين: القديم والجديد على مدار الزمن.

(٥) من مواضع العهد القديم التي سمي فيها النبي: (الرائي): أخبار الأيام الأول ٢٩: ٢٩.

العدد[1] عن بلعام: "فكان عليه روح الله؛ فنطق بمثله، وقال وحي بلعام بن باعور وحي الرجل المفتوح العينين، وحي الذي يسمع أقوال الله الذي يرى رؤيا القدير مطروحًا وهو مكشوف العينين".

وطبقًا لسفر صموئيل الأول؛ تجلى الله في الرؤيا لصموئيل وهو صبي؛ فقال له أكثر من مرة: "ها أنا ذا". وكبر صموئيل وكان الرب معه... وعرف جميع إسرائيل... أنه قد اؤتمن صموئيل نبيًّا للرب"[2].

ويُذكر في سفر التكوين[3] أن الرب كلم يعقوب في حُلم حيث رآه واقفًا على سلم منصوبة بين السماء والأرض".

وفي سفر الخروج[4] نجد أن الله كلم موسى "قال الرب لموسى" أو "قال الرب لموسى وهارون. وفي اللاويين "ودعا الرب موسى وكلَّمه من خيمة الاجتماع" وكثر فيه مجيء عبارة: "وكلم الرب موسى قائلًا" أو "وكلم الرب موسى وهارون".

أما لفظ نبي كما جاء في كتاب علم اللاهوت النظامي[5] المعبر عن المسيحية الإنجيلية فهو: "من يتكلم عن آخر أي عن لسانه وسلطانه، ولذلك لا يكون هو المسؤول عن صحة قوله، بل المسؤول هو من يتكلم عنه. قال الله لموسى: انظر أنا جعلتك إلاهًا لفرعون، وهارون يكون نبيك أي المتكلم عنك"[6]. وفي العهد القديم[7] كذلك: قال الرب لموسى عن هارون "فتكلمه وتضع الكلمات في فمه ... وهو يكلم الشعب عنك. وهو يكون لك

(1) ٢٤: ٣ - ٥

(2) صموئيل الأول ٣: ٤، ٦، ٨، ١٠، ١٩ - ٢١.

(3) ٢٨: ١٢ - ١٦.

(4) الإصحاح التاسع والعاشر والحادي عشر.

(5) ص١٠٥ - ١٠٦.

(6) والنص من سفر الخروج ٧: ١، ٢ "فقال الرب لموسى: انظر! أنا جعلتك إلاهًا لفرعون، وهارون أخوك يكون نبيك. أنت تتكلم بكل ما آمرك، وهارون أخوك يُكلم فرعون ليطلق بني إسرائيل من أرضه".

(7) الخروج ٤: ١٤ - ١٧.

فمًا، وأنت تكون له إلاهًا". وجاء في رسالة بطرس الثانية: إن "كل نبوة الكِتاب ليست من تفسيرٍ خاصٍ لأنه لم يأت نبوة قط بمشيئة إنسان، بل تكلم أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس"(١).

كما أن الوحي أو الإلهام عند المسيحية الإنجيلية: "هو عمل روح الله القدس في العقل البشري الخاص بتأهيل الأنبياء والرسل وكتبة الأسفار المقدسة"(٢)، ولا يتأتى باكتساب فهو "فائق الطبيعة... لأنه غير ناشئ عن علم الإنسان، ولا عن استعداده الطبيعي، ولا عن ظروفه الخارجية، بل عن فعل الروح القدس فيه رأسًا؛ لغاية معلومة"(٣) وأن "كَتَبَةَ الكتاب هم آلات بيد الله وأقوالهم معصومة من الغلط"(٤) و"الوحي يشمل ألفاظ الكتاب ومعانيه لأن المعنى هو في الألفاظ وله أهمية كلية في إيضاحه"(٥)، وأن الموحى إليهم لم يكن لهم دور في الوحي، بل "كانوا آلات في يد الله، بمعنى أنهم ما علموه أو كتبوه هو تعليم الله، لا أنه تعالى غير طبيعتهم أو قادهم على كيفية مخالفة لقواهم الطبيعية"(٦).

معنا هنا إذن بيانُ العهد القديم سماع النبي صموئيل أقوال الله وتجلِّي الله له؛ واعتباره لذلك نبيًا. وبيانُه أن الله كلم يعقوب وموسى. ومعنا كذلك إقرار بطرس أن نبوة النبي ليست بإرادته. ومعنا أيضًا حديثُ النصارى في بعض مراجعهم عن الوحي باعتباره عمل روح الله القدس في العقل البشري وأنه لا ينشأ عن علم الإنسان. ومعنا أيضًا حديثهم عمن يوحى إليه على أنه آلة بيد الله، وأن الوحي يشمل ألفاظ الكتاب ومعانيه.

فعلام يدل كل هذا؟ إنه يدل على أن جعْل نولدكه النبوة والوحي في دائرة الشعور

(١) ٢ بط ١: ٢٠، ٢١.
(٢) علم اللاهوت النظامي ١٠٢.
(٣) السابق ١٠٣.
(٤) علم اللاهوت النظامي ١١٢، ويوحنا ١٠: ٣٥.
(٥) علم اللاهوت النظامي ١١٣.
(٦) السابق ١٠٤.

الذاتي والصوت الداخلي للنبي هو أمر مرفوض من قِبَل أهل الكتاب[1] كما ظهر لنا من قبلُ رفضه إسلاميًّا. وبالتالي فإن نولدكه على خطأ عظيم سواء قصر تفسيره للوحي على هذا النحو على حالة محمد ﷺ أو عممه على غيره من الأنبياء؛ وقد سبق أن فسر به وحي المسيح. فلم يأت محمد بدعًا إذن حين عد كل كلمة في القرآن وحيًا حرفيًّا من الله تعالى.

* * *

(١) وما عبر عن خلاف ذلك لديهم عائد للتحريف الذي وقع لنصوصهم الدينية؛ ذلك التحريف الذي ما عاد سبيل لإنكاره.



المبحث الثاني
الرد عليه في وصفه النبي بعدم القدرة على التجريد المنطقي

إن وصف نولدكه النبي بعدم القدرة على التجريد المنطقي *logischen Abstraktionsvermögens*؛ بغض النظر عما يعنيه مفهوم التجريد من الوجهتين: النفسية والفلسفية[1]؛ فإن الذي يعنينا هو تفسيره لهذا الوصف بقوله الذي مر:

إن النبي " قد عدَّ كل ما يتحرك بداخله شيئًا خارجيًّا مرسلًا له من السماء، ولم يختبر أبدًا هذا الإيمان، بل انقاد للشعور الغريزي الذي قاده مرة إلى هنا ومرة إلى هناك؛ إذ إنه كان يعدُّ [هذا الشعور الداخلي] صوت الله الذي قُدِرَ له بشكل خاص".

فهل حقًّا كان رسول الله يعد كل ما يتحرك بداخله شيئًا خارجيًّا مرسلًا له من السماء؟

وهل حقًّا اعتبر الرسول شعوره الداخلي صوت الله؟

وهل كان يفتقد للتجريد المنطقي؟

---

(١) التجريد *(Abstraction)*: سيكولوجيًّا: عزل صفة أو علاقة عزلًا ذهنيًّا وقصر الاعتبار عليها. والذهن من شأنه التجريد، لأنه لا يحيط بالواقع كله، ولا يرى منه إلا أجزاء معينة في وقت واحد، وتسوقه التجربة أيضًا إلى التجريد؛ لأنها تعرض له الواقع مجزءًا أو تظهره على صفة ما. وفي المنطق الصوري: عملية ذهنية يسير فيها الذهن من الجزئيات والأفراد إلى الكليات والأصناف.. وقد يؤخذ التجريد مأخذ الذم؛ فيقال: فلان تجريدي، إذا كان مما يحلو له العيش في عالم الخيال والأوهام. والتجريدية: سوء استعمال التجريد بأخذ المجردات مأخذ الحقائق المحسوسة". المعجم الفلسفي إصدار مجمع اللغة العربية ص٣٩ وانظر: د. عبد المنعم الحفني: المعجم الفلسفي، وراجع:
Alois Halder \ Max Müller: philosophisches Wöterbuch s. 6,7

سأسلك في الرد هنا مسلكين ينقضان دعوى نولدكه؛ (أن رسول الله كان يعد كل ما يتحرك بداخله شيئًا خارجيًا مرسلًا له من السماء؛ ويعد شعوره الداخلي صوت الله).

هذان المسلكان هما:

الاستدلال بذات النبي ﷺ وعلاقتها بالوحي.

الاستدلال بواقع القرآن الكريم من بعض الحيثيات.

المسلك الأول: وهو الاستدلال بذات النبي ﷺ وعلاقتها بالوحي:

وإجمال ما فيه أنه ﷺ لو كان يعد شعوره الداخلي صوت الله لافتقاده التجريد المنطقي - كما ادعى نولدكه - لما ميز بين آرائه واجتهاداته هو وبين الوحي، وكذلك لوجد دعاء النبي طريقه للقرآن، ولأدخل بعض تعقيباته وإضافاته بشأن قصص بعض الأنبياء الواردة في القرآن إليه. ولما جاء القرآن بما لا يُتوقع تذكر ذات محمد له[1]، ولما اختار في البداية أن يحرك به لسانه ليحفظه.

ويشمل هذا المسلك عدة أدلة:

الدليل الأول: تمييز رسول الله بين آرائه والوحي:

١- تمييز النبي بوضوح تام بين رأيه هو باعتباره بشرًا وبين ما يخبر أنه من الوحي قرآنًا أو سنة:

يقول طلحة بن عبيد الله: "مررت مع رسول الله ﷺ في نخل فرأى قومًا يلقحون النخل فقال: «**ما يصنع هؤلاء؟**». قالوا: يأخذون من الذكر فيجعلونه في الأنثى. قال: «**ما أظن ذلك يغني شيئًا**». فبلغهم فتركوه، فنزلوا عنها فبلغ النبي ﷺ فقال: «**إنما هو الظن؛ إن كان يغني شيئًا فاصنعوه؛ فإنما أنا بشر مثلكم وإن الظن يخطئ ويصيب، ولكن ما قلت لكم: قال الله فلن أكذب على الله**»[2].

(١) نلاحظ أن كل هذه الأربعة معبرة بشكل أو آخر عن الذات المحمدية وعلاقتها بالوحي.

(٢) سنن ابن ماجه ٢/ ٨٢٥/ ٢٤٧٠، قال الشيخ الألباني: صحيح، ومسند أبي يعلى ٢/ ١٢/ ٦٣٩=

فلقد بين هنا أن رأيه هذا قاله بحكم بشريته؛ ولم يعده قادمًا له من السماء؛ ولذا فلم يقل لهم إنه وحي من الله. لكنه أضاف لهم أن ما قلت لكم فيه: إنه وحي من الله فهو بالفعل وحي من الله لأني لن أكذب عليه تعالى.

فالتمييز المحمدي واضح كالشمس بين ما يقوله ناتجًا عن رأيه وظنه، وما يقوله مبلغًا عن الوحي. فمن أين أتى نولدكه إذن بكذبته الكبرى أن النبي لم تكن لديه القدرة على التجريد المنطقي؛ وأنه لذلك كان يعد كل ما لا يعارض صوت قلبه مباحًا؛ وكل ما يتحرك بداخله صوتًا لله؟

ولقد فطن المسلمون لهذا التمييز بنفس قدر وعي النبي له؛ فهذا الإمام النووي يترجم للباب الذي ضَمَّنَه هذا الحديث بقوله [1]:

(باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي)

٢- إعلانه نظريًّا أنه قد يصدر في بعض قضائه لا عن الوحي، بل عن استعراض الأدلة والقرائن والموازنة بين حُجَج الخصوم؛ حيث بَيَّن ﷺ أنه لَعَلَّهُ أن يقتنع بحجةِ متقاضٍ يملك لسانًا فصيحًا أو وسائل أخرى توهم أنه صاحب الحق (والحق ليسَ في جهته)؛ فيحكم له محمدٌ (القاضي البشر)؛ يقول:

«إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، فمن قضيت له بحق أخيه شيئًا بقوله فإنما أقطع له قطعة من النار؛ فلا يأخذها»[2].

والحال هنا – مثل ما سبق – أن تمييز النبي واضح تمامًا بين ما يقوله ناتجًا عن اجتهاده ورأيه (وصوته الداخلي حسب تعبير نولدكه)؛ وبين ما يقوله مبلغًا عن الله؛ ومن ثم يبقى نفس التساؤل بلا إجابة:

= وقال الشيخ حسين أسد: إسناده صحيح. وبلفظ مقارب في مسلم بشرح النووي مجلد٥ ج١٥ ص١١٦ رقم (٢٣٦١).

(١) مسلم بشرح النووي مجلد٥ ج١٥ ص١١٦ رقم (٢٣٦١).

(٢) البخاري بشرح ابن حجر ج٥ ص٢٨٨ رقم (٢٦٨٠).

من أين أتى نولدكه إذن أن النبي كان يعد شعوره الداخلي صوتَ الله؟

٣- التطبيق العملي لهذا:

إنه إذا كان المثال السابق قد قدم لنا نظريًّا دليلًا على الاقتناع النظري الداخلي لدى النبي بالفصل بين (صوته الداخلي) وقول الله؛ فإن المثال الآتي يقدم لنا دليلًا عمليًّا على ذلك:

أخرج الطبري في تفسيره[1] الآيات [من ١٠٥ إلى ١١٣: النساء][2] أنزلت في شأن طعمة بن أبيرق وفيما همَّ به نبي الله ﷺ من عذره، وبَيَّن الله شأن طعمة بن أبيرق، ووعظ نبيه وحذره أن يكون للخائنين خصيمًا. وكان طعمة بن أبيرق رجلًا من الأنصار.. سرق درعًا لعمه كانت وديعة عنده، ثم قذفها على يهودي كان يغشاهم[3]، يقال له: زيد بن السمين، فجاء اليهودي إلى نبي الله ﷺ يهتف، فلما رأى ذلك قومه [أي قوم السارق: طعمة بن أبيرق] بنو ظفر جاءوا إلى النبي ﷺ ليعذروا صاحبهم، وكان نبي الله عليه الصلاة والسلام قد هم بعذره، حتى أنزل الله في شأنه ما أنزل، فانطلقوا إلى نبي الله ليلًا، فقالوا: يا نبي الله إن صاحبنا بريء، وإن سارق الدرع فلان، وقد أحطنا بذلك علمًا، فاعذر صاحبنا على رؤوس الناس وجادل عنه، فإنه إن لم يعصمه الله بك يهلك! فقام رسول الله ﷺ فبرأه وعذره على رؤوس الناس، فأنزل الله:

(١) وأورد الطبراني مثله في المعجم الكبير ج١٩ ص٩ رقم (١٥)، وسنن الترمذي ج٥ ص٢٤٤ رقم (٣٠٣٦)، وقال الترمذي: حسن غريب، وصححه الحاكم ج٤ ص٤٢٦ رقم (٨١٧٤)، وأقره الذهبي في التلخيص، وقال الألباني: حسن. وراجع ابن كثير: التفسير ج١ ص٥٢٤، السيوطي: لباب النقول ١١٠ - ١١١، والواحدي: أسباب النزول ١٤٨.

(٢) سأذكرها بعد قليل.

(٣) المتهم ظلمًا هنا يهودي، واسمه: زيد بن السمين، وكذلك في روايات أربعة أخرى لدى الطبري في نفس الموضع، لكنه عند الترمذي والطبراني والحاكم هو لبيد بن سهل، رجل مسلم صالح من الأنصار. وأيًّا ما كان شخص المظلوم فمراجعة النبي بهذا الشأن دليل أصيل هنا.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (1).

فنلاحظ هنا أن المسروق وُجد عند اليهودي بحيلَةٍ من السارق الحقيقي. وشهد الشهود الذين كانوا في الظاهر صادقين قبل أن يكذبهم الوحي؛ لذا هَمَّ رسول الله أن يبرئ السارق الأنصاري المسلم (ظاهرًا) المنافق (حقيقة).

فموازنة النبي - باجتهاده قبل الوحي - بين حجج المتقاضين؛ كادت أن تجعله يبرئ السارق الحقيقي ويتهم اليهودي (بشهادة الشهود ووجود المسروق عنده)؛ لكن نزل الوحي:

يفضح دخائل نفس ذلك السارق المحتال وينهى النبي أن يبرئه.

يعاتب أبناء عائلة ذلك السارق الذين شهدوا له زورًا ودافعوا عنه رغم أنهم غير مسؤولين عن إثمه؛ واضعًا بذلك مبدأ المسؤولية الفردية.

يجَرِّمُ أن يرتكب إنسان خطيئة ويرمي بها آخر؛ مهما كان أمر الانتماء الديني لهذا الآخر.

(١) النساء: من الآية ١٠٥ إلى الآية ١١٣ منها.

يُذَكِّر النبيَّ بأنه لولا فضل الله عليه؛ وتداركه له في هذه الحالة لكاد بنو أبيرق أن يوقعوه في حكم خاطئ. ويمتن عليه بأن الله لا يتركه أبدًا في مثل هذه الحالات، فهو ينزل عليه الكتاب ويعلمه ما لا يستطيع بذاته البشرية أن يعلمه فضلًا منه سبحانه.

ونخلص هنا إلى وجه الاستدلال بهذه القصة هنا: حيث إنها والآيات المعالجة لها بينت عمليًّا وبجلاء تام أن رسول الله يفرق بين جهتين:

الأولى: صوته الداخلي المتمثل في اتجاهه لأن يبرئ السارق الحقيقي ويتهم اليهودي.

الثانية: الوحي المفارق لذات النبي المراجع لأحكامه الذي أدان السارق الحقيقي وبرأ المتهم اليهودي المظلوم[1] وأعاد الأمور إلى نصابها.

(١) للأستاذ سيد قطب - رحمه الله - عدة إشارات جيدة في هذه الجزئية، حيث يرى (الظلال ج٢ ص٧٥١-٧٥٣): أن هذه الآيات تحكي قصة لا تعرف لها الأرض نظيرًا، ولا تعرف لها البشرية شبيهًا، وتشهد وحدها بأن هذا القرآن وهذا الدين لابد أن يكون من عند الله؛ لأن البشر مهما ارتفع تصورهم ومهما صفت أرواحهم.. لا يمكن أن يرتفعوا بأنفسهم إلى هذا المستوى الذي تشير إليه هذه الآيات إلا بوحي من الله. كما أشار إلى أن الوقت الذي نزلت فيه هذه الآيات كان يهود المدينة يطلقون كل سهامهم المسمومة؛ نشرًا للأكاذيب، وتأليبًا للمشركين، وتشجيعًا للنفاق، وطعنًا في النبوة. وفي ذلك الوقت تنزل الآيات على رسول الله وعلى الجماعة المسلمة لتنصف رجلًا يهوديًّا اتهم ظلمًا بسرقة، ولتدين الذين تآمروا على اتهامه، وهم بيت من الأنصار في المدينة، والأنصار يومئذ هم عدة الرسول وجنده".. ويقول: "كان هناك أكثر من سبب للإغضاء عن الحادث، أو عدم التشديد فيه والتنديد به وكشفه هكذا لجميع الأبصار.. لو كانت الاعتبارات الأرضية هي التي تتحكم وتحكم، ولو كانت موازين البشر ومقاييسهم هي التي يرجع إليها هذا المنهج! كان هناك سبب واضح هو أن هذا المتهم يهودي.. وكان هناك سبب آخر أن الأمر في الأنصار الذين آووا ونصروا، والذين قد يوجد هذا الحادث بين بعض بيوتهم ما يوجد من الضغائن؛ بينما أن اتجاه الاتهام إلى يهودي يبعد شبح الشقاق. وكان هناك سبب ثالث هو عدم إعطاء اليهود سهمًا جديدًا يوجهونه إلى الأنصار، وهو أن بعضهم يسرق بعضًا ثم يتهمون اليهود.. ولكن الأمر كان أكبر من هذا كله. أكبر من كل هذه الاعتبارات الصغيرة في حساب الإسلام. كان أمر تربية الجماعة الجديدة.. حتى يقام في الأرض ميزان العدل مجردًا من جميع الاعتبارات الأرضية والمصالح القريبة الظاهرة..".

فهل بعد هذا يمكن أن يُصَدِّق أحد نولدكه في دعواه أن النبي كان يعد شعوره الداخلي صوت الله؛ أو في دعواه أنه لم تكن لديه القدرة على التجريد المنطقي؟

٤- ملاحظات نولدكه على الاستدلال السابق:

من الأمانة هنا أن أعرض رأي نولدكه في الربط بين القصة والآيات موضوع ما قدمته من استدلال: حيث يقول[(١)]:

"إن الآيات [من ١٠٦ - ١١٥ [(٢)] من سورة النساء، أو ١١٦] تفسَّر إجمالًا بأن مدنيًّا متهمًا بالسرقة كاد محمد أن يبرئه طبقًا لرجاء أبناء قبيلته: بنو ظفر. وتفصيلًا: توجد في تقارير متعددة [(٣)] محتويات شتى سليمة النية بجانبها أيضًا لمسات مغرضة[(٤)]

إن معظم المصادر تفتقد إلى الإشارة الزمنية. القليل منها فقط هو الذي يقول: إن السارق مات في مكة عند المشركين. وفي أسد الغابة توجد ملاحظة لم تُفحص: أن السرقة حصلت قبل ربيع الأول من السنة الرابعة من الهجرة. إن الحادثة في ذاتها بلا ريب جديرة بالتصديق؛ ويُستدل على تاريخيتها كذلك بالاعتماد على [ورودها في] شعر هجائي لحسان بن ثابت. ولا سند في منطوق [هذا] النص القرآني لربطها [أي الحادثة المذكورة] بتلك الآيات، [بل] يرجع هذا الارتباط إلى دائرة اختراع الشراح الواسعة".

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٠٢ - ٢٠٣

(٢) من قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ...﴾ إلى ﴿...وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾، وقد ذكرت الآيات كاملة أعلاه.

(٣) يحيل نولدكه إلى ابن هشام والترمذي والطبري في التفسير، والواحدي والزمخشري والبيضاوي وأُسد الغابة والإصابة وديوان حسان بن ثابت طبعة تونس. كما يذكر الاختلاف بشأن اسم السارق: أبو طعمة بن أبيرق، أو طعمة بن أبيرق، أو أبو طعمة: بشير بن أبيرق، أو فقط: سارق الدرعين عند حسان، وفي شرحها: بشير بن أبيرق أبو طعمة الظفري.. إلخ.

(٤) عندما يقال على سبيل المثال: إن المتستر على المجرم أو أن اللص ذاته كان يهوديًّا (نولدكه).

٥ أ- مناقشته في رأيه هذا:

إن نولدكه يُصدِّق - وبغير شك - بالحادثة في ذاتها؛ ويتخذ من ذكرها في الروايات وشعر حسان دليلًا على حصولها. لكنه في ذات الوقت يرى أن المفسرين اخترعوا الربط بينها وبين الآيات المذكورة. ودليله على هذا أنه لا سند في منطوق الآيات القرآنية يؤيد هذا الربط.

لكن إذا كانت الحادثة صادقة وتاريخية - كما قال وكما ثبت من حكمي عليها في هامش سابق - فما الذي يمنع أن تكون الآيات المذكورة مرتبطة بها؟

إن شُبهتَيْ نولدكه على هذا المنع هما: أنه لا سند في الآيات يدل على الربط بينها وبين الحادثة، وأن المفسرين اخترعوا هذا الربط ضمن ما توسعوا فيه من ربط بين الأحداث ونزول الآيات.

أما شبهته الأولى المتعلقة بمنطوق الآيات فنرد عليها من خلال الجدول الآتي:

تفاصيل الحادثة المروية	تعقيب الآيات
احتكامٌ للرسول ﷺ	﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾
خيانة السارق وطلب أقاربه من النبي تبرئته	﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾، ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾
جدال أقاربه عنه	﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾
سَرَق السارق، ورمى هو وأقاربه بريئًا بها	﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾
محاولة أقارب السارق أن يؤيدهم النبي في هذا	لكن الله يعصم نبيه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾

يتضح إذن من خلال تأمل أحداث القصة ومنطوق الآيات أن الآيات تعقيب مباشر على القصة. وإذا لم يكن نولدكه يراها كذلك؛ فعن أي شيء تتحدث الآيات إذن؟

ليس في كلام نولدكه إجابة.

وأما شبهته الثانية، وهي أن المفسرين اخترعوا هذا الربط؛ فكان من الممكن أن تكون صادقة[1] لو كانت الروايات عن الحادثة ضعيفة؛ أو كانت صحيحة لكنها تكتفي بذكر الحادثة دون أن تبين نزول الآيات تعقيبًا عليها؛ لكن الافتراضين لم يتحققا؛ فالروايات ثابتة، كما تبين لنا الارتباط رواية ودراية بين الآيات والحادثة.

٥ب-ولنا ملاحظتان أخريان على كلام نولدكه هنا:

إن المدني الذي سرق لم يكن مجرد مدني كما قال نولدكه، وإنما كان منافقًا كما تجمع كل الروايات التي فيها: "كان بشير رجلًا منافقًا يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله" و "لحق بشير بالمشركين فنزل على سلافة بنت سعد ابن سمية" إلخ[2].

إن نولدكه يذكر أن في الروايات ما يشير إلى أن المتستر على المجرم أو أن اللص ذاته كان يهوديًّا؛ لكن ليس في الروايات التي رجعت إليها في هوامش هذه الجزئية شيء من هذا مطلقًا. فقول بعض الروايات: إن يهوديًّا اتهم ظلمًا بتلك السرقة لا يعني أبدًا أنها تقول: إن اللص يهودي؛ لكن نولدكه فهم ذلك، ورتب عليه حكمه أن تقارير بعض الروايات مغرضة. وهو اتهام متعجل قائم على فهم خاطئ كما رأينا.

---

(١) حصل بالفعل أن بعض المفسرين حاولوا إيجاد سبب نزول بعض الآيات معتمدين على روايات ضعيفة، أو رابطين بين روايات صحيحة وآية أو آيات لا يرتبطان أصلًا. لكن هذا لم يحصل دائمًا منهم، بالإضافة إلى أنه ليس مسلكًا عامًّا من الجميع. (المؤلف)

(٢) راجع ما سبق ذكره من مراجع منها: الترمذي، المستدرك، المعجم الكبير للطبراني.

الدليل الثاني: دعاء النبي لا يجد طريقه للقرآن:

لقد كان رسول الله يدعو ربه في كلمات عذبة رقيقة صافية تنطق بتمام العبودية لله تعالى. ولقد سجل رواة السنة ومدونوها كثيرًا من أدعيته ﷺ في كتب. وكانت أدعيته كثيرة في أحوال وأوقات مختلفة منها: الصباح والمساء.. السفر والجهاد.. دخول المسجد والمنزل والخروج منهما.. نزول المطر.. رؤية أهل البلاء.. رؤية الهلال.. الكرب.. بعد الصلاة.. الاستخارة.. ركوب الدابة... إلخ.

نذكر من أدعيته ﷺ ما أخبرنا أنه سيد الاستغفار: «**اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء لك بذنبي؛ فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**»[1].

وكذلك دعاءه عند النوم: «**اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت**»[2].

وعند تهجده كان يقول: «**اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق، ووعدك حق، وقولك حق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، والنبيون حق، ومحمد حق. اللهم لك أسلمت، وعليك توكلت، وبك آمنت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت، أو لا إله غيرك**»[3].

وعن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يدعو يقول: «**رب أعني ولا تعن علي، وانصرني ولا تنصر علي، وامكر لي ولا تمكر علي، واهدني ويسر الهدى لي، وانصرني على من بغى علي. رب اجعلني لك شكارًا، لك ذكارًا، لك رهابًا، لك مطواعًا، لك مخبتًا، إليك**

---

(١) البخاري بشرح ابن حجر ج١١ ص٩٨ رقم (٦٣٠٦).

(٢) البخاري بشرح ابن حجر ج١١ ص١٠٩ رقم (٦٣١١).

(٣) البخاري بشرح ابن حجر ج١١ ص١١٦ رقم (٦٣١٧).

أواهًا منيبًا، رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، وسدد لساني، واهد قلبي، واسلل سخيمة صدري»[١]

وكان يقول عند الاستخارة: **«اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم؛ فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب. اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال: عاجل أمري - وآجله، فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال: في عاجل أمري - وآجله، فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم أرضني به»**[٢].

إن هذه الجزئية بالغة الأهمية في بحثنا؛ إذ إنه مما لا يمكن أن يكون مجالًا للشك أن الدعاء من أهم ما يعبر عن مشاعر الشخص الدينية التي يجيش بها صدره تجاه الله سبحانه؛ ولا يمكن أن يلجأ إنسان للدعاء مختارًا إلا إذا كان صادرًا من الوجدان ومعبرًا عن داخل الإنسان تعبيرًا صادقًا.

ولذا فلا بد أن تكون أدعية رسول الله كلها معبرة أصدق تعبير عن مشاعر النبي ووجدانه، وبخاصة أن رسول الله كان دائم التكرار لها لدرجة أن كثيرًا منها سمي عمل اليوم والليلة؛ ومن هنا يمكن أن نطلق على دعاء النبي ربه هنا: صوت النبي الداخلي؛ فلماذا لم يدخله النبي إلى القرآن؟

إن كل هذه الكلمات الرقيقة التي تشتمل على تنزيه الله تعالى وتقديسه، وتبين أن النبي يضع نفسه في مقام العبودية الخالصة لله؛ لا يعبد سواه، ولا يرتكن إلا إليه، ولا يعتمد إلا عليه وحده. كما تبين أنه يلجأ لعلمه وتقديره وحده. وفيها إعلانه البراءة من حوله وقوته إلى حول الله وقوته.. لكن رغم ذلك لم تجد هذه الكلمات طريقها إلى القرآن بفعل رسول الله.

كما نذكر هنا دعاءه عند إيذاء أهل الطائف له إبان الفترة المكية: **«اللهم أشكو إليك**

(١) الترمذي كتاب الدعوات عن رسول الله؛ وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) البخاري بشرح ابن حجر ج١١ ص١٨٣ رقم (٦٣٨٢).

ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني، أو إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، لكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة؛ من أن ينزل بي غضبك أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»[1].

ونقول بشأن هذا الدعاء الأخير: إن النبي يمكن أن يجد وأن يعاني، وأن يتوجه إلى الله طالبًا النصرة والتأييد.. يمكنه أن يدعو ربه ويناجيه ويرفع إليه واقعه والضر الذي يصيبه.. يمكن أن يستعيذ من غضبه تعالى ويستمطر رضاه.. كل ذلك في لغة رقيقة خاشعة وعبارات مشرقة بالإيمان والتسليم ناطقة بتمام العبودية.. كل ذلك ممكن.. لكن لن تجد مثل هذا الدعاء الصادر من النبي في القرآن؛ وذلك لأن القرآن ليس صدًى لمشاعر النبي ووجدانه وآلامه، إنما هو مفارق لذاته موجه لها.

وفيما قلناه هنا رد إضافي على دعوى نولدكه أن النبي "اعتبر كل ما يتحرك بداخله صوت الله" أو ما سماه: (عدم قدرة النبي على التجريد المنطقي)، فقد وجدنا أن الدعاء وهو شديد التعبير عن الذات لم يقحمه النبي في القرآن، ولم يعتبره صوت الله.

الدليل الثالث: تعقيباته ﷺ على بعض القصص القرآني لم يقحمها في القرآن:

لقد ثبت عن النبي ﷺ بعض التعقيبات والإضافات بشأن قصص بعض الأنبياء الواردة في القرآن. منها أنه قال بشأن قول القرآن على لسان لوط عليه السلام: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[2]: **«يغفر الله للوط، إن كان ليأوي إلى ركن شديد»**[3].

---

(١) الطبري ج٢ ص٣٤٥، وكذلك أخرجه ابن إسحاق بدون إسناد: السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٢٦٥، وقال الشيخ الألباني (هامش فقه السيرة للغزالي ص١٣٧): (قال الهيثمي: وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات).

(٢) هود: ٨٠.

(٣) البخاري بشرح ابن حجر ج٦ ص٤١٥ رقم (٣٣٧٥).

كما ثبت عنه ﷺ إضافات بشأن بعض القصص القرآني من قبيل:

قوله ﷺ بشأن قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾[1]؛ «**إن موسى كان رجلًا حييًّا سِتِّيرًا لا يُرى من جلده شيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده؛ إما برص وإما أُدْرَة**[2] **وإما آفة. وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى؛ فخلا يومًا وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل؛ فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها؛ وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول: ثوبي حجر! ثوبي حجر! حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عريانًا أحسن ما خلق الله، وأبرأه مما يقولون**»[3].

وقوله: «**أنا أشبه ولد إبراهيم به**»[4].

وقوله بشأن مريم وابنها: «**ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخًا من مس الشيطان، غير مريم وابنها**»[5].

ولا شك أن هذه الإضافات صدرت من النبي، لكنها لم تجد طريقها لتصير قرآنًا؛ (على الرغم من أنها مما خطر على ذهن النبي، أو بتعبير نولدكه: صوت النبي الداخلي). وهذا دليل على بطلان دعوى نولدكه (عدم قدرة النبي على التجريد المنطقي)، أو أن النبي كان يعد صوته الداخلي صوتًا لله.

الدليل الرابع: مجيء القرآن بما لا يتوقع تذكر ذات محمد ﷺ له.

وأتناول هنا - على سبيل المثال أمر القرآن أولي الفضل[6] بالعفو والصفح وعدم

(١) الأحزاب: ٦٩.

(٢) الأُدْرَةُ بالضَّمّ: نَفْخَة في الخُصْية. يقال: رجل آدَرُ: بَيِّنُ الأدَر (بفتح الهمزة والدال)، وهي التي تُسَمّيها الناسُ القيلةَ. النهاية في غريب الأثر ج١ ص٣١.

(٣) البخاري بشرح ابن حجر ج٦ ص٤٣٦ رقم (٣٤٠٤).

(٤) من حديث بشأن الإسراء، البخاري بشرح ابن حجر ج٦ ص ٤٢٨ رقم (٣٣٩٤).

(٥) البخاري بشرح ابن حجر ج٦ ص٤٦٩ رقم (٣٤٣١).

(٦) وضَّح حديث عائشة أن المقصود هو أبو بكر الذي كان ينفق على مسطح ثم قطع عنه النفقة لـمَّا قال ما قال.

قطع النفقة عن أولي القربى واليتامى والمساكين. والمقصود مسطح بن أثاثة الذي أساء لعائشة، وروج لاتهامها كذبًا.. تقول عائشة:

(فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر الصديق، وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة ما قال. فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]؛ قال أبو بكر: بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي. فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه؛ وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا)[2]. حيث يُظهر تأمُّلنا له أن النبي لم يكن كما يدعي نولدكه مفتقدًا إلى التجريد المنطقي؛ كما يمدنا ببعد إضافي يبتعد بالوحي عن دائرة ذات محمد؛ وذلك من جهتين:

الجهة الأولى: جهة التذكر على خلاف المتوقع؛ فهذا النبي البشر الذي هوجم في أسرته هذا الهجوم الخسيس ثم كشف الوحي الحقيقة.. كيف يمكن - لو كان هو مصدر الوحي - أن يتذكر حادثًا هامشيًّا عارضًا هو (منع أبي بكر الصدقة عن شخص تكلم باتهام عائشة)؟

إن نسيان حدث عارض كهذا؛ هو المتوقع غالبًا في غمرة السرور ببراءة زوجة النبي الحبيبة وإزاحة هذه الغمة عن واقع المجتمع المسلم.

لكن مجيء الإشارة إليه يفيد بالضرورة أن ذِكره مفارق لذات محمد ليس نابعًا منها. ويفيد كذلك أن هناك فصلًا وتمييزًا واضحين تمامًا بين عالم مشاعر محمد - البشر - الداخلية؛ وبين مقتضيات الوحي العلوي المتجرد عن هذه المشاعر، المفارق لها، والذي يسمو بها في نفس الوقت.

الجهة الثانية: جهة الأمر بما هو مخالف لاتجاه الذات أو بما هو فوق ما يتوقع منها؛ حيث إن عدم اتخاذ موقف مناهض لمنع النفقة عن مثل مسطح (الذي وجه إهانة شخصية لزوج

(١) النور: ٢٢.

(٢) من حديث في البخاري بشرح ابن حجر ج٨ ص٤٥٢ رقم (٤٧٥٠). وستأتي بقيته.

النبي)؛ هو الأمر الذي يُتوقع (صدى لصوت الذات النبوية المعتدى عليها)؛ وذلك بقصد تأديب مسطح كواحد من مروجي الإفك، وبخاصة أن حدَّ الله بشأن قذف المحصنة ينتظره.

ولو افترضنا أن تسامي هذه الذات الخلقي كان سيميل إلى الصفح وسيأمر أبا بكر بالرجوع للإنفاق عليه؛ لتوقعنا أن يكون ذلك بأمر نبوي في كلام عادي.. لكن أن يجيء هذا مخالفًا لاتجاه الذات المعتدى عليها وفي نص قرآني بوحي إلهي؛ فذلك لا يمكن تفسيره أبدًا إلا بافتراض الانفصال التام بين مشاعر محمد (صوته الداخلي حسب نولدكه)؛ وبين مصدر الوحي، بما يعني أن النص القرآني مفارق لذات النبي غير نابع منها، ولا متأثر بها، وليس صدًى لصوت داخلي لها.

ومن الأمثلة على هذه الجهة: (جهة الأمر بما هو مخالف لاتجاه الذات النبوية) كذلك:

١- ما ثبت عند مسلم وأحمد من حديث أنس بن مالك أن النبي كسرت رباعيته يوم أحد، وشج وجهه حتى سال الدم على وجهه، فقال: «**كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم؟**». فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾[1].

٢- ما روي بشأن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[2] من أنه لمَّا كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلًا، ومن المهاجرين ستة فيهم حمزة، فمثل المشركون بهم، فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يومًا مثل هذا لنربين عليهم؛ فلما كان يوم فتح مكة فقال رجل: لا قريشَ بعد اليوم، وأنزل الله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ الآيات، فقال رسول الله: «**كُفُّوا عن القوم إلا أربعة**»[3].

---

(١) آل عمران: ١٢٣.

(٢) النحل: ١٢٦-١٢٨.

(٣) المستدرك ج٢ ص٣٩١ رقم (٣٣٦٨)، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه،=

إن الآيات ترتفع فوق جراحات النبي والمسلمين التي حصلت في أحد، ولا يمكن أن تصور كونها صدى لما يعتمل في ذات النبي ومشاعره التي جاءت الآيات بخلافها. فلا يقبل ادعاء أن يكون النبي يوحد بين صوته الداخلي ووحي الله.

لكن ما موقف نولدكه من هذا المثال الأخير؟ إنه يرى مكية الآيات المذكورة[1]:

"إنها حسب محتواها وشكلها تعد مكية؛ وتفسرها الرواية - لكن بشكل عابر - بمنع محمد أن يفي بنذره وينتقم من المكيين لقتلهم حمزة[2]، ويضيف البعض: إن هذه الآيات لم تنشأ فور الانتهاء من غزوة أحد، بل فيما بعد عند فتح مكة.. إن وجهات النظر الخاطئة هذه يمكن أن تعتمد على حقيقة أن ذلك الوحي القديم كان قد تلي من النبي عند واحد من هذه الأحوال. إن الأكثر احتمالًا أن تكون وجهات النظر هذه ظنونًا من الشراح".

ويستدل نولدكه على رأيه بقوله[3]: "قارن: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ بـ ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾، و(بما يمكرون)[4]. إن الإشارات الواضحة هنا أن النبي الذي وجد نفسه في حالة استضعاف لم يكن في استطاعته أبدًا الاعتراض، فضلًا عن الجهاد العلني".

= وقال الذهبي: صحيح، وابن حبان بترتيب ابن بلبان ج٢ ص٢٣٩ رقم (٤٨٧)، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن. كما ورد في مسند أحمد ج٥ ص١٣٥ رقم (٢١٢٦٨)، والبيهقي وغيرهم.

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٤٨ - ١٤٩.

(٢) هو يشير إلى رواية ضعيفة السند، وردت في المستدرك ٣/ ٢١٨ رقم (٤٨٩٤)، تربط نزول الآيات بغزوة أحد؛ حيث تشير إلى أن النبي عندما نظر يوم أحد إلى حمزة (وقد قتل ومُثِّل به) فرأى منظرًا لم ير منظرًا قط أوجع لقلبه منه ولا أوجل [فقال ما قال] ثم حلف، (وهو واقف مكانه): «**والله لأمثلن بسبعين منهم**». فنزلت الآيات المذكورة. فكفَّر رسول الله ﷺ عن يمينه، وأمسك عما أراد. لكن الذهبي قال في التلخيص: صالح (يقصد المُرِّي، وهو أحد الرواة هنا) واهٍ؛ وقال عنه البخاري: منكر الحديث. كما وردت نفس الرواية من طريق محمد بن إسحاق وبإسناد فيه مبهم. راجع: تعليق مصطفى عبد القادر عطا على الرواية في موضعها المذكور في المستدرك، وابن كثير: في تفسيره للآيات المذكورة.

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٤٨-١٤٩، في الهامش.

(٤) هكذا كتبها نولدكه باللغة العربية والصواب: ﴿مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾.

وأقول:

لقد ذكرت من قبل الرواية الصحيحة بشأن نزول الآيات الكريمة سالفة الذكر. ومن ثم فلا يصح منهجيًّا الإعراض عن هذه الرواية الصحيحة، وجعل الآيات مكية بالتعليل الذي قاله نولدكه من أن لهجة الصبر هي المناسبة لحمل الآيات على العهد المكي (عهد الاستضعاف)؛ لأنه لا يصح أن يُعتمد هذا المقياس وحده - بعيدًا عن الرواية - مرجحًا في الحكم بمكية الآيات المذكورة؛ لأنه ليس أمرًا لازمًا للمرحلة المكية.

فالأمر بالصبر والصفح من ناحية قد وجد على الأقل في آيتين مدنيتين؛ هما: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]، ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[2].

ويقينًا لم يكن النبي في المرحلة المدنية في حالة استضعاف.

ومن ناحية أخرى قد وجد في العهد المكي (الذي هو عهد الاستضعاف) جواز رد الظلم بما يكافئه: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۝٤٠ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾[3].

إن دليل نولدكه على مكية الآيات المذكورة إذن قد تطرق إليه الاحتمال فيسقط به الاستدلال. وما دامت الرواية قد ثبتت على النحو الذي بيناه؛ فلا سبيل إلى قبول ادعاء نولدكه أنها ليست سوى ظنون من الشراح لأن دعواه قد آلت إلى أن تكون بلا دليل.

وحتى إن كانت الآيات مكية؛ فهي تحمل أيضًا ذات الدلالة من حيث إنها ترتفع فوق رغبة الذات في أن يكون لها رد فعل تجاه ما تلاقيه من عنت وظلم واضطهاد (وقد كانت صوره بمكة أكثر من أن تحصى). فهذا يدل على كونها ليست صوت محمد الداخلي.

(1) البقرة: ١٠٩.
(2) آل عمران: ١٢٠.
(3) الشورى: ٤٠، ٤١.

الدليل الخامس: تدريب النبي ذاكرته على الحفظ:

لقد كان النبي في بداية نزول الوحي عليه يدرب ذاكرته على الاستيعاب والحفظ لما ينزل عليه إلى أن نُهي عن ذلك[1]. ولن يكون هذا التدريب ذا معنى إلا إذا كان النبي بالفعل يفصل من حيث المصدر بين (ما يتلقاه من وحي يردده حتى لا ينساه) وبين ذاته هو.

المسلك الثاني: الاستدلال بواقع القرآن الكريم على وجود التجريد المنطقي لديه ﷺ:

نسوق هنا دليلين بالنظر إلى واقع القرآن يردان على نولدكه دعواه أن رسول الله كان (يعد كل ما يتحرك بداخله شيئًا خارجيًّا مرسلًا له من السماء)؛ و(يعد شعوره الداخلي صوت الله)؛ حيث سيظهر لنا من هذين الدليلين أن النبي كان قادرًا على التجريد المنطقي، وأنه كان يفرق بين مشاعره والوحي، وأنه ما كان يعد كل ما يتحرك بداخله شيئًا خارجيًّا مرسلًا له من السماء.

الدليل الأول: أننا لا نجد في القرآن أثرًا لشخصيته[2] ﷺ:

أ- فلقد مرت بالنبي أحداث مؤلمة على المستوى الشخصي لم تكن متعلقة تعلقًا مباشرًا بدعوته، بل تندرج تحت ما يمكن تسميته: عوارض الحياة ونوازل الدهر التي تعرض لكل البشر، وذلك مثل وفاة أبيه، وأمه، وجده عبد المطلب، وعمه أبي طالب، وزوجه خديجة، وستة من أبنائه. كل هذا لا نجد له أي أثر في القرآن. فهل وجد شاعر لا تبعث هذه الأحداث العاطفية الكبرى في حياته بصداها إلى شعره؟

ب- كما لا نجد فيه كذلك أسماء من أحبهم النبي، والأحداث المهمة في حياته من ميلاد وتفاصيل يُتمٍ ورَعي للغنم وتجارة وزواج وعالم مشاعره الخاصة.. يقول

(١) ستأتي الروايات المتعلقة بهذا.

(٢) وعلى صلة بهذا نجد أنه بالنظر لطبيعة ذات النبي ﷺ فلا يمكن كذلك أن يكون النبي عد شعوره الداخلي صوت الله.

الأستاذ مالك بن نبي: (ستظل ذاته دائمًا صامتة في الخطاب القرآني الذي لن يذكر الأحداث الخاصة في تاريخه. فلن نجد أي صدى لآلامه خاصة عندما يفقد أكرم زوجة وأفضل عم، ومع علمنا بما كان لديه من الحنو البَنوي تجاه هاتين الشخصيتين)[١]

ويقول[٢]: إن ذات النبي تشغل في القرآن (مكانًا ضئيلًا؛ إذ نادرًا ما يتحدث القرآن عن تاريخ محمد الإنسان. إن آلامه العظمى أو مسراته لم ترد فيه قط. ولو تخيلنا النازلة التي أصابته في أوج دعوته بفقد عمه وزوجه لأدركنا مدى الدوي الرهيب لحدث كهذا في حياة (رجل) كان حتى آخر لحظاته يبكي خديجة وأبا طالب عندما كان اسماهما يذكران أمامه[٣]؛ وعلى الرغم من هذا لا نجد أي صدى لموتهما في القرآن، بل ولا اسم الزوجة الحانية التي تقبلت في حجرها انبثاق الإسلام الوليد).

ج- وعلى علاقة بهذا أننا نجد أن اسم (محمد ﷺ) ذاته لم يذكر في سائر القرآن سوى مرات أربعة[٤]؛ في حين أن موسى عليه السلام ذكر خمسًا وثلاثين ومائة مرة تقريبًا، وذُكر عيسى باسمه وبنسبته لأمه ثمانية وأربعين مرة تقريبًا؛ فلو كان الوحي صوت النبي الداخلي؛ فهل كان من الممكن أن يقل تذكرُه لنفسه لهذا الحد؟

د- وحتى عندما اختفت قطيفة من الغنيمة وجرى على لسان بعضهم أن ربما أن يكون أحد أخذها للنبي، وجاء النفي القرآني منزها مقام النبوة في ذاته – بشكل

(١) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ١٦٣، ١٦٤.

(٢) مالك بن نبي الظاهرة القرآنية ١٩٦. وراجع د. محمد شامة: الإسلام في الفكر الأوربي ٦١، ٦٢.

(٣) الثابت أن النبي كان يتأثر كثيرًا لذكر خديجة.

(٤) في قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤٤]، وقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[الأحزاب: ٤٠]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾[محمد: ٢]، وقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[الفتح: من الآية ٢٩].

عام – عن الغلول؛ دون أن تظهر أي ظلال عن شخصية محمد التي نؤكد أنها تتوارى في القرآن؛ جاء عن ابن عباس في مناسبة نزول الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[1] أن قطيفة حمراء افتقدت يوم بدر فقال بعض الناس: لعل رسول الله أخذها. فأنزلها الله[2].

هـ- تعليق نولدكه على الارتباط بين الآية والحادثة المذكورين في الفقرة الأخيرة:

إنه يعلق على الارتباط المفترض بين الآية والحادثة المذكورة فيضيف نزغ التشكيك المعهود منه، فيقول[3] عن الآية المذكورة:

إنها "ترتبط برواية تقدم معلومة أن حلة ثمينة كانت قد فقدت من غنائم بدر، واتهم محمد بأنها أخذت له. هذا الربط *(Kombination)* يترك انطباعًا من أول وهلة بأمانة تاريخية [في النقل] *(historischer Zuverlässigkeit)*؛ بسبب ما فيه من اتهام للنبي[4]. لكن برغم ذلك يبدو أنه مثير للاشتباه أن يكون تزيدًا أدخل من أجل الشرح والتفسير".

فهو هنا على الرغم من تحسين الترمذي لهذا الحديث – كما بينا في الهامش – وعلى الرغم من إشارة نولدكه السريعة إلى ما يتركه هذا الحديث من انطباع بوجود أمانة تاريخية في النقل؛ إلا أنه بلا أدنى مبرر يصير إلى التشكيك فيه مرجحًا كونه مجرد تزيد من الشراح من أجل التفسير لا أكثر. وما دليل نولدكه للتشكيك فيه؟ لا دليل لديه سوى قوله: يبدو أنه مثير للاشتباه أن *scheint sie verdächtig*..

(١) آل عمران: ١٦١.

(٢) أبو داود والترمذي وحسَّنه. وراجع: لباب النقول في أسباب النزول ص٧٦.

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٩٣ وهامش٤.

(٤) يجب أن نتذكر هنا اتهام نولدكه للمسلمين أنهم أخفوا أن رسول الله كان خوافًا (راجع بدايات هذا الجزء). وينبغي أن نضيف رواية المسلمين المذكورة أعلاه إلى جملة ما رددنا به هناك عليه؛ إذ لو كان مبدأ الإخفاء واردًا؛ لأخفوا هذه الرواية أيضًا التي يترك إيرادهم لها – وباعتراف نولدكه نفسه – انطباعًا بالأمانة التاريخية *historischer Zuverlässigkeit*.

وما أيسرها من طريقة يمكن أن تستخدم من قبل أي باحث للتشكيك في كل رواية مرتبطة بنزول آية؛ ولا قيمة إذن لمنهج المسلمين للتثبت من المرويات!!

وإذا لم تكن هذه الآية على علاقة باتهام معين من قبيل ما جاء بهذه الرواية فبم تتعلق إذن؟ لا يجيب نولدكه!

الدليل الثاني: أننا لا نجد القرآن انعكاسًا لرغباته ﷺ

وأسوق هنا حالة انتظارِ النبي تحويلَ القبلة ستة عشر شهرًا مثلًا على هذا؛ فحين ننظر إلى قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾(١) نفهم أن النبي كانت لديه رغبة حقيقية في أن يتجه للكعبة في صلاته لاعتبارات كثيرة، وتفهم هذه الرغبة المحمدية من السنة كذلك(٢).

لكن تحقيق هذه الرغبة بأمر الوحي لم يواكب الرغبة ذاتها زمانًا وجاء متأخرًا عنها؛ فلو كان النبي لا يملك القدرة على التجريد المنطقي ليفصل بين (صوته الداخلي) و(كلمة الله) لحول هذه الرغبة من أول الأمر إلى قرآن، ولكان أقل ما يمكن توقعه من الوحي أن يكون انعكاسًا لرغبته في التوجه للكعبة في الصلاة مواكبًا في الزمان لهذه الرغبة.. لكن هذا لم يحصل؛ وتأخر تحويل القبلة كل هذه المدة(٣).

نخلص في هذا المبحث إلى بطلان دعوى نولدكه افتقاد النبي ﷺ للتجريد المنطقي، أو أنه كان يعد صوته الداخلي وحي الله. حيث ظهر لنا خطؤه في فهمه للنبوة والوحي. كما ظهر لنا أن دعاء النبي وتعقيباته ﷺ على بعض القصص القرآني لم يجدا طريقهما

---

(١) البقرة: من الآية ١٤٤.

(٢) جاء في الحديث عن البراء بن عازب: (وكان رسول الله يحب أن يوجَّه إلى الكعبة). البخاري بشرح ابن حجر ج١ ص٥٠٢. وجاء في طبقات ابن سعد ج١ ق٢ ص٣: أن النبي قال: «يا جبريل، وددت لو أن الله صرف وجهي عن قبلة يهود!». فقال جبريل: إنما أنا عبد، فادع ربك وسله. وجعل (النبي) إذا صلى إلى بيت المقدس رفع رأسه إلى السماء؛ فنزلت عليه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾ الآية.

(٣) ويأتي تحت هذا العنوان كذلك كل ما كان رغبة للنبي وأظهرها، لكن الوحي جاء بخلافها.

إلى القرآن. وأننا كذلك لا نجد فيه أثرًا لشخصيته ولا انعكاسًا لرغباته ﷺ. كما ظهر لنا أن القرآن جاء بما لا يتوقع تذكر ذات محمد ﷺ له. وأثبتنا أنه ﷺ كان يفصل بين مشاعره وآرائه الخاصة واجتهاداته من جانب وبين الوحي من جانب آخر، وأنه كان يميز بوضوح تام بين رأيه هو باعتباره بشرًا؛ وبين ما يخبر: أنه من الوحي قرآنًا أو سنة.. وأنه كان لديه اقتناع نظري داخلي بالانفصال بين (صوته الداخلي) وقول الله. كما ظهر لنا أن المسلمين فطنوا لهذا التميز والانفصال بنفس قدر وعي النبي له. والله أعلم.





الفصل الثالث

تهافت القول بالصوت الداخلي تفسيرًا للوحي



تمهيد

لقد ناقشنا نولدكه في الفصلين الماضيين فيما ادعاه من أسبابِ تفسيره الوحي المحمدي على أنه (صوت داخلي ظنه النبي قادمًا له من الله تعالى). وناقشناه في بيانه لنشأة ذلك الصوت المزعوم، وفي ادعائه افتقاد النبي ﷺ التجريد المنطقي؛ مما جعله - حسب زعم نولدكه - يعد شعوره الداخلي صوتًا لله.

ونحسب أننا بذلك نكون قد نقضنا الأسس التي قامت عليها دعواه أن وحي الله إلى محمد لم يكن سوى صوت داخلي للنبي.

وقبل أن أذكر الشواهد التي تبين تهافت تفسير نولدكه هذا؛ فإنه لا ينبغي أن يفوتنا أن نضع هذا التفسير إلى جانب التفسير الذي سبقه في الجزء الأول من هذه الدراسة.

لقد فسر نولدكه الوحي إلى محمد ﷺ - كما رأينا في الجزء الأول - على أنه نوبات صرع أو حالات تهيج نفسي كان يمر بها النبي.. لكنه الآن يفسره على أنه صوت داخلي لدى النبي ظنه وحيًا. ولا أدري بأي منطق ساغ لنولدكه أن يجمع بين التفسيرين!!

إن كون وحي محمد ﷺ عرضًا لمرض نفسي يضفي على ظاهرة الوحي من البداية طابعًا مرضيًّا اضطراريًّا لا دخل فيه للذات النبوية. فالوحي طبقًا لهذا التفسير نوبات صرعية يدخل فيها النبي وبعد إفاقته يقول كلامًا يعده وحيًا جاءه أثناء تلك الحالة.

أما تفسير الوحي على أنه صوت داخل ذات محمد جاءه بحكم الخلوة الطويلة في غار حراء، وفرض عليه أن ينذر قومه ويحذرهم من الشرك... هذا التفسير ليس فيه مكان لأي ظاهرة مرضية نفسية أو حتى عضوية؛ فالنبي حسب افتراض نولدكه واعٍ برسالته

مؤمن بها واع كذلك بدوره ووظيفته.. وهذه الأمور كلها تتناقض تماما مع أي افتراض لحالة مرضية.

والسؤال الآن: كيف عبر نولدكه بهذين التفسيرين قنطرة المنطق فجمع بينهما رغم ما بينهما من اختلاف؟

وإذا أضفنا إلى هذا أيضًا أن كتاب نولدكه كان في الأصل رسالته للدكتوراه؛ فإن سؤالًا ثانيًا سينشأ، هو: بأي منطق علمي مر ذلك على الأساتذة الذين حكَموا على رسالته؟

ثم بمعالجة فريدريش شفاللي (وهو من هو في عالم الاستشراق) للقسم الأول من كتاب تاريخ القرآن الذي أورد فيه نولدكه هذا الكلام الغريب... يكرر السؤال للمرة الثالثة؟

لكن يظهر لي: ألا جواب.... لسبب يسير هو أن الأمر إذا تعلق بمحمد ﷺ ونبوته وأصل الإسلام فإنه يسهل الإطاحة بالمنطق!!!

هكذا أراد نولدكه.. وهكذا أراد متابعوه... ولن يسعنا إذن سوى أن نتعامل مع الواقع... ولننظر الآن في هذا التفسير لنرى: هل يمكن قبوله بالفعل مفسرًا لوحي الله إلى محمد ﷺ ؟

ونقول:

إننا بالإضافة لما ذكرناه من ردود جزئية تفصيلية على نولدكه في المباحث الثلاثة الماضية؛ فإننا بشكل عام لو نظرنا إلى واقع العلاقة بين النبي والقرآن، وإلى حالة الوحي ذاتها؛ سنصل إلى نتيجة هي أنهما يتناقضان بشكل صارخ مع افتراض نولدكه أن وحي محمد هو صوته الداخلي.. ولذا لا نترك الثابت منهما روايةً ودرايةً إلى مجرد افتراض بُني على أرض غير ثابتة.

وأشير هنا إلى أننا وجدنا نولدكه يطرح بعض الأمور واصفًا إياها بأنها ترتبت على عد النبي صوته الداخلي وحيًا؛ وسأناقش هذا هنا أيضًا.

من هنا سيأتي هذا الفصل في ثلاثة مباحث:

الأول: تناقض دعواه مع واقع العلاقة بين النبي والقرآن.

الثاني: تناقض دعواه مع حالة الوحي ذاتها.

الثالث: تهافت حديثه عن آثار الصوت الداخلي المزعوم.

* * *



المبحث الأول
تناقض دعواه مع واقع العلاقة بين النبي والوحي

نحن نستطيع أن نرصد واقع العلاقة بين النبي والوحي وذلك من خلال القرآن ذاته وروايات الحديث الصحيحة، في الوجوه الآتية:

أن النبي ﷺ ميز بين وحي الحديث ووحي القرآن، وأن الوحي فيه مراجعة لبعض مواقفه واجتهاداته ﷺ، وأن رسول الله انتظر الوحي عند استفتائه في بعض المسائل، وأن في الوحي القرآني توجيهًا للخطاب إلى النبي، وسلبًا لقدرته على أن يُعَدِّل فيه. وأن القرآن نزل بتشريع جديد (هو حكم اللعان)؛ بعد أن كان رسول الله قد أوشك على تطبيق التشريع الذي كان ساريًا قبل نزول القرآن بالتشريع الجديد. وأن في القرآن ما يصدم الواقع الجاهلي.

وهي كلها وُجُوهُ تَنَاقُضٍ مع افتراض نولدكه الوحي صوتًا داخليًا للنبي.

ولنعرض الآن لهذه الوجوه:

الوجه الأول: تمييز النبي بين وحي الحديث ووحي القرآن:

إذا كنا قد أثبتنا في المبحث الثاني من هذا الفصل قدرة النبي على التمييز الواضح بين (آرائه واجتهاداته)[1]؛ وبين (القرآن)؛ فإننا نثبت هنا أنه ﷺ كان يفرق تفريقًا آخر أكثر دلالة في نقطة بحثنا هذه، هو تفريقه بين(الحديث القدسي والنبوي) من جانب وبين (القرآن) من جانب آخر. ولو كان الوحي مجرد صوت داخلي له ﷺ لما حصل هذا التفريق.

(١) أو ما يمكن أن نستعير له تسمية نولدكه: (صوت النبي الداخلي).

إن النبي وعَى الفارق بين الجانبين تمامًا، وكان لهذا الوعي مصدر خارجي هو الوحي، ولم يكن مصدره ملاحظات نقدية موضوعية متعلقة بالنص الموحى به. كما أن وعيه هذا تجلى في مظاهر تدل عليه. ولنبين ذلك بالتفصيل:

أ- مصدر وعي النبي بالفارق بين نوعي الوحي:

لقد كان الوحي يخبر رسول الله ﷺ؛ ليس فقط بقرآنية النص القرآني؛ بل بالموضع الذي يوضع فيه من التدوين القرآني أيضًا؛ فقد ثبت عن عثمان بن عفان أن النبي ﷺ كان إذا نزل عليه شيء كان يدعو بعض من كان يكتب عنده فيقول: «**ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، أوضَعُوها في موضع كذا وكذا**»[1] وذلك دون نظر من النبي أو اجتهاد.

فإذا كان النص القرآني ينزل ومعه موضعه من القرآن؛ فهذا يتضمن بالضرورة أنه ينزل ومعه تحديد قرآنيته.

ويتحدث أ. مالك بن نبي[2] عن (المكاشفة) باعتبار أنها كانت أداة النبي في ذلك التفريق، حيث كان "النبي يميز بها بين نوعين من الإيحاء، هما: الآية القرآنية، التي يأمر بتسجيلها فورًا؛ والحديث الذي يستودعه ذاكرة صحابته فحسب".

وأقول: إن كون الله هو مصدر وعي النبي بالفارق بين نوعي الوحي، هو المتوقع؛ لأن الله الذي قدَّر أن يهيئ نفس نبيه ﷺ ليبلغ كلمة الله؛ قدَّر له في ذات الوقت أن يمكنه من التمييز بين وحي القرآن ووحي غيره؛ وهذا هو ما اعترف به نولدكه نفسه في نصٍّ بالغ الأهمية حين أكد على أن:

"من الراجح أنه منذ اللحظات الأولى التي تلقى فيها محمد اليقين بحصوله على بلاغات من كتاب سماوي؛ فقد تلقى - بكل تأكيد بالإضافة لذلك وباليقين نفسه -

(١) المستدرك ج٢ص٢٤١ رقم (٢٨٧٥)، وج٢ ص٣٦٠ رقم (٣٢٧٢)، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال الذهبي في التلخيص: صحيح. وقال الترمذي (السنن ج٥ ص٢٧٢ رقم ٣٠٨٦): حسن صحيح.

(٢) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ١٤٥.

أن عليه أن يخدم وثيقة الإرادة الإلهية الصادقة وغير المحرفة بعكس الكتاب المقدس لليهود والنصارى. لذلك كان من الواجب عليه أن يكون لديه اهتمام بأن يحفظ نصوص وحي تلك الوثيقة الإلهية من الضياع أو التحريف بواسطة التدوين الكتابي. وفي الحقيقة إن الروايات تحدد؛ ليس فقط الكُتَّاب الذين أملى عليهم محمد القرآن؛ بل أيضًا شكل أدوات التدوين. في مقابل هذا فإن التعرف على كل بلاغات *Kundgebungen* الله الأخرى غير المدونة رسميًّا وقع بالصدف، وقد آل إلى النقل الشفهي"[١].

إنه يقر هنا بتزامن بدايات الوحي إلى النبي محمدﷺ مع تكوين الوحي نفسه ووعي النبي بالفارق بين نص الوحي القرآني (أو بتعبير نولدكه: وثيقة الإرادة الإلهية الصادقة وغير المحرفة)، ونص وحي الحديث (أو بتعبير نولدكه: بلاغات الله الأخرى غير المدونة رسميًّا).

هذا الوعي الذي ترجم عمليًّا إلى الأمر النبوي بتدوين الأول وعدم تدوين الثاني[٢].

ب- مظاهر التمييز النبوي بينهما:

إنه على الرغم من أن كلًّا من الحديث النبوي والقدسي من الوحي؛ إلا أن النبي ميز بينهما وبين القرآن. وكان لهذا التمييز مظاهر منها، أنه:

- لم يأمر بوضع أي منهما في أي سورة من سور القرآن (على عكس ما كان يفعل مع الوحي القرآني كما مر).
- نهى في البداية عن كتابة أحاديثه، حتى لا تختلط بالقرآن، وحتى تقتصر جهود الكاتبين المحدودة على العناية به؛ فقال: «**لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه**»[٣]. لكن لما استقر أسلوب القرآن وجرسُه في الأذهان والأسماع أذن بكتابتهما؛ فقال: «**اكتبوا لأبي شاه**»، وكتب كتبًا حدد

(١) سيأتي هذا النص كاملًا في سياقه بعد قليل.

(٢) كان ذلك في البداية، وسيأتي أن النبي سمح بتدوين الحديث فيما بعد.

(٣) مسلم بشرح النووي المجلد٦ ج١٨ ص١٢٩ رقم (٣٠٠٤).

فيها مقادير الزكاة في الإبل والغنم، وكتب بعض أصحابه الحديث؛ فكتب عمرو بن العاص عندما قال له النبي: «**اكتب، فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق**»، وكانت هناك كذلك صحيفة لعلي يكتب فيها الأحاديث[1].

- لم تأت رواية على الإطلاق يشتم منها أن النبي نظر إلى أي من النصوص التي تنتمي للحديث النبوي أو القدسي على أنه قرآن، أو نظر إلى القرآن على أنه ينتمي إليهما، أو أنه تردد في نسبة نص من القرآن إلى أي من الجانبين. بل كانت الحدود واضحة تمامًا لديه ابتداء من لحظة التلقي.
- نسب النبي القرآن، ابتداء: لفظًا ومعنى، لله، ونسب الحديث القدسي لله، دون أن يذكر أن لفظه أيضًا من الله، ونطق بالحديث النبوي دون نسبته لله وإن كان وحيًا.
- بين النبي أن القرآن متعبد بتلاوته في الصلاة وغيرها؛ في حين أنه لم يذكر الشيء ذاته عن الحديث بنوعيه. فطوال حياته لم يرد عنه أنه تلا في صلاته شيئًا من الحديث النبوي أو القدسي، ولم يطلق لفظ تلاوة على غير القرآن[2].
- وعَى النبي (عن طريق الوحي) أن للقرآن أصلًا في اللوح المحفوظ ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[3]، وليس كذلك نوعا الحديث.
- وعَى النبي (عن طريق الوحي) بوصف القرآن أنه: تنزيلٌ وكتابٌ؛ ﴿تَنزِيلٌ مِّن

---

(١) الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم المجلد٦ ج١٨ ص١٣٠ رقم (٣٠٠٤)، وراجع: د. مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ٦١، ود. عبد الغني عبد الخالق: حجية السنة صفحات: ٤٢٣ - ٤٤٨، ود. همام عبد الرحيم سعيد: الفكر المنهجي عند المحدثين ص٤٠.

(٢) ولقد تشكل هذا الوعي لديه ﷺ بمثل قوله تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، و﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [فاطر: ٢٩].

(٣) الواقعة: ٧٧-٧٩.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾، ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا﴾، ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾[1]، في حين أنه لم يصف كِلَا نوعي الحديث بذلك.

- وعَى النبي (عن طريق الوحي) أن القرآن معجز ومتحدى به: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾[2] وليس ذلك لنوعي الحديث.
- وعَى النبي (عن طريق الوحي) أن القرآن قد تعهد الله بحفظه من التحريف ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[3]، ولم يأت هذا التعهد لنوعي الحديث.

نقول إذن: إن تفريق النبي ﷺ بين الجانبين المذكورين هنا؛ دليل على بطلان دعوى نولدكه أن الوحي إلى محمد ﷺ لم يكن سوى صوته الداخلي؛ إذ لو كان كذلك؛ لما استطاع محمد ﷺ أن يفرق بين هؤلاء الثلاثة.

ج- إقرار نولدكه بأن النبي كان يميز بين القرآن وغيره من الوحي:

إن نولدكه يعترف بشمول الوحي غير القرآن، وبأن النبي كان يفرق بين القرآن وغيره من الوحي؛ يقول[4]:

"قبل أن نحدد أساليب الوحي، نذكر أن كلمة وحي عند المسلمين لا تشير فقط إلى القرآن، وإنما تشير إلى كل إلهام للنبي، وإلى كل أمر إلهي حتى إن لم تُقدَّم كلماتُه أبدًا على أنها قرآن... إن معظم أنواع الوحي التي فُصِّلت من قبل لا تقتصر على الوحي القرآني[5].

---

(١) فصلت: ٢، ٣، الإنسان: ٢٣، الإسراء: ١٠٦، وأيضًا الآيات: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى﴾ [طه: ٢-٤].

(٢) الإسراء: ٨٨.

(٣) الحجر: ٩.

(٤) تاريخ القرآن بالألمانية: ق١ ص٢٠ - ٢٤.

(٥) ويحيل في ذلك إلى الإتقان ص١٠٤.

ويقول[1]: "حسب كم هائل من الروايات؛ فإن محمدًا تلقى وحيًا في المناسبات المختلفة: تنبيهات أو نصائح وأوامر بشأن الحاضر أو المستقبل. من هذه الروايات الكثيرة نكتفي بعدة أمثلة: يبتعد محمد من طريق عمرو بن جحاش الذي أراد قتله بحجر بناء على الوحي الذي جاءه فجأة. يتلقى محمد إرشادًا إلهيًّا بشأن المكان الذي يجد فيه جملًا ضلَّ. يقول أُسيد لمحمد: إن كان هذا أمرًا من السماء فافعله... وأوحي للنبي أن الله أدخل أبا لبابة في رحمته. وأُخبر عبر الوحي بحقيقة بيت الصلاة الذي أقامه بنو سالم. وجاءه الجواب وحيًا عن سؤال في الجعرانة عن صوابية فعل رجل تعطر وارتدى جبة".. ثم يقول[2]:

"إنه كما نعرف من تاريخ الأديان فإن الأنبياء لهم اتصال بلا انقطاع تقريبًا بالمقام الإلهي. فالنبي لا ينصت لإلهاماته أو خواطره *ihre Eingebung* فقط عند الأحداث العظيمة أو المهمة؛ بل أيضًا عند الأمور اليومية غير المنحصرة. بناء على ذلك فإنه يمكننا القول: إن محمدًا شعر بأن صور وحي متعددة أخرى بالإضافة إلى نصوص القرآن تؤثر عليه. بالإضافة إلى ذلك فإننا نُذَكر أنفسنا بتصريحاته الشخصية[3] الكثيرة؛ لذا يجب أن يُطرح سؤال: كيف أمكنه أن يجد طريقه في هذه الفوضى؟".

[ويجيب][4]: "تعود النصوص القرآنية حسب تفسير محمد الخاص إلى كتاب

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٥٩.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٥٩-٢٦٠.

(٣) يقصد كلمات النبي التي تدخل تحت اسم: الأحاديث النبوية. ومن المعلوم أن ثمة فارقًا بين الحديث والسنة؛ فالحديث يشمل كل ما صدر عن النبي حتى إن كان منسوخًا أو كان متعلقًا بصفاته الخِلقية والجِبلية، إذ لا يقصد من روايته الاتِّباع، ويشمل الأحاديث المنسوخة وأخبار الجاهلية الواردة في كتب الحديث. أما السنة فهي: ما صدر عن النبي من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خُلُقية من مبدأ بعثته حتى وفاته. فالحديث أعم من السنة من حيث المفهوم. وروي عن ابن مهدي أنه قال: سفيان الثوري إمام في الحديث وليس بإمام في السنة، والأوزاعي إمام في السنة وليس بإمام في الحديث، ومالك بن أنس إمام فيهما جميعًا. راجع د. همام عبد الرحيم سعيد: الفكر المنهجي عند المحدثين ٢٨، ٢٩ [المؤلف].

(٤) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٦٠.

محفوظ في السماء. لذا فإن محمدًا يعدها وحدها قرآنًا ينتمي - حسب اعتقاده - إلى تلك النسخة الأصلية السماوية[1]. يمكننا أيضًا أن نلحق بهذا الأساس الشكلي الخالص آخرَ ماديًّا، هو أنه [أي النص القرآني] بشكل عام يجب أن يعالج القوانين السارية والأمور المهمة للإيمان".

ثم يقول[2]:

"إننا لم نستطع حتى الآن أن نفهم حديثًا بشكل مؤكد على أنه قرآن. وعلى الجهة المقابلة فإنه يبدو - كما سيشار إليه بالمزيد فيما بعد في القسم الثاني[3] - أنه كذلك لا يوجد موضع قرآني يحال بدليل إلى الحديث. هذه النتيجة السلبية تتعلق؛ من جهة بما هو محتمل من صعوبة في المشكلة ونقص وسائلنا المساعدة؛ ومن جهة أخرى بما هو مستقر ومؤكد أيضًا من أمان وخبرة كبيرة روعيتا عند جمع القرآن. إن الفضل الأكبر في ثبات النقل منشؤه محمد ذاته؛ إذ من الراجح أنه منذ اللحظات الأولى التي تلقى فيها اليقين بحصوله على بلاغات من كتاب سماوي؛ فقد تلقى - بكل تأكيد بالإضافة لذلك وبنفس اليقين - أن عليه أن يخدم وثيقة الإرادة الإلهية الصادقة وغير المحرفة، بعكس الكتاب المقدس لليهود والنصارى. لذلك كان من الواجب عليه أن يكون لديه اهتمام بأن يحفظ نصوص وحي تلك الوثيقة الإلهية من الضياع أو التحريف بواسطة التدوين الكتابي. وفي الحقيقة إن الروايات تحدد؛ ليس فقط الكُتَّاب الذين أملى عليهم محمد القرآن؛ بل أيضًا شكل أدوات التدوين.

(١) قارن أيضًا الملاحظة الصحيحة بشأن الحديث القدسي الواردة في المباني، الفصل الرابع، وفيه: "ولا تجوز تلاوة شيء منه في الصلاة؛ إذ لم ينزل بالنظم الذي نزل به سائر القرآن الذي أُمرنا بتلاوته وكتابته في المصاحف، ونقله إلينا العامة عن العامة" (نولدكه).

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٦٠-٢٦١.

(٣) يقصد القسم الثاني من كتابه: *Geschichte des Qorâns* تاريخ القرآن، وهو يدور حول جمع القرآن وتدوينه، وقد ترجمته، وسيكون بإذن الله تعالى مكملًا لهذه الدراسة إن كان في العمر بقية.

في مقابل هذا فإن التعرف على كل بلاغات *Kundgebungen* الله الأخرى غير المدونة رسميًّا وقع بالمصادفة وقد آل إلى النقل الشفهي". اهـ.

وهنا نجد نولدكه يُقر بالآتي:

١- شمول الوحي غيرَ القرآن، وأن النبي ﷺ كان من الأنبياء الذين لهم اتصال بلا انقطاع بالمقام الإلهي.

٢- أنه ﷺ مَيَّزَ بين وحي القرآن ووحي غيره.

٣- يرى نولدكه أن تمييز النبي قام على أساسين:

أولهما: اعتقاده أن للقرآن أصلًا في اللوح المحفوظ؛ فالذي ينزل من الوحي: إن كان منتميًا للَّوح المحفوظ فهو من القرآن وإلا فهو من الحديث.

ثانيهما: أن النصوص القرآنية يجب أن تعالج أمور الإيمان المهمة والتشريع؛ فما كان من الوحي كذلك فهو من القرآن وما لم يكن منه كذلك فمن غيره.

٤- يعترف نولدكه في لحظة نادرة في كتابه أنه لم يستطع أن يصل إلى حديث يكون في الأصل منتميًا للقرآن، ولم يصل إلى نص قرآني يمكن أن يكون حديثًا.

٥- **ويبين أسباب ذلك فيشير إلى:**

- **السبب المحتمل** وهو صعوبة المشكلة ونقص وسائل المستشرقين البحثية المساعدة.
- **السبب الأكيد** وهو الأمانة والخبرة الكبيرة التي روعيت عند جمع القرآن.
- **حصول اليقين** لدى النبي ﷺ منذ الوحي الأول أن ما يأتيه هو كتاب سماوي، وأن عليه أن يخدمه ويحفظه من التحريف الذي حصل

لكتابي اليهود والنصارى؛ لذا فقد اهتم بالتدوين الكتابي للقرآن بخلاف وحي الله الآخر (الأحاديث) التي تركت للنقل الشفهي.

ويعنينا هنا على نحو خاص إقرار نولدكه[1] أن النبي مَيَّز بين محتوى نوعين من الوحي: نوع هو قرآن، ونوع هو حديث قدسي أو نبوي؛ وهذا الإقرار يناقض دعواه التي نعالجها هنا وهي (أن الوحي إليه لم يكن سوى صوته الداخلي وأنه ﷺ اعتبر كل ما يتحرك بداخله صوت الله).

د- **مناقشة نولدكه بشأن مصدر وعي النبي:**

إن نولدكه وهو يقر بأن النبي فرَّق بين وحي القرآن ووحي غيره؛ وجدناه يُسْنِد دورًا للنبي في تحديد: ماذا ينتمي للقرآن وماذا ينتمي للحديث؛ بأن ادعى أن النبي (عدَّ الوحي الذي يعالج أمور الإيمان المهمة والتشريع؛ هو القرآن وما عداه فليس من القرآن).

ولديَّ هنا ملاحظتان على افتراض نولدكه (وجودَ التشريع والأمور المهمة للإيمان) أساسًا لتمييز النبي بين القرآن وغيره من الوحي:

الأولى: عدم استقامة هذا الافتراض مع سابقه (الذي بين فيه نولدكه أن النبي فرق بين النوعين بإدراكه أن القرآن وحده تنزل من اللوح المحفوظ بخلاف الحديث)؛ إذ ما دام الوجود في اللوح المحفوظ هو الأساس في التمييز بين نوعي الوحي؛ فلا دخل إذن للنبي في هذا التمييز؛ لكن افتراض نولدكه وجود التشريع وأمور الإيمان المهمة أساسًا لدى النبي للتمييز؛ يجعل للنبي دورًا فيه، وهو تناقض بَيِّن.

(١) وليس نولدكه وحده هو الذي أقر بهذا؛ فقد أقر به أيضًا المستشرق مونتجمري وات (محمد في مكة ٩٥) حيث قال: "يجب علينا أولًا أن نميز القرآن عن الوعي السوي لمحمد؛ لأن التمييز كان شيئًا أساسيًّا بالنسبة له؛ فقد ميز منذ البداية بعناية بين ما ينزل عليه من مصدر خارق - كما كان يعتقد - وبين ما يصدر عن أفكاره الخاصة. أما كيف قام بهذا التمييز؟ فإن هذا لا يظهر بوضوح. أما أنه قام بهذا التمييز؛ فإنه شيء مؤكد تأكيد الحوادث التاريخية. ونحن لا نتخيله يدخل آيات من تأليفه بين الآيات التي تنزل عليه من مصدر مستقل عن معرفته كما كان يعتقد".

الثانية: عدم صدق هذا الافتراض في الواقع. إذ إن القرآن ليس مقتصرًا على (التشريع وأمور الإيمان المهمة فقط) كما افترض نولدكه، وليس الحديث خلوًّا منهما كما هو لازم افتراضه. فهناك نصوص قرآنية كثيرة تعالج غير هذين البابين. وعلى الجهة المقابلة هناك عدد من الأحاديث القدسية والنبوية تعالج (التشريع وأمور الإيمان المهمة) دون أن يضم النبي شيئًا منهما إلى القرآن.

والحق أنه لا دخل للنبي ﷺ في تحديد نوع الوحي الذي يتلقاه من ربه تعالى؛ إذ إن ذلك لله وحده الذي ميز بين الجانبين ابتداء.

هـ- تمييز الله بين الجانبين ابتداء:

إذا كنا قد ذكرنا من قبل مظاهر تمييز النبي بين الجانبين؛ فإن الله تعالى قد ميز وحي القرآن ابتداء عن وحي غيره منذ لحظة تنزله عليه ﷺ بالآتي:

١- مَيَّزَه في كيفية نزوله؛ فقد نزل كله يقظة، ومسبوقًا دائمًا بالشدة والثقل على النبي، وبوساطة دائمة من جبريل مع صلصلة الجرس. ولم ينزل منه شيء منامًا، ولم يتلق منه شيئًا نفثًا في الرُّوع، أو في حالة تشكل جبريل في هيئة رجل.

٢- مَيَّزَه بأن أوكل إلى ذاته العلية سبحانه أمرين؛ هما: حفظ النبي له بحروفه وألفاظه فضلًا عن وعيه لمعانيه كما سمعه من جبريل تمامًا. وتبليغه للناس على النحو ذاته، وأن يستمر حافظًا له على النحو الذي قرأه على أصحابه به أول مرة حتى يلقى الله ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾(١).

كل هذا بينما لم يكن يقدر ﷺ أن يحفظ غيره من مأثورات الشعراء والبلغاء من العرب، حتى إن كانت ذات بعد خلقي سام كخطب قس بن ساعدة الإيادي مثلًا على الرغم من فصاحتها وحفظِ غيره لها.

(١) القيامة: ١٦-١٩.

عن ابن عباس قال: لما قدم أبو ذر على النبي ﷺ قال له: «**يا أبا ذر، ما فعل قس بن ساعدة؟**». قال: مات يا رسول الله. قال: «**رحم الله قُسًّا! كأني أنظر إليه على جمل أورق تكلم بكلام له حلاوة لا أحفظه**». فقال أبو بكر: أنا أحفظه. قال: «**اذكره**»؛ فذكره؛ وفيه الشعر..[1].

٣- مَيَّزَه بما لم يحصل للحديث القدسي والنبوي باستمرار مدارسة جبريل له مع النبي ﷺ؛ فقد شهد ثلاثة على الأقل من أصحاب محمد ﷺ أن جبريل كان يدارس النبي القرآن كل ليلة في رمضان من كل عام، زادها فأصبحت مرتين كل ليلة في رمضان من العام الأخير في حياته ﷺ، أي: قبل وفاته بستة أشهر. وسنجد في هذه الشهادة ملاحظة لما يحصل للنبي من جراء لقائه بالملك كل ليلة لمدارسة القرآن، وهي أنه يكون أجود بالخير من الريح المرسلة: فعن ابن عباس قال: (كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير، وأجود ما يكون في شهر رمضان؛ لأن جبريل كان يلقاه في كل ليلة في شهر رمضان حتى ينسلخ يعرض عليه رسول الله القرآن؛ فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة)، وعن مسروق عن عائشة عن فاطمة عليها السلام؛ قالت: (أَسَرَّ إليَّ النبي ﷺ أن جبريل كان يعارضني بالقرآن كل سنة، وإنه عارضني العام مرتين؛ ولا أراه إلا حضر أجلي)، وعن أبي هريرة نحوه[2].

٤- كما ميزه في شعور النبي وأصحابه، وإلى اليوم، بما لم يحصل للحديث القدسي والنبوي، من أنه على الرغم من نزوله آحادًا مفرقة في أكثر من عشرين عامًا؛ مما يستلزم في مجرى العادة التفكك والانحلال؛ إلا أنه من أوله لآخره محكم السرد قوي الاتصال متآلف البدايات والنهايات لا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك

(١) الإصابة ج٥ ص٥٥١ وما بعدها رقم (٧٣٤٥).

(٢) البخاري بشرح ابن حجر ج٩ ص٤٣ الحديث برقم (٤٩٩٨)؛ بالإضافة إلى حديث مسروق عن عائشة عن فاطمة؛ دون رقم من نفس باب: كان جبريل يعرض القرآن على النبي؛ وحديث أبي هريرة رقم (٤٩٩٨) من نفس الباب.

ولا تخاذل. وهذا لا يمكن أن يتأتى لأي كلام مرّ تكونه بمثل المدة الطويلة التي نزل القرآن في أثنائها حتى لو كان هذا الكلام أحاديث النبي محمد[1].

"خذ مثلًا حديث النبي وهو ما هو في روعته وبلاغته، لقد قاله الرسول في مناسبات مختلفة لدواع متباينة في أزمان متطاولة؛ فهل في مكنتك ومكنة البشر معك أن ينظموا من هذا السرد الشتيت وحده كتابًا واحدًا يصقله الاسترسال والوحدة من غير أن ينقصوا منه أو يتزيدوا عليه أو يتصرفوا فيه؟ ذلك ما لن يكون ولا يمكن أن يكون. ومن حاول ذلك فإنما يحاول العبث، ويخرج للناس بثوب مرقع، وكلام ملفق ينقصه الترابط والانسجام، وتعوزه الوحدة والاسترسال، وتمجه الأسماع والأفهام"[2].

٥- ميَّزه بجرس ألفاظه وجمال عباراته وإعجازه البياني؛ فلم يشبهه في ذلك الحديثُ رغم فصاحته. يقول أ. مالك بن نبي[3]: (من المقطوع به أن الأحاديث المحمدية والوحي القرآني يمثلان أسلوبين لكل منهما طابعه وصياغته الخاصة. فالعبارة القرآنية لها نسق وجرس تعرفه الأذن، ولها هيئة تركيبية وألفاظ خاصة).

ولقد مر بنا اعتراف نولدكه الذي نعيده هنا لأهميته؛ إنه يقول: "إننا لم نستطع حتى الآن أن نفهم حديثًا بشكل مؤكد على أنه قرآن. وعلى الجهة المقابلة فإنه يبدو... أنه كذلك لا يوجد موضع قرآني يحال بدليل إلى الحديث".

كما اعترف نولدكه بذلك أيضًا عندما تناول بعض الأحاديث (التي ادعى بعض المستشرقين أنها تنتمي للقرآن) مثل حديث: «**لو أن لابن آدم واديًا من مال لابتغى إليه ثانيًا، ولو أن له ثانيًا لابتغى إليه ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب**»[4].. حيث رفض أن يعده قرآنا لأن "تعبير ابن آدم غريب عن لغة القرآن"[5]. ونفس

(١) راجع الشيخ محمد الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن ج١ ص٥٢-٦٢.
(٢) المرجع السابق ج١ ص٦٢.
(٣) مالك بن نبي الظاهرة القرآنية ١٧٢.
(٤) رواه الشيخان.
(٥) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٤٢.

الشيء تقريبًا قاله بشأن القول: «**إن الدين عند الله الحنيفية السمحة لا اليهودية ولا النصرانية..**». حيث قال عن كلمات: (الحنيفية) (اليهودية) (النصرانية): "إنها غريبة عن القرآن"[1].

كما قال[2] بشأن دعوى قرآنية: (وهو أب لهم) بعد قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾[3]: "إن الإشارة إلى النبي كأب للمؤمنين لا تثبت من خلال القرآن".

أقول أخيرًا: إن هذا مما ميز الله به وحي القرآن إلى نبيه ﷺ عن غيره مما يوحيه الله له؛ مما شكل تميزًا واضحًا بدأ في وعي النبي منذ لحظات الوحي الأولى. وبقي إلى أن فارق رسول الله الدنيا.

الوجه الثاني: أننا نجد في القرآن والوحي غير المتلوِّ مراجعة لبعض مواقفه وآرائه ﷺ:

وتمثل هذا في الآتي:

١- مراجعة الله نبيه ﷺ بشأن تصوره لبعض أولويات الدعوة:

لقد حدث أن تزاحم في الطلب على رسول الله ﷺ مسلم فقيرٌ كفيف البصر يحرص على سؤاله عن بعض شئون الدين؛ وبعضُ أغنياء المكيين وذوي النفوذ فيهم؛ الذين يقفون بمالهم ونفوذهم ضد الإسلام. فقدَّم رسول الله تصديه ﷺ لهداية أولئك المكيين على إجابة أسئلة الكفيف المسلم ولم يُعِره اهتمامًا ظنًّا منه أن إجابة أسئلة المسلم يمكن أن تحدث فيما بعد؛ أما أولئك المكيون ففي هدايتهم مصلحة كبرى للإسلام وقد لا يأتون مرة أخرى. ولما ألح المسلم الكفيف في سؤال النبي في أثناء انشغاله ﷺ بما ظن أنه الأولى بالتقديم عبس ﷺ في وجهه.

---

(١) نفسه.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٥٣.

(٣) الأحزاب: ٦.

وقد ظن ﷺ أن ما فعله هو الأَوْلى؛ لكن الوحي نزل عليه ﷺ مراجعًا له تصرفه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ (١) أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ (٢) وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ (٣) أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ (٤) أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخۡشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾[1].

تقول السيدة عائشة عن عبد الله بن أم مكتوم: (إنه الذي عاتب الله تبارك وتعالى فيه نبيه ﷺ حيث أتى النبيَّ وعنده عتبة وشيبة؛ فأقبل رسول الله عليهما فنزلت: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ (١) أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾)[2].

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز: (أرأيت لو كانت هذه التقريعات المؤلمة صادرة عن وجدانه معبرة عن ندمه ووخز ضميره حين بدا له خلاف ما فرط من رأيه؛ أكان يعلنها عن نفسه بهذا التهويل والتشنيع؟ ألم يكن له في السكوت عنها ستر على نفسه واستبقاء لحرمة آرائه؟ بلى، إن هذا القرآن لو كان يفيض عن وجدانه لكان يستطيع عند الحاجة أن يكتم شيئًا من ذلك الوجدان. ولو كان كاتمًا شيئًا لكتم أمثال هذه الآيات. ولكنه الوحي لا يستطيع كتمانه ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ﴾)[3].

إن هذه المراجعة من الله تعالى لنبيه تثبت بما لا يدع مجالًا للشك أن الوحي لمحمد لم يكن صوتًا داخليًّا له؛ حيث اتضح الفارق بين تصور النبي لأولويات الدعوة (هذا التصور ينتمي لعالم الصوت الداخلي حسب تعبير نولدكه) وبين الوحي الذي نزل مخالفًا لذلك التصور.

موقف نولدكه من هذا الاستدلال:

كان لنولدكه في أثناء تعرضه للآيات المذكورة نصان يستحقان التعقيب:

(١) عبس: ١-١١.
(٢) المستدرك على الصحيحين ٣/ ٧٥٣ رقم (٦٦٧١)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. قال محقق الكتاب مصطفى عبد القادر عطا: قال الذهبي في التلخيص: على شرط البخاري ومسلم. وأخرج الترمذي (٥/ ٤٣٢ رقم ٣٣٣١) نحوه، وقال الشيخ الألباني: صحيح الإسناد.
(٣) التكوير: ٢٤.

النص الأول: خلط فيه نولدكه الحق بالباطل؛ فامتدح إنسانية الإسلام، لكنه مع ذلك زعم أن النبي هو الذي عاتب نفسه (اتهم نفسه بالضعف حسب تعبير نولدكه)؛ يقول[1]:

"في السورة [٨٠ (عبس)]، يعاتب الله النبي أنه عندما كان يعرض الإسلام على رجل غني؛ لم يُعِرْ سمعه لرجلٍ أعمى فقير كان يطمع في الاستزادة من الإيمان. ولقد اتهم محمد نفسه بالضعف حيث أعطى أثرياء مدينته فوق ما يستحقون.

إنه لشيء رائع لكنه مميز لأكثر أديان الوحي إنسانية أن يوجد في القرآن تسجيل لهذه الكلمات".

"In Sura 80 tadelt Gott den Propheten. daß er. gerade dabei. einem reichen Manne den Islam vorzutragen. einem armen Blinden. der nach Belehrung über den Glauben begierig war. kein Gehör schenkte. Muhammed macht sich also selbst Vorwürfe über seine Schwäche. die Mächtigen seiner Stadt über Gebühr bevorzugt zu haben. Es ist erstaunlich. aber charakteristisch für die menschlichste aller Offenbarungsreligionen. daß diese Worte in den Qoran Aufnahme gefunden haben".

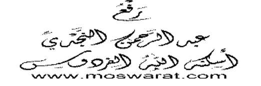
وهنا أقول:

إنه على الرغم من ثناء نولدكه - الواضح في قوله أعلاه - على ورود هذا العتاب في القرآن؛ إلا أن لنا على قوله هذا ملاحظتين:

الملاحظة الأولى منهجية؛ فنولدكه بعد أن قال: "في سورة عبس يعاتب الله النبي"؛ قال بشأن العتاب ذاته: "ولقد اتهم محمد نفسه بالضعف.."؛ وفي هذا تناقض؛ إذ إنه بعد أن ذكر أن الله هو الذي عاتب النبي ﷺ؛ إذا به يدعي أن محمدًا هو الذي اتهم نفسه: يعني عاتبها.. فكيف يستقيم نسبة الأمر الواحد إلى فاعلَين؟

والملاحظة الثانية موضوعية ومنهجية معًا؛ وتتعلق بزعم نولدكه أن النبي ﷺ هو

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٩٥-٩٦.



مصدر العتاب. وهو زعم غير مقبول لثلاثة أسباب:

الأول: إن النبي لو كان حقًّا مصدر العتاب؛ فلِم صدر منه أصلًا ما يستوجبه؟

إن حدود تصور النبي للأمر، وقفت عند التصرف الذي فعله، وهو اهتمامُه بهداية ذوي النفوذ المكيين، (الذين في هدايتهم مصلحة كبرى للإسلام، وفق اجتهاده ﷺ)، وتأخيرُه إجابة طلب الرجل الكفيف إلى وقت آخر، (الذي تم وفق اجتهاده أيضًا)، ظنًّا منه ﷺ أن هذا التصرف هو الأفضل لصالح الإسلام[1].

لقد كان هذا هو كل ما عند النبي عن هذا الأمر؛ لكن الآيات جاءت تعاتب النبي على عبوسه في وجه الكفيف الملِحِّ على المعرفة السريعة، وتُوجّه النبي إلى أن اهتمامه بتعميق الإيمان داخل نفسٍ مهتديةٍ مقبلةٍ عليه يُرجى نفعها؛ أولى بالرعاية من الإلحاح به على أنفسٍ معرضةٍ عنه؛ مهما كان نفوذها وقوتها.

إن المراجعة القرآنية الواضحة لتَصَرُّفِ النبي هنا يُفهم منها أن مضمونها كان غائبًا عن ذهن النبي لحظة تقديمه هداية أولئك المكيين على إجابة أسئلة الكفيف المسلم. لكن زعم نولدكه أن محمدًا ﷺ كان هو مصدر هذه المراجعة يستلزم أن مضمونها كان حاضرًا في ذهنه ﷺ. وهذا تناقض لا يُحَلُّ إلا بزعم آخر لم يجرؤ نولدكه على ادعائه هو: افتراضه ﷺ محتالًا: يفعل أمرًا وهو يدرك ابتداء أنه خلاف الأولى، ثم يراجع نفسه ويعاتبها لفعلها إياه، ولا يُظهرُ في الأسلوب أنه هو الذي يعاتب نفسه؛ ليُوهم الناس أن الله هو الذي يراجع تصرفاته!!

---

(١) يقول أ. سيد قطب (الظلال: ج٦ ص: ٣٨٢٤ و٣٨٢٥) بهذا الشأن: (يجيء هذا الأعمى الفقير ابن أم مكتوم إلى رسول الله ﷺ وهو مشغول بأمر هؤلاء النفر. لا لنفسه ولا لمصلحته، ولكن للإسلام ولمصلحة الإسلام. فلو أسلم هؤلاء لانزاحت العقبات العنيفة والأشواك الحادة من طريق الدعوة في مكة، ولانساح بعد ذلك الإسلام فيما حولها بعد إسلام هؤلاء الصناديد الكبار... والتصدي للكبراء لا ينبعث من مصلحة ذاتية، والانشغال عن الأعمى الفقير لا ينبعث من اعتبار شخصي، إنما هي الدعوة أولًا وأخيرًا).

هذا هو الافتراض الوحيد المترتب على زعم نولدكه أنه ﷺ مصدر هذه المراجعة؛ لكن حديث نولدكه عن النبي في كل كتابه ينفي عنه ﷺ أي لون من الخداع والاحتيال والكذب. لذا فنولدكه يجب عليه حتى تتسق رؤيته عن النبي أن يقول: إن محمدًا ﷺ لا يمكن أن يكون مصدر هذه المراجعة أو العتاب.

الثاني: إن الذي عوتب فيه النبي هنا كان أمرًا عمليًّا ولم يكن قولًا نطق به ﷺ. فلو افترضنا أن ذهن النبي ﷺ كان خلوًّا من مضمون تلك المراجعة لحظة تصرفه المذكور؛ ثم ما لبث أن تشكل في وعيه بعد ذلك؛ فكان يكفيه ﷺ (لو كان هو مصدر هذا العتاب) أن يُظهِر أثر ذلك الفهم الجديد عمليًّا دون الحاجة لإظهاره نظريًّا بتسجيله في القرآن، (وبخاصة أن أثر اجتهاده القديم كان سلوكيًّا عمليًّا ولم يكن قولًا قاله).

لكن المراجعة جاءت قولًا من الله أولًا؛ فأثمرت سلوكًا عمليًّا من النبي ﷺ ثانيًا[1]؛ وفي هذا دلالة على أنه لم يكن هو مصدر تلك المراجعة.

الثالث: إن رسول الله كان حريصًا[2] على هداية أولئك الأغنياء المكيين، ذوي النفوذ الذين يقفون بمالهم ونفوذهم ضد الإسلام.

ولو كان النبي مصدر هذه المراجعة لما جاء فيها بمواجهة هؤلاء بآيات فيها (عتاب له على تقديمه التصدي لهدايتهم على إجابة أسئلة الأعمى المسلم الفقير)، ولما

---

(١) من مظاهر هذا السلوك العملي: أنه ﷺ كان يقول لعبد الله ابن أم مكتوم كلما لقيه: «**أهلًا بمن عاتبني فيه ربي**»، ثم استخلفه مرتين على المدينة. (محمد بن حبان: الثقات ٣/ ٢١٤ رقم ٧١٠). وزاد ابن سعد (الطبقات الكبرى ٤/ ٢٠٥ دار صادر بيروت) عدد مرات استخلافه إلى إحدى عشرة مرة. وعند محمد بن حبان (مشاهير علماء الأمصار ١/ ١٦ رقم ٥٣) أن رسول الله ﷺ كان يستخلفه على المدينة يصلي بالناس في عامة غزواته ﷺ.

(٢) ظهر هذا الحرص من ظَنِّه أن التصدي لدعوتهم أَوْلى من الرد على سؤال ابن أم مكتوم. كما ظهر من خلال قول الله لنبيه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، وقوله: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

جاء فيها بوصفهم بالاستغناء عن الحق: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾[1].

النص الثاني: تعرض فيه نولدكه لأمر فرعي حيث رفض أن يكون الأعمى هنا هو ابن أم مكتوم؛ قال[2]:

"Gewöhnlich (Muwatta' 70f. His. 240. Ibn Sa'd ed. IV, I, S. 153. Tirm. kitab al - tafsir. Wah. Ibn Hagar II, p.1245. Die Kommentare. Spr. Life 186, Leben II, 317. Muir II,128. Caetani I, 297) nennt man den Ibn Umm Maktum, aber dieser muß nun einmal überall als Repräsentant der Blinden auftreten. Man erwartet hier einen Mann von niederem Stande, während jener der quraischitischen Familie 'Amir b. Lu'ai angehörte und seine Mutter gar aus dem damals zugleich mit den 'Abd Sams angesehensten Geschlechte Makhzum war. Vgl. über ihn Ibn Sa'd a a.O. lbn Hagar a. a. 0. Usd al -.ghaba IV, 127".

إن "تحديد الرجل الأعمى هنا بأنه ابن أم مكتوم أمر شائع في الموطأ وابن هشام وابن سعد والترمذي والواحدي وابن حجر والتفاسير وحياة محمد لـ شبرنجر وحوليات الإسلام لـ كايتاني وحياة محمد لـ موير. لكنه: (عبد الله ابن أم مكتوم) يظهر في كل مرة ممثلًا للعميان. والمتوقع هنا رجل من مكانة متدنية في حين أن ذلك الرجل (عبد الله ابن أم مكتوم) ينتمي لعائلة عامر بن لؤي القرشية، وأمه من بني عبد شمس الذين كانوا في ذلك الوقت الأكثر جاهًا في بني مخزوم".

وأقول: إننا نلاحظ استبعاده أن يكون الأعمى في الموضع القرآني الذي معنا هو ابن أم مكتوم؛ الذي يقول نولدكه عنه: إنه يُطرح دائمًا ممثلًا للعميان.

والصواب هو ما ذهبتْ إليه المراجع التي ذكرها نولدكه مُضَعِّفًا رأيها؛ زاعمًا أنها تنظر إلى ابن أم مكتوم دائمًا ممثلًا للعميان؛ وذلك لأن هذه المراجع اعتمدت

(١) (لا يقوى إلا رسول على أن يقذف بهذا الأمر هكذا في وجوه كبراء قريش في مثل تلك الظروف التي كانت فيها الدعوة، مع أمثال هؤلاء المستعزين بنسبهم وجاههم ومالهم وقوتهم، في بيئة لا مكان فيها لغير تلك الاعتبارات). في ظلال القرآن: ج٦ ص٣٨٢٦.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٩٥ هامش٦.

على الرواية الثابتة الصحيحة[1] التي تصرح أن الأعمى المشار إليه هنا هو ابن أم مكتوم. ولا يقلل من شأن الرواية رؤيةُ نولدكه العقلية في مواجهتها؛ وذلك لأن ما يستدل به نولدكه لاستبعاد كون الأعمى هو (ابن أم مكتوم) أن أبويه ينتميان لأسرتين لهما مكانة اجتماعية كبيرة، أما الذي تقصده الآيات فلا بد - من وجهة نظره - أن يكون شخصًا ذا مكانة اجتماعية متدنية.

لكن استدلاله يَرِدُ فقط إن كان قد ثبت أن رسول الله قد انشغل عن الرجل بسبب ضعف مكانته وفقره. وهذا، فضلًا عن أنه لا يُلمح من قريب أو بعيد كسبب للعتاب في الآيات، فإنه كذلك لم يرد على الإطلاق في الروايات؛ ولا ندري من أين افترضه نولدكه. وقد ذكرنا أعلاه أن رسول الله ظن أن الأولى بالدعوة في تلك اللحظة هم أولئك المكيون الذين قد لا يأتون مرة أخرى؛ أما هذا المسلم السائل فيمكن أن يجيبه النبي فيما بعد بغض النظر عن مكانته أو وجاهته، فقره أو غناه[2]. وبالتالي فلا ندع ما لدينا من رواية صحيحة إلى وهم نولدكه وظنه.

وأقول أخيرًا: إنه على الرغم من أن تحديد اسم الأعمى المقصود في الآيات ليس أمرًا ذا بال في نقطة البحث هنا؛ إلا أننا قد ألقينا بتناولنا لموقف نولدكه بشأنه ضوءًا على منهجه في البحث، حيث يترك الرواية الثابتة إلى الظن والوهم.

٢- مراجعة الوحي النبي في بعض ما انطوت عليه نفسه:

أ- نهيه عن تحريك لسانه بالقرآن لحظة نزوله:

لقد كان النبي "يُجهد ذاكرته في مستهل دعوته وهو يعاني حالة التلقي

(١) مر ذكر هذه الروايات.

(٢) لا يعني هذا أننا نسلم بما ذكره نولدكه من أن كون أبوي ابن أم مكتوم من أسرتين لهما مكانة اجتماعية كبيرة يقتضي أن يكون هو ذاته له نفس المكانة عند العرب قبل الإسلام؛ لأن هذا المقياس غير صحيح، فلربما حال فقره وعماه دون تحصيل تلك المكانة، ونحن نعلم أن بعض منكري نبوة محمد ﷺ تمنوا أن ينزل القرآن على غيره، لا لشيء إلا لفقره ويتمه على الرغم من أن أحدًا منهم لا يجادل في أن له نسبًا لا يطاوله واحد منهم رفعة وشرفًا: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]

لكي يثبت الآيات كما نزلت. وتلك حالة غريزية تلقائية تحدث لأي إنسان ينصت لآخر وهو يريد أن يحفظ كلامه فهو يكرره في نفسه"[1]. عن ابن عباس وسعيد بن جبير أن النبي ﷺ كان إذا نزل عليه القرآن تعجل به يريد حفظه؛ فأنزل الله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾[2]؛ "فالآية المذكورة تأتي بما يضاد هذا السلوك الطبيعي.. وتهدف إذن إلى مصادرة حريته ﷺ في استخدام ذاكرته.. وبذلك لا تتجاهل الآية حرية اختيار النبي وإرادته أن يدرب ذاكرته فحسب؛ بل تتجاهل أيضًا القانون النفسي لوظيفة التذكر نفسها. وهكذا نلاحظ مناقضة مزدوجة بين الظاهرة القرآنية وبين الذات المحمدية"[3]... وعلى صلة بهذا أيضًا تأتي الآية الكريمة: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[4].

إننا هنا نجد أن نفس النبي تحركت لحفظ نصوص الوحي المنزلة عليه لحظة تنزلها؛ ومن ثم اتخذ من الأسباب ما يحقق هذا: بأن كان يحرك لسانه بما ينزل عليه ظنًّا منه أن الحفظ موكول إليه؛ فإن لم يجهد نفسه فسيتفلت منه. هكذا كان النبي قبل نزول الآية المذكورة. ثم جاءت الآية بخلاف ما انطوت عليه نفس النبي تمامًا؛ حيث نهته عن أن يحرك لسانه ليعجل به، وأوكلت أمر حفظ النبي إلى الله وحده[5].

---

(١) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ٢٧٧.

(٢) القيامة: ١٦، ١٧.

(٣) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ٢٧٧-٢٧٨.

(٤) طه: ١١٤.

(٥) ولقد رأى أحد أساتذة اللاهوت الألمان في هذه الآية قريبًا مما ذهبت إليه يقول: (لتأكيد صحة وحيه تتحدث الآيات ١٦-١٨ القيامة.. لقد لاحظ كثير من الموحى إليهم أن تدخل أي أثر من قصد أو ميل شخصي؛ له تأثير ضار على نهر الوحي المتدفق اللاإرادي. لا يجوز للنبي أن يحرك لسانه وكأنه يشارك في صياغة الكلمات التي يقرؤها الملك. ينبغي عليه فقط أن يهدأ، وينتظر قراءة الملك. ولا شك أن الكلمات الإلهية ستثبت في ذاكرته ولن تمحوها الأيام). =

والتساؤل الذي يفرضه هذا التحليل الآن:

لو كان ما ادعاه نولدكه؛ من أن الوحي ليس سوى صوت النبي الداخلي؛ لجاء بوحي متسق مع رغبته في تحريك لسانه بالقرآن عند الوحي؛ أو على الأقل لما نزل وحي بهذا الشأن أصلًا؛ ولتَرك الأمر على ما هو عليه. لكن نزل الوحي مخالفًا لرغبته في أن يحرك لسانه، فبطلت بهذا دعوى نولدكه.

ب- نهيه عن تطليق حفصة:

قال عمار بن ياسر: (أراد النبي أن يطلق حفصة فجاءه جبريل فقال: لا تطلقها إنها صوامة قوامة)[1]. ففي هذا الحديث دلالة على أن الوحي غير الصوت الداخلي، وأنه ﷺ لم يَعُدَّ إرادته[2] تطليق حفصة وحيًا، وأن الوحي غير المتلوِّ لم يأت صدى لإرادته ﷺ، بل جاء بنهي صريح عن المضي في تنفيذها.

ج- نهي الوحي إياه عن الاستجابة لمطلب السادة؛ الفصل بينهم وبين العبيد في المجلس:

روى خباب بن الأرت في نزول قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[3]؛ قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري فوجدا رسول الله ﷺ مع صهيب وبلال وعمار وخباب قاعدًا في ناس من الضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حوله ﷺ حقروهم؛ فأتوا فخلوا به ﷺ وقالوا: إنا نريد أن تجعل لنا منك

= باول شفارتزَناو *Paul Schwarzenau* في كتابه:
Korankunde für Christen (Ein Zugang zum heiligen Buch der Moslems) S. 55.

(١) الآحاد والمثاني ج٥ ص٤٠٩ رقم (٣٠٥٢).

(٢) صوته الداخلي حسب نولدكه.

(٣) الأنعام: ٥٢.

مجلسًا تعرف لنا به العرب فضلنا؛ فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد. فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت. قال: «نعم»؛ قالوا: فاكتب لنا عليك كتابًا. فدعا بصحيفة ودعا عليًّا ليكتب ونحن قعود في ناحية؛ فنزل جبريل فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ الآية... قال خباب: فدنونا منه حتى وضعنا ركبنا على ركبته. وكان رسول الله يجلس معنا فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[1]. قال خباب: فكان رسول الله ﷺ يقعد معنا بعد، فإذا بلغ الساعة التي يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم»[2].

إن النبي هنا كان قد همَّ أن يفصل بين مجالس السادة ومجالس العبيد بين يديه؛ فيجعل لهؤلاء مجلسًا ولأولئك مجلسًا؛ ظنًّا منه أنه إجراء لا يعدو كونه شكليًّا يتجاوز به ذلك الحاجز الذي زعم أولئك السادة أنه هو الذي يمنعهم عن اتباع الحق.

وأراد ﷺ بذلك أن يقطع جميع أعذارهم ويقيم الحجة عليهم حتى أمام أنفسهم. هكذا كانت إرادة النبي.. فهل وافقه الوحي عليها؟

---

(١) الكهف: ٢٨.

(٢) ابن ماجه: السنن ج٢ ص١٣٨٢ رقم (٤١٢٧)، وراجع تفسير الطبري للآية [٥٢: الأنعام]. وقال الشيخ أحمد شاكر في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات، وقد روى مسلم والنسائي والمصنف بعضه من حديث سعد بن أبي وقاص. وقال الشيخ الألباني: صحيح. لكن قال ابن كثير (التفسير ج٢ ص١٢٨): هذا حديث غريب؛ فإن هذه الآية مكية، والأقرع بن حابس وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بدهر. وأقول: لا وجه لما قاله؛ لأن اقتراحهما كان قبل إسلامهما، وليس في الحديث ما يشير إلى أنهما قالاه وهما مسلمان. كما أنه ليس فيه أنهما أسلما بعد ذلك في مكة.

لا، لم يوافقه.. بل نهاه عن إمضاء ما كان قد هم به، وسَمَّى الوحيُ (الفصلَ المقترح) طردًا للذين يدعون ربهم.. ووصف من يطردهم بأنه من الظالمين.

ولم يقف الأمر عند حد نهي الوحي رسول الله عن عدم الفصل؛ بل تجاوزه إلى أمر النبي أن يصبر على مجالسة أولئك الأعبد الفقراء، ونهاه من جديد عن إجابة طلب أولئك السادة المغترين الغافلين، وأمره أن يقول الحق مجردًا عن أي اعتبار آخر، حتى لو كان هذا الاعتبار هو ذلك الإجراء الشكلي؛ لأن هؤلاء لو أرادوا الإيمان لآمنوا دون حاجة لذلك الفصل.

إن الوحي هنا جعل النبي إزاء نهيين وأمرين، ووضح له المفهوم الحقيقي للفصل المقترح بين السادة والعبيد، وكشف أمام النبي أن الإيمان إرادة؛ فلو أراد أولئك السادة أن يؤمنوا لآمنوا دون الحاجة لأي إجراء من قبيل ما اقترحوه.. فهل كان كل ذلك لدى النبي لحظةَ أن همَّ بإجابة طلبهم؟ بالقطع لا؛ وإلا لكان النبي داخل دائرة التحايل والخداع التي نفاها نولدكه عن النبي بكل حسم.

وإذا استخدمنا مصطلحات نولدكه هنا فإن:

- ما كان لدى النبي تصورٌ عنه قبل الوحي؛ قد جاء الوحي مخالفًا له، أي مخالفًا لصوت النبي الداخلي.
- وكل الذي جاء به الوحي في حالتنا هذه؛ لم يكن لدى النبي قبل الوحي تصور عنه؛ وهذا يعني أنه ليس صوته الداخلي.

فلم يبق إذن أمام كل من يزعم أن الوحي إلى النبي لم يكن سوى صوته الداخلي؛ إلا أن يراجع نفسه ليدرك مفارقة الوحي لذات النبي ونفسِه مفارقة تامة.

٣- مراجعته بشأن الموقف من أسرى بدر:

إن النبي عندما أخذ بالرأي القائل بإطلاق أسرى المشركين في بدر بمقابل خلافًا

لرأي عمر[(١)]؛ نزل القرآن يعاتب النبي في مبدأ اتخاذه أسرى قبل أن يُمكَّن للإسلام؛ ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[(٢)]. وعندما جاء عمر إلى النبي وأبي بكر وجدهما يبكيان[(٣)]، وفي روايةٍ أن النبي لقي عمر وقال له: «**كاد أن يصيبنا في خلافك بلاء**»[(٤)].

وعند الإمام أحمد[(٥)]: فلما أن كان من الغد قال عمر: غدوتُ إلى النبي ﷺ فإذا هو قاعد وأبو بكر، وإذا هما يبكيان، فقلت: يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدتُ بكاءً بكيتُ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما. قال: فقال النبي ﷺ: «**الذي عَرض عليَّ أصحابُك من الفداء؛ لقد عُرض عليَّ عذابُكم أدنى من هذه الشجرة؛ لشجرة قريبة**».

فلو كان الوحي ليس سوى صوت رسول الله الداخلي؛ لحصل توحد في الموقف من الأسرى بين (اختياره هو) وبين (ما نزل به الوحي). لكن هذا التوحد لم يحصل ونزل الوحي مخالفًا على نحو ما رأينا.

ثم إن آية الأنفال المذكورة وما بعدها أتاحتا لي أيضًا قدرًا من التأمل النفسي سبقني إليه الدكتور دراز فأنقل قوله هو.

(١) لم يكن اختيار عمر رضي الله عنه في مسألة الأسرى ونحوها – كما يقول د. دراز – إلا مظهرًا من مظاهر الشدة التي كانت أغلب على طبعه، وإن كادت هذه الشدة لتفتنه عن أمر الله يوم الحديبية. فكانت موافقته للوحي في تلك المسائل مصادفة للحكم من غير مقدماته الحقيقية التي انفرد بها علام الغيوب. النبأ العظيم ٢٧.

(٢) الأنفال: ٦٧، ٦٨.

(٣) أبو عبيدة: الأموال ١١٥، وراجع: مسند أحمد: ج١ ص٣٠ رقم (٢٠٨).
والطبري: التفسير للآيتين ٦٧، ٦٨ الأنفال.

(٤) الحاكم: المستدرك ج٢ ص٣٥٩ رقم (٣٢٧٠)؛ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال محقق الكتاب مصطفى عبد القادر عطا: قال الذهبي في التلخيص: صحيح على شرط مسلم.

(٥) المسند ج١ ص٣٠ رقم (٢٠٨).

يلاحظ أن: "الآية رغم أنها لم تنزل إلا بعد إطلاق سراح أسارى بدر وقبول الفداء منهم قد بُدئت بالتخطئة والاستنكار لهذه الفعلة، ثم لم تلبث أن خُتمت بإقرارها وتطبيب النفوس بها.. فهل الحال النفسية التي يصدر عنها أول هذا الكلام - لو كان عن النفس مصدره - يمكن أن يصدر عنها آخره، ولما تمض بينهما فترة تفصل بين زمجرة الغضب وبين ابتسامة الرضا والاستحسان؟ إن هذين الخاطرين لو فرض صدورهما عن النفس متعاقبين لكان الثاني منهما إضرابًا عن الأول ماحيًا له، ولرجع آخر الفكر وفقًا لما جرى به العمل. فأي داع دعا إلى تصوير ذلك الخاطر الممحو وتسجيله؟

إن الذي يفهمه علماء النفس من قراءة هذا النص أن ههنا البتة شخصيتين منفصلتين، وأن هذا سيد يقول لعبده: لقد أسأتَ! ولكني عفوتُ عنك وأذنت لك!"[1].

فهذا إذن يدل على بطلان دعوى نولدكه. ولا يمكن هنا إلا افتراض الوحي خارج دائرة ذات محمد.

٤- **مراجعته بشأن بعض اجتهاداته ومواقفه:**

أ- **مراجعته بشأن نصحه ابن عوف أن يخرج عن ماله:**

أمر رسول الله عبد الرحمن بن عوف أن يخرج عن ماله كله؛ فلما هم أن يفعل قال النبي: «**اذهبوا إليه**»؛ فأتى، فقال النبي: «**إن جبريل أتاني فقال: مر ابن عوف فليضف الضيف، وليطعم المسكين، وليعط السائل، ويبدأ بمن يعول؛ فإنه إذا فعل ذلك كان تزكية ما هو فيه**»[2].

ووجه دلالته مثل ما سبق.

ب- **مراجعته بشأن حُكمه في الظهار:**

(١) د. محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم ص٢٦.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٣ ق١ ص٩٣.

جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ تعرض عليه ظهار زوجها منها[1] "وكانت عائشة تغسل شق رأس رسول الله ﷺ فقال رسول الله: «**حَرُمْتِ عليه**»، فقالت: أشكو إلى الله فاقتي. ثم قالت: يا رسول الله طالت صحبتي، ونفضت له بطني. فقال رسول الله ﷺ: «**حَرُمْتِ عليه**»؛ فجعل إذا قال لها: «**حَرُمْتِ عليه**»، هتفت وقالت: أشكو إلى الله فاقتي. فنزل الوحي، وقد قامت عائشة تغسل شق رأسه الآخر، فأومأت إليها عائشة أن اسكتي، قالت: وكان رسول الله إذا نزل عليه الوحي أخذه مثل السبات، فلما قضي الوحي، قال: «**ادعي زوجك**»، فتلا عليه رسول الله قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[2].

ولم يستطع نولدكه أن يشكك في ارتباط هذه الآيات بما نقلناه من مناسبة نزولها؛ قال[3]:

(١) قال لها: (أنت علي كظهر أمي).

(٢) أخرجه الطبري في التفسير رقم (٢٦١٠٨)، وراجع: البيهقي: السنن الكبرى ج٧ ص٣٨٤ رقم (١٥٠٣٣) ونحوه أيضًا ج١١ ص٢٦٦ رقم (١١٦٨٩)، ابن حبان: صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ج١٠ ص١٠٧ رقم (٤٢٩٧)، وصححه ابن حبان، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح، رجاله كلهم ثقات. وراجع: ابن سعد: الطبقات ق٢ ج٣ ص٩٥. وفي الباب أيضًا: قالت عائشة: (تبارك الله الذي وسع كل شيء؛ إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى عليَّ بعضه وهي تشتكي إلى رسول الله ﷺ زوجها وهي تقول: يا رسول الله أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني وانقطع له ولدي ظاهر مني. اللهم إني أشكو إليك. قالت عائشة: فما برحت حتى نزل جبريل عليه السلام بهؤلاء الآيات). (البيهقي: السنن الكبرى ج٧ ص ٣٨٢ رقم (١٥٠٢٠)) قال البيهقي: أخرجه البخاري.

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢١٢.

"Der wortlaut der ersten Verse 1 - 5 läßt deutlich erkennen. daß sie durch ein bestimmtes Ereignis veranlaßt sind. Und zwar beziehen sie alle Angaben einhellig auf Aus b. Assamit. der sich von einer seiner der sich von einer seiner Frauen. namens Haula oder Huwaila mit der heidnischen Formel ,Du bist mir wie der Rücken meiner Mutter. ".

"نص الآيات [من ١ - ٥ من سورة ٥٨: (المجادلة)] يظهر بجلاء أن سببها حادث محدد. وهناك إجماع على أن تلك الآيات تشير إلى أوس بن الصامت الذي طلق امرأته، واسمها: خولة، أو خويلة بنت الصامت، مستخدمًا الصيغة الجاهلية: أنت علي كظهر أمي".

إننا نلاحظ في الروايات أن:

- النبي قال أكثر من مرة للمرأة السائلة: «**لقد حَرُمتِ عليه**».
- رسولَ الله لم يكن - قبل أن ينزل عليه الوحي بحكم الظهار - على دراية به. والدليل على ذلك أنه لو كان على دراية به لكان قد حكم به بدلًا من الحكم الذي صوبه الوحي.
- رسول الله وجد نفسه مرة أخرى أمام الوحي. ولو كان هذا الأخير صوتًا داخليًّا للنبي - كما يزعم نولدكه - لاستقر الحكم الذي جاءت به الآيات عند الحكم الذي صدر من النبي بادئ الأمر؛ لكن ذلك لم يحصل؛ فدل ذلك على أن الوحي لم يكن صوتًا داخليًّا للنبي.

ج- مراجعته في دعائه على بعض المشركين:

لقد سُمع رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع من الركعة الآخرة من الفجر يقول: «**اللهم العن فلانًا وفلانًا وفلانًا**» بعد ما يقول: «**سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد**»، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾[1].

(١) آل عمران: ١٢٨. وراجع: البخاري بشرح ابن حجر ج٧ ص٣٦٥ رقم (٤٠٦٩).

قال الطبري في تفسيرها: (ليس إليك يا محمد من أمر خَلْقِي إلا أن تنفذ فيهم أمري، وتنتهي فيهم إلى طاعتي، وإنما أمْرُهم إلَيَّ، والقضاء فيهم بيدي دون غيري، أقضي فيهم وأحكم بالذي أشاء من التوبة على من كفر بي وعصاني، وخالف أمري، أو العذاب: إما في عاجل الدنيا بالقتل والنِقَم المُبيرَةِ، وإما في آجل الآخرة بما أعددت لأهل الكفر بي).

وفي هذا دليل جديد على أن الوحي ليس صوتًا داخليًا للنبي كما يزعم نولدكه.

د- **مراجعته في صلاته على زعيم المنافقين:**

جاء في البخاري[1] أن عبد الله بن عمر قال: لما توفي عبد الله بن أبي؛ جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ فأعطاه [النبي] قميصه وأمره أن يكفنه فيه، ثم قام يصلي عليه. فأخذ عمر بن الخطاب بثوبه فقال: تصلي عليه وهو منافق وقد نهاك الله أن تستغفر لهم؟ قال: «**إنما خيرني الله أو أخبرني**»، فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[2]، فقال: «**سأزيده على سبعين**»[3]. قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ وصلينا معه، ثم أُنزل: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[4].

وعند الترمذي زيادة: قال [أي ابن عمر]: فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله[5].

(١) في تفسير سورة التوبة رقم (٤٣٩٣)، (٤٣٩٤)، (٤٣٩٥).

(٢) التوبة: ٨٠.

(٣) وفهم رسول الله الآية على أن النهي عن الاستغفار لمن مات مشركًا دون من مات مظهرًا للإسلام لاحتمال أن يكون معتقده صحيحًا، وهذا يقتضي أن تكون بقية الآية: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، قد نزل متأخرًا مع النهي عن الصلاة على أحد من المنافقين، انظر بالتفصيل: فتح الباري ج٨ ص٣٣٩.

(٤) التوبة: ٨٤.

(٥) سنن الترمذي ج٥ ص٢٧٥ رقم (٣٠٩٧).

فرسول الله ﷺ أعطى بالفعل قميصه ليُكَفَّن فيه عبد الله بن أبي ابن سلول، وصلى عليه بالفعل.

وهذا هو صوت النبي الداخلي؛ لأنه عبر عنه فعلًا: (بإهداء القميص، والصلاة، والاستغفار)؛ وقولًا: (بكلامه مع عمر بن الخطاب، وعرض فهمه للعدد في الاستغفار على ظاهره). لكن نزل الوحي بخلاف ذلك كله. فدل على أنه ليس صوته الداخلي.

هـ- **مراجعته في استغفاره لأبي طالب:**

وهي ذات علاقة بما قبلها. فقد روى البخاري[1] أنه لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله ﷺ، فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال: «**أي عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله**». فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيدانه بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «**والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك**». فأنزل الله: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾[2]، وأنزل الله في أبي طالب، فقال لرسول الله ﷺ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[3].

فنحن واجدون هنا أن رسول الله تحركت مشاعره (صوته الداخلي حسب نظرية نولدكه) إزاء الرجل الذي وقف بجواره ودافع عنه بحكم القرابة؛ فكان يخشى عليه من عاقبة الموت على غير التوحيد؛ فعزم على أن يستغفر الله له؛ فنزل الوحي ينهاه عن الاستغفار لرجل مات مشركًا.

---

(١) تفسير سورة التوبة رقم (٤٣٩٨)، وتفسير سورة القصص حديث رقم (٤٤٩٤).

(٢) التوبة: ١١٣.

(٣) القصص: ٥٦.

فهذا يدل على وجود اتجاهين هنا: اتجاه (الذات المحمدية الموحى إليها) واتجاه (الذات المفارقة الموحية) مما ينقض نظرية نولدكه في أن الوحي المحمدي صوت داخلي.

لكن نولدكه يرى أن الآيات ١١٣-١١٦ من سورة التوبة[١] تعفي المسلمين من أن يطلبوا رحمة الله للمشركين حتى إن كانوا أقرب الناس لهم. لكنه يرفض ما جاء في الروايات الموثقة من أن (الآيات المذكورة متعلقة بموت أبي طالب قبل الهجرة). وكذلك يرفض ما في الروايات الأخرى من أن (الآيات متعلقة بزيارة النبي لقبر أمه آمنة في الأبواء). حيث تقول الروايات إن الله نهاه عن ذلك.

ويرى نولدكه أن ربط الآيات بأبي طالب (غير ممكن لأسباب تاريخية)، وأن ربطها باستغفار النبي لأمه (ليس في الآيات ما يشير إليه). ويخلص إلى أن كُلًّا من الروايتين ليس سوى قول تفسيري لا قيمة له. ويُرجّح أن تكون الآيات عامة غير متعلقة بسبب خاص؛ لأن هذا - من وجهة نظره - هو الذي يتفق مع الوضع السائد في الفترة المدنية. يقول[٢]:

"V. 114 - 117. welche die Muslime von der Pflicht entbinden. für die Götzendiener um Verzeihung zu bitten. selbst wenn es ihre nächsten Verwandten sein. Die Tradition bezieht diesen Abschnitt entweder auf Abu Talib.s Tod. der noch vor der Higra erfolgt war. oder auf den Besuch Muhammeds am Grab seiner Mutter Amina in Alabwaa. wobei ihm Allah verboten haben soll. für sie zu beten. Die erste Deutung ist schon aus

---

(١) في مصحفنا ١١٣-١١٦ وفي طبعة فلوجل التي رجع إليها نولدكه ١١٤-١١٧، والآيات هي: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٢٥-٢٢٦.

chronologischen Gründen unmöglich, die zweite wäre zulässig, wenn der Abschnitt überhaubt einen besonderen Fall im Auge hätte. Da er aber nur einen algemeinheit in die Situation der medinischen Zeit vortrefflich paßt, so sind beide Angaben nichts anderes als haltlose exegetische Kombinationen"

لكني لا أوافقه على ما ذهب إليه للأسباب الآتية:

١- لقد ثبتت (علاقة الآيات باستغفار النبي لعمه أبي طالب) برواية البخاري لها، وهو صاحب منهج متشدد في درجة التثبت من المرويات. ولم تكن لدى البخاري أو غيره مشكلة تتعلق بتفسير الآيات ليخترع لها سببًا؛ بدليل أن هناك آيات كثيرة ليست مرتبطة بسبب نزول وبقيت كذلك دون أن تربط بسبب معين.

٢- لا وجه لاعتراض نولدكه بالأسباب التاريخية (حيث يقصد أن وفاة أبي طالب كانت بمكة في حين أن سورة التوبة مدنية؛ فكيف تشمل آيات تكون تعقيبًا على حدث حصل بمكة؟). لأنه من المعروف أن بعض السور المدنية ضمت آيات كانت قد نزلت بمكة. فلا يستبعد هنا حصول هذا.

٣- إن أسلوب الآيات لا يُفهم منه ما فهمه نولدكه من أنها (تُعفي المسلمين من واجب طلب الرحمة للمشركين)، بل يُفهم منه أنه (لا ينبغي أن يحصل منهم هذا). لنقرأها معا: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

لقد فسرها الطبري بناء على أنّ: (أنْ) إذا جاءت مع (كان)، فكلها بتأويل (ينبغي). أي: ما كان ينبغي للنبي محمد ﷺ والذين آمنوا به أن يستغفروا للمشركين... من بعد ما ماتوا على شركهم بالله وعبادة الأوثان..لأن الله قد قضى ألّا يغفر لمشرك، فلا ينبغي لهم

أن يسألوا ربهم أن يفعل ما قد علموا أنه لا يفعله[1].

٤- هناك فرق بين أن (يعفيهم الله من واجب الاستغفار للمشركين) وأن (يخبرهم أنه ما كان ينبغي أن يستغفروا لهم) لأن المعنى الأخير يشي بأن الاستغفار قد حصل منهم والله نهاهم عنه.

٥- ثم إنه حتى إن كانت الآيات (متعلقة بالوضع السائد في العهد المدني) كما هو اختيار نولدكه؛ فهي على أية حال تتضمن موقف مراجعة وتعديل من الوحي لسلوك اتُّخِذ؛ وبخاصة أن النبي أيضًا معني بهذه المراجعة؛ فقد ذُكر فيها بصفته: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا﴾؛ ولم يقتصر الآيات على ذكر المسلمين كما يفهم من نص نولدكه.

نخلص إذن إلى أن الآيات نص في مراجعة الله تعالى لنبيه على موقف معين كان لرسول الله فيه رأي، لكن الوحي راجعه فيه.

و- **مراجعته بشأن إذنه لبعض المنافقين بالتخلف عن تبوك:**

لقد أذن رسول الله لبعض المنافقين بالتخلف عن غزوة تبوك فعاتبه الله على ذلك بقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[2].

قال الطبري في تفسير هذه الآية: (هذا عتاب من الله - تعالى ذكره - عاتب به نبيه ﷺ في إذنه لمن أذن له من المنافقين في التخلف عنه حين شخص إلى تبوك لغزو الروم). فالرسول أَذِنَ لكن الله عاتبه. ولا يمكن تفسير هذا إلا في الإطار الذي ذكرته من قبل، وهو: وجود اتجاهين: اتجاه (الذات المحمدية الموحى إليها) واتجاه (الذات المفارقة الموحية) مما ينقض نظرية نولدكه في أن الوحي المحمدي صوت داخلي.

(١) تفسير الطبري للآيات المذكورة من سورة التوبة.

(٢) التوبة: ٤٣.

ز- **مراجعته بشأن أحد وجوه إرضائه لبعض أزواجه:**

لقد رُوِيَ أن رسول الله حرَّم على نفسه نوعًا من العسل بسبب حيلة احتالتها زوجتاه: حفصة وعائشة حتى لا يذهب لزوجته زينب بنت جحش (حيث كان يشرب عندها هذا النوع من العسل).

فلقد تواصيتا أن تقول كل منهما له: إني أجد منك ريح مغافير، أكلتَ مغافير! وَفَعَلَتَا؛ فقال: «**لا، بل شربتُ عسلًا عند زينب بنت جحش، ولن أعود له**». فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ① قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[1]". وهنا "عاتبه الله على تحريمه على نفسه ما كان له قد أحله، وبيّن له تحلة يمينه"[2].

إننا نلاحظ هنا أن:

- رسول الله أراد إرضاء حفصة وعائشة بأن حَرَّم هذا النوع من العسل على نفسه. (إرادة النبي وصوته الداخلي حسب تعبير نولدكه).
- النبي نفَّذَ ما أراد بالفعل.
- الوحي جاء؛ وقبل أن يلوم زوجات النبي؛ وجه العتاب إليه أولًا على تحريم ما أحله الله له ابتغاء مرضاتهن. ووعده بالمغفرة ودله على طريق التحلل من هذا بكفارة اليمين.

إن هذه المراجعة تتناقض تمامًا مع افتراض نولدكه أن الوحي هو صوت النبي الداخلي؛ إذ لو كان كذلك فَلِمَ جاء مخالفًا بل موجهًا له؟

ح- **مراجعته في تحرجه من إظهار أمر الوحي إياه الزواجَ من مطلقة متبناه:**

---

(1) التحريم: ١، ٢، وراجع: البخاري بشرح ابن حجر ج٩ ص٣٧٤ رقم (٥٢٦٧)، ج١١ ص٥٧٤ رقم (٦٦٩١)، ومسلم بشرح النووي ص٧٣-٧٧ رقم (١٤٧٤)، وسنن أبي داود ج٣ ص٣٣٤ رقم (٣٧١٤).

(2) تفسير الطبري للآيتين الكريمتين.

والقصة باختصار أن رسول الله كان قبل أن ينزل عليه الوحي قد تبنى فتاهُ: زيدَ بن حارثة؛ فصار يدعى زيد ابن محمد. ولأنه في حكم الابن؛ خطب له رسول الله ابنة عمته زينب بنت جحش، التي تزوجته رغم عدم ميلها له إكرامًا لتدخل الرسول. لكن مع الوقت لم يحصل بينهما تآلف نظرًا للتفاوت الاجتماعي بينهما، ولعدم ميلها له. وكان زيد يشكوها لرسول الله فيأمره بتقوى الله والصبر عليها وعدم فراقها على الرغم من أن الوحي كان قد أخبره أنها ستصير زوجته.

والذي كان يحمله ﷺ على إخفاء ذلك، خشيةُ قولِ الناس: تزوج امرأة ابنه. وأراد الله إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبني بأمرٍ لا أبلغ في الإبطال منه؛ وهو تزوج امرأة الذي يدْعى: ابنًا. ووقوع ذلك من إمام المسلمين ليكون أدعى لقبولهم[1].

وهذا في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾[2].

فنلاحظ هنا أن رسول الله أخفى شيئًا؛ لكن الله أبداه: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾.

إن الذي أبداه الله هو: تشريع زواج النبي من امرأة متبناه لإبطال عادة التبني.

إن هذه المراجعة من الله تعالى لرسوله تناقض دعوى نولدكه أن الوحي

(١) ابن حجر: فتح الباري ج٨ ص٥٢٤؛ وراجع بشأن القصة أيضًا: البخاري بشرح ابن حجر ج٨ ص٥٢٣-٥٢٥ رقم (٤٧٨٨)، وج١٣ ص٤٠٣ رقم (٧٤٢٠).

(٢) الأحزاب: ٣٧، ٣٨.

ليس سوى صوت داخلي للنبي؛ وذلك لأنه لو كان كذلك لما جاء معارضًا رغبة الرسول المتمثلة في (أمره زيدًا بتقوى الله والصبر على زينب وعدم فراقها). ولا يكتفي الوحي بهذه المعارضة؛ بل يضيف إليها كشفَه الدافع وراء تصرف النبي وهو خوفه من قول الناس على هذا التشريع الجديد بأن يقولوا: تزوج امرأة متبناه. ولعلها المرة الوحيدة في القرآن التي يقول الله فيها لنبيه: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾.

فهل بعد كل هذا يأتي نولدكه ليقول إن وحي محمد هو صوته الداخلي؟

رُوِي[1] عن عائشة وأنس رضي الله تعالى عنهما: (لو كان رسول الله ﷺ كاتمًا شيئًا من الوحي لكتم هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ الآيات).

وبعد؛

فإن مراجعة القرآن لرسول الله بشأن بعض مواقفه وآرائه، وبعض ما انطوت عليه نفسه، وبشأن أسرى بدر، وفي بعض اجتهاداته ومواقفه، وفي تصوره لبعض أولويات الدعوة، وما اندرج تحت ما ذكر؛ يتناقض مع افتراض نولدكه الوحي صوتًا داخليًّا للنبي. ولأن هذه المراجعات ثابتة صحيحة فلا ندعها لافتراض نولدكه الواهي.

الوجه الثالث: رسول الله ينتظر كلمة الوحي:

إن الرسول - في كثير من المواقف - لم يكن يصير إلى الحكم أو الموقف الجديد مباشرة، بل كان ينتظر كلمة الوحي. وهذا يناقض كون الوحي صوته الداخلي؛ إذ لو كان الوحي مجرد صوته الداخلي ما احتاج للانتظار.

ولنأخذ المثلين الآتيين:

(١) مسند أحمد ج٦ ص٢٦٦ رقم (٢٦٣٣٨)، وغيره من كتب السنة، وراجع: تفسير ابن كثير والقرطبي للآية، وابن حجر: فتح الباري ج٨ ص٥٢٤ وج١٣ ص٤١١.



١- نزول بعض أحكام الميراث:

عن جابر بن عبد الله قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع بابنتيها من سعد إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد؛ قتل أبوهما يوم أحد شهيدًا؛ وإن عمهما أخذ مالهما فاستفاءه فلم يدع لهما مالًا؛ والله لا تُنكحان إلا ولهما مال. فقال رسول الله ﷺ: «**يقضي الله في ذلك**». فأنزل الله عليه بعض آيات الميراث[(١)]؛ فدعا عمهما فقال: «**أعط ابنتي سعد الثلثين، وأعطِ أمهما الثمن، ولك ما بقي**»[(٢)].

إن رسول الله هنا لم يكن لديه حكمٌ سابق بشأن المسألة المستفتَى فيها هنا؛ ولذا انتظر حتى يقضي الله في ذلك. ولما نزل الحكم نَفَّذَه رسول الله على النحو الذي جاء.

ونجد في مسند الإمام أحمد[(٣)] أن كل دور النبي كان أنه: "ذهب إلى السوق، حيث يوجد ميراث سعد بن الربيع، الذي هو أول ميراث قسم في الإسلام، وقسمه بنفسه".

فلو كان الوحي صوت رسول الله الداخلي؛ فلماذا لم يحكم بمجرد طرح السؤال عليه؟

---

(١) ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١].

(٢) مسند أحمد ٣/ ٣٥٢ (١٤٨٤٠). وأخرجه أبو عيسى الترمذي ٤/ ٤١٤ (٢٠٩٢) وقال: هذا حديث صحيح. وأخرجه أبو داود ٣/ ١٢٠-١٢١ رقم (٢٨٩١)؛ لكن ذكر راويه (بشر بن المفضل) أنهما ابنتا ثابت بن قيس؛ وخطأه أبو داود وقال: (هما ابنتا سعد بن الربيع. وثابت بن قيس قتل يوم اليمامة). وأخرجه الحاكم: المستدرك ج٤ ص٣٧٠ رقم (٧٩٥٤)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال محقق الكتاب مصطفى عبد القادر عطا: قال الذهبي في التلخيص: صحيح. وراجع: ابن سعد الطبقات ق٢ ج٣ ص٧٨.

(٣) ٣/ ٣٧٤ رقم (١٥٠٦٢).

٢- تجاوُز الله للنبي عن عقاب أمته على حديث النفس:

صح في كتب السنة[(١)] أنه لما نزل على رسول الله قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[(٢)]؛ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة؛ وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها! قال رسول الله ﷺ: «**أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير**». قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. فأنزل الله في إثرها ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

فلما فعلوا ذلك أنزل الله عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[(٣)].

وبالتأمل نلاحظ الآتي:

- لقد شعر المؤمنون بالحرج مما تشكله الآية الأولى مما حسبوه إثقالًا عليهم، حيث يحاسَبون بكل ما في أنفسهم، سواء أبْدَوْه أو أخفَوْه. وذهبوا إلى رسول الله معلنين له هذا.
- نهاهم رسول الله أن يكونوا مثل أهل الكتاب من قبلُ حين عصَوْا.

(١) راجع: البخاري بشرح ابن حجر ج٨ ص٢٠٥-٢٠٦ رقم (٤٥٤٥)، و(٤٥٤٦)، وشرح ابن حجر لهما، وصحيح مسلم ج١ ص١٤٤-١٤٦ رقم (١٢٥، ١٢٦). ومسند أحمد ج٢ ص٤١٢ رقم (٩٣٣٣).

(٢) البقرة: ٢٨٤.

(٣) البقرة: ٢٨٥.

- أمرهم أن يرضَوْا بحكم الله تعالى ويتعلقوا بالأمل في الفوز بالغفران.
- هذا كل ما كان لدى النبي ﷺ ليقوله لهم.

لكن جاء الوحي بعد ذلك بما لم يقله الرسول، أو يَرِدْ في حديثه معهم، أو يخطر له ببال؛ حيث بين الوحي:

- أن الله لا يكلف إلا الوُسع.
- أنه لا يؤاخذ المؤمنين إلا بما اكتسبوا.
- أمر المؤمنين أن يدعوا الله أن يرفع عنهم الإصر، وألا يُحَمِّلهم فوق الطاقة، وأن يعفو عنهم.

فإذا كان الوحي صوت محمد الداخلي؛ فلماذا لم تأتِ الآية (حاسمةُ الجواب)، منذ البداية؛ ما دامت هي الأخرى صوتًا داخليًا للنبي؟

وإذا كان الوحي صوت محمد الداخلي؛ فلماذا لم يتعاطف النبي من البداية مع الذين شعروا بثقل المحاسبة المذكورة؛ ولماذا صرفهم أصلًا عن هذا الشعور؟

كما أن قول النبي: «**إن الله تجاوز لي عن أمتي ما وسوست به صدورها ما لم تعمل أو تكلم**»[1] إنما يأتي توضيحًا للمعنى الجديد الذي أضافته الآية ٢٨٥ البقرة، وهو أيضًا وحي بيقين؛ لا بالمعنى الذي يدعيه نولدكه من كونه صوتًا داخليًا؛ بل وحي حقيقي من الله. إذ لو كان صوتًا داخليًا للنبي؛ فلِمَ لم يقله في مواجهة المؤمنين الذين شعروا بثقل مضمون الآية ٢٨٤ البقرة؟

الوجه الرابع: استثناء القرآن حالة من أن يشملها تشريع سارٍ؛ لينزل لها تشريع جديد؛ إذ لو كان الوحي مجرد صوته ﷺ الداخلي لبقي لها نفس التشريع الساري.

وأعني هنا تشريع الوحي لحكم اللعان؛ فلقد كان الحكم الشرعي المستقر في الزنا أنه لا يُصار إلى إقامة الحد إلا باعتراف من الفاعل، أو بأربعة شهود عليه، تتفق شهادتهم

(١) البخاري بشرح ابن حجر ج٥ ص١٦١.

الواضحة على الرؤية التامة. فإذا اتُّهمت امرأة محصنة بالزنا، ولم يكن شهود أربعة؛ عرَّض من فعل هذا نفسه لحد القذف طبقًا لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[1]، ولم يكن ثمة حكم يتعلق برؤية الزوج منفردًا زوجته تفعل هذه الجريمة.

لكن حدَث أن جاء هلال بن أمية من أرضه عشاء، فوجد عند أهله رجلًا، فرأى بعينيه، وسمع بأذنيه، فلم يهجه حتى أصبح، فغدا على رسول الله فأخبره؛ فكره رسول الله ما جاء، واشتد به عليه. واجتمعت الأنصار فقالوا: الآن يضرب رسول الله هلال بن أمية ويبطل شهادته[2] في المسلمين. فقال هلال: والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجًا[3]. فقال هلال: يا رسول الله إني قد أرى ما اشتد عليك مما جئت به والله يعلم أني لصادق. ووالله[4] إن رسول الله يريد أن يأمر بضربه؛ إذ أنزل الله على رسول الله الوحي وكان إذا أنزل عليه الوحي عرفوا ذلك في تربد جلده، فأمسكوا عنه؛ حتى فرغ من الوحي؛ فنزل:

﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٦ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٧ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٨ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٩ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾[5]؛ فسُرِّيَ عن رسول الله؛ فقال: «**أبشر يا هلال فقد جعل الله لك فرجًا ومخرجًا**»؛ فقال هلال: قد كنت أرجو ذاك من ربي. الحديث[6].

(١) النور: ٤، ٥.
(٢) إشارة للحكم الثابت من الآيتين: ٤، ٥ النور.
(٣) لاحظ معي الشعور الحقيقي لدى المسلمين المعاصرين للنبي أن الله هو الذي يأتي بالحل وليس النبي... فلم لا يأخذ البحث الاستشراقي هذا في الاعتبار؟
(٤) كلام ناقل الواقعة.
(٥) النور: ٦-١٠.
(٦) أوردناه مختصرًا من حديث عبد الله بن عباس في مسند الإمام أحمد ج١ ص٢٣٨ رقم (٢١٣١).

لنلاحظ الآتي:

- أن رسول الله لم يكن لديه حل لهذا الإشكال إلا أن ينفذ حكم الله السابق؛ (وهو إقامة حد القذف على هلال وإهدار شهادته).
- أن النبي لم يكن لديه في بادئ الأمر تصور عن حكم اللعان (بدليل أنه لم يَصِر إليه مباشرة بل كاد أن يطبق حد القذف).
- كاد رسول الله أن يطبق حد القذف؛ لولا أن نزل عليه الوحي بحكم اللعان الذي يعالج مسألة زنا الزوجة (التي لم يشاهدها في أثناء الجريمة إلا زوجها).
- لو كان صحيحًا ما ادعاه نولدكه من أن (الوحي الذي جاء النبيَّ لم يكن سوى صوته الداخلي أو أنه ﷺ عد شعوره الداخلي صوت الله)؛ لحصل توحد بين رأي النبي والوحي، ولنزل الوحي بتأييد تطبيق حكم القذف في حالة هلال، ولما جاء وحي بحكم جديد؛ لكن هذا لم يحدث ونزل الوحي بحكم اللعان.

وهذا يضعنا أمام موقف يصعب على نولدكه تجاوزه:

إن حكم القذف (الذي كان للنبي تصور عنه)؛ لم يأت به الوحي. أي أنه جاء خلافًا لاتجاه الصوت الداخلي. وحكم اللعان (الذي لم يكن لدى النبي أدنى تصور عنه)؛ نزل به الوحي. أي أنه جاء بشيء خلا منه ذهن النبي تمامًا. فما تفسير نولدكه لهذا؟

لا تستطيع (نظرية نولدكه بشأن الصوت الداخلي) أن تفسر هذا.

ولقد فهم نولدكه هذا كله، فهرب من المواجهة بحل، بَدَا له سهلًا، واستخدمه بلا دليل كثيرًا، وهو إنكار أي ربط بين الروايات الكثيرة المتعلقة بحالة الزنا تلك وبين نزول آيات اللعان المذكورة. يقول[1]:

"تفسيرات العلماء تلك لا تصمد أمام النقد؛ فعلى فرض أن حادثة زنا قد حدثت في عائلة عويمر أو هلال؛ فإن الربط بينها وبين النص القرآني الذي معنا (وهو الآيات من ٦-١٠) من سورة النور يعد اختلاقًا"

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢١٠.

“Vor der Kritik kann von dieser exegetischen Gelehrsamkeit nicht viel bestehen. Mag immerhin in der Familie des Uwaimer oder Hilal ein derartiger Fall von Unsucht vorgekommen sein. so ist doch die Verknüpfung desselben mit unserer Qoranstelle wahrscheinlich erfunden”.

هكذا بسهولة شديدة تعد كل الروايات في سبب نزول هذه الآيات اختلاقًا.. لماذا؟ إنها إرادة نولدكه..

روايات هو بنفسه ذكر[1] أنها في: البخاري ومسلم والموطأ والنسائي وأسد الغابة والترمذي وأسباب النزول للواحدي وكل التفاسير بلا استثناء.. لماذا يطيح بها هكذا بجرة قلم؟

لا يجيب العلامة الشهير!!

ثم.. لماذا لا تصمد تلك الروايات أمام النقد؟ وما ماهية هذا النقد؟ ومن الذي وجهه؟ لا جواب أيضًا..

المهم أن يثير الغبار حول الروايات. ولا اعتبار أو قيمة للمنهج العلمي أمام إرادة نولدكه.

الوجه الخامس: توجيه الخطاب للنبي في القرآن؛ بما يتناقض مع فرضية الصوت الداخلي:

١- لقد وُجه الخطاب للنبي في القرآن الكريم؛ سواء باستخدام فعل الأمر: (قل)؛ أو باستخدام (تاء أو كاف المخاطَب). وقد بلغ عدد الآيات التي خوطب فيها النبي بـ(قل) فقط ٣٣٢ آية؛ منها ١١٦ آية في القرآن المدني، والباقي في القرآن المكي[2]؛ هذا فضلًا عن الآيات التي خوطب فيها النبي باستخدام تاء أو كاف المخاطَب.

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢١٠ هوامش ١، ٢، ٣، ٤، ٥.

(٢) راجع محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص٥٧١.

فهل يمكن أن تكون هذه الآيات صوتًا داخليًا للنبي؟ لنبحث الأمر:

إن الجوانب التي عالجتها الآيات التي توجه الخطاب المباشر للنبي كثيرة[1]؛ وأشير هنا إلى بعضها:

أ- بعض هذه الآيات يتناول مسائل العقيدة:

نبوة محمد وعمومية رسالته وكونه بشرًا:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[2]

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[3]،

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾[4]،

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[5].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[6].

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[7].

---

(١) أحسب أن هذا الموضوع يحتاج إلى معالجة مستقلة.

(٢) سبأ: ٤٦.

(٣) الأعراف: ١٥٨.

(٤) فصلت: ٦.

(٥) يونس: ٤٩.

(٦) ص: ٦٥.

(٧) ص: ٨٦، ٨٧.

توحيد الله، وتنزيهه، وإسلام الوجه له وحده، وعبادته، وقصر علم الغيب عليه، ودعاؤه:

﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ﴾(1)،

﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾(2)،

﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾(3)،

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا﴾(4)،

﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾(5)،

﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾(6)،

﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾(7)،

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ

(١) المؤمنون: ٨٤-٨٩.
(٢) آل عمران: ٢٠.
(٣) النمل: ٦٥.
(٤) الجن: ٢٠.
(٥) الإسراء: ١١١.
(٦) المؤمنون: ١١٨.
(٧) الإسراء: ٨٠.

مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾[1].

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾[2].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[3].

بعض مسائل اليوم الآخر:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[4]

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[5]

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾[6]

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[7].

﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾[8].

(١) الزمر: ٣٨-٤٠.
(٢) آل عمران: من الآية ١٥٤.
(٣) الأحقاف: ٤.
(٤) الجمعة: ٨.
(٥) يس: ٧٨، ٧٩.
(٦) الواقعة: ٤٩، ٥٠.
(٧) التغابن: ٧.
(٨) الإسراء: ٥٠، ٥١.

ب- **بعض هذه الجوانب فيه أوامر للنبي، منها:**

أمرُه بالاستقامة:

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[1].

أمرُه بقول معين في وقت معين:

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[2]

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[3]

﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾[4]

﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾[5]

أمرُه أن يصحح موازين الناس وتصوراتهم:

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[6].

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[7].

---

(١) هود: ١١٢.

(٢) الإسراء: ٨١.

(٣) طه: ١١٤.

(٤) المؤمنون: ٢٩.

(٥) المؤمنون: ١١٨.

(٦) المائدة: ١٠٠.

(٧) الأعراف: ٣٢، ٣٣.

﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾[1].

أمرُه أن يعلِمَهم بمبدأ المسؤولية الفردية وتحمل تبعة الاختيار:

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[2]

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾[3]

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[4]

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾[5].

أمرُه أن يعلن المفاصلة العقدية مع المشركين:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾[6].

﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ۝٥٧ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾[7].

﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ

(١) النساء: من الآية ٧٧.
(٢) سبأ: ٢٥.
(٣) هود: ١٢١.
(٤) الكهف: ٢٩.
(٥) يونس: ١٠٨.
(٦) الكافرون: الآيتان ١، ٢.
(٧) الأنعام: ٥٦-٥٨.

أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[1]،

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[2]،

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[3].

وأمرُه أن يأمر المؤمنين بالغض من البصر:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾[4]. والأمر ذاته للمؤمنات[5].

أمرُه أن يخبر بأصول ما حرم الله:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[6].

ج- توجيه الله نبيه إلى محاور الخطاب مع أهل الكتاب:

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَٰذِبِينَ ﴾[7]،

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَٰبِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ

(١) الأنعام: ١٩.
(٢) الأنعام: ١٤.
(٣) يونس: ١٠٤.
(٤) النور: ٣١.
(٥) النور: ٣٢.
(٦) الأعراف: ٣٣.
(٧) آل عمران: ٦١.

بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[1]

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[2]

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[3]،

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[4].

د- كما أن بعضها يخبر النبي بالآتي:

أن الوحي هو الذي يقصُّ عليه قصص السابقين:

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾[5]،

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾[6]،

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ

(١) آل عمران: ٦٤.
(٢) الجمعة: ٦.
(٣) البقرة: ١٢٠.
(٤) البقرة: ١٤٥.
(٥) آل عمران: ٤٤.
(٦) يوسف: ١٠٢.

لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[١]

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾[٢].

إننا نلاحظ أن الآيات الكريمة سالفة الذكر تأمر النبي ﷺ بالآتي:

- إعلان نبوته، وأنها عامة، وأنه مع ذلك بشر لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، وأن وظيفته الإنذار، وأنه لا يسأل قومه أجرًا على تبليغ رسالة الله.
- وإعلان توحيد الله تعالى، وتنزيهه، وإسلام الوجه له وحده، وعبادته، وقصر علم الغيب عليه، ودعاؤه.
- وإعلان أن الأرض كلها له تعالى، وأنه تعالى رب السماوات وبيده ملكوت كل شيء، ولا أحد يعلم الغيب إلا هو.
- وإعلان بعض حقائق اليوم الآخر، وأن الذي خلق الإنسان أول مرة قادر على إعادته بعد موته.
- وإعلان أن الخبيث لا يستوى مع الطيب؛ حتى إن كان الخبيث قويًّا أو كثيرًا.
- وإعلان أن الله لم يحرم زينة الدنيا التي أتاحها لعباده؛ بل حرم الفواحش والمعاصي والظلم والشرك. وإعلان أن الدنيا مهما طالت فمتاعها قليل بالنسبة للآخرة.
- وإعلان مبدأ المسؤولية الفردية وتحمل تبعة الاختيار.. إلخ.

٢- **ونود هنا أن نقف على نحو خاص عند بعض الآيات التي خوطب فيها النبي من قبل الله:**

أ- لقد أمر الله رسوله أن يعلن المفاصلة العقيدية مع المشركين ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا

(١) القصص: ٤٤-٤٦.

(٢) هود: ١٠٠.

ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾[1]. هذه المفاصلة يأمر الوحي بإعلانها.. فهل يتصور أن يكون مردها إلى صوت النبي الداخلي رغم الاستضعاف والاضطهاد؟

ب- كما أمر الله رسوله أن يعلن مباهلة وفد النصارى فقال - وذلك في العهد المدني -: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ۝٦٠ فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[2].

وروى البخاري[3] بهذا الشأن: جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل فوالله لئن كان نبيًّا فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا. وبالفعل جمع رسول الله الحسن والحسين وفاطمة وتجهز لأن يدعو الله على الكاذب من الطائفتين[4]، وفي مرسل الشعبي عند ابن أبي شيبة أن النبي ﷺ قال: «**لقد أتاني البشير بهلكة أهل نجران لو تموا إلى الملاعنة**»[5].

وهنا نتساءل:

هل يمكن أن يقدم رسول الله على خطوة تحوي كل هذا التحدي إلا إذا كان مدفوعًا من الوحي؟

وما الذي يضطره - لو كان الأمر من عنده أو طوعَ أمره - أن يقتحم مختارًا

(١) الكافرون: ١، ٢.
(٢) آل عمران: ٥٩-٦١.
(٣) بشرح ابن حجر ج٨ ص٩٣ رقم (٤٣٨٠).
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي، وقال محقق الكتاب مصطفى عبد القادر عطا: قال الذهبي في التلخيص: على شرط البخاري ومسلم ج٣ ص١٦٣ رقم (٤٧١٩).
(٥) ابن حجر: الفتح ج٨ ص٩٤.

بذاته غمار مخاطرة لم يجبره أحد على الدخول فيها؛ بل لم يقترحها أحد، يجد النبي نفسه محرجًا إن لم يستجب له؟

ولقد كان من الممكن لو لم تكن نتائج تلك المباهلة محققة لصالحه ﷺ أن تكون خطرًا على دعوته؟

ج- كما أمر الله رسوله أن يعلن أن ثباته على الحق ليس راجعًا إليه إنما هو فضل من الله: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾[1].

إن هذا الخطاب لا يمكن أن يكون صوتًا داخليًّا للنبي ﷺ لأن تميز الذات المخاطِبة المتعالية التي تتحدث بضمير الجمع في: (أَوْحَيْنَا) (عَلَيْنَا) (ثَبَّتْنَاكَ) (لَّأَذَقْنَاكَ) (عَلَيْنَا)، والتي تمتن على النبي بأنها هي التي تثبته، وتحذره إن افترى على الله.. هذا التميز واضح تمامًا في مقابل الذات المخاطَبة (ذات محمد ﷺ) الموحى إليها الممتن عليها بالتثبيت. ولا يمكن أن يكون محمد هو مصدر هذا الخطاب؛ لأنه غير معهود في كلام العربي أن يأتي على هذا النحو، وكذلك هو غير معهود في كلام رسول الله: الحديث النبوي.

٣- لكن ما موقف علم الإسلاميات الغربي إزاء دليلنا هذا؟

إن علم الإسلاميات الغربي وقف إزاء الآيات القرآنية التي خوطب فيها النبي مواقف متعددة؛ ففي الوقت الذي فسرها فيه المستشرق الألماني اليهودي جوستاف فايل (١٨٠٨-١٨٨٩) *Gustav Weil*[2] بأن النبي تلقاها عن شخص

(١) الإسراء: ٧٣-٧٥.

(٢) عند نجيب العقيقي (المستشرقون ج٢ ص٤٥٧) جورج فايل، والصواب ما أثبتناه، وهو من أصل يهودي نال - كما يقول رودي بارت - تربية تلمودية. راجع: رودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ترجمة د. مصطفى ماهر ص٢١. وراجع أيضًا: =

كان يتلاعب به، (ويستدل على هذا بما روي من أن جبريل كان يشبه دحية)؛ فإن المستشرق البريطاني شبرنجر(١) *Sprenger Aloys* (١٨١٣-١٨٩٣) فسّرها بأن النبي تلقاها من شخص كان يعمل بنشاط من خلف ستار، أو في تآمر مع النبي. وكان هذا الشخص يملي على النبي الآيات التي وجه فيها خطاب له.

ويتناول نولدكه ادعاء فايل؛ فيقول(٢):

> *"Nun vermutet aber Weil. daß Muhammed einige Offenbarungen geradezu von einem Menschen erhalten habe. der sein Spiel mit ihm trieb. Er meint. die Verse. in denen Muhammed angeredet wird. ließen sich kaum anders erklären. wenigsten in der früheren Zeit. Dazu hält er die Angabe. daß Gabriel dem Dahya ähnlich gewesen sein soll".*

"يدعي فايل(٣) *Weil* أن محمدًا أقرب إلى أن يكون قد أخذ بعض الوحي من شخص كان يتلاعب به؛ حيث رأى فايل أن الآيات التي خوطب فيها محمد لا تحتمل تفسيرًا آخر

= *Theodor Nöldeke . G. Bergsträsser und Otto Pretzl: Geschichte des Qorāns Dritter Teil s. 299. 322.*

(١) ترأس المعاهد الإسلامية في الهند في الفترة من ١٨٥٠-١٨٥٧، وعين في ١٨٥٨ أستاذًا للغات الشرقية في برن بسويسرا، وظل يشغل هذا المنصب حتى العام ١٨٨١ الذي اعتزل فيه للتأليف. من أشهر كتبه:

- *Das Leben und Lehre des Muhammed . Berlin 1869*
- *Muhammed und der Qorān. eine psychologische Studie. Hamburg 1889.*

(حياة وتعاليم محمد) و(محمد والقرآن دراسة نفسية). وعندما عاد من الهند إلى ألمانيا عاد معه ألفا مجلد من بينها ١١٤٠ مخطوط عربي- كما يقول يوهان فُيْك- أو ١١٠٠ فقط - كما يقول بارت- اشترتها مكتبة برلين. هو الذي اكتشف وجود الجزء الأول من طبقات ابن سعد بكاونبور، ثم وجد الباقي بدمشق راجع: محمد علي حشيشو في تعليقاته ضمن كتاب المستشرقون الألمان لصلاح الدين المنجد ص١٢٢، نجيب العقيقي: المستشرقون ج٢ ص٢٧٧-٢٧٨، رودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ترجمة د. مصطفى ماهر ص٦٤. وراجع كذلك:

Johan Fück: Die arabischen Studien in Europa. s. 178.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٧.

(3) Das Leben Muhammeds. Stuttgart 1864 Anm. 598 und k.57ff.. 2. Aufl. S.66 ff.

غير ذلك، على الأقل في الآونة الأولى. ويستند في هذا إلى معلومةٍ أن جبريل كان من شأنه أن يشابه دحية في الشكل".

ويرد نولدكه على هذا الزعم بأن هذا الرأي غير جدير بالقبول أبدًا؛ لأن معظم القرآن لم يكن آيات خوطب فيها النبي من الله. كما أن هذا النوع من الآيات استمر في النزول إلى قبيل الهجرة بوقت قصير؛ فهل ظل النبي غير منتبه لهذا الخداع كل هذه المدة؟ كما يضيف أننا إذا افترضنا وجود ذلك الشخص المصلح الذي كان يتلاعب بالنبي.. فلماذا لم يُظهر نفسه وينشر تعاليمه بدلًا من الاعتماد على محمد؟ ويضيف كذلك: إنه سواء رَأى فايل أن دور المصلح اقتصر على تأليف الآيات التي خوطب فيها النبي وحدها؛ أم ألَّفَ الآيات الأخرى كذلك؛ فإن تفسيره غير مقبول.

والتفسير الوحيد المقبول لدى نولدكه هو أن هذه الآيات ناتجة عن الصدق الذي كان متغلغلًا داخل محمد؛ واليقين الجازم لديه في أن رسالته إلهية، وأنه لم يفقد هذا اليقين أبدًا؛ يقول نولدكه معلقًا على زعم فايل(١):

"Aber diese Ansicht ist durchaus nicht zu billigen. Daß Muhammed von Gott angeredet wird, streitet durchaus nicht mit der ganzen Weise seiner prophetischen Rede, am wenigsten in der früheren Zeit, in der er oft genug Engel erblickt haben mag.

In den spätern Suren behielt er diese wie andere Formen schon aus Gewohnheit bei. Nun sind aber die meisten Stellen, durch die Weil seine Ansicht zu beweisen sucht, aus ziemlich spätern Suren.

Muhammed hätte also den Betrug bis kurz vor der Higra gar nicht gemerkt! Wie sollen wir uns überhaupt denken, daß ein Reformator - denn als solcher wäre doch der eigentliche Urheber jener Verse anzusehen - statt selbst aufzutreten, einen leicht zu betrügenden Menschen aufgesucht hätte, um ihn durch Täuschungen, die der Wahrheit ihren Wert nehmen würden, zur Verkündigung seiner Lehren zu bewegen?

Wenn Weil nun meint jene Verse ließen sich nicht mit der Wahrhaftigkeit vereinigen, von der Muhammed anfangs durchdrungen

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٧-٢٨.

gewesen sei so entsteht das Dilemma: entweder hat der unbekannte Verfasser nur jene Verse gemacht. die an und für sich bedeutungslos sind. oder auch andere. die. wenn sie von ihm sind. ebenso wahr erscheinen müssen. wie wenn sie von Muhammed selbst stammen; also entsteht bei einer solchen Auffassung derselbe Konflikt.

Ganz unpassend ist hier endlich die Herbeiziehung Dahya's. Denn dieser Mann. der durchaus keine hervorragende Rolle spielt. war nur zufällig zu der Ehre gekommen als dem Gabriel ähnlich angesehen zu werden; er war sogar noch längere Zeit nach der Higra ein Heide. der als Kaufmann umherwanderte. also früher in keiner engeren Beziehung zu Muhammed gestanden haben kann."

إن "هذا الرأي لا يُقبل بحال من الأحوال؛ فكون محمد قد خوطب من الله لا يُعارَض مطلقًا بأسلوب كلامه النبوي(١) في مجمله عل الأقل في الآونة الأولى، التي كان يرى فيها الملكَ بقدر كاف كلما أراد(٢). ولقد أبقى محمد(٣)، في السور الأخيرة، بحكم جريان العادة، على هذا الشكل(٤)، مثل غيره من الأشكال.

على أن معظم الآيات التي يحاول *Weil* أن يستدل بها هي من السور المتأخرة إلى حد ما؛ فهل لم ينتبه محمد لهذا الخداع حتى قبيل الهجرة بوقت قصير؟

وكيف يسوغ لنا بأي حال أن نفكر أن مصلحًا؛ مثل ذلك الذي يُتوسم فيه أن يكون هو المنتجَ الأصليَّ لتلك السور؛ بدلًا من أن يُظهر نفسه؛ يَتوجه بسهولة إلى إنسان مخادع فيضلله تضليلًا ينتقص من صدقية قِيَمِهِ من أجل أن يقوم [ذلك المخادع] بنشر تعاليم ذلك المصلح؟

(١) ليس في القرآن أسلوب كلام نبوي.[المؤلف]

(٢) ليست رؤية الملك راجعة لإرادة النبي؛ فقد أمر الله جبريل أن يقول للنبي: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]. [المؤلف]

(٣) ليس لمحمد دور في هذا. فنولدكه يتحدث هنا وفي خلفيته الفكرية الدور الذي لكتبة العهدين القديم والحديث في التأليف. [المؤلف]

(٤) الذي يخاطب فيه من قبل الله. [المؤلف]

لو كان *Weil* يرى أن تلك الآيات لا تتفق مع الصدق الذي كان متغلغلًا داخل محمد[1] فإن مأزقًا سينشأ من هذا:

فإما أن يكون ذلك المؤلف المجهول قد صنع هذه الآيات وحدها؛ وهي بالنسبة له عديمة الأهمية؛ أو أن يكون قد صنع الأخرى أيضًا ثم بدت بحق كما لو أنها قد صدرت من محمد نفسه. وهكذا تبقى نفس الأزمة *Konflikt* في رأيٍ كهذا".

ثم يرد نولدكه على فايل في استدلاله برواية (أن جبريل كان ينزل في صورة دحية)؛ بالتشكيك في هذه الرواية؛ يقول[2]:

"وبشكل غير ملائم بالمرة؛ يأتي في النهاية إقحام *Weil* لـ (دحية) هنا، لأن هذا الرجل، الذي لم يلعب أي دور مميَّز مطلقًا، جاء تشريفه بشكل عارض عندما أشبه منظرُه جبريل[3]. فلقد كان حتى وقت طويل من الهجرة مشركًا، وكان تاجرًا متجولًا، ولذا لم يكن باستطاعته أن يقيم علاقة وطيدة مع محمد".

وأُضيفُ هنا إلى ما قاله نولدكه من ردود، بعضها جيد، أن الآيات التي خوطب بها النبي في القرآن لم تقتصر على بدايات المرحلة المكية كما زعم فايل، ولا حتى نهاياتها كما أضاف نولدكه؛ بل استمرت في المرحلة المدنية كذلك؛ وذلك مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾[4].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[5].

(١) لا يجوز أن نغتر هنا بحديث نولدكه عن صدق النبي محمد ﷺ في أن الله هو الذي خاطبه (في الآيات التي فيها توجيه خطاب له)؛ فنولدكه يراه مجرد شعور داخلي لدى النبي ليس له واقع خارجي. فالنبي لم يكن يخدعنا حين نسب هذه الآيات لله؛ لأنه شعر بحق أن الله خاطبه، لكن هذا الشعور ليس له ظل من الواقع. [المؤلف].

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٨.

(٣) رَدَدْتُ على هذه الدعوى في الجزء الأول من هذه الدراسة. [المؤلف].

(٤) الأحزاب: ٢٨.

(٥) الأحزاب: ٥٩.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[1].

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[3].

﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[4].

كما عرض نولدكه لادعاء شبرنجر *Sprenger* أن النبي تلقاها من شخص، كان يعمل بنشاط من خلف ستار، أو في تآمر مع النبي؛ وكان هذا الشخص يملي على النبي الآيات التي وُجِّه فيها خطاب له؛ فقال[5]:

"Auch Sprenger (Leben II. 2 348 - 390) gibt sich viele Mühe. zu beweisen. daß "wenigstens noch eine Person hinter den Kulissen tätig war" (S. 366) oder im "Komplotte" mit ihm stand (S. 362). und ist am meisten geneigt. Bahira für diesen Mentor des Propheten und Verfasser der Suhuf zu halten; aber seine Argumente können nicht überzeugen".

"لقد أتعب شبرنجر *Sprenger*[6] نفسه كثيرًا ليدلل على أن شخصًا واحدًا على الأقل

(١) الفتح: ١٥، ١٦.
(٢) الحجرات: ١٤.
(٣) الجمعة: ١١.
(٤) البقرة: ٨٠.
(٥) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٨.
(6) Das Leben und Lehre des Muhammed II . Berlin 1869 . s. 384-390. Vgl. Auch Sprenger . Muhammed und der Qorān. eine psychologische Studie. Hamburg 1889. s. 58. =

كان يعمل بنشاط من خلف ستار[١] أو في تآمر *komplott* معه[٢]. وهو كثيرًا ما كان يميل إلى القول بأن بحيرى كان مرشدًا للنبي ومؤلفًا للصحف".

ورد نولدكه على زعم شبرنجر مستدلًّا بصفات النبي الشخصية فقال[٣]:

"Überhaupt ist es unwahrscheinlich daß ein überlegener und selbstbewußter Geist wie Muhammed derartig in Abhängigkeit von einem Zeitgenossen geraten sei. Am wenigsten darf ein betrügerisches Einverständnis angenommen werden. So viel Fehler er auch besessen hat, sein Lebenund sein Werk haben die Aufrichtigkeit seiner Verkündigung zur unbedingten Voraussetzung (s. oben S. 6)".

إن "أدلته لا يمكن أنْ تُقنع. إنه لمن غير المحتمل أبدًا أن نفسًا متعالية عزيزةً أبيَّة مثلَ محمد؛ كانت في علاقةٍ تبعيةٍ لأحدِ معاصريه، أو على الأقل أن نفترض أن ثمة اتفاقًا تضليليًّا. فبرغم أنه كانت لديه أخطاء كثيرة[٤]؛ إلا أن الإخلاص لدعوته كان هو المميز الأساسي لحياته وعمله".

ثم يحيل نولدكه إلى الصفحة السادسة من كتابه محل الدراسة وليس فيها متعلقًا بهذا إلا هذه العبارة؛ يقول[٥]:

"Die Hauptsache bleibt doch, daß er bis zum letzten Atemzuge für seinen Gott und das Seelenheil seines Volkes, ja der ganzen Menschheit

= ولقد انتقد المستشرق الألماني رودي بارت ما كتبه شبرنجر عن سيرة النبي فقال: "كان من المتوقع أن يتمكن شبرنجر بما بين يديه من مصادر كثيرة كثرةً كبيرةً من كتابة سيرة لمحمد لا تدع مجالًا للنقد أو الأخذ؛ ولكن السيرة التي ألفها خيبت الظنون في أكثر من ناحية، ولم تراع شروط ومتطلبات التقرير العلمي؛ فقد ضلله اتجاهُه إلى النظر للإسلام باعتباره وليد روح عصره، وحملَه على التقليل من شأن شخصية النبي ومن أهمية جهوده التاريخية" رودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ترجمة د. مصطفى ماهر ص٢٣.

(1) *S. 366.*

(2) *S. 362.*

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٨.

(٤) سأعالج في دراسة لاحقة مسألة عصمة النبي ردًّا على اتهامات نولدكه له بارتكاب أخطاء.

(٥) ق١ ص٦.

geeifer. und daß er die feste Geweißheit von seiner göttlichen Sendung nie verloren hat"

وترجمتها:

"إن الشيء الرئيسي الذي بقي عنده حتى آخر رمق هو أنه ظل يجاهد في سبيل ربه لإنقاذ أرواح شعبه؛ بل كل البشرية؛ وأنه كان على يقين جازم في رسالته الإلهية، وأنه لم يفقد هذا اليقين أبدًا".

- إذن فإن نولدكه يرفض تفسير كل من فايل وشبرنجر للآيات القرآنية التي خوطب فيها النبي، ويرى أن تلك الآيات تتفق مع الصدق الذي كان متغلغلًا داخل محمد ﷺ بأن الوحي يأتيه. وتتفق كذلك مع اليقين الجازم لديه في أن رسالته إلهية، وأنه لم يفقد هذا اليقين أبدًا. أي أنه يعيدنا مرة أخرى إلى زعمه عن الصوت الداخلي الذي هو محور النقاش في هذا الجزء.

الوجه السادس: توقيت نزول حكم منع المشركين من المسجد الحرام:

لقد أرسل النبيﷺ في السنة التاسعة، حين فرغ من تبوك، أبا بكر أميرًا على الحج، ولم يذهب هو؛ لأن المشركين كانوا ما زالوا يطوفون بالبيت عراة، وقال: «**لا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك**». فخرج أبو بكر، ونزلت آيات من سورة التوبة بعد ذلك[1]، وفيها: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[2].

ثم دعا علي بن أبي طالب فقال له: «**اخرج بهذه القصة من صدر براءة، وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى، أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان..**»[3].

(١) معنى حديث أخرجه أبو عبيدة: الأموال ١٦٠، وانظر هامش ٥ للمحقق: محمد خليل هراس من نفس الصحيفة.

(٢) التوبة: ٢٨.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ج٤ ص٤٠٤.

إن تأخر نزول المنع يناقض كون الوحي صوتًا داخليًا؛ إذ لو كان كذلك لكان النبي قد رتب كل التكليفات عندما أرسل أبا بكر.

الوجه السابع: الآيات التي تصدم الواقع الجاهلي:

إن وجود هذه الآيات الكريمة في القرآن دليل على مفارقة الوحي الفاعل لذات النبي المنفعلة، وأنه لا يمكن أن يكون صوتًا داخليًا. ولنأخذ مثلًا الآية الكريمة ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾[(١)].

إن النبي كان يعلم من خلال علمه بواقع قومه، ومن خلال مواقفهم السلبية السابقة من قضايا مماثلة عالجها الوحي؛ مدى ما تحدثه العقائد والأخبار الجديدة التي يأتي بها الوحي من ردود أفعال عنيفة من جانب المشركين؛ فلو كان له أدنى اختيار أو تدخل في الموحى به لحرص على أن يكون متوافقًا أو على الأقل غير متصادم مع واقع قومه ومجتمعه، ولو لمدة وجيزة؛ وبخاصة أن ردود أفعالهم كمجتمع جاهلي وثني مقلد كانت شديدة قاسية على المستويين المادي والنفسي.

ولا ينبغي أن نقلل من شأن هذا الأخير بالنسبة لشخصية عظيمة الشعور، مرهفة الحس، عالية الوجدان، مثل شخصية محمد ﷺ، يفعل فيها ألم الاستهزاء والسخرية أكثر مما يفعله الألم الجسدي بغيره. وهذه العقائد التي بلغها النبي هي الحق الذي نزل به الوحي؛ يقول الرازي بشأن آيات المدثر المذكورة:

"فلما ذكره مع علمه بأنهم لا بد أن يستهزئوا به، علم كل عاقل أن مقصوده منه إنما هو تبليغ الوحي، وأنه ما كان يبالي في ذلك لا بتصديق المصدقين ولا بتكذيب المكذبين"[(٢)].

(١) المدثر: ٣١.

(٢) الرازي: التفسير الكبير المجلد١٥ ج٣٠ ص٨٥٠.

الوجه الثامن: النبي يحيل إلى الوحي لتفسير بعض قراراته المصيرية:

لقد وصف الله صلح الحديبية بأنه فتح مبين، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[1]؛ على الرغم من أن النبي حين أمضاه لم يكن لديه تفسير يَرُدّ به على عدم ارتياح عدد من المسلمين (بسبب بعض الملابسات المتعلقة بذلك الصلح وبعض شروطه التي ظنوها مجحفة بالمسلمين).

تتمثل هذه الشروط وتلك الملابسات - حسبما ورد في كتب السنة الصحيحة - في الآتي:

عندما أمر النبي أن يُكتب في أعلى الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم؛ قال سهيل بن عمرو (مفاوض الطرف المشرك): أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو؛ ولكن اكتب: باسمك اللهم، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم؛ فقال النبي ﷺ: «**اكتب: باسمك اللهم**».

وعندما وصف النبي نفسه بالرسالة فقال: «**هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله**»؛ قال سهيل بن عمرو: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله. فقال النبي ﷺ: «**والله إني لرسول الله وإن كذبتموني؛ اكتب: محمد بن عبد الله**».

وعندما طلب منهم النبي أن يسمحوا له بالطواف بالبيت رفض سهيل قائلًا: والله لا تتحدث العرب أنا أُخِذْنا ضغطة؛ ولكن ذلك من العام المقبل؛ فكتب.

واشترط سهيل أنه لا يأتي إلى المسلمين من المشركين رجل مسلمًا إلا ردوه إلى المشركين؛ فقال المسلمون: سبحان الله كيف يُرَدُّ إلى المشركين؛ وقد جاء مسلمًا؟

وقبل أن يتم الانتهاء من الاتفاق دخل المسلمون في اختبار عملي؛ إذ إنه بينما هم كذلك دخل أبو جندل (وهو ابن سهيل بن عمرو مفاوض المشركين) يرسف في قيوده مسلمًا هاربًا من مكة؛ فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إليَّ. فقال النبي ﷺ: «**إنا لم نقضِ الكتاب بعد!**». قال: فوالله إذًا لم أصالحك على شيء أبدًا!!

---

(١) الفتح: ١.

ورفض المفاوض المشرك (الذي هو في نفس الوقت والد المسلم المستغيث) إتمام الصلح. فقال المسلم المستغيث: أُرَدُّ إلى المشركين وقد جئت مسلمًا؟ ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عُذب عذابًا شديدًا في الله.

ولقد كان وقع ذلك شديدًا على نفوس كثير من المسلمين لدرجة أن عمر بن الخطاب أتى النبي فقال: ألستَ نبي الله حقًّا؟ قال: «**بلى!**». قال: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل؟ قال: «**بلى!**». قال: فلم نُعطي الدنية في ديننا إذًا؟ فلم يكن لدى النبي إلا أن يقول: «**إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري**». فقال عمر: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «**بلى؛ فأخبرتك أنا نأتيه العام؟**». قال عمر: لا. فقال النبي: «**فإنك آتيه ومطوف به**»[١].

وبلغ من شدة الأمر على باقي أصحابه أيضًا أن النبي أمرهم أن يقوموا فيتحللوا من نية العمرة بالنحر والحلق أو التقصير؛ فما قام منهم أحد، إلى أن قام النبي بنفسه فنحر وحلق؛ فاستجابوا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا[٢].

وأقول هنا:

إن النبي – قبل نزول الوحي بسورة الفتح – لم يُقدم أي تفسير أو تحليل عقليين يبينان أنه قَبل بهذه الشروط انطلاقًا من خُطة أو "استراتيجية"، ولم يَظهر في تبريره للصلح ما يصفه بأنه فتح؛ ولم يشرح لأصحابه فوائده؛ بل كل الذي فعله هو أنه أحال إلى الوحي بقوله: «**إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري**».

لكن نزل الوحي إلى رسول الله ﷺ بسورة الفتح كلها، وفيها:

- وصف صلح الحديبية بأنه كان فتحًا مبينًا[٣].

(١) قال عمر: (فعملت لذلك أعمالًا). أي: لِتُكفِّر عن إلحاحه على النبي.

(٢) البخاري بشرح ابن حجر ج٥ ص٣٢٩-٣٣٩ الحديثان رقما: (٢٧٣١)، (٢٧٣٢)، وغيره من كتب السنة والسيرة.

(٣) الآيات: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾، =

- امتن على المؤمنين بمنع حصول القتال بينهم وبين الكافرين يوم الحديبية (مع أن جُرم الكافرين كبير بصدهم المؤمنين عن المسجد الحرام). وبرر منعَ القتال بـ(وجود مؤمنين وسط الكافرين في مكة)؛ و(بما سبق في علمه تعالى أن معظم المشركين، الذين يصدون اليوم عن المسجد الحرام؛ سيؤمنون)[1].
- بيَّن صدقَ رؤيا النبي؛ وأكد أنها ستتحقق، فيَدخُل المسلمون المسجد الحرام آمنين، لكن لأنه تعالى يعلم ما لا يعلمون؛ فقد جعل صلح الحديبية بين يدي هذا الدخول، وبين أن الله يفعل ذلك برسوله لأنه هو الذي أرسله بالهدى ودين الحق الذي سيظهر على كل دين[2].
- امتن على الرسول والمؤمنين بإنزال السكينة عليهم لينقادوا لحكم الرسول، ولا يتوقفوا أمام حمية المشركين الجاهلية؛ بل يتجاوزوها إلى تحقيق مراد الله من الصلح. وأثني على بيعتهم للنبي، وبشرهم برضا الله عنهم، ووعدهم فتحًا قريبًا ومغانم كثيرة[3].

= ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

(١) الآيتان: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

(٢) الآيتان: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

(٣) الآيات: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾، ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾.

- أثنى على بعض صفاتهم(١).
- بين حقيقة مواقف المنافقين والأعراب المتخلفين عن الخروج في العام السادس مع النبي بقصد العمرة(٢).

يبدو واضحًا الآن أمام كل ذي نظر صحيح مبرأ من الهوى والغرض، أن رسول الله ما كان في ذهنه شيء من كل تلك التبريرات ليقدمها للمستفسرين عن مغزى الحدث؛ إذ لو كان في ذهنه منها شيء (لحظةَ أنِ اختارَ وقرر، أو لحظة أن استفسر الناس عن دلالة اختياره) لَذَكَرَه، ولما اكتفى بقوله: «**إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري**».

صحيح أن قوله هذا يلخص الأمر ويرده لأصله، لكنه ﷺ كان أمام حالة التباس قوية بين أصحابه الذين بَدَوا غيرَ مستعدين للتنازل عن إتمام العمرة (التي طالما مَنَّوا أنفسهم بها)(٣). فلو كان لديه ﷺ شيء وقتها (مما جاءت به سورة الفتح لاحقًا)؛ لقام - والحدث في قمته - وخطب الناس وبرر لهم ما فعل. لكن هذا لم يحصل. وفي هذا دليل على أن الوحي ليس صوتًا داخليًا للنبي على خلاف دعوى نولدكه.

(١) ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

(٢) ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾، ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ⑪ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾، ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

(٣) قال المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم (مسند أحمد ج٤ ص٣٢٣ رقم (١٨٩٣٠)): (وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا وهم لا يشكون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع وما تحمل رسول الله على نفسه، دخل الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا أن يهلكوا).

حديث نولدكه عن سورة الفتح:

لقد تحدث نولدكه عن تاريخ نزول سورة الفتح على وجه يُبعد بعض آياتها عن أن تَرد دليلًا في موضوعنا هذا:

١- إنه يخالف الروايات الصحيحة فيزعم أن ليس كل سورة الفتح نزل في طريق العودة من الحديبية، وقبل دخول النبي المدينة؛ بل الآيات التي ينطبق عليها هذا - حسب رأيه - هي: الآيات من ١-١٧ فقط. كما يزعم أن الأجزاء المتبقية من السورة نزلت بعد فتح خيبر عام ٧ هـ. ويُفسر أي تناول لأحداث الحديبية في الآيات ١٩، ٢٠، ٢٣، ٢٧ بأنه مجرد رجوع من محمد بالأحداث ليستعيد نتائج الحديبية؛ ليُقنع المسلمين أن الله قد ساعده وقتها كما ساعده في خيبر. يقول[1]:

"توضع سورة الفتح بعد صلح الحديبية، الذي كان في شهر ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة. لكن ما يزعم لكل السورة؛ إنما هو فقط للآيات من ١-١٧ حيث تقع بعيد إمضاء الصلح المذكور. ومن المحتمل بحق أيضًا أن تكون قبل عودة محمد إلى المدينة[2]. وتُظهر لنا هذه الآيات، بشكل أكثر وضوحًا من تقارير المؤرخين، أن محمدًا كان في تلك الآونة فد نوى الاستيلاء على مكة، لكن المتحالفين معه من البدو - الذين تمكن بواسطة عدد أكبر منهم بعد سنتين من أن يحصل عليها دون قتال تقريبًا - خيبوا أمله؛ ومن ثم غير خطته في دخول المدينة المقدسة عنوة[3]، وأبرم مع القرشيين اتفاقًا ضمن له - إلى جانب فوائد أخرى -

---

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢١٥-٢١٧ مع الهوامش.

(٢) ويقول في الهامش هنا "انظر الآية ١١ والآية ١٥: سيقول الذين بقوا في منازلهم (أي عندما تعود)". ونولدكه يشير بهذا إلى قوله تعالى في الآيتين المشار إليهما ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾. ويَفهم بحق من صيغة الاستقبال أن نزول الآيات لا بد أن يكون قبل العودة إلى المدينة.

(٣) هذا ادعاء لا دليل عليه، وليس له وجود في الروايات، كما اعترف نولدكه. فكل الروايات تُجمع أن رسول الله خرج لا يريد قتالًا، وأنه لما كان بذي الحُلَيْفَة قَلَّد الهدي، وأحرم بالعمرة؛ ليأمن الناس من حربه، وأنه قال يومها: «**والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها**». وقال: «**إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين**». (مسند أحمد: مسند=

أن يؤدي الحج العام القادم دون عقبات.

وقد أظهرت النتائج في النهاية أن ذلك الصلح كان نصرًا حقيقيًّا ونجاحًا هائلًا لسياسته[1]. الآية ١٨ وما بعدها[2] [أي إلى نهاية السورة] تنتمي إلى الفترة التي تلت إخضاع يهود خيبر ومن في محيطهم، أي في بداية العام السابع الهجري، وهو الأمر الذي كان قد وعد به محمدٌ الثري *Reichtümer*[3] رفاقَه عند الرجوع من الحديبية[4]؛ ومن هنا فإنه ليس ثمة سبيل آخر لتفسير الآيات ١٩، ٢٠،

= الكوفيين، من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم). كما أن سورة الفتح لا تُشعر به على الإطلاق (كما يتضح من مضمون السورة الذي ذكرته أعلاه). فمن أين جاء نولدكه بهذا الفهم؟ لم يقل لنا أي الآيات تدل على هذا، وما وجه الدلالة؟.

(١) ويقول في الهامش هنا "هكذا تسمح الآية الأولى أن نفسرها بحيث لا نحتاج أن نضعها بعد حرب خيبر (قارن أيضًا التفاسير)". وهو هنا يعترف أن صلح الحديبية كان فتحًا.

(٢) أي من الآية: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

(٣) متى كان رسول الله ثريًّا؟ إن الغنائم التي حصل عليها المسلمون من خيبر وغيرها كانت توزع بالطريقة التي لا يجهلها نولدكه بطبيعة الحال، وما كان رسول الله يُبقي من نصيبه شيئًا؛ فهو الذي كان يؤرقه قبيل وفاته أن في بيته بضعة دنانير لم يُتصدق بها. ألا يسأل نولدكه نفسه: إذا كان رسول الله ثريًّا حقًّا؛ هل انعكس هذا الثراء على حياته؟ ألا يخلف من له هذه الصفة الأموال الكثيرة بعد وفاته؟ فهل خلف الرسول دينارًا أو درهمًا؟ لا أظن مطلقًا أن نولدكه الذي نقب في أعماق المراجع الإسلامية ليستخرج نصوصه الكثيرة ومنها الضعيف الواهي؛ لم يقف على هذا من رسول الله!! فلماذا إذن وصفه بهذا بغير سند تاريخي؟

(٤) ويطلب نولدكه في الهامش هنا أن نراجع الآيتين اللتين تدلان على وعد محمد - كما يزعم - رفاقه عند الرجوع من الحديبية وهما: الآية ١٥: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، والآية ٢٠: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾. ولاحظ التناقض حين تحدث أعلاه عن أن الآيات من ١-١٧ فقط هي التي نزلت قبل خيبر، وأن ١٨ وما بعدها نزلت بعد خيبر؛ ثم يعود هنا - وقد نسي العالم المدقق ما ادعاه - ليقول إن الآية ٢٠ يَعِدُ فيها محمد رفاقه عند الرجوع من الحديبية الغنائمَ!!

٢٧[1]. فبعد أن أحرز (محمد) هذا الانتصار [فتح خيبر] أمكنه أن يرجع بالأحداث ليستعيد نتائج الحديبية؛ لذا تحدث (محمد) كثيرًا عنه في هذا الجزء أيضًا وكانت الآية ٢٣[2] أكثر صراحة، وسعى إلى إقناع المسلمين أن الله قد ساعده وقتها كما ساعده في خيبر. وتخطئ إحدى الروايات في جعل الآية ٢٧ بعد الحج الذي حصل في العام السابع من الهجرة".

وأرد على هذا بالآتي:

أ- أما زعمه أنه لم ينزل من سورة الفتح إلا الآيات من ١-١٧؛ فهو من جانب لا تؤيده الرواية الصحيحة؛ ومن جانب آخر لا تنهض الشواهد التي طَرَحَهَا أن تثبته:

فالرواية الصحيحة تثبت خلاف ما ذكره؛ ففي البخاري[3] أن رسول الله ﷺ قال لعمر: «**لقد أُنزلت عليّ الليلة سورة، لهي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس**»؛ ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾.

وقال السيوطي[4]: (أخرج الحاكم وغيره عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قال: نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية من أولها إلى آخرها).

وقال ابن كثير[5]: "نزلت هذه السورة الكريمة (الفتح) لما رجع رسول الله ﷺ

(١) وهي: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾، ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾، ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

(٢) ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

(٣) البخاري بشرح ابن حجر ج٨ ص٥٨٢ رقم (٤٨٣٣).

(٤) لباب النقول في أسباب النزول ص٣٠٠، وراجع كذلك: مسند أحمد ج١ ص٣٩١ رقم (٣٧١٠)، وج٣ ص٤٨٥ رقم (١٦٠١٨)، وسنن البيهقي كتاب الجزية باب نزول سورة الفتح رقم: (١٨٥٩٣).

(٥) تفسير القرآن العظيم ج٤ ص١٨٥.

من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام فيقضي عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا، ثم يأتي من قابل. فأجابهم إلى ذلك على تَكَرُّه من جماعة من الصحابة؛ منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه".

أما شواهد نولدكه؛ فقد ادعى أن الآيات ١٩، ٢٠، ٢٧ لا تفسَّر إلا بافتراض أنها نزلت بعد خيبر.

والآيات التي يعنيها هي ١٩: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾، و٢٠: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾، و٢٧: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

فبشأن الآيتين ١٩، ٢٠ - اللتين يذكرهما نولدكه - وقبلهما الآية ١٨ فإنها تعلن جميعها رِضَاءَ الله عن المؤمنين المبايعين الذين علم ما في قلوبهم، فأثابهم الفتح القريب (هو صلح الحديبية والمغانم الكثيرة التي ستحصل من جراء فتح خيبر). وفي الآية ٢٠ وعدٌ - مرة أخرى - لهم بحصولهم على مغانم كثيرة، وأن الله عجل لهم الهدنة[1]: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ﴾، وكف بهدنته أيدي الناس عنهم: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾، ووعدَهم بشكل مبطن بفتح خيبر: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾.

ونحن نلاحظ أنها كلها أمور تصلح أن يَعِدَ الله بها النبي والمؤمنين بعيد الحديبية

(١) قال بذلك ابن عباس والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن إسحاق، ورجحه القرطبي، وذلك خلافًا لرأي مجاهد وقتادة - الذي رجحه الطبري - أن الإشارة في قوله تعالى: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ﴾ تعود إلى فتح خيبر. راجع تفاسير: الطبري والقرطبي وابن كثير. وقد تكون الإشارة هنا إلى كلمة: (مغانم) التي سبقت ليكون المعنى: وعدكم الله مغانم كثيرة فعجلها لكم. وعلى أية حال فإنه أيًا ما كان المقصود بالإشارة؛ فلا وجود لما يمنع كون الآية نزلت عند الرجوع من الحديبية.

وقبل فتح خيبر كما وردت بذلك الرواية، وبالتالي فلا يصح ادعاء نولدكه أن لا سبيل لتفسيرها إلا بكونها نزلت بعد خيبر وأنها مجرد استعادة لأحداث الحديبية.

وبشأن الآية ٢٧: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾؛ فهي تؤكد صدق الرؤيا التي رآها رسول الله، وتَعِد المسلمين أنهم سيدخلون الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ في المستقبل بلا خوف ولا قتال؛ وأنه حتى يتحقق عنصر الأمن الذي وعد الله به؛ فقد جعل الفتح القريب (وهو الصلح) يسبق ذلك الدخول.

ولا أدري على أي أساس ادَّعى نولدكه أنه لا سبيل لتفسير هذه الآية سوى كونها نزلت بعد فتح خيبر؛ إذ إنها كما رأينا تحمل وعدًا مستقبليًّا[1]؛ وما دام كذلك فإمكانية تصور أنه نزل مرجع رسول الله من الحديبية تتساوى في الاحتمال مع تصور نزوله بعد خيبر؛ ويترجح الإمكان الأول بالرواية الصحيحة المتقدمة، فيجب أن يصار إليه.

وبشأن الآيات الثلاث معًا ودعوى نولدكه أنه لا سبيل لتفسيرها سوى كونها نزلت بعد فتح خيبر لأنها تَعِدُ المسلمين بغنائم كثيرة هي غنائم خيبر؛ فإن ذلك يأتي في إطار أن نولدكه وغيره من الباحثين الغربيين ينظرون إلى النبي كشخص مبتوت الصلة عن الله ووحيه، ومن ثم لا يَتصورون أن يأتي وعد غنائم خيبر[2] بهذا الوضوح والصراحة والتكرار (٣ مرات) قبل حصول المسلمين عليها بالفعل؛ وبالتالي زعم أنه لا سبيل لتفسير هذا الوعد إلا بكون الآيات نزلت بعد حصول المسلمين على الغنائم بالفعل!!

لكن نولدكه لا يدري – أو لعله يدري ويتجاهل – أنه بذلك تجاوز كل وجه للفهم

(١) تحقق في العام السابع في عمرة القضاء.

(٢) الذي تحقق فعلًا، ولقد قرر نولدكه (تاريخ القرآن بالألمانية ق١ هامش٤ ص٢١٦) أن غنائم خيبر كانت كثيرة جدًّا. ويحيل إلى مراجع ذكرها.

حسب اللغة العربية؛ حيث إن الآيتين ١٩، ٢٠ لا تحتملان إلا الاستقبال ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾، وليس أخذوها، و﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾. فبالإضافة إلى صيغة المضارع في الآيتين التي لا يمكن لغةً أن تأتي للحديث عن الماضي؛ فإن في الثانية ذكرُ (الوعد) الذي لا يتأتى إلا للمستقبل ضرورة.

كما أن نولدكه قد سبق أن رجح احتمال كون الآيتين ١١، ١٥ قد نزلتا عند مرجع رسول الله من الحديبية وقبل خيبر، مستندًا إلى صيغة الاستقبال فيهما: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾، و﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾؛ قائلًا: "هؤلاء الذين بقوا في منازلهم سيقولون (أي: عندما تَعودُ مرة أخرى)".

والسؤال الآن:

لماذا فقط الآيتان ١١، ١٥ هما اللتان يُفهمان على هذا الوجه مع أن صيغة الاستقبال في الآيات الثلاث المذكورات واضحة مثل وضوحها فيهما ويفهمها كل ملم باللغة العربية؟

ولماذا تكون صيغة الاستقبال في: ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ في الآية ١١ مُرَجِّحَةً لدى نولدكه أنها نزلت عند الرجوع من الحديبية دون أن يكون ذلك للآيتين ١٩، ٢٠: ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾، و﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾؟

كما أن نولدكه اعتمد كذلك على وجود صيغة الاستقبال للقول بسبق آية للحدث الذي تعد به؛ وذلك عندما تعرض للآية الكريمة: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾؛ فقد رفض الرأي الذي قال إنه موجود في النسخة الفارسية من تاريخ الطبري؛ وفيه: أنها نزلت بعد عمرة القضاء أي في العام السابع؛ فقال[1]:

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢١٧.

"من الخطأ أن تأتي رواية لتنظر إلى الآية ٢٧ على أنها [نزلت] بعد عمرة العام السابع الهجري". مستدلًا على رأيه بقوله[1]: إن جملة: لتدخلن إن شاء الله؛ تتجه للمستقبل، وهذا لا يعوزنا إلى دليل آخر".

ومرة أخرى نتساءل: لماذا تكون صيغة الاستقبال في آية دليلًا على (سبقها للحدث الذي تشير إليه) ولا يكون الشيء ذاته لآية أخرى فيها صيغة استقبال مشابهة؟ هل شيء سوى إرادة نولدكه؟

هذا بشأن الآيات الثلاث التي استشهد نولدكه بها؛ أما باقي آيات السورة فلا يوجد فيها (حسبما عرضْتها من قبل) ما يمنع أن يكون قد نزل عند رجوع النبي من الحديبية، وكل ما فيها يوضح أن الآيات تعالج أحداثًا في أثناء صلح الحديبية وقبل فتح خيبر.

ب- وأما ما زعمه نولدكه من أن الآيات ١٩، ٢٠، ٢٣، ٢٧ مجرد رجوع من محمد بالأحداث ليستعيد نتائج الحديبية؛ ليُقنع المسلمين أن الله قد ساعده وقتها كما ساعده في خيبر. فهو ترديد للدعوى الاستشراقية الدائمة أن محمدًا هو مصدر القرآن، وهي الدعوى التي ردها كثيرون من علماء المسلمين وبعض الغربيين. وإذا قُرِئت فصول دراستي هذه بتجرد؛ فإن هذه الدعوى سيظهر تهافتها لدى المخدوعين بها.

ولماذا يستبعد نولدكه أن يتم التعرض لنتائج الحديبية إلا بعد فتح خيبر؟ ما الذي يمنع من أن يحصل هذا قبله؟ ليس من جواب لدى نولدكه؟

كما أننا نعرف أسلوب القرآن في استعادة الأحداث، وهو يختلف عن أسلوب الآيات هنا؛ فالاستعادة واضحة؛ مثلًا، في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ هامش ص٢١٧.

ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1]

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[2].

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[3].

ففي هذه الآيات نستطيع أن نتحدث عن منهج الاستعادة القرآني. لكن آيات سورة الفتح (التي يزعم نولدكه أن فيها رجوعًا بالأحداث لاستعادة نتائج الحديبية)؛ ليس في أسلوبها ما يشي بهذا.

ثم إن نولدكه في دعواه (أن الحديث في سورة الفتح عن الصلح تم بعد فتح خيبر) يتكئ بشكل خاص على الآية ٢٣: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾، التي يقول عنها: إنها جاءت أكثر صراحة. وهو يفهم أن ﴿مِن قَبْلُ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾، إشارة إلى صلح الحديبية؛ وهذا خطأ ليس بالهين من عالم كبير مثله؛ لأن الآية التي قبلها تبين أن (الكافرين سيولون الأدبار إن هم قاتلوا تلك الفئة المؤمنة الصادقة المتماسكة، التي بايعت النبي على ألَّا تفر)؛ ومن ثم أفادت الآية التي تليها أن (هذه هي سنة الله؛ أن ينصر الحق الذي استعد على هذا النحو). ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾.

---

(١) التوبة: ٢٥-٢٧.
(٢) التوبة: ٤٠.
(٣) الأنفال: ٢٦.

وقد ورد هذا التعبير في القرآن في أكثر من موضع؛ فقد جرت سنة الله أن لا حرج على الأنبياء فيما فرضه الله لهم: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾. وجرت سنة الله في المنافقين أن يُلعنوا ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾. فليست الإشارة في قوله تعالى ﴿مِن قَبْلُ﴾ إلى يوم الحديبية؛ بل هي تشير إلى سُنّة الله التي مضت في التاريخ كله من قبل. وأعجب: كيف فات نولدكه ذلك؟

وعلى أية حال؛ فإن هذا يبين كيف يستقي نولدكه أدلته، وكيف تتحكم النظرة الجزئية وتغيب النظرة الشاملة عن باحث غربي كبير؛ في حين يستمر زملاؤه في رمي الباحثين المسلمين بهذا العيب!!

ج- وعندما جاء نولدكه إلى الآيتين ١٨، ٢٧ فجعلهما بعد خيبر فإن ذلك يقتضي ألا يكون المقصود بالفتح صلح الحديبية وهذا يخالف سياق الآيتين والرواية الصحيحة؛ فبعد نزول الوحي بتسميته فتحًا؛ سماه رسول الله كذلك؛ ففي الحديث أن النبي سئل بعد نزول سورة الفتح وتلاوتها على الناس: أَوَفَتْحٌ هو؟ قال: «**والذي نفس محمد بيده إنه لفتح**»[(١)].

وجاءت تسميته كذلك على ألسنة الصحابة، فقد أخرج البخاري[(٢)] عن البراء رضي الله عنه قال: (تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية).

وورد مثله عن ابن مسعود وجابر بن عبد الله وأبي سفيان[(٣)]. كما ينقل ابن هشام[(٤)]عن الزهري قوله: (ما فُتِحَ في الإسلام فَتْحٌ قبله كان أعظم منه. إنما كان

(١) مسند أحمد ٣ ص٤٨٥ رقم (١٦٠١٨).

(٢) بشرح ابن حجر ج٧ ص٤٤١ رقم (٤١٥٠).

(٣) راجع تفسير ابن كثير ج٤ ص١٨٥-١٨٦.

(٤) السيرة النبوية ج٣ ص٢٤٠. وراجع سنن البيهقي كتاب الجزية باب نزول سورة الفتح على رسول الله مرجعه من الحديبية (١٨٥٨٣)، (١٨٥٩٤).

القتال حيث التقى الناس. فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضًا والتقوا؛ فتفاوضوا في الحديث والمنازعة؛ فلم يُكَلَّم أحد في الإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه. ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر)، ثم يؤيد ابن هشام هذا فيقول[1]: (والدليل على قول الزهري أن رسول الله خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر بن عبد الله؛ ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف).

وقال ابن كثير لتوجيه سبب تسميته فتحًا[2]: (إنه حصل بسببه خير جزيل، وأمن الناس، واجتمع بعضهم ببعض، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان).

الوجه التاسع: وجود حالتين نفسيتين مختلفتين متزامنتين مما يعني بالضرورة انتماءهما لذاتين مختلفتين:

وأعني هنا (تعقيب رسول الله على إباحة الوحي له سؤال أهل الكتاب لرفع الشك عنه)؛ وذلك في قول الله تعالى للنبي: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾[3].

فقد ثبت أن ابن عباس[4] قال: لم يشك رسول الله ﷺ ولم يسأل. وروي مثله عن سعيد بن جبير والحسن البصري ... وروي عن قتادة قال: ذُكر لنا أن رسول الله ﷺ قال: **«لا أشك ولا أسأل»**[5].

---

(١) السيرة النبوية ج٣ ص٢٤٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم ج٤ ص١٨٦.

(٣) يونس: ٩٤.

(٤) القاضي عياض: الشفا ج٢ ص٩٠، وراجع: الشيخ محمد عبده: المنار ج١١ ص٣٩٢ التفسير الكبير: الرازي مجلد ٨ ص٤٤٧.

(٥) ذكر القاضي عياض قول الرسول هذا في الشفا ج٢ ص٩٠، كما ذكره السيوطي في شرح سنن ابن ماجه ص٢٩١ رقم (٤٠٢٦)، وراجع الطبري في تفسير الآية ٩٤ يونس.

إننا نجد هنا رسول الله ينفي الشك والحاجة للسؤال عن نفسه. وهذا يُشَكِّل تمامًا شعوره الداخلي واطمئنانه النفسي لما أنزله الله إليه... ومَن يأتي شعوره الداخلي على هذا النحو؛ لا يُتصور أن يصدر منه السؤال الوارد في الآية الكريمة؛ إذ إن إباحة السؤال والتعقيب عليه ينتميان بالضرورة إلى حالتين نفسيتين مختلفتين، ولا يتصور اجتماعهما معًا في شخص واحد؛ بل لا بد من وجود ذاتين منفصلتين تمامًا: إحداهما متعالية ترفع الحرج عن رسول الله إن هو سأل من أجل إزالة الشك؛ والأخرى هي ذات الرسول تعلن عدم حاجتها للسؤال لانتفاء الشك أصلًا؛ وعليه فلا يمكن أن تكون هذه الحالة صوتًا داخليًا للنبي.

وبعد؛

فقد أظهرت هذه الوجوه التسعة أن ما نسميه واقع علاقة النبي بالقرآن يتناقض تمامًا مع افتراض نولدكه أن وحي الله إلى محمد لم يكن سوى صوت محمد الداخلي؛ وبالتالي فإن هذا الوحي لا يمت لذات محمد ﷺ بصلة وليس نابعًا منها، ولا صوتًا داخليًا فيها.

***



المبحث الثاني
تناقض قوله بالصوت الداخلي مع حالة الوحي ذاتها

نثبت هنا أن وجوهَ تناقضٍ موجودة بين (ما ثبت عن حالة الوحي إلى النبي من أخبار) وبين (افتراض نولدكه الواهي أن الوحيَ إليه ﷺ لم يكن سوى صوتِه الداخلي).

إننا إن نظرنا للثابت بالروايات الصحيحة مما يمكن أن نسميه: (حالة الوحي إلى محمد ﷺ) لوجدناها تتمثل في أمور أهمها:

- شمول الوحي إلى النبي غيرَ الإنذار.
- تأخر الوحي عنه ﷺ على الرغم من توافر شعور داخلي لديه متعجل له في بعض الأحيان.
- ليس له أوقات خاصة أو استعدادات خاصة.
- له بعد موضوعي.

وهي أمور تتناقض مع افتراض نولدكه أن وحي محمد ﷺ هو صوته الداخلي؛ وهذا إجمال يحتاج للتفصيل:

الوجه الأول: شمول الوحي غيرَ الإنذار:

إذا كان نولدكه يفسر وحي الله إلى محمد ﷺ بزعمه أن النبي دخل في خلوة طويلة؛ تفاعلت بداخله أثناءها أفكار الغرباء (يقصد أهل الكتاب)؛ فنشأ صوت داخلي ظنه وحيًا من الله. وأن هذا الصوت أعطاه قوة كبيرة على إنذار المشركين؛ فما قوله في الوحي الذي لا يتعلق بإنذار أو تبليغ؟

وأمثلته كثيرة، منها:

(جاء جبريل إلى النبي ﷺ وعنده خديجة وقال: إن الله يقرئ خديجة السلام. فقالت: إن الله هو السلام، وعلى جبريل السلام، وعليك السلام ورحمة الله)[1]. كما ثبت أن جبريل، بالإضافة لهذا، بشر خديجة على لسان النبي ببيت في الجنة[2].

إننا نجد أنه في الوقت الذي جعل فيه نولدكه الصوت الداخلي متعلقًا فقط بإنذار محمد قومه؛ وجدنا الوحي يشمل الإنذار وغيره.

الوجه الثاني: تأخر الوحي عنه ﷺ على الرغم من الحاجة الماسة إليه، وتوافر شعور داخلي متعجل له[3].

يظهر هذا في الحالتين الآتيتين:

١- الحالة التي تأخر الوحي عنه ﷺ فيها رغم الحاجة الماسة إليه:

لقد حدث أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ بعض الأسئلة؛ ومنها سؤال عن أهل الكهف، فوعد رسول الله - كما يقول الطبري[4] - (أن يجيبهم عنهن غدَ يومِهم، ولم يستثن، فاحتبس الوحي عنه فيما قيل من أجل ذلك خمس عشرة، حتى حزنه إبطاؤه، ثم أنزل الله عليه الجواب عنهن، وعرف نبيه سبب احتباس الوحي عنه، وعلَّمه ما الذي ينبغي أن يستعمل في عِدَاته، وخَبَّرَه عما يحدث من الأمور التي لم يأته من الله بها تنزيل).

وجاء في البخاري[5] أن رسول الله قال: «**يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا**». فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا

(١) النسائي: السنن الكبرى ج٥ ص٩٤ رقم (٨٣٥٩)، وج٦ ص١٠١ رقم (١٠٢٠٦).

(٢) مسلم بشرح النووي مجلده ج١٥ ص١٩٩ رقم (٢٤٣٢).

(٣) على صلة بهذا أيضًا أن الوحي لم يكن له وقت معين ولا حال معين.

(٤) في تفسير الآية ٢٤ الكهف.

(٥) بشرح ابن حجر ج٨ ص٤٢٩ رقم (٤٧٣١).

كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾[1]. وعند ابن إسحاق[2] عن ابن عباس أن قريشًا لما سألوا عن أصحاب الكهف فمكث النبي ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له في ذلك وحيًا. فلما نزل جبريل قال له: «**أبطأت!**». فأوحى الله إلى جبريل قل له: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾[3].

ولعل هذا هو وجه قول الله لنبيه: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾[4].

إن الذين يزعمون أن وحي الله لمحمد ﷺ كان ذاتيًا أو صوتًا داخليًا لا يستطيعون تفسير ذلك التوقف إلا بالاعتراف الصريح بكونه خارجًا عن النبي؛ لأنه لو كان ذاتيًا؛ فلماذا يتوقف على الرغم من وجود الحاجة الماسة إليه؟

٢- **الحالة التي تأخر الوحي فيها على الرغم من توافر شعور متعجل له هي: حادثة الإفك:**

إن المتأمل لتلك الحادثة يخرج بانطباع مؤكد؛ مؤداه: المفارقة التامة بين ذات النبي والوحي؛ وهذا يتضح من الآتي:

أ- إن القصة كما ترويها عائشة[5] أن رسول الله اصطحبها في غزوة غزاها، وعند العودة انقطع عقدها فالتمسَتْه، وأقبل الرهط الذين كانوا يقودون رحلها، فاحتملوا هودجها - وهم يحسبون أنها فيه - وساروا. ولما وجدت عقدها جاءت منازلهم فلم تجد أحدًا، فعادت إلى منزلها الذي كانت به، وظنت أنهم سيفقدونها فيرجعون إليها. فبينا هي جالسة في منزلها غلبها

(١) مريم: ٦٤.
(٢) ورد ذلك في ابن حجر: الفتح ج٨ ص٤٢٩ رقم (٤٧٣١)، وراجع السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص١٨١.
(٣) مريم: ٦٤.
(٤) الكهف: ٢٣، ٢٤.
(٥) البخاري بشرح ابن حجر ج٨ ص٤٥٢ رقم (٤٧٥٠).

النوم فنامت. وجاء في الصباح صفوان بن المعطل السلمي الذي كان من وراء الجيش، فأصبح عند منزلها فعرفها فقال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[1].

تقول عائشة: (فخمَّرت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه). وركبتْ عائشة على راحلته، وانطلق يقودها، حتى أتيا الجيش بعد وقت قصير في الظهيرة. تقول عائشة: (فهلك من هلك، وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول. فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمت شهرًا - والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك - لا أشعر بشيء من ذلك. ويريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنتُ أرى منه حين أشتكي. إنما يدخل عليَّ رسول الله ﷺ فيسلم، ثم يقول: «كيف تِيكُم؟». ثم ينصرف، فذاك الذي يريبني).

ولم تكن عائشة تشعر بما يقال عنها حتى أخبرتها أم مسطح بن أثاثة (خالة أبي بكر) بقول أهل الإفك، ومنهم: ابنها مسطح، فازداد مرضها. تقول: (فلما رجعتُ إلى بيتي، ودخل عليَّ رسول الله ﷺ؛ تعني: سَلَّم؛ ثم قال: «كيف تيكم؟». فقلت: أتأذن لي أن آتي أبويَّ؟ وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قِبَلهما، فأذن لي. فجئت أبويَّ فقلت لأمي: يا أمتاه ما يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية هوني عليك! فوالله لَقَلَّما كانت امرأة قطُّ وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا كثَّرن عليها، فقلت: سبحان الله!! ولقد تحدث الناس بهذا؟ فبكيتُ تلك الليلة حتى أصبحتُ لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكي. فدعا رسول الله علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد - حين استلبث الوحي - يستأمرهما في فراق أهله. فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود، فقال: يا رسول الله! أهلُك، وما نعلم إلا خيرًا. وأما علي ابن أبي طالب فقال: يا رسول الله! لم يضيق الله عليك، والنساء سواها

(١) البقرة: من الآية ١٥٦.

كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك. قالت: فدعا رسول الله بريرة، فقال: «**أي بريرة، هل رأيت من شيء يريبك؟**». قالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق، إن رأيت عليها أمرًا أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله.

فقام رسول الله فاستعذر يومئذ من عبد الله بن أبي بن سلول؛ فقال وهو على المنبر: «**يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي**». فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: يا رسول الله، أنا أعذرك منه إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. فقام سعد بن عبادة – وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلًا صالحًا، ولكن احتملته الحمية – فقال لسعد: كذبت لعمرُ الله لا تقتلهُ، ولا تقدر على قتله! فقام أسيد بن حضير – وهو ابن عم سعد – فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمرُ الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين. فتثاور الحيان: الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر. فلم يزل رسول الله يخفضهم حتى سكتوا وسكتَ. فمكثت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، فأصبح أبواي عندي – وقد بكيتُ ليلتين ويومًا، لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع – يظنان أن البكاء فالق كبدي. قالت: فبينما هما جالسان عندي – وأنا أبكي – فاستأذنتْ عليَّ امرأة من الأنصار، فأذنتُ لها، فجلست تبكي معي.

فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله؛ فسلَّم ثم جلس، ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها. وقد لبثَ شهرًا لا يوحى إليه في شأني. قالت: فتشهد رسول الله حين جلس، ثم قال: «**أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنتِ بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله**

تاب الله عليه». قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة. فقلت لأبي: أجب رسول الله ﷺ فيما قال. قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله. فقلت لأمي: أجيبي رسول الله. قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله. فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرًا من القرآن: إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة - والله يعلم أني بريئة - لا تصدقونني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أني منه بريئة لتُصَدِّقُنّي!! والله ما أجد لكم مثلًا إلا قول أبي يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[1].

ثم تحولتُ فاضطجعت على فراشي. وأنا حينئذ أعلم أني بريئة، وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحيًا يتلى؛ ولَشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى؛ ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها. فوالله ما رام رسول الله ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أُنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق وهو في يوم شاتٍ من ثقل القول الذي ينزل عليه. فلما سُرِّيَ عن رسول الله سري عنه وهو يضحك؛ فكانت أول كلمة تكلم بها: «**يا عائشة! أما الله عز وجل فقد برأك**». فقالت أمي: قومي إليه. فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله عز وجل. وأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2] العشر الآيات كلها... قالت عائشة: وكان رسول الله يسأل زينب ابنة جحش عن أمري فقال: «**يا زينب، ماذا علمت أو رأيتِ؟**». فقالت: يا رسول الله! أحمي سمعي وبصري، ما علمت إلا خيرًا. قالت عائشة:

(١) يوسف: ١٨.
(٢) النور: ١١.

وهي التي كانت تساميني من أزواج رسول الله، فعصمها الله بالورع؛ وطفقت أختها حمنة تحارب لها، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك. ثم أمر رسول الله بمسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضُربوا حدهم)[1].

ب- نلاحظ هنا وجود الضرورة الملحة والحاجة الماسة لنزول الوحي سريعًا؛ فهناك ضرر بالغ لحق بعائشة زوج النبي. وهناك مكر سيئ لمروجي الإفك، إذ كان قصدهم طعن مقام النبوة، وليس فقط التهجم على عائشة. وثمة حالة من القلق والترقب والاحتقان كان يعيشها المجتمع المسلم بسبب هذا الحادث؛ وعلى الرغم من ذلك يتأخر نزول الوحي في هذا الشأن شهرًا: (وقد لبث شهرًا لا يوحى إليه في شأني).

فلو كان النبي مصدرًا للوحي، أو لو كان الوحي هو صوت النبي الداخلي؛ فلماذا تأخر حسمُ الوحي لهذه القضية شهرًا كاملًا؟

إن تأخر نزول الوحي طيلة شهر كامل على الرغم من حاجة النبي وحاجة المجتمع الشديدة لنزوله؛ لهو دليل على تميز ظاهرة الوحي عن ذات النبي وإرادته؛ فالوحي من عند الله ينزله الله في الوقت الذي يريد.

ج- كما نلاحظ كذلك عدم تكوين النبي - بشأن براءة عائشة - (رؤية متكاملة واضحة بدليلها) قبل نزول الوحي عليه. قال العلامة ابن حجر[2]: (وفيه أن النبي كان لا يحكم لنفسه إلا بعد نزول الوحي؛ لأنه لم يجزم في القصة بشيء قبل نزول الوحي)، ويؤدي هذا في الشأن الذي معنا، إلى اليقين أن ذات النبي لم يكن لها أدنى علاقة من قريب أو بعيد بوحي براءة عائشة، ونصل لهذا اليقين من (نظرنا للجانبين): جانب النبي، وجانب عائشة وأبويها.

(١) من رواية ابن إسحاق في السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٢٤.
(٢) الفتح ج٨ ص٤٨٠.

أما جانب النبي؛ فإن الأمر يتضح لنا من خلال الجدول(أ)؛ حيث يتضح الفارق بين موقِفَي النبي ﷺ (قبل وحي تبرئة عائشة) و(بعده).

لقد كان النبي قبل ذلك الوحي (على الرغم من ثقته في عائشة هي وصاحبه: دينًا وخلقًا)؛ قد هبط بمستوى الود معها إلى حدوده الدنيا، واستشار في فراقها، ولم يكن لديه دليل على براءتها سوى ثقته في دينها، وكاد أن يحسم الأمر معها؛ بأن بين لها أنها بين أمرين: إما أن يبرئها الله إن كانت بريئة، أو تتوب وتستغفر إن كانت ألمت بذنب[1].

وثقة رسول الله، التي أعلنها قبل وحي براءتها على المنبر، لم يُعلنها قرآنًا، بل كلامًا عاديًّا.

أما بعد الوحي فقد تلاشى تمامًا احتمال إثمها، وثبتت بيقين براءتها، وضحكَ رسول الله لها، وبشرها، وأعلن على المسلمين ما نزل بشأنها من القرآن[2] الذي نزل للتو، مسبوقًا بالمظاهر التي كانت تعتري رسول الله عند الوحي.

ونصل بالنظر لهذا الجانب إلى أن ذات النبي كانت بمنأى عن أن يكون لها أي دور في آيات البراءة سوى تلقيها وحيًا من الله؛ ولو ادعى نولدكه أن الوحي الذي نزل بهذا الشأن كانت له علاقة بذات النبي؛ أو أنه كان صوته الداخلي؛ لكان قد أسقط كافة الفوارق التي أظهرتها المقارنة المذكورة؛ وهو الأمر الذي لا يتفق وقواعد المنهج العلمي.

---

(١) ولا يلزم هنا حد؛ لأنه لا يتأتى إلا بشهود أربعة أو بإقرار، وليس ثمة شيء منهما.

(٢) الآيات من ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إلى ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

الجدول (أ) مقارنة بين محمد ﷺ الزوج النبي قبل وحي تبرئة عائشة وبعده

محمد ﷺ الزوج النبي قبل وحي تبرئة عائشة	محمد ﷺ الزوج النبي بعده
معاملته لها: (لا أعرف من الرسول اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل عليَّ فيسلم ثم يقول: «**كيف تيكم؟**»). يستشير في فراقها: فدعا الرسول عليًّا وأسامة -حين استلبث الوحي- يستأمرهما في فراق أهله. إعلانه ثقته في زوجته وصاحبه: فقال وهو على المنبر: «**يا معشر المسلمين! من يعذرني من رجل (المنافق ابن سلول) قد بلغني أذاه في أهل بيتي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي**». خياران يطرحهما على عائشة، أحدهما يحتمل أنها ألمت بذنب: «**أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنتِ بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه**».	فجأة الوحي ومظاهره: (فوالله ما رام رسول الله ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أُنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق وهو في يوم شاتٍ). تلاشي احتمال إثمها، ويقينية براءتها، وتغير معاملته لها وتبشيرها: فلما سري عن رسول الله سري عنه وهو يضحك؛ فكانت أول كلمة تكلم بها: «**يا عائشة، أما الله عز وجل فقد برأك**». محتوى وحي التبرئة: ونزل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا﴾ الآيات؛ وفيها: وعيد لمن تولى كبره، وتربية للمؤمنين أن يظنوا بأنفسهم خيرًا، وألا يقولوا بأفواههم ما ليس لهم به علم، وألا يستهينوا بأمر التجني بمثل هذه الدعاوى، وألا يتبعوا خطوات الشيطان. وفيها كذلك بيان أن الواجب في مثل تلك الحالات المجيء بأربعة شهداء، ومن لم يأت بهم فهو كاذب مفترٍ، عليه حد القذف.

وفي جانب عائشة وأبويها؛ فبالإضافة إلى قول عائشة في الرواية التي معنا - كما جاء في رواية ابن إسحاق -: (فأما أنا؛ فوالله ما فزعت ولا باليت، قد عرفت أني بريئة وأن الله غير ظالمي. وأما أبواي؛ فوالذي نفس عائشة بيده؛ ما سري عن رسول الله حتى ظننت لتخرجن أنفسهما؛ فرقًا من أن يأتي من الله تحقيق ما يقول الناس)[1] وقال أبو بكر: (فجعلت أنظر إلى رسول الله أخشى أن ينزل من السماء ما لا مرد له، وأنظر إلى وجه عائشة فإذا هو منبق - أبيض مثل النبق - فيطمعني ذلك فيها)[2].

---

(١) في السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٢٤.

(٢) في رواية ابن جريج كما ذكر ابن حجر: الفتح ج٨ ص٤٧٦.

فنلاحظ هنا أن عائشة فوضت أمرها تمامًا إلى الله تعالى، منتظرةً أن يوحي إلى نبيه ببراءتها منامًا؛ ولما نزلت آياتُ براءتها رفضت عائشة أن تستجيب لأمها في دعوتها إياها للقيام للرسول، وقالت: (لا أقوم إليه، لا أحمد إلا الله عز وجل).

ونصل بنظرنا لهذا الجانب إلى أن ظن عائشة تصديق رسول الله ما قيل عنها، وارتكانها إلى الله وحده لتبرئتها، وقصرها الشكر لله وحده بعد براءتها.. كل ذلك يؤكد إيمانها المطلق بأن آيات براءتها منفصلة تمامًا عن ذات النبي، وليست بأي حال نتاجًا لهذه الذات. وكان هذا كذلك شأن أبيها وأمها.

الوجه الثالث: لا أوقات ولا استعدادات خاصة لوحي الله إلى محمد ﷺ بخلاف ما يتوقع للصوت الداخلي المزعوم:

إن وحي الله إلى محمد ﷺ لم تكن له استعدادات خاصة يجريها محمد ﷺ على نفسه حتى يستجلب بها الوحي؛ فمجيئه إياه لم يكن مرتبطًا بزمان ولا مكان، (فالوحي ينزل على النبي في الليل الدامس والنهار الأضحيان، وفي البرد القارس أو لظى الهجير، وفي استجمام الحضر أو أثناء السفر، وفي هدأة السوق أو وطيس الحرب، وحتى في الإسراء إلى المسجد الأقصى والعروج إلى السماوات العلا)[(١)].

إن الوحي ينزل عليه (في كل لحظة: إنه ليأوي إلى فراشه، فما يكاد يغفو إغفاءة حتى ينهض ويرفع رأسه مبتسمًا؛ فقد أُوحيت له سورة الكوثر. وإنه ليكون وادعًا في بيته - وقد بقي من الليل ثلثه - فتنزل عليه آية التوبة في الثلاثة الذين خلفوا)[(٢)].

ومن أجل أن يكون حاضرًا في وعي النبي عدم خضوع الوحي لخطته أو لإرادته؛ أمر الله جبريل أن يقول للنبي: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[(٣)].

(١) البرهان ج١ ص١٩٨. عن صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن ص٣٦.

(٢) صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن ص٣٦.

(٣) مريم: ٦٤.

ولقد أتاه الوحي وهو يأكل؛ فعن عائشة قالت: خرجت سودة لحاجتها ليلًا، بعدما ضرب عليهن الحجاب، قالت: وكانت امرأة تفرع النساء جسيمة، فوافقها عمر، فأبصرها، فناداها: يا سودة، إنك والله ما تخفين علينا إذا خرجت، فانظري كيف تخرجين؟ أو كيف تصنعين؟ فانكفأت، فرجعت إلى رسول الله ﷺ- وإنه ليتعشى - فأخبرته بما قال لها عمر - وإن في يده لعرقًا - فأوحي إليه ثم رفع عنه، وإن العرق لفي يده. فقال: «**لقد أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن**»[1].

وجاءه وقد استعد للنوم فأمره بالخروج إلى المقابر للاستغفار للموتى؛ فقد ورد في الحديث عن السيدة عائشة[2] قالت: (لما كانت ليلتي التي كان النبي فيها عندي، انقلب، فوضع رداءه، وخلع نعليه فوضعهما عند رجليه، وبسط طرف إزاره على فراشه فاضطجع؛ فلم يلبث إلا ريثما ظن أن قد رقدت؛ فأخذ رداءه رويدًا، وانتعل رويدًا، وفتح الباب فخرج ثم أجافه[3] رويدًا، فجعلتُ درعي في رأسي، واختمرت، وتقنعت إزاري، ثم انطلقت على إثره حتى جاء البقيع، فقام فأطال القيام، ثم رفع يديه ثلاث مرات، ثم انحرف فانحرفت، فأسرع فأسرعت، فهرول فهرولت، فأحضر فأحضرت، فسبقته فدخلت، فليس إلا أن اضطجعت فدخل فقال: «**ما لك يا عائش حشيا رابية!**». قالت: قلت: لا شيء! قال: «**لتخبريني أو ليخبرني اللطيف الخبير!**». قالت: قلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي. فأخبرته. قال: «**فأنت السواد الذي رأيت أمامي؟**». قلت: نعم، فلهدني في صدري لهدة أوجعتني، ثم قال: «**أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله؟**». قالت: مهما يكتم الناس يعلمه الله، نعم. قال: «**فإن جبريل أتاني حين رأيت فناداني فأخفاه[4] منك، فأجبته فأخفيته منك[5]، ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك؛ وظننتُ أن قد رقدت فكرهتُ أن أوقظك، وخشيت أن تستوحشي؛ فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع**

(١) مسند أحمد ج٦ ص ٥٦ رقم (٢٤٣٣٥)، والحديث في البخاري كذلك.

(٢) مسلم بشرح النووي المجلد٣ ج٧ ص٤٢ وما بعدها رقم (٩٧٤)، وقوله: «**حشيا رابية**». بمعنى: ما لك قد وقع عليك الحشأ؟ وهو الربو والتهيج الذي يعرض للمسرع في مشيته والمحتد في كلامه من ارتفاع النفس وتواتره. راجع النهاية في غريب الأثر ج١ ص٣٩٢.

(٣) أغلقه.

(٤) أي: أخفى النداء عنك.

(٥) أي: أخفيت الإجابة عنك.

فتستغفر لهم». قالت: قلت: كيف أقول لهم يا رسول الله؟ قال: «**قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وإنا إن شاء الله بكم للاحقون**».

فنلاحظ هنا أن النبي جهز نفسه لينام، بأن وضع رداءه، وخلع نعليه، وبسط طرف ردائه على فراشه ثم اضطجع، لكن جبريل فاجأه، وفي هذا دلالة على أن مجيء جبريل لم تكن له إجراءات أو استعدادات خاصة يجريها النبي على ظاهره أو باطنه.

وجاءه وهو يسير؛ فهذا عبد الله بن مسعود يشهد؛ فيقول: لما أقبلنا من الحديبية.. فبينا نحن نسير، إذ أتاه الوحي، قال: وكان إذا أتاه اشتد عليه؛ فلما سري عنه أخبرنا أنه أنزل عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[(١)].

الوجه الرابع: البعد الموضوعي للوحي يتناقض مع ذاتية الصوت الداخلي:

إن الناظر لوحي الله إلى محمد ﷺ يجد أنه ارتبط بعدة مظاهر حسية واضحة تخرج به عن كونه صوتًا داخليًّا ذاتيًّا كما ادعى نولدكه. كما يجد أن الآخرين عاينوا وحي النبي وشاركوه - على نحو ما - الشعورَ به.

وسأتناول هنا هاتين الملاحظتين بشيء من التفصيل:

الملاحظة الأولى: ارتباط وحيه ﷺ ببعض المظاهر الحسية:

يمكن الحديث هنا عن جانبين:

الجانب الأول: المظاهر الحسية المتعلقة بالنبي ذاته؛ ويدخل هنا:

أ- المظاهر الحسية التي صاحبت ظهور جبريل لأول مرة للنبي ﷺ؛ من قبيل: أخذِ الملك له، وضغطِه ضغطًا شديدًا حتى بلغَ من النبي الجهدُ، ورجفَ قلبُه، وشعرَ بالبرد الشديد، فطلب التدفئة من زوجته. ثم رؤيةِ النبي بعد ذلك جبريلَ جالسًا على كرسي بين السماء والأرض قائلًا له: «**يا محمد، أنا**

(١) تفسير الطبري رقم (٢٤٣٤٣)، ورواه أحمد ١/ ٣٨٦ و٣٩١.

جبريل، وأنت رسول الله...» الحديث[1]. كما ثبت كذلك أن رسول الله رأى جبريل له ستمائة جناح[2].

وفي ابن هشام[3] نجد قول النبي: «**فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتًا من السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل، قال: فرفعت رأسي إلى السماء أنظر، فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء، يقول: يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل... وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك...**».

وقد يرى بعض المشككين أن عدم معاينة خديجة ما يعاينه النبي ﷺ من أمور الوحي دليل على كون الوحي أمرًا ذاتيًّا خاصًّا به، ليس له موضوع خارجي؛ لكن ذلك غير صحيح؛ يقول مالك بن نبي[4]:

(قد يرى عصرنا المغرم بالعلوم في هذا الذي حدث دليلًا على ظاهرة ذاتية محضة؛ لأن الرؤية موضوع الظاهرة لم تحدث في حضور خديجة. لكن هذا الخروج على القاعدة ليس عسيرًا على الفهم من الناحية الحسية؛ فإن عمى الألوان مثلًا يقدم لنا حالة نموذجية لا يمكن أن تُرى فيها بعض الألوان بالنسبة لكل العيون، وهناك أيضًا مجموعة من الإشعاعات الضوئية دون الضوء الأحمر وفوق الضوء البنفسجي لا تراها أعيننا، ولا شيء يثبت علميًّا أنها كذلك بالنسبة لجميع العيون؛ فقد توجد عيون يمكن أن تكون أقل أو أكثر حساسية أمام تلك الأشعة، كما يحدث في حالة الخلية الضوئية الكهربية).

(١) تاريخ الطبري ج٢ ص٢٩٨ - ٢٩٩.
(٢) البخاري بشرح ابن حجر ج٦ ص٣١٣ رقم (٣٢٣٢)، وراجع: مسلم بشرح النووي مجلد١ ج٣ ص٣.
(٣) ج١ ص١٤٧.
(٤) الظاهرة القرآنية ١٥٠.

ب- مجموعة الأعراض التي ثبت أنها كانت تحصل لرسول الله عند تلقي الوحي. فلقد ذكرنا في الجزء الأول عند ردنا دعوى نولدكه: (كون وحي الله لمحمد ﷺ أثرًا لمرض نفسي) ثبوتَ أعراضٍ للوحي إلى رسول الله تحدث عنها هو نفسه، وشهد بها أصحابه الذين كانوا شهود عيان لنزول الوحي عليه طيلة ثلاث وعشرين سنة.

يقول أ. مالك بن نبي[1]: (لقد استطاع أصحابه أن يلاحظوا كلما نزل الوحي شحوبًا مفاجئًا يتبعه احتقان في وجه النبي، وهو نفسه يدرك ذلك). كما أثبتنا هناك أن الوحي القرآني كله وبعض الوحي غير القرآني قد سبق بالشدة على النبي.

ونخلص بالنظر إلى هذا الجانب إلى أن المظاهر الحسية التي واكبت ظهور جبريل للنبي أول مرة لم تقتصر على زاوية إدراكية بعينها؛ بل اشترك في تحصيل وعي النبي بها (إلى جانب العلم الضروري الذي خلقه الله فيه) السمعُ والبصرُ والكلامُ، بل الجسد كله الذي ضُغط وخاف وشعر بالبرد. كما نلحظ فيها التكرار والإلحاح، ولم تكن مجرد مرة منعزلة يمكن نسبتها إلى وهم أو اختلاط. وهذا كله يبعد لحظة الوحي الأول عن إطار الذاتية أو الصوت الداخلي الذي لا يمكن أن تنشأ عنه تلك المظاهر. كما أننا نحصل على نفس النتيجة من استمرار ظهور أعراض الوحي على النبي طيلة فترة نزوله عليه.

الجانب الثاني: مظاهر الوحي الحسية المتعلقة بغير النبي؛ ويدخل هنا:

أ- تأثير الوحي على من يجاورون النبي؛ فقد أخبر عمر بن الخطاب بصفته شاهد عيان لظاهرة الوحي أن من يجلس بجوار النبي كان يُسمع عنده أو عند وجهه أثناء الوحي (دَوِيٌّ كدَوِيِّ النحل)[2].

(١) الظاهرة القرآنية ١٥٣

(٢) سنن الترمذي ج٥ ص٣٢٦ رقم (٣١٧٣)، ابن حجر: الفتح ج١ ص١٩ رقم (٢)، وقال عنه الحاكم (المستدرك ج١ ص٧١٧ رقم (١٩٦١)): إنه (صحيح الإسناد). وتناقض فيه الذهبي؛ فمرة وافق الحاكم على تصحيحه، ومرة تعقبه بتضعيف أحد الرواة؛ وهو يونس بن سليم. =

كما قال زيد بن ثابت (وله نفس الصفة المتقدمة لعمر): (إن رسول الله ﷺ أملى عليه: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ فجاءه ابن أم مكتوم وهو يُمِلُّها عليَّ؛ قال: يا رسول الله، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت؛ وكان أعمى؛ فأنزل الله على رسوله وفخذه على فخذي، فثقلت عليَّ حتى خفت أن تُرَضَّ[1] فخذي، ثم سري عنه؛ فأنزل الله ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾)[2].

ب- تأثيره على ناقة النبي؛ فقد روى هشام بن عروة عن عائشة قالت: (كان النبي إذا أوحي إليه وهو على ناقته وضعت جرانها[3] فلم تستطع أن تتحرك). وتلت قول الله عز وجل: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[4].

وقال أبو أروى الدوسي: (رأيت الوحي ينزل على النبي وإنه على راحلته، فترغو وتفتل يديها، حتى أظن أن ذراعها ينقصم، فربما بركت، وربما قامت موتدة يديها حتى يسرى عنه؛ من ثقل الوحي، وإنه ليتحدر منه مثل الجمان)[5].

وعن أسماء بنت يزيد قالت: (نزلت سورة الأنعام على النبي ﷺ جميعًا، إن

= وحكم الشيخ الألباني عليه بالضعف، ورمى الحاكم حين صححه بالتساهل، وذلك في هامش ص٩٧ من فقه السيرة للشيخ الغزالي. وقال أبو عبد الرحمن النسائي (السنن الكبرى ج١ ص٤٥٠ رقم (١٤٣٩)): (هذا حديث منكر لا نعلم أحدًا رواه غير يونس بن سليم، ويونس بن سليم لا نعرفه. والله أعلم).

(١) تُشل لا تتحرك، وفي المعجم الوسيط (١/ ٣٦٣) الأَرَضُّ: القاعد لا يبرح، وأَرَضَّ: ثقل وأبطأ.

(٢) البخاري بشرح ابن حجر ج٨ ص٢٥٩ رقم (٤٥٩٢)، والجامع الصحيح لسنن الترمذي ج٥ ص٢٤٢ رقم (٣٠٣٣) وغيرهما.

(٣) جران الناقة: باطن عنقها، النهاية في غريب الأثر ج١ ص٢٦٣.

(٤) المستدرك ٢/ ٥٤٩ رقم (٣٨٦٥)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال محقق الكتاب مصطفى عبد القادر عطا: قال الذهبي في التلخيص: صحيح. وورد في مسند إسحاق بن راهويه ٢/ ٢٥٤ رقم (٧٥٦).

(٥) ابن سعد: الطبقات ق١ ج١ ص١٣١.

كادت من ثقلها لتكسر الناقة)[1].

وأورد البيهقي في الدلائل: (وإن كان ليوحى إليه وهو على ناقته، فيضرب حزامها من ثقل ما يوحى إليه)[2].

ونخلص بالنظر إلى هذا الجانب إلى أنه لو كان الوحي صوتًا داخليًا لانحصر الشعور به على النبي؛ ولما تعدى تأثيره لآخرين؛ لكن هذا التأثير تعدى ليصل إلى من يجاورون النبي، بل وناقة النبي أيضًا؛ ولم يوجد بعد - ولن يوجد أبدًا - ذلك الصوت الداخلي الذي يدور في خاطر شخص فيشعر به آخرون!!! فهل تعدى صوت النبي الداخلي (الذي لا يعدو كونه مشاعر النبي الخاصة)، هل تعدى منه إلى الحاضرين معه وإلى ناقته؟

إن الحق الذي لا ينبغي أن يُمارى فيه أن هذا الدويَّ الذي يسمعه الآخرون؛ والثقل الشديد على فخذ كاتب الوحي التي تَصادف وجودها تحت فخذ النبي؛ وكذلك على ناقته ﷺ التي صادف أنه يركبها لحظة الوحي... كل ذلك لا يمكن تفسيره إلا بافتراض كون ظاهرة الوحي ظاهرة مفارقة لذات النبي، ولا يمكن أبدًا أن يكون لها علاقة بما يدعيه نولدكه من صوت داخلي.

الملاحظة الثانية: معاينة شهود العيان لوحي النبي ﷺ:

إن أمامنا وقائع من سيرة النبي، وشهادات ممن عاينوا ونقلوا إلينا ما شاهدوه عبر طرق نقل صحيحة؛ كلها تؤكد أن الوحي إلى رسول الله كان حدثًا عامًّا مشهودًا، كما تؤكد أنه لا يمكن لظاهرة الوحي أن تكون شأنًا ذاتيًا؛ لأنه قد صحبها (دلائل حسية يشعر بها بعض من شاهدوها خلال حدوثها)[3]؛ ونشير هنا إلى الآتي:

أ- عن واقعة من العهد المكي يقول عبد الله بن عباس: بينما رسول الله ﷺ بفناء بيته بمكة جالسًا إذ مر به عثمان بن مظعون.. فقال له رسول الله ﷺ:

---

(١) مسند أحمد ٦/ ٤٥٨ رقم (٢٧٦٣٣).

(٢) ابن حجر: الفتح ج١ ص٢١.

(٣) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ١٥١.

«**ألا تجلس؟!**». قال: بلى. فجلس رسول الله ﷺ مستقبلَه؛ فبينما هو يحدثه إذ شَخَصَ رسول الله ﷺ فنظر ساعة إلى السماء، فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يمينه في الأرض، فتحرَّف رسول الله ﷺ عن جليسه عثمان إلى حيث وضع بصره، فأخذ ينغِض رأسه كأنه يستفقه ما يقال له - وابن مظعون ينظر - فلما قضى حاجته واستفقه ما يقال له، وشخص بصر رسول الله ﷺ إلى السماء - كما شخص أول مرة - فأتبعه بصره حتى توارى في السماء، فأقبل على عثمان بجلسته الأولى، فقال عثمان: يا محمد، فيما كنت أجالسك وآتيك ما رأيتك تفعل كفعلك الغداة... قال: «**أوَفطنتَ لذاك؟**». قال عثمان: نعم. فقال رسول الله: «**أتاني رسول الله (جبريل) آنفًا وأنت جالس**». قلت: رسول الله؟ قال: «**نعم**». قال: فما قال لك؟ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[١]. قال عثمان[٢] فذلك حين استقر الإيمان في قلبي وأحببت محمدًا[٣].

ب- وفي واقعة مكية أخرى سأل حمزة بن عبد المطلب النبي ﷺ أن يريه جبريل في صورته، قال: «**إنك لا تستطيع أن تراه**». قال: بلى. قال: «**فاقعد مكانك**». قال: فنزل جبريل على خشبة في الكعبة كان المشركون يضعون ثيابهم عليها إذا طافوا بالبيت، فقال: «**ارفع طرفك فانظر**». فنظر فإذا قدماه مثل الزبرجد الأخضر، فخرَّ مغشيًّا عليه[٤].

---

(١) النحل: ٩٠.

(٢) وعثمان بن مظعون من قديمي الإسلام بعد ثلاث عشرة نفسًا، وهاجر الهجرتين، وشهد بدرًا، وكان من أشد الناس اجتهادًا في العبادة، وكان حرَّم الخمر على نفسه في الجاهلية، وقال: لا أشرب شرابًا يذهب بعقلي، ويضحك بي من هو أدنى مني. مات سنة اثنتين من الهجرة، وقبله النبي وهو ميت. راجع: تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة، لابن حجر ج١ ص٢٨٣ رقم (٧٣٠)، والإكمال في ذكر من له رواية في مسند أحمد من الرجال ص٢٩٠.

(٣) مسند أحمد ج١ ص٣١٨ رقم (٢٩٢٢)، والأدب المفرد ص٣٠٧ رقم (٨٩٣)، المعجم الكبير للطبراني ج٩ ص٣٩ رقم (٨٣٢٢)، ابن سعد: الطبقات ق١ ج١ ص١١٥.

(٤) ابن سعد: الطبقات ق١ ج٣ ص٦.

ج- كما أن موضعًا بالمدينة اشتهر باسم: (مقاعد جبريل). كانت هذه (المقاعد) معلمًا بارزًا في المدينة بالقرب من مسجد رسول الله ﷺ[1]؛ قال أنس بن مالك: (صلى رسول الله ﷺ صلاة الظهر يومًا ثم انطلق حتى قعد على المقاعد التي كان يأتيه عليها جبريل)[2].

وكان جبريل - متشكلًا في صورة بشرية تُمَكِّن آحاد الناس من رؤيته - يأتي رسول الله أحيانًا وهو جالس على تلك المقاعد، وجاز لذلك أن يراه بعض المسلمين؛ فهذا حارثة بن النعمان يقول: (مررت على رسول الله ﷺ ومعه جبريل عليه السلام جالس في المقاعد، فسلمت عليه ثم أجزت، فلما انصرفت ورجع النبي قال لي: «**هل رأيت الذي كان معي؟**». قلت: نعم. قال: «**فإنه جبريل عليه السلام، وقد رد عليك السلام**»)[3].

ويقول أيضًا: (رأيت جبريل من الدهر مرتين؛ يوم الصورين حين خرج رسول الله إلى بني قريظة، حين مر بنا في صورة دحية بن خليفة الكلبي فأمرنا بلبس السلاح، ويوم موضع الجنائز[4] حين رجعنا من حُنين؛ مررت وهو يكلم النبي؛ فلما أُسَلِّم، فقال جبريل: من هذا يا محمد؟ قال: «**حارثة بن النعمان**». فقال (أي جبريل): أما إنه من المائة الصابرة يوم حنين الذين تكفل الله بأرزاقهم في الجنة، ولو سلَّم لرددنا عليه)[5].

(١) أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة ٢/ ٨٢٧ رقم (١٥٠٨)، والمعجم الكبير للطبراني ج٣ ص٢٢٧ رقم (٣٢٢٤). البخاري بشرح ابن حجر ج١١ ص٢٥٠.

(٢) مسند الإمام أحمد ٣/ ١٣٩ رقم (١٢٤٣٥)، وصحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ١٤/ ٤٨١ رقم (٦٥٤٣)، وصححه ابن حبان، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. والمنتخب من مسند عبد بن حميد ص٣٨٣ رقم (١٢٨٤)، وطبقات ابن سعد القسم الأول ج١ ص١١٧، ومسند أبي يعلى ٦/ ٧٢ رقم (٣٣٢٧)، وقال الشيخ حسين أسد: إسناده صحيح.

(٣) أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة ٢/ ٨٢٧، رقم (١٥٠٨)، المعجم الكبير ٣/ ٢٢٨ رقم (٣٢٢٦).

(٤) (موضع الجنائز) هو مكان كان قريبًا من بيته ومسجده ﷺ، كان يؤتى بالجنائز فيه للصلاة عليها؛ حتى لا يشقوا على رسول الله.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٣ ق٢ ص ٥٢.

د- ورأته السيدة أم سلمة؛ فقد ثبت في الحديث الصحيح أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ وهي عنده، فجعل يحدث ثم، قام فقال النبي ﷺ لأم سلمة: «**من هذا؟**». أو كما قال، قالت: هذا دحية. قالت أم سلمة: وايم الله ما حسبته إلا إياه حتى سمعت خطبة نبي الله بخبر جبريل)[1]. وعنها أيضًا قولها: (رأيت رسول الله يناجي رجلًا فلما دخل سألته، قال: «**بمن تشبهينه؟**» فقالت: بدحية بن خليفة. قال: «**ذاك جبريل أمرني أن أمضي إلى بني قريظة**»)[2].

هـ- ورآه آخرون في صورة دحية؛ ففي سيرة ابن هشام[3]وجدت النص الآتي: (ومر رسول الله ﷺ بنفر من أصحابه بالصورين - موضع قرب المدينة - قبل أن يصل إلى بنى قريظة، فقال: «**هل مر بكم أحد؟**». قالوا: يا رسول الله، قد مر بنا دحية بن خليفة الكلبي على بغلة بيضاء عليها رحاله، عليها قطيفة ديباج، فقال رسول الله: «**ذلك جبريل بُعث إلى بنى قريظة يزلزل بهم حصونهم، ويقذف الرعب فى قلوبهم**»).

ويضيف أنس بن مالك كشاهد عيان واصفًا موكب جبريل وقتئذ، فيقول: (كأني أنظر إلى الغبار ساطعًا في زقاق بني غنم موكب جبريل حين سار رسول الله إلى بني قريظة)[4]

وثبت أيضًا أن عائشة روت[5] أنه بعد هزيمة المشركين في غزوة الخندق مر رسول الله على بني غنم وهم جيران المسجد، فقال لهم: «**من مر بكم؟**». فقالوا: مر بنا دحية الكلبي. وكان يُشَبَّه وجهه بجبريل.

و- كما تشكل جبريل في صورة بشر، ورآه الصحابة أنفسهم ولم يشكوا أنه هو، وذلك كما جاء في حديث عمر؛ حيث طلع عليهم - وهم جلوس مع

(١) البخاري بشرح ابن حجر ج٩ ص٣ رقم (٤٩٨٠).
(٢) ابن حجر: الفتح ج٩ ص٥-٦، وعزاه للبيهقي في الدلائل.
(٣) ج٢ ص١٧١-١٧٢، ط دار التراث العربي.
(٤) البخاري بشرح ابن حجر ج٧ ص٤٠٧ رقم (٤١١٨).
(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٣ ق٢ ص٣.

الرسول - رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثرُ السَّفَرِ، ولا يعرفه منهم أحد، وسأل النبي عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وأماراتها؛ وكان كلما أجابه النبي قال له: صدقت. فعجب الصحابة لذلك؛ ولما انصرف، قال النبي: «**إنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**»[1].

ولقد كان سبب عجبهم:

أن الرجل لا تظهر عليه علامات كونه قادمًا إلى الرسول من سفر؛ وفي الوقت نفسه ليس معروفًا لهم. فهو إن كان قادمًا من سفر؛ كان من الواجب أن تظهر عليه آثار السفر المعهودة في الصحراء. لكن ظهر عليه عكسها؛ فهو شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر. وإن لم يكن قادمًا من سفر فهذا يعني بالضرورة أنهم يعرفونه؛ لكنهم لا يعرفونه.

كما أن السائل بغرض التعلم لا يُصدِّق على إجابات المعلم؛ لكن الرجل كان يقول للنبي: (صدقتَ) كلما أجاب النبي عن سؤال من أسئلته؛ فدل ذلك على أنه كان يعرف الإجابة.

ز- كما يشهد عبد الله بن عباس فيقول: (كنت مع أبي عند رسول الله ﷺ وعنده رجل يناجيه، فكان كالمعرض عن أبي، فخرجنا من عنده، فقال لي أبي: أي بُني! ألم تر إلى ابن عمك كالمعرض عني؟ فقلت: يا أبت إنه كان عنده رجل يناجيه. قال: فرجعنا إلى النبي ﷺ فقال أبي: يا رسول الله، قلتُ لعبد الله: كذا وكذا فأخبرني أنه كان عندك رجل يناجيك، فهل كان عندك أحد؟ فقال رسول الله ﷺ: «**وهل رأيته يا عبد الله؟**». قال: قلت: نعم. قال: «**فإن ذاك جبريل، وهو الذي شغلني عنك**»)[2].

ح- ومما يبين كذلك أن الوحي إلى رسول الله كان حدثًا عامًّا مشهودًا ما يرويه

(١) مسلم بشرح النووي مجلد١ ج١ ص١٥٠ وما بعدها، رقم (٨).

(٢) مسند أحمد ج١ ص٢٩٣ رقم (٢٦٧٩). والمعجم الكبير للطبراني ج١٢ ص١٨٥ رقم (١٢٨٧٦).

مجمع بن جارية الأنصاري؛ قال[1]: شهدنا الحديبية فلما انصرفنا عنها إذا الناس ينفرون الأباعر، فقال الناس بعضهم لبعض: ما للناس؟ قالوا: أوحي إلى رسول الله ﷺ، فخرجنا مع الناس نوجف، فإذا رسول الله ﷺ على راحلته عند كراع الغميم، فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[2].

ط- ولقد روى أبو هريرة أنه عندما ظن الأنصار أن النبي سيستقر بمكة بعد فتحها؛ نزل الوحي على النبي آمرًا بالاستمرار معهم في المدينة؛ يقول أبو هريرة: كان لا يخفى علينا إذا نزل الوحي، ليس أحد منا ينظر لرسول الله، بل يُطرق حتى ينقضي الوحي. فلما قضي الوحي قال رسول الله: «**يا معشر الأنصار، قلتم: إن الرجل قد أدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته؟**». قالوا: قد قلنا ذلك يا رسول الله. فقال: «**كلا، إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، المحيا محياكم، والممات مماتكم**». فأقبلوا يبكون ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا ضَنًّا بالله وبرسوله. قال: «**وإن الله ورسوله ليصدقانكم ويعذرانكم..**»[3].

ونخلص من هذه الملاحظة إلى أننا هنا إزاء وحيٍ تعدى شعورَ النبي الذاتي؛ فصار حدثًا عامًّا مشهودًا منذ المرحلة المكية إلى أن مات رسول الله ﷺ.

ثبت حصول ذلك - كما تقدم في الروايات الصحيحة - يوم الحديبية، وبُعيد فتح مكة. وشهد كلٌّ من عمر بن الخطاب وحارثة بن النعمان بتشكل جبريل في هيئة بشر. ورأى جبريلَ في صورة دحية جمعٌ كبير من شهود العيان الثقات العدول؛ منهم أم سلمة وأنس بن مالك وعائشة[4]. ورأى حمزةُ جبريلَ في صورته الحقيقية.

(١) ابن سعد الطبقات ق١ ج٢ ص٧٦.
(٢) الفتح: ١.
(٣) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ج١١ ص٧٣، وقال عنه الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. وبلفظ مقارب في مسلم بشرح النووي مجلد٤ ج١٢ ص١٣٣ رقم (١٧٨٠).
(٤) راجع ذلك في الجزء الأول.

وشهد أبو هريرة بأن وحي رسول الله لم يكن يخفى عن المشاهدين له، وكانت ملاحظةُ عثمان بن مظعون لذلك في المرحلة المكية سببًا لدخوله في الإسلام. كما اشتهرت المقاعد التي كان جبريل أحيانًا يأتي عليها رسول الله في المدينة، وكانت معلمًا بارزًا فيها. ولا يتصف الصوت الداخلي بشيء مما ذكر؛ فكيف يأتي نولدكه أو غيره بعد كل هذا ليدعي أن وحي رسول الله لم يكن سوى شعور ذاتي أو صوت داخلي؟

ظهر إذن من كل ما ذكرته هنا أن حالة الوحي إلى محمد في ذاتها؛ بغض النظر عن أي اعتبار آخر؛ تقدم دليلًا - بعكس ما ادعاه نولدكه - على أنها لا تمت لذاته ﷺ بصلة؛ فليست نابعة منها؛ وليست صوتًا داخليًا فيها.

كما نصل من خلال هذين المبحثين إلى نتيجة كلية، هي أن طرح الصوت الداخلي كتفسير لوحي الله إلى نبيه محمد لا يفسره؛ بل يزيده غموضًا.

***



المبحث الثالث
تهافت حديثه عن آثار الصوت الداخلي المزعوم

بقيت جزئية متعلقة ببحثنا هنا؛ هي الآثار التي يدعي نولدكه أنها لحقت بالنبي والإسلام، وترتبت على ما يدعيه نولدكه من عد النبي صوته الداخلي وحي الله؛ فقد ادعى نولدكه أنَّ (ظنَّ النبي أن صوته الداخلي هو الوحي) ترتب عليه أن أصبح (التلقي الحرفي للوحي) أساسًا للإسلام. وإنْ نظر محمد - كعادة الأنبياء الإسرائيليين - إلى كل السور الواعية الهادئة من جانب، والحماسية الهائجة من جانب آخر؛ على أنهما معًا دون تفريق - رسالةٌ إلهيةٌ حقيقيةٌ، وهذا ليس خداعًا منه؛ بل بسبب الإيمان الساذج. وإن عد محمد صوته الداخلي معيارًا للحكم على كل القضايا. وإن سكب هذا الصوت في شعور محمد ﷺ الإيمان المطلق بنبوته، ونشأ عنه حماس النبوة الذي وصل لدرجة التعصب.

إننا هنا إزاء ثلاثة آثار ادعى نولدكه أنها ترتبت على ما زعمه من أن النبي عد صوته الداخلي وحيًا؛ هي:

الأثر الأول: أصبح التلقي الحرفي للوحي أساسًا للإسلام.

الأثر الثاني: عد محمد صوته الداخلي معيارًا للحكم على كل القضايا؛ الديني منها والدنيوي.

الأثر الثالث: آمن محمد بنبوته إيمانًا مطلقًا يصل لدرجة التعصب.

الرد على الأثر الأول المدعى:

إنه يدعي أنه قد ترتب على عدِّ النبي صوتَه الداخلي وحي الله؛ أن أصبح التلقي الحرفي للوحي أساسًا للإسلام؛ وأقول:

إن القرآن وحده هو الذي كان واضحًا من أول يوم في ذهن النبي (والمسلمين بالطبع) أنه كلمة الله حرفيًا، وأن النبي لا يملك أن يضيف إليه حرفًا، أو ينقص منه حرفًا.

ولم يقل أحد (لا النبي ولا المسلمون): إن كل وحي للنبي كان كذلك؛ فالأحاديث القدسية نسبها النبي لله دون أن يكون مأمورًا بالتقيد بذكرها حرفيًا، وأحاديث النبي نطق بها مجردة عن النسبة لله، وإن كان مضمونها بوحي منه تعالى.

ولقد أقر نولدكه بأن النبي كان يميز - من هذه الزاوية - بين القرآن وغيره من الوحي[1]؛ ولو كان الإيمان بنسبة القرآن حرفيًا لله تعالى ناشئًا عن وهم نولدكه افتقاد النبي للتجريد المنطقي؛ فلماذا اختصَّ النبي القرآن وحده دون باقي الوحي بهذه الميزة؟ لا يمكن أن يقدم افتراض نولدكه جوابًا.

كما أنه ليس بالمستغرب في تاريخ الدينين الكتابيين: اليهودية والنصرانية؛ أن يكون هناك وحي حرفي من الله؛ فالوصايا العشر - على الأقل - تعد لدى اليهود وحيًا حرفيًا من الله تعالى.

وأحد الكتب المهمة المعتمدة عند النصارى قال عن الوحي: (إنه يشمل ألفاظ الكتاب ومعانيه؛ لأن المعنى هو في الألفاظ وله أهمية كلية في إيضاحه)[2].

وقال عن الموحَى إليهم: (إنهم لم يكن لهم دور في الوحي، بل كانوا آلات في يد الله، بمعنى أنهم ما علموه أو كتبوه هو تعليم الله، لا أنه تعالى غير طبيعتهم أو قادهم على كيفية مخالفة لقواهم الطبيعية)[3].

وقد مر من قبل[4] قول نولدكه نفسه: "إن الأنبياء الإسرائيليين نشروا أعمالهم الكتابية على أنها كُتبت من الرب"، وقوله: "لم يظهر الأنبياء في حالة جذب وسيط الألوهية وحدها [ملك الوحي]؛ وإنما في مرات عديدة ظهر كل تفكيرهم وعملهم على أنه إفراز

(١) مرت أقواله المتعلقة بهذا الشأن في هذا الجزء.

(٢) علم اللاهوت النظامي ١١٣.

(٣) علم اللاهوت النظامي ١٠٤.

(٤) صفحات ١١، ١٢، ٥٩، ٦٠ من هذا الجزء.

مباشر للفاعلية الإلهية ذاتها".

فلماذا يكون غريبًا إذن أن يخاطب الله محمدًا بوحي يكون بعضه (وهو القرآن الكريم) كله كلمة الله حرفًا حرفًا؟

ولماذا - بدلًا من أن ينظر نولدكه إلى الأمر في إطاره الذي بينته هنا - يعده مترتبًا على نقص لدى النبي: هو أنه كان (دون كل أنبياء بني إسرائيل) يفتقد التجريد المنطقي والنظر العقلي، فعد كل ما يتحرك بداخله وحيًا؟

الرد على الأثر الثاني المدعى:

وهو دعواه أن النبي عدَّ ذلك الصوت الداخلي معيارًا للحكم على كل القضايا، مما نتج عنه خلط بين الديني والدنيوي؛ فقد قال نولدكه[1]:

"هنا لم يكن باستطاعة محمد أن يفصل بين الديني والدنيوي؛ فلقد استعمل سلطة القرآن *die Autorität des Qorans* كثيرًا لتنظيم أشياء لا علاقة لها بالدين. ولتقييم الأمر يجب ألا ننسى أن الدين ونظام المجتمع في عصره كانا مرتبطين فيما بينهما. وإنزال الله إلى أبسط الأمور في الحياة العادية يجعلها في أفق إلهي سام.

إن مفكرًا ساذجًا *(ein naiver Denker)* مثل محمد كان يجب عليه أن يَعدَّ كل ما لا يعارض صوت قلبه *der Stimme seines Herzens* مباحًا".

إن عدم فصل النبي بين الديني والدنيوي لم يكن مرجعه لخلل حاصل لديه (يدعي نولدكه أنه فقدان التجريد المنطقي)؛ بل مرجعه إلى طبيعة الدين الإلهي منذ آدم حتى محمد ﷺ؛ حيث قال الله لآدم وإبليس: ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[2].

ونظرة واحدة لما يحويه العهد القديم - وبخاصة الأسفار الموسوية الخمسة - من

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٥.

(٢) طه: ١٢٣، ١٢٤.

تشريعات للمجتمع والدولة؛ تكفي لبيان أن عدم الفصل ليس شيئًا ابتدعه محمد ﷺ؛ انطلاقًا مما ذكره نولدكه.

كما أن مبدأ الفصل بين الدين من جانب، والدولة والمجتمع من جانب آخر، ليس مبدأ مسيحيًا - كما يحلو لبعضهم أن يصور - فهو مبدأ مبتدَع في المسيحية - كما يقول بعض مفكري الغرب أنفسهم - وإن المسيحية قبل هذا الابتداع ما كانت تعرف الفصل بين الدين من جانب، والمجتمع والدولة من جانب آخر؛ ففي بعض فقرات العهد الجديد نجد ضرورة الالتزام بالشريعة الإلهية التي تحكم حركة الإنسان في الدنيا[1]؛ يقول أودين أ. كالفبرلي[2]:

"يفصل كثير من الناس - بتأثير ميراثهم الثقافي وظروفهم الاجتماعية وتعليمهم - بين الدين والدولة. ويأخذ البروتستانت الغربيون هذا الفصل قضية مسلمة؛ لكن الواقع أن هذا الفصل بين الدين والدولة أمر جديد في المسيحية، ابتدعته فيها أقلية مذهبية. ولم يعرف الإسلام أو سواه من الأديان العالمية مبدأ الفصل. وقد كانت المسيحية نفسها - أو على الأقل إحدى كنائسها - لا تفرق بين الدين والدولة حتى قامت حركة الإصلاح البروتستانتية، ففسرت العهد الجديد تفسيرًا من شأنه أن يفصل بين الأمور الشخصية الروحية، وبين الأمور الجماعية التي تتصل بشكل الأمة ونظمها المختلفة".

وما يأخذه نولدكه هنا على النبي إنما يعود أصلًا إلى خلل في فهم الغربيين عمومًا للدين بسبب الميراث الظلامي لكنيسة القرون الوسطى، التي جعلتهم يتشككون في أي دور يمكن أن يؤديه الدين في المجتمع. ولا يلام محمد ﷺ في هذا، بل يلام الغربيون الذين لم يكتفوا بفهمهم الخاطئ للدين بل حاكموا محمدًا ﷺ وممارساته إليه.

ولم يكن صوت قلب محمد هو معيار الإباحة أو الحظر كما ادعى نولدكه، بل كان الوحي الإلهي. ومرة أخرى: إذا كان نولدكه يسميه (صوتًا داخليًا) لا وحيًا؛ فله كامل

(١) على سبيل المثال: متى ٥: ٢٣، ٢٦.

(٢) مقال (الدين الإسلامي)؛ ضمن كتاب (الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته)، تحرير: ت. كويلرنج ص١٥٢.

الحرية في ذلك، لكن عليه أن يتحمل تبعة اختياره الأخروية، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[1].

يقول د. محمود حمدي زقزوق[2]: (ما قام به النبي ﷺ في المدينة؛ من تنظيم المجتمع، وتأسيس الدولة والدفاع عنها بكل الطرق المشروعة؛ يعد جزءًا لا يتجزأ من الإسلام الذي جاء نظامًا للحياة بكل جوانبها. وإذا كان هذا يخالف مفهوم الدين لدى الغربيين، فعليهم أن يعيدوا النظر في أفهامهم وتصوراتهم بدلًا من خداع النفس؛ أنهم هم وحدهم أصحاب الحق والحقيقة).

الرد على الأثر الثالث المدعى:

وهو دعوى نولدكه أن إيمان النبي بنبوته، وحماسه لها، الذي زعم أنه وصل لدرجة التعصب، قد نشأ عن صوته الداخلي؛ وأبين هنا أنه قال[3]: "عندما حمل محمد في خلوته الطويلة أفكار الغرباء[4] وتركها لتتفاعل مع فكره؛ أخذت تتشكل بداخله إلى أن أجبره الصوت الداخلي *Innere Stimme* أخيرًا أن يتقدم لمواطنيه ليهديهم رغم الخطر والاستهزاء".

بهذا يجب أن نفهم حماس النبوة الذي يصل لدرجة التعصب *der Fanatismus*"، **وأقول:**

أولًا: إن المسلمين يقولون: إن الله يخلق لدى النبي (أي نبي) علمًا ضروريًّا[5] بنبوته. ويعنون بالعلم الضروري: غيرَ الكسبي، الذي لم يكن الطريق إليه وسائل يمارسها النبي بذاته. من هنا يأتي اليقين إلى النبي بنبوته. والله الذي أوحى للنبي قادرٌ أن يهبه اليقين في

(١) الشعراء: من الآية ٢٢٧.
(٢) الإسلام في تصورات الغرب ١٥٠ هامش ٣٩.
(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٣.
(٤) يقصد اليهود والنصارى. [المؤلف].
(٥) العلم الضروري هو الذي لا يتوقف حصوله على نظر وكسب أو حدس أو تجربة. راجع: التعريفات ج١ ص٦٣.

نبوته؛ إذ ليس خلق اليقين بها فيه بأعسر من جعله أهلًا لمشاهدة الملك والتحدث معه وتلقي الوحي منه؛ مع ملاحظة أن ليس شيء بالنسبة لله أعسر أو أيسر من شيء.

ثانيًا: إذا لم يكن علم الإسلاميات الغربي قادرًا على إساغة هذا الطرح فثمة طريق آخر:

إن إيمان محمد ﷺ بنبوته جاءه بالتأكيد إثر نزول جبريل عليه بأول وحي من الله. ولم يكن رسول الله بحاجة إلى مزيد بيان أو إيضاح بأن الله اختاره لرسالته؛ بل كان في رؤية الملك وما تتابع بعد ذلك من نزول القرآن كفايةٌ لكي يؤمن الرسول بنبوته.

إن هذين الأمرين كفيلان أن يحصل بهما يقين النبي بنبوته؛ إذ ليس نزول الملك على آحاد الناس بالأمر الشائع، ولم ينزل الملك بوحي على أحد معاصر له. وليس القرآن كذلك مما يمكن لآحاد الناس أن يأتي به من تلقاء نفسه. وقد أدرك النبي كل ذلك حتى قبل أن تنزل عليه آيات بعينها تؤكد نبوته وأنه يوحى إليه.

كما أن النبي (بمقارنةٍ ميسورة بين واقعه قبل الوحي وواقعه بعده)؛ يمكن أن يكتشف بنفسه هذا الجديد الذي اقتحم عليه حياته.

فلقد كان الرسول منصرفًا لشأنه الخاص، غير مشارك في أي جدل ديني يدور في محيطه، ولم تكن تسيطر على تفكيره أية مشكلة ميتافيزيقية حتى من قبيل تلك التي سيطرت على أفكار الحنفاء، وظل كذلك حتى الأربعين من عمره. وفجأة ودون توقع أو انتظار، أو إعداد كسبي منه، يفجؤه الملك بالوحي، وينزل عليه القرآن الذي لم يجر على لسانه قبل الأربعين شيء منه، وتتدفق مِن فِيه بحار من الحكمة؛ وهو الذي لم تؤثر عنه عبارة أو كلمة حكيمة مأثورة قبل الأربعين.

والافتراض الوحيد الذي لا يُقبل غيره: أن محمدًا ﷺ وعَى هذه المقارنة، ووقف على تفاصيلها من نفسه، وأدرك أن ثمة جديدًا مهمًّا في حياته، وألجأه هذا لأن يتساءل: ماذا حدث؟ فجاءته الإجابة: «**أنا جبريل، وأنت رسول الله**».

أليس هذا بكاف ليحصل اليقين لدى محمد بنبوته؟

فهل ما بررنا به يقينَ محمد ﷺ في نبوته أهْدى، أم ما اقترحه نولدكه من صوتٍ داخليٍّ ظهر لنا من قبلُ انهيارُ (أدلةِ مُدّعيهِ على وجوده)، وفشلُه في تفسيره، وبطلانُ القولِ به.

فإذا كان وجوده غير ثابت أصلًا (بل باطل)؛ فكيف يمكن أن يكون تفسيرًا لغيره؟

ثالثًا: وإذا ما عدنا إلى تبريره يقين النبي بالصوت الداخلي؛ فإننا نجد أن نولدكه يرى: أن الصوت الداخلي لدى النبي نشأ بالخلوة في غار حراء. وأن الصوت الداخلي هو الذي أوجد اليقين لدى النبي. ونحن نعلم أن الخلوة المذكورة انتهت ببدء النبوة؛ وهذا يقتضي أن يخمد اليقين النبوي وتنطفئ جذوته بانتهاء الخلوة، أو بعدها بسنوات على أكثر تقدير. لكن لأن يقين النبي في نبوته استمر حتى رحيله؛ فإننا لن نفاجأ بنولدكه حين يقول[1]:

"قد كان محمد حتى النهاية ممتلئًا باليقين، ومن هذا الإيمان كان يغترف الجديد دومًا، وكل الروعة في الوحي المتأخر كانت تنبثق من قوته التي لم تخمد أبدًا".

لكن المفاجأة الحقيقية، (بل الصدمة) هي أن يستمر نولدكه في طرح الصوت الداخلي - الذي يُفترض أنه مؤقت لارتباط نشأته بالخلوة المؤقتة كذلك - تفسيرًا لذلك اليقين المستمر الدائم الملازم للنبي طيلة حياته. ولذا نتساءل: ما سر كل تلك القوة الخارقة في ذلك الصوت الداخلي الذي نشأ للنبي إثر خلوة في غار حراء، وظل معه طيلة حياته، وملأه باليقين، وكان يغترف منه دومًا، وكانت قوته لا تخمد؟ ولم لا يمكن أن نجرب في الواقع بالخلوة الحصول على مثل ما حصل عليه محمد ﷺ؟

الواقع أن نولدكه أراد تفسير يقين محمد ﷺ بنبوته فزاده تعقيدًا؟

رابعًا: إن نولدكه اجترأ فوصف النبي بأن إيمانه بنبوته وصل إلى درجة التعصب.

لكن كما رأينا فإن نولدكه لم يبين لنا ماذا يقصد بالتعصب؟ هل هو تعصب في إيمانه ﷺ بنبوته؛ أم تعصب بشكل مطلق في السلوك والأفكار؟ ولم يبين لنا كذلك المعطيات التي على أساسها اتهم النبي بهذا الاتهام.

(١) عند حديثه عن ميزات سور الطَّوْر المكي الثاني من كتابه تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١١٨.

إن هذا يعطينا دلالة واضحة على نفسية الاستعلاء التي تعامل بها نولدكه مع هذه الجزئية المتعلقة بالنبي. إنه لا يرى أنه بحاجة لأن يقدم أدلة أو معطيات أو وقائع على أحكامه المطلقة؛ بل يكفيه أن يطرح انطباعاته وعلى المتلقي أن يسلم بها. وهذه النفسية فضلًا عما فيها من إخلال بقواعد المنهج العلمي؛ ففيها كذلك ظلم شنيع لمادة البحث التي هي هنا النبي، وظلم كذلك للقارئ الغربي الذي يُصَادَر حقه في أن تكون له أحكامه المستقلة المبنية على معطيات يحول بينه وبينها بعض رواد علم الإسلاميات الغربي[1].

أيًا ما كان الأمر؛ لنبحث نحن عن المقصود بالتعصب: إنه مصطلح له في كل اللغات دلالة سلبية؛ إذ هو يعني: (عدم قبول الحق عند ظهور الدليل؛ بناء على ميل إلى جانب)[2].

وعرفه مجمع اللغة العربية بأنه (غلو في التعلق بشخص أو فكرة أو مبدأ أو عقيدة؛ بحيث لا يدع مكانًا للتسامح.. وهو بهذا حالة غير سوية على مستوى الفرد والجماعة، ويصاحبها ضيق أفق، وبعد عن التعقل)[3].

فإذا كان نولدكه يقصد هذا؛ فهل وقف من شخصية رسول الله على مثل هذه الصفات؟

إن نولدكه لم يقل لنا أين يمكن أن نلمح هذا التعصب لدى النبي. هل يعد نولدكه إيمان النبي بالله وسائر عقائد الدين كما أنزلها الله تعصبًا؟

هل كان يتوقع من محمد ﷺ أن يهادن الشرك والوثنية وانحرافات أهل الكتاب ولا ينتقدها حتى يكون عند نولدكه متسامحًا؟ ومَن مِن الأنبياء هادن الشرك والوثنية؟ وهل سكت المسيح على انحرافات اليهود؟ هل كان هو الآخر متعصبًا؟

(١) لاحظت للأسف الشديد أن هذا يشبه أن يكون اتجاهًا عامًّا لدى كثير من كبار المؤلفين الغربيين في الإسلام، والأمل معقود على الأجيال الشابة منهم أن يقتربوا أكثر إلى الموضوعية.

(٢) الدكتور عبد المنعم الحفني: المعجم الفلسفي ٦٣.

(٣) المعجم الفلسفي من إصدار مجمع اللغة العربية المصري ص٤٩.

أم أن نولدكه كان ينتظر من النبي أن يشك في نبوته، ولا يؤمن بها؟ ومن من الأنبياء لم يؤمن بنبوته؟ إن نولدكه لم يبين لنا الحدود الفاصلة بين الإيمان الذي يصل لدرجة التعصب، والآخر الذي يخلو منه.

* * *



خاتمة الجزء الثاني



الخاتمة

أثبت هذا الجزء من الدراسة:

- عدم صحة دعوى نولدكه (أن النبي كان خوافًا).
- بطلان دعوى نولدكه أن الصوت الداخلي هو الذي قوى النبي على الإنذار.
- أن (إعلان القرآن أن النبي كان يخاف من عذاب الله) لم يكن متعلقًا بـ (عدم تبليغه قومه) فقط؛ بل كان متعلقًا بـ (كل ما فيه معصية لله تعالى).
- أن خلوة النبي لم تكن فعلًا مقصودًا بهدف تحصيل النبوة.
- خطأ تفسير نولدكه لنشأة الصوت الداخلي المدعَى[1].
- تهافت حديثه عن سبب عد النبي ﷺ الصوت الداخلي المزعوم وحيًا.
- خطأ وصف نولدكه النبي بـ (عدم القدرة على التجريد المنطقي)؛ حيث:

١- أثبت من خلال تفحص العلاقة بين ذات النبي والوحي أن: النبي ﷺ ميز بين آرائه واجتهاداته وبين الوحي، وأنه اختار في البداية أن يحرك به لسانه ليحفظه وجاء الوحي ناهيًا له عن ذلك، وأنه ﷺ لم يُقحم في القرآن دعاءه لله، (ولا بعض تعقيباته وإضافاته بشأن القصص القرآني عن بعض الأنبياء). وأن القرآن جاء بما لا يُتوقع تذكر ذات محمد ﷺ له.

٢- أثبت من خلال واقع القرآن ذاته أن لا أثر لشخصيته ﷺ في القرآن، وأنه

(١) حيث فسره بدخول النبي في خلوة طويلة تفاعلت بداخله أثناءها أفكار أهل الكتاب؛ فنشأ صوت داخلي ظنه النبي وحيًا من الله.

ليس انعكاسًا لرغباته.

٣- أثبت أن واقع العلاقة بين النبي والقرآن يتناقض بشكل صارخ مع افتراض نولدكه (أن وحي محمد ﷺ هو صوته الداخلي)؛ حيث أثبت أن النبي ميز بين السنة والقرآن، وانتظر الوحيَ عند استفتائه في بعض المسائل، وأن القرآن راجَع بعض مواقفه ﷺ واجتهاداته، كما وجَّه الوحي القرآني الخطابَ إلى النبي ﷺ (بما يُفهم منه ضرورةً وجودُ ذات مخاطِبة وأخرى مخاطبَة)، وسَلَبَ قدرته على أن يُعَدِّل فيه، ونزل بتشريع جديد هو حكم اللعان، (بعد أن كان رسول الله قد أوشك على تطبيق التشريع الذي كان ساريًا من قبل). وأن في القرآن ما يصدم الواقع الجاهلي ... وهي كلها وُجُوهُ تَنَاقُضٍ مع افتراض نولدكه الوحي صوتًا داخليًّا للنبي ﷺ.

- أن (حالة الوحي ذاتها) تتناقض مع افتراض نولدكه (كونه صوتًا داخليًّا)؛ وثبت هنا:

١- أن الوحي إلى النبي شمل غيرَ الإنذار (بما يخالف أصل نولدكه).

٢- أن الوحي تأخر عنه ﷺ رغم توفر شعور داخلي لديه متعجل له في بعض الأحيان، والحاجةِ الماسة إليه في أحيان أخرى.

٣- أن الوحي إليه ﷺ لم تكن له أوقات ولا استعدادات خاصة.

٤- أنه كان ذا أبعاد موضوعية؛ (حيث ارتبط بالوحي بعضُ المظاهر الحسية). وهذه أمورٌ تتناقض مع افتراض نولدكه أن وحي محمد ﷺ هو صوته الداخلي.

- تهافت ما ذكره نولدكه من آثارٍ ترتبت على ما ادعاه من صوتٍ داخلي للنبي، (وهي حرفية وحي القرآن، والخلط بين الديني والدنيوي في الإسلام، وتعصب ينسبه لمحمد ﷺ).

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم، والحمد لله أولًا وآخرًا.



الفهرس المفصل للموضوعات



الفهرس المفصل للموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: ٤٩٦ / ٢٠٠٩

الرقم الدولي (ردمك) : ١ - ٥٢ - ٤٤ - ٩٩٩٢١




رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
كتاب تاريخ القرآن
للمستشرق الألماني «تيودور نولدكه»
ترجمة وقراءة نقدية
النبي محمد ﷺ والمرجعية
هل ثمة تحول
الدكتور
رضا محمد الدقيقي
إصدارات
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
إدارة الشؤون الإسلامية
دولة قطر

كتاب تاريخ القرآن

للمستشرق الألماني «تيودور نولدكه»

ترجمة وقراءة نقدية

إدارة الشؤون الإسلامية
دولة قطر

الطبعة الأولى
الدوحة ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

قام بعمليات المراجعة والتنضيد الضوئي والإخراج الفني



دار الميمان للنشر والتوزيع

الرياض: هاتف: ١٤٦٢٧٣٣٦ (٩٦٦)+ فاكس: ١٤٦١٢١٦٣ (٩٦٦)+
القاهرة: هاتف: ٢٧٩٤٩٣٧٠ (٢٠٢)+ فاكس: ٢٧٩٦٢٧٣٠ (٢٠٢)+
بريد إلكتروني: info@arabia-it.com الموقع: www.arabia-it.com





كتاب تاريخ القرآن

للمستشرق الألماني "تيودور نولدكه"

ترجمة وقراءة نقدية

الجزء الثالث



هل ثمة تحول

الدكتور

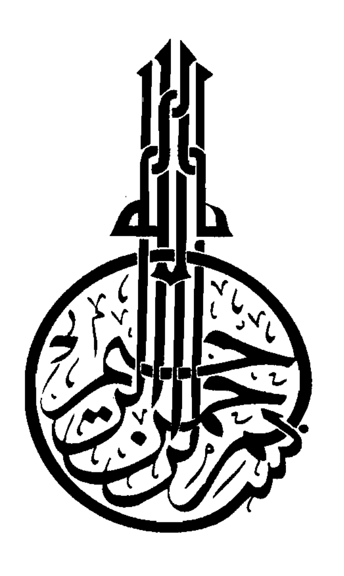
رضا محمد الدقيقي

من إصدارات

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

إدارة الشؤون الإسلامية

دولة قطر





المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله.

وبعد...

فلقد أوقفنا الجزء الثاني من هذه الدراسة على خطأ نولدكه فيما ادعاه من أن وحي الله إلى محمد كان مجرد صوت داخلي، ظنه محمد ﷺ وحيًا قادمًا له من الله تعالى.

وفي هذا الجزء[1] أعرض وأناقش دعوى نولدكه أن رسول الله ﷺ كان يتخذ أهل الكتاب (في العهد المكي وبداية العهد المدني مرجعية عليا استند إليها في دعوى النبوة)؛ وعندما عارضوه ولم يؤمنوا به بحث عن جهة أخرى مرجعية؛ فوجدها في الأنبياء القدامى الذين لم يعد لهم طوائف يعارضونه؛ وخص منهم إبراهيم. ويستدل على هذه الدعوى بعدة شبه سنعرض لها فيما بعد.

وأود أن أوضح هنا أن نولدكه لم يعرض نظريته المزعومة عن تحول النبي في البحث عن مرجعية؛ (من كونها أهل الكتاب إلى كونها إبراهيم ﷺ)؛ كنظرية محددة المعالم مفصلة في بحث مستقل؛ وذلك لأن الكتاب موضوع دراستي ليس كتابا في موضوعات تفصيلية عن الإسلام ونبيه؛ بل هو الكتاب حول القرآن كما يتضح من عنوانه. إلا أنه كان - وهو بصدد حديثه عن أي موضوع من علوم القرآن - يتناول فكرة أو نظرية معينة ابتكرها أو أفادها من المستشرقين السابقين؛ ومنها نظريته التي جعلتها موضوع هذا الجزء من الدراسة.

(١) يعالج هذا الجزء من الدراسة الأفكار التي ذكرها نولدكه في كتابه تاريخ القرآن بالألمانية، صفحات: ٧١، ٨٩، ١٠٥، ١٤٦-١٤٧، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٦، ١٥٩-١٦٤، ١٦٩-١٧٧، ١٧٩، ١٨٠، ١٩١-١٩٢، ٢٠٣-٢٠٤، ٢٢٩-٢٣٠.

من هنا كانت نظريته هذه نصوصًا متناثرة في ثنايا كتابه المذكور. وقد كان بعض هذه النصوص كليًّا يذكر النظرية بأفكارها الرئيسة الثلاثة. وكان بعضها جزئيًّا يحمل شبهًا تأتي في إطار التدليل على النظرية، أو تنطلق منها على أنها مُسَلَّمة.

ودوري هنا هو ترجمة هذه النصوص وتصنيفها (بأن أضع النص الجزئي في نفس السياق الذي نفهمه من النص الكلي، مرتبًا الجميع ترتيبًا منطقيًّا يقتضيه البحث العلمي، ولا يكون مخالفًا للسياق العام لنظرية نولدكه، كما توضحها نصوصه الكلية)، ثم أحلل أفكاره وأناقشها.

وسأعرض في البداية أربعة نصوص من النوع الكلي من أقوال نولدكه؛ بغرض أن توقفنا على دعواه بشكل مجمل، ثم أعمد إلى تفصيلها في فصول ثلاثة.

يقول تيودور نولدكه[1]:

"Anfangs ist Muhammed überzeugt, den Arabern dasjenige zu bringen, was die Christen von Isa die Juden von Musa usw. erhalten haben, and zuversichtlich beruft er sich den Ungläubigen gegenüber auf "die Wissenden" (Sur. 16, 45. 21, 7), welche man nur zu befragen brauche, um die Bestätigung der Richtigkeit seiner Lehren zu erhalten. In Medina kommt die Enttäuschung, die Schriftbesitzer wollen ihn nicht anerkennen. So muß er für sich eine über ihre Kontrolle erhabene Instanz suchen, die dennoch seinen früheren Offenbarungen nicht widerspricht. Da greift er nach den älteren Propheten, deren Gemeinden ihm nicht entgegen treten können"". Mit voller Deutlichkeit ist diese Tendenz allerdings nur an einer Stelle, Sur. 2, 129, ausgesprochen".

وترجمته:

"أقنع محمد العرب في البداية أن يؤمنوا بما تلقاه المسيحيون من عيسى، وما تلقاه اليهود من موسى. ودعا بتفاؤل غير المؤمنين الذين يحتاجون للمعرفة إلى سؤال العارفين حتى يصلوا إلى معرفة حقية رسالته: الآيتان: ٤٥ النحل، و٧ الأنبياء[2]. وتأتي خيبة الأمل

(١) تاريخ القرآن باللغة الألمانية ق١ ص١٤٦-١٤٧.

(٢) ختمت كل آية منهما بـ ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

في المدينة؛ إذ إن أهل الكتاب لا يريدون الاعتراف به. لذا وجب عليه أن يبحث عن جهة أعلى باعتبارها مرجعية لا تعارض نصوص وحيه الأول. ولذا مد يده نحو الأنبياء القدامى الذين لا يمكن لطوائفهم أن يظهروا في مواجهته، [يعارضوه]. يصرح بهذا الهدف بكل وضوح في موضع واحد فقط ١٢٩ البقرة[١]"[٢].

ويقول بشأن زمن نزول الآية ٣١ المدثر[٣][٤]:

"Doch mögen sie immerhin aus der ersten medinischen Zeit sein, da er in ihnen noch der Juden freundlich gedenkt und sie mit den Gläubigen in eine Linie stellt, während er dieselben bald als seine bittersten Feinde erkannte".

وترجمته:

"يحتمل أن تكون هذه الكلمات نزلت في أوائل الفترة المدنية، وقت أن كان [أي النبي ﷺ] يعامل اليهود بشكل لطيف ويضعهم والمؤمنين في جبهة واحدة. لكنهم سيبدون له فيما بعد على أنهم ألد أعدائه".

---

(١) ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهي في مصحفنا رقم (١٣٥).

(٢) ويبين نولدكه أنه أفاد حجج هذه النظرية من سنوك هورجرونيه من كتابه: (الأعياد المكية)، ومن أبحاثه الأخرى اللاحقة لهذا الكتاب، التي أكد فيها أيضًا على أهمية إبراهيم بالنسبة لتطور تصور محمد عن أديان الوحي السابقة عليه. يقول (هامش٢ ص١٤٦):

"Die Argumente der folgenden Beweisführting entnehme ich aus Snouck Hurgronje, Het Mekkaansche Feest. Leiden 1880, S. 28 40. Auch in späteren Aufsätzen hat dieser Forscher die Bedeutung Ibrahims für die Entwicklung der Stellungnahme Muhammeds früheren Offenbarungen gegenüber mit Recht immer wieder hervorgehoben (Vgl. De Gids 1886, II, S. 460. 466, Revue list. Relig. Bd. 30 (1894) S. 64ff".

(٣) ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾.

(٤) تاريخ القرآن باللغة الألمانية ق١ ص٨٩.

ويقول[1]:

"Muhammed hatte anfangs große Hoffnungen auf sie gesetzt, als auf Leute, welche die Offenbarung schon kannten. Da sie nun aber ihre alte Auffassung derselben nicht gleich dem neuen Propheten zuliebe aufgaben, dessen große Abweichungen von ihrem Glauben ihnen viel leichter zu erkennen waren als ihm, da ward der Zwiespalt immer größer und hörte nicht auf, bis endlich alle Juden umgebracht, vertrieben oder unterjocht waren".

ترجمته:

"لقد تملك محمدًا في بادئ الأمر أمل كبير فيهم؛ بوصفهم أناسًا يعرفون الوحي بالفعل. ولأنهم لم يتركوا في التو رأيهم القديم مراعاة لخاطر النبي الجديد؛ إذ إن إدراك الاختلاف الكبير بين عقيدتهم والإسلام كان أسهل عليهم أكثر منه؛ فقد أخذ الانقسام في التعاظم؛ ولم ينته حتى قتل كل اليهود وطردوا واستذلوا.." إلخ قوله.

ويقول[2]:

"Der Grund zur Veränderung der jerusalemischen Gebetsrichtung liegt in der neuen Stellung zu den älteren Offenbarungsreligionen, die Muhammed almählich in Medina gewonnen hatte. Während er sich früher den Juden und Christen nächstverwandt fühlte, bewog ihn die Erfolglosigkeit seiner Propaganda unter diesen, sich nach einer anderen Anknüpfung umzusehen, und er fand sie schließlich in der Reliegion des Ibrahim , den eine Offenbarung eng mit der Ka.ba verflocht ,vgl. Oben S. 146 f. So wurde der heidnische Kultusort zu einem Heiligtum des Islam und als solches zum Ort der Gebetsrichtung ebenso geeignet, wie es Jerusalim für die Juden war".

وترجمته:

"إن سبب تحويل قبلة الصلاة الأورشليمية يندرج في إطار التصور الجديد عن

(١) تاريخ القرآن باللغة الألمانية ق١ ص١٦٩.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٧٥ هامش١ رقم *K*.

أديان الوحي القديمة، الذي كوَّنه محمد بالتدريج في المدينة. ففي حين أنه كان يشعر في الماضي أنه وثيق الصلة باليهود والنصارى؛ فقد حركه إخفاق دعايته بين هؤلاء إلى أن يولي وجهه للارتباط بآخر؛ وجده أخيرًا في دين إبراهيم الذي ربط الوحي بينه وبين الكعبة. ولذا أصبح مكان الطقوس الوثنية حرمًا للإسلام، واتخذ مكانًا مثل هذا قبلة للصلاة كما كانت أورشليم بالنسبة لليهود.".

* * *

ونستطيع أن نجمل أفكار نظرية نولدكه التي يعالجها هذا الجزء - من خلال نصوصه التي ذكرتها قبل قليل، وغيرها التي سترد فيما بعد - في النقاط الآتية:

١- يدلل نولدكه على اتخاذ النبي (في الفترة المكية وبداية المدنية) أهل الكتاب مرجعية بزعْمه أن معارضة النبي لأهل الكتاب في مكة كانت ذات أهمية أقل، وأن آيات الهجوم على اليهود يغلب أن تكون مدنية، وأن ما في القرآن المكي من إنكار لبعض عقائد النصارى إنما هو موجه لعقائد المشركين، لا النصارى، وأن النبي أوجد في مكة (مساواة وصداقة بينه وبين المسيحيين)، وأن القرآن اعتبر نصر الروم على الفرس نصرًا للموحدين على الكفار، وأن بدايات القرآن المدني لم تنكر على اليهود، وأن موقف القرآن من أهل الكتاب في العهد المكي وبدايات المدني كان اعتماد إيمانهم وقبوله؛ لكنه تغير إلى رفضهم وتكفيرهم بعد ذلك، وأن القرآن في معظم العهد المدني لم يهاجم النصارى.

٢- يتحدث نولدكه عمَّا سماه: تحول النبي (في الفترة المدنية) عن اتخاذ أهل الكتاب مرجعية؛ فيدعي أن غزوات النبي ﷺ ضد اليهود كانت بسبب أنهم لم يتركوا دينهم ويتبعوه.

ويدعي أن النبي لم يبين انحراف اليهود عن الدين إلا بعد أن انهار أمله فيهم، وأن تكفير غير المسلم جاء في نهاية العهد المدني.

٣- يتحدث نولدكه عن تحول النبي (فيما بعد بداية العهد المدني) إلى إبراهيم؛ ليصبح مرجعية له؛ فيذكر أن النبي كوَّن في ذلك الوقت تصورًا جديدًا عن إبراهيم.

ويشير إلى دافِعَين مزعومين (يرى أنهما شجَّعا النبي في المدينة على تشكيل تصوره المدَّعى عن إبراهيم). ويزعم في هذا السياق أن (خبر القرآن عن تأسيس إبراهيم وإسماعيل الكعبة) إنما جاء رد فعل على عداء اليهود للنبي ﷺ. ويدعي مدنية الآيات التي تربط بين إبراهيم والحرم المكي. ويدعي أن القرآن المدني أقحم اسم إسماعيل بين من سماهم نولدكه: الآباء الإسرائيليين، بشكل لم يحصل في القرآن المكي. ويزعم أن (الصلة التي بين النبي وإبراهيم) لم توجد إلا في القرآن المدني، وأنها جاءت بتأثير يهودي أو نصراني.

ويزعم أن (تقدير القرآن لملة إبراهيم)؛ و(الإخبار بأنها كانت الإسلام) و(الأمر باتِّبَاعها)؛ هي وجهات نظر جديدة للنبي في المدينة.

ويزعم أن (الاتجاه للكعبة لاتخاذها قبلة للصلاة)، و(إدخال الحج إلى مكة في عبادة الإسلام)، يأتيان في سياق التصور الجديد عن إبراهيم.

ونستطيع أن نصنف كلام نولدكه هنا في ثلاثة محاور:

الأول: أن النبي اتخذ أولًا أهل الكتاب مرجعية.

الثاني: أن النبي تحول عنهم.

الثالث: أن النبي اتخذ إبراهيم مرجعية.

من هنا يأتي هذا الجزء في فصول ثلاثة:

الفصل الأول عنوانه: دعوى نولدكه اتخاذ النبي أهل الكتاب مرجعية.

أتناول فيه ما يظنها نولدكه أدلة تفيده في زعمه أن النبي اتخذ أهل الكتاب مرجعية (طيلة العهد المكي، وبدايات العهد المدني). وسيأتي في ثلاثة مباحث:

- **المبحث الأول**: دعاواه المتعلقة بالعهد المكي.
- **المبحث الثاني**: دعاواه المتعلقة ببدايات العهد المدني.
- **المبحث الثالث**: الدعوى المتعلقة بالعهد المكي، وبدايات العهد المدني.

والفصل الثاني: دعواه تحول النبي عن اتخاذ أهل الكتاب مرجعية.

أتناول فيه دعاوى نولدكه التي يقدمها، ويظن أنها تفيده في زعمه أن النبي (لما خاب أمله بعد الهجرة أن يترك اليهود دينهم ويتبعوه؛ هاجمهم). وكان أول مظهر للهجوم عليهم صلتهم بإبراهيم. ثم انتهت العلاقة بطردهم وإذلالهم. كما زعم أن الحكم القرآني على غير المسلم بالخسران في الآخرة كان على صلة بهذا التحول المدعى. وسيأتي هذا الفصل في ثلاثة مباحث:

- **المبحث الأول** بعنوان: دعاواه بشأن هجوم القرآن على اليهود: أسبابه، أول مظاهره، نهايته.
- **المبحث الثاني**: دعواه أن تكفير غير المسلم جاء في النهاية.
- **الفصل الثالث** عنوانه: دعواه اتخاذ محمد ﷺ إبراهيم عليه السلام مرجعية.

وأتناول فيه دعاوى نولدكه التي يقدمها أدلة على أن (النبي لما عارضه أهل الكتاب بعد الهجرة، وتحول عنهم وهاجمهم، بدأ في تكوين تصور جديد عن إبراهيم.

وأناقشه في: منهج هذه الدعوى، وأصلها، وحديثه عن دافعين مزعومين شجَّعا النبي على تشكيل تصوره الجديد عن إبراهيم عليه السلام. كما أناقشه في دليله على كونه تصورًا جديدًا.

ثم أتناول دعواه أن قول القرآن بتأسيس إبراهيم وإسماعيل الكعبة إنما كان تصورًا جديدًا عنهما في المدينة، جاء رد فعل لعداء اليهود. وكذا دعواه أن الآيات التي تربط بين إبراهيم والكعبة هي مدنية.

وأناقش دعواه أن القرآن المدني أقحم اسم إسماعيل بين الآباء الإسرائيليين بشكل لم يحصل في القرآن المكي.

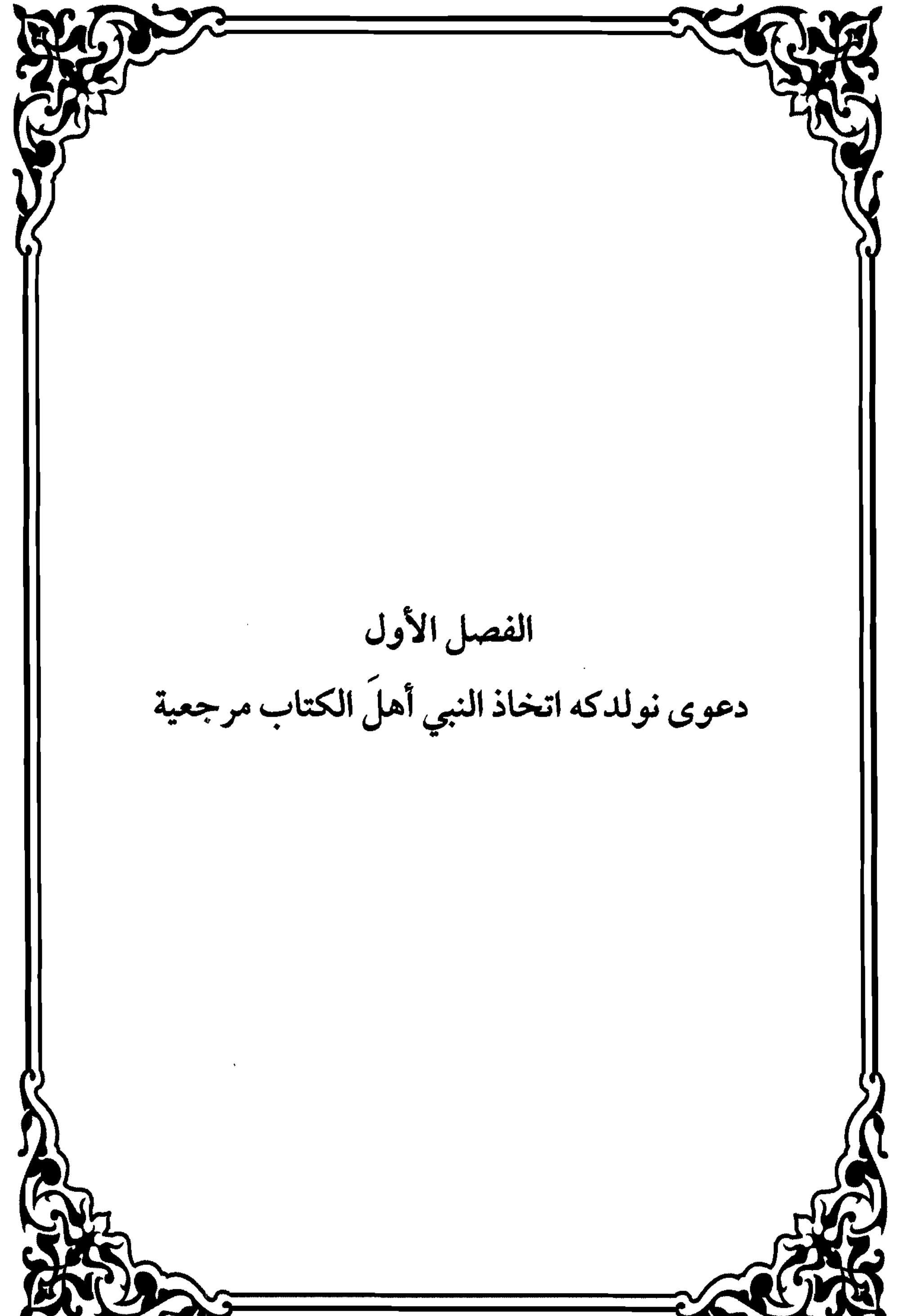
وأتناول أخيرًا دعاواه بشأن علاقة النبي ﷺ بإبراهيم عليه السلام؛ حيث شعر النبي أنه موصول به، ومن ثم اتجه إلى الكعبة في الصلاة، وأدخل الكعبة ومكة في شعائر الحج، وقدَّر القرآن ملة إبراهيم.

وسيأتي هذا الفصل في ثلاثة مباحث:

- **الأول** بعنوان: ملاحظات تمهيدية بشأن هذه الدعوى.
- **الثاني** بعنوان: دعاواه بشأن ما نسبه القرآن إلى إبراهيم وإسماعيل.
- **الثالث** بعنوان: دعاواه بشأن علاقة النبي بإبراهيم.

وأسأل الله تعالى التوفيق والقبول

رضا محمد الدقيقي



الفصل الأول

دعوى نولدكه اتخاذ النبي أهلَ الكتاب مرجعية



تمهيد

أتناول في هذا الفصل دعاوى نولدكه التي يقدمها، ويظن أنها تفيده في زعمه أن النبي اتخذ أهل الكتاب مرجعية طيلة العهد المكي، وبدايات العهد المدني.

ويمكننا أن نقسم تلك الدعاوى إلى دعاوى متعلقة بالعهد المكي، وأخرى متعلقة ببدايات العهد المدني، بالإضافة إلى دعوى متعلقة بالعهد المكي، وبدايات العهد المدني.

فعن الدعاوى المتعلقة بالعهد المكي يزعُم نولدكه أن معارضة النبي لأهل الكتاب في مكة كانت ذات أهمية أقل، وأن آيات الهجوم على اليهود يغلب أن تكون مدنية، وأن ما في القرآن المكي من إنكار لبعض عقائد النصارى إنما هو موجه لعقائد المشركين، لا النصارى.

كما يزعم وجود ما يسميه: (تساويًا وصداقة بين النبي والمسيحيين في مكة)، وقال: إن النبي دعا العرب في البداية أن يؤمنوا بما تلقاه المسيحيون من عيسى، وما تلقاه اليهود من موسى؛ كما دعاهم أيضًا لسؤال أهل الكتاب عن حقيقته.

ومن أجل تأييد دعواه تلاعب نولدكه في الحكم بمكية آيات معينة أو مدنيتها؛ فافترض مكيةَ كل الآيات التي فيها أن أهل الكتاب يعرفون النبي ويشهدون له.

وعن الدعاوى المتعلقة ببدايات العهد المدني؛ يزعم نولدكه أن القرآن فيها لم يكن يهاجم اليهود؛ بل جعلهم مع المؤمنين في جبهة واحدة. كما أنه - أي القرآن - اعتبر المسيحيين الحقيقيين مؤمنين. بل إن القرآن المدني تحدث عن النصارى بود طيلة العهد المدني.

أما دعوى نولدكه المتعلقة بالعهد المكي وبدايات العهد المدني فهي زعمه أن كون قبلة الصلاة في ذلك الوقت كانت بيت المقدس، يدل على أن مرجعية النبي كانت في ذلك الوقت هي اليهود.

وعلى هذا سيأتي هذا الفصل في مباحث ثلاثة:

- **الأول:** دعاواه المتعلقة بالعهد المكي.
- **الثاني:** دعاواه المتعلقة ببدايات العهد المدني.
- **الثالث:** الدعوى المتعلقة بالعهد المكي وبدايات العهد المدني.

***



المبحث الأول
دعاوى نولدكه المتعلقة بالعهد المكي

بالإضافة إلى الأقوال التي نقلتها عن نولدكه في مطلع هذا الجزء حول زعمه اتخاذ النبي - في العهد المكي - أهل الكتاب (اليهود تحديدًا) مرجعية؛ فإنه يطرح من الدعاوى في ثنايا كتابه - عند تناوله للآيات القرآنية - ما يمكن أن تظهر لذوي النظرات القاصرة أو العجلى على أنها أدلة تثبت أن النبي كان في مكة ينظر إلى أهل الكتاب، باعتبارهم مرجعية بالفعل.

هذه الدعاوى هي:

- معارضة النبي لأهل الكتاب في مكة كانت ذات أهمية أقل.
- آيات الهجوم على اليهود يغلب أن تكون مدنية.
- ما في القرآن المكي من إنكار لبعض عقائد النصارى موجه لعقائد المشركين، لا النصارى.
- وجود ما يسميه (تساويًا وصداقة بين النبي والمسيحيين في مكة).
- قوله: إن النبي دعا العرب في البداية أن يؤمنوا بما تلقاه المسيحيون من عيسى، وما تلقاه اليهود من موسى؛ وأنه دعاهم أيضًا لسؤال أهل الكتـاب عن حقيقته.
- افتراضه مكية كل الآيات التي فيها أن أهل الكتاب يعرفون النبي ويشهدون له.

وقبل أن أبدأ في عرض دعاواه مفصلة ومناقشتها، أود أن أشير هنا إلى شكِّ الوهلة الأولى، الذي اعتراني عند وقوفي لأول مرة على زعم اتخاذ النبي اليهود[1] مرجعية.

---

(١) يؤكد نولدكه على اليهود بوجه خاص.

إن التفكير السوي يقتضي أنه حين يلجأ النبي لاتخاذ اليهود مرجعية يستند إليها في دعوته العرب للإيمان برسالته؛ فلا بد أن يكون هؤلاء أهلًا لثقة العرب ونموذجًا اجتماعيًّا ودينيًّا يحتذى؛ فهل كان اليهود المعاصرون للنبي في العهد المكي هكذا بالنسبة للعرب؟

إن الانطباع الذي كان سائدًا وقتئذ في الذهنية العربية عن اليهود وطباعهم أنهم كانوا ذوي صفات ذميمة: كالحرص على جمع المال وعدم احترام المواثيق، والرغبة في التسلط على الآخرين. وقد أدت هذه الصفات لنفور العرب منهم. كما أن شعائرهم الغامضة وشعورهم بالاستعلاء العرقي والديني على العرب المحيطين بهم ... ساعدا على تنامي هذا النفور العربي.

إن اليهود "ظلوا يؤلفون طبقة متحاجزة عن العرب؛ فكانوا يحافظون على انتسابهم إلى المدن والأقاليم التي قدموا منها. كما أنهم وضعوا لمعالم يثرب ومواضعها أسماء عبرية.."[1] و"كان العرب ينظرون إليهم نظرة احتقار وازدراء"[2] مرجعهما كما يقول علي حسني الخربوطلي[3] إلى "اعتبارهم عملاء للفرس في اليمن؛ ولِما عُرفوا به من صفات ذميمة كالتهافت على جمع المال ونقض العهود والغدر".

ويقول محمد فريد وجدي[4]: (لم يكن عرب الجاهلية يمنحون كل ما عليه طابع يهودي أي اعتبار؛ بل الذي ورد أنهم كانوا يكرهون جوارهم ويقاتلونهم؛ ليجلوهم عن مواطنهم التي اختاروها دارًا لهجرتهم).

ويضيف مكسيم رودنسون[5] سببًا آخر لنفور عرب ذلك الوقت من اليهود، حيث إن هؤلاء الأخيرين كانوا "يحتقرون العرب ويعتبرونهم من المتوحشين الذين لا كنائس لهم تنظم أمورهم الدينية كبقية الشعوب المتحضرة".

(١) أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول القاهرة ١٩٦٧ ص٢٩٨.
(٢) كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ج١ ص١٢١.
(٣) العرب واليهود في العصر الإسلامي، من سلسلة كتب قومية عدد ٢٤٧ ص٢٤، ٢٥.
(٤) في تعليقه على فنسنك: دائرة المعارف الإسلامية مجلد١ ص٢٨.
(٥) *Mahomet p.89* نقلًا عن ساسي سالم الحاج: الظاهرة الاستشراقية ج٣ ص٧٨.

إننا إذا جارينا نولدكه - مؤقتًا - في إسناده الأمر للنبي... فهل يتصور أنه بعد تلك الانطباعات السلبية للغاية لدى العرب عن اليهود يُتوقع من محمد ﷺ أن يتخذهم في فترةٍ ما مرجعيةً يستند إليها في دعوته العرب للإيمان برسالته؟ إن هذا محل شك!

إن الشخص العادي لا يمكن له أن يفعل ذلك؛ فكيف يتوقع نولدكه حصوله من محمد ﷺ، وقد وصفه في كتابه الذي نعالجه بالذكاء السياسي؟

إن توقع حصول ذلك منه مقارب إلى حدٍّ ما لافتراض أن يقوم مصلح إسلامي اليوم (وهو في سبيله لإقناع قومه للأخذ بأفكاره) بالاعتماد على شهادة اليهود المحتلين لفلسطين له بصدقية آرائه!! من هنا فإني أزعم أن هذا الشك في هذا الجزء من دعواه ليس شعورًا ذاتيًّا نشأ لديَّ نتاج اعتقاد خاص؛ بل هو نتاج وعي شكلته مُعطيات تاريخية.

كما أن فِقرة من حوار المبايعين عند العقبة الثانية يُفهم منها - على نحو واضح - أن العلاقة بين النبي في مكة واليهود لم تكن أبدًا على النحو الذي يريد نولدكه أن نفهمه.

فهذا أبو الهيثم بن التيهان: أحد كبار الأنصار؛ يعترض إجراءات البيعة قائلًا: (يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالًا وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟). قال: فتبسم رسول الله ثم قال: «**بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم**»[1].

إن هذه الفقرة تتيح لنا أن نتصور ذلك الشعور الذي حرك أبا الهيثم، وجعله يفهم أن عقد البيعة مع النبي يستلزم قطع الحبال مع اليهود؛ ومن ثم يشترط لقومه مع الرسول أنه إذا أظهره الله فلا يرجع النبي إلى قومه ويدع الأنصار يواجهون وحدهم مصيرهم مع اليهود. ولا دليل على انفراد أبي الهيثم بهذا الشعور؛ فقد أقره الحاضرون معه؛ كما تجاوب النبي مع نتيجته.

فكيف يتفقان: قول نولدكه إن النبي في الفترة المكية كان يتخذ اليهود مرجعية؛ ووجود

(١) ابن هشام: السيرة النبوية: ج٢ ص٢٧٩.

شعور لدى المسلمين في العهد المكي بعدم ودية العلاقة بين النبي واليهود؟

ورغم ذلك سأعرض الآن – مع المناقشة والرد – دعاوى نولدكه المشار إليها من قبل، كُلًّا على حدة:

الدعوى الأولى: يدعي نولدكه أن "معارضة النبي –الذي ظهر من بين الوثنيين – لأهل الكتاب في أثناء الفترة المكية لم تكن ذات أهمية"[(١)].

"da der Gegensatz des aus den Heiden hervorgegangenen Propheten zu den Schriftbesitzern in Mekka weniger Bedeutung hatte".

كما يدعي أن من ميزات القرآن المكي في مجمله عدم مهاجمة النصارى، وندرة مهاجمة اليهود، وأن المواضع التي هاجم فيها القرآن اليهود يغلب أن تكون مدنية. فعند حديثه عن القرآن في الفترة المكية يقول[(٢)]:

"Dabei greift der Prophet seine heidnischen Gegner oft geradezu persönlich an und droht ihnen mit der ewigen Strafe. Dagegen bekämpft er, während er nur unter Heiden lebt, selten die ihm viel näherstehenden Juden und fast nie die Christen"

وترجمته:

"كثيرًا ما هاجم النبي- بصورة شخصية - خصومه المشركين؛ حيث عاش بين ظهرانيهم، وهددهم بالعذاب الأبدي. في حين أنه لم يحتج - إلا نادرًا - أن يهاجم اليهود؛ حيث كانوا أكثر قربًا إليه من المشركين. ولم يهاجم النصارى أبدًا".

واستخدم نولدكه القول بمدنية آية من سورة الأنعام المكية لتأكيد زعمه فقال[(٣)]:

"Mit mehr Recht setzt man V. 91 nach der Auswanderung, da der direkte Vorwurf gegen die Juden, sie schrieben ihre heiligen Bücher nieder und verheimlichten dabei vieles, nämlich die Stellen, in denen von Muhammed die Rede sei, in Medina eher als in Mekka gefallen sein dürfte".

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٥٩.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٧١.

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٦١-١٦٢.

"يجعل البعض[1] - بكثير من الحق - الآية ٩١: الأنعام[2] بعد الهجرة؛ ففيها الهجوم المباشر ضد اليهود الذين كتبوا كتبهم المقدسة على الورق مخفين الكثير منها؛ وذلك لأن المواضع التي قال فيها مثل هذا الكلام يغلب أن تكون مدنية عن أن تكون مكية".

وأجيب عن هذا بالآتي:

أ- إننا إذا أخذنا الأمر بالنظر إلى نسبة الآيات المكية - في الشأن الذي يحدثنا عنه نولدكه - إلى الآيات المدنية المتعلقة به؛ وجدنا أن آيات مواجهة أهل الكتاب في القرآن المدني أكثر من مثيلتها في القرآن المكي. لكن هذه النتيجة لا توضع على الإطلاق في السياق ذاته الذي وضعها فيه نولدكه، بحيث نظر إليها كدليل على تحول النبي في البحث عن مرجعية (حيث ادعى أنه لم يكن يعارض أهل الكتاب في مكة؛ لأنهم كانوا مرجعيته، ولما ذهب إلى المدينة عارضهم لأنهم كذبوه).

ب- والحق أن ينظر إلى هذه النتيجة في إطار حقيقة هي: أن الفوارق بين معالجة القرآن المكي للعلاقة مع أهل الكتاب، ومعالجة القرآن المدني للأمر ذاته تنسجم مع طبيعة القرآن نفسه، كما تنسجم مع النظر العقلي في المسألة:

أما انسجامها مع طبيعة القرآن نفسه؛ فكما نعلم أن القرآن مُنَجَّم؛ لم ينزل جملة واحدة ... هكذا اقتضت حكمته تعالى[3]. ومن جملة ما

---

(١) في رواية منقطعة لابن أبي طلحة الوالبي عن ابن عباس أنها مدنية، وروي ذلك أيضًا عن سعيد بن جبير (الواحدي: أسباب النزول ١٨٠-١٨١ والسيوطي: لباب النقول ص١٤٣)، وورد في تفسيري ابن جرير وابن كثير (عند تفسيرهما للآية) أنها نزلت في قريش. والموجود في مصحفنا أن هذه الآية مدنية.

(٢) ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾. نلاحظ هنا أنه لما كانت الدعوى اليهودية قريبة لأن تكون إلحادية؛ إذ إنها تنفي أي وحي من الله لأي بشر؛ ناسب أن توضع في سورة تعالج مواقف الكفار المشركين.

(٣) انظر بشأن الحكمة في تنجيم القرآن: السيوطي: الإتقان ص٥٥، ٥٧، ٥٨ وصبحي الصالح: =

ذكره القرآن كسبب لتنجيمه هو: مواكبة الحوادث والوقائع والأقوال في عصر النبوة. قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[١].

ولأن الحوادث والملابسات الناتجة عن التعامل المباشر مع اليهود في المدينة لم تكن موجودة مطلقًا بمكة؛ إذ لم يكن ثمة يهودي هناك؛ ناسب إذًا أن تنزل في المدينة الآيات المدنية المواكبة للأحداث المدنية التي حصلت مع أو من اليهود، ولم يكن مناسبًا أن يَسبق التعقيبُ على تلك الأحداث فينزل في مكة! إن هذا لو تم لكان مخالفًا لمنهج القرآن الذي شكّل بنزوله منجمًا في سنوات تنـزله الثلاث والعشرين وعي الأمة بالتدريج[٢].

ولقد كان لذلك في الشأن الذي معنا[٣] - كما في غيره - فائدة تربوية ناجزة؛ حيث كان التعقيب القرآني يأتي إثر القول أو الفعل المتجنى من اليهود في حق الإسلام ونبيه، ناظرًا إلى صنيعهم من خلال تاريخهم العام، أو كاشفًا خبايا أنفسهم التي حملتهم على هذا الصنيع، أو مذكرًا إياهم بنعم الله عليهم وعهدهم وميثاقهم معه، فينشأ من هذا كله البناء الإيماني والدعم النفسي للمسلمين في مواجهتهم.

= مباحث في علوم القرآن ص٤٩-٦٢.

(١) الفرقان: ٣٢، ٣٣.

(٢) يقول مالك بن نبي في كتابه الفريد (الظاهرة القرآنية ١٨٠-١٨١): (كيف كان القرآن يؤدي دوره حيال طبيعة الإنسان التي جاء يصوغها في ذلك العصر، لو أنه سَبق بنزوله أحداث حنين وأحد؟ وماذا كان (يمكن) أن يكون لو أنه لم يأت لكل ألم بعزائه العاجل؛ ولو أنه لم يُنزل لكل تضحية جزاءها، ولكل هزيمة أملها، ولكل نصر درسه في الاحتشام، ولكل عقبةٍ إشارةً إلى ما تقتضيه من جهد، ولكل خطر أدبي أو مادي روح التشجيع اللازم لمواجهته؟... فهل كان لدرسه أن يجد طريقه إلى قلوبهم وضمائرهم؛ لو لم يكن نزوله تبعًا لأمثلة الحياة نفسها والواقع المحيط بهم؟).

(٣) وهو نزول معظم الآيات المواجهة لليهود في المدينة.

ولن تكون هذه الثمرة الأخيرة تامة التحقق إذا تم التعامل القرآني مع اليهود عن طريق الأحكام المسبقة القَبْلية؛ فناسب إذًا أن يأتي التعقيب القرآني بعد أن يكون أبناء المجتمع المسلم قد خبروا اليهود في العهد المدني، وتعاملوا معهم عن قرب.

وأما انسجامها مع النظر العقلي في المسألة؛ فالملاحظ أنه في مكة لم تكن قد نشأت بعدُ عداوةٌ من اليهود للنبي ﷺ مثل تلك التي نشأت في المدينة؛ وإن كانت قد ظهرت منهم بعض بوادر خصومة عن بُعد[1]؛ لكنها بطبيعة الحال لا ترقى لأن تكون مماثلة لما ظهر منهم في المدينة.

وهذا أمر طبيعي؛ لأن هناك أمرين ساعدا على عدم وقوف اليهود موقف العداوة الشديدة للنبي نظريًّا أو عمليًّا.

أولهما: بعد المسافة بين مكة (حيث النبي) والمدينة (حيث اليهود).

ثانيهما: عدم تأكد اليهود من غلبة أمره ﷺ في النهاية؛ بل توقعهم سهولة أن يتخلص منه القرشيون...

لكن الأمر تغير منذ الشهور الأولى بعد الهجرة؛ فجماعة المسلمين تكبر، ودولة الإسلام تؤسس يومًا بعد يوم، ويتآكل - تدريجيًّا تبعًا لهذا - سلطان اليهود الديني والدنيوي؛ لذا فهم - وقد اختاروا عدم اتباعه ﷺ - قد عظمت لديهم أسباب حقيقية للعداوة، فلجُّوا في خصومتهم وعداوتهم رغم موادعة النبي ﷺ إياهم[2].

نقول إذن: إن الاحتكاك المباشر مع اليهود في المدينة ولَّد عددًا من

(١) وقائعها بطبيعة الحال ليست كثيرة. لكن منها ما ورد من أن أحبار يهود المدينة نصحوا من ذهب إليهم من المشركين - طالبين النصح في أمر النبي - أن يسألوه عن أحداث وأشخاص من الماضي وعن الروح (ابن هشام: السيرة النبوية ج١ ص١٨٠، والبلاذري: أنساب ج١ ص١٤٢).

(٢) راجع الفصل الثاني من هذا الجزء.

الوقائع التي تضمنت أخطاء، بل خطايا يهودية؛ لذا فقد اقتضى الأمر كثرة التعقيبات القرآنية؛ أما مكة فلم يكن بها ثمة احتكاك. فموقف القرآن منهم كان مسايرًا للحالين معًا؛ فبقدر خصومتهم كان رده؛ وبقدر تجنيهم كان توضيحه للحقائق.

إن نولدكه يعتمد على كثرة الآيات المدنية المهاجمة لليهود عن أخواتها المكية في دعوى تحول النبي عن اتخاذهم مرجعية؛ فهل كان من المفترض لآيات مدنية مرتبطة بحوادث مدنية مثل: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ الآية[1] و﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[2]... وغيرهما كثير..

أقول: هل كان من المفترض أن تنـزل هذه الآيات في مكة قبل حصول الوقائع التي نزلـت تلك الآيات للتعقـيب عليها؟

وهل كان من المنطقي لو أتى في القرآن المكي -وليس بمكة ثمة يهودي- آيات يُسَجِّل فيها خطابُ اليهود أو بني إسرائيل المعاصرين للنبي حضورًا قويًّا؟

وهل كان من المفترض كذلك أن تنـزل في مكة آيات ترسم صورة كاملة في الوعي المسلم لليهودي المعاصر للنبي، رغم عدم وجود دواع تقتضي ذلك؟

(١) البقرة: الآية ٩٧، والحادثة هي أن نفرًا من أحبار يهود قالوا للنبي: إن جبريل عدونا يأتي بالشدة وسفك الدماء، ولولا ذلك لاتبعناك (ابن هشام: السيرة النبوية ج٢ ص٣٥١).

(٢) آل عمران: ١٨١. والحادثة هي أن أحد أحبار يهود يدعى: فنحاص، نسب - في حوار مع أبي بكر - الفقر لله؛ تعالى الله عن ذلك، زاعمًا أن هذا هو مفهوم قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾. [الحديد: ١١] فضربه أبو بكر؛ فذهب فنحاص إلى النبي شاكيًا زاعمًا أنه لم يقل ذلك. ثم نزلت الآية (ابن هشام عن ابن إسحاق: ج٢ ص٣٦٤- ٣٦٥، والسيوطي: لباب النقول ٧٨-٧٩ من قول ابن عباس، والواحدي: أسباب النزول ص١١٢- ١١٣ عن عكرمة والسدي ومقاتل وابن إسحاق).

بطبيعة الحال لا. لذلك فإنه كما قلت سلفًا: إن حقيقة أن آيات الهجوم على اليهود يغلب كونها مدنية؛ تلك الحقيقة التي أغرب نولدكه في توظيفها وتفسيرها؛ تنسجم مع طبيعة القرآن نفسه، كما تنسجم مع النظر العقلي في المسألة. وهكذا يفسِّرها القلم المجرد عن الهوى ... وهو - مع بالغ الأسف - ما لم يفعله نولدكه.

ج- لكن هل يعني هذا خلو القرآن المكي من معارضة اليهود والنصارى[1]؟

قبل أن أجيب على هذا السؤال أقول: إن مشكل نظرية نولدكه؛ في الجانب الذي معنا؛ أنها تضعنا أمام مرجعيتين للنبي: أهلِ الكتاب في المرحلة المكية وبداية المدنية، وإبراهيم بعد ذلك. والمفترض - وفقًا لهذه النظرية - أن يكون الموقف من كل مرجعية وقت إقرارها من قبل النبي متماثلًا. ونولدكه يقول: إن القرآن المدني[2] أثنى على إبراهيم وقدَّره فترة اتخاذه مرجعية؛ فالمفترض أن يكون قد فعل الشيء نفسه مع أهل الكتاب فترة اتخاذهم مرجعية في الفترة المكية وبداية الفترة المدنية.

فهل أثنى القرآن عليهم في الفترة المكية؟

إن الإجابة عن السؤال المطروح أعلاه ستجلي هذا المشكل تمامًا.

وللإجابة عنه أقول: إن في القرآن المكي آيات تنكر على اليهود، وآيات تنكر على النصارى:

أما إنكار القرآن المكي على اليهود؛ فقد تجلى في الآتي:

- بيانه قلة عدد الذين آمنوا لموسى من قومه في بداية دعوته، رغم أنه

(١) حتى تستقيم لنولدكه دعواه؛ فإنه سيزعم أن ما في القرآن المكي من مهاجمة النصارى في عقيدتهم أن لله ابنًا؛ هو موجه ضد المشركين وليس ضد النصارى. وسنرى هذا في الدعوى التالية.

(٢) المدني فقط في زعمه. لكن سيتبين لنا في الفصل الثالث أن المكي أيضًا فيه هذا الثناء.

مرسل لإنقاذهم؛ فقال: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾.

- ذكره بعض أخطائهم في حق نبي الله موسى؛ من قبيل الحديث معه بأسلوب لا يليق: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾.
- بيانه نزوعهم نحو الوثنية بعد أن نجاهم الله من فرعون في عهد موسى عليه السلام؛ فقال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ الآية، ولما فشلت محاولتهم هذه المرة عادوا من جديد إلى المحاولة منتهزين فرصة غياب موسى لمناجاة ربه؛ قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾[1]، وأصروا عليه بعد تحذير هارون عليه السلام لهم: ﴿قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾[2].
- وأُشِيرَ في القرآن المكي أيضًا إلى الآتي: إفسادهم، قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾، واختلافهم الذي ما كان ينبغي منهم مع وضوح العلم لهم؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وقال: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾. وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾[3].

---

(١) الآيات بالترتيب هي: يونس: ٨٣، الأعراف: ١٢٩، ١٣٨، ١٤٨.

(٢) طه: ٩١. وعن نفس الحادثة: طه: الآيات ٨٥-٩٨.

(٣) الآيات بالترتيب هي: الإسراء: ٤، الجاثية: ١٦، ١٧، يونس: ٩٣، النمل: ٧٦-٧٨.

- وجاء فيه أيضًا أن الله حرم عليهم بعض المطعومات جزاء بغيهم؛ فقال في سورة الأنعام المكية: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾[1].

- ووصفوا فيه بالأوصاف الآتية: (ظالمين)، (القوم الظالمين)، (كانوا أنفسهم يظلمون)، (المفترين)، وبأنهم (قد ضلوا). ومن جراء وصف بعضهم بالظلم فإن القرآن المكي أباح أن يكون الجدال مع هذا الصنف منهم بغير التي هي أخسن؛ فقال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ الآية. وبسبب هذه الصفة لبعضهم فقد عاقبهم الله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾. كما وُصف الذين اتخذوا العجل منهم على لسان موسى بـ: (السفهاء)[2].

- كما أُشِيرَ فيه إلى عقوبات أنزلها الله بهم نتيجة ضلالهم عن منهجه؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾. وقال: ﴿فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾[3].

- وتوعدهم الله في القرآن المكي بالعذاب والخزي في الدنيا والآخرة إن هم استمروا على ضلالهم وبغيهم، فقال تعالى مخاطبًا

(١) الأنعام: ١٤٦.
(٢) والمواضع القرآنية بالترتيب هي: الأعراف: ١٤٨-١٥٠، (النحل: ١١٨، الأعراف: ١٦٠)، الأعراف: ١٤٩، ١٥٢، العنكبوت: ٤٦، الأعراف: ١٥٥، ١٦٢.
(٣) الأعراف: الآيتان ١٥٢، ١٦٦.

إياهم: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾، وقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾[1].

- كما تعرض لخلفهم أيضًا؛ فقد جاء في سورة الأعراف أن أجيالهم الماضية قُطِّعت في الأرض، منهم الصالحون ومنهم العصاة؛ لكن خَلَفَ هذه الأجيال باعوا ما ورثوه لقاء عرض الدنيا الزائل، وزعموا المغفرة من الله، قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2].

وأما إنكار القرآن المكي على النصارى فيتضح من الآتي:

- لقد بينت سورة مريم المكية أن المسيح عليه السلام نطق في المهد بعبوديته لله، وكونه نبيًّا له؛ حيث قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾. وبينت السورة ضلال النصارى المبين بشأن المسيح عليه السلام، ونفت الولد عن الله، وتوعدت من يزعم ذلك منهم بالويل: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[3].

(١) الآيتان: الإسراء: ٨، الأعراف: ١٦٧.

(٢) الأعراف: ١٦٨، ١٦٩.

(٣) مريم: ٣٠، ٣٣-٣٨.

- أعلنت سورة الزخرف المكية: أن عيسى عليه السلام ليس إلا عبدًا من عباد الله، جعل الله ولادته بغير أب آية على طلاقة قدرته، وأنه أقام تلك الآية في مواجهة بنى إسرائيل، وأن المسيح أعلن بنفسه أن الله هو ربه ورب الجميع، الذي تتوجه إليه وحده العبادة. وأشارت السورة إلى اختلاف النصارى من بعده في شأنه، وتوعدت الذين انحرفوا عن الحق بشأنه بعذاب يوم أليم؛ قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾. وقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[1].
- بينت سورة (المؤمنون) المكية أن المسيح وأمه آية من الله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾[2].

فهل يستقيم هذا الهجوم الصادر من القرآن المكي على ضلالات النصارى مع عبارة نولدكه الجازمة، ولغته الواثقة في نفي ذلك؟ أعيد الآن عبارته مضيفًا نص ما ذكره بالألمانية لنتبين حجم جناية من يوصف من قبل المستشرقين -بسبب كتابه الذي بين أيدينا الآن- بأنه رائد (المنهج النقدي التاريخي في دراسة الكتب المقدسة)؛ يقول نولدكه في أثناء حديثه عن السور المكية في القرآن[3]:

"Dabei greift der Prophet seine heidnischen Gegner oft geradezu persönlich an und droht ihnen mit der ewigen Strafe. Dagegen bekämpft er, während er nur unter Heiden lebt, selten die ihm viel näherstehenden Juden und fast nie die Christen"

(١) الزخرف: ٥٩، ٦٣-٦٦.
(٢) المؤمنون: ٥٠.
(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٧١.

وترجمته:

"كثيرًا ما هاجم النبي - بصورة شخصية - خُصومَه المشركين حيث عاش بين ظهرانيهم، وهددهم بالعذاب الأبدي. في حين أنه لم يحتج - إلا نادرًا - أن يهاجم اليهود؛ حيث كانوا أكثر قربًا إليه من المشركين. ولم يهاجم النصارى أبدًا".

وبعد..

فقد اتضحت لنا الآن - بعد وقوفنا على هذا الإنكار الصريح، والهجوم اللاذع الوارد في القرآن المكي على أهل الكتاب - معالم المشكل الكبير لهذا الجانب من نظرية نولدكه[1]؛ لأتساءل من ثم:

بأي منهج علمي ساغ لنولدكه ألا يلتفت إلى كل تلك الآيات؟

لكني أقول: إن ذلك كان لحسن حظه؛ وإلا لوقع في خطأ علمي آخر، بأن يجعلها جميعها بجرة قلم: آيات مدنية حتى لا يضحي بنظريته. ولِم لا يفعل[2]؟ أليس هو المستشرق الكبير الذي ينظر إليه تلامذته وزملاؤه باحترام وتقدير، يغنيهم عن التدقيق في أحكامه أو مراجعة أقواله؟

***

الدعوى الثانية: وهي على علاقة جزئية بالدعوى الأولى؛ فإذا كان نولدكه قد ادعى فيها أن من ميزات القرآن المكي عدم[3] مهاجمة النصارى؛ فكيف يفلت من إشكال وجود آيات في القرآن المكي تنكر على النصارى نسبتهم الولد لله تعالى؟ هل يجعلها نولدكه آيات مدنية لتسلم له نظريته؟ يحتمل أنه فكر في ذلك؛ غير أنه وجده مسلكًا صعبًا يعوزه الدليل أو حتى شبهة الدليل.

لكن بدا لنولدكه أنه وجد المخرج؛ إذ بان له أن مشركي العرب كانوا ينسبون

(١) أي تفسيره لحقيقة أن معارضة القرآن لأهل الكتاب في مكة كانت أقل نسبيًا منها في المدينة.

(٢) قد فعل ذلك، لكن سأعرض في موضع آخر له.

(٣) لاحظ كلمة عدم.

الولد لله تعالى، فالتفت إلى ذلك ظنًّا منه أنه سينقذ نظريته؛ فوجدناه يزعم هنا أن ما في القرآن المكي من رفض لعقيدة أن لله ابنًا؛ إنما هو ضد المشركين العرب، وليس ضد النصارى. فقال[1]:

"Man darf nicht in allen Stellen, in denen Muhammed gegen die Lehre eifert, daß Gott Nachkommenschaft ولد *hätte, eine Polemik gegen die Lehre von Christus als Gottes Sohn sehen.*

Die heidnischen Araber nannten ihre Göttinnen al-Lat, Manat und al-'Uzza "Töchter Allah's". Der Name bedeutet wahrscheinlich nichts anderes als göttliche Wesen weiblicher Natur, vgl. J. Wellhausen, Reste arabischen Heidentums S. 24f.".

وترجمته:

"لا ينبغي أن يُنظر إلى كل المواضع التي يتهجم فيها محمد على عقيدة أن لله ولدًا على أنها جدل ضد بنوة المسيح لله؛ فالوثنيون العرب اعتبروا آلهتهم: اللات والعزى ومناة؛ بناتٍ لله[2]. ولا يعني هذا أكثر من كونها كائنات إلهية ذات طبيعة أنثوية. راجع يوليوس فيلهاوزن: بقايا الوثنية العربية ص ٢٤، والتي تليها".

وأقول:

أ- لقد جاء هذا من نولدكه لكي يستَبِقَ أيَّ اعتراض عليه في دعواه أن القرآن المكي لم ينكر على النصارى على النحو الذي بينته عند مناقشتي للدعوى الأولى. وهو يحاول بالزيف أن يُفهِم قارئه الغربي أن رفض القرآن المكي لعقيدة أن لله ابنًا - في الآيات التي بيناها قبل قليل - ليس موجهًا ضد النصارى، بل ضد المشركين العرب.

ب- إن التزييف في محاولته هذه واضح لا نحتاج في الوقوف عليه إلا لتأمل الآيات المكية الواردة بهذا الشأن؛ لأن هذه الآيات المنكرة على النصارى

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٧١ هامش٢.

(٢) لم تأت أي آية في القرآن يفهم منها أن العرب جعلوا آلهتهم بنات لله، والذي جاء فيه هو زعمهم أن الملائكة هي بنات الله. [الباحث].

- التي استشهدنا بها من قبل - صريحة في إنكار هذا الـجُرم وتشنيعه عليهم:

لنقرأ قوله تعالى في سورة مريم تعقيبًا على ضلال النصارى بشأن عيسى عليه السلام:

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

إنه لا يمكن أن تُعَقِّبَ الآية بتنـزه الله تعالى عن الولد إثر ذِكر ضلال النصارى في شأن المسيح؛ ثم لا يكونوا مقصودين بهذا التعقيب، في حين يُقصد المشركون وحدهم[2] الذين لم يجرِ لهم هنا ذكر أصلًا!! والعجيب أن يصبح غير الممكن هذا في خيال نولدكه العجيب هو المقصود الوحيد للآية!!

كما أن نولدكه تجاهل متعمدًا القرينة الواضحة التي تُظهر - بالإضافة إلى ما ذُكر - أن النصارى هم المقصودون بهذا الإنكار؛ وهي قوله تعالى في الآيتين التاليتين: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ إذ فيهما إشارة إلى الاختلاف الحاصل بشأن المسيح بين أحزاب النصارى وطوائفهم.

كما ورد في سورة الزخرف المكية في سياق الحديث عن المسيح التأكيدُ على عبوديته لله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الآية[3]، ومعلوم أن في إثبات عبوديته إنكارًا لألوهيته التي قال بها النصارى.

وحتى الآيات المكـية التي فيها إنكارٌ لعقيدة أن لله ابنًا ولم يجرِ قبلها ذكر للنصارى؛ فلا يمكن - إن كان في ألفاظها عموم - قصرُ الإنكار فيها على

(١) مريم: ٣٣، ٣٤.

(٢) تنزه الآية الله تعالى عن أي ولد ينسبه له أي طائفة.

(٣) الموضعان هما: مريم: ٣٧، ٣٨، الزخرف: ٥٩.

مشركي العرب وحدهم؛ بل إنه يتوجه أيضًا إلى كل ادِّعاء أن لله ولدًا أو ابنًا أيًّا ما كانت ملة المدعي.

هذه الآيات من قبيل:

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾.

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ (٨١) سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾.

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

ووصف الله ذاته في القرآن المكي بأنه: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ وبأنه: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾[1].

(١) الآيات بالترتيب هي: الأنعام: ١٠١، مريم: ٨٨،٩٣،المؤمنون: ٩١، الزخرف: ٨١، ٨٢، يونس: ٦٨، ٧٠ ،الإسراء: ١١١ ، الكهف: ٤، ٥، الفرقان: ٢، الإخلاص: ٣.

لقد وضعتنا هذه الآيات إزاء صِيَغٍ تنفي عن الله عموم الولد، وتنكر على كل الذين زعموه لله.

إن كل ما يُنسب لله تعالى من ولد: أيًّا ما كان ذلك الولد: كبيرًا أو صغيرًا، بشرًا أو جنًّا أو ملكًا، نبيًّا أو غير نبي، حقيرَ الشأن أو عَظِيمَهُ؛ فإن القرآن المكي ينزه الله عنه، وينكر ويشنع القول به، ويجعله جرمًا في حقه تعالى.

وكذلك كل من ينسبون له تعالى الولد: أيًّا من كانوا: عربًا أو غير عرب، مشركين أو نصارى أو يهودًا أو مجوسًا؛ وفي أي زمن كانوا: معاصرين للنبي أو سابقين أو لاحقين له؛ فإن القرآن المكي ينكر عليهم ذلك الصنيع أشد الإنكار.

إنه حتى في هذه الآيات لا دليل على تخصيص هذا العموم.

كما أن الصيغة التي يُنكر فيها القرآن المكي على النصارى زعمهم الولد لله تعالى شبيهة، من حيث عموم اللفظ بصيغة إنكاره على كل من يزعمون لله الولد، ولا فارق في هذا الجانب بين آية: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ الواردة بشأن النصارى؛ وبين آيات: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾، و﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ و﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾[1] المنكرة على كل من يتخذ لله ولدًا.

ج- وأشير هنا إلى نقطة منهجية ما كان لمستشرق في مكانة نولدكه أن يقع فيها:

فقد لاحظنا أن نولدكه؛ لكي يدعم نظريته المتهافتة: (أن القرآن المكي لم يهاجم أهل الكتاب؛ لأن النبي كان يتخذهم مرجعية)؛ فإنه لجأ لنفي أن يكون النصارى مقصودين بهجوم القرآن المكي على عقيدة أن لله ابنًا، وألمح إلى إمكان أن يكون مشركو العرب هم المقصودين بهذا الهجوم؛ لأنهم عَدُّوا آلهتهم بنات لله[2].

(١) الآيات المذكورة هي بالترتيب: مريم: ٣٤، ٩٢، المؤمنون: ٩١، الإسراء: ١١١.

(٢) أعيد قوله مرة أخرى: "لا ينبغي أن يُنظر إلى كل المواضع التي يتهجم فيها محمد على عقيدة=

فنخرج هنا إذن برأيه أن الآيات المكية التي تنفي أن يكون لله ابنًا ليست موجهة ضد النصارى، بل ضد المشركين في ادعائهم لله "كائنات إلهية ذات طبيعة أنثوية".

لكنه في مكان آخر، ومن أجل أن يدعم نظرية أخرى كاذبة عن النبي هي: (أنه كان يبحث في سنواته المكية الأولى عن حل وسط مع الشرك)؛ فإن نولدكه رأى أن القرآن المكي لم يعارض مشركي العرب في وجود كائنات تابعة لله؛ فقال عن فرية الغرانيق المزعومة[1]:

“Die Episode erklärt ich aus der ängstlichen Stimmung Muhammeds, der einen Kompromiß mit dem alten Glauben suchte, indem er jene Götter als Allah unter geordnete gute Wesen anerkannte”

وترجمته:

"إن هذا الحدث العابر يُفسَّر بحالة خوف محمد، الذي كان يبحث عن حل وسط مع العقيدة القديمة؛ وفيه يعترف بتلك الآلهة على أنها كائنات طيبة تابعة لله".

وقال[2]:

“Der Ausspruch über die Gharaniq will ja die heidnischen Gottheiten nicht etwa dem einen Allah gleichstellen, sondern betrachtet sie als untergeordnete Wesen, denen nur das Recht der Fürbitte zusteht”.

وترجمته:

"إن الكلام عن الغرانيق لا يُقصَدُ منه أن يضع كلًّا من الله الواحد والآلهة الوثنية الإناث على قدم المساواة؛ وإنما يعدهن كائنات تابعة، لها حق الشفاعة فقط".

= أن لله ولدًا على أنها جدل ضد بنوة المسيح لله؛ فالوثنيون العرب اعتبروا آلهتهم: اللات والعزى ومناة؛ بناتٍ لله، ولا يعني هذا أكثر من كونها كائنات إلهية ذات طبيعة أنثوية".

(١) ١٠٠-١٠١. وفرية الغرانيق متهافتة، مردود عليها بنقد سند الرواية التي يُستند إليها في القول بها، وبنقد متنها كذلك، وسوف أتناول بشكل موسع الرد على هذه الفرية في دراسة قادمة بإذن الله عن الدعاوى الاستشراقية بالتأثير الوثني على القرآن الكريم.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٠٢.

ومؤدى هذا الكلام أن القرآن المكي اعترف بما ادعاه المشركون لله من كائنات إلهية تابعة لله".

وهنا يكمن التناقض في النتيجتين:

فالقرآن المكي ذاته الذي قال عنه نولدكه من قبل: إنه هاجم المشركين في ادعائهم لله "كائنات إلهية ذات طبيعة أنثوية"؛ هو نفسه الذي يقول عنه[1]: "إنه اعترف بما ادعاه المشركون لله من كائنات إلهية تابعة لله".

فنتيجتا نولدكه اللتان معنا هنا هما:

١- أن القرآن المكي كان ضد المشركين في ادعائهم لله" كائنات إلهية ذات طبيعة أنثوية".

٢- أن القرآن المكي اعترف بما ادعاه المشركون لله من كائنات إلهية تابعة لله".

وهما نتيجتان متناقضتان تمامًا؛ إذ تحكمان بالنفي والإثبات لشيء واحد. فكيف نفسر هذا التناقض؟

إننا نلاحظ هنا أنه لكي يستدل نولدكه على أن النبي اتخذ أهل الكتاب مرجعية في الفترة المكية وجدناه يدعي أن النبي لم يهاجمهم أثناءها؛ وفضل أن تكون النصوص القرآنية المكية التي هاجمت (عقيدة أن لله ابنًا)؛ موجهة ضد الوثنيين العرب الذين اتخذوا آلهتهم: اللات والعزى ومناة؛ بنات لله؛ دون أن تكون ضد النصارى. لكن يبدو أنه نسي هذا الذي انتهى إليه؛ فادعى بعد ثلاثين صفحة أن القرآن اتخذ حلًّا وسطًا مع المشركين مستدلًّا بزعمه أن آيات القرآن المكي "اعترفت بما ادعاه المشركون لله من كائنات إلهية تابعة لله".

إن لم أكن مخطئًا؛ فإن نولدكه كان يصدر في بحثه لهاتين الجزئيتين عن نظريتين سابقتين، فرضهما عليه بإلحاحٍ شديدٍ العقلُ الاستشراقي الجمعي.

(١) بعد حوالي ٣٠ صفحة من قوله الأول.

الأولى: أن النبي اتخذ - وهو بمكة - أهل الكتاب مرجعية.

الثانية: أن النبي كان يبحث في مكة عن حل وسط مع المشركين.

ثم إن نولدكه كان يتلمس لكل نظرية ما يظن أنه يؤيدها، فوقع فيما أشرت إليـه هنا من القول بالشيء ونقيضه، كما وقع في غيره.

وهكذا فإن الأمر يبدو لي كما لو أن النتيجتين المذكورتين كانتا ورقتين بيد نولدكه؛ يُخرج الأولى إذا أراد ادعاء أن النبي اتخذ أهل الكتاب مرجعية في الفترة المكية؛ ويُخرج الثانية إذا أراد ادعاء أن القرآن اتخذ حلًّا وسطًا مع المشركين؛ دون أدنى اعتبار لقواعد المنهج العلمي الذي يزعمه، أو حتى احترام لعقل القارئ الغربي المخدوع الذي تأسره سمعة الكاتب وشهرته عن أن يجري مقاربة نقدية لآرائه على النحو الذي جرى هنا.

وبعد.. فبناءً على ما قدمناه من نقد، نقول:

إن دعوى نولدكه المذكورة باطلة، قائمة على تزييف واضـح. وثبت لدينا أن القرآن المكي هاجم اعتقاد النصارى في كون المسيح ابنًا لله، وثبت تلفيق نولدكه في دعواه أنه في ذلك كان يهاجم مشركي العرب وحدهم.

***

الدعوى الثالثة: لقد وصل نولدكه بعد ذلك لأن يتحدث عن اهتمام النبي في مكة بالمسيحيين، وأن يزعم وجود ما يسميه: تساويًا وصداقة بين الطرفين، وأن النبي في مكة اعتبر نصر الروم على الفرس نصرًا للموحدين على الكفار. كما استدل نولدكه على دعواه بأن موسى ذكر في القرآن المكي كثيرًا؛ فقال[1]:

"Wohl aber hatte Muhammed ein Interesse für die Christen, mit denen er sich damals noch beinahe identifizierte; ihm mußte der Sieg der Byzantiner über die Perser der der Monotheisten über die Ungläubigen sein, und daher fanden seine Gegner Gelegenheit, ihm vorzuhalten, daß seine Freunde besiegt wären, und sein Gott ihnen wohl nicht hätte helfen können".

(١) في سياق الحديث عن القرآن المكي ص١٥٠ هامش٤.

وترجمته:

"لقد كان لدى محمد – حقًّا – اهتمام بالمسيحيين الذي كان ما يزال وقتئذ يكاد أن يتساوى بهم. ولقد كان نصر الروم على الفرس بالنسبة له نصرًا للموحدين على الكفار، وبهذا وجد أعداؤه الفرصة ليعيروه أن أصدقاءه هزموا، وأن إلهه لا يستطيع مساعدته".

كما ذكر أن النبي ركز في القرآن المكي كثيرًا على موسى تحديدًا لشعوره أنه قريب منه؛ يقول(١):

"Am häufigsten behandelt Muhammed übrigens die Geschichte Mose's, dem er sich damals wohl am nächsten verwandt fühlte".

وترجمته:

"إن محمدًا تناول قصة موسى كثيرًا، حيث كان يشعر في نفسه وقتذاك أنه قريب منه".

وأقول وبالله التوفيق:

أ – إن دعواه أن النبي كان في مكة يهتم بالمسيحيين ويكاد أن يتساوى بهم؛ هي دعوى مرسلة ذكرها نولدكه دون أن يقدم ما يمكن أن يكون شاهدًا لها حتى نناقشه فيه. كما أنه لم يبين مظاهر اهتمام النبي بالمسيحيين أو تساويه المزعوم بهم.

ب– أما دعواه أنه ﷺ اعتبر نصر الروم على الفرس نصرًا للموحدين على الكفار؛ فإن طرحه المسألة بهذه العجالة ينطوي على مغالطة؛ فمعلوم تاريخيًّا أن "كسرى أبرويز زعيم الفرس زحف عام ٦١٤م(٢) على بلاد خاضعة للروم هي سوريا ومصر وأنطاكية وبيت المقدس، وقتل في سوريا وقتها ٩٠٠٠٠ إنسان. كما فتح آسيا الصغرى التي كانت كذلك خاضعة للروم. وظل هذا الانتصار حتى عام ٦٢٢م حين حشد هرقل قواته، وركب

(١) عند حديثه عن سور الطّور المكي الثاني ١٢٠.

(٢) حدد د. البهي (تفسير سورة الروم ص١٤) تاريخ هزيمة الروم بالعام ٦١٦م.

البحر إلى كليكيا في آسيا الصغرى، واحتل إيسوس وحارب الفرس، وانتصر عليهم في نفس العام"[١].

والآيات الكريمة التي أشارت لهذين الحادثين هي قوله تعالي: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢].

ونلاحظ هنا أن الروم لم يوصفوا في الآيات التي معنا - أو في غيرها - بالموحدين. ولعل عدم وصفهم بهذا الوصف فيها؛ هو الذي جعل نولدكه لا يذكرها عند عرضه لدعواه، حتى يجعل الأمر ملتبسًا على قارئه الألماني.

كما أن الروايات التي وردت في الشأن الذي معنا لم تصف الروم بالموحدين؛ بل أشارت إلى قرب نسبي سيتضح بعد قليل؛ فقد روى ابن جرير بسنده[٣] عن عبد الله بن مسعود قال: (كانت فارس ظاهرة على الروم، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم؛ وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم - أي الروم - أهل كتاب وهم أقرب لدينهم...). الحديث.

وعن ابن عباس قال[٤]: (... كان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل الكتاب).

---

(١) راجع: جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي ج١ ص٥٢-٥٣.

(٢) الروم: ٢-٦:

(٣) تفسير الطبري لمفتتح سورة الروم.

(٤) دلائل النبوة: البيهقي ج٢ ص٣٣٠-٣٣١ وبهامشه تخريج الحديث المذكور، حيث أخرجه الترمذي في جامعه ٤٨: كتاب التفسير ٣١: باب (ومن سورة الروم) حديث (٣١٩٣)، صفحة ٥: ٣٤٣-٣٤٤، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب، إنما نعرفه من حديث سفيان الثوري عن حبيب بن أبي عمرة. وانظر: ابن كثير، التفسير ج٣ ص٤٠٨.

وجاء كذلك عن أبي سعيد الخدري من الصحابة ومجاهد من التابعين أن فرح المسلمين بنصر الروم لأنهم كانوا أهل كتاب والفرس أهل أوثان[١].

ويقول ابن كثير[٢]: (لما انتصرت الروم على الفرس فرح المؤمنون لذلك؛ لأن الروم أهل كتاب في الجملة، فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس).

وغاية ما في فرح المؤمنين المشار إليه في الآيات أن هناك حيثيتين له؛ فهم فرحوا لأن أهل الكتاب أقرب إلى المسلمين من المشركين؛ فانتصارهم محبب - بلا شك - للمسلمين. وفرحوا كذلك؛ لأن هذا النصر مقدمة لانتصارهم هم على المشركين العرب.

ج- أما ذكر موسى عليه السلام في القرآن المكي كثيرًا فلا يمكن أن يكون دليلًا على أنه ﷺ كان يتخذ اليهود مرجعية لأنه عليه السلام قد ذُكر كذلك في القرآن المدني ستًّا وعشرين مرة كلها في مواضع تقدير وتكريم؛ وفيها:

أن الله آتاه الكتاب والفرقان وسلطانًا مبينًا[٣]، وأنه جاء قومه بالبينات والمعجزات[٤]، وأن الله كلمه[٥]، وأخذ منه الميثاق[٦]، وأن الله أمر محمدًا ﷺ أن يؤمن بما أنزله على موسى[٧]، وسمى الذين كذبوه كافرين[٨].

---

(١) المرجع نفسه ص٣٣١، ٣٣٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم ج٣ ص٤١١.

(٣) الآيات هي: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، و﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾، و﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾، و﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ وهي الآيات: البقرة: ٥٣، ٨٧، والنساء: ١٥٣، والأنعام: ١٥٤.

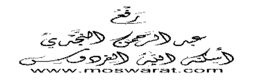
(٤) البقرة: ٦٠، ٩٢.

(٥) النساء: ١٦٤.

(٦) الأحزاب: ٧.

(٧) البقرة: ١٣٦، آل عمران: ٨٤.

(٨) الحج: ٤٤.



كما أن النبي ﷺ قال: «**أنا أولى بموسى منهم**»[١]، وقال عنه: «**إن موسى كان رجلًا حييًا سِتِّيرًا، لا يُرى من جلده شيء استحياء منه...**». الحديث[٢].

وأثنى النبي عليه؛ ففي الحديث أن رجلًا من المسلمين ورجلًا من اليهود تشاتما فقال المسلم: والذي اصطفى محمدًا على العالمين - في قسم يقسم به - فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين. فرفع المسلم يده عند ذاك فلطم اليهودي، فذهب اليهودي إلى النبي فأخبره.. فقال النبي ﷺ: «**لا تخيروني على موسى؛ فإن الناس يصعَقون فأكون أولَ من يُفيق فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان ممن صَعِق فأفاق قبلي أو كان ممن استثنى الله**»[٣].

لذا أقول: إن ذكر موسى عليه السلام وشعور النبي ﷺ أنه قريب منه لم يكن قاصرًا على القرآن المكي ولا الفترة المكية.

* * *

الدعوى الرابعة: استدل نولدكه على اتخاذ النبي أهل الكتاب مرجعية في الفترة المكية وبدايات المدنية، بأن القرآن دعا العرب في البداية أن يؤمنوا بما تلقاه اليهود من موسى، وما تلقاه المسيحيون من عيسى؛ فلقد مر قوله[٤]:

"أقنع محمد العرب في البداية أن يؤمنوا بما تلقاه المسيحيون من عيسى، وما تلقاه اليهود من موسى".

وأقول هنا:

أ- إنه صحيح أن النبي دعا العرب في مكة أن يؤمنوا بما تلقاه اليهود من موسى، وما تلقاه المسيحيون من عيسى:

---

(١) البخاري: بشرح ابن حجر، ك: أحاديث الأنبياء ح (٢٣٩٧)، ج٦ ص٤٢٩.
(٢) المصدر نفسه ح (٣٤٠٤)، ص ٤٣٦.
(٣) المصدر نفسه ح (٣٤٠٨) ص٤٤١.
(٤) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٤٦، وذكرته من قبل في سياقه.

فقد قال الله تعالى في آية مكية من سورة العنكبوت: ﴿وَلَا تُجَادِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[1].

وقال في آية مكية من سورة الشورى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[2]. ويقول بعدها: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ﴾ الآية[3].

لكن القرآن المكي لم يقف عند هذا الحد الذي ظنه نولدكه مؤيدًا لدعواه؛ بل أضاف أيضًا أن القرآن ذاته مصدق للكتب التي أنزلها الله قبله:

فقال تعالى في آياتٍ كلها مكية واصفًا القرآن بأنه: ﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ و﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾. ووصف الرسول ذاته بأنه ﴿جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[4].

ب- لكن الذي سيصدم من يؤيد نظرية نولدكه هو أن القرآن المدني أيضًا واصل تَجْلية كل تلك الحقائق رغم زعم نولدكه التحول في المرجعية؛ إننا نجد فيه:

وجوب الإيمان بما أُنزل على موسى وعيسى وغيرهما من حملة وحي الله؛ قال تعالى في آيات مدنية: ﴿أَن ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾. الآية. و﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾. و﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾.

(١) الآية: ٤٦.
(٢) الآية: ١٣.
(٣) الشورى: ١٥.
(٤) المواضع مرتبة هي: (٣٧ يونس و١١١ يوسف)، (٩٢ الأنعام)، (٣١ فاطر و٣٠ الأحقاف)، (٣٧ الصافات).

و﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[1].

كما ذكر الوحي المدني كذلك تصديق القرآن للكتب التي قبله؛ فقد استمرت الآيات المدنية في تأكيد هذه الحقيقة؛ فوُصِف القرآن في تلك الآيات بأنه: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[2] و﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾[3].

إن استمرار القرآن المدني في تجلية هذه الحقيقة من شتى جوانبها يكشف لنا خطأ نولدكه حين نظر لها على أنها موقف مرحلي أو (تكتيكي) من النبي في مكة لارتباطه باتخاذ اليهود والنصارى مرجعية له في تلك المرحلة كما زعم. ولو كان الأمر كما زعم لتغيَّر هذا الموقف عندما عارض اليهود النبي في المدينة ووقفوا في وجه دعوته وحرضوا عليه؛ لكن الحاصل هو أن القرآن استمر في المدينة مؤكدًا لهذه الحقيقة. وعليه فلا قيمة لاستدلال نولدكه بهذه الشبهة.

* * *

الدعوى الخامسة: استدل نولدكه بما قال إنه دعوة من القرآن المكي العربَ لسؤال أهل الكتاب عن صدق النبي ﷺ فقال[4]: إنه "دعا بتفاؤل غير المؤمنين الذين يحتاجون للمعرفة إلى سؤال العارفين حتى يصلوا إلى معرفة حقية رسالته: الآية ٤٥ النحل و٧ الحج"[5].

ويتعلق بهذا أن نولدكه حكم بمكية الآيات التي تبين معرفة أهل الكتاب بالنبي ﷺ أو إيمانهم به؛ فقال[6]:

(١) الآيات هي: المائدة: ٥٩، البقرة: ٤، النساء: ١٣٦، آل عمران: ٨٤. وقريب منها البقرة: ١٣٦.
(٢) البقرة: ٩٧، وآل عمران: ٣، والمائدة: ٤٨.
(٣) البقرة: ٨٩.
(٤) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٤٦، وذكرته من قبل في سياقه.
(٥) ختمت كل آية منهما بـ ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.
(٦) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٥٣.

"Sur. 28, 52 deutet man ebenso falsch auf die Christen, welche zu Muhammed nach Medina kamen. Denn um andere Gründe zu verschweigen, wie konnte Muhammed nach seinen traurigen Erfahrungen mit den Juden noch sagen, daß die welche die Schrift empfangen hätten, an den Qoran glaubten?"

وترجمته:

"يجعل البعض[1] بشكل خاطئ الآية ٥٢: القصص[2] والتي تليها تشيران إلى النصارى الذين قدموا على محمد ﷺ في المدينة؛ إذ إنه – ومع سكوتنا عن الأسباب الأخرى – [نسأل]: كيف كان في استطاعة محمد بعد خبرته السيئة مع اليهود أن يستمر في القول: إن الذين أوتوا الكتاب آمنوا بالقرآن؟".

وقال[3] بشأن الآية ٢٠ من سورة الأنعام ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُ﴾ الآية: إنها "قدمت من قِبل البعض بدون علة كافية على أنها مدنية، ويحتمل أن يكون ذلك بسبب ذكر أهل الكتاب".

وبسبب وجود لفظي (شهيد) و(شاهد)؛ قال[4] الشيء ذاته عن الآية ٤٣ من سورة الرعد ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾. والآية ٩ من سورة الأحقاف ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾.

فهو يرفض إذن أن تكون الآيات (التي فيها إيمان أهل الكتاب بالقرآن) مدنية.

وأقول فيما يتعلق بطلب القرآن من العرب سؤال أهل الكتاب:

أ- إن نولدكه يستشهد هنا بالآيتين: ٤٢ النحل[5] و٧ الأنبياء؛ وهما وإن كانتا

---

(١) يشير في الهامش إلى مفسرين منهم: الطبري والرازي والزمخشري والبيضاوي والسيوطي في الإتقان.

(٢) ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾.

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٦١.

(٤) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٦٣-١٦٤، وص١٦٠.

(٥) هي في مصحفنا رقم (٤٣).

قد ختمتا بالطلب من العرب أن يسألوا أهل الكتاب: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ إلا أن بداية كل منهما ليس فيها ما يشير من قريب أو بعيد إلى أن يسأل العربُ أهل الكتاب عن صدق رسالة النبي ﷺ؛ لأن الجزئية التي طُلب من العرب أن يسألوا عنها محددة هي: كون الأنبياء السابقين بشرًا؛ فالآيتان هما: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ و﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وقد ذكر ابن كثير[1] قول ابن عباس: (لما بعث الله محمدًا رسولًا أنكر العرب ذلك، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرًا فأنزل الله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ الآية، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني أهل الكتب الماضية: أبَشرًا كانت الرسل إليهم أم ملائكة؟).

وقال[2] كذلك بشأن آية الأنبياء: "أي اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف: هل كان الرسل الذين أتوهم بشرًا أو ملائكة؟".

ب- وفي الحالة التي قام فيها المشركون بسؤال أهل الكتاب، ورواها ابن إسحاق[3] كسبب لنزول سورة الكهف؛ كان المشركون هم المبادرين بالسؤال دون أمر من النبي. وفيها أن المشركين سألوا في العهد المكي يهود المدينة عن صدق النبي ﷺ - فوجهوهم لأن يسألوه عن أهل الكهف

(١) تفسير القرآن العظيم ج٢ ص٥٥١.

(٢) المرجع نفسه ج٣ ص١٦٩، وراجع كذلك: محمد البهي: التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: الأنبياء ص١١.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص١٨٠-١٨١، وذكر السيوطي (لباب النقول في أسباب النزول ص٢٠٩) أن ابن جرير الطبري أخرج الرواية من طريق ابن إسحاق، وراجع تفسير ابن كثير ج٣ ص٧٠.

وذي القرنين وعن الروح فنزلت سورة الكهف، لكن ليس فيها أن ذلك السؤال كان بأمر من النبي.

ج- وحتى إن كان ذلك السؤال بأمرٍ من القرآن أو منه ﷺ، وكان على حقيقته، ومتعلقًا بصدقية رسالته؛ فإنه لا يصدر من منطلق اعترافٍ بمرجعية أهل الكتاب؛ وإنما يصدر من أنهم كانوا ينتظرون مبعثه؛ إذ قد تضافرت الروايات على ذلك، وبدليل أن جمهورًا عريضًا من المعاصرين له ﷺ هم الأوس والخزرج؛ آمنوا به ﷺ؛ وكان من دوافع هذا الإيمان تبشير اليهود بينهم بمقدم نبي قرب زمانه[1]. كما يصدر من أن بعض أهل الكتاب آمنوا بالنبي في مكة، وفق ما بينته بعض آيات القرآن المكي.

فلا ضير إذن في أن يساعد القرآن العرب - إن كان قد حصل طلب أصلًا - حتى يصلوا للحقيقة في شأنه ﷺ بأن يأمرهم أن يسألوا هؤلاء. وسؤالهم إنما هو لهذين الجانبين.

د- كما أنه على فرض ثبوته كذلك؛ فلا يمكن أن يكون الطلب من العرب سؤالَ أهل الكتاب دليلًا على أن النبي كان يتخذهم مرجعية؛ لأن المسؤولين إذا كانوا يهود المدينة؛ فلاشك أن في قدوم النبي الجديد إهدارًا لمرجعيتهم؛ فكيف يُجعل سؤالهم دليلًا عليها؟!. وإذا كان المسؤولون مؤمني أهل الكتاب؛ فكيف يتصور كون دينهم السابق مرجعية للنبي؛ برغم أنهم قد أسقطوا بأنفسهم كونه مرجعية لهم وحل محله في هذا: الإسلام؟

***

(١) من هذا القبيل ما رواه ابن إسحاق (السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٣٥٥) عن ابن عباس أن معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور، أخا بني سلمة، قالا ليهود: (يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا؛ فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك، وتخبروننا أنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته). وفي المصدر نفسه أيضًا (ص٣٦٨) أن معاذًا قال لبعض اليهود: (اتقوا الله!! فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه، وتصفونه لنا بصفته). وسيأتي تفصيل هذا في الفصل التالي.

وفيما يتعلق بافتراض نولدكه مكيةَ كل الآيات التي فيها أن بعض أهل الكتاب يعرفون النبي ويشهدون له أو يؤمنون به؛ أقول:

إن تخطيء نولدكه لأقوال بعض علمائنا بمدنية الآيات المذكورة قد لا يجلب كثير خلاف معه، ما دام حكمه بمدنية آية أو مكيتها مبنيًّا على رواية صحيحة أو قاعدة منضبطة، وليس للفكرة المسبقة دخل فيه؛ لكن الذي حدث أن نولدكه تخفى وراء الحكم بمكية هذه الآيات ليدعم دعواه الباطلة أن النبي ﷺ كان يتخذ أهل الكتاب مرجعية له في مكة، ومن ثم أعلن (أي النبي) أنهم يعرفونه ويؤمنون به؛ لكن النبي بعد أن كذَّبه اليهود في المدينة؛ فلا ينتظر منه إذن أن يستمر في القول إنهم يؤمنون بالقرآن أو يعرفون النبي؛ فلقد مر قول نولدكه: "كيف كان في استطاعة محمد بعد خبرته السيئة مع اليهود أن يستمر في القول (!!): إن الذين أوتوا الكتاب آمنوا بالقرآن؟".

إنه هنا وبغض النظر عن مكية أو مدنية الآيات محل الخلاف؛ وبرغم أني أميل إلى كونها مكية كما ذهب نولدكه؛ فإن ذكر القرآن حقيقة أن أهل الكتاب كانوا يعرفون النبي لم يحصل في مكة فقط كما يدعي؛ بل حصل في المدينة أيضًا:

١- أما حصوله في مكة فهو في مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ﴾[1] الذي رجح نولدكه القول بمكيته، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا﴾[2]. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾[3].

لكن حصول هذا في القرآن المكي لا يفسر أبدًا من منطلق نظرية نولدكه المزعومة؛ لأنها تهدف إلى القول بأن النبي ﷺ كان يتخذ أهل الكتاب مرجعية له في مكة،

(١) القصص: الآيات ٥٢-٥٥.

(٢) الإسراء: ١٠٧-١٠٩.

(٣) سبأ: ٦.

ومن ثم أعلن (أي النبي) أنهم يعرفونه ويؤمنون به. بل يفسر بروايات صحيحة تربط معظم هذه الآيات بأحداثٍ حقيقية؛ آمن فيها بعض أهل الكتاب بالنبي في مكة[1].

إن نولدكه يريد أن يفترض فكرة ذهنية لدى النبي هي التي أنتجت هذه الآيات؛ لكن الحقيقة هي أن تنزيل هذه الآيات كان مرتبطًا بحوادث واقعية بإسلام بعض أهل الكتاب.

٢- وحصوله في المدينة ورد في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[2] و﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ الآية[3] و﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[4]، و﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[5].

(١) قال ابن إسحاق (السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٢٤٤-٢٤٥، وراجع ابن كثير: التفسير ج٣ ص٣٨٠) بشأن الآيتين ١٠٧-١٠٩: الإسراء اللتين ذكرتا أعلاه: "ثم قدم على رسول الله وهو بمكة عشرون رجلًا، أو قريب من ذلك، من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلموه وسألوه، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مسألته عما أرادوا؛ دعاهم رسول الله إلى الله، وتلا عليهم القرآن؛ فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له، وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا عنه؛ اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش فقالوا لهم: خيبكم الله من ركب! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال؟ ما نعلم ركبًا أحمق منكم. أو كما قالوا. فقالوا لهم سلام عليكم لا نجاهلكم؛ لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيرًا". وأقول: لا ينبغي لأحد أن يستبعد حصول هذا؛ لأن هؤلاء النصارى قد بلغهم خبر النبي عن طريق مهاجري الحبشة، وقد صرحت الرواية بذلك.

(٢) البقرة: ١٤٤.

(٣) البقرة: ١٤٦، بالإضافة إلى الأنعام: ٢٠، التي مدنيتها محل خلاف.

(٤) البقرة: ٨٩.

(٥) الصف: ٦.

ومدنية هذه الآيات دليل على استمرار مواجهة أهل الكتاب بعرض حقيقة أنهم يعرفون النبي، وأن هذا لم يحصل في مكة فقط؛ وإنما حصَل في المدينة أيضًا؛ لأن الأمر يتعلق بحقائق ثابتة - لا يسع نولدكه أو غيره تجاهلها - عن معرفة[1] أهل الكتاب للنبي.

٣- وإذا كانت هذه الآيات المدنية تواجه بتلك الحقيقة أهل الكتاب الذين لم يدخلوا في الإسلام؛ فإنه توجد أيضًا آيات مدنية أخبرت أن بعض أهل الكتاب آمنوا بالنبي محمد ﷺ في المدينة؛ منها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الآية، وقوله تعالى بعد أن أخبر أنه أعد للكافرين من اليـهود عذابًا أليمًا: ﴿لَّٰكِنِ الرَّٰسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَوٰةَ ۚ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ الآيات[3].

إن هذه الآيات ترتبط بإسلام بعض أهل الكتاب في المدينة؛ فلقد أسلم منهم

(١) تروي السيدة صفية بنت حيي بن أخطب (ابن هشام: السيرة النبوية ج٢ ص٣٢٩-٣٣٠) أنه عندما نزل رسول الله قباء في بداية الهجرة ذهب إليه أبوها وعمُّها أبو ياسر بن أخطب مبكرَين، فلم يرجعا حتى غربت الشمس وبهما غم وهم شديدان. قالت: فسمعت عمي يقول لأبي: أهُوَ أهُوَ؟ قال أبي: نعم والله؛ قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت!! هذا وقد حاول سيد يهود بني قريظة؛ وهو: كعب بن أسد إقناع قومه أن يعلنوا ما يعرفونه من صدق النبي بقوله لهم: نتابع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل، وأنه للَّذي تجدونه في كتبكم... لكنهم أبوا. (راجع: محمود شاكر: التاريخ الإسلامي المجلد١ ص٢٨١). وقال عبد الله بن صوريا (أحد أحبار اليهود) عن إخوانه منهم (ابن هشام: ج٢ ص٣٦٩): أما والله يا أبا القاسم إنهم ليعرفون أنك نبي مرسل، ولكنهم يحسدونك.

(٢) الآيات مرتبة هي: البقرة: ١٢١، آل عمران: ١٩٩، النساء: ١٦٢.

(٣) المائدة: ٨٢، ٨٣، وأيضًا ٨٤، ٨٥، ٨٦.

عبد الله بن سلام أحد كبار أحبارهم، بعد أن عرف رسولَ الله بصفته واسمه وزمانه ودَعا عمته: خالدة بنت الحارث، وأهل بيته فأسلموا. كما أسلم مخيريق بن الفطيون الذي كان من أحبار يهود بني ثعلبة المتعنتين مع الرسول. وكان إسلام هذين في بداية مقدم النبي المدينة. وأسلم يامين بن عمير وأبو سعد بن وهب من يهود بني النضير. وأسلم ثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وأسد بن عبيد من بني قريظة، وأسلمت ريحانة بنت عمرو بن خنافة من بني قريظة كذلك. وأسلم محيصة بن مسعود وأخوه حويصة، وأسلمت صفية بنت حيي بن أخطب التي تزوجها النبي وكان أبوها من أشد اليهود عداوة للنبي والمؤمنين. كما أسلم غلام منهم عاده الرسول في مرض موته، ودعاه للإسلام فنظر إلى أبيه فقال له: أطع أبا القاسم. كما أسلم من أولاد بني قريظة الذين كانوا صغارًا عند قتل آبائهم: عبد الرحمن بن الزبير وعطية القرظي ورفاعة بن شموئيل القرظي. بالإضافة إلى بعض النصارى مثل الجارود بن عمرو من بني عبد القيس.

فكيف يتجاهل نولدكه إيمان كل هؤلاء، ليزعم أنه "كيف كان في استطاعة محمد بعد خبرته السيئة مع اليهود أن يستمر في القول (!!): إن الذين أوتوا الكتاب آمنوا بالقرآن؟".

كما أن نولدكه ذاته اختار[1] القول بمدنية آية، فيها ذكر لاتباع بعض أهل الكتاب للنبي ﷺ، وهي الآية ١٥٦ [2] الأعراف ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾. وذلك بسبب ورود كلمات: (الأُمِّيّ) (التَّوْرَاةِ) (الإنْجيلِ) التي لا ذكر لها في القرآن المكي، و(عَزَّرُوهُ) و(نَصَرُوهُ) التي تشير إلى الأنصار.

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٥٩-١٦٠.

(٢) هي في مصحفنا رقم (١٥٧).

إننا نصل هنا إذن إلى أنه: كما أن القرآن المكي فيه أن أهل الكتاب يعرفون النبي، وأن بعضهم آمنوا به، وأن ذلك يرتبط بوقائع ثابتة ولا ينطلق من نظرية نولدكه المزعومة؛ فإن القرآن المدني فيه هذا أيضًا؛ وعليه فقد تجلى كذب دعوى نولدكه ورود ذلك فقط في القرآن المكي.

***



المبحث الثاني
ادعاءاته المتعلقة ببدايات العهد المدني

الدعوى الأولى: ادعى نولدكه أن القرآن في بدايات العهد المدني لم يهاجم اليهود.

فعند حديثه عن الآية ٣١ المدثر ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾؛ رجح أنها – ما عدا خاتمتها: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ تنتمي لبداية العهد المدني، مستدلًّا على ذلك بما ذكر في الآية من طوائف أربعة قُسّم إليها البشر في المدينة؛ هم: (الذين كفروا)، و(الذين أوتوا الكتاب)، و(الذين آمنوا)، و(الذين في قلوبهم مرض). معللًا ذِكر (الذين أوتوا الكتاب) إلى جانب المؤمنين؛ بأن محمدًا ﷺ كان ما يزال لديه فكرة طيبة عن اليهود، وكان يضعهم والمؤمنين في جبهة واحدة، لكنه عرفهم فيما بعد على أنهم أعدى أعدائه".

يقول[1]:

"In diesen Teil ist ein Abschnitt aus weit späterer Zeit eingesprengt, nämlich V. 31 - 34, während der Schluß وما هو إلا ذكرى للبشر *vielleicht dem älteren Bestande angehört und die ursprüngliche Fortsetzung von V.30 gewesen ist. Die Interpolation welche vielleicht schon vom Propheten herrührt ist jedenfalls erst medinisch. Denn wir finden in ihr schon die vier Klassen von Menschen unterschieden, mit denen es Muhammad in Medina zu tun hatte*

1) die Juden ("die, welche die Schrift erhalten haben");

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٨٨-٨٩.

2) die Muslime ("die, welche glauben;"

3) die Zweifler[1] "die, in deren Herzen Krankheit ist."

4) die Götzendiener.

Doch mögen sie immerhin aus der ersten medinischen Zeit sein, da er in ihnen noch der Juden freundlich gedenkt und sie mit den Gläubigen in eine Linie stellt, während er dieselben bald als seine bittersten Feinde erkannte".

وترجمته:

"أُدخل في هذا القسم (يقصد القسم الأول من سورة المدثر) مقطع يعود إلى وقت متأخر، وتحديدًا الآيات من ٣١ إلى ٣٤[٢]، في حين أن التذييل (وما هو[٣] إلا ذكرى للبشر) ربما ينتمي إلى الجزء الأساس من السورة، ويكون تكملة للآية ٣٠. هذه الإضافة - التي ربما أضيفت من النبي ذاته - هي على أية حال مدنية؛ وذلك لأننا نجد الأصناف الأربعة المختلفين من البشر الذين وجب على محمد أن يتعامل معهم في المدينة:

١- اليهود "الذين أوتوا الكتاب"

٢- المسلمين "الذين آمنوا"

٣- الشكاك "الذين في قلوبهم مرض"

٤- عباد الأصنام "الكافرون".

(١) استخدم نولدكه كلمة *die Zweifler* الألمانية لترجمة: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، وكذلك في كل مرة يرد فيها ذكر (المنافقين). وكان الأولى به أن يستخدم كلمة: *die Heuclher* لأنها تتضمن معنى الخداع، وهو من أهم مميزات النفاق، كما أن كثيرًا من المستشرقين الألمان قد سبقوه إلى استخدامها؛ لكنه انتقدهم وقال: إن استخدامها غير صواب؛ لأن معظم الناس الذين وصفوا في القرآن والسنة بالمنافقين ليسوا مخادعين حقيقة؛ بل إن قلوبهم لم تقتنع بالإسلام، والظروف وحدها هي التي أجبرتهم على اعتناقه.. راجع تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٨٨ هامش٥. وسأعالج هذه الجزئية في مكانها المناسب من دراسة لاحقة إن شاء الله.

(٢) وفقًا لترقيم مصحف فلوجل جعلت أربع آيات. وهي في مصاحفنا رقم ٣١.

(٣) كذا.. والصواب: (هي).

ومن المحتمل أن تكون هذه الآيات من الفترة المدنية الأولى حينما كان محمد لديه فكرة طيبة عن اليهود، وكان يضعهم والمؤمنين في صف واحد؛ لكنه ما لبث أن نظر إليهم فيما بعد على أنهم ألد أعدائه".

وقال[1]: "لقد تملك محمدًا في بادئ الأمر أمل كبير فيهم؛ بوصفهم أناسًا يعرفون الوحي بالفعل".

هذا بالإضافة إلى أن نولدكه يتحدث عما يشبه أن يكون ربطًا منه بين عداوة اليهود للنبي، وإنكار القرآن المدني عليهم، ويحدد بداية تلك العداوة بما بعد غزوة أحد[2] بما يعني في النهاية أنه قبل ذلك لم يكن هناك إنكار عليهم.

* * *

إن حديث نولدكه عن أمل النبي في اليهود ووضعهم والمؤمنين في جبهة واحدة سأناقشه بعد قليل؛ وأقول هنا:

أ- بشأن دعواه مدنية آية المدثر مستدلًا بذلك على أن القرآن في بدايات العهد المدني لم يهاجم اليهود؛ فإنه ليس لدى نولدكه دليل - من رواية أو اجتهاد صحيحين - على أن هذه الآية تنتمي لأوائل العهد المدني. فالروايات تجعلها مكية، فقد ذكر ابن جرير الطبري في تفسيرها بسنده عن عكرمة أن الآيات من: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ - حتى بلغ - ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ نزلت في الوليد بن المغيرة. كما ذكر ذلك ابن هشام. وذكر السيوطي عن ابن إسحاق أن أبا جهل قال يومًا: يا معشر قريش!! يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم في النار تسعة عشر، وأنتم أكثر الناس عددًا؛ أفيعجز مائة رجل منكم على رجل منهم؟؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ الآية. وقريب من هذا لدى الرازي[3].

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٦٩.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٩٢.

(٣) راجع: ابن هشام: السيرة النبوية ج١ ص١٦٣. والسيوطي: لباب النقول في أسباب النزول ٣٥٧، والرازي: التفسير الكبير المجلد ١٥ الجزء ٣٠ ص٨٤٦-٨٤٧.

- وما استدل به على مدنيتها من ذكر هذه الطوائف الأربعة فليس ثمة ارتباط بين الأمرين؛ إذ لم يقتصر ذكر المؤمنين والكافرين وأهل الكتاب على القرآن المدني؛ فذِكْر المؤمنين والكافرين في القرآن المكي أظهر من أن ندلل عليه. وذكرُ أهل الكتاب ورد في: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ الآية. و﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ الآية[1].

ب- ودعواه هنا الارتباط بين ذكر أهل الكتاب في آية وكونها مدنية يعارضها هو نفسه في موضع آخر حين رفض قول بعض العلماء المسلمين[2] عن آيات: إنها تعد مدنية معللين ذلك بذكر أهل الكتاب فيها؛ واعتبر هذا السبب علة غير كافية للحكم بمدنيتها؛ قال[3]: "قُدمت الآية ٢٠ من سورة الأنعام[4] من قِبل البعض بدون علة كافية على أنها مدنية، ويحتمل أن يكون ذلك بسبب ذكر أهل الكتاب".

وقال[5] الشيء نفسه عن الآية ٤٣ من سورة الرعد[6]، والآية ٩ من سورة الأحقاف[7]؛ بسبب وجود لفظي: (شهيد) و(شاهد).

وأتساءل هنا: كيف تكون العلة الواحدة مرة مقبولة وكافية للتوصل إلى حكم معين؛ ومرة أخرى غير مقبولة ولا كافية لأن يُتوصل بها إلى الحكم ذاته؟

- أما ذكر ﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هنا فلا يشير بالضرورة إلى منافقي المدينة؛ إذ إنهم كانوا مُحددي المعالم بارزي السمات ذوي تكتل خاص، وظهروا في المدينة بعد الهجرة عند بروز الإسلام كقوة لم يقدروا على مواجهتها علنًا، فاختاروا طريق الدس الخفي.

---

(١) العنكبوت: من الآيتين: ٤٦، ٤٧.

(٢) السيوطي: الإتقان ٢٠، ٢٣.

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٦١.

(٤) ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُ﴾ الآية.

(٥) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٦٣-١٦٤، وص١٦٠.

(٦) ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

(٧) ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾ وهي رقم (١٠) في مصحفنا.

والذي ورد هنا هو وصف: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ولـيس: (المنافقون).. والفارق بينهما واضح.؛ إذ إن الأول أعم يشمل المنافق وغيره ممن انطوى قلبه على شك غير مخطط له، لم يخفه صاحبه.. وهؤلاء ما اقتصر وجودهم على العهد المدني، بل يمكن أن يوجدوا في المرحلة المكية. أما المنافق فهو يسير وفق خطة يظهر فيها - لغرض ما - الإيمان ويبطن الكفر - لا الشك - ويجتهد في إخفاء كفره، فلا يظهر إلا رغمًا عنه.

وعلى ذلك فلا يمتنع عقلًا وجود أفراد في مكة لم يتمكن الإيمان من قلوبهم، وأثرت فيهم حملات التشكيك من جانب المشركين؛ فاضطرب إيمانهم. وقد ألفينا ذكرًا لبعض أخبارٍ عن مرض قلوبهم فارتدوا إثر حادثة الإسراء[1]. وقد يضم إلى هؤلاء أيضًا فريق من المشركين لم يكونوا جازمين بكذب رسالة النبي، بل كانوا شاكين فيه؛ يقول الرازي: (ويجوز أن يُراد الشك. لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكين، وبعضهم كانوا قاطعين بالكذب)[2].

لهذا كله فإني أرفض دعوى نولدكه أن الآية تنتمي إلى الفترة المدنية الأولى؛ وبالتالي يسقط احتجاجه بأن ما ادعاه فيها من مضامين تنتمي كذلك إلى نفس الوقت.

ج- لكن بغض النظر عن هذه الجزئية.. أتساءل: هل تنطوي الآية فعلًا على ما يفيد أن النبي كان لديه في ذلك الوقت فكرة طيبة عن اليهود، وأنه كان يضعهم والمؤمنين في جبهة واحدة كما ادعى نولدكه؟ سنتبين الأمر:

إن الآية تبين أن التأثير المترتب على ذكر عدد خزنة النار سيكون على ضروب أربعة:

أولها: فتنة الكافرين؛ وهذا ما حدث بالفعل؛ فقد رُوي أنه لما نزلت قال أبو جهل:

---

(١) المستدرك على الصحيحين ج٣ ص٨١ رقم (٤٤٥٨)، والسنن الكبرى ج٦ ص٣٧٧ رقم (١١٢٨٣).

(٢) التفسير الكبير مجلد ١٥ ج٣٠ ص٨٥١.

أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم؟ فقال أبو الأشد بن أسيد بن كلدة الجمحي، وكان شديد البطش: أنا أكفيكم سبعة عشر واكفوني أنتم اثنين!. فقال المسلمون: ويحكم لا تقاس الملائكة بالحدادين!.. فأنزل الله: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾[1].

ثانيها: استيقان أهل الكتاب[2] لأنهم كانوا يقرؤون التوراة والإنجيل، وفيها: أن عدد الزبانية هو هذا القدر، ولكنهم ما كانوا يعولون على ذلك كل التعويل لعلمهم بتطرق التحريف إلى هذين الكتابين، فلما سمعوا ذلك من رسول الله قوي إيمانهم، واستيقنوا أن ذلك العدد هو الحق والصدق[3].

كما أن هذا العدد "لما كان موجودًا في كتابهم؛ وأخبر عليه السلام على وفق ذلك من غير سابقة دراسة وتعلم؛ فظهر أن ذلك حصل بسبب الوحي؛ فالذين آمنوا بمحمد من أهل الكتاب يزدادون به إيمانًا"[4].

ثالثها: ازدياد إيمان المؤمنين، وذلك بسبب أن "كل قول من ربهم يزيدهم إيمانًا؛ لأن قلوبهم مفتوحة موصولة"[5].

رابعها: عدم ارتياب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنين؛ فلا يعاودهم الشك مرة أخرى.

خامسها: أن الذين في قلوبهم مرض والكافرين سيتساءلون قائلين: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾.

إن جملة ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ على أي وجه فهمت عليه؛ لا تشهد لنولدكه في دعوى أن الآية تحمل فكرة طيبة عن اليهود، وتجعلهم مع المؤمنين جبهةً واحدة:

---

(١) الرازي: التفسير الكبير المجلد ١٥ الجزء ٣٠ ص٨٤٦-٨٤٧، ونفس المعنى لدى السيوطي: لباب النقول ٣٥٧، وابن هشام: السيرة النبوية ج١ ص١٩١.

(٢) ليس اليهود فقط كما قال نولدكه.

(٣) نفس المرجع ٨٥٠.

(٤) نفسه.

(٥) سيد قطب: في ظلال القرآن مجلد٦ ص٣٧٥٩.

فإذا فهمنا منها أنها تعني: الذين آمنوا بالنبي منهم؛ كما ذكر الرازي؛ فإن الحديث إذن ليس عن طرفين في جبهة، وإنما عن طرف واحد؛ ضمّ إلى جانب المؤمنين؛ مَن لحق بهم من أهل الكتاب.

وإذا فهمنا منها أنها تعني كافة أهل الكتاب: من آمن منهم ومن لم يؤمن؛ فإننا نلاحظ في الآية أثرين مختلفين لذكر عدد ملائكة النار؛ أحدهما ينفي الارتياب، وهو مشترك ومتحقق لكل من أهل الكتاب والمؤمنين: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾. أما الآخر فهو يُثبِت. لكن الذي يثبته للمؤمنين غير الذي يثبته لأهل الكتاب؛ فهو يثبت لأهل الكتاب: (الاستيقان): ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ ويثبت للمؤمنين (ازدياد الإيمان): ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾. فلئن كان الفريقان قد جاءا في جملة واحدة؛ فإن الوصف بالإيمان المعهود المعروفِ متعلَّقُه؛ لم يكن إلا للمؤمنين؛ أما وصف الاستيقان في الآية فقد لا يتعلق بغير عدد خزنة النار، ولا يترتب عليه عندئذ الحكم بالإيمان؛ لأن المرء قد يكون مستيقنًا من أمر معين، لكنه لم يؤمن به بعد. فلا يقبل إذن القول: إن الآية تضعهما في جبهة واحدة.

د- وأتساءل مرة أخرى: لماذا تغافل نولدكه عن آيات كثيرة في العهد المكي، وأخرى في بدايات العهد المدني؛ تعارض أهل الكتاب، وتفضح أخطاءهم، واعتمد فقط على آية وحيدة هي التي معنا، بعد أن نزعها من سياقها في سورة مكية؟

ومعارضة القرآن لليهود في العهد المكي تحدثت عنها فيما سبق. أما معارضته لهم في بدايات العهد المدني فإنه مما لا شك فيه أن سورة البقرة أولُ المدني؛ وإذا كان علماؤنا عدوها كذلك[1] فإن نولدكه لا يجادل في هذا، بل يقر بصوابية قولهم[2]؛ فهو يجعلها الأولى في ترتيب السور المدنية[3]، ويقول عنها[4]: إنها

(١) السيوطي: الإتقان ص١٤ الواحدي أسباب النزول. ص٢٥ وابن كثير: التفسير ج١ ص٣٤.
(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٧٣.
(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ صX.
(٤) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٧٣.

"أقدم تلك السور؛ لأن الجزء الأكبر لها ينتمي للعام الثاني من الهجرة وتحديدًا لفترة ما قبل غزوة بدر".

أقول: إن في سورة البقرة هذه عددًا كبيرًا من الآيات التي تفضح بعض صفات اليهود وفعالهم وترد عليهم؛ فتذكر عدم التزامهم بالبر الذي يدعون الناس إليه، وعدم شكرهم نعم الله عليهم في تاريخهم الطويل، وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير الحق، ومخالفتهم لموسى رسول الله إليهم وتمردهم عليه، وقسوة قلوبهم بحيث صارت أشد من الحجارة، وتحريف بعضهم كلام الله وكفرهم ببعضه، وادعائهم عليه تعالى ما لم يقله، واتخاذهم العجل، وتشبثهم بالدنيا وحرصهم عليها، وعدائهم لجبريل ونقضهم العهود. كما تذكر عقاب الله لهم، حيث ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ و﴿لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾[(1)].
وورد هذا في آيات كثيرة من أوائل العهد المدني منها:

الآيات ٧٥-٨٢[(٢)] من سورة البقرة التي تبين أنه لا ينبغي أن يطمع المؤمنون في إيمان اليهود، حيث إنهم لم يكونوا أوفياء للوحي الذي أنزل إليهم، فكيف يتوقع إيمانهم بالوحي الذي أنزل على غيرهم؟ وتصفهم الآيات بكتمان معرفتهم صحة نبوة النبي، وتوعدت الذين حرفوا كتاب الله منهم بالويل، ورفضت دعواهم قلة مدة بقائهم في النار.

والذي يتوقع من أي باحث موضوعي يتناول هذه الآيات - التي تعد من أوائل المدني - أن يستوقفه ما فيها من هجوم على اليهود؛ فلا يتسرع في ادعاء أن القرآن

(١) راجع الآيات ٤٤، ٥١، ٥٧، ٥٩، ٦١، ٦٥، ٧١، ٧٤، ٧٩، ٨٠-١٠٥ البقرة، ٤٦ النساء، ٨٨ البقرة.

(٢) من الآيات التي حددها، قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ و﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾.

المدني في بداياته لم يهاجم اليهود؛ لكن نولدكه لم يفعل؛ فقد اكتفى بأن أورد عن هذه الآيات جملة إذا ترجمناها إلى العربية فلن تزيد عن سبع كلمات هي قوله[1]:

"V. 70–76 [2] reden die Muslime an, aber mit Bezugnahme auf die Juden"

وترجمته:

"إنها تخاطب المسلمين لكنها تشير إلى اليهود".

ويا له من جديد طريف ذلك الذي وضعت أيدينا عليه جملته هذه!!

كما أن الآيات من ٨٣-٩٣[3] نسبت إليهم التظالم فيما بينهم. وصفتهم بأنهم: يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، وأنهم باعوا الآخرة واشتروا الدنيا، وتوعدت الذين فعلوا ذلك منهم بالخزي في الدنيا وأشد العذاب يوم القيامة، واتهمتهم بتكذيب فريق من أنبياء الله وقتل فريق، وبينت أن لعنة الله حقت عليهم بوصفهم كافرين، وأنهم باءوا بغضب من الله على غضب، وأنهم من بعد ما جاءهم موسى بالبينات اتخذوا العجل، الذي تمكن حبه من قلوبهم بسبب كفرهم.

كما أن بدايات القرآن المدني قد ردت عليهم في جوانب شتى من عقائدهم.

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٧٦.

(٢) هذا هو ترقيم نسخة القرآن التي رجع إليها نولدكه، نشر (فلوجل)، وهي تقابل ترقيم نسختنا الذي أشرت إليه أعلاه.

(٣) منها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ و﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ و﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ و﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ و﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ و﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾.

فعلى سبيل المثال مسألة الآخرة؛ حيث كان اليهود يتصورون أن الجنة لهم وحدهم باعتبارهم جنسًا مختارًا؛ فرد عليهم القرآن في هذا؛ قال تعالى في هذا الشأن مخاطبًا اليهود: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وحكى عنهم ورد عليهم؛ قال: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ و﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(1).

كذلك كانت سورة آل عمران(2)؛ فقد وصفت اليهود بـ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾(3)، وعابت عليهم إعراضهم عن تحكيم كتاب الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾(4).

هـ- وأود أن أسجل لنولدكه هنا أنه لم يخطئ فيجعل الآيات المذكورة من سورة البقرة مدنية متأخرة حتى تسلم له نظريته؛ وإنما ترك الحكم عليها، فأظهرت لدى البحث غير السطحي نقطة ضعف في نظريته... لكنه في موضع آخر وقع في هذا الخطأ، حين عمد إلى آيات تعارض اليهود، نزلت في بدايات العهد المدني فحدد لها زمن نزول متأخر.

أمامي مثال أطرحه الآن: لقد وجد نولدكه نفسه أمام آيات سورة المائدة التي تتناول تهيُّبَ اليهود من دخول الأرض المقدسة؛ وتصفهم بالفسق لاجترائهم على الله

(1) الآيات مرتبة: ٩٤، (٨١،٨٠)، (١١١-١١٢ البقرة).

(2) رجح عندي أن بدايات سورة آل عمران لم تتأخر في النزول للعام التاسع، راجع الملحق الخاص بذلك في نهاية هذا الجزء.

(3) ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢].

(4) آل عمران: الآية ٢٣.

ورسوله: موسى[1]؛ من هذه الآيات: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[2]؛ وهي تفضح سلوك بني إسرائيل كما هو واضح.

فماذا يفعل نولدكه وقد وردت هذه الآية في الروايات المتعلقة بأحداث بدر؛ أي في بدايات العهد المدني الذي يدعي نولدكه أن القرآن لم يهاجم فيه بني إسرائيل؟ هل يترك المسألة تمر فتُهدم دعواه (أن بدايات القرآن المدني لم تهاجم اليهود)؟

لقد حدد نولدكه[3] لهذه الآيات "زمن نزول متأخر هو زمن نزول معظم سورة المائدة: السنة السادسة أو السابعة من الهجرة"، وقال: "إن ذلك يُستدل عليه بآية أخرى في نفس المجموعة[4] وهي: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟﴾ الآية[5] التي دعت لحرب سافرة مفتوحة قاسية.

"unverkennbar offenen und rücksichtslosen Krie"

وذلك حصل بعد طرد بني قينقاع (في شوال ٢هـ) وقبل الغزوة الأخيرة ضد آخر قوة ليهود العرب في خيبر (جمادى الأولى ٦ هـ)".

ورغم أنه يقول: إن حكمه هذا ظني[6] *vermutlich* إلا أنه قال[7]: " لا يجوز لنا أن نكترث *brauchen wir uns nicht zu kehren* بالروايات التي تجعل الآية ٢٧ من سورة المائدة[8] مذكورة بالفعل في الحديث عن غزوة بدر".

(١) الآيات من ٢٠-٢٦.

(٢) المائدة: ٢٤.

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٢٩-٢٣٠.

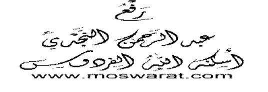
(٤) هو يتناول الآيات ١٢- ٣٤ من: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ الآية. إلى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ الآية.

(٥) المائدة: ٣٣.

(٦) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٢٩.

(٧) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٢٩ هامش٩.

(٨) هي في مصحفنا رقم (٢٤).



و هكذا نرى أنه، ومن أجل حكم ظني؛ وفق وصفه هو له؛ أطاح نولدكه هنا وبغير اكتراث - كما قال - بالروايات الصحيحة التي جاءت في البخاري[1] وابن هشام[2] والواقدي[3] والطبري[4] وابن سعد[5]. كل ذلك من أجل أن يتهرب من وجود قرآن في أوائل الفترة المدنية فيه هجوم على اليهود[6].

- ودليله الذي قدمه لا يقول به أي دارس مبتدئ لعلوم القرآن؛ فكون معظم السورة نزل متأخرًا؛ وكون علمائنا يقولون: إن المائدة "مدنية بإجماع، نزلت منصرف رسول الله من الحديبية"[7]؛ لا يلزم منه أن تكون كلها نزلت مرة واحدة، ولا يعني بحال أن ذلك ينطبق على كل آياتها؛ بل يستثنى منه ما ورد نزوله منفردًا؛ وقد حصل هذا لبعض آياتها[8]، وذلك مثل: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية؛ نزلت يوم عرفة عام حجة الوداع، ومثل آية التيمم[9].

كما يستثنى ما ورد في روايات صحيحة تربطه بأحداث سابقة على وقت نزول معظم السورة، وإن لم تنص على زمن نزوله[10]؛ وذلك مثل الآية التي معنا. وقد

(١) فتح الباري ج٧ كتاب المغازي ص ٢٨٧ حديث رقم (٣٩٥٢)، وج٨ كتاب التفسير ص٢٧٣ حديث (٤٦٠٩).
(٢) السيرة النبوية: ج٢ ص٤٠٧.
(٣) المغازي ٤٧.
(٤) التاريخ ج٢ ص٤٣٤.
(٥) الطبقات ج٣ ق١ ص١١٥.
(٦) لاحظ ما ورد في سورة البقرة من هجوم على اليهود، وهي كذلك نزلت أوائل الفترة المدنية.
(٧) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن المجلد٣ ج٦ ص٣٠.
(٨) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: كتاب التيمم ج١ ص٤٣١ حديث (٣٣٤)، وكتاب التفسير ج٨ ص٢٧٠-٢٧٢ الأحاديث: (٤٦٠٦)، (٤٦٠٨)، السيوطي: الإتقان ص٢٧، ٣٠، ٣١ والواحدي أسباب النزول. ص١٥٦-١٥٨، ١٦٠ وغيرها.
(٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ الآية.
(١٠) عند دراسته للآيات من ٢٣-٣٨ من المائدة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ الآية إلى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ﴾ الآية؛ وضمنها الآيات التي تهاجم اليهود؛ =

تضافرت على ذلك الروايات الصحيحة كما مر. والأمر هنا مثل الأمر في سور كثيرة ينزل معظمها في زمن، ثم يوضع فيها بأمر النبي آيات تنزل فيما بعد أو كانت قد نزلت من قبل.

- أما استشهاده على حكمه بتأخر نزول تلك الآيات بوجود آية: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ التي وصفها بأنها دعت لحرب سافرة مفتوحة قاسية؛ فلي معه وقفتان:

الأولى: إن تأخر نزول آية جزاء المحاربين، وهي رقم ٣٣ في السورة لا يستلزم على الإطلاق تأخر نزول آيات عن اليهود في نفس السورة؛ لا من حيث الرواية الصحيحة، ولا من حيث الترابط المنطقي.

الثانية: إن الحرب السافرة المفتوحة التي قال: إن آية الحرابة دعت إليها لا وجود لها إلا في ذهن نولدكه؛ وقوله هذا يحتمل أحد أمرين:

- أن يكون قد توقف عند كلمة (يحاربون) الواردة في الآية؛ فخلط بين الحرب؛ ولا شأن للآية بها[1]؛ والحرابة، والآيةُ نَصٌّ فيها.
- أو أن يكون قد فهمها على وجهها الصحيح، لكنه تكلم عن حرب سافرة مفتوحة بغرض أن يصطنع بينها وبين مواجهة الآيات لليهود ارتباطًا ذهنيًّا؛ ليوهم القارئ أن هذه المواجهة إحدى صور تلك الحرب؛ وهذا الارتباط يدعم نظريته.

وكلا الأمرين ليسا في صالح دعواه؛ فالأول مرده لخطأ لغوي وفقهي لم يفرق نولدكه فيه بين (حرب) و(حرابة)، ولا نحتاج في بيانه لمزيد إيضاح. والثاني منشؤه عدمُ التدقيق بشأن مناسبة نزول هذه الآية؛ إذ إنها - كما رأى جمهور العلماء -

= قال المستشرق هيرشفيلد: إنها مكية *New Researches into the Composition and Exegesis of the Qoran* ص ٧١؛ لكن ذلك بطبيعة الحال لا يعجب نولدكه؛ لأن فكرته التي تسيطر عليه: أن القرآن في بداية العهد المدني لم يهاجم اليهود؛ فكيف يقبل أن يكون ذلك الهجوم مكيًّا؟

(١) بل هناك آيات أخرى تفصل أحكامها.

نزلت[1] في العُرَنِيّين[2] وهم قوم نزلوا المدينة سنة ست من الهجرة، وكانوا مرضى فآواهم رسول الله شهرًا حتى صَحُّوا فقابلوا الإحسان بإساءة؛ فقَتَلوا راعي إبل النبي التي طعموا منها، وسرقوها ومضوا، وأخافوا الناس في الطريق فنزلت الآية. فالحقيقة أن الآية لم تَدْعُ لحرب، وإنما فرضت حد الحرابة؛ ولا يصح استدلال نولدكه بها على تأخر نزول آيات مواجهة اليهود في سورة المائدة. ولا ندري كيف غاب هذا عن زعيم المستشرقين الأكبر، كما وصفه جولد تسيهر!

- كما أن في سورة المائدة ذاتها آيات تواجه اليهود؛ فقد جاء في صحيح مسلم[3] أن اليهود غيروا حكم رجم الزاني، فمَرّ النبي على رجل يهودي مُحَمّمًا مجلودًا فسألهم: «**هل هذا حكم الله في التوراة؟**». فأجابوا كاذبين: نعم؛ فسأل النبي واحدًا من علمائهم قائلًا: «**أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟**». قال: لا؛ نجده الرجم... إلخ الحديث، الذي فيه كذلك، أن اليهود كانوا يقولون: ائتوا محمدًا، فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا. فنزل قوله تعالى فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟

---

(١) البخاري: كتاب التفسير ج٨ ص٢٧٣-٢٧٤ حديث (٤٦١٠)، والواحدي: أسباب النزول ص١٥٩-١٦٠، والسيوطي: لباب النقول في أسباب النزول ص١٢٥، وابن كثير: التفسير ج٢ ص٤٧-٥٠، والقرطبي: الجامع.. ج٣ ص١٤٨، ١٤٩.

(٢) قال ابن كثير: (التفسير ج٢ ص٤٧): (عرينة من البحرين).

(٣) بشرح النووي المجلد٤ ص٢١٠ رقم (١٧٠٠)، وراجع: الواحدي: أسباب النزول ص١٦٠-١٦٢.

مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾[1].

ولا يتصور تحاكم اليهود للنبي إلا قبل الصدام العسكري معهم، وذلك في بداية العهد المدني، وقد حددت بعض روايات الوقت صراحة؛ فأبو داود[2] يجعله (حين قدم رسول الله المدينة).

ونولدكه نفسه يرى بشأن الآيات من ٤٥ إلى ٥٥ من سورة المائدة[3] - وفيها الآيتان المذكورتان وهجومهما اللاذع على اليهود - أنها قد تكون أقدم من الصدام مع بني قريظة يقول[4]:

"إن الآيات من ٤٥-٥٥ المائدة تعالج نزاعًا مع اليهود، ويُحكى عنها أشياء متعددة لو كان فيها شيء صحيح[5] لوجب أن تكون الآيات أقدم من إبادة بني قريظة؛ حيث إن القبيلة تحدد في بعض الروايات".

بناء على هذا نقول: إنه ثبت لدينا إذن وجود آيات نزلت في بداية العهد المدني، وقبل الصدام مع اليهود تهاجمهم وتفضح أخطاءهم. وبهذا تبطل دعوى نولدكه أن القرآن لم يهاجم اليهود في ذلك الوقت. وبالتالي يبطل الاستناد إلى هذا في دعواه اتخاذ النبي اليهود في ذلك الوقت مرجعية.

---

(١) المائدة: ٤١، ٤٤.

(٢) السنن: ج٤ ص١٥٤ رقم (٤٤٥١).

(٣) من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾. إلى: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾.

(٤) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٣٠.

(٥) لا مجال لهذا التشكيك؛ فقد ورد ذلك كما مر في البخاري ومسلم.

هـ- وأخيرًا فإن نولدكه نفسه يعارض قوله هذا؛ يقول[١]:

"كثيرًا ما كان محمد بعد الهجرة يهاجم اليهود، دون النصارى، بقسوة بالغة، وحاول أن يظهر أنهم منذ القدم معاندون، ولذا فإنهم لعنوا من الله".

كما قال[٢] عن بعض الآيات في سورة البقرة[٣]:

إنها "تعتبر موجهة ضد الكلام الكفري لبعض اليهود، ويمكن أن تكون منتمية لنفس الفترة الزمنية (كان يتحدث[٤] عن النصف الأول من السنة الهجرية الثانية).

كما تحدث عما سماه: آيات في سورة البقرة[٥] تهاجم اليهود نشأت بعد فترة وجيزة بعد الهجرة؛ يقول[٦]:

"يحاول محمد هنا أن يدلل على أن اليهود من أول الوقت كانوا لا دينيين *gottlos*، و... هذه الآيات قد نشأت بعد فترة وجيزة بعد الهجرة عندما تكشفت مع الأيام إرادة اليهود الشريرة".

* * *

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٧٠.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٧٦.

(٣) من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ الآية إلى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ الآية. وبينهما نجد قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ الآية. و﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ الآية. و﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ الآية.

(٤) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٧٥.

(٥) هو لا يحدد هذه الآيات بالأرقام، ولكن يشير إليها بأنها التي تلي الآيات التي تحكي قصة خلق الإنسان الأول وخطيئته:

Schöpfung und Sundenfall der ersten Menschen.

(٦) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٧٤-١٧٥.

الدعوى الثانية: زعم نولدكه أن النبي في بداية العهد المدني كان يضع اليهود مع المؤمنين في جبهة واحدة، وأنه كان قد تملكه وقتئذ أمل كبير فيهم أن يتركوا دينهم ويتبعوه؛ لكنهم لم يفعلوا؛ لأن إدراكهم للاختلاف الكبير بين عقيدتهم والإسلام كان أكثر من إدراك النبي ﷺ له.

ولقد رأينا قبل قليل حديثه[١] عن الآية ٣١ المدثر[٢] التي رجح أنها تنتمي[٣] لبداية العهد المدني، حيث يرى أن النبي وضع اليهود مع المؤمنين في جبهة واحدة، لكنه نظر إليهم فيما بعد على أنهم أعدى أعدائه".

وقال[٤]: "لقد تملك محمدًا في بادئ الأمر أمل كبير فيهم؛ بوصفهم أناسًا يعرفون الوحي بالفعل. ولأنهم لم يتركوا في التو رأيهم القديم مراعاة لخاطر النبي الجديد؛ إذ إن إدراك الاختلاف الكبير بين عقيدتهم والإسلام كان أسهل عليهم أكثر منه؛ فقد أخذ الانقسام في التعاظم؛ ولم ينته حتى قُتل كل اليهود وطردوا و استذلوا ..." إلخ قوله[٥].

وقال[٦]: "أقنع محمد العرب في البداية أن يؤمنوا بما تلقاه المسيحيون من عيسى، وما تلقاه اليهود من موسى، ودعا بتفاؤل غير المؤمنين الذين يحتاجون للمعرفة إلى سؤال العارفين حتى يصلوا إلى معرفة حقيةِ رسالته: الآيتان: ٤٥ النحل و٧ الأنبياء[٧]. وتأتي خيبة الأمل[٨] في المدينة؛ إذ إن أهل الكتاب لا يريدون الاعتراف به".

وأقول:

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٨٨-٨٩.

(٢) ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً﴾ الآية.

(٣) ما عدا خاتمتها: ﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾.

(٤) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٦٩-١٧٠.

(٥) الذي سيأتي بتمامه في الفصل الثاني من هذا الجزء.

(٦) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٤٦-١٤٧.

(٧) ختمت كل آية منهما بـ ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

(٨) هذا هو الذي يعنينا الآن من قول نولدكه: أما الادعاءات الأخرى فيه فقد سبق تناولها.

أ- بشأن ما زعمه من أن النبي في بداية الهجرة جعل كلًّا من اليهود والمؤمنين في جبهة واحدة:

١- إنه زعم باطل يعتمد على النظرة الخاطئة لآية المدثر المذكورة، وقد انتهينا - عند مناقشة الدعوى الأولى - إلى كون الآية مكية؛ وإلى أنها لا تنطوي على ما يفيد أن النبي كان يضع اليهود والمؤمنين في جبهة واحدة.

ولقد تناقض نولدكه مع نفسه بهذا الشأن في مواضع أخرى من كتابه هذا عن علاقة النبي باليهود، كما خالف ما ثبت في القرآن وسيرة النبي عن ذات الأمر:

٢- أما مناقضته لنفسه: فقد سبق أن بينت اعتراف نولدكه بأن القرآن في بدايات العهد المدني هاجم اليهود؛ فكيف يتفق ذلك مع دعواه هنا: أن النبي جعلهم مع المؤمنين في جبهة واحدة؟

٣- وأما مخالفته لما ورد في القرآن؛ فقد سبق أن ذكرت ما ورد بهذا الشأن فيه - سواء المكي منه أو المدني - في مواجهة اليهود. ولا يُتصور أبدًا أن تتم مواجهة فكرية لليهود على هذا النحو الذي رأيناه، ثم نفاجأ بالنبي - كما زعم نولدكه - وقد جعلهم مع المؤمنين في جبهة واحدة.

٤- وأما مخالفته لما ورد في سيرة النبي؛ فإننا من خلال قراءة وثيقة النبي ﷺ[١] مع اليهود[٢] - التي كانت في بداية العهد المدني وقبل غزوة بدر

(١) كتب رسول الله وثيقة لترسم العلاقة بين المهاجرين والأنصار، كمسلمين فيما بينهم من جانب؛ وأخرى لترسم علاقة المسلمين مع اليهود.

(٢) ذكرها ابن هشام ج٢ ص٣١٨-٣٢٠ عن ابن إسحاق بدون إسناد، وأوردها أبو عبيد القاسم بن سلام في الأموال ص١٩٤-١٩٧ من طريق ابن شهاب (الزهري)، ووردت منها نصوص متفرقة في: البخاري ومسلم وأحمد وأبي داود وابن ماجه والترمذي بأسانيد متصلة، وبطرق مستقلة عن التي وردت بها الوثيقة. ووردت موادعة النبي لبني قينقاع في سنن البيهقي الكبرى ج٩ ص٢٠٠، حيث قال: "لم يختلف أهل السيرة عندنا: ابن إسحاق وموسى بن عقبة وجماعة ممن روى السيرة أن بني قينقاع كان بينهم وبين رسول الله موادعة وعهد. كما جاء فيها كذلك=

الكبرى[1]، لا نلاحظ على الإطلاق أن النبي كان يجعل اليهود والمؤمنين في جبهة واحدة؛ بل إن الحدود فيها واضحة؛ فلقد عبرت الوثيقة[2] عن المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب؛ بسائر قبائلهم ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم بأنهم: "أمة واحدة من دون الناس"؛ في حين أنها حين تحدثت عن اليهود قالت: "وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة..".

ولقد جعلت الوثيقة[3] كلًّا من المؤمنين واليهود طرفًا مستقلًّا؛ لكلٍّ دينُه ونفقته، والأمر لا يتعدى حدود التعاون المشترك بين أبناء وطن واحد، أقر الإسلام التعددية فيه؛ حيث جاء فيها: "وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم[4]". "وإن اليهود يُنفقون مع

= (ج٩ ص٢٣٢ رقم ١٨٦٣٦) موادعة النبي لبني قريظة. ولقد ذكرت أهم مصادر السيرة موادعة النبي لليهود، وأنه كتب بينهم كتابًا ألا يعينوا عليه أحدًا، وأنه إن دهمه بها عدو نصروه. هذه المصادر هي: أنساب الأشراف للبلاذري ج١ ص٢٨٦، ٣٠٨، وتاريخ الطبري ج٢ ص٤٧٩، وإمتاع الأسماع للمقريزي ص٦٤. واكتفى ابن حزم (جوامع السيرة ص٧٣) بالإشارة إلى موادعة النبي إياهم.

(١) بشأن تاريخ هذه الوثيقة، فالراجح عندي أنها كانت قبل غزوة بدر بفترة. لكن ورد في سنن أبي داود أن النبي دعا اليهود أن يكتب بينه وبينهم كتابًا بعد مقتل كعب بن الأشرف؛ الذي حصل كما حدد الواقدي (المغازي ١/ ١٨٤) في السنة الثالثة هـ. وقد يكون هذا عقدًا جديدًا يجدد فيه الرسول مع بني النضير ما سبق أن أمضاه مع كل اليهود؛ فقد صرح الطبري (تاريخ ج٢ ص٤٧٩)، وكذلك أبو عبيد القاسم بن سلام (الأموال ١٩٧) أن موادعة اليهود كانت حدثان مقدم رسول الله المدينة؛ وورد في البلاذري (أنساب ج١ ص٢٨٦، ٣٠٨) التصريح بأنها كانت قبل أن يبعث أية سرية وقبل بدر.. ومعلوم أن أول سرية كانت في ربيع الأول سنة ٢هـ. كما جعلها ابن حزم (جوامع السيرة ٧٣) بعد بناء المسجد وقبل المؤاخاة.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ج٢ ص٣١٨-٣٢٠ وأبو عبيد القاسم بن سلام: الأموال ص١٩٤، ١٩٥.

(٣) نفسه.

(٤) لاحظ معي هنا استخدام رواية ابن هشام حرف الجر: (مع) وليس (من)؛ فالأول يفيد (المعية) التي تقتضي أن كلًّا من المؤمنين واليهود طرف مستقل، لكنهما يعملان (معًا) في المجالات =

المؤمنين ما داموا محاربين". "وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم".

فليس صحيحًا إذن ما زعمه نولدكه أن النبي جعل اليهود في بداية الهجرة مع المؤمنين في جبهة واحدة.

ب- **وأقول بشأن أمل النبي فيهم:**

١ - إن أمل النبي: أيَّ نبي في إيمان الناس برسالته وسعيه بشتى وسائل الإقناع لتحقيق ذلك الهدف أمر لا يمكن أن يحمل أية مضامين سلبية بحق هذا النبي؛ لأن ذلك يدخل في صميم مهمته، ولا يُتصور لها نجاح بغيره؛ وبالتالي فإن الباحث المحايد في تاريخ النبوات يسجل حصول ذلك من النبي له لا عليه.

٢- لكن نولدكه هنا يحاول تصوير النبي في صورة الشخص الذي تتشكل في وعيه آمال ساذجة بناء على معطيات مُتوهَّمة؛ فهو قد طمع في إيمان اليهود في البداية وبنى على هذا آمالًا عراضًا؛ لكنهم لم يؤمنوا به؛ وذلك بسبب إدراكهم لعمق الخلاف بينه وبينهم أكثر من إدراكه هو له. فحمَّل نولدكه – من خلال عباراته – ذلك الأمل من المضامين السلبية ما لم يكن يحمله بدونها.

ولقد جافى نولدكه الحق هنا؛ إذ إن رسول الله وهو يتعامل مع يهود المدينة بعد الهجرة كان – على عكس ما ادعى نولدكه – يدرك تمامًا عمق الخلاف بينه وبينهم؛ وذلك لسبب، ما كان لمبتدئ في دراسة القرآن أن يجهله، هو أن النبي

= التي نصت عليها الوثيقة؛ لكن الثاني يفيد (البعضية) التي تقتضي أن اليهود بعض من المسلمين؛ وهو غير مراد؛ لذا لم يستخدم في الحديث. إلا أن أبا عبيد القاسم بن سلام (الأموال ١٩٥) أوردها: "من" لكنه قال (ص١٩٧): "وقوله: (وإن يهود بني عوف أمة من المؤمنين) إنما أراد نصرهم المؤمنين ومعاونتهم إياهم على عدوهم بالنفقة التي شرطها عليهم؛ فأما الدين فليسوا منه في شيء. ألا تراه قد بين ذلك فقال: (لليهود دينهم وللمؤمنين دينهم).

لم يكن يصدر في تعامله هذا من فراغ، وإنما كان يصدر من رصيد خبرة أسسها القرآن المكي والمدني في مواضع كثيرة منه، جرى تفصيلها من قبل[1].

لكن أريد أن أركز هنا على إشارات في آيات من بدايات العهد المدني في سورة البقرة، تتعلق باليهود وتُسهم في تجلية نقطة حديثنا هنا: قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[2].

يبين الله لرسوله هنا أن وجود بقايا الوحي القديم مع اليهود لن يكون عاملًا مساعدًا لإيمانهم بالوحي الجديد، حيث لم يستفيدوا من الوحي القديم، بل حرفوه[3].

إن كون هذه الآية تنتمي لبدايات العهد المدني يلقي بظلال من الشك على دعوى الأمل الساذج العريض التي يدعيها نولدكه للنبي.

كما قال تعالى مخاطبًا اليهود بشأن دعاواهم حول الآخرة: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، وحكى عنهم ورد عليهم؛ قال: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ

(١) ويُلَخّصُ أبرز ما جاء عنهم في المكي في: نزوعهم نحو الوثنية، وإفسادهم، واختلافِهم، وبغيهم، وتوعد الله إياهم بالعذاب والخزي، ووصفهم بما فيهم من أوصاف قبيحة، وذكر بعض أخطائهم في حق نبي الله موسى، وأن ذلك وغيره إذا كان عن سلفهم؛ فإن خَلَفَهم من الأجيال اللاحقة باعوا ما ورثوه من الكتاب لقاء عرض الدنيا الزائل. أما المدني فقد ظهر لنا هناك كيف أن سورة البقرة التي تعد أول المدني بينت للنبي عدم التزامهم بالبر الذي يدعون الناس إليه، وعدم شكرهم نعم الله عليهم في تاريخهم الطويل، وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير الحق، ومخالفتهم لموسى رسول الله إليهم وتمردهم عليه، وقسوة قلوبهم، وتحريف بعضهم كلام الله وكفرهم ببعضه، واتخاذهم العجل، وتشبثهم بالدنيا وحرصهم عليها، وعدائهم لجبريل ونقضهم العهود... إلخ.

(٢) البقرة: ٧٥.

(٣) جاء في تفسير ابن كثير (ج١ ص١١٠): "قال محمد بن إسحاق حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة، أو سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: "ثم قال الله تعالى لنبيه، ولمن معه من المؤمنين يؤيسهم منهم ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾. الآية. وانظر: ابن هشام ج٢ ص٣٤٥.

عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ و﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[(١)].

إن كون هذه الآيات تنتمي لأوائل العهد المدني يجعلنا نصل لنتيجة، هي أن القرآن في ذلك الوقت كان قد أظهر للنبي الاختلاف في جوانب شتى (وكانت هذه الآيات متعلقة بواحد منها) بين الإسلام وما عليه اليهود؛ فكيف يزعم نولدكه أن إدراك النبي لعمق الاختلاف بينه وبين اليهود كان أقل من إدراكهم له؟

* * *

الدعوى الثالثة: ادعى نولدكه أن القرآن لسنوات بعد الهجرة كان يَعُدّ المسيحيين الحقيقيين مؤمنين؛ قال[(٢)]: "نحن نعلم أن محمدًا كان ما يزال يعد، في سنوات نشاطه المدنية الأولى، المسيحيين الحقيقيين مؤمنين[(٣)]".

وقال[(٤)]: "تعبر الآية ٥٩ من سورة البقرة[(٥)] عن أن الإيمان هو الأهم، ومن هنا فإن اليهودي لا يتميز عن النصراني و الصابئ. وفي هذه الصيغة يرتبط المضمون بالسياق. وهذه الأفكار لا تظهر في الأحاديث إلا بشكل قليل للغاية" وأقول هنا:

(١) الآيات مرتبة: ٩٤، (٨٠، ٨١)، (١١١-١١٢ البقرة).

(٢) ص ١٩١.

(٣) ويحيل إلى سنوك هورجرونيه *C. Snouck Horgronje* في كتابه بالألمانية (الأعياد المكية)، طبعة ليدن ١٨٨٠ ص٤٢ والتي تليها، كما يحيل إلى كتابه موضع دراستي ص١٤٦. وقد ذكرتها من قبل.

(٤) ١٧٥-١٧٦.

(٥) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

أ- إن أتباع عيسى عليه السلام الذين لم يغالوا فيه، ولم يحرفوا عقيدة التوحيد التي جاء بها، وماتوا على ذلك قبل رسالة محمد ﷺ؛ أو بعدها دون أن يسمعوا عنه؛ قد اعتبرهم القرآن مؤمنين.

فقد جاء في سورة آل عمران أن عيسى عليه السلام عندما شعر بكفر اليهود: ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

كما جاء فيها أيضًا قول هؤلاء الأتباع: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

كما وعد الله عيسى بأنه سيجعل للذين اتبعوه بحق منزلة سامية في ميزانه تعالى؛ فقال: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

وجاء في سورة الصف[2] المدنية تأييد الله للمؤمنين بنبوة المسيح: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾.

ب- ولقد كان نولدكه محقًّا حين وصف المسيحيين الذين عدَّهم القرآن المدني مؤمنين بأنهم المسيحيون الحقيقيون *die wahren Christen*[3] حتى لا يختلط الأمر فيدخل فيهم من غيروا دين المسيح من بعده.

ج- وأشيرُ هنا إلى أن هؤلاء المسيحيين الحقيقيين هم الذين يسمي باول شفارتزيناو[4]

(١) آل عمران، الآيات على الترتيب: ٥٢، ٥٣، ٥٥-٥٧.

(٢) الآية: ١٤.

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية، القسم الأول ص١٩١.

(٤) *Korankunde für Christen (Ein Zugang zum heiligen Buch der Moslems) S. 123*، "دروس قرآنية للمسيحيين مدخل إلى كتاب المسلمين المقدس". وأشير هنا إلى أن هذا المؤلف يعمل أستاذًا للعقيدة المسيحية (الإنجيلية) وعلوم الأديان بجامعة دورتموند بألمانيا. وله موقف إيجابي من الإسلام.

Paul Schwarzenau مسيحيتهم: بالمسيحية الأولى، التي "لم يوصف عيسى فيها على الإطلاق بأنه الله، وهى بخلاف المسيحية اللاحقة التي تزيدت في عرض صورة عيسى ورسالته"[1].

وهو قول صحيح أيضًا، إن كان نولدكه يقصد بمن سماهم المسيحيين الحقيقيين: أولئك الذين عاصروا محمدًا ﷺ من النصارى وعرفوا الحق الذي جاء به فاتبعوه.

---

(١) المرجع السابق ص١٢٣-١٢٤ وكلامه بنصه:

"Im ältesten Urchristentum und im daraus hervorgehenden Judenchristentum wurde Jesus niemals als Gott im eigentlichen und wesenhaften Sinne bezeichnet. Ja es dürfte sicher sein. dass der historische Jesus eine Verguttung seiner Person niemals geduldet hätte. " was nennest du mich gut ". sagt Jesus im Markusevangelium (10, 18). " niemand ist gut als Gott allein... Wenn der Koran davon sprisht. dass er die Bibel bestätige und richtigstelle. und islamische Lehre von" Fälschungen " in den Büchern der Leute der Schrift spricht. dann müßte mann für diesen Zusammenhang zumindest einräumen. dass das Bild Jesu und seiner Botschaft durch das heidenchristliche Kerygma der Großevangelien " überzeichnet " worden ist... aber es stand dem historischen Jesus nicht mit Notwendigkeit das Schicksal vorgezeichnet. dass sein ursprüngliches Bild unter einer marcinischen. matthä. Luka. Johann. Christolgie verdeckt werden sollte. In gewissem Sinne treten wir mit den Jesuslegenden des Korans tiefer in die Urgemeinde zurück".

وترجمته:

"لم يشر إلى عيسى على الإطلاق في المسيحية الأصلية أو المسيحية اليهودية التي انبثقت عنها على أنه الله؛ بالمعنى الصحيح أو الجوهري! كما أنه من المؤكد أن عيسى التاريخي لم يكن ليصبر على الإطلاق على تأليه شخصه؛ يقول في إنجيل مرقس ١٠: ١٨ "لماذا تدعوني صالحًا، ليس أحد صالحًا إلا واحد هو الله". عندما يتحدث القرآن عن هذا بأنه مصدق للكتاب المقدس ومصحح له؛ وعندما تتحدث التعاليم الإسلامية عن تحريف كتب أهل الكتاب؛ فإنه لا أقل من أن نُقِرّ أن صورة عيسى ورسالته قد بولغ فيها، وذلك بسبب المقتطفات المسيحية الوثنية الموجودة في الأناجيل الكبيرة؛... إلا أنه ما كان ينبغي أن تخفى بغير ضرورة الصورة الحقيقية للمسيح التاريخي بواسطة مسيحية مرقس ومتى ولوقا ويوحنا. وبمعنى مؤكد فإن قصة عيسى القرآنية تعيدنا بشكل أعمق إلى الجماعة (المسيحية) الأولى".

د- لكن الذي تجاهله نولدكه هنا هو أن اعتبار القرآن هؤلاء مؤمنين لا يقتصر على أوائل الفترة المدنية - كما ادعى - بل حصل هذا في المرحلة المكية وأواخر المدنية أيضًا:

فقد سجلت سورة البروج المكية استشهاد عدد من الذين اتبعوا عيسى بحق؛ بأن شُقت لهم الأخاديد وأضرمت فيها النيران ثم ألقوا فيها أحياء. ووصفتهم بالإيمان؛ فقال تعالى: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾، و﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾[1].

وقد بينت آيات مدنية متأخرة من سورة المائدة[2] أن حواريي عيسى آمنوا وأسلموا: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾[3].

وجاء في القرآن المدني كذلك أن إيمان من آمن من النصارى مقبول وعملهم لن يضيع: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[4].

هـ- وأَوَدُّ أن أشير هنا إلى أن أتْباع عيسى الحقيقيين لم يكونوا استثناء من بين أتباع الأنبياء الآخرين حين وصفهم القرآن المدني بالإيمان بنفس القيود التي ذكرتُها قبل قليل:

فالقرآن المدني وَصَف بالإيمان من اتبعوا نبي الله موسى بحق: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ الآية، و﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ الآيات، و﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي

(١) البروج: ٧-٨، ١٠.

(٢) هذا هو الراجح لديَّ؛ لأن معظم السورة نزل بعد الحديبية ٦هـ إلا ما ورد من الآيات أن له مناسبة نزول خاصة قبل ذلك الوقت أو بعده، ولم يرد أن هذه الآية كذلك.

(٣) المائدة: ١١١.

(٤) المائدة: ٦٩.

﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

أما القرآن المكي فإن أدنى تواصل مع قصص الأنبياء وأتباعهم فيه يبين بوضوح وصفهم بالإيمان؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ الآية، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ﴾ الآية، وقال تعالى عن أتباع هود عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾، وقريب منها عن أتباع صالح عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾، ومثلها عن أتباع شعيب عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾. وعن قوم يونس قال: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ﴾ الآية، وفي الجملة قال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2].

و- والكافرون برسالة محمد ﷺ من المسيحيين أو اليهود المعاصرين للنبي أو الذين جاءوا بعده لا يعدهم القرآن مؤمنين، حتى لو كانوا موحدين عاملين للصالحات؛ إذ إن موقف القرآن والسنة من الذين لم يؤمنوا بالنبي محمد ﷺ كان واضحًا وصريحًا لا يحتمل لبسًا أو مساومة:

قال تعالى[3]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

وقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[4].

---

(١) المواضع القرآنية هي: البقرة: ١٢١، والبقرة: من الآية ٢٤٩، والتحريم: ١١.

(٢) المواضع المذكورة: غافر: من الآيات ٢٨، ٣٠، هود: ٥٨، ٦٦، ٩٤، يونس: ٩٨، الأنعام: ٤٨.

(٣) النساء: ١٥٠-١٥٢.

(٤) النساء: ١١٥.

وقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ (١).

وقال النبي ﷺ «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة؛ يهودي ولا نصراني ثم يموت ولا يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**» (٢). وقال عبد الله بن عباس (٣) وهو أحد رواة هذا الحديث: (فجعلت أقول: أين تصديقه في كتاب الله حتى وجدت الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾) (٤).

كما أن رسول الله علق على إسلام شاب يهودي عندما زاره في مرض وفاته بقوله: «**الحمد لله الذي أنقذه بي من النار**» (٥).

ز- ولو كان القرآن في أوائل العهد المدني أَقَرَّ أوجُهَ الانحراف في عقيدة النصارى أو اليهود أو غيرهم لما وجدناه يدعوهم في ذلك الوقت إلى الإسلام؛ لكننا نجد في سورة آل عمران وغيرها مما نزل في ذلك الوقت دعوة أهل الكتاب للدخول في الإسلام:

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٦).

ح- وتأتى هنا أيضًا محاولة نولدكه وغيره استخدام الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟

---

(١) هود: من الآية ١٧.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي: مجلد١ ج٢ ص١٨٦ ح (١٥٣). ومثله في مسند أحمد برقم (٨١٨٨) وفي صحيفة همام بن منبه برقم (٩٠).

(٣) المستدرك على الصحيحين رقم (٣٣٠٩) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

(٤) هود: من الآية ١٧.

(٥) البخاري بشرح ابن حجر ج٣ ص٢١٩ رقم (١٣٥٦)، وأبو داود: السنن ج٣ ص١٨١ رقم (٣٠٩٥).

(٦) آل عمران: ٦٤؛ وهذه الآية لم يتأخر نزولها كما اشتهر (راجع الفصل الثاني من هذا الجزء).

﴿وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1] .. استخدمَها للتدليل على تغيُّرِ موقف القرآن من أهل الكتاب: من اعتماد إيمانهم وقبوله في العهد المكي وبدايات المدني إلى رفضهم وتكفيرهم بعد ذلك. لكن هذا الاستخدام لا يصح، وذلك للآتي:

إن ثناء القرآن على المؤمنين من أهل الكتاب هو موقف مستمر؛ فلئن كانت آية البقرة تنتمي لأوائل العهد المدني فإنه سبق بيان أن آية أخرى تحمل المضمون ذاته في سورة المائدة تنتمي لأواخره، وهي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2] . وهذا يهدم دعوى نولدكه بتغير موقف القرآن من أهل الكتاب.

كما أن مناسبة نزول آية البقرة تبين لنا أنها كانت جوابًا عن إيمان طوائف قبل بعثة النبي ﷺ ؛ فلقد سأله سلمان الفارسي رضى الله عنه عن أهل ديـن كان معهم، وذكر من صلاتهم وعبادتهم؛ فأنزل الله الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ الآية[3] .

ومعناها إذن - كما يقول ابن كثير[4] : (كان إيمان اليهود أنه من تمسك بالتوراة

---

(١) البقرة: ٦٢.

(٢) المائدة: ٦٩.

(٣) السيوطي: لباب النقول في أسباب النزول ص١٢، والرواية أخرجها ابن أبي حاتم والعدني في مسنده من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد. كما أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قوله: "نزلت هذه الآية في أصحاب سلمان الفارسي: لباب النقول ص١٣. المناسبة ذاتها تقريبًا أشار إليها الواحدي (أسباب النزول ص٢٨) بروايات عن مجاهد والسدي؛ لكن بإضافة أن سلمان لما سأل النبي فقال له: «**هم من أهل النار**»؛ فأنزل الله الآية. وثمة رواية عند الواحدي (ص٢٨-٢٩) كذلك عن ابن مسعود وناس من أصحاب النبي أنها كذلك في سلمان الفارسي.

(٤) التفسير ج١ ص٩٩. وقال سيد قطب (الظلال ج١ ص٧٥-٧٦): (إن الآية تقرر أن من آمن بالله واليوم الآخر من هؤلاء جميعًا وعمل صالحًا فإن لهم أجرهم عند ربهم، ولاخوف عليهم ولا هم يحزنون؛ فالعبرة بحقيقة العقيدة لا بعصبية جنس أو قوم.. وذلك طبعًا قبل البعثة المحمدية، أما بعدها فقد تحدد شكل الإيمان الأخير).



وسنة موسى حتى جاء عيسى. فلما جاء عيسى كان من تمسك بالتوراة وأخذ بسنة موسى فلم يدعها ولم يتبع عيسى كان هالكًا. وإيمان النصارى أن من تمسك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمنًا مقبولًا منه حتى جاء محمد ﷺ. فمن لم يتبعه منهم ويَدَع ما كان عليه من سنة عيسى والإنجيل كان هالكًا). فالآية إذن بيانٌ بقبول إيمان الطوائف المذكورة، وذلك قبل بعثة النبي ﷺ، ولا يُفهم منها كما زعم نولدكه أنها إقرار من القرآن في أوائل العهد المدني لأوجه الانحراف في عقيدة النصارى أو اليهود أو غيرهم.

وسياق ورود الآيتين في سورة البقرة والمائدة يُفهِم أن الآية في كلا الموضعين تَفتح باب الأمل لمن أراد النجاة من هذه الطوائف، بعد ذِكر انحرافاتِ بعضهم في آيات من السورتين:

ففي الآيات السابقة على هذه الآية في سورة البقرة ذُكر طرف من مظاهر عصيان اليهود وتمردهم على نبي الله موسى، وقتلهم الأنبياء رغم إنعام الله عليهم بألوان شتى من نعمه، إلى أن سُبقت الآية المذكورة بقوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾[1]. فالحال أنه - كما يقول الإمام محمد عبده[2]: (لم يدع منهم حاضرًا ولا غائبًا، فألزم الذل باطنهم، وكسا بالمسكنة ظاهرهم، و بوأهم منازل غضبه، وجعل أرواحهم مساقط نقمه... فلو قَرَّ الخطاب عندها؛ ولم يتلُها من رحمته ما بعدها؛ لحقَّ على كل يهودي على وجه الأرض أن ييأس؛ وألا يبقى عنده للأمل في عفو الله متنفس، بل كان ذلك القنوط لازمًا لكل عاص، قابضًا على نفس كل معتدٍ، لا فرق بين اليهود وغيرهم..؛ لهذا جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية. بمنزلة الاستثناء من حكم الآية السابقة).

وفي الآيات السابقة على الآية المشابهة في سورة المائدة بيَّن الله انحرافات أهل

(١) البقرة: ٦١.

(٢) تفسير المنار ج١ ص٢٧٧.

الكتاب العقدية والسلوكية الكثيرة، وأنهم ليسوا على شيء من الحق إذا لم يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم، وأن محمدًا ﷺ لا ينبغي له أن يأسى على هؤلاء الكـافرين؛ فناسب بعد ذلك أن يبين الله أن من كان منهم أو من غيرهم قبل محمد ﷺ مؤمنًا؛ فلن يتحمل وزر غيره. وأن من عاصَرَه فبـاب الأمل مفتوح؛ لذا أخبر أن من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا من المسلمين واليهود والنصارى والصابئين فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون... يقول سيد قطب[1]: (إن الآية تقرر أنه أيًا كانت النِّحْلة؛ فإن من آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا صالحًا - ومفهوم ضمنًا في هذا الموضع، وتصريحًا في مواضع أخرى أنهم فعلوا ذلك على حسب ما جاء به الرسول الأخير - فقد نجوا ولا عليهم مما كانوا فيه من قبل ذلك، ولا مما يحملون من أسماء وعنوانات، فالمهم هو العنوان الأخير).

كما أن الآية جعلت الإيمان والعمل الصالح شرطين لنوال الأجر من الله ونفي الخوف والحزن؛ فلَمْ تحكم إذن لليهود والنصارى والصابئين بإطلاق: أنهم لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون؛ وإنما حكمت به لمن آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا.

وقريب من الآية التي معنا بما تضمنته من شرط الحصول على الأجر قوله تعالى في آية مدنية مبكرة بشأن اليهود: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾[2]؛ فهي تَعِدُهُم بمثوبة الخير من عند الله إن هم آمنوا؛ بما يعني أنهم في الأصل غير مؤمنين. والآية في الحقيقة دعوة لهم إلى الإيمان بالله إيمانًا مجردًا من شوائب الوثنية والشرك.

إن الذي يريد أن تصير الآية حُكمًا مطلقًا بقبول اليهود والنصارى والصابئين فكأنه يحذف منها جملة الشرط لتصير: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وبالمناسبة فإني أكمل هذا الموضوع بعرض النقاط الآتية:

(١) في ظلال القرآن ج٢ ص٩٤٢.

(٢) البقرة: ١٠٣.

١- إن الإيمان بالله الذي جَعَلَتْه الآيتان اللتان معنا أحد شرطي الحصول على الأجر ليس أي إيمان يدعيه مُدَّع، زاعمًا أنه يؤمن بالله؛ بل له صورة واحدة فقط هي التي أرسل الله بها رسله جميعًا، وأنزلها في كتبه، ثم جاء التعبير عنها على لسان النبي الخاتم محمد ﷺ صَريحًا صَحيحًا، لم يُصبه التحريف.

٢- إذا أردنا أن نتعرف على صورة الإيمان المقصود؛ فنحن نتلمسها أيضًا في الآيتين اللتين معنا؛ حيث وُصف المسلمون فيهما بـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ في حين أن الطوائف الأخرى التي ذُكرت بعدُ جاء ذكرُها خلوًا من الوصف بالإيمان.

٣- وليس هذا فريدًا في بابه في القرآن؛ فلقد تكرر فيه جعل الوصف بالإيمان عَلَمًا على أَتْبَاع النبي محمد ﷺ وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، و﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[2]، و﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾[3].

٤- وجب القول إذن: إن ما عليه المسلمون من إيمان هو صورة الإيمان المقبول؛ ولذا فهو وحده المعول عليه في النجاة، وهو وحده المقبول من الله، وهو الصورة القياسية للإيمان الذي يُطلب من باقي الطوائف المذكورة أن تصير إليه.

٥- ولقد صرح بذلك القرآن في سورة البقرة نفسها في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾[4].

* * *

(١) آل عمران: ٦٨.
(٢) آل عمران: ٧٢.
(٣) النساء: ٥١.
(٤) البقرة: ١٣٧-١٣٨.

الدعوى الرابعة: تُلَخّص هذه الدعوى في أن القرآن في معظم العهد المدني لم يهاجم النصارى؛ والدليل على هذا ثناؤه على الرهبان وحديثُه الودودُ عن المسيحيين.

ويُرجع نولدكه عدم الهجوم هذا لسببين: أولهما: بُعد النصارى عن يثرب، وثانيهما: أنه لم يكن التصادم العسكري بينهم وبين النبي قد حدث بعد.

أما في أواخر العهد المدني فقد هاجمهم القرآن، وكان الصدام العسكري هو السبب وراء ذلك؛ يقول[1]:

"كثيرًا ما كان محمد بعد الهجرة يهاجم اليهود، دون النصارى". ويقول[2]:

"إن المشركين - الذين قاتلهم في الفترة المدنية - يُهاجَمون في القرآن (المدني)[3] بندرة؛ والمسيحيين - الذين كانوا يعيشون بعيدًا عن يثرب؛ وكان تصادم محمد معهم عدائيًا لأول مرة في السنوات الأخيرة - يتحدث عنهم فيه نادرًا، وفي الغالب بشيء من اللطف، مع التوبيخ بشأن بعض العقائد"...

ومما يجلي هدف نولدكه لدينا.. أن مستشرقًا آخر هو بلاشير *R. Plasher* قد التقط هذا الخيط، لكنه كان أكثر صراحة في التصريح بهدفه، حيث رأى[4] أن المرحلة المدنية لم تشهد أي عداء لأنصار عيسى[5]، بل إن القرآن المدني كان يبين أن الرهبان المسيحيين يستطيعون بإيمانهم وإحسانهم أن ينالوا ثواب الجنة، ويستشهد بالآيات: ٦٢ من البقرة، و٨٢ من المائدة، و٢٧ من الحديد"[6].

(١) ص١٧٠.
(٢) ص١٧٠.
(٣) أي: المدني؛ لأن حديثه في الموضع المشار إليه يتناوله وحده.
(٤) القرآن: ص٧٦-٧٩.
(٥) سبق أن وضحت أن القرآن - سواء في المكي أو المدني - لا يقيم أي علاقة عداء على الإطلاق مع أتباع عيسى الحقيقيين.
(٦) الآيات بالترتيب هي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ الآية، و﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً﴾ الآية. و﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ الآية.

وأقول:

أ- إن دعوى أن القرآن في معظم العهد المدني لم يهاجم النصارى لا تستقيم مطلقًا مع مجموعة مواقف مبدئية ضد النصارى، أُعلنت في القرآن المدني، سواء في بداياته أم نهاياته. ولقد كان بعض هذه المواقف صريحًا في التوجه إلى النصارى بالهجوم، وكان البعض الآخر يذكرهم مع اليهود تحت مسمى أهل الكتاب.

وتتمثل المواقف الصريحة في أن القرآن المدني:

أعلن كُفر القائلين بأن الله هو المسيح ابن مريم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ الآية[1].

كما أعلن كفر القائلين بالثالوث، وبيّن أنهم يعبدون غير الله، وأمرهم بالتوبة وتَهَدّدهم بالعذاب إن لم ينتهوا عن هذه العقيدة الكفرية التي اتبعوا فيها أهواء الضالين، وبيّنَ الاعتقاد الإسلامي في المسيح: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[2].

وطالب القرآن المدني النصارى أن يتركوا الغلو، وألا يقولوا على الله إلا الحق، وقرر العقيدة الإسلامية في المسيح ونهاهم عن التثليث: ﴿يَٰٓأَهْلَ

(١) المائدة: ١٧.

(٢) المائدة: ٧٣-٧٧.

ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾[1].

ونَفَى القرآن المدني كون المسيح قد صُلب؛ حيث نفى ادعاء اليهود قتله، واستنكر تصديق النصارى لما أشاعه اليهود فقال: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[2].

وأعلن تبرؤ عيسى من كل هذا الانحراف فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[3].

ولقد ذكر أبو عبيدة القاسم بن سلام[4] عن محمد بن كثير عن زائدة عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود ما مؤداه أن قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[5]

(١) النساء: ١٧٠-١٧١.

(٢) النساء: ١٥٥-١٥٨.

(٣) المائدة: ١١٦-١١٨.

(٤) الأموال ص١١٤.

(٥) المائدة: ١١٨.

الوارد في هذه الآيات قد جاء في حديث للنبي كتشبيه لموقف أبي بكر من الأسرى بموقف المسيح عليه السلام الأخروي من الذين غالوا فيه؛ وعليه تكون هذه الآيات بما تحمله من بيان لفساد عقيدة النصارى قد نزلت قبل السنة الثانية من الهجرة؛ وهذا يعني أن هجوم القرآن على عقائد النصارى الفاسدة لم يبدأ في السنوات الأخيرة، كما ادعى نولدكه وبلاشير.

كما أن قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[1] هو موجَّه ضد النصارى؛ ويقر نولدكه نفسه بهذا؛ حيث يقول[2]:

"V.110 kann nur auf Christen gehen".

وترجمته:

"الآية ١١٦ يمكن أن تكون موجهة ضد النصارى وحدهم".

وأضيفُ إلى ما قاله: إن هذه الآية من سورة البقرة، ولقد مضى القول عنها: إنها في جملتها أول ما نزل في المدينة. وهذا يرد على نظرية نولدكه أن أوائل القرآن المدني لم تهاجم النصارى.

كما أن القرآن المدني نهى عن اتخاذ النصارى أولياء؛ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[3].

أما المواقف الأخرى التي يهاجم فيها القرآن المدني النصارى ضمن أهل الكتاب فتتمثل في أنه:

رَدّ زعمَهم مع اليهود انتماء إبراهيم عليه السلام إليهم فقال:

(١) البقرة: ١١٦، ١١٧.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٧٧.

(٣) المائدة: ٥١.

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[1].

كما أنه استنكرَ كفرهم وتزويرَهم وصدَّهم عن سبيل الله وفسق معظمهم فقال: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾، وقال: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾، وقال: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾، وقال عنهم: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[2].

كما واجههم – مع اليهود – بإخفائهم أو نسيانهم بعض الكتاب أو تركهم العمل به؛ فقال: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾، وقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾، وقال: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[3].

كما عاب عليهم غُلُوَّهم في الدين واتباعهم رؤساءهم الضالين فقال:

(١) آل عمران: ٦٥–٦٧.

(٢) الآيات مرتبة هي: آل عمران: ٧٠–٧١، البينة: ١، ٦، آل عمران: ٩٨–٩٩، من الآية ١١٠.

(٣) المائدة: ١٥، ١٤، ٦٨.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[1].

كما وُصِفوا مع اليهود بأنهم ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[2].

وفي مرحلة لاحقة قال تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[3]، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[4].

لقد تبين لنا إذن أن القرآن المدني رماهم بالكفر والتزوير وإخفاء بعض الكتاب وكتمان الحق ولبسه بالباطل. ورماهم كذلك بالكذب في دعوى نصرانية إبراهيم؛ والغلو في الدين وقول الباطل على الله. كما استنكر اعتقادهم صلب عيسى. ووصفَ معظمهم بالفسق. وختم كُلَّ ذلك بالنهي عن اتخاذهم أولياء. فإذا كانت كل هذه الأحكام التي قررها القرآن المدني

(١) المائدة: ٧٧.

(٢) الحديد: ١٦.

(٣) التوبة: ٢٩-٣٢.

(٤) التوبة: ٣٤.

والمواقف التي اتخذها من النصارى حديثًا لطيفًا كما زعم نولدكه، فكيف يكون التقريع واللوم والتوبيخ إذًا؟!.

ب- والغريب أن يقر نولدكه نفسه مع ذلك بأن القرآن المدني وبَّخ النصارى بشأن بعض العقائد! إذ كيف يستقيم قوله هذا مع قوله: إنه تحدث عنهم بلطف؟ هل يمكن أن يُفصل بين المرء وعقيدته؛ فيتخذ القرآن المدني موقفًا من عقيدة النصارى، ويظل حديثه مع ذلك عن شخوصهم لطيفًا؟!! هل يمكن أن يتصور من القرآن الذي يبني مواقفه من الطوائف المختلفة على أسس عقدية، لا على اعتبارات شخصية أو شكلية... هل يتصور منه أن يثني على شخوص النصارى أو رهبانهم الذين ما زالوا يعتقدون نفس العقائد التي استنكرها ورفضها؟

ج- أما ما طرحه نولدكه من أدلة أكمَلها بلاشير؛ فلعل الفهم الخاطئ لبعض الآيات المدنية هو الذي دفعهما لطرحها في هذا السياق.

وحكمي عليه بالخطأ راجع لأنه يخالف السياق القرآني الذي وردت فيه هذه الآيات، وتفسير النبي ذاته لها. كما يتناقض مع المعطيات القرآنية بشأن الحكم على النصارى في مواضع كثيرة؛ ولا يأخذ في الاعتبار الروايات الصحيحة بإيمان كثير من النصارى في عهد النبي:

فالمعطيات القرآنية يُفهم منها - كما بيَّنَّا من قبل - الرفضُ التام لأوجه الانحراف العقدي لدى النصارى، والإنكارُ على كل من لا يؤمن بالنبي.

أما سياق ورودِ الآيات فالأمر هنا يحتاج لتفصيل:

إن هناك أربعة مواضع مدنية يثني فيها الله تعالى على المؤمنين من أهل الكتاب؛ لكن نولدكه وبلاشير وغيرهما ظنا أنه ثناء عام، يشمل حتى من لم يؤمن منهم برسالة محمد ﷺ:

الموضعان الأول والثاني آيتان؛ واحدة من سورة البقرة، والثانية من سورة

المائدة هما: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1]. وقد أسقطت من قبل وجه دلالتهما على دعوى نولدكه (أن القرآن عد المسيحيين لسنوات بعد الهجرة مؤمنين)؛ وبالتالي فلا وجه لدلالتها على الدعوى التي معنا؛ لقرب الدعويين.

الموضع الثالث: آية من سورة المائدة؛ هي: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[2].

ولننظر أولًا في مناسبات نزولها؛ فلقد وردت عدة روايات في ذلك:

رواية تربطها بسؤال سلمان الفارسي رسول الله عن مؤمني النصارى الذين قابلهم في رحلته للبحث عن الدين الحق، وذكر مِن أوصافهم أنهم كانوا موحدين، وآمنوا بالمسيح كنبي، وليس إلهًا ولا ابنًا للإله، وأنه ولد بغير ذكر وكانوا يتشددون على أنفسهم في العبادة والتخفف من الدنيا؛ ومما قاله سلمان في هذه الرواية: (فلبثت ما شاء الله أن ألبث - أي بعد أن أسلم - فسلمت عليه - أي على النبي - وقعدت بين يديه فقلت: يا رسول الله، ما تقول في دين النصارى؟ قال: «**لا خير فيهم ولا في دينهم**». فدخلني أمر عظيم. فانصرفت وفي نفسي ما شاء الله! فأنزل الله عز وجل على النبي: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ إلى آخر الآية. فقال رسول الله: «**عَلَيَّ بسلمان!**». فأتيت الرسول وأنا خائف؛ فجئت حتى قعدت بين يديه؛ فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ

(١) البقرة: ٦٢،المائدة: ٦٩.

(٢) المائدة: ٨٢.

﴿مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ إلى آخر الآية. ثم قال: «**يا سلمان، إن أولئك الذين كنت معهم وصاحبك لم يكونوا نصارى إنما كانوا مسلمين**». فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لهو الذي أمرني باتباعك؛ فقلت له - مازال سلمان هو الذي يحكي -: وإن أمرني بترك دينك وما أنت عليه؟ قال - أي الراهب مجيبًا -: فاتركه؛ فإن الحق، وما يجب، فيما يأمرك به»[١].

ورواية ثانية تربطها بمجموعة من النَوَّاتين (الملاحين) من أهل الحبشة قدموا على سفينة مع جعفر بن أبي طالب[٢]، وأخرى ثالثة تربطها بوفد أرسله النجاشي إلى النبي، فقرأ عليهم القرآن، وأسلموا ورجعوا إلى النجاشي[٣].

ولا يعني تعدد الروايات هنا تعارضها وتناقضها، وبالتالي الشك في صدقيتها كما يتجه إليه بعض المستشرقين في العادة؛ لأن الذي يجمع بينها أنها بشأن أتباع المسيح الحقيقيين قبل بعثة النبي والمؤمنين من النصارى بمحمد ﷺ بعد بعثته، وقد تنزل الآية عقب عدة أسباب كما ذكر ذلك السيوطي[٤].

وبناء على هذا فإن سبب نزول هذه الآية يجعلنا نقول: إن هذه الآية التي تثني على مؤمني النصارى وغيرها ممن هو مثلها، لا تخرج عن أن تكون مشيرة إلى فريقين:

أولهما: الذين اتبعوا المسيح عليه السلام بحق قبل بعثة محمد ﷺ.

---

(١) الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين ج٣ ص٦٩٢، وما بعدها، رقم (٦٥٤٣)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح عال في ذكر إسلام سلمان الفارسي، ولم يخرجاه.

(٢) الطبراني: المعجم الكبير ج١٢ ص٥٥ رقم (١٢٤٥٥).

(٣) مجمع الزوائد: الهيثمي ج٢ ص٩٣٩ رقم (١٠٣٥)، ومسند ابن الجعد بن عبيد ص٣٢١ رقم (٢١٨٨).

(٤) الإتقان ٤٥.

وثانيهما: المؤمنون بالنبي محمد ﷺ بعد بعثته، ولدينا منهم هؤلاء الذين سأذكر أسماءهم.

كما أن سياقها العام لا يؤيد الاستناد إليها في دعوى حديث القرآن المدني بِوُدٍّ عن النصارى؛ لأنها إذا كانت قد وصفت هؤلاء ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ فإن الآية التي تليها ذكرت بعض أحوالهم التي لا يمكن أن تنطبق على من بقي على نصرانيته منهم؛ وهي: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾[1].

وهذه الآيات تتناول فريقًا خاصًا من النصارى حددت ملامحه وبيّنت صفاته؛ وهي "تصور حالةً وتقرر حكمًا لهذه الحالة... حالة فئة من الناس قالوا: إنا نصارى، أقرب ﴿مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ...﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ فمنهم من يعرفون حقيقة دين النصارى فلا يستكبرون على الحق حين يتبين لهم... وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول من هذا القرآن اهتزت مشاعرهم، ولانت قلوبهم، وفاضت أعينهم بالدمع تعبيرًا عن التأثر العميق العنيف بالحق الذي سمعوه... وهي حالة معروفة في النفس البشرية حين يبلغ بها التأثر درجة أعلى من أن يفي بها القول، فيفيض الدمع ليؤدي ما لا يؤديه القول. ثم هم لا يكتفون بهذا... إنما يتقدمون ليتخذوا من هذا الحق موقفًا إيجابيًّا صريحًا؛ موقف القبول لهذا الحق... ثم هم بعد ذلك يستنكرون على أنفسهم أن يعوقهم معوق عن الإيمان بالله، أو أن يسمعوا هذا الحق ثم لا يؤمنوا به، ولا يأملوا

(١) المائدة: ٨٣-٨٦.

بهذا الإيمان أن يقبلهم ربهم ويرفع مقامهم عنده فيدخلهم مع القوم الصالحين... ولا يقف السياق القرآني عند هذا الحد... بل يتابع خطاه لتكميل الصورة ورسم المصير الذي انتهوا إليه"[1] وهو الجنة.

تقفنا هذه الآيات إذًا أمامَ فريق خاص من النصارى هذه هي أوصافه: مودة للمؤمنين (المسلمين) وعدم استكبار عن قبول الحق، وفيض العين بالدمع عند سماع القرآن وإعلان الإيمان به ورد منهم على منكري هذا الإيمان، ثم تبين الآيات في النهاية ثوابهم عند الله؛ فكيف يُفهم منها أنها تعني من بقي على نصرانيته ورَفَضَ الحق ولم يخشع بالقرآن؟

وبالإضافة إلى ما ذكر؛ فإنه مما يدل على أنه فريق خاص من النصارى وليس كلهم؛ أن السياق القرآني هنا ذَكَرَ في الآية الأخيرة في النص الذي مضى أن الفريق المقابل هو الذي كفر وكذب: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾. فـ"ليس كل من قالوا إنا نصارى إذن داخلين في الحكم بـ: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ كما يحاول أن يقول من يقتطعون آيات القرآن دون تمامها؛ إنما هذا الحكم مقصور على حالة معينة، لم يدع السياق القرآني أمرها غامضًا ولا ملامحها مُجَهّلة ولا موقفها متلبسًا بموقف سواها في كثير، ولا قليل"[2].

والموضع الرابع هو من سورة الحديد؛ يقول الله تعالى فيه: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[3].

ولا يصح فهم هذه الآية على أنها ثناء على جميع النصارى؛ فلقد بينتْ

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن مجلد٢ ص٩٦٢-٩٦٤.

(٢) نفسه ص٩٦٤.

(٣) الحديد: ٢٧.

أن الله جعل الرأفة والرحمة في قلوبَ الذين اتبعوا نبي الله عيسى عليه السلام.

والتصريح بالاتّباع هنا يقصِر الحكم على الذين ساروا على نهج المسيح ولم يغالوا فيه.

وحتى لو لم يفهم التصريح بالاتباع على هذا النحو؛ فإن الآية لا تتضمن إلا إثبات صفتين قلبيتين لهم، دون إثبات الأجرِ الذي لَم تجعله الآية إلا للمؤمنين. فإثبات الأجر والثواب هو لبعضهم لا لكلهم، وبلفظ الآية هو لـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۡهُمۡ﴾.

كما أن الآية وصفت الكثرة غير المؤمنة منهم بالفسق: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾؛ فكيف يسوغ لصاحب نظرٍ جعلها حديثًا لطيفًا عن النصارى؟

وإذا كان الثناء هنا على المؤمنين منهم فقط؛ وكان هذا الإيمان هو المؤدي وحده إلى حصول النصارى على الأجر؛ فإن الآيتين اللاحقتين تكفلتا ببيان موضوع هذا الإيمان؛ وذلك حتى لا تذهب النفس في تفسيره كل مذهب، ولكي لا يدع النص القرآني أحدًا في جهالة من أمره؛ فقال تعالى فيهما: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورًا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٍ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾[1].

وتفسير النبي لهاتين الآيتين ثابت هو الآخر؛ فبشأن المقصود بالإيمان في: ﴿فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡ﴾ روى ابن مسعود تفسير النبي ﷺ: «**هم الذين آمنوا بي وصدقوني**». أما الكثيرون الفاسقون فقال عنهم: «**هم الذين كفروا بي وجحدوا بي**»[2].

(١) الحديد: ٢٨، ٢٩.

(٢) الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين ج٢ ص٥٢٢ برقم (٣٧٩٠)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يُخرجاه. وقد ذكر ابن كثير في تفسيره (ج٤ ص٣١٦) نحوه، =

وفي الحديث أيضًا عن النبي ﷺ قوله: «**أيما رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد؛ فله أجران**»[1] وهو نفس ما ورد في الآية المكية من سورة القصص عن أهل الكتاب الذين آمنوا بالنبي: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[2].

وهناك موضع آخر لم يشَر إليه في كلام نولدكه أو بلاشير، لكنه قد يرد هنا، وهو قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[3].

لكن لا يصِح الاستشهاد به على الدعوى المذكورة؛ لأن المشار إليهم هنا هم الذين أسلموا من اليهود؛ فقد قال ابن عباس: (لما أسلم عبد الله بن سلام وثعلبة بن سعية وأسِيد بن سعية... قالت أحبار يهود أهل الكفر منهم: ما آمن بمحمد ولا اتبعه إلا شرارنا، ولو كانوا من أخيارنا ما تركوا دين آبائهم، فأنزل الله الآيات[4] المذكورة).

وأقول أخيرًا:

لم لا يلجأ نولدكه وغيره إلى الاختيار الصحيح في هذا الشأن، ويربط الآيات الكريمة المذكورة بالروايات الصحيحة التي تتناول إيمان عدد من النصارى بالنبي في حياته؟ إن هذه الروايات تتحدث عن: عداس الذي

= وقال: (الحديث رواه ابن جرير الطبري بسنده وفيه داود بن المحبر أحد الوضاعين، لكنه ورد بطريق آخر فقوي لذلك)، ولعله يقصد رواية الحاكم المذكورة.

(١) والحديث صحيح ورد في: مسند أحمد ج٤ ص٤١٤ رقم (١٩٧٢٧)، وبلفظ قريب: البخاري: الجامع الصحيح المختصر ج٣ ص١٠٩٦ رقم (٢٨٤٩). وبلغ عدد طرقه التي ورد بها الخمسين.

(٢) القصص: ٥٤.

(٣) آل عمران: ١١٣-١١٥.

(٤) البيهقي: الدلائل ج٢ ص٥٣٣-٥٣٤.

أسلم في أثناء رحلة النبي للطائف[1]، وعن ثلاثين من أصحاب النجاشي أوفدهم إلى النبي ﷺ فأسلموا[2]، وعن مَلاحِي السفينة التي حملت جعفر بن أبي طالب عند عودته من الحبشة[3]. وتشير إلى بشير بن معاوية المكنَّى بأبي علقمة النجراني، الذي كان سبب إسلامه أن دابته عثرت، وهو بنجران فذكر النبي بسوء، فزجره الأسقف الذي كان يسير معه قائلًا: لقد ذكرت نبيًّا مرسلًا؛ فلحق بالنبي وأسلم وما زال معه حتى مات شهيدًا[4]، والجارود العبدي الذي حضر مع وفد عبد القيس[5]، والأصبغ بن عمرو بن ثعلبة بن معبد الكلبي[6]، وسيمويه الذي كان (شماسًا)، وأخبر أنه أتى النبي وسمع من فمه لأذنه، وعاش مائة وعشرين سنة[7]، وتميم بن أوس الداري الذي كان - كما قال - أبو نعيم: راهب أهل فلسطين وعابدهم[8]، وفروة بن عمرو الجزامي الذي كان عاملًا لقيصر على عمان من أرض البلقاء، وكتب إلى رسول الله بإسلامه وأهدى له[9] وغيرهم.

إن المنطق وسياق كل آية من الآيات الكريمة المذكورة يقتضيان أن يربط الباحث غير المغرض تلك الآيات بهؤلاء الذين أسلموا من النصارى، وأن

(١) الطبري: تاريخ ج٢ ص٣٤٦.

(٢) مجمع الزوائد: الهيثمي ج٢ ص٩٣٩ رقم (١٠٣٥)، ومسند ابن الجعد بن عبيد ص٣٢١ رقم (٢١٨٨).

(٣) المعجم الكبير للطبراني ج١٢ ص٥٥ رقم (١٢٤٥٥).

(٤) ابن حجر: الإصابة ج١ ص٣١٥ رقم (٧٠٦)، وانظر البيهقي: دلائل النبوة ج٥ ص٣٨٣.

(٥) فتح الباري ج٨ ص٨٦ في شرحه للحديث (٤٣٦٩)، مكتبة الغزالي، وابن سعد: الطبقات ١/ ٣١٣ ط دار صادر.

(٦) الواقدي نقلًا عن ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ج١ ص٢٠٤ رقم (٤٧٠).

(٧) الطبراني: المعجم الكبير ٧/ ١٦٩ رقم (٦٧٢٥)، وابن حجر: الإصابة ج٣ ص٢٣٧ رقم (٣٦٣٧).

(٨) ابن حجر: الإصابة ج١ ص٣٦٧ رقم (٨٣٨).

(٩) ابن حجر: الإصابة ج٦ ص٩٩ رقم (٧٩٥٤).

يرجح بيقين كونها تشير إليهم؛ بدلًا من أن يتعسف في فهمها على أنها تشير إلى عموم النصارى. لكن نولدكه لم يفعل ذلك.

د- تصدي القرآن المدني لانحرافات النصارى قبل الصدام العسكري معهم:

قد يُفهم من كلام نولدكه أنه يُرجع قوله بالحديث الودود المدعى عن النصارى في القرآن المدني؛ إلى كون العداء بينهم وبين النبي لم يحصل إلا في السنوات الأخيرة... أعيد مرة أخرى قوله[1]:

"إن المشركين - الذين قاتلهم في الفترة المدنية - يُهاجَمون في القرآن[2] بندرة؛ والمسيحيين - الذين كانوا يعيشون بعيدًا عن يثرب؛ وكان تصادم محمد معهم عدائيًا لأول مرة في السنوات الأخيرة - يتحدث عنهم نادرًا، وفي الغالب بشيء من اللطف، مع التوبيخ بشأن بعض العقائد".

وأقول عن هدف نولدكه بادعائه هذا:

إنه لئن كان حذرًا في التصريح بما يهدف إليه هنا؛ فإنه لا يخفى أنه يريد أن يصل بقارئه في النهاية لأن يعتقد أن رفض القرآن لأوجه الانحراف في عقائد النصارى لم يكن موقفًا مبدئيًا؛ وإنما كان صدى لما يعتمل في نفس النبي كرد فعل لموقف النصارى منه.

لكن بالإضافة إلى ما ذكرتُه من قبل عن وجود مواقف مواجهة صريحة ضد النصارى في القرآن المكي والمدني أقول هنا:

إن الذي يظهر عند التدقيق في الأمر أن هجوم القرآن على عقائد النصارى الباطلة لم يرتبط بحصول ما سماه نولدكه: (التصادم بين النبي وبينهم في السنوات الأخيرة)، بل كان قد حدث قبل ذلك بكثير؛ وأستدل على هذا -بالإضافة إلى ما سبق - بالآتي:

(١) ص١٧٠.

(٢) أي: المدني؛ لأن حديثه في الموضع المشار إليه يتناوله وحده.

١- آيات كريمة من سورة آل عمران[١] فيها بيان وجه الحق في المسيح، من حيث كونه مخلوقًا لله تعالى على وجه يُظهر طلاقة قدرة الله، وأنها لا تحكمها الأسباب التي تحكم قدرة البشر؛ فكما تجلى هذا في خلق آدم تجلى في خلق المسيح.

كما تتحدى الآياتُ المنحرفين منهم بالمباهلة، وترد الجميع إلى التوحيد: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[٢].

٢- الآيات ١١٦-١١٨ المائدة التي ذكرناها قبل قليل؛ وفيها إعلان تبرؤ المسيح عليه السلام من غلو أتباعه فيه؛ قد ورد ذكر بعضها في حديث متعلق بغزوة بدر[٣]، جاء فيه ما مؤداه أن قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الوارد في هذه الآيات قد جاء في حديث للنبي، كتشبيه لموقف أبي بكر من الأسرى بالموقف الأخروي للمسيح من الذين غَلَوْا فيه. وبناء عليه تكون هذه الآيات بما تحمله من بيان لفساد عقيدة النصارى قد نزلت قبل رمضان من السنة الثانية من الهجرة.

٣- قوله تعالى في سورة البقرة (التي مضى القول عنها: إنها أول ما نزل في

(١) الآيات ٥٩-٦٣؛ ولقد رجح عندي أن هذه الآيات نزلت في مجموعة من نصارى نجران جاءوا العام الثالث من الهجرة أو حوله، وليست متأخرة في النزول إلى العام التاسع من الهجرة. وبينت ذلك بالتفصيل في ملحق بهذا الشأن ألحقته بهذا الجزء.

(٢) آل عمران: ٥٩-٦٤.

(٣) أخرجه أبو عبيدة القاسم بن سلام (الأموال ص١١٤)، وقد سبق ذكره.

المدينة): ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1]؛ هو موجه ضد النصارى؛ ويقر نولدكه نفسه بهذا؛ حيث يقول (**تاريخ القرآن** ق١ ص١٧٧) عن الآية ١١٦: «إنها يمكن أن تكون مقصودًا بها المسيحيون فقط. وهذا يعني أن هجوم القرآن على عقائد النصارى الفاسدة لم يبدأ في السنوات المدنية الأخيرة. كما يعني أن هذا الهجوم ليس له علاقة بتصادم النبي معهم، كما ادعى نولدكه.

٤- وقد يجدر بي هنا أن أضم إلى ردي عليه - في هذه الجزئية - كلامه هو؛ فعند حديثه عن مقطع في سورة المائدة يقول نولدكه[2]:

"V.64-88 setzen voraus, daßschon mehrere Kriege mit den Juden geführt worden sind. Wenn man aus dem Abschnitt weiter folgert, daß die Schlachten von Mu,ta und Tabük noch nicht sstattgefunden haben, so ist das keineswegs außer Zweifel. Dnn die freundlich Beurteilung der Christen, besonders ihrer Priester und Mönche, in V.73. 85 ist eine rein theoretische, prinzipielle und braucht auf jene Kämpfe nicht notwendig Rücksicht zunehmen".

وترجمته:

(الآيات ٦٤-٨٨ [3] من المفترض أنها [نزلت] بعد أن حصلت بالفعل عدة حروب مع اليهود. ولن يكون محل شك أبدًا إن نحن استنتجنا من المقطع أيضًا أن غزوتي مؤتة وتبوك لم تكونا قد حصلتا بعد. إن التقدير

---

(١) البقرة: ١١٦-١١٧.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٣١-٢٣٢.

(٣) في مصحفنا (٥٩-٨٥) من قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ إلى الآية: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

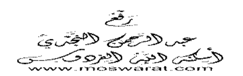
اللطيف للمسيحيين، خاصة قساوستهم ورهبانهم في الآيتين ٧٣، ٨٥[١] هو تقدير نظري ومبدئي، ولا توجد ثمة ضرورة لأن نأخذ في اعتبارنا هاتين الغزوتين).

إن هذا المقطع القرآني الذي يتحدث عنه نولدكه هنا يتضمن بعض آيات تهاجم النصارى في ميداني العقيدة والسلوك، وتصل بهذا الهجوم إلى حد الوصف بالكفر والفسق والغلو في الدين والضلال، والآيات هي: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾، و﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، و﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾، و﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾[٢].

إنه طبقًا لنظرية نولدكه، فإنه ينبغي أن تكون آيات ما سماه (الحديث اللطيف عن النصارى) و(الثناء على قساوستهم) قد نشأت - على حد تعبيره الذي لا يستخدم غيره في التعبير عن نزول القرآن - في بدايات العهد المدني وقبل الصدام معهم في مؤتة وتبوك، وأن تكون آيات الهجوم عليهم قد نشأت بعد الصدام معهم في الغزوتين ذاتهما.

لكنْ قولا نولدكه هنا: «لن يكونا محل شك أبدًا إن نحن استنتجنا من المقطع أيضًا أن غزوتي مؤتة وتبوك لم تكونا قد حصلتا بعد»، «ولا توجد ثمة ضرورة لأن نأخذ في اعتبارنا هاتين الغزوتين».... هذان القولان يدلان أنه لا يَستبعد - بل قد يكون يرجِّح - أن تكون تلك الآيات نزلت

(١) بترقيم فلوجل، و٦٩، ٨٢ بترقيم مصحفنا.
(٢) المائدة: الآيات: ٧٢، ٧٣، ٧٦، ٧٧.



قبل غزوتي مؤتة وتبوك، مما يعني أن الهجوم على النصارى لم يكن بعد حصول التصادم معهم في غزوتي مؤتة وتبوك، كما ادعى نولدكه وبلاشير؛ بل كان قبله.

وبذا يكون نولدكه قد أقر بوجود آيات تهاجم النصارى قبل الصدام المسلح معهم، وذلك يحقق إشكالًا كبيرًا لنظريته لا يسعه تجاوزه؛ لذا فإني أعد ذلك القول منه إما تراجعا عن قوله الأول، أو تناقضًا معه؛ وأميل إلى الاحتمال الثاني؛ لأن من يتراجع عن قول له يغلب أن يحركه وعيه بتراجعه لبيان سبب ذلك ودليله؛ ونولدكه لم يفعل.

كما أنه واضح من قوله الأخير أنه لا يفرق من حيث زمن النزول بين آيات الهجوم على النصارى، وآيات الثناء على بعضهم.

وبناء على هذا ينهار زعمه أن لكلٍّ مرحلة؛ ويتأكد ما اجتهد نولدكه أن يتهرب منه، وهو انفكاك جهة الحكم في الحالين؛ وذلك لأن تعلق آيات الثناء هنا كان بالذين آمنوا من أهل الكتاب قبل بعثة محمد ﷺ؛ ثم بالمؤمنين به بعد بعثته؛ في حين أن الآيات المهاجمة المنكرة عليهم في ذات المقطع كانت متعلقة بمن لم يتحقق فيهم ذلك الإيمان؛ لذا فإنه ليس ثمة إشكال لدى الذهنية المسلمة التي تعلم انفكاك جهة الحكم. أما نولدكه فليس الأمر بالنسبة له كذلك؛ بل الجهة عنده واحدة، لذا لجأ للقول بمرحلتين.

٥- وكما كان الذي باء به نولدكه من جراء دعواه ليس سوى الوقوع في الخطأ والتناقض؛ فإن بلاشير المتأخر عنه لم يكن أحسن حالًا منه[١] إن لم يكن أسوأ؛ فإلى جانب إصراره الخاطئ كما رأينا على الربط بين ما سماه (شجب القرآن المدني للمسيحية) من جانب؛ ومعركة مؤتة[٢] من جانب آخر؛ دون

---

(١) وقد يكون ذلك بحكم المتابعة والاحتذاء لهدف نولدكه العام.

(٢) حصلت في جمادى الأولى ٨ هـ، الموافق أغسطس أو سبتمبر ٦٢٩م؛ ويسميها بلاشير (أولى مقاومات العالم البيزنطي).

أن يتيح لنفسه فرصة التراجع التي أتاحها نولدكه لنفسه؛ فإنه وقع في خطأ أكبر باستشهاده بالآيتين ١٢٠ و١٣٥ البقرة؛ قال: «الأكيد أن لهجة التبشير لم تتغير وتنته إلى شجب المسيحية إلا بعد ما شعر محمد بأولى مقاومات العالم البيزنطي، وخاصة يوم سقوط[١] مؤتة؛ حينئذ تساوى أنصار المسيح مع اليهود في لعنة واحدة فنزل عندئذ قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ الآية[٢]، و﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[٣].

والتلفيق غير العلمي وغير المسؤول جلي هنا؛ إذ إن هاتين الآيتين تنتميان – مثل معظم سورة البقرة – إلى أوائل العهد المدني. ويحدد نولدكه[٤] وقت نزولهما بأنه في الفترة قبل تحويل القبلة، أي: قبيل مرور عام ونصف تقريبًا بعد الهجرة؛ فلم يتوان بلاشير هنا في أن يجعل نزولهما متأخرًا قرابة سبع سنوات ليسلم له تلفيقه، ولا عليه بعد ذلك من أمر المنهج!!

أما ما سماه نولدكه: (التقدير الإسلامي النظري والمبدئي للقساوسة والرهبان)، فهو ينطلق من موقف الإسلام العام من عدم المساس بالرموز الدينية لليهود والمسيحيين وسائر المقدسات لديهم. كما ينطلق من ترك أهل الكتاب وما يدينون دون إجبارهم على تغيير أفكارهم الدينية؛ وليس يعني الحكم بصوابية معتقداتهم. ولقد روي أن النبي قال لمجاهدي مؤتة: «**اغزوا باسم الله، فقاتلوا عدو الله وعدوكم، وستجدون فيهم رجالًا في الصوامع معتزلين من الناس فلا تعرضوا لهم**...». لكن البيهقي قال عنه[٥]: (منقطع وضعيف). وإن كان معناه صحيحًا ينسجم مع سياسة الإسلام العامة التي أشرت إليها قبل قليل.

(١) هكذا الترجمة، والأصح: هزيمة مؤتة.
(٢) البقرة: ١٢٠.
(٣) البقرة: ١٣٥.
(٤) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٧٦-١٧٧.
(٥) سنن البيهقي الكبرى ج٩ ص٩١ رقم (١٧٩٣٥).



المبحث الثالث
دعوى نولدكه المتعلقة بالمرحلتين معًا

يختار نولدكه القول إن النبي اتخذ القبلة المقدسية في أثناء وجوده بمكة؛ مستدلًّا على ذلك بأن النبي استعار اسم الصلاة ذاته من أديان الوحي القديمة؛ وبالتالي يكون غريبًا لو أنه لم يتبع اتجاه الصلاة.

ولقد وظف نولدكه هذا القول لخدمة دعواه عن تحول النبي محمد ﷺ في البحث عن مرجعية؛ قال[1]:

"Nach einer weitverbreiteten Meinung (Weil 90; Muir III,42.; H Grimme, Leone Caetani... Fr. Buhl...) ist die jerusalemische Qibla erst in Yathrib angeordent worden, um die Herzen der dort zahlreichen jüdischen Bevölkerung zu gewinnen (تأليف)*... finden wir doch in den Kommentaren zu Sur. 2, 136 ff. Und einigen Geschichtswerken (Hamis I, 367, Halabi II,297 ff., Tabari pers.II, S.477) jene Tendenz deutlich ausgesprochen. Indessen sind diese Angaben nicht zuferlässig, denn sie widersprchen unseren ältesten und besten Quellen (His. 190. 228. 294. f., Tabari I, 1280; Azraqi 273 nach Waqidi; ibn Athir II; 88), denn zufolge sich Muhammed schon vor der Higra im Gebet nach Jerusalim bzw. Nach Syrien gewandt hat. Der Qoran schweigt sich zwar darüber aus,...... Da Muhammed nicht nur den Namen für das offizielle Gebet (salat), sondern auch zahlreiche Formeln und Riten desselben den ältern Offenbarungsreligionen entlehnt hat, wäre es aufallend, wenn er nicht glichzeitig oder doch sehr früh nach ihrem Beispiele auch eine Gebetsrichtung befolgt hätte".*

---

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٧٥-١٧٦ الهامش، وقد أوردت هنا ما ناسب إيراده من النص المختار، وسيرد كاملًا فيما بعد.

وترجمته:

«حسب رأي واسع الانتشار لفايل وموير وجريمه وكايتاني وبوهل، فإن اختيار القبلة الأورسالمية[1] أولًا في يثرب تم لتأليف قلوب العدد الكبير من الشعب اليهودي.... إننا نجد في تفاسير سورة البقرة آية ١٣٦ [2] وما بعدها، وفي بعض الأعمال التاريخية («تاريخ الخميس، الحلبي، الطبري) ذلك الهدف مصرحًا به فيها. إلا أن هذه المعلومات ليست أمينة؛ لأنها تعارض مصادرنا الأفضل والأقدم (ابن هشام، الطبري، الأزرقي حسب الواقدي، ابن الأثير) التي يُروى فيها أن محمدًا توجه في صلاته قبل الهجرة إلى أورشليم أو بمعنى آخر إلى الشام. والقرآن يصمت عن هذا الأمر تمامًا.. إن محمدًا لم يستعر فقط اسم الصلاة الرسمية: (الصلاة)، وإنما أيضًا عديدًا من الصيغ والطقوس لديني الوحي القديمين؛ وسيكون مستغربًا لو أنه لم يتّبع بالتزامن مع ما ذُكر اتجاه الصلاة متابعة لهما..».

ثم قال[3]:

"Der Grund zur Veränderung der jerusalemischen Gebetsrichtung liegt in der neuen Stellung zu den älteren Offenbarungsreligionen, die Muhammed almählich in Medina gewonnen hatte. Während er sich früher den Juden und Christen nächstverwandt fühlte, bewog ihn die Erfolglosigkeit seiner Propaganda unter diesen, sich nach einer anderen Anknüpfung umzusehen, und er fand sie schließlich in der Reliegion des Ibrahim , den eine Offenbarung eng mit der Ka.ba verflocht ,vgl. Oben S. 146 f. So wurde der heidnische Kultusort zu einem Heiligtum des Islam und als solches zum Ort der Gebetsrichtung ebenso geeignet, wie es Jerusalim für die Juden war".

وترجمته:

---

(١) نسبة إلى (أورسالم) الاسم العربي، وهو الاسم الحقيقي لها، وليس ترجمته العبرية: أورشليم.

(٢) ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٧٥ هامش١ رقمK.

«إن سبب تحويل قبلة الصلاة الأورسالمية يندرج في إطار التصور الجديد عن أديان الوحي القديمة الذي ناله محمد بالتدريج في المدينة؛ ففي حين أنه كان يشعر في الماضي أنه وثيق الصلة باليهود والنصارى؛ فقد حركه إخفاق دعايته بين هؤلاء إلى أن يولي وجهه للارتباط بآخَرَ؛ وجده أخيرًا في دين إبراهيم الذي ربط الوحي بينه وبين الكعبة، ولذا أصبح مكان الطقوس الوثنية حرمًا للإسلام، واتخذ مكانًا مثل هذا قبلة للصلاة، كما كانت أورسالم بالنسبة لليهود».

وأقول هنا:

إن نولدكه هنا يختار أن قبلة النبي في مكة كانت بيت المقدس. واعتمد اختياره – كما قال – على سببين:

أولهما: أنه ورد في ابن هشام والأزرقي والطبري وابن الأثير؛ وهي المصادر التي وصفها بأنها: المصادر الأقدم والأفضل *ältesten und besten Queellen*؛

ثانيهما: أنه هو القول الذي ينسجم مع استعارة النبي في مكة من أهل الكتاب اسم الصلاة وبعض الصيغ والطقوس الأخرى؛ فكما اتبعهم في هذه الأخيرة فلا بد أن يكون قد اتبعهم في قبلتهم.

وفيما يتعلق بما جعله نولدكه السبب الأول؛ فإني –رغم ميلي لأن يكون ما ورد في هذه المصادر بهذا الشأن هو الصواب – أشك أن يكون مجرد ذكره فيها سببًا حقيقيًا وراء قوله؛ لأنه رغم وصفه هنا لهذه المصادر بما ذكر؛ فإنه قد اطرح صراحة أو ضمنًا في مواطن عدة كثيرًا من مروياتها. وما كان تعامله الانتقائي هكذا مع رواياتها إلا ليحقق بالأخذ أو الاطراح رأيًا مسبقًا شكله في وعيه، ثم راح يتلمس له شواهده من تلك المصادر وغيرها.

ولنقرأ الآن ما ذكر في بعض هذه المصادر:

جاء في السيرة النبوية لابن هشام قوله[1]: (وكان رسول الله بمكة وقبلته إلى الشام، فكان إذا صلى صلى بين الركن اليماني والحجر الأسود، وجعل الكعبة بينه وبين الشام)،

(١) ج١ ص١٧٩، وج٢ ص٢١٣.

و(وكان إذا صلى استقبل الشام، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، وكان مصلاه بين الركنين: الركن الأسود والركن اليماني).

وجاء فيه كذلك[1] تصريح كعب بن مالك – وكان ممن شهد العقبة الثانية – يصف قبلته، ومن معه أثناء سفرهم لموسم حج عام بيعة العقبة الثانية بقوله: (فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام). وتصريحه[2] أن قبلة رسول الله وقتئذ هي الشام.

أما تاريخ الطبري، ففيه[3] قول كعب بن مالك بعد بيعة العقبة الأولى للبراء بن معرور، وقد أراد أن يتخذ الكعبة قبلة: (والله ما بلغنا عن نبينا أنه يصلي إلا إلى الشام، وما نريد أن نخالفه). ولما عاد البراء إلى مكة في العام التالي؛ ونتيجة لسؤال النبي ﷺ قُبيل البيعة الثانية؛ رجع إلى استقبال الشام.

وأضيفُ إلى مصدري نولدكه ما جاء في بعض كتب السنة عن مجاهد عن ابن عباس: (كان رسول الله يصلي بمكة نحو بيت المقدس، والكعبة بين يديه)[4].

وفي اعتقادي أن النبي – كما رجح نولدكه – استقبل بيتَ المقدس، وهو في مكة.

أما قول البعض بتوجه النبي في مكة إلى الكعبة في صلاته فيُفَسَّرُ بقول شمس الدين السيوطي[5]:

«والصحيح الذي أطبق عليه الأكثرون أنه لم يُصلِّ بمكة إلا إلى بيت المقدس؛ ولكنه كان يصلي بين الركن اليماني والحجر الأسود فتكون الكعبة أمامه فيظن من يراه أنه يصلي إليها».

---

(١) ج٢ ص٢٧٧-٢٧٨.

(٢) نفسه.

(٣) ج٢ ص٣٦٠-٣٦١.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج١ ص٣٢٥، والبيهقي في سننه الكبرى: كتاب الصلاة، باب تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، والطبراني في المعجم الكبير ج١١ ص٦٧ حديث (١١٦٦).

(٥) إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، القسم الأول ص١٨٣.

لكن هذا الاستقبال لا يُفَسَّر على النحو الذي فسره به نولدكه، كما سأبين بعد قليل.

وبشأن ما جعله نولدكه سببًا ثانيًا لاختياره؛ فإنه متعلق بما زعمه من تأثير يهودي أو نصراني على النبي؛ وسأتناول هذا الزعم بإذن الله في دراسة لاحقة. كما أن نولدكه في نصوصه التي ترجمتها أعلاه يوظف توجه النبي إلى بيت المقدس في الفترة المكية كلها، وكذلك في بدايات الفترة المدنية، لادعاء أنه كان يتخذ في ذلك الوقت أهل الكتاب مرجعية له، فقد مر قوله:

«إن سبب تحويل قبلة الصلاة الأورسالمية يندرج في إطار التصور الجديد عن أديان الوحي القديمة الذي ناله محمد بالتدريج في المدينة؛ ففي حين أنه كان يشعر في الماضي أنه وثيق الصلة باليهود والنصارى؛ فقد حركه إخفاق دعايته بين هؤلاء إلى أن يولي وجهه للارتباط بآخَرَ؛ وجده أخيرًا في دين إبراهيم».

وأقول:

إن هذا التفسير مرفوض؛ لأنه لا يعدو كونه ادعاء بلا دليل، لأن أيدينا لم تقع على رواية تقول لنا: إن ذلك كان هو هدف النبي[1]، وبالتالي فإن القول به والبناء عليه لا يعدو كونه ضربًا من التخمين المغرض الذي يُضَحَّى من أجل إقراره بالحكمة الحقيقية، التي أخبر بها من شرع للنبي[2] هذه القبلة أصلًا.

تلك الحكمة أشار إليها القرآن ذاته؛ فلقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ الآية[3]؛ حيث أراد القرآن، وهو بصدد تربية أوائل المسلمين أن يصرفهم لبعض الوقت، بأمر منه سبحانه، عن شيء مألوف موروث لديهم؛ بأن يختبرهم باتباع الرسول في اتخاذ بيت

(١) هذا إن جازت نسبة اختيارها إليه أصلًا، وهي لا تجوز؛ فقد نسب الله الأمر لذاته العلية فقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ الآية.

(٢) طيلة إقامته في مكة؛ وسنة وبضعة أشهر في المدينة.

(٣) البقرة: ١٤٣.

المقدس - لا الكعبة - قبلة؛ ليبلو إيمانهم بالله ورسوله، وليقفهم على مدى صدقهم فيه. ولقد بينت الآية أن النفوس - إلا من شرح الله صدورها بهداه - تجد صعوبة كبرى في الالتزام بهذا.

ونستطيع أن نفهم من الآية أن اتخاذ المسلمين الكعبة فيما بعد على الدوام قبلة، كان هو الأصل المقدر في علم الله؛ وأن التوجه لبيت المقدس هو استثناء تم من أجل الحكمة التي بينتها الآية.

يقول القرطبي[1]: (وكانت قريش تألف الكعبة، فأراد الله عز وجل أن يمتحنهم بغير ما ألفوه ليظهر من يتبع الرسول ممن لا يتبعه).

ويقول سيد قطب[2]: (لقد كان العرب يعظمون البيت الحرام في جاهليتهم، ويعدونه عنوان مجدهـم القومي؛ ولما كان الإسلام يريد استخلاص القلوب لله، وتجريدها من التعلق بغيره، وتخليصها من كل نعرة وكل عصبية لغير المنهج الإسلامي المرتبط بالله مباشرة... فقد نزعهم نزعًا من الاتجاه إلى البيت الحرام؛ واختار لهم الاتجاه فترة إلى المسجد الأقصى... ليظهر من يتبع الرسول اتباعًا مجردًا من كل إيحاء آخر.. اتباع الطاعة الواثقة الراضية المستسلمة ممن ينقلب على عقبيه، اعتزازًا بنعرة جاهلية تتعلق بالجنس والقوم والأرض والتاريخ).

فبأي منطق يترك نولدكه التفسير الذي قدمه القرآن ذاته لجعل بيت المقدس لفترة قبلة، ليلجأ إلى تفسيره التآمري الذي يُدخِل فيه رسالة النبي في القوالب الاستشراقية سابقة التجهيز؟

***

(١) الجامع لأحكام القرآن ج٢ ص١٥٧.

(٢) في ظلال القرآن مجلد١ ص١٢٦، وراجع أيضًا ص١٣٢.



الفصل الثاني

دعوى نولدكه

تحول النبي عن اتخاذ أهل الكتاب مرجعية



تمهيد

أتناول في هذا الفصل دعاوى نولدكه التي يقدمها، ويظن أنها تفيده في زعمه أن النبي لما خاب أمله بعد الهجرة أن يترك اليهود دينهم ويتبعوه؛ هاجمهم بعد غـزوة أحد. وكان أول مظهر للهجوم عليهم صلتهم بإبراهيم. ثم انتهت العلاقة بطردهم وإذلالهم. كما زعم أن الحكم القرآني على غير المسلم بالخسران في الآخرة كان على صلة بهذا التحول المدعى.

وسيناقش هذا الفصل دعاوى نولدكه في مبحثين:

المبحث الأول: دعاواه بشأن هجوم القرآن على اليهود: أسبابه، أول مظاهره، نهايته.

المبحث الثاني: دعواه أن تكفير غير المسلم جاء في النهاية.

* * *



المبحث الأول
دعاوى نولدكه بشأن الهجوم على اليهود

أناقش نولدكه هنا في دعاواه بشأن الهجوم على اليهود: أسبابه، أول مظاهره، نهايته.

فعند حديث نولدكه[1] عن الآية ٣١ المدثر[2] قرر أن النبي بعد أن كان في «بداية العهد المدني لديه فكرة طيبة عن اليهود، وكان يضعهم والمؤمنين في جبهة واحدة؛ فإنه عدهم فيما بعد أعدى أعدائه». وقال[3]:

«لقد تملك محمدًا في بادئ الأمر أمل كبير فيهم؛ بوصفهم أناسًا يعرفون الوحي بالفعل، ولأنهم لم يتركوا في التو رأيهم القديم مراعاة لخاطر النبي الجديد[4]؛ إذ إن إدراك الاختلاف الكبير بين عقيدتهم والإسلام كان أسهل عليهم أكثر منه؛ فقد أخذ الانقسام في التعاظم؛ ولم ينته حتى قُتل كل اليهود وطردوا واستذلوا. إن عداوة اليهود كانت أكثر خطورة؛ إذ إنها لم تكن بوسائل حربية أو سياسية فقط؛ وإنما كانت أيضًا بالاستهزاء اللاذع، والأسئلة المفحمة بشأن أمور تنال من الدين. ولو لم تكن قبائلهم منقسمة إلى قسمين متخاصمين، بسبب حرب الأوس والخزرج؛ لما أمكن لمحمد أن يسحقها واحدة بعد الأخرى».

---

(١) ص٨٨-٨٩.

(٢) ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ الآية.

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٦٩-١٧٠، وقد أوردت من قبل النص بالألمانية.

(٤) ليست مراعاة خاطر النبي: أيِّ نبي؛ هي الهدف من إيمان المؤمن؛ وبالتالي فلم يكن المطلوب من اليهود أن يتحولوا إلى الإسلام لتحقيق هذا الهدف؛ هذا فضلًا عما في هذا التعبير من إضفاء ظلال شخصية على نبوة محمد ﷺ.

وعن الآيات ٥٨، وما بعدها من سورة آل عمران[١] يقول[٢]:

«إلى ذلك الزمن تقريبًا [زمن الخلاف مع بني قينقاع كما يبين سياق نصه] تشير الآيات [المذكورة] التي تضع أهل الكتاب مضادين لدين إبراهيم الحق؛ لأن هذه الفكرة كانت مقدمة متفهمة لتضعضع العلاقة بين النبي واليهود، ولانهيار أمله أن يدخلوا في الإسلام باختيارهم[٣]».

وأقول هنا: إن كلام نولدكه هنا يضعنا إزاء دعاوى أربع:

الدعوى الأولى: غزوات النبي ضد اليهود كانت بسبب أنهم لم يتركوا دينهم ويتبعوه. ولقد رتَّب نولدكه ما سماه: قتل كل اليهود وطردهم واستذلالهم؛ على امتناعهم عن ترك رأيهم القديم.

إن هذا الطرح فضلًا عما فيه من تبسيط ساذج للأمر، وتجاوز لحقائق التاريخ، بل وتزوير فاضح له، وحسن ظن مفرط بيهود عصر النبوة؛ فقد دفعت إليه أحكام مسبقة من قبيل اعتماد الإسلام على القسر والإكراه في جلب أتباعه؛ وهي القضية التي عالجها كثيرون، وأشرت إليها من قبل.

والذي يعنينا هنا أن نجيب عن سؤال هو: هل كانت تلك الغزوات الخيار الأول للنبي

---

(١) ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٩١.

(٣) يُفهم من دعوى نولدكه هنا أن إظهار أهل الكتاب على أنهم كانوا مضادين لدين إبراهيم الحق، إنما تم لتحقيق هدف هو (إجبارهم على الدخول في الإسلام)؛ إذ كأنه يقول: إن النبي عندما انهار أمله أن يدخلوا في الإسلام باختيارهم، جعلهم مضادين لدين إبراهيم الحق. لكن نولدكه لم يقل لنا كيف يمكن أن يتحقق هدف إجبارهم على الدخول في الإسلام؟ (وهو يتطلب إجراءات مادية على الأرض) من خلال تعريفهم أنهم مختلفون عن دين إبراهيم الحق (وهو لا يتعدى كونه مفهومًا عقديًّا مجردًا عن أية إجراءات مادية)، وهذا يطرح من جديد إشكالية منهج نولدكه الدوجماطيقي، وقضاياه التسليمية غير المستندة إلى برهان.

في علاقته مع اليهود، أم أنها سُبقت برغبة حقيقية مـن النبي في التعايش السلمي معهم، لـم تَلق تجاوبًا من جانبهم؟

وأجيب هنا معتمدا نفس المصادر الإسلامية التي اعتمدها نولدكه فأقول:

أ – لقد شهدت بدايات العهد المدني معاملة حسنة من النبي لليهود. واعترف بها نولدكه فقال عنه ﷺ: إنه كان «في أوائل الفترة المدنية يعامل اليهود بشكل لطيف»[١]. وهذه المعاملة الحسنة تحسب للنبي ولا تؤخذ عليه؛ إذ إنها حصلت برغم نقاط الاختلاف الواضحة بين الإسلام واليهودية؛ وبرغم المآخذ التي أخذها القرآن على اليهود وبني إسرائيل.

وإلى جانب هذا تأتي إشارات في بعض النصوص إلى أن النبي وبعض أصحابه ذهبوا إلى مدارس اليهود لمناقشتهم[٢].

كما أننا نعلم أن النبي اعتمد وثيقة، سبقت الإشارة إليها، تنظم العلاقة بين مواطني المدينة، ومن بينهم اليهود[٣]، تلك الوثيقة ارتضتها معظم القبائل اليهودية.

وإذا كان قد ظهر لنا أن الحرب لم تكن خيار الرسول الأول مع اليهود، فما هو السبب وراءها؟ إن نولدكه يزعم أن سببها كان هو بقاء اليهود على دينهم؛ لكن هذا ليس صحيحا للآتي:

إن ما سبق أن ذكرته من معاملة حسنة من جانب النبي والمسلمين لليهود والوثيقة التي عقدوها معهم وذهابهم إلى مدارسهم؛ يُحبط دعوى نولدكه هذه من أساسها؛ إذ إن ذلك يعني أنه لم يكن لدى نبي الإسلام، وبالتالي

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق ١ ص ٨٩.

(٢) عن ذهاب النبي انظر: أبو داود: السنن ج٤ ص ١٥٥ رقم (٤٤٤٩) والبيهقي: السنن الكبرى ج٨ ص ٢٤٦ رقم (١٦٨٩٦) وابن هشام ج ٢ ص٣٥٩، ٣٦٩ وعن ذهاب أبي بكر المرجع ص٣٦٤.

(٣) قد مرت الإشارة لهذه الوثيقة.

لدى المسلمين أية روح عدائية مسبقة تجاه اليهودية كدين، أو اليهود كجنس.

ب- كما أن غزوات النبي ضد يهود بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة وخيبر لم تأت كلها في وقت واحد، حتى يقال: إن بقاءهم على دينهم كان السبب وراءها؛ وإنما جاءت بالترتيب في شوال ٢ هـ، ثم ربيع الآخر ٤ هـ، ثم ذي القعدة ٥ هـ، ثم المحرم ٧ هـ.. فلو كان بقاؤهم على دينهم هو السبب وراء مصيرهم؛ لعجَّل النبي القضاء عليهم جميعهم عند أول فرصة سنحت له، منتهزًا انتصاره في بدر؛ فلا بد أنه كان لكل مواجهة أسبابها الخاصة التي ليس من بينها كونهم يهودًا؛ وإلا لَمَا كان لهذا التباعد الزمني تفسير.

ج - كما أنه ثبت أن النبي كتب كتابًا وسلمه لعمرو بن حزم، عندما أرسله إلى بني الحارث بن كعب في نجران بعد أن أسلم بعضهم، يقول فيه: «... **ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فلا يُرَدُّ عنها**...»[1]؛ وهذا يدحض تمامًا أي ادعاء من نولدكه أن بقاء اليهود على دينهم كان سببًا في قتال الرسول لهم.

د - ولقد بقي في المدينة بعد المواجهات مع تلك القبائل اليهودية قبائل وأفراد يهود؛ منهم: يهود بني ساعدة وبني جشم وبني جفنة وبني الشطبة وبني الأوس[2] وبني ثعلبة وبني زريق وبني حارثة وبني عمرو بن عوف وبني النجار وبني هدل[3].

وقد روى سعيد بن المسيب: (أن رسول الله تصدق صدقة على أهالي بيت من اليهود فهي تجري عليهم - أي بعد وفاته -)[4]. و(تصدقت صفية بنت

(١) ابن هشام ج٤ ص٤٤١، الطبري: تاريخ ج٣ ص١٢٩ وفيه (يفتن) بدلًا من (يُرد)، ابن سعد ٢/ ١/ ١٢٢.

(٢) ابن هشام ج٢ ص٣١٩-٣٢٠، وأبو عبيد القاسم بن سلام: الأموال ١٩٦.

(٣) راجع: ابن هشام ج٢ ص٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ج٣ ص١٧٤، والبيهقي: السنن الكبرى ج٩ ص١١٤ رقم (١٨٠٤٢)، وابن حزم: جوامع السيرة ١٥٣.

(٤) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام: الأموال ص٥٤٣.

حيي بن أخطب على ذوي قرابة لها فهما يهوديان فبيع ذلك بثلاثين ألفًا)(١)، وصفية رضي الله عنها لم تصر زوجة للنبي إلا بعد غزوة بني قريظة.

كما أن (رسول الله مات ودرعه مرهونة عند واحد منهم(٢) في دين عليه)(٣).

كما أن عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي كان عليه دين لأحد اليهود في المدينة قبيل غزوة خيبر بأيام معدودة هو أبو الشحم(٤)؛ والمعروف أن غزوة خيبر كانت بعد غزوات بني قينقاع والنضير وقريظة.

فلو كان ما ادعاه نولدكه من استهداف النبي إياهم بسبب بقائهم علي دينهم صحيحًا؛ فكيف يفسر بقاء هؤلاء جميعًا في المدينة حتى وفاة رسول الله وبعدها؟.

كما أن بعض أبناء الأوس والخزرج الذين تهودوا لم يكرهوا على التخلي عن اليهودية عند إجلاء يهود بني النضير(٥)؛ فلو كان قتال النبي لليهود

---

(١) نفسه.

(٢) أورد الإمام الشافعي (في مسنده ١٤٨) اسمه، فقال هو أبو الشحم اليهودي.

(٣) والحديث صحيح ورد في البخاري: بشرح ابن حجر ج٨ ص ١٥١ رقم ٤٤٦٧، أحمد: المسند ج٦ ص٢٣٧ رقم ٢٦٠٤٠، وسنن الدارمي ج٢ ص٣٣٧ رقم ٢٥٨٢. والبيهقي: السنن الكبرى ج٦ ص ٣٦ رقم ١٠٩٧٤.

(٤) الواقدي: المغازي نقلًا عن التاريخ الإسلامي محمود شاكر الجزء ٢ الخاص بالسيرة ص٣٠٢-٣٠٣.

(٥) أخرج أبو داود وغيره بسند صحيح عن ابن عباس قال: "كانت المرأة من نساء الأنصار تكون مقلات (لا يعيش لها ولد: أبو داود نفس الموضع، وغريب الحديث للخطابي ٣ / ٨١)، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا فأنزل الله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ سنن أبي داود، كتاب الجهاد ج٣ص٥٨، حديث (٢٦٨٢) والواحدي: أسباب النزول ص٧٣ حديث (١٥٥) والبيهقي: السنن الكبرى ٩ / ١٨٦. وقال سعيد بن جبير: فمن شاء لحق بهم ومن شاء دخل في الإسلام (الواحدي المرجع نفسه ص ٧٤).

لإجبارهم على التخلي عن يهوديتهم؛ لكان هؤلاء أوْلى أن يمارس عليهم هذا الإكراه.

هـ- وإذا لم يكن بقاؤهم على دينهم سببًا في قتالهم.. فهل كان السبب في ذلك هو عدم وفائهم بالتزاماتهم المالية والعسكرية التي تفرضها الوثيقة على كافة الأطراف، أو حتى حملة التشكيك التي قاموا بها ضد النبي والمسلمين؟

إن اليهود لم ينفذوا التزاماتهم المالية والعسكرية التي تفرضها الوثيقة؛ فلم يساندوا المسلمين ماليًّا أو عسكريًّا في غزوة بدر. لكن النبي تجاوز عن ذلك؛ بل كان أحيانًا يرفض عروضًا من بعض المسلمين للاستعانة بالحلفاء من اليهود[1].

كذلك شككوا في نبوته ﷺ بشبهات ساقطة؛ فقالوا عندما مات أسعد بن زرارة في بداية العهد المدني، وقبل أن يفرغ الرسول من بناية المسجد: "لو كان محمد نبيًّا لم يمت صاحبه"[2].

ودعاهم حقدهم على النبي لأن يتنكروا للتوحيد كما جاء به أنبياؤهم العظام؛ فيخدعوا الوثنيين أن أصنامهم خير من دين محمد[3] ليحققوا هدفهم في القضاء على النبي.

كما استغل بنو النضير هزيمة أحد قائلين: (ما محمد إلا طالب ملك؛

(١) خرج رسول الله ﷺ حتى إذا خلف ثنية الوداع إذا كتيبة، قال: «**من هؤلاء؟**» قالوا: بنو قينقاع، وهم رهط عبد الله بن سلام. قال: «**وأسلموا؟**» قالوا: لا؛ بل هم على دينهم. قال: «**قل لهم فليرجعوا؛ فإنا لا نستعين بالمشركين**». المستدرك على الصحيحين ج٢ ص١٣٣ رقم (٢٥٦٤) والآحاد والمثاني ج٤ ص٩٧ رقم (٢٠٦٨).

(٢) ابن هشام ج٢ ص٣٢٢ الطبري: تاريخ ج٢ ص٣٩٧.

(٣) الطبري: تاريخ ج٢ ص٥٦٥، وفيه أن اليهود قالوا لقريش: دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه "وفيهم قال الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ النساء: الآيات: ٥١-٥٥.

ما أصيب هكذا نبي قط؛ أصيب في بدنه، وأصيب في أصحابه)[1].

وطرح علماؤهم الأسئلة المتعنتة عليه مستغلين علمهم بالكتاب الأول قاصدين إحراجه لولا أن الوحي كان يؤيده[2]؛ تلك الأسئلة التي يصفها نولدكه نفسه[3] بأنها كانت: «استهزاء لاذعًا، وأسئلة مفحمة بشأن أمور تنال من الدين؛ وهكذا هاجموا النبي قائلين: ما نرى لهذا الرجل همة إلا النساء والنكاح، ولو كان نبيًّا كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء[4]. كما سألوا قائلين: خلق الله العالم فمن خلق الله[5]. ولقد كانوا بالفعل مستعدين للإجابة المراوغة عن هذا السؤال، لكنهم أرادوا أن يمتحنوا محمدًا: إن كان يجد شيئًا من هذا القبيل أيضًا. وبطبيعة الحال يرى المسلمون في مثل هذه الأسئلة كفرَ وخبث اليهود»[6].

كما أنهم حاولوا إبعاد النبي عن المدينة من خلال عرضِهم عليه أن يرحل طواعية عنها، مقترحين له الشام (بيت المقدس)؛ حيث سَكَنُ الأنبياء قبله[7]؛ وكذلك محاولتهم ضرب الوحدة الإسلامية بالوقيعة بين الأوس والخزرج[8]. ودورهم في نجوم النفاق؛ إذ كانوا يحرضون فريقًا من ضعاف النفوس عليه؛ يقول تعالى عن المنـافقين: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا

(١) الواقدي: ج١ ص ٣١٧ - ٣١٨ المقريزي: إمتاع الأسماع ص ١٤١.

(٢) سؤالهم عن الساعة (ابن هشام ج ٢ ص ٣٧٣)، وعن وصف الله (نفس المرجع ٣٧٥) ومَن خلقه؟ (المرجع نفسه ص ٣٧٤).

(٣) تاريخ القرآن بالألمانيةالقسم الأول ص١٧٠، وهامش ١ بذات الصحيفة.

(٤) أورده الواحدي عن الكلبي في مناسبة نزول الآية ٣٨: الرعد في أسباب النزول ص٢٣٠.

(٥) هذا السؤال الذي يشير إليه نولدكه ورد في ابن هشام ج ٢ ص ٣٧٥.

(٦) هذا ما يراه المسلمون؛ فهل يرى نولدكه فيه شيئًا آخر؟

(٧) ابن حجر: فتح الباري ج٨ ص١١١-١١٢، وقال ابن حجر: إسناده حسن مع كونه مرسلًا. ولقد ضعَّف الطبري، وابن كثير كون الآية ٧٦ الإسراء: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ نزلت في الحادثة المذكورة.

(٨) الواحدي: أسباب النزول ص ٩٩، ١٠٠.

﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾(١)؛ حيث رأى ابن عباس وغيره أن المراد بـ ﴿شَيَٰطِينِهِمْ﴾ هنا اليهود(٢).

ولقد قللوا من أهمية انتصار بدر مغترين بقوتهم، فقالوا بعده: (لم يلق محمد من يحسن القتال، ولو لقِينَا لاقَى عندنا قتالًا لا يشبهه قتال أحد)(٣)... صحيح أنهم فعلوا كل ذلك؛ إلا أن النبي ظل محافظًا على عهده معهم؛ لأن تحدِّيَهم حتى مع بروز طابعه العدائي؛ إلا أنه لم يكن قد حمل الطابع الحربي بعد.

ولم يكن استهزاؤهم اللاذع، وأسئلتهم المفحمة سببًا مباشرًا لقتال الرسول إياهم - كما حاول نولدكه أن يفهمنا- بدليل أن النبيَ قال لعمر عندما اقترح عليه قتل رؤوس الفتنة في بني النضير، إثر شماتتهم المذكورة آنفًا في النبي بعد هزيمة أحد: «**إن الله مظهر دينه، ومعز نبيه، ولليهود ذمة فلا أقتلهم**»(٤)، وكان ذلك في العام الثالث من الهجرة، وبدليل أن كثيرًا من أفعالهم المذكورة هذه بدأت بعد الهجرة مباشرة، في حين كانت المواجهات العسكرية معهم في الأعوام ٢، ٤، ٥، ٧ هـ.

و- لقد نقلت لنا المصادر الإسلامية أن كل مواجهة من المواجهات المذكورة كان لها من قِبل اليهود سبب عدائي واضح يحمل الطابع الحربي المذكور:

---

(١) البقرة: ١٤.

(٢) ابن كثير التفسير ج١ ص٤٩.

(٣) الطبري: تاريخ ج٢ ص٤٧٩ البلاذري: أنساب ج ١ ص٣٠٨، وسنن أبي داود بسنده عن ابن عباس من طريق ابن إسحاق (ج٣ ص ١٥٤). وفي البيهقي بنفس الطريق: (دلائل، باب غزوة بني قينقاع ج٣ / ١٧٣) و ابن هشام (ج ٢ ص ٣٥٩) بلفظ: (يا محمد، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرًا من قريش كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال! إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا). وبلفظ قريب (ابن هشام أيضًا ج٣ ص ٣٣). فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝١٢ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران ١٢، ١٣].

(٤) الواقدي ج١ ص٣١٧-٣١٨، والمقريزي: إمتاع الأسماع ج١ ص١٤١.

فحادثة بني قينقاع كانت بسبب تحرش بعضهم بمسلمة في السوق، وكشف جسدها بقصد إضحاك جلسائه[1]؛ ويقول الواقدي[2]: «إنهم نبذوا العهد إلى النبي، وحاربوا وتحصنوا في حصنهم»، فحاصرهم النبي، وأمرهم بالجلاء عن المدينة إلى أي مكان يختارونه[3].

أما بنو النضير؛ فقد ثبت في السيرة أن أبا سفيان عزم بعد هزيمة المشركين التي لم يشهدها في بدر أن يثأر؛ فسار في مائتي راكب من مشركي مكة، حتى وصلوا المدينة في ذي الحجة، ودخل أبو سفيان وحده ليلًا على زعيم بني النضير: سلام بن مشكم، فاستقبله و«قراه وسقاه وبَطَن له من خبر الناس»[4] - كما في رواية عبد الله بن كعب بن مالك، من طريق ابن إسحاق، ولم يتوان المشركون المكيون فذهبوا إلى الأماكن التي كشف لهم سترَها زعيمُ يهود بني النضير؛ فحرقوا نخيل المسلمين، وقتلوا أنصاريًّا وحليفه[5].

ونتساءل: تحت أي نوع من الجرائم يمكن أن يندرج ما فعله زعيم بني النضير؟ ندع الجواب للقارئ المنصف.

وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يثبت أن رسول الله اتخذ إجراء ضد بني النضير عقب تلك الخيانة.. لكنهم بعد ذلك دبروا محاولتي اغتيال للنبي:

الأولى: كانت بعد بدر؛ حيث استجاب بنو النضير لطلب قريش منهم قتال النبي، فأرسلوا إليه أنهم يريدون الاستماع إليه، وعرضوا عليه أن يخرج

(١) سنن البيهقي الكبرى ج٩ ص٢٠٠.
(٢) في المغازي ح ص١٧٧.
(٣) ابن هشام ج٣ ص٣٣-٣٥، الواقدي ج١ ص١٧٦-١٨٠ البلاذري: أنساب الأشراف ج١ ص٣٠٩ جوامع السيرة... ابن كثير البداية والنهاية ج٤ ص٣-٤.
(٤) أي: استضافه، وقدم له سر المسلمين وأماكن تواجدهم.
(٥) ولما عرف المسلمون طاردوهم، فتخفف المشركون من أحمالهم، فطرحوها بحرًا ليسهل هربهم، فغنمها المسلمون، وسميت: غزوة السويق. راجع ابن هشام السيرة النبوية ج٣ ص٣١، ٣٢.

إليهم في ثلاثين رجلًا من أصحابه على أن يقابلوه بمثلهم من أحبارهم، فإن أقنعهم بدينه آمنوا. وكان ثلاثة منهم قد أعدوا خناجرهم لاغتيال النبي، لولا أن امرأة منهم فضحت أمرهم لأخ لها مسلم، فأخبر بدوره النبي فرجع ولم يقابلهم(١).

الثانية: كانت لما ذهب إليهم النبي - طبقًا لما بين الطرفين من مواثيق سابقة- مستعينًا بهم في دية قتيلين من بني عامر قتلهما أحد المسلمين خطأً، فتآمروا لقتله قائلين: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه.. فمَن رجل يعلو هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه.. وكادوا ينفذون المؤامرة، لولا أن جبريل(٢) أخبر النبي بها(٣). فأنذرهم أن يغادروا المدينة

---

(١) عبد الرزاق: المصنف ٥/ ٣٥٩ -٣٦٠، وفتح الباري ج٧ ص٣٣١ وبعضه في سنن أبي داود ج٣ ص ١٥٥.

(٢) إخبار جبريل للنبي بالمؤامرة هو الوارد في كتب السنة والسيرة الصحيحة. لكن د. عبد الرحمن بدوي رد إدراك النبي بالمؤامرة إلى مجرد شكه ﷺفقال (دفاع عن محمد ﷺضد المنتقصين من قدره، ص١٠٦): "لما تأخروا في الرجوع شك النبي في أنهم ربما يدبرون مؤامرة لقتله". وليس ثمة ما يدعوه للعدول عن الأحاديث؛ لأن جبريل كما كان يأتي رسول الله بوحي القرآن، كان يأتيه كذلك بوحي غيره. راجع الجزء الثاني من هذه الدراسة. ثم إننا لاحظنا أن النبي لم يتخذ إجراء ضدهم في محاولة الاغتيال الأولى؛ ولعل ذلك راجع لأن الإبلاغ بها تم عن طريق خبر بَشري يحتمل الصدق والكذب؛ فكيف لا يعاقب فيها، ثم نراه هنا يؤسس العقوبة على جريمة لم تثبت إلا بشكه هو؟. وبالمناسبة فإن جهدًا كبيرًا بذله الدكتور/ عبد الرحمن بدوي في كتابيه الأخيرين (دفاع عن القرآن ضد منتقديه)، والكتاب المذكور معنا هنا، وفيهما الكثير من النقاط الإيجابية والمعالجة القوية لبعض الأخطاء البحثية للمستشرقين، نسأل الله أن يتقبلها منه. لكن بهما سلبية ينبغي أن ينتبه إليها الباحثون، وهي موقفه السلبي من بعض الأحاديث، راجع صفحات٦٢، ٦٤ من كتابه (دفاع عن محمد ﷺضد المنتقصين من قدره) وقد رجا أن يطول عمره حتى يخصص عملًا للسنة (المرجع نفسه ص٢٠٧) لكنه توفي، رحمه الله، وجعل نيته في مقام العمل.

(٣) ونزل قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ [المائدة: الآية: ١١] ابن هشام ج٢ ص٣٦٨.

خلال عشرة أيام؛ لكنهم تحصنوا في حصونهم فحاصرهم حتى استسلموا، وطلبوا أن يرحلوا عن المدينة ويحقنوا دماءهم ويحملوا ما تقدر إبلهم على حمله عدا السلاح. واستقروا في خيبر، وذهب بعضهم للشام[1].

ثم تآمر زعماء بني النضير الذين سكنوا خيبر: سلام بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب، وكنانة بن أبي الحقيق، فألبوا القبائل العربية الوثنية؛ وقالوا لقريش: إنا سنكون معكم حتى نستأصله[2]، وذهبوا إلى بني قريظة الذين كانوا مازالوا محافظين على عهدهم مع المسلمين، فحرضوهم على الانضمام للأحزاب، ففعلوا ونقضوا العهد مع المسلمين. ولما علم النبي بذلك أرسل إلى يهود بني قريظة الزبير بن العوام ثم سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبد الله بن رواحة وخوات بن جبير يستوثقون من موقفهم؛ فلما سألوهم عن عهد رسول الله قالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد، وشتموا سعد بن معاذ فعادوا إلى الرسول بما رأوا فزاد ذلك من حراجة موقف المسلمين. وزاد الأمر سوءًا أن قام بنو قريظة بمهاجمة بعض مساكن المدينة؛ مستغلين أن المسلمين لم يؤمِّنوا حدود المدينة بالخندق من جهتهم جنوب المدينة؛ لأنهم لم يكونوا ينتظرون غدرًا منهم للعهد القائم بين الجانبين.

يقول أبو بكر الصديق: (لقد خفنا على الذراري بالمدينة من بني قريظة أشد من خوفنا من قريش وغطفان)[3].

(١) ابن حجر: فتح الباري ج٧ ص٣٣١، والرواية لابن إسحاق عن يزيد بن رومان وابن هشام ج٢ ص٣٦٧ وج٣ ص١٤٠، الطبري ج٢ ص٥٥٠-٥٥٥، وابن سعد ٢/ ١ ص٤٠-٤٢، والواقدي ج١ ص٣٦٣-٣٨٠، وأنساب الأشراف ج١ ص٣٣٩، وابن حزم: جوامع سيرة الرسول ص١٤٤-١٤٥.

(٢) ابن هشام ج٣ ص١٣٨ - ١٤٠، البيهقي: السنن الكبرى ج٩ ص٢٣٢ رقم (١٨٦٣٦)، والواقدي ج ٢ ص٤٤١ - ٢٤٤ والطبري: تاريخ ج٢ ص ٥٦٥.

(٣) ابن هشام ج٣ ص١٧١ - ١٧٥، والواقدي جـ٢ ص٤٤١ - ٤٩٩ وابن سعد ٢/ ١ ص٤٨-٥٥، والطبري: تاريخ جـ٢ ص٥٧١ - ٥٨٨، البيهقي: السنن الكبرى ج ٩ ص ٢٣٢ رقم ١٨٦٣٦، وابن حزم: جوامع السيرة... وابن حجر: فتح الباري جـ٧ صـ٤١٣ - ٤١٤.

ونلاحظ هنا أن النبي حافظ من البداية على عهده مع اليهود إلى أن خانوا وغدروا؛ قبيلة في إثر قبيلة. وأنه لم يؤاخذ منهم إلا القبيلة التي غدرت؛ فلم يُجْلِ أولًا إلَّا بني قينقاع الذين تحرشوا بالمسلمة وقتلوا المسلم. ولم يطرد إلا بني النضير الذين تآمروا على قتله، ولو بقيت بنو قريظة على عهدها معه ما مسها سوء. كما أن من لم ينقض العهد من بني قريظة (مثل عمرو بن سعد القرظي)[1] لم يمسسه سوء.

وبعد ... فإذا كان نولدكه قادرًا في دعواه التي لم تتجاوز بضعة أسطر أن يتجاهل كل تلك الحقائق المتاحة في المصادر الإسلامية بين يديه؛ فهل يمكننا أن نصدق دعوى موضوعيته التي تزعم له؟

***

الدعوى الثانية: ويبرر نولدكه عدم ترك اليهود رأيهم القديم بأنهم كانوا يدركون بسهولة -أكثر من النبي- الاختلاف الكبير الحاصل بين عقيدتهم والإسلام.

ويؤسفني القول: إن هذا التبرير لا يوجد له أي أساس، ولا يمكن تفسيره إلا في سياق كونه محاولة فاشلة من جانب نولدكه، لخلق مُبَرِّر لامتناع معظم اليهود المعاصرين للنبي عن الإيمان به.

أ- لقد سبق[2] إثبات أن إدراك النبي للاختلاف الكبير الحاصل بين عقيدتهم والإسلام كان -على عكس ما يدعي نولدكه- أكبر من إدراكهم هم.

ب- إن أسباب امتناعهم عن الإيمان لا يعود واحد منها للنبي ﷺ؛ إذ إنهم كانوا يعرفون أن عصرهم ذلك كان عصر مبعث نبي، وكانوا يتوقعونه منهم؛ ولذا هددوا به من خالفهم من الأوس والخزرج. لكن خاب ظنهم وخرج من العرب، وهاجر إلى منطقة نفوذهم؛ وحقق نجاحًا سريعًا فاق توقعاتهم؛ فجعلهم يشعرون بعزلة

(١) أورد البيهقي:(السنن الكبرى ج٩ ص٢٣٢ رقم (١٨٦٣٦) أنه قال: لا أغدر بمحمد أبدًا.

(٢) في المبحث الثاني من الفصل الأول من هذا الجزء.

وتهميش، بعد أن كانوا المحرك الرئيس للأحداث والمواقف قبل قدومه؛ فوقفوا بكل قوتهم في مواجهته للدفاع عن المصالح الدنيوية قصيرة المدى.

قال ابن إسحاق[1]: (حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا: فينا والله وفيهم نزلت هذه القصة؛ كنا قد علوناهم ظهرًا في الجاهلية، ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب، فكانوا يقولون لنا: إن نبيًّا يُبعث الآن نتبعه، قد أظل زمانه نقتلكم معه قتل عاد وإرم. فلما بعث الله رسوله من قريش فاتبعناه، كفروا به).

وعن ابن عباس[2] أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله قبل مبعثه؛ فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه؛ فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور: يا معشر يهود! اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك، وتخبروننا أنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته، فقال سلام بن مشكم (أحد بني النضير): ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكره لكم؛ فأنزل الله في ذلك: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[3].

لكن هذا لم يمنع القليل منهم من أن يَصْدُقوا مع أنفسهم، فيعترفوا أن محمدًا هو النبي الذي كانوا ينتظرون. وقد سبق أن ذكرت أسماء بعضهم. وأضيف هنا أن سبب إسلام ثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وأسد بن عبيد من يهود هدل أو بني قريظة، هو أن رجلًا يقال له ابن الهيبان كان يتوقع خروج نبي قد أظل زمانه تكون يثرب مهاجره، وكان ينصح اليهود ألا يسبقهم إليه أحد[4] .

(١) برواية ابن هشام: السيرة.. ج٢ ص ٣٤٩ – ٣٥٠، ونقلها عنه كذلك ابن حجر في الفتح ج٨ ص١٦٢.

(٢) ابن هشام جـ ٢ ص٣٥٥.

(٣) البقرة: ٨٩.

(٤) البيهقي: السنن الكبرى ج٩ ص١١٤ رقم (١٨٠٤٢).

وتروي لنا السيدة صفية بنت حيي بن أخطب[1] أنه عندما نزل رسول الله قباء في بداية الهجرة، ذهب إليه أبوها وعمها أبو ياسر بن أخطب مُبكّرين، فلم يرجعا حتى غربت الشمس، وبهما غم وهم شديدان. قالت: فسمعت عمي يقول لأبي: أهو هو؟ قال أبي: نعم والله؛ قال: أتعرفُه وتُثبته؟ قال: نعم. قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت.

ولقد كان من المفترض أن يساعد النجاح غير العادي الذي حققه رسول الله ﷺ في المدينة اليهود على أن يفكروا بجد في صدقية رسالته ﷺ؛ إلا أن معظمهم تولد لديه حقد وحسد على النبي والعرب: قال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[2] وقال: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ الآية[3].

ولقد اعترف بذلك أحد أحبارهم وهو: عبد الله بن صوريا، إذ قال عن إخوانه اليهود: (أما والله يا أبا القاسم إنهم ليعرفون أنك نبي مرسل، ولكنهم يحسدونك)[4]. ولقد شَكّلَ هذا الحسد مانعًا آخر من إسلامهم.

كما أن التعصب لما كان عليه الآباء يأتي أيضًا من بين هذه الأسباب: جاء في ابن هشام[5] عن ابن إسحاق أنه قال: دعا رسول الله اليهود من أهل الكتاب إلى الإسلام ورَغَّبَهم فيه... فقالوا له: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا؛ فهم كانوا أعلم وأخير منا؛ فأنزل الله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ الآية[6].

(١) ابن هشام ج٢ ص٣٢٩ – ٣٣٠.
(٢) النساء: ٥٤.
(٣) البقرة: ١٠٩.
(٤) ابن هشام ج٢ ص٣٦٩ وأبو داود: السنن ج٤ ص١٥٥ رقم (٤٤٤٩) والبيهقي: السنن الكبرى ج٨ ص٢٤٦ رقم (١٦٨٩٦).
(٥) ج٢ ص٣٥٩.
(٦) البقرة: ١٧٠.

وكان بعض رؤسائهم يريد أن يميل الرسول عن الحق لصالحهم، إذ كانوا طرفًا في قضاء بين يديه، وكان المقابل هو أن يؤمنوا به قائلين: "إن اتبعناك اتبعتك يهود"؛ فكان رسول الله يأبى ذلك؛ وأنزل الله: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[١]

ج- وفي إسلام بعضهم - (أحصيت في الفصل السابق أسماء خمسة عشر فردًا منهم) - حجةٌ تلزم من لم يسلم منهم؛ إذ إن مصادر تشكيل الوعي الديني لديهم واحدة.

إن إسلام كل هؤلاء اليهود يدحض تبرير نولدكه لعدم اتبــاع اليهود النبي. كما أنه يؤكد ما قلناه من أن امتناع كثير من اليهود المعاصرين للنبي عن الإيمان به يعود لأسبابهم الخاصة، بدليل أن هؤلاء الذين أسلموا -وبعضهم من علمائهم- لما تخلصوا من هذه الأسباب الخاصة لم يسعهم إلا الإيمان بالنبي. وحتى الذين لم يسلموا منهم؛ لم يستطع بعضهم إلا أن يعترف بنبوة محمد ﷺ، لكنهم يقولون: (إنه للعرب فقط، أما نحن فلسنا مطالبين بالإيمان به)؛ وفي هذا يقول الله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[٢].

(١) المائدة: ٤٩-٥٠، والرواية ذكرها ابن هشام ج٢ ص٣٧١، وجاءت في البيهقي: دلائل ج٢ ص٥٣٦.

(٢) البقرة: ٧٦-٧٨، والرواية في تفسير ابن كثير ج١ ص١١٠ قال: " قال محمد بن إسحاق: حدثنا محمد بن أبي محمد عن عكرمة، أو سعيد بن جبير عن ابن عباس "وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا" أي: أن صاحبكم رسول الله، ولكنه إليكم خاصة، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: لا تحدثوا العرب بهذا؛ فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم فكان منهم ..." وانظر: ابن هشام، لكن بدون سند ج٢ ص٣٤٦.

د - كما أنهم تحاكموا إلى نبي الله محمد ﷺ في رجل وامرأة منهم زنيا، وهما متزوجان فنفذ فيهما رسول الله حكم التوراة برجمهما؛ وكان اليهود قد عطلوا هذا الحكم فكان النبي أول من أحياه[1]. وتحاكم إليه بنو النضير وبنو قريظة في قضية قتل[2].

إن تحاكمهم للنبي ينطوي على اعتراف ضمني برسالته.

ولقد أدرك واحد من بني النضير هو كنانة بن صوريا أن تحول النبي عن المكان الذي كان يأوي إليه يوم قرروا اغتياله رغم سرية المؤامرة؛ ما كان ليتم لولا أن خبر المؤامرة جاءه من السماء[3].

نخلص إذن إلى بطلان التبرير[4] الذي ساقه نولدكه لبقاء معظم يهود عصر النبوة على رأيهم القديم، وإلى الجزم بأن أسبابهم الخاصة التي ذكرنا بعضها هي التي كانت وراء ذلك.

***

الدعوى الثالثة: يحدد نولدكه هنا بداية تحدي اليهود للنبي فيجعلها بعد غزوة أحد؛ يقول[5]: "ربما بدأ [هذا التحدي] بعد غزوة أحد التي ذاق فيها المسلمون هزيمة قاسية. إلى هذا تشير الآية ١٠٧ [6] التي تتحدث عن أذى اليهود الذين لم يتورعوا عنه -على ما يظهر- حتى قبل النزاع العلني، وهذا يتناسب مع الوقت الذي انحدر فيه المؤمنون إلى حظ سيئ أوقعهم فيه خبث أعدائهم؛ ولهذا فإن هذه الآيات يمكن أن تكون قد نشأت قبل الحرب مع بني النضير بفترة قصيرة.... إلى نفس الوقت تقريبًا تنتمي الآيات ١١٤ [7]

(١) ابن هشام جـ ٢ ص٣٦٨ - ٣٧١ وورد تحاكمهم إليه ﷺ في سنن أبي داود ج ٤ ص ١٥٣-١٥٤ رقم (٤٤٤٩)، (٤٤٥٠)، وسنن البيهقي الكبرى ج ٨ ص ٢٤٦ رقم (١٦٨٩٦).

(٢) ابن هشام ج ٢ ص ٣٧١.

(٣) الطبري: تاريخ ج٢ ص ٥٥٢.

(٤) وهو: إدراكهم الاختلاف الكبير الحاصل بين عقيدتهم والإسلام.

(٥) ص١٩٢.

(٦) ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ الآية.

(٧) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ﴾ الآية.

وما بعدها التي يقال فيها: إن اليهود لا يخفون عداوتهم ضد المسلمين الذين أصيبوا بسوء حظ: الآية ١١٦[١]، لذا فإننا نستطيع أن نربط هذه الآيات بالمقطع الذي يعالج الغزوة التي مضت قبل فترة ليست بطويلة على جبل أحد (شوال من العام ٣ هـ)".

لكن هذا التحديد غير مسلم؛ إذ لم تتأخر بداية تحدي اليهود للنبي إلى هذا الوقت. فقد مر تشكيكهم في نبوته في بداية العهد المدني، ولقد كانت فعلة يهود بني قينقاع قبل عزوة أحد.

***

الدعوى الرابعة: أن صلة اليهود بإبراهيم كانت أول مظاهر الهجوم القرآني عليهم. عن الآيات ٥٨ و ما بعدها من سورة آل عمران[٢] يقول نولدكه[٣]: "إلى ذلك الزمن تقريبًا [زمن الخلاف مع بني قينقاع كما يبين سياق نصه] تشير الآيات [المذكورة] التي تضع أهل الكتاب مضادين لدين إبراهيم الحق؛ لأن هذه الفكرة كانت مقدمة متفهمة لتضعضع العلاقة بين النبي واليهود، ولانهيار أمله أن يدخلوا في الإسلام باختيارهم".

وأقول هنا: إن نولدكه يضعنا قسرًا مرة أخرى إزاء رؤيته التركيبية الملفقة للأحداث التي يفهمها بطريقته الخاصة؛ فكما لفق من قبل حكمه بأن النبي طرد واستذل وقتل كل اليهود، بسبب أنهم لم يتركوا رأيهم القديم ويتبعوه؛ يلفق الآن حكمه بأن النبي بسبب فقدانه الأمل أن يدخل أهل الكتاب الإسلام باختيارهم؛ هاجمهم بأن جعلهم مضادين لدين إبراهيم الحق.

وكعادة نولدكه دائما أنه لا يطرح آراءه على أنها فرضيات تقبل النقاش وتحتمل الخطأ؛

---

(١) ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ الآية.

(٢) ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٩١.

وإنما يطرحها على أنها أحكام؛ موهمًا قارئه أن الأحداث المتعلقة لا تفسر إلا من خلال السياق التركيبي الذي يضعها نولدكه فيه.

لكننا بتحليل هذا السياق إلى قضاياه المركَّبة له يتبين لنا حجم التدليس الذي ارتكبه نولدكه في دعواه هنا؛ إذ يزعم أن النبي انهار أمله في هداية اليهود، وأن ذلك تسبب في إظهار القرآن أهل الكتاب مضادين لدين إبراهيم الحق، كما ادعى أن الحكم بأن الخلاف مع اليهود حول إبراهيم عليه السلام، كان مقدمة لتضعضع العلاقة بين النبي وبينهم، وأنه تزامن مع الخلاف مع بني قينقاع؛ ثم يظهر لنا أن بعض هذه المقدمات بلا دليل، وبعضها خاطئ:

أ - فبشأن زعمه انهيار أمل النبي في هداية اليهود؛ فليس لدى نولدكه على الإطلاق أي دليل على أن النبي قد حدث له ذلك مع أي من البشر، حتى لو كانوا يهودًا؛ فالمنهج القرآني الذي تربى عليه النبي يعصمه من اليأس ويربيه على الصبر(١).

ولو كان انهيار الأمل في هداية أحد قد عرف طريقه إلى النبي ﷺ لما توقف عند اليهود وحدهم؛ بل كان يتعداهم كذلك إلى مشركي العرب؛ فقد دخلوا معه في صراعات طويلة، وبرغم ذلك ظل رسول الله مستمسكًا بالأمل في هدايتهم جميعًا طيلة حياته.

وقد يقال هنا: إن نولدكه انطلق في زعمه انهيار أمل النبي في هداية اليهود من قول الله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٢)؛ لكن هذا المنطلق غير صحيح؛ لأن هذه الآية تبين للنبي أن كون اليهود يعلمون الوحي القديم ليس مؤشرًا على أنهم

---

(١) وذلك في مثل: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يونس ١٠٩]، و﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل﴾ [من الآية ٣٥ الأحقاف]، و﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور ٤٨]، و﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام ٣٤، ٣٥]

(٢) البقرة: ٧٥.

سيسارعون للإيمان الجماعي بالوحي الجديد؛ فقد كان لهم موقفِ سلبي من الوحي القديم، وكذلك سيكونون مع الوحي الجديد، وهذا لا يمنع من أن يبقى لدى النبي الأمل في إيمان بعضهم؛ هذا الإيمان الذي حدث بالفعل كما مر.

هذا بالإضافة إلى أن الزمن الذي حدده نولدكه للانهيار المزعوم لأمل النبي هو زمن الخلاف مع بني قينقاع؛ لكن الآية المذكورة تنتمي إلى زمن نزول سابق، هو بداية العهد المدني كما مر.

ب- وبشأن زعمه أن الانهيار المزعوم لأمل النبي فيهم هو الذي تسبب في أن يُظهر القرآن أهل الكتاب مضادين لدين إبراهيم الحق أقول: إن هذا الزعم ينشئ علاقة ارتباطية بين أمل النبي في طائفةٍ، وجودًا وعدمًا، وبين السكوت عن أخطائهم وكشفها، بحيث نصل إلى هذه الصيغة التي يفرضها كلام نولدكه حتمًا:

أمل النبي في إيمان طائفة يؤدي إلى سكوت القرآن عن انحرافاتهم.

انهيار أمل النبي في هذه الطائفة يؤدي إلى كشف القرآن لانحرافاتهم.

فهل هذه الصيغة صحيحة؟

إن أدنى تواصل مع القرآن الكريم يبين أنه في الوقت الذي كان يملأ فيه نفس النبي بالأمل في هداية المشركين، فإنه لم يتوقف إطلاقًا عن كشف زيف عقائدهم الباطلة[1]. فإذا كان الأمر كذلك بشأن المشركين فلمَ لا يكون أيضًا كذلك بشأن اليهود؟

إن نولدكه لم يبين وجهًا يُفضي لأن يكون اليهود متميزين في هذا الجانب. ومن ثم يبقى الأمر على إطلاقه. ومادام قد ثبت أنه ليس ثمة ترابط في الشق الأول من الصيغة المذكورة؛ بطل بالتالي الترابط في شقها الثاني ونصل إلى نتيجة هي: أن كشف القرآن لانحرافات اليهود لم يكن يستدعي على الإطلاق أن ينهار أمل النبي فيهم أولًا.

(١) وإذا وضعنا أيدينا على أي موضع قرآني مكي؛ سنرى ذلك في غاية الجلاء.

ج- وبشأن زعمه التزامن بين إظهار القرآن أهل الكتاب مضادين لدين إبراهيم الحق، وبين الخلاف مع بني قينقاع؛ فقد أخطأ في ذلك لسببين:

أولهما: أنه بشأن الآيات: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٦٥ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٦٦ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦٧ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.. نقول: إن نولدكه قد حدد زمن نزول هذه الآيات بوقت الخلاف مع بني قينقاع، دون أن يعتمد على أيةِ رواية أو حتى اجتهاد واضح المعالم.

ثانيهما: أن آيات آل عمران التي معنا ليست أول ما نزل لبيان أن أهل الكتاب كانوا "مضادين لدين إبراهيم الحق"؛ فقد سُبقت بما نزل في سورة البقرة -التي تُعد، وباعتراف نولدكه نفسه أول ما نزل في المدينة- كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾، و﴿ أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾[1]؛ وبالتالي فلا يصح الربط الزماني لهذا البيان القرآني بوقت الخلاف مع بني قينقاع.

د- أما بشأن حكمه أن الخلاف مع اليهود حول إبراهيم عليه السلام كان مقدمة لتضعضع العلاقة بين النبي وبينهم فهو حكم باطل؛ إذ إن الخلاف المذكور كان قد سُبق بمواضع كثيرة في القرآن المكي[2] ذُكر فيها بعض أوجه الخلاف معهم.

(١) البقرة: ١٣٥، ١٤٠.

(٢) جرى تفصيلها من قبل، ويلخص أبرز ما جاء عنهم فيه في: نزوعهم نحو الوثنية، وإفسادهم، واختلافِهم، وبغيهم، وتَوعد الله إياهم بالعذاب والخزي، ووصفِهم بما فيهم من أوصاف قبيحة، وذكرِ بعض أخطائهم في حق نبي الله موسى، وأن ذلك وغيره إذا كان عن سلفهم؛ فإن خَلَفَهم من الأجيال اللاحقة باعوا ما ورثوه من الكتاب لقاء عرض الدنيا الزائل. راجع ذلك مفصلا صفحات: ٢٥-٢٨.

كما أن سورة البقرة -التي تُعد وباعتراف نولدكه نفسه أول ما نزل في المدينة- حفلت بعدد كثير من الآيات التي تفضح بعض صفات وفعال معظمهم وترد عليهم[1]. فليس صحيحًا إذن أن الخلاف مع اليهود حول إبراهيم عليه السلام، كان مقدمة لتضعضع العلاقة بين النبي وبينهم.

نخلص إذن إلى بطلان السياق التركيبي الملفق، الذي وضع فيه نولدكه إظهار القرآن أهل الكتاب مخالفين لدين إبراهيم.

***

(١) فتذكر عدم التزامهم بالبر الذي يدعون الناس إليه، وعدم شكرهم نعم الله عليهم في تاريخهم الطويل، وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير الحق، ومخالفتهم لموسى رسول الله إليهم وتمردهم عليه، وقسوة قلوبهم، وتحريف بعضهم كلام الله وكفرهم ببعضه، واتخاذهم العجل، وتشبثهم بالدنيا وحرصهم عليها، وعدائهم لجبريل ونقضهم العهود... إلخ.



المبحث الثاني
دعواه أن تكفير غير المسلم جاء في النهاية

لقد نظر نولدكه إلى (حكم القرآن على غير المسلم بأنه خاسر في الآخرة) على أنه تطور في فكر محمد ﷺ، مرتبط بتحوله المدعى في البحث عن مرجعية[1].

قال[2]: "ينبغي بالتأكيد أن تكون آية ٧٩[3] من سورة آل عمران متأخرة؛ حيث فيها يُفتح العذاب الأبدي على كل الكافرين. لكن هذه الحجة *Beweisgrund* ليست صالحة، لأنه لم يكن ثمة داع مطلقًا لأن يُفهم كل غير المسلمين على أنهم كافرون. نحن نعلم أن محمدًا كان ما يزال يَعُدُّ في سنوات نشاطه المدني الأولى المسيحيين الحقيقيين مؤمنين[4]".

وأقول هنا: إن نولدكه ادعى اتخاذ النبي أهل الكتاب مرجعية فترة من الزمن، ثم تحول عنهم لما لم يؤمنوا به، وكفَّرهم وتحول عنهم إلى إبراهيم ليتخذه مرجعية جديدة.

ونولدكه بحاجة -حتى تكتمل نظريته- لأن يدعي أن (حكم القرآن على غير المسلم بالخسران الأخروي) هو حكم متأخر. ولأن نظريته على هذا القدر من العوز والاحتياج؛ فإنه يستخدم تعبير: (ينبغي بالتأكيد أن تكون متأخرة *(soll sicher spät sein)*.

---

(١) هذا الرأي، وإن لم يكن مستمدًا من تصريح واضح لنولدكه، إلا أنه مفهوم من السياق العام لدعواه.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص ١٩١.

(٣) ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ وهي في مصحفنا الآية رقم (٨٥) وليست (٧٩)، كما في مصحف فلوجل الذي استخدمه نولدكه[المؤلف]..

(٤) ويحيل إلى سنوك هورجرونيه *C. Snouck Horgronje* في كتابه بالألمانية (الأعياد المكية)، طبعة ليدن ١٨٨٠ ص٤٢، والتي تليها، كما يحيل إلى كتابه موضع دراستي ص ١٤٦.

ومن يستخدم هذا القدر من الجزم لا تشك بالضرورة أنه يعتمد على المراجع الأصلية؛ لكننا هنا نفاجأ أن نولدكه اعتمد على المستشرق البريطاني *Weil* [1] دون أن يرجع إلى مصدر إسلامي واحد، بل لم يكلف نفسه الرجوع إلى القرآن الكريم ذاته.

إن دعوى نولدكه هنا باطلة بالنظر إلى الآية ذاتها من حيث وقت نزولها، وكذلك بالنظر إلى ما تحمله من حكم يتعلق بغير المسلم:

فأما بطلانها بالنظر إلى الآية ذاتها؛ فإن نولدكه لو رجع إلى المصادر الإسلامية لظهر له أنه رغم ما قيل عن تأخر نزول الآيات من ١ - ٨٣ من سورة آل عمران[٢]؛ إلا أن الآية التي معنا، وهي رقم ٨٥ لا تدخل في هذا الخلاف، وهي تنتمي إلى القسم الأعظم من آل عمران الذي نزل في الربع الأول من العهد المدني. وبالتالي فإن حكم القرآن بالخسران الأخروي لغير المسلم، أو ما يسميه نولدكه: "فتْحَ العذاب الأبدي على كل الكافرين" ليس متأخرًا كما زعم.

وأما بطلانها بالنظر إلى ما تحمله من حكم يتعلق بغير المسلم، ويرى نولدكه أنه حكم متأخر؛ فإنه غفل أو تغافل عن أن هذه الآية ليست وحدها في القرآن التي قررت هذا الحكم، ولو كان نولدكه قد رجع إليه لوجد أن التصريح بأن الإسلام هو الدين الوحيد المقبول؛ وأن الخسران ينتظر كل الكافرين.. لم يكن شعار نهاية المرحلة المدنية؛ بل كان موجودًا بهذا الحسم، أو بما يقترب منه أو يزيد عليه في القرآن المكي والمدني على حد سواء:

ففي القرآن المكي: جعلت سورة الأنعام الإسلام والهدى في قِرن، بما يعني أن الكفر ضلال: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٣]. كما أوجبت اتباع صراط الله المستقيم ونهت عن اتباع السبل ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٤].

---

(1) das Leben Mohammads K.1. S. 73 f. K. 2 S. 83.

(٢) راجع ردي على هذا في الملحق في نهاية هذا الجزء.

(٣) الأنعام: ٧١.

(٤) الأنعام: ١٥٣.

وقُسِّمَ الجن في السورة المسماة بهذا الاسم إلى قسمين: المسلمين الذين وصفوا بأنهم تحروا الرشد(١)؛ والقاسطين أي: (الجائرين عن الحق الناكبين عنه)(٢) الذين وصفوا بأنهم كانوا لجهنم حطبًا؛ قال تعالى حكاية لقول الجن المؤمنين: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾.

ووَضعت سورة الروم المكية(٣) المسلمين الذين يؤمنون بآيات الله في مقابل الكافرين الموصوفين بالموت والصمم والعمى والإدبار عن الحق: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾(٤).

كما وُضع الإسلام في سورة الأنعام المكية كذلك -بما يحققه لصاحبه من رحمة في الآخرة- في مقابل الشرك بما يجلبه لصاحبه من عذاب أخروي: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾.

كما وَصَفت نفسُ السورة شرح الصدر للإسلام بأنه هداية من الله؛ ووصفت غيره بالضلال وعدم الإيمان واستحقاق الرجس: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(٥).

ووُضِعَ الإسلام في سورة الزمَر المكية - بشكل صريح - مناقضًا للكفر الذي يجلب الخسران المبين: خسران النفس والأهل وعذاب النار في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ

(١) ومفهوم المخالفة هنا أن من لم يسلم فهو في الضلال.

(٢) ابن كثير: التفسير ج٤ ص٤٣١.

(٣) في "مَثل ضربه الله للكافرين والمسلمين" ابن كثير: التفسير ج٣ ص٤٢٢.

(٤) الروم: ٥٢، ٥٣ و بدون فاء "إنك.": النمل: ٨٠، ٨١.

(٥) الموضعان هما: الأنعام: ١٤-١٦، ١٢٥.

أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾.

وكذلك وَضعت سورة القلم المكية المسلمين مقابل المجرمين في المصير الأخروي: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾. ولذلك كله بينت سورة الحجر تمني الكافرين يوم القيامة أن لو كانوا مسلمين: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾؛ وما ذلك إلا لما وجدوه في الآخرة من خسران.

كما وصفت سورة الجاثية ما يغاير شريعة الله بأنه: "أهواء الذين لا يعلمون" ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]

وفي أوائل القرآن المدني نزولًا: نجد في سورة الصف -التي يعدها نولدكه نفسه من أول ما نزل بالمدينة[2]- آيةً تصف ما أُرسل به رسول الله بأنه الهدى ودين الحق، وأنه سيظهر على كل دين، وذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[3].

ونجد في سورة آل عمران -التي نزلت في الفترة من ٢ إلى ٣ هجرية[4]- إعلانًا مماثلًا للذي رجح نولدكه تأخره. هذا الإعلان هو أن دين الله الوحيد المقبول عنده هو الإسلام، وهو الذي أرسل الله به كل رسله وأنبيائه[5]؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

(١) أرقام الآيات في الفقرتين الأخيرتين هي بالترتيب ١١- ١٦ الزمر، ٣٤- ٣٥ القلم، ٢ الحجر، ١٨ الجاثية.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص*IX, X*

(٣) ٩ الصف، وقريب منها ٢٨ الفتح في العام السادس من الهجرة.

(٤) راجع الملحق بهذا الجزء.

(٥) وجاء الاختلاف فيما بعد من الذين أوتوا الكتاب.

وفيها كذلك إنكار على من يدينون بغير دين الله أو حتى الذين لا يلتزمون ببعض شرائعه: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

كما وَسَمَتْ السورة ذاتُها بالكفر من يتحولُ من الإسلام إلى اتخاذ الأرباب: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

كما نجد فيها إعلانًا أن هداية الجميع: أهلِ الكتاب والأميين لن تتحقق إلا بالإسلام؛ قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[(١)].

وفي سورة البقرة يوضع الدخول في الإسلام بكافة شرائعه مقابل اتباع خطوات الشيطان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾[(٢)].

فهل بعد كل هذه الآيات يمكن أن نصدق نولدكه في دعواه أن الحكم على غير المسلم بالخسران تأخر في النزول، وجاء في نهاية المرحلة المدنية؟

أما رفض نولدكه لهذا الحكم القرآني بدعوى أنه «لم يكن ثمة داع مطلقًا لأن يُفهم كل غير المسلمين على أنهم كافرون»؛ فإن الأمر على العكس من ذلك تمامًا؛ إذ إن دواعي هذا الحكم قائمة؛ فقد بين القرآن أن الإسلام بمعناه العام -بغض النظر عن الفروق في بعض تفاصيل الشرائع- هو دين الله الواحد الذي أرسل به جميع الأنبياء والرسل من لدن آدم إلى خاتمهم محمد، وأنه الدين الذي ارتضاه الله لعباده، وأن جميع الأنبياء قد أُرسلوا به، وأنهم يصدق بعضهم بعضًا، ومن كفر بواحد منهم فقد كفر بهم جميعًا، وأن خاتمهم محمدﷺ الذي يجب على أهل الكتب السابقة - الذين شهدوا مبعثه أو سمعوا عنه - أن يؤمنوا به. وبالتالي فمن لم يؤمن به فقد كفر بدين الله ودين جميع الأنبياء؛ وبالتالي فالحكم القرآني هنا له دواعيه[(٣)].

(١) آل عمران: ١٩، ٨٣، ٢٠.
(٢) البقرة: ٢٠٩. التي هي أول ما نزل في المدينة السيوطي: الإتقان ص ١٤.
(٣) راجع الملحق في نهاية هذا الجزء.

ورغم ذلك فهو حكم عقدي، لا يترتب عليه أي مساس بالحقوق القانونية لأي من أهل الكتاب الذين بقوا على دينهم ولم يصيروا محاربين.

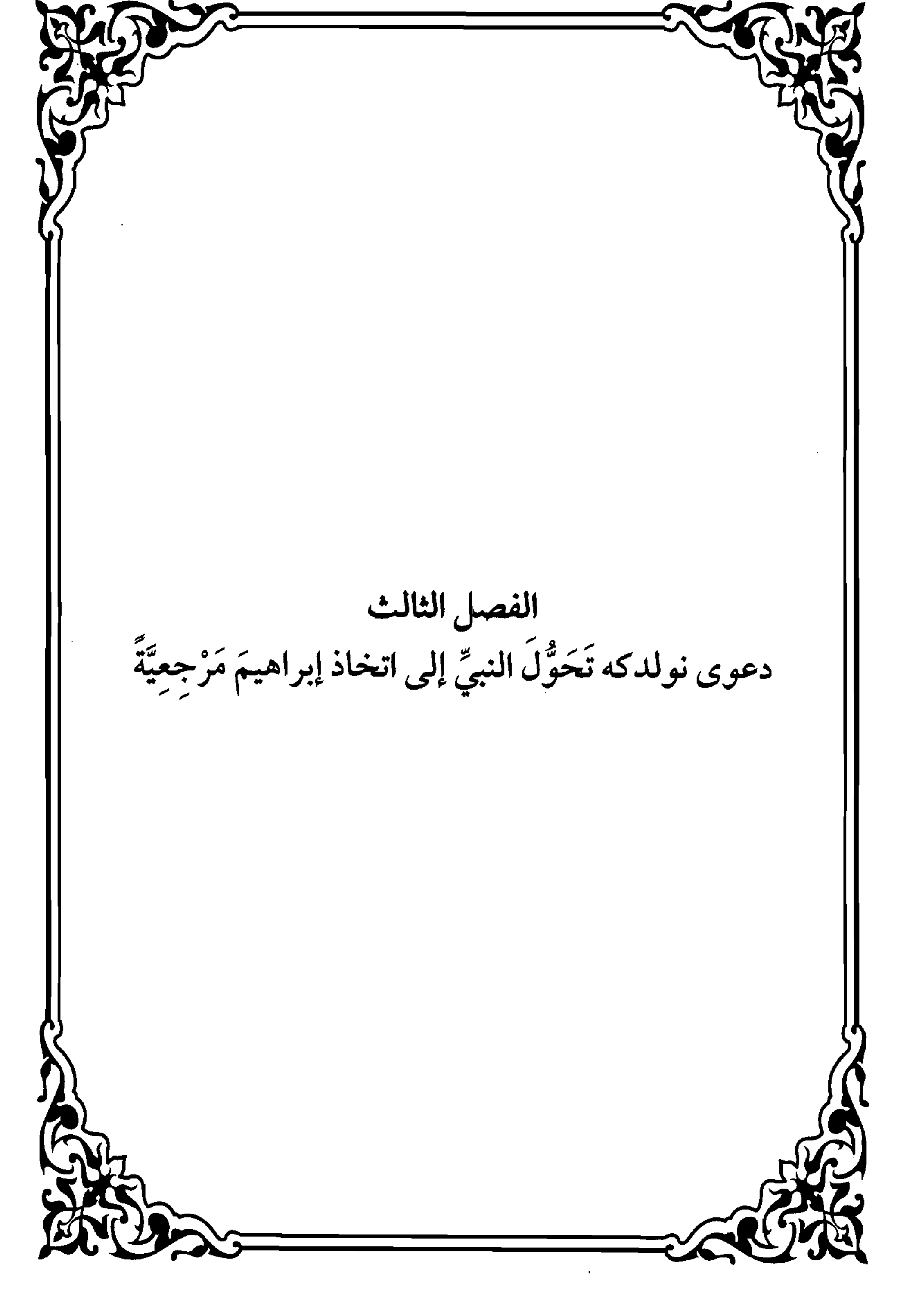
والآيات والأحاديث الدالة على هذا معروفة، يستنبط منها أن الإسلام فرَّق في هذه المسألة بين مستويين:

المستوى العقدي، وقد حكم فيه بشكل لا يقبل المساومة على النحو الذي رأيناه.

والمستوى القانوني، حيث عَدَّ هؤلاء مواطنين يتمتعون بحقوقهم دون مساس بها، وحكم أن «**لهم ما لنا وعليهم ما علينا**» وأن «**من ظلم ذميًّا أو معاهدًا فأنا خصمه يوم القيامة**».. إلخ تلك النصوص التي يحتاج تناولها بتفصيل لبحث مستقل.

أما ما يستدل به من أن محمدًا كان ما يزال يَعُدُّ في سنوات نشاطه المدني الأولى المسيحيين الحقيقيين مؤمنين؛ فقد سبق أن تناولته بالمناقشة. والله أعلم.

***



الفصل الثالث

دعوى نولدكه تَحَوُّلَ النبيِّ إلى اتخاذ إبراهيمَ مَرْجِعِيَّةً



تمهيد

سأناقش نولدكه هنا في عدة دعاوى مكملة للفصلين الماضيين. تنطلق هذه الدعاوى من نظرية نولدكه: أن النبي طيلة وجوده بمكة، وبدايات وجوده في المدينة كان يتخذ اليهود والنصارى مرجعية؛ لكنهم لما كذبوه في المدينة ورفضوا الإيمان به كان ردُّ فعله في المدينة أن كوَّن تصورًا جديدًا عن إبراهيم عليه السلام.

عناصر هذا التصور الجديد كما يفهم نولدكه:

أن إبراهيم أسس الكعبة هو وإسماعيل، ولذا أقحم النبي في القرآن المدني اسم إسماعيل بين الآباء الإسرائيليين بشكل لم يحصل في القرآن المكي، وأعلن النبي أن له صلة بإبراهيم عليه السلام، وأنه يتبع ملته؛ ولذا اتجه إلى الكعبة في الصلاة، وأدخلها ومكة في شعائر الحج.

وبعض نصوص نولدكه بهذا الشأن تناولت دعاوى متداخلة؛ لكن بعضها الآخر كان محددًا - تقريبًا - في طرح دعوى واحدة. وسأذكر هنا في البداية عدة نصوص له تناولت عدة دعاوى، وأؤجل النصوص التي تعرض دعوى واحدة لحين ورودها في موضعها من الفصل؛ يقول[1]:

"قد أقنع محمد العرب في البداية أن يؤمنوا بما تلقاه المسيحيون من عيسى، وما تلقاه اليهود من موسى، ودعا بتفاؤل غير المؤمنين الذين يحتاجون للمعرفة إلى سؤال العارفين حتى يصلوا إلى معرفة حقيةِ رسالته: الآية ٤٥ النحل و٧ الحج[2]. وتأتي خيبة الأمل

---

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٤٦ - ١٤٧، وسبق أن أوردت قوله هذا في مطلع هذا الجزء، لكني أعيده هنا لمركزيته في عرض نظرية نولدكه (المؤلف).

(٢) خُتمت كل آية منهما بـ ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

في المدينة؛ إذ إن أهل الكتاب لا يريدون الاعتراف به. لذا وجب عليه أن يبحث عن جهة أعلى يتخذها مرجعية[١] لا تعارض نصوص وحيه الأول. ولذا مد يده نحو الأنبياء القدامى الذين لا يمكن لطوائفهم أن يظهروا في مواجهته [يعارضوه]. يصرح بهذا الهدف بكل وضوح في موضع واحد فقط: ١٣٥ البقرة[٢]".

ويقول[٣]: "لا يجوز لنا أن نستغرب أن يشعر محمد في النهاية[٤] بصلة مع إبراهيم، فإن هذا البطريرك[٥] الذي ينظر إليه لدى كل من اليهود والنصارى - على حد سواء - على أنه النموذج الأكمل للإخلاص والانقياد للدين، ويعامل[٦] كأب لكل الأتقياء وأولياء الله. إن اصطفاء محمد لإبراهيم يتعلق بما يستمد من سورة البقرة، الآيتان ١١٩ و ١٢١ من أن إبراهيم هو مؤسس الحرم المكي".

ويقول[٧]: "إن الفترة إثر هذه الغزوة [بدر] هي زمن نزول الآيات ٨٧-١١٣ من سورة آل عمران[٨].

وفي هذه الآيات [كما يقول] تقدير لملة إبراهيم: آية ٨٩[٩]، وإدخال للحج إلى مكة في عبادة الإسلام: آية ٩٠ ،وما بعدها[١٠].

---

(١) عبارته الألمانية هي:
So muß er sich eine über ihre kontrolle erhabene Instanz suchen

(٢) ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾ الآية.

(٣) ص١٤٧.

(٤) لاحظ قوله: (في النهاية).

(٥) *Patriarch*: وتعني الأب الأكبر [المؤلف]..

(٦) الرأي بأن إبراهيم هو أب للشعب العربي لا يستحق أن يتخذ موضوعًا [للنقاش] (نولدكه).

(٧) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٩١ - ١٩٢.

(٨) من ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الآية إلى ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، وفيها مواجهة مع اليهود، وأمر باتباع ملة إبراهيم، وإشارة إلى البيت الحرام بمكة، وفرض الحج إليه على المستطيع ... الخ. [المؤلف].

(٩) ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

(١٠) ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ الآية، والتي تليها.

وعن الآية ١٢٤ من سورة النساء[١]؛ وفيها ذكر ملة إبراهيم يقول[٢]: "إنها لم تنزل قبل غزوة بدر".

ثم يُدخل نولدكه أيضًا تحويل القبلة إلى مكة في سياق دعواه، لكني سأجمع بين نصه في هذا ونقدي له.

وهذا الفصل عن دعوى نولدكه (اتخاذ محمدﷺ في النهاية إبراهيم مرجعية) سأناقش نولدكه فيه في النقاط الآتية:

منهج طرحه هذه الدعوى، وأصلها، وحديثه عن دافعين مزعومين شجعا النبي على تشكيل تصوره الجديد عن إبراهيم، ودليل نولدكه على كونه تصورًا جديدًا.

ثم أتناول الدعاوى الآتية:

- أن قول القرآن بتأسيس إبراهيم وإسماعيل الكعبة إنما كان تصورًا جديدًا عنهما، كَوّنَه النبي في المدينة ردًّا منه على عداء اليهود له.
- أن الآيات التي تربط بين إبراهيم والكعبة هي مدنية.
- أن القرآن المدني أقحم اسم إسماعيل بين الآباء الإسرائيليين بشكل لم يحصل في القرآن المكي.
- أن النبي أوجد في القرآن المدني علاقة بينه وبين إبراهيم عليه السلام، حيث شعر النبي أنه موصول بإبراهيم، وجاء الأمر بالتوجه إلى الكعبة في الصلاة، وأدخلت ومكة في شعائر الحج، وقدَّر القرآن ملة إبراهيم.

وسيأتي هذا الفصل في ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: ملاحظات تمهيدية وتحليل.
- المبحث الثاني: دعاواه بشأن ما نسبه القرآن إلى إبراهيم وإسماعيل.

---

(١) ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٠٣ – ٢٠٤.

- المبحث الثالث: دعاواه بشأن علاقة النبي بإبراهيم.

* * *



المبحث الأول
ملاحظات تمهيدية وتحليل

يتناول هذا المبحث أربع ملاحظات تمهيدية بشأن هذه الدعوى، كما يتناول كذلك تحليلًا لكلام نولدكه هنا:

المطلب الأول: الملاحظات التمهيدية:

الأولى منهجية، والثانية بشأن أصل دعواه، والثالثة بشأن حديثه المزعوم عن دافِعَي النبي لتكوين تصوره الجديد عن إبراهيم، والرابعة بشأن دليل نولدكه على ذلك التصور:

الملاحظة الأولى: إن تحكم الهوى والآراء المسبقة في مناهج البحث الاستشراقية جعل القضية الواحدة موردًا لآراء استشراقية متناقضة غاية التناقض؛ ففي حين ينظر نولدكه هنا لعلاقة النبي بإبراهيم على أنها رد فعل لتكذيب اليهود به ﷺ وتباعدهم عنه؛ فإن مستشرقًا آخر هو ريجي بلاشير رأى أن هذه العلاقة كانت تمهيدًا لرغبته ﷺ في التقارب معهم!!! قال[1]:

"لقد رأينا منذ ما قبل سنة ٦٢٠-٦٢٢م أي ما قبل الهجرة إلى المدينة (بسنتين أو أكثر) أن موقف القرآن من إبراهيم قد آذن بتقارب ممكن بين الإسلام الفَتِيِّ واليهودية. ولم يكن من شأن إقامة النبي في المدينة المنافسة لمكة إلا أن يقوي هذا الميل ... ".

وأرى أنه لا يمكن لهذا التناقض أن يُفَسَّر إلا بأن كلًّا منهما قد تملكته آراء مسبقة؛ فراح ينظر إلى المعطيات التاريخية بشأن: (موقف القرآن من إبراهيم) من زاوية ما لديه من هذه

(١) ريجي بلاشير: القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته، تأثيره ص٧٤.

الآراء؛ فوظَّف نولدكه تلك المعطيات لتخدم رأيه: (تحول النبي عن اتخاذ اليهود مرجعية إلى اتخاذ إبراهيم)؛ ووظفها بلاشير لتخدم رأيه أنها: (تمهيد للتقارب مع اليهود).

إننا نلاحظ أن كلًّا منهما لم يُغفل استخدام اللهجة الحاسمة الجازمة التي لم تترك أية فرصة للاحتمال. فهل هكذا يكون المنهج العلمي؟

لكن أيًّا ما كان الأمر، فسأتناول بعد قليل بالمناقشة والنقد هذه الشبه التي تُوهِم لِذِي النظرة العجلى أن نولدكه وصل بسببها إلى النتيجة النهائية.

الملاحظة الثانية: إن نولدكه اعتمد في أصل دعواه هذه على ادعاء شبرنجر *Sprenger* (١): (تطور نظرة النبي إلى إبراهيم)؛ ومن ثم توسع فيه سنوك هورجرونيه (٢) *Snouck Hurgronje* (٣)؛ ثم نقله عنهما فنسنك *Wensenk* (٤) في مقالته في دائرة المعارف الإسلامية (٥)، ووجدنا كذلك أصداءها عند ج. فون جروينباوم (٦).

(١) في كتابه *die Lehre des Mohammed, Berlin 1869*.

(٢) كريستيان سنوك هورجرونى هولندي (١٨٥٧-١٩٣٦) يُعد بالنسبة لوطنه (هولندا) كنولدكه لألمانيا. عمل أستاذًا في لايدن من ١٩٠٦-١٩٢٧ عمل لخدمة الاستعمار متخفيًا في مكة عام ١٨٨٥، كما يقول رودي بارت، وأصدر من ثم كتابه (مكة) في جزأين عامي: ١٨٨٨، ١٨٨٩م. كما عمل في مناصب قيادية في السلطة الاستعمارية الهولندية. راجع رودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية.. المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه، ترجمة د. مصطفى ماهر ص٣٠-٣١، ومحمد علي حثيثو: في تعليقاته على كتاب: المستشرقون الألمان لصلاح الدين المنجد ١٢٣ ود. عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين ص٢٤٥، وما بعدها.

(٣) في كتابه: *Het mekaansche Feest, Leiden 1880* واعترف نولدكه بهذا فقال (تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٤٦ هامش٢): "أَستمِدُّ أدلة الحجج الآتية من: سنوك هورجروني: الأعياد المكية، طبعة ليدن ١٨٨٠ ص٢٨-٤٠. وهذا المؤلف يبرز أيضًا، وبحق في الرسائل المتأخرة أهمية إبراهيم لتطور موقف الوحي المحمدي المبكر".

(٤) فنسنك كان عضوًا بالمجمع اللغوي في القاهرة، لكنه لما نشر رأيه في الرسول مدعيًا أنه ألف القرآن من خلاصة الكتب الدينية والفلسفية التي سبقته طرد منه، انظر د. حسين الهواري: (المستشرقون والإسلام) ص٧١٠ ود. محمد البهي: (الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي) ص٤٥٠.

(٥) مجلد ١، مادة (إبراهيم).

(٦) في كتابه: حضارة الإسلام، ترجمة عبد العزيز جاويد ١٠٥-١٠٦.

الملاحظة الثالثة: في زعم نولدكه أن دَافِعَي النبي لتكوين هذا التصور الجديد المزعوم عن إبراهيم، هو ما ادعاه من خيبة أمل النبي في اليهود؛ وكون إبراهيم ليس له أتباع ليعارضوه في تصوره الجديد.

١- فبشأن الدافع الأول المزعوم؛ فقد سبق أن ناقشت بالتفصيل دعوى خيبة أمل النبي في اليهود.

٢- وبشأن الدافع الثاني المزعوم؛ وهو زعمُ عدمِ وجود أتباع لإبراهيم، يعارضون النبي ﷺ في جميع عناصر ما زُعم من تصور جديد عند النبي عن إبراهيم أقول:

إن نولدكه يدعي أن النبي لما عارضه اليهود في المدينة؛ بحث عن جهة أعلى مرجعية له؛ أو بعبارته[1]: "وجب عليه أن يبحث عن جهة أعلى، باعتبارها مرجعية لا تعارض نصوص وحيه الأول. ولذا مد يده نحو الأنبياء القدامى الذين لا يمكن لطوائفهم أن يظهروا في مواجهته".

كما نلاحظ هنا أن نولدكه تكلم عن الأنبياء الذين ليس لهم طوائف؛ وهؤلاء حددهم الرازي[2] بأنهم: إسماعيل، واليسع، ويونس، ولوط.

وسأتناول ذكر القرآن لإسماعيل في مكان آخر؛ والباقون لم يكن ذكرهم مقتصرًا على الفترة المدنية، بل ذكروا أكثر في المرحلة المكية؛ وهو الأمر الذي يناقض نظرية نولدكه.

فقد ذُكر لوط في القرآن سبعًا وعشرين مرة؛ منها خمس وعشرون في القرآن المكي وحده، وذُكر يونس أربع مرات؛ منها ثلاثة في المكي وحده، وذُكر اليسع مرتين؛ كلاهما في المكي.

من الآيات المكية التي ذكَرَتْهُم: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى

(١) ق ١ ص ١٤٦- ١٤٧.

(٢) التفسير الكبير ج ١٢ ص ٤١٤.

ﭐلۡعَٰلَمِينَ﴾، ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾، ﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾، ﴿وَإِنَّ لُوطٗا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾[1].

إن هؤلاء الأنبياء قدامى، وليس لهم طوائف معاصرون للنبي؛ ورغم ذلك ذُكروا في القرآن المكي، وكان ذكرهم في المكي أكثر منه في المدني، وهذا يناقض نظرية نولدكه.

هذا من جانب؛ ومن جانب آخر فإنه لو كان المعيار في تحديد ما سماه نولدكه: المرجعية العليا للنبي عدمَ وجود أتباعٍ للجهة المختارة مرجعية؛ لكان مما يتفق مع هذا ألا يستمر القرآن المدني فيما كان القرآن المكي قد فعله؛ من وصل النبي بأنبياء بني إسرائيل الذين زعم نولدكه أنهم كانوا مرجعية النبي في مكة؛ فيختفي منه ما يُشعر بالصلة بين النبي وكلٍّ من موسى وعيسى؛ لوجود من يزعمون أنهم أتباع لهما، ويعارضون النبي بالفعل؛ ولاكتُفِيَ فيه بوصل النبي بالأنبياء الذين قال نولدكه عنهم: إنهم ليس لهم طوائف يعارضونه.

لكن الواقع خلاف ذلك؛ ففي القرآن المدني استمرار للتأكيد على أن دين محمد ﷺ هو دين موسى وعيسى والأنبياء جميعًا[2].

إن دعوى نولدكه هنا تفترض أمرين، كلاهما باطل:

أولهما: أن أتباع إبراهيم لم يكونوا موجودين.

ثانيهما: أنهم إن وجدوا كانوا سيعارضون النبي.

وأجيبُ عن الأول بأنه قد ثبت فعلًا وجود بعض أتباع إبراهيم الذين سُموا: الحنفاء "كان معظمهم نُسّاكًا تشككوا في عبادة الأصنام، وساحوا في الأرض بحثًا عن الدين الصحيح دين إبراهيم.. واعتقدوا بوحدانية لله خالصة، كالوحدانية التي نادى بها إبراهيم دون أن يشركوا فيها أحدًا"[3].

---

(١) والآيات بالترتيب هي: الأنعام: ٨٦، وص: ٤٨، والأنبياء: ٧٤، والصافات: ١٣٣، ١٣٩.

(٢) راجع الملحق.

(٣) د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام ص٤٣٥.

صحيح أنه لم يصلنا من أسمائهم كثير، لكن ذاكرة التاريخ قد وعت منهم:

سويد بن عامر المصطلقي، وأسعد أبو كرب الحميري، وكعب بن لؤي بن غالب[1]، وعثمان بن الحارث[2]، وزيد بن عمرو بن نفيل العدوي، وقس بن ساعدة الإيادي، وعلاف بن شهاب التيمي، وأمية بن أبي الصلت، والقلمس بن أمية الكناني[3]، وورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث بن أسد، وأبا عامر الراهب الذي كان ممن يذكر النبي ويؤمن به، ويعد الناس بخروجه، وكان قد تأله في الجاهلية، ولبس المسوح، وترهب؛ فلما بعث الله رسوله حسد وبغى، وأقام على كفره، وشهد مع المشركين قتال رسول الله ببدر؛ فسماه رسول الله الفاسق[4]،وحنظلة بن صفوان[5]، وخالد بن سنان العبسي[6]، وأبا قيس صيفي بن الأسلت من الأوس، وكان يقال له الحنيف[7].

ويُضم إليهم بعض من حرموا الخمر في الجاهلية؛ لغلبة الظن أنهم فعلوا ذلك تأثرًا بالحنيفية[8]؛ ومنهم: قيس بن عاصم التميمي، وصفوان بن أمية بن محرس الكناني، وعفيف بن معدي كرب الكندي[9].

---

(١) وهو أحد أجداد رسول الله، وكان يأمر قريشًا بالتفكير في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار، ويحثهم على صلة الأرحام وحفظ العهد، ويذكرهم بالموت وأهواله د. السيد عبد العزيز سالم: (تاريخ العرب قبل الإسلام). وراجع د. محمود شكري الألوسي: (بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب) ج٢ ص٢٨٢.

(٢) د. السيد عبد العزيز سالم: (تاريخ العرب قبل الإسلام) ص٤٣٥.

(٣) الشهرستاني: الملل والنحل ص٢٣٨-٢٤٠، ٢٤٢.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار صادر بيروت ج٣ ص٥٤٠.

(٥) الذي يذكر ابن حبيب عنه أنه نبي أصحاب الرس.

(٦) ويُروى عن ابن عباس أنه كان نبيًّا. راجع د. عبد الله الشاذلي: الحكمة العربية في أصالتها الفطرية ص٢٩٥.

(٧) ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار صادر بيروت ج٤ ص٤٨٣.

(٨) أحصى أستاذنا د. عبد الله الشاذلي من حرموا الخمر تحت تأثير الحنيفية في كتابه: الحكمة العربية ص٢٩٣.

(٩) الشهرستاني: الملل والنحل ص٢٣٩، وراجع ابن هشام: السيرة النبوية ج١ ص١٣٨-١٣٩ =

وكذلك يضم إليهم من كان يؤمن بالله الخالق في الجاهلية، لغلبة الظن أنهم فعلوا ذلك تأثرًا بالحنيفية؛ وهم: النابغة الذبياني، وعامر بن الظرب العدواني، وزهير بن أبي سلمى المزني وعبد الطابخة بن ثعلب بن وبرة من قضاعة[1] وعمرو بن عبسة السلمي[2] وأبو ذر الذي كان مؤمنًا بالله عازفًا عن الأصنام قال: "وقد صليت لله.. قبل أن ألقى رسول الله بثلاث سنين.. أتوجه حيث يوجهني ربي"[3]. ومن أجل وضوح دعوة التوحيد عنده، قال له أخوه أنيس: "لقيت رجلًا بمكة (يقصد رسول الله) على دينك، يزعم أن الله أرسله"[4].

فهؤلاء كانوا بشكل أو آخر أتباعًا لإبراهيم عليه السلام، وقد عاصر بعضهم في الفترة المكية، وعاصر بعضهم الآخر في العهد المدني. فلا تسلم لنولدكه دعواه عدم وجود أتباع لإبراهيم عليه السلام.

وأجيب عن الثاني (وهو دعواه أن أتباع إبراهيم - إن وجدوا - كانوا سيكذبون محمدًا

= ولقد ذكر محمد بن حبيب (المـُحَبَّر ٢٣٧- ٢٤١) تحت عنوان: (من حرم في الجاهلية الخمر والسكر والأزلام) منهم: "عبد المطلب بن هاشم، وشيبة بن ربيعة، وعثمان بن عفان، وورقة ابن نوفل، والوليد بن المغيرة، والعباس بن مرداس، وقيس بن عاصم السعدي، وعبد الله بن جدعان، ومِقيَس بن قيس بن عدي السهمي، وعامر بن الظرب العدواني، وصفوان بن أمية بن محرث الكناني، وعفيف بن معدي كرب الكندي، والأسلوم اليامي الكندي، وأبو أمية بن المغيرة، والحارث بن عبيد، وزيد بن عمرو بن نفيل العدوي، وعامر بن حِذْيَم الجمحي، وأبو ذر الغفاري، ويزيد بن جعونة الليثي، وأبو واقد الحارث بن عوف الكناني، وعمرو بن عبسة السلمي، وقس بن ساعدة الإيادي، وعبيد بن الأبرص الأسدي، وزهير بن أبي سلمى المزني، والنابغتان: الذبياني والجعدي، وحنظلة الراهب بن أبي عامر، وقبيصة بن إياس بن أبي غفر بن النعمان بن حية".

(١) الشهرستاني: الملل والنحل ص٢٣٩، وراجع ابن حبيب: المحبر ص٢٣٧-٢٣٨. ويكتبه د. السيد عبد العزيز سالم (تاريخ العرب قبل الإسلام ص٤٣٧): عبد الطابخة.

(٢) قال عن نفسه: إني كنت في الجاهلية أرى الناس على ضلالة، ولا أرى الأوثان شيئًا" مسند أحمد ٤/ ١١٢، رقم (١٧٠٦٠).

(٣) مسلم بشرح النووي المجلد ٦ ج١٦ ص٢٧-٣١ رقم (٢٤٧٣)، وابن حجر: الإصابة ج٧ ص١٢٥ رقم (٩٨٦٨).

(٤) نفسه.

في استناده إلى إبراهيم) بأن أقول: إن هذا الافتراض الذي جعله نولدكه يقينيًّا لم يؤسس على أية حجة. فهو إذن افتراض موهوم.

كما أن هذه الدعوى تفترض وهمًا آخر، هو أن النبي كان سيضع أمر تكذيب أتباع إبراهيم في اعتباره، وهو الذي لم يُلْقِ بالًا لتكذيب اليهود والنصارى، رغم قوة بأسهم وكثرة عددهم ووجود كتب مقدسة لهم؟

فَلِمَ لا يتوقع نولدكه أن محمدًا ﷺ كان سيسلك نفس المسلك مع أتباع إبراهيم؟

وأعود ثانيًا إلى افتراضه التكذيب، فأتساءل كذلك: لِمَ يفترض نولدكه هذا التكذيب؟ إن افتراضه هذا خادع؛ لأنه يوحي لقارئه بحتمية مخالفة النبي لإبراهيم عليه السلام. كما أنه يتجاهل الحنفاء الذين أسلموا واتبعوا محمدًا ﷺ فلقد تعرف ورقة بن نوفل على نبوة محمد في بدايات الوحي؛ وأسلم عمرو بن عبسة السلمي [(١)]. وإسلام أبي ذر الغفاري أشهر من أن يوثق.

أما زيد بن عمرو بن نفيل؛ فقد شاعت عنه حكاياتُ بحثِه عن الحنيفية حتى قتل؛ لكن ولده سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل كان من أوائل الداخلين في الإسلام، ويُفترض أنه أعلم الناس بأبيه وموقفه الديني؛ فلو كان قد لاحظ تناقضًا بين أصول ما جاء به النبي والحنيفية؛ لما سارع للدخول في الإسلام. وهذا نفسه ينطبق على زوجة أبي عامر الراهب عصيمة بنت أبي الأفلح التي أسلمت وبايعت النبي [(٢)]، وكذلك أولاده: حنظلة شهيد أحد وغسيل الملائكة، وحبيبة، والشموس؛ الذين رغم جحود أبيهم وحسده للنبي؛ إلا أنهم أسلموا وبايعوا النبي [(٣)].

إذن فالواقع التاريخي كذّب توقع نولدكه أن أتباع إبراهيم إن وجدوا سوف يكذبون محمدًا.

---

(١) مسند أحمد ٤/ ١١٢ رقم (١٧٠٦٠).

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى دار صادر بيروت ج٨ ص٣٤٦

(٣) راجع: ابن سعد: الطبقات الكبرى دار صادر بيروت ج٣ ص ٥٤٠، وما بعدها وج ٥ ص٨١، وما بعدها وج٨ ص ٢٢٩، وما بعدها و٣٤٥، وما بعدها.

الملاحظة الرابعة: بشأن الدليل الذي يطرحه نولدكه على دعواه:

يذكر نولدكه أن القرآن المكي يبين أن الله لم يرسل قبل محمد ﷺ نذيرًا إلى العرب؛ لكن الرؤية تتغير في القرآن المدني؛ حيث يتم تشكيل تصور جديد عن إبراهيم أنه باني الكعبة؛ يقول[1]:

"Die Bevorzugung Abraham's durch Muhammed hängt weiter aufs engste zusammen mit der Ansicht von "Sur. 2. 119, 121, daß jener der Gründer des mekkanischen Heiligtums sei. Auch diese Ansicht mag sich der Prophet erst in Medina gebildet haben. Denn noch in den späteren mekkanischen Suren steht es für ihn fest, daß Allah vor ihm keinen «Warner» zu seinen Landsleuten gesandt habe (Sur. 32, 2; 34, 13; 36,5). Da außer V. 124 noch V. 111 und 119, 120 sicher. V. 113-118 mglicherweise medinisch sind, liegt es nahe, das ganze Stück V.111-125 in diese Zeit zu versetzen".

وترجمته:

إن "تفضيل محمد [ﷺ] لإبراهيم يتصل بشكل وثيق بوجهة النظر الواردة في سورة البقرة الآية ١١٩، والآية ١٢١[2] بأنه مؤسس الكعبة في مكة. ولعل النبي كون وجهة النظر هذه أول مرة في المدينة؛ لأنه يوجد في السور المكية المتأخرة بشكل مؤكد أن الله لم يرسل إلى قوم محمد قبله نذيرًا: ٢ السجدة، و٤٣ سبأ، و٥ يس[3]. لذا فظاهر الآيات ١١١ و١١٩ و١٢٠ و١٢٤ من سورة النحل[4] بشكل يقيني - مدني. والآيات ١١٣-١١٨ من

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٤٧.

(٢) هذا وفق ترقيم فلوجل، وهما عندنا الآيتان: ١٢٥، ١٢٧: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾، و﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

(٣) الترقيم حسب فلوجل، لكن الآيات هي: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾، ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَـٰفِلُونَ﴾، المؤلف.

(٤) الترقيم أيضًا حسب فلوجل؛ لكن الآيات هي: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَـٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ=

نفس السورة[1] مدنية هي الأخرى، لكن بشكل محتمل. وقريب من هذا أن النصوص الكاملة من الآيات ١١١-١٢٥ من سورة النحل[2] قد نشأت في هذا الوقت[3]".

واستدلال نولدكه على دعواه هنا بما ورد في القرآن المكي من نفي إرسال نذير إلى قوم النبي ﷺ قبله؛ لي معه وقفة.

إنه يشير إلى الآيات ٤٦ القصص، و٣ السجدة، و٦ يس، و٤٤ سبأ. والآيات مرتبة هي: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾. ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾. ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾. التي فيها أن الله لم يرسل قبل محمد ﷺ نذيرًا إلى أهل مكة.

ويتضح بشيء من القراءة المتأنية أن المنفي هنا ليس مطلق نذير للعرب قبل النبي ﷺ بل (نذير لهم معه كتاب سماوي)، و(نذير من العرب إليهم)، و(نذير قريب العهد بمن عاصر النبي منهم):

أ- أما أن العرب لم يُرسل لهم نذير معه كتاب سماوي، فإننا نفهم ذلك من وضع الآيات في سياقها الذي وردت فيه؛ ولتطبيق هذا هنا فإننا نلاحظ في الموضع من سورة القصص أن نَفْيَ مجيءِ نذيرٍ قبل النبي ﷺ إلى قومه؛ قد سُبق بذِكر

= رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾، ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ المؤلف.

(١) من: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ الآية إلى: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ المؤلف.

(٢) من: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟﴾ الآية، إلى ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الآية، وهنا آيات: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ المؤلف.

(٣) وهكذا هوبرت جريمة *Hubert Grimme* في كتابه محمد - الجزء الثاني، لكن بدون تعليل (نولدكه).

وحي الله إلى موسى بعضَ التوراة: ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾؛ كما سُبق بنداء الله له بجانب الطور[1] : ﴿بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾؛ قال تعالى:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

كما نلاحظ في آيات السجدة ويس وسبأ أن نفي إنذار القوم أو آبائهم، أو نفي إرسال رسول إليهم قبل النبي محمدﷺ سُبق في آيتين بذكر الكتاب وأنه الحق من الله (السجدة)؛ وذِكرِ القرآن وأنه تنزيل العزيز الرحيم (يس)؛ كما سُبق في الثالثة بنفي إنزال الله على قوم محمد كتبًا يدرسونها (سبأ)... فيُفهم النفي إذن - بعد أخذ سياق الورود في الاعتبار - أن قوم النبي لم يأتهم نذير بكتاب قبل محمدﷺ؛ ولو فهمناه على إطلاقه لكنا قد عزلنا النص عن سياقه الذي ورد فيه.

ب- كما أن آية سبأ تبين على وجه صريح أن قوم النبي لم يؤتَوْا قبل محمدﷺ كتابًا سماويًّا: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾.

فيمكننا إذن أن نفسر بهذه الآية الإطلاقَ من باب حمل المطلق على المقيد، فيكون نفي النذير إنما يعني نفي إرسال نذير بكتاب خاص للعرب.

وهذه الآية ليست وحدها في تقرير أن قوم النبي لم يؤتوا كتابًا قبل محمدﷺ؛ فمثلها في هذا الآيات: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾، ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾، ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾، والاستفهام في الثلاثة بمعنى النفي، ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[2].

(١) والآية التي تتناول نفس الحادثة هي: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾: [٥٢ مريم]؛ عن ابن عباس قال: "أُدْنِيَ حتى سمع صريف القلم" قال مجاهد وأبو العالية: "صريف القلم بكتابة التوراة".

(٢) الآيات بالترتيب هي: الزخرف: ٢١، القلم: ٣٧، فاطر: ٤٠، الصافات: ١٥٧.

ج- كما يمكننا أن نصل لبعض الدلالات من كثير من الآيات التي فيها ذِكرٌ لأداء النبي لواجب الإنذار؛ حيث ربطت ذلك بتنزيل القرآن[1] على النبي محمد ﷺ. وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾، و﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾، و﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾، و﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ الآية، و﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾[2].

فهذا الارتباط يبين بنحوٍ ما أن ثمة خصوصية معينة لوضعية محمد ﷺ مع قومه؛ إذ إن إنذاره لهم مقترن بكتابٍ هو أداةُ الإنذار ووسيلتُه، بخلاف من أنذروهم من قَبله فلم يحصل معهم هذا الاقتران.

وكونُ العرب لم يُرسَل إليهم نذير بكتابٍ أمرٌ ثابت قرآنًا، ثابتٌ تاريخًا:

فمن جهة القرآن؛ نلاحظ أن إبراهيم قد أُرسل بصُحُفِه[3] إلى قومه؛ وهم أبناءُ أورِ الكلدانيين في العراق الذين عناهم القرآن في كل موضع تناول فيه قيام إبراهيم بتبليغ دعوة الله؛ مجليًا في الوقت نفسه ردهم عليه ومجادلتهم له[4].

ولم يَرد في القرآن ما يشير إلى أن العرب قُصدوا في أيٍّ من تلك المواضع.

---

(١) أو الكتاب أو الذكر.

(٢) الآيات مرتبة هي: الأنعام: ١٩، الأعراف: ٢، مريم: ٩٧، الشورى: ٧، والكهف: ١-٢، الأحقاف: ١٢، والأنعام: ٥١.

(٣) قال تعالى (الأعلى: ١٨-١٩): ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾

(٤) في الآيات: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ الآية، و﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾، و﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ الآية، و﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾، و﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الآية، و﴿وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ وهي بالترتيب: الأنعام: ٨٣، والأنبياء: ٥٢، والعنكبوت: ١٦، والزخرف: ٢٦، والتوبة: ٧٠، والحج: ٤٣.

ولقد استمرت رسالة إبراهيم بصحفه تلك إلى أن لقي ربه بين أبنائه وذريته في فلسطين. ودورُه الذي حدثنا القرآن عنه في مكة هو رفع قواعد البيت الحرام فقط.

ومن جهة التاريخ؛ نرى أنه لو كان لإبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- كتاب أنزل للعرب؛ لما كان في تخصيص إطلاق القرآن وصفَ أهل الكتاب على اليهود والنصارى وحدهم وجهٌ؛ ولَمَا ذاعت في العرب من قديم تلك القسمة الثنائية: (أهل الكتاب والأميون) قاصدين بأهل الكتاب: اليهود والنصارى، وبالأميين: العرب.

كما أنه لو كان لإبراهيم وإسماعيل كتابٌ للعرب؛ لما تفرق بقايَا الحنفاء الباحثين عن حقيقة دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في البلدان يلتمسونها. لكنهم تفرقوا؛ فقد ورَد[1] أن أربعة منهم «تفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم»، «وكان زيد بن عمرو بن نفيل قد أجمع الخروج من مكة ليضرب في الأرض؛ يطلب الحنيفية دين إبراهيم حتى بلغ الموصل والجزيرة كلها. ثم أقبل فجال الشام كله ... حتى إذا توسط بلاد لخم [في أثناء العودة إلى مكة] عَدَوا عليه فقتلوه»[2].

د- وأمّا أن العرب لم يُرسَل إليهم نذير منهم قبل محمد ﷺ فتُوَصِّلنا إليه الآياتُ التي فيها ابتهالُ إبراهيم عليه السلام إلى الله تعالى، واستجابة الله له أن يُرسل إلى العرب رسولًا منهم؛ فلقد ذكر الله دعاء إبراهيم[3]: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ حيث يدعو إبراهيم أن يبعث الله في العرب رسولا منهم. واستجاب الله له؛ قال تعالى[4]: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ

(١) في سيرة ابن هشام جـ١ مجلد ١، ص١٣٨- ١٣٩.
(٢) المرجع نفسه ص ١٤٣.
(٣) البقرة: ١٢٩.
(٤) البقرة: ١٥١.

وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾، وقال[1]: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[2].

فالإشارة في الآية التي ذكرت دعاء إبراهيم؛ وفي الآية التي ذكرت استجابة الله تعالى له بإرسال رسول من العرب؛ يمكن أن تجعلنا نفهم الآيات المذكورة فيما سبق وتنفي مجيء نذير لقوم النبي على أنه نفي لمجيء نذير لهم يكون منهم؛ فقوم النبي ﷺ إذن لم يأتهم قبل محمد نذير منهم وهذا أمر ثابت تاريخًا أيضًا[3].

وأمّا أن العرب المعاصرين للنبي لم يُرسَل إليهم نذير؛ فمن المعلوم أن المدة بين إبراهيم عليه السلام ومحمد ﷺ تزيد عن الألفي عام[4]. ولم يأت في هذه المدة نذير إلى قوم محمد ﷺ.

«وقد حكى الرازي[5] قول بعض العلماء: «إن حجة الأنبياء كانت قائمة عليهم، (أي على العرب المعاصرين للنبي)، ولكن لم يُبعث إليهم من يجدد تلك الحجة. وقال سيد قطب[6]: «قد كانت الرسالات في بني إسرائيل من حولهم ولم يرسل إليهم رسول منذ أمد طويل منذ أبيهم إسماعيل».

---

(١) الجمعة: ٢.

(٢) وصْف الضلال بـ(مبين) يحمل في طياته الشدة في مظاهره. والطول في مدته. ومعلوم تاريخيًا مدى تجذر الشرك في الجزيرة العربية، وطول مدته فيها قبل رسالة محمد ﷺ.

(٣) أما صالح وشعيب وهود الذين ورد في الحديث عنهم أنهم من العرب (رواه ابن حبان في صحيحه، وورد في البداية والنهاية لابن كثير ج١ ص ١٢٠) فهم من العرب البائدة غير المنتسبين لإسماعيل عليه السلام، وكانوا قد اندثروا كما يقول عمر فروخ (ص ٤٥ تاريخ الجاهلية ج١ بيروت ط ١٩٦٤) بحكم عاملين: "الرملِ الزاحفِ الذي طغى على العمران القديم في أواسط شبه الجزيرة وفي الأحقاف وهياجِ البراكين، وما ترتب عليه من تدمير المدن". ولا يخفى ما ذكره القرآن عن العقوبات الدنيوية التي ألحقها الله بقرى المكذبين لهؤلاء الأنبياء الثلاثة، وهي من قبيل ما ذُكر.

(٤) وفقًا لتحديد جورجي زيدان: العرب قبل الإسلام ص٢٧٦.

(٥) التفسير مجلد ١٢ ج ٢٣ ص٢٩٣، في تفسير الآية ٤٦ القصص.

(٦) الظلال ج٥ ص ٢٦٩٨.

وقال الشيخ عبد الوهاب النجار[1]: «إن المفسرين يقولون: إن الموجودين من هؤلاء القوم لم يباشرهم رسول يبلغهم دين الله ويهديهم إلى الدين الحق».

ويدعم هذا أن الإنذار الفعلي الذي هو علة بعثة محمد كما توضح الآيات لم يقع فعلًا منه ﷺ؛ ولا يمكن أن يقع عقلًا؛ إلا لقوم محمد المعاصرين له دون الأجيال الموغلة في القدم منهم. وقد أشارت الآيات إلى أولئك المنذَرين بلفظ (قوم)، وكذلك ضمير الجمع الغائب (هم) ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾، ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾.

وما دام إنذار محمد ﷺ لم يقع، ولا يمكن أن يقع إلا لقومه المعاصرين له دون غيرهم من الأجيال التي سبقتهم؛ فإن نَفْيَ إرسال نذير قبله إلى قومه يُفهم منه نفي نذير لقومه المعاصرين له.

وأخيرًا فلا يمتنع أن يكون القرآن نافيًا مجيء نذير من قوم النبي إليهم قبله في أي عصر؛ بكتاب سماوي أو بدونه؛ ونافيًا كذلك مجيء نذير من غيرهم إليهم بكتاب سماوي في أي عصر؛ ويكون نافيًا لإرسال نذير لقوم النبي المعاصرين له. وهذا كله واقع تاريخي.

وبالتالي فلا يمكن أن تكون الآيات المذكورة تحمل تناقضًا مع ما جاء من علاقة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بالكعبة.

المطلب الثاني: تحليل الدعاوى الواردة هنا:

بعد أن تبين لنا خطأ نولدكه فيما زعمه من دافعين شجعا النبي على تشكيل تصور جديد عن إبراهيم، وخطؤه كذلك في دليله الذي زعمه لهذا التصور؛ نبدأ الآن في تحليل ما ادعاه بهدف حصر الدعاوى المتضمنة فيه وتحديد كل دعوى حتى لا تتداخل الدعاوى ومن ثم تتداخل الردود.

(١) قصص الأنبياء ٩٩.

إن نصوص نولدكه التي معنا تطرح علينا دعاوى خمسًا تنطلق كلها من فكرته أن النبي كَوَّن في المدينة تصورًا جديدًا عن إبراهيم عليه السلام.

عناصر التصور الجديد هي:

أن النبي ﷺ أصبح له في المدينة صلة بإبراهيم، فقال إنه على ملته التي هي الإسلام، وأنه أسَّسَ الكعبة؛ ولذا اتجه إليها النبي في الصلاة؛ وأدخلها ومكة في شعائر الحج.

هذه الدعاوى إجمالًا بنيت على كون القرآن من عند النبي؛ وهذا غير صحيح؛ فهو كلام الله الذي لا تأتي مواقفه المبدئية كردود أفعال.

إن سائر الأمور المذكورة، وهي: الأمرُ القرآنيُّ باتباع ملة إبراهيم التي كانت الإسلام، ورفعُ إبراهيم قواعد الكعبة، وأمرُ الله للنبي ﷺ بالتوجه إليها في الصلاة، وإدخالُها ومكة في شعائر الحج... هذه الأمور المذكورة لا تنسب بحال للنبي؛ لأن القرآن هو كلام الله وليس للنبي فيه تدخل خاص؛ وبالتالي فإن القرآن: مكيَّه ومدنيَّه حين كان يذكر أية حقيقة: تاريخية أو شرعية؛ لم يكن يراعي غضب المعاصرين له وقت تنزله أو رضاهم؛ أيا كان انتماء أولئك المعاصرين؛ بل كان يذكرها مجردة من أي اعتبار من هذا القبيل. من هنا وجدنا القرآن يهاجم من يقولون إنهم أتباع موسى وعيسى ويصحح لهم أخطاءهم الكثيرة[1]؛ من غير أن يأبه لتكذيبهم الذي حصل بالفعل.

هذا الرد إجمالًا.. أما التفصيل فيكون فيما يأتي:

* * *

(١) فعل ذلك في المكي والمدني على حد سواء. وقد سبق بيان ذلك.



المبحث الثاني
دعاواه بشأن ما نسبه القرآن إلى إبراهيم وإسماعيل

أناقش نولدكه هنا فيما ذهب إليه من أن التصور الجديد المزعوم الذي كونه النبي في القرآن المدني عن إبراهيم وإسماعيل يتمثل في أنهما أسسا الكعبة، وأن القرآن المدني أعطى دورًا جديدًا لإسماعيل لم يكن قد أُعطي له في القرآن المكي، أو بتعبير نولدكه: أقحم النبي في القرآن المدني إسماعيل بين الآباء الإسرائيليين: إبراهيم وإسحاق ويعقوب. كما أناقش دعواه مدنية الآيات التي تربط بين إبراهيم والكعبة.

الدعوى الأولى: أن القول بتأسيس إبراهيم للكعبة هو وجهة نظر جديدة كونها النبي في المدينة:

مرة أخرى أعيد قول نولدكه[1]:

"إن سبب تحويل قبلة الصلاة الأورساليمية يندرج في إطار التصور الجديد عن أديان الوحي القديمة، الذي ناله محمد بالتدريج في المدينة؛ ففي حين أنه كان يشعر في الماضي أنه وثيق الصلة باليهود والنصارى؛ فقد حركه إخفاق دعايته بين هؤلاء إلى أن يولي وجهه للارتباط بآخَرَ؛ وجده أخيرًا في دين إبراهيم الذي ربط الوحي بينه وبين الكعبة، ولذا أصبح مكان الطقوس الوثنية حرمًا للإسلام، واتخذ مكانًا مثل هذا قبلة للصلاة، كما كانت أورشليم بالنسبة لليهود".

وأقول:

- إن نولدكه، وإن لم يكن قد صرح بنفي بناء إبراهيم وإسماعيل الكعبة؛ إلا أن

---

(١) ص١٧٥ الهامش.

تعبيراته تشي بالتشكيك فيه؛ فهو قد أرجع كل ما ذكر في القرآن المدني عن إبراهيم -ومنه أنه أسس الكعبة، وأن لمكة صلة به- إلى ما زعمه من تصور جديد لدى النبي عنه، وقال عن مشاركة إسماعيل في رفع قواعد البيت: «وفي مرحلة لاحقة يترقى إسماعيل ليصير مؤسسًا مشاركًا للبيت»(١).

كما عمد إلى الآيات المكية التي جعلت لإبراهيم صلة بمكة أو أنها حرم آمن؛ فشكك في مكيتها؛ فادعى مدنية الآية: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾. وادعى عن الآية: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ الآية. أن أصلها المكي محل شك. وادعى أن قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ الآيات؛ مضاف لاحق للسورة.

- وهو وإن كان قد اكتفى بالتشكيك دون التصريح؛ فإن غيره قد صرح؛ فهذا وليم موير «الذي نفى قصة ذهاب إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز أصلًا بدعوى أنها إسرائيليات ابتدعها اليهود قبل الإسلام بأجيال؛ ليربطوا بينهم وبين العرب بالاشتراك في أبوة إبراهيم لهم جميعًا أن كان إسحاق أبا لليهود. فإذا كان أخُوه إسماعيلُ أبا العرب؛ فهم إذًا أبناء عمومة توجب على العرب حسن معاملة النازلين بينهم من اليهود، وتيسير تجارة اليهود في شبه الجزيرة"(٢).

والحق أن تأسيس إبراهيم وإسماعيل البيت الحرام ثابت؛ لأن القرآن الذي هو كلام الله المنزل على محمد نطق بهذا وأخبر به؛ فلم يعد ذلك بالنسبة للمسلم محل نقاش. ولا ينبغي أن يكون محـل نقاش لغير المسـلم؛ وذلك نظرًا لأمور أربعة:

الأول: الثبوت العقلي لنبوة محمد ﷺ؛ ومادامت نبوته ثابتة فسائر ما يخبر به هو ثابت كذلك.

(١) سبق ذكر ذلك.

(٢) محمد حسين هيكل: حياة محمد ص١٦.

الثاني: كون هذا التأسيس غير ممتنع عقلًا؛ لأن العقل لا يستبعد إمكان أن يؤسس إبراهيم الكعبة؛ وذلك لـما ثبت أنه ذهب بزوجته هاجر ورضيعهما إلى برية فاران التي هي - كما يقول ابن منظور[١] - "الإطلاق العبري على جبال مكة". وأن إبراهيم كان يزورهما، ولا يُتوقع منه - وهو الحريص على إيمان ولده - إلا أن يؤسس في إحدى زوراته بيتًا لعبادة الله:

١- وزياراته ثابتة للآتي:

أ- لا يمكن أن يتصور انقطاع زياراته لهما؛ لأنه يعلم أن وضعهما في هذا المكان لم يكن عقوبة أو طردًا؛ إنما تم بأمر إلهي ولحكمة - طبقًا لنصوص سفر التكوين[٢].

ب- كما أن الله وعد إبراهيم أن ابنه إسماعيل سيكون أمة كبـيرة[٣]، ووعده كذلك أن نسله كله له مع الله عهد[٤] - وإسماعيل من نسبه - و هو كذلك يرثه[٥]؛ فلا يمكن مع هذا أن يقاطعه فلا يـزوره.

(١) لسان العرب.

(٢) ٢١: ١٢.

(٣) تكوين: ٢١: ١٣، وورد فيه كذلك: "وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه هاأنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرًا جدًّا اثنى عشر رئيسًا يلد، وأجعله أمة كبيرة" تك ١٧: ٢٠- ٢١. وكذلك وُعدت هاجر الوعد ذاته؛ ورد في سفر التكوين ١٦: ٧ـ ١٤ "فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية... قال لها... تكثيرًا أكثر نسلك فلا يُعد من الكثرة... ها أنت حبلى تلدين ابنًا، وتدعين اسمه إسماعيل"

(٤) "وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهدًا أبديًّا ... وقال الله لإبراهيم: وأما أنت فتحفظ عهدي أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم، هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك يختن منكم كل ذكر ". تك ١٧: ٧-١٠. ولا يصح أن يستثنى إسماعيل من هذا العهد؛ فالنصوص واضحة في شمولها نسل إبراهيم كله. كما أن إسماعيل قد اختتن (تك ١٧: ٢٣)، والاختتان علامة على العهد: " فتختنون في لحم غرلتكم، فيكون علامة عهد بيني وبينكم" تك ١٧: ١١.

(٥) "الذي يخرج من أحشائك هو يرثك" تك ١٥: ١- ٦.

وقد قالت التوراة عن إسماعيل وهو غلام: "وكان الله مع الغلام"[1]؛ فكيف يقاطعه أبوه؟.

ج- كما أن إسماعيل هو بكر إبراهيم. وللبكورية -طبقًا لمعتقدات العهد القديم- حق لا يتصور معه قطيعة من نبي لابنه البكر.

د- ومما يشهد لإمكانية زيارة إبراهيم لإسماعيل كذلك أن الأخير قد عاصر تسعًا وثمانين سنة في حياة أبيه[2] ،وهي فترة طويلة جدًّا تستحيل معها القطيعة.

هـ- وإذا أضفنا إلى هذا أن إبراهيم عليه السلام هو النبي الكبير الذي وعده الله أن يكون أبًا لجمهور من الأمم وأنه سيجعله أممًا[3]، فإنه لا يتصور مع هذا أن يقاطع أحدَ فرعيه الذي سيحقق شطر مراد الله فيه: أنه سيجعله أممًا.

و- وإذا كان العقل يوجب استحالة القطيعة بين إبراهيم وإسماعيل؛ فإن العهد القديم يثبت اتصالين على الأقل بينهما؛ أولهما: عندما اختتنا[4]، وكان عمر

(١) تك ٢١: ٢٠.

(٢) وذلك لأن سن إبراهيم عند ولادة إسماعيل كان ستًّا وثمانين سنة (تك ١٦: ١٦)، وتوفي إبراهيم عن عمر ناهز خمسًا وسبعين ومائة؛ وكان إسماعيل عندئذ حيًّا (تك ٢٥: ٧، ٩).

(٣) تك ١٧: ٤ - ٦ "وتكون أبا لجمهور من الأمم ... وأُثَمِّرُكَ كثيرة جدًّا وأجعلك أمما، وملوكٌ منك يخرجون".

(٤) ولا يتصور مطلقًا أن يكون ذلك الختان سابقًا لإسكان إبراهيم زوجته هاجر ورضيعه إسماعيل برية فاران؛ بل يجب أن يكون لاحقًا لذلك؛ لأن نصوص سفر التكوين يُفهم منها أن إسماعيل كان رضيعًا عندما هُجِّر وأمه إلى تلك البرية. وأشير هنا على وجه الخصوص إلى الفقرات: ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨ من الإصحاح ٢١: تكوين، وفيها: "فَبَكَّرَ إبراهيمُ صباحًا، وأخذا خبزًا وقربة ماء وأعطاهما لهاجر واضعًا إياهما على كتفها والولد وصرفها... ولمّا فَرَغَ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار ومضت وجلست مقابله بعيدًا نحو رمية قوس؛ لأنها قالت: لا أنظر موت الولد؛ فجلست مقابله... ونادى ملاك الله: قومي احملي الغلام وشدي يدك به [وفي الترجمة الألمانية المشار إليها من قبل لنفس النص: قومي خذي الغلام وامسكيه جيدًا في يدك..."]. فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام...". فإبراهيم وضع الولد على كتفهـــا =

إسماعيل ثلاث عشرة سنة[١]. وثانيهما: عندما شارك إسماعيل في دفن والده إبراهيم[٢]. كما أن الهاجادا اليهودية [٣] تقرر -كما يقول المستشرق الألماني باول شفارتزيناو *Paul Schwarzenau*[٤] أن إبراهيم زار ابنه إسماعيل في الصحراء".

ز- ولا يستبعد إمكانية حصول لقاءات أكثر من هذين المذكورين لم يُشِر إليها العهد القديم؛ لأن هذا الأخير لا يهتم إلا بذكر الحوادث التي لها علاقة بتاريخ شعب إسرائيل، فضلًا عن تعمد إغفاله ما يشير إلى اهتمام إبراهيم بإسماعيل.

ح- وكذلك إذا أضفنا إلى هذا أن إبراهيم عليه السلام الذي أَلِف الترحل؛ فهاجر من أور الكلدانيين بالعراق إلى حاران، ثم إلى أرض كنعان: فلسطين[٥]، ورحلات أخرى[٦]، ثم ارتحل إلى مصر[٧] ثم عاد إلى فلسطين ...أقول: إذا أضيف هذا إلى ما معنا؛ فإنه لا يستبعد أن يزور إبراهيم ولده إسماعيل مرات كثيرة؛ لأن الداعي إلى السفر لمثل هذا الهدف أكيد، والحاجة إليه أقوى.

= وصرفها، وهي طرحت الولد تحت إحدى الأشجار، وانتظرت موته بعيدًا؛ لأنه وهو رضيع لا يتحمل العطش. وأمرها ملاك الله أن تحمل الغلام؛ ولا يتصور حَمْلٌ إلا لصغير. ولأنه صغير سقته الماء بنفسها، ولم يسق نفسه. ولقد صرح النبي في حديث صحيح أن إسماعيل كان رضيعًا حين هُجِّر إلى مكة: البخاري.

(١) تك ٢٥: ٩.

(٢) إذ لا يتصور أن يبلَّغ إسماعيل، وهو في مكة بوفاة أبيه فيهرع سريعًا، لتجهيزه والمشاركة في دفنه، فيتمكن من ذلك كله رغم بعد المسافة؛ فلا بد إذن أن يكون قد التقى به في مرض موته.

(٣) وهي قصص وضعها أحبار اليهود بغرض التعليم لها من القداسة مثلما للتلمود.

(٤) في كتابه:

Korankunde für Christen (Ein Zugang zum heiligen Buch der Moslems) S. 88.

(٥) تك ١١: ٣٢.

(٦) بنص الفقرة: تك ١٢: ٩: "ثم ارتحل إبراهيم ارتحالًا متواليًا نحو الجنوب" أي جنوب أرض كنعان.

(٧) تك ١٢: ١٠.

ط- هذا، وقد جاء في البخاري عن ابن عباس وبعضه مرفوع إلى النبي[1] أن إبراهيم زار إسماعيل ثلاث مرات: مرتين ذُكر فيهما أمر زوجتيه، ومرة بشأن بناء الكعبة؛ حيث ورد أن إبراهيم قال لإسماعيل في إحدى هذه المرات:

"يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر! قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك! قال: فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتًا - وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها. قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت؛ فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جدًّا، جاء بهذا الحجر، فوضعه له، فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾".

وقد علق ابن كثير على ذلك مستبعدًا كون زيارات إبراهيم قد اقتصرت على تلك الثلاث؛ فقال[2]: "وكيف يتركهم من حين صِغر الولد إلى حين تزويجه لا ينظر في حالهم، فكيف يتخلف عن مطالعة حالهم، وهم في غاية الضرورة الشديدة والحاجة الأكيدة".

٢- وبعد؛

فقد ثبت لدينا أن إبراهيم عليه السلام كان يزور إسماعيل وأمه؛ وعليه فإنه ليس أمرًا مستبعدًا أن يرفع إبراهيم وإسماعيل في إحدى تلك الزَّوْرات قواعد بيت لعبادة الله تعالى؛ لأنه إذا كان بعض شعوب الأرض في عهد إبراهيم يرفعون البيوت لعبادة الأصنام، ولتكون محلًّا لديانات وضعية؛ فما الغريب في أن يرفع إبراهيم وإسماعيل قواعد بيت يُعبد الله فيه؟

وهل كان من الممكن أن يترك النبي الكبير إبراهيم ابنه إسماعيل دون أن يطمئن على أنه باق على صلته بالله؟

(١) البخاري ج٦ ص٣٩٦-٣٩٧ رقم (٣٣٤٦).

(٢) ص١٥٨ قصص الأنبياء.

إن رفع إبراهيم قواعد بيت لعبادة الله هو الافتراض المنطقي الوحيد، الذي لا بد أن نتوقعه من نبي صاحب عهد مع الله؛ يترك زوجه وابنه -الذي هو أحد وارثي عهد الله معه- في بيئة بعيدة عن الإيمان والتوحيد.

كما أنه لم يثبت عن اليهود والنصارى المعاصرين للنبي ﷺ التشكيك في هذه النسبة، بل إن نولدكه نفسه يرى أن اليهود والنصارى العرب كان لديهم فكرة عن نسبة تأسيس الكعبة إلى إبراهيم عليه السلام (وإن كان قد سمى ذلك أسطورة، وقصر القول بها على المسيحيين العرب الذين عز عليهم ترك الطواف حول الكعبة) يقول[1]:

"Diese Legende ist vielleicht keine Erfindung Muhammeds, sondern im Kopfe arabischer Juden oder Christen entstanden, die auf die religiösen Begehungen bei der Ka'ba nicht verzichten wollten. Snouck Hurgronje (Het Mekkaansche Feest S. 28) hält es nicht für unwahrsheinlich, daß der Hagg von Christen mitgemacht wurde und verweist auf eine Tradition, nach der das schnelle Reiten durch den Wadi Mohassir damit erklärt wird, daß dort früher die Christen das Wuquf verrichteten (vgl. Muhammad 'Abid, Hidayat al nasik ala taudih al-manasik. ed. Cair. 1302, p. 112) ".

وترجمته:

"من المحتمل أن هذه الأسطورة ليست من اختراع محمد، بل سبق أن كونها اليهود والمسيحيون العرب الذين لم يشاءوا أن يتخلوا عن الطواف الديني حول الكعبة. ولا يستبعد سنوك هورجروني في كتابه (الأعياد المكية) ص٢٨ أن يكون المسيحيون قد شاركوا في الحج، ويشير إلى رواية تقول: إن العبور السريع لوادي مُحَسّر يُفَسّر بأن النصارى كانوا يتممون في الماضي الوقوف هناك. قارن محمد عابد "هداية الناسك على توضيح المناسك" طبعة القاهرة ١٣٠٢ ص١١٢".

واللاهوتي المستشرق باول شفارتزيناو *Paul Schwarzenau* يقول[2]: "يمكن

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٤٧ هامش ٣

(2) Korankunde für Christen (Ein Zugang zum heiligen Buch der Moslems) S. 55.

ألا يستبعد افتراض و. رودلف[1]، وهو أن النصارى العرب كانوا يقبلون أن يربطوا بين إبراهيم والكعبة..إن السِّفر الموسوي الأول [التكوين] يقدم تصورًا أن إبراهيم كان يؤسس معبدًا *Altäre* في كل أماكن تجواله[2]، وهذا يمكن أن يقوي هذا الظن".

الثالث: ما الذي يضطر القرآن أن يزور في التاريخ -كما يدعي نولدكه- فينسب إلى هذين النبيين الكريمين رفع قواعد البيت؟

إن إرادة التقرب إلى العرب لا يمكن أن تكون هي المقصودة من هذا؛ فقد تنكروا لإبراهيم عليه السلام وتوحيده؛ ولم يكن يعنيهم من قريب أو بعيد إعلان القرآن هذه النسبة. ولو كان هذا هو الهدف لكان أولى وقت لإعلان ذلك صراحة هو بدايات الفترة المكية؛ فقد كان من شأنه -لو تم وكان المشركون أوفياء لإبراهيم- أن يخفف من غلوائهم في عداوتهم للدعوة الفتيَّة.

لكن الواقع يقول: إن الإعلان الصريح لرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل تم في بداية العهد المدني.

الرابع: لو افترضنا أن القرآن تجاوز الحقيقة في نسبة رفع قواعد البيت الحرام لإبراهيم وإسماعيل؛ وأنه لم يفعل ذلك إلا في سياق تصور النبي الجديد عن إبراهيم؛ فإننا نسأل نولدكه وسائر المنكرين: من الذي رفع قواعد الكعبة إذن؟

إن واحدًا من العرب الأقدمين لم يدَّع أو يُدَّع له أنه هو الذي فعل ذلك؛ رغم حرص العرب جميعًا على الارتباط بالبيت الحرام، وتقديرهم له لدرجة أن القريبين منه كانوا يتنازعون أعباء خدمته! ولو كان ثمة أخبار عن ادعاء من هذا القبيل لتصدى كثيرون للقرآن حين نسب ذلك لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام؛ بل إن الأخبار المنقولة لدى العرب في عصر النبوة تضافرت على نسبة بنائها لهذين النبيين الكريمين.

***

---

(1) *sehe: Speyer, Die biblischen Erzählungen im Qoran, S. 162.*

(٢) لم يشر المستشرق المذكور إلى المواضع التي تفيد هذا؛ لكنها على أية حال هي: التكوين: صح١٢ فقرة ٨، وصح١٣ فقرة ١٨.

الدعوى الثانية: إنه لكي لا يقف الأصل المكي لبعض الآيات التي تتحدث عن إبراهيم والحرم المكي؛ مانعًا من قبول نظرية نولدكه الملفقة؛ فإن نولدكه يعمد إلى تلك الآيات المكية فيدعي أنها مدنية.

إنه يجعل حديث القرآن عن ضيف إبراهيم إضافة لاحقة إلى سورة الذاريات التي يعدها من سور الطور المكي الأول، التي نزلت في المدة من سنة ١-٥ للبعثة[١]؛ يقول[٢]:

„In Sura 51 sind V. 24ff. vermutlich erst später hinzugefügt".

وترجمته:

"ربما تكون الآيات ٢٤، وما بعدها من سورة الذاريات[٣] قد أضيفت لاحقًا إلى هذه السورة".

وجعل تناولَ آيةٍ ما للقواعد المتعلقة بمنطقة مكة المكرمة كلها دليلًا يقينيًّا على مدنيتها؛ فقال[٤] عن الآيات ١٨٥-١٩٩ من سورة البقرة[٥] (وأذكر بالألمانية الجزء المهم من عبارته فقط):

„...bilden ein Konglomerat von Bistimmungen, die alle des heilige Gebiet von Mekke betreffen. Dadurch ist zwar ihre medinische Herkunft außer Zweifel gestellt.."

"تُقدم هذه الآيات -باستثناء الجزء من (فمن الناس) في الآية ١٩٦ إلى نهاية الآية ١٩٨[٦] المحتمل كونه مكيًّا - مجموعة من القواعد التي تتعلق بمنطقة مكة المكرمة كلها؛ وبهذا يظهر بلا شك أصلها المدني. لكن لا يُجزم بشيء بشأن ترتيبها الزمني. على

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٧.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٠٥.

(٣) ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ الآيات.

(٤) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٨٠.

(٥) من ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ﴾ إلى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

(٦) يشير إلى: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

أنه يمكن أن يصلح مؤقتًا أنها تأتي من ناحية بعد آيات مثل ١٢٤ النحل[١]، و١١٩، و١٢١ البقرة[٢]؛ التي فيها التصورات الرئيسة عن الكعبة؛ ومن ناحية أخرى ترجع إلى السنوات ٦، ٧، ١٠ التي قام فيها محمد بالحج، وما ينتمي إليه من زيارة (عمرة)".

وقال[٣]:

„In V. 38 ff. bittet Ibrahim seinen Herrn, das heilige Gebiet von Mekka zu schützen und seine Nachkommen vor Abgötterei zu bewahren, alsdann dankt er für die Gnade, noch im hohen Alter Vater zweier Söhne des Jakob und Ismael, geworden zu sein. Nach den oben zu Sur. 16,124 dargelegten Gründen sind auch diese Verse mit C. Snouck Hurgronje für medinisch zu halten".

وترجمته:

"يدعو إبراهيم في الآية ٣٨، وما بعدها من سورة إبراهيم[٤] أن يحمي الله منطقة مكة، وأن يحفظ ذريته من الوثنية، ومن ثم يشكر النعمة أن صار أبًا في سن متقدمة جدًّا لابنين هما: يعقوب وإسماعيل. وحسب الأسباب التي ذكرت سابقًا بشأن الآية ١٢٤ النحل[٥]: أَعُدُّ هذه الآيات مع سنوك هورجروني *C. Snouck Hurgronje* مدنية"..

وأقول هنا:

١- فيما يتعلق بآيات الذاريات: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾

(١) ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ولقد سبق أن بينت أن هذه الآية ليست مدنية.

(٢) ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ الآية، و ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٥٢.

(٤) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ الآيات.

(٥) ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ وسأتناول هذه الأسباب فيما بعد.

فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾.

أقول: إن نولدكه ليس لديه رواية أو اجتهاد صحيحان يبني عليهما هذا الحكم.

كما أن القصة ذاتها وردت في سورة الحجر، آيات: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴾.

ولقد حدد نولدكه بشكل مجمل أن سورة الحجر تنتمي إلى الطور المكي الثاني ويحدد له أعوام ٥-٦ بعد البعثة[١]. وعند تناوله المفصل لسورة الحجر[٢] لم يستثن الآيات الكريمة المذكورة من انتمائها للطور المكي الثاني. فما الفارق بين محتوى آيات الذاريات، ومحتوى آيات الحجر؛ ليختار نولدكه مدنية الأولى ومكية الثانية؟.

٢- وفيما يتعلق بآية النحل: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾؛ فلقد سبق أن بينت أنها مكية، وليست مدنية.

٣- أما قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ الآيات؛ فليس ثمة رواية إسلامية، ولو ضعيفة يستند إليها

(١) تاريخ القرآن "بالألمانية" ق١ ص IX،٧٠.
(٢) تاريخ القرآن "بالألمانية" ق١ ص ١١٥.

نولدكه في دعواه مدنية هذه الآيات، وليس لديه - كما قال هو نفسه - سوى ما سماه: "الأسباب التي ذُكرت سابقًا في ١٢٤ النحل"؛ فيعيدنا من جديد هنا إلى دور واضح سبقت الإشارة إليه؛ حيث تتوقف دعواه (بحث النبي عن مرجعية ،وتحوله في ذلك) على (كون الآية التي معنا مدنية)؛ ويتوقف كونها مدنية على الحكم بأن النبي تحول في مرجعيته.

ولعل الذي أوقعه في خطأ الحكم بمدنية هذه الآية هنا، هو ما صرح به من متابعته للمستشرق الهولندي سنوك هورجروني[1]؛ لدرجة أن هذه المتابعة أوقعته في خطأ فاحش آخر؛ فقد جعل نولدكه هنا النبيَّ يعقوب ابنًا مباشرًا لإبراهيم، مخالفًا بذلك الواقعَ ونصَّ الآية التي لم يكلف نفسه عناء قراءتها؛ رغم أنها ضمن ما يعالجه من آيات.

هذه الآية هي: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾.

لكني وقفت على نص يدعي فيه "سنوك هورجروني[2] أن محمدًا ﷺ كان يَعد في أول الأمر يعقوب ابنًا لإبراهيم؛ مستدلًا بقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾[3]. فقد يكون هذا الزعم قد أثر في نولدكه ... لكن الآية الأخيرة لا يَفهم منها أحد ممن يفهمون العربية أن يعقوب ابن لإبراهيم. وهورجروني قد فهمها" كما يفهم الغريب عن لغة نصوص هذه اللغة. والمفسرون فهموها على وجهها؛ لأن (من وراء إسحاق) خبر مقدم و(يعقوب) مبتدأ مؤخر. وجيء بهذه الجملة في هذا الموضع ليبين أن إبراهيم سيبقى عقِبُه؛ فهو سيولد له ويولد لولده. وعن

(١) تصريحه بالمتابعة واضح هنا، وفي مواضع أخرى.

(٢) *Het Mekkansche Feest 32*. عن دائرة المعارف الإسلامية الإصدار الأول، المجلد ٢ ص١١٢.

(٣) هود: ٧١.

الشعبي أنه قيل له: أهذا ابنك؟ فقال: نعم، من الوراء. وكان ولد ولده"[١].

وحتى لو تم التصريح بأبوة إبراهيم ليعقوب؛ فإن من له أدنى معرفة بالعربية يعلم أن الجَدَّ يُسمى أبًا باعتبار أنه أصل؛ ولقد ورد هذا في قوله تعالى على لسان يعقوب لابنه يوسف: ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾ حيث سماهما أبوين ليوسف، وهما جَدَّاه للاعتبار الذي ذكرته. فيبدو أن تأثير المستشرق الهولندي المذكور كان قويًّا على نولدكه لدرجة لم تتح لنولدكه أن يدقق في آرائه أو يراجع أحكامه. لكن لحسن الحظ فإن مستشرقًا آخر هو ريجي بلاشير؛ الذي رغم اطلاعه على حكم نولدكه هذا إلا أنه[٢] لا يتابعه في دعواه مدنية الآيات المذكورة من سورة إبراهيم؛ وجعلَها بدلًا من ذلك في الفترة المكية الثالثة.

أخيرًا أقول: إن أسوأ ما في الأمر هنا أن يصبح الحكم بمدنية آية أو مكيتها رهنًا بفكرة استشراقية مسبقة عن رسول الله ﷺ؛ فيفقد العالم موضوعيته وتجرده للحقيقة، وتصبح آليات البحث سلاحًا يدعم به الباحث نظريته المسبقة، وهو ما فعله نولدكه هنا، كما فعله مع آيات لا يدعم (كونُها مكية) نظريتَه.

* * *

الدعوى الثالثة: ادعى نولدكه أن النبي أَقحم في القرآن المدني إسماعيل مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب (الذين يسميهم نولدكه: الآباء)، وهو الأمر الذي لم يكن يحدث في القرآن المكي، ثم جعل النبيَّ إسماعيل يترقى ليصير مؤسسًا مشاركًا في تأسيس الكعبة؛ فعندما يتحدث نولدكه عن آيات سورة إبراهيم: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ الآيات.. يقول[٣]:

(١) من رد الأستاذ محمد عرفة على دعوى هورجروني: دائرة المعارف الإسلامية الإصدار الأول، المجلد ٢ بقية هامش ١ ص١١٢.

(٢) في كتابه: القرآن نزوله تدوينه، ترجمته، تأثيره ص٦٤.

(٣) ص١٥٢.

«Fortan werden die Erzväter nicht mehr genannt, ohne daß Ismael zwischen Abraham und Isaak eingeschoben ist. Auf einer späteren Stufe avanciert Ismael zum Mitgründer der Ka'ba» (Sur.2,121)".

وترجمته:

"وابتداءً من هنا لن يحدَّد الآباء الأُوَل بدون إقحام إسماعيل بين إبراهيم وإسحاق. وفي مرحلةٍ لاحقة يترقى إسماعيل ليكون مؤسسًا مشاركًا للكعبة، ١٢١ والبقرة(١)".

وأقول هنا:

١- إن تعبيره عن (ذكر القرآن المدني لإسماعيل مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام)؛ بأنه إقحام *Einschoben*؛ تعبير لا يليق بشأن القرآن؛ لكنه على أية حال صياغة مختلفة لدعوى سنوك هورجروني(٢) (أن القرآن المكي لم يذكر أية صلة بين إبراهيم وإسماعيل)؛ في حين أن القرآن المدني ذكر هذه الصلة.

فكأن القرآن الكريم عند هذين المستشرقَين ارتكب مخالفة تاريخية، حين أدخل اسم إسماعيل بين هؤلاء الأنبياء.

٢- وإذا كان نولدكه -أو غيره- يريد إنكار الصلة بين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام؛ فإنه بذلك لا يعارض القرآن الكريم وحده؛ إنما يعارض العهد القديم أيضًا، فقد ورد في عدة مواضع فيه ما يؤكد أن إسماعيل كان ابنًا لإبراهيم (تك: ١٦)، وفيه قصة عقم ساراي امرأة إبراهيم، التي وهبته جاريتها هاجر زوجة له فولدت له إسماعيل(٣).

---

(١) ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾ الآية.

(2) Het Mekkaansche Feest, leiden 1880. S. 28. 40.

وراجع دائرة المعارف الإسلامية القديمة (الترجمة العربية)، المجلد الأول ص٢٧، مقالة فنسنك عن (إبراهيم).

(٣) تدعي الترجمة العربية للعهد القديم (الصادرة عن دار الكتاب المقدس بمصر طبعة العيد =

٣- كما أن القرآن المكي بيَّن هذه الصلة بوضوح؛ ففي سورة إبراهيم المكية يدعو عليه السلام أن يجعل الله البلد الحرام آمنًا، وأن يُسكِن من ذريته هذا الوادي؛ الذي لا أثر فيه لزرع عند بيت الله المحرم؛ وأن يرزقهم من الثمرات، وأن يجعل موطنهم موئلًا لقلوب الناس. كما يَحمَدُه أن وهبه؛ رغم كبر سنه - إسماعيل وإسحاق[1].

بل إن في القرآن المكي ثبوت البنوة بين إسماعيل وإبراهيم[2]، وفيه كذلك ثبوت نبوة الأول[3].

كما أن سورة الأنعام المكية ذكرت إسماعيل فيما بعد على أنه من ذرية إبراهيم. وكان ذِكره في آخر مجموعة أنبياء فيها[4]؛ لأن كل مجموعة من

= المئوي ١٩٨٣ م)، أن بشرى إلهية جاءت هاجر؛ أنها ستلد ابنًا يدعى اسمه إسماعيل، ووصفته بأنه: "سيكون إنسانًا وحشيًّا" تك ١٦: ١٢. وفي الترجمة الألمانية للعهد القديم -التي ستأتي المعلومات عنها في قائمة المراجع- وردت نفس البشرى؛ لكنها وصفت إسماعيل بأنه: "يكون إنسانًا مثل الحمار الوحشي:

Er wird ein Mensch sein, wie ein Wildesel," Genesis 16: 12

في حين أن العلامة عبد الوهاب النجار: (قصص الأنبياء ص١٢٥ هامش ١) يرى أن الترجمة الصحيحة للوصف المذكور في النسخ العبرية الأصلية هي: (قوي)، فانظر: كيف تحول وصف (قوي) من إنسان وحشي إلى حمار وحشي؟

(١) الآيات الكريمة التي ورد فيها هذا الدعاء هي ٣٥ - ٤١؛ وفيها على وجه الخصوص الآية ٣٧: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾.

(٢) إبراهيم: ٣٩: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾، والصافات: ١٠١: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

(٣) مريم: ٥٤: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾، والأنعام: ٨٦: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، والأنبياء: ٨٥: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، وص: ٤٨: ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾.

(٤) الأنعام: ٨٦.

الأنبياء من ذرية إبراهيم ذُكرت هنا؛ جَمعت بينها -كما يري الإمام محمد عبده[1] - صفاتٌ مشتركة:

فالمجموعة الأولى: ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[2] مجتمعون في أن الله تعالى آتاهم الملك والإمارة، والحكم والسيادة مع النبوة والرسالة.

والمجموعة الثانية وهم: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَ﴾[3] امتازوا في الأنبياء بشدة الزهد في الدنيا، والإعراض عن لذاتها.

والمجموعة الثالثة وهم: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا﴾[4] قد أُخِّروا كما يقول محمد عبده[5] "لعدم الخصوصية؛ إذ لم يكن لهم من مُلك الدنيا وسلطانها ما كان للقسم الأول؛ ولا من المبالغة في الإعراض عن الدنيا ما للقسم الثاني". أولأنهم كما يقول الرازى[6]: "لم يبق لهم فيما بين الخلق أتباع وأشياع".

إذن فليس في القرآن المكي ما يناقض الذي أثبته القرآن المدني من علاقة بين إبراهيم وإسماعيل.

٤- وحتى يجعل نولدكه لدعواه هذه أساسًا ولو زائفًا؛ فإنه عمَـد إلى الموضع من سورة إبراهيم الذي فيه الآيـة: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾؛ التي تثبت أن القرآن المكي هو الذي أخبرنا ببنوة إسماعيل لإبراهيم عليهما السلام؛ فجعله مدنيًّا؛ قاصدًا - من ثم - تمريرَ

(١) تفسير المنار ج٧ ص٤٨٩-٤٩٠، ولدى الرازي محاولة توجيه قريبة الشبه مما ذكره محمد عبده: راجع التفسير الكبير مجلد ٦ ج١٢.

(٢) الأنعام: ٨٤.

(٣) الأنعام: ٨٥.

(٤) الأنعام: ٨٦.

(٥) تفسير المنار ج٧ ص٤٩٠.

(٦) التفسير الكبير مجلد ٦ ج١٢ ص٤١٢.

دعواه المذكورة إلى العقلية الغربية. لكنها محاولة ساقطة الاعتبار تمامًا.

إن أحد معالم منهج نولدكه في التعرف على المكي والمدني الاعتمادُ على التحليل اللفظي الداخلي للآيات، وجعلُ تشابهها مع ألفاظ مكية أو مدنية دليلًا للحكم عليها بأي منهما[1].

ولو اعتمدنا نفس المنهج؛ لوجدنا أن في آيات سورة إبراهيم ألفاظًا وردت في الفترة المكية لوصف مكة، مثل لفظ: (البلد) الوارد في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾، و﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ وهما مكيان؛ ومثل لفظ (رب) الوارد في قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا﴾ وهو مكي.

كما أن آيات إبراهيم فيها استغفار لوالديه: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ (إبراهيم: ٤١)، وقريب منه ورد في سورة الشعراء ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ﴾ (الشعراء: ٨٦)، وهو مكي. فلماذا استبعد نولدكه هذه الآية من تطبيق منهجه؟

إن دعوى نولدكه هذه خطأ علمي فادح، أوقعه فيه متابعته العمياء لسنوك هورجرونيه، ورغبته في دعم نظريته المذكورة.

٥- كما أن هذه الآية ليست وحدها في القرآن المكي التي تخبر ببنوة إسماعيل لإبراهيم عليهما السلام؛ ففي سورة الصافات المكية - باعتراف نولدكه[2] - يُشار إلى إسماعيل[3]. صحيح أن اسمه لم يُذكر صراحة؛ إلا أن الآيات تحمل شاهدًا يجعل الحديث منصرفًا إليه؛ ففي الآيات بشريان:

الأولى: بشارة إبراهيم بأن الله سيرزقه بغلام حليم في قوله تعالى في أولها:

(١) راجع مثلًا: تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٥٩، حين قال بمدنية الآية ١٥٧ الأعراف، (١٥٦ حسب فلوجل) ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ استنادًا لوجود كلمة (أمي) فيها.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص*IX*.

(٣) والآيات هي من: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ إلى ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾. [الصافات: ١٠١-١١١].

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾؛ وهو الذي قالت الآيات عنه بعد ذلك مباشرة: إنه رُئِيَ في المنام أنه يُذبح. ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾.

الثانية: بشارته بأن الله سيرزقه بإسحاق ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.

لقد تعين إذن أن تكون البشرى الأولى غير البشرى الثانية التي ذُكر فيها اسم إسحاق. ولقد كانت البشرى الأولى هي ولادة إسماعيل من هاجر بعد عقم سارة الطويل. والبشرى الثانية هي ولادة إسحاق من سارة العقيم وإبراهيم العجوز. فلا يمكن مع هذا أيضًا لنولدكه أن يدعي أن إسماعيل لم يُذكر مع إبراهيم في القرآن المكي.

٦- **بحث مقارن بين المكي والمدني بشأن ذكر إسماعيل مع الآباء:**

لقد فرض علينا نولدكه أن نجري هذا البحث، حين ادعى أنه ابتداء من آيات سورة إبراهيم لن يُحدد الآباء الأُوَل دون إقحام إسماعيل؛ إذ لعله يود المقارنة بين الآيات المكية (التي يُذكر فيها إبراهيم وإسحاق ويعقوب؛ دون أن يُذكر بينهم إسماعيل بلا فاصل)؛ والأخرى المدنية (التي يُذكر فيها إسماعيل - بلا فاصل - مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم جميعًا السلام:

أ- والآيات المكية هي:

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

و﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ۖ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

و﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾.

و﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ الآية[1].

ب- أما الآيات المدنية التي يرى نولدكه أن إسماعيل أُقحم فيها بين من سماهم: الآباء الأُوَل؛ فهي:

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾.

و﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ الآية.

و﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ الآية.

و﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾.

و﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ الآيات[2].

٧- الرد:

إن نولدكه يزعم أن النبي أقحم في القرآن المدني إسماعيل بين الآباء الإسرائيليين، وهو الأمر الذي لم يحصل في القرآن المكي.

(١) الآيات مرتبة هي: يوسف: ٣٨، الأنعام: ٨٤-٨٧، مريم: ٤٩، ٥٨.

(٢) الآيات مرتبة هي: البقرة: ١٣٣، ١٣٦، ١٤٠، آل عمران: ٨٤، النساء: ١٦٣.

ويهدف نولدكه بهذا إلى تدعيم نظريته القائلة: إن النبي كون تصورًا جديدًا عن إبراهيم عليه السلام. كما يهدف من طرف خفي إلى ترويج العقيدة اليهودية في حصرها النبوة في فرع إسحاق دون إسماعيل.

وسأتناول هنا:

أولًا: توجيه عدم ذكر الآيات المكية المذكورة لإسماعيل بشكل متصل مع الآباء الإسرائيليين؛ فأقول:

إنه لا يمكن – مع شيء من الفهم والتجرد – أن تصل القراءة النزيهة للآيات المذكورة، وسياقاتها داخل سورها إلى شيء مما وصل إليه نولدكه بقراءته المغرضة لها.

أ- فبشأن الموضع في سورة يوسف؛ أقول: إن الآية جاءت إعلانًا على لسان يوسف عليه السلام الذي لم يذكر إسماعيل، ومن ثم نقل القرآن هذا الإعلان إلينا كما ورد على لسانه عليه السلام؛ ولو أضاف اسم إسماعيل كما كان يتوقع نولدكه لكان مخالفًا لما نطق به يوسف، وليس هكذا قصص القرآن.

هذا هو الواقع.. ويمكن الاكتفاء به هنا.

ويمكن كذلك أن نضيف إليه جوابًا عن تساؤل: لماذا لم يذكر يوسفُ إسماعيل مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب هنا؟ والجواب هو أن استخدام يوسف لفظ (آبائي) لا يوجب عليه أن يذكر إسماعيل، الذي يُعَدُّ عم أبيه، فلا يدخل وجوبًا بين الآباء، لكنه قد يدخل تجوزًا. وعَدَل يوسف عن هذا التجوز لأمر أظنه يتعلق بالمخاطَبين من المصريين الذين كانوا، بحكم الجوار الجغرافي والاتصال مع فلسطين يعلمون بإبراهيم وإسحاق ويعقوب أكثر من علمهم بإسماعيل، الذي عاش ومات في مكة البعيدة عنهم؛ لذا

اكتفى يوسف بما يحقق غرضه من كونه متبعًا ملة التوحيد التي جاء بها الرسل؛ فاقتصر على ذكر مقام الأبوة المباشرة المتمثلة في أبيه وجديه.

ب- وبشأن الموضع في سورة الأنعام[1]؛ فإن المحور الرئيس الذي تدور حوله هذه السورة، هو معالجةُ قضية العقيدة من شتى جوانبها في مواجهة المشركين، الذين ينفون الوحي جملة ويتنكرون لأصل الرسالة؛ وقد اقتضى هذا بيانَ أن رسالة الله الواحدة إلى أهل الأرض حملها موكب عظيم من الأنبياء عبر القرون؛ وامتدت حتى وصلت إلى محمد ﷺ، وطمأن الله نبيه محمدًا في ثنايا ذلك بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ الآية[2] والمعنى: لا عليك يا محمد!! فإذا كان المشركون قد كفروا بهذه الرسالة الواحدة الخالدة فإنها في غنًى عنهم؛ إذ آمن بها هذا الموكب الكريم والمؤمنون بها في كل وقت. ولما كان معظم الأنبياء الذين جرى ذكرهم هنا – أو كلهم –[3] من ذرية إبراهيم عبر

---

(١) الآيات من ٨٤-٩٠.

(٢) الأنعام: ٨٩ وبعض الآية ٩٠.

(٣) أورد القرطبي (الجامع لأحكام القرآن مجلد ٤ جـ ٧ ص٣١) قول ابن عباس: هؤلاء الأنبياء جميعًا مضافون إلى ذرية إبراهيم؛ وإن كان فيهم من لم يلحقه ولادة من جهته من جهة أب ولا أم؛ لأن لوطًا ابن أخي إبراهيم، والعرب تجعل العم أبًا، كما أخبر الله عن ولد يعقوب أنهم قالوا: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ وإسماعيل عم يعقوب. وقال الإمام محمد عبده (المنار جـ ٧ ص٤٨٨): ذهب سائر المفسرين إلى أن الضمير [في "ومن ذريته"] عائد إلى إبراهيم؛ لأن الكلام في شأنه وما آتاه الله تعالى من فضله، وإنما ذكر نوحًا لأنه جده؛ فهو بيان لنعم الله عليه في أفضل أصوله؛ تمهيدًا لبيان نعمه عليه في الكثير من فروعه". ولقد أشار الرازي (مجلد ٦ جـ ١٢ ص٤١٣) إلى قريب مما أشار إليه محمد عبده، مع أنه ذكر الرأيين في عود الضمير إلى إبراهيم أو إلى نوح عليهما السلام دون أن يُرجح. =

فرع إسحاق ويعقوب؛ اقتضى ذلك عدم ذكر إسماعيل في مقدمة أبناء إبراهيم؛ لأنه لا واحد من الأنبياء المذكورين هنا من ذريته؛ بخلاف إسحاق ويعقوب[1].

ج- وبشأن آيتي سورة مريم؛ فإن الآية الأولى وهي برقم: ٤٩ منها؛ جاءت في مجال بيان إنعام الله على إبراهيم عليه السلام وتعويضه عن اعتزاله قومه؛ بأن رزقه الله إسحاق ويعقوب في ســن متقدمة من امرأة عجوز وعقيم في ذات الوقت؛ وفوق ذلك كله عاش حتى رزق من إسحاق بيعقوب، وصارا نبيين. والإنعام الإلهي في رزقه بإسحاق ويعقوب مع هذه الملابسات - أوضح من الإنعام عليه بولادة إسماعيل من هاجر صغيرة السن، فتمت مراعاة مقام الامتنان الأوضح.

أما الموضع الثاني من سورة مريم (وهو الآية ٥٨) فإنه بعد أن ذكرت السورة الأنبياءَ: زكريا (الآية ٢ وما بعدها) وعيسى (الآية ٣٠ وما بعدها)، وإبراهيم (الآية ٤١ وما بعدها) وإسحاق ويعقوب (الآية ٤٩ وما بعدها)، وموسى (الآية ٥١ وما بعدها)، وإسماعيل (الآية ٥٤ والتي تليها)، وإدريس (الآية ٥٦ والتي تليها) عقبت الآية ٥٨ بأن هؤلاء الأنبياء هم ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ ومعلوم أن ليس واحد من المذكورين من ذرية إسماعيل؛ لذا لم يذكر مع إبراهيم ويعقوب (إسرائيل).

= وقال محمد عبده أيضًا (المنار ج٧ ص٤٨٨-٤٨٩): "وقال بعض المفسرين: إن يونس من ذرية إبراهيم، وإن لوطًا ابن أخيه وقد هاجر معه؛ فهو يدخل في ذريته بطريق التغليب، ويُعد منها بطريق التجوز الذي يسمون به العم أبًا".

(١) وقفت بعد كتابة هذا على قولة الرازي: (التفسير الكبير مجلد ٦ ج ١٢ ص ٤١٢): "فإن قالوا لِمَ لَمْ يُذكر إسماعيل مع إسحاق، بل أخر ذكره عنه بدرجات؟ قلنا: إن المقصود بالذكر هنا أنبياء بني إسرائيل، وهم بأسرهم أولاد إسحاق ويعقوب. أما إسماعيل فإنه ما خرج من صلبه أحد من الأنبياء إلا محمد".

فهل كان من الواجب أن يذكره القرآن بغير حاجة ولا مناسبة، حتى يرضى نولدكه؟؟

هذه هي وجوه عدم ذكر الآيات المكية لإسماعيل بشكل متصل مع الآباء الإسرائيليين. نختصرها في جملة واحدة هي:

لم تكن ثمة مناسبة لذكره.

ثانيًا: توجيه ذكر الآيات المدنية لإسماعيل بشكل متصل مع الآباء الإسرائيليين:

لقد ذُكِر إسماعيل في الآيات المدنية المذكورة[1] مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب؛ لأنه:

أ- لا يوجد ثمة ما يمنع ذكره؛ فهو قد اشترك مع مَن ذُكر من الأنبياء في كل ما أثبتته لهم الآيات المدنية المذكورة:

فالإسلام دينه، كما هو دين غيره من الأنبياء المذكورين معه فيها. ويجب على المسلمين أن يؤمنوا بما أُنزل عليه. وهو لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا. ولقد أوحى الله إلى محمد كما أوحى إليه؛ وما دام الأمر كذلك فليس ثمة ما يمنع ذكره حتى يعد نولدكه ذلك إقحامًا قام به النبي.

كما أن إسماعيل قد ذُكر في هذه الآيات، إما في سياق التدليل على أن الإسلام دين هؤلاء الأنبياء (الذين سماهم نولدكه الآباء الإسرائيليين)[2]؛ أو في سياق الأمر بالإيمان بكل ما أُنزل على الأنبياء من قبل - ومن جملتهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق

(١) راجع: ص٢٦٦.

(٢) البقرة: ١٣٣: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ الآية.

ويعقوب - بالإضافة للإيمان بما أنزل على محمد. وألا يُفرَّق بين هؤلاء الرسل[1]. أو في سياق تأكيد القرآن أن الله أوحى إلى محمد ﷺ مثلما أوحى إلى الأنبياء من قبله، ومنهم: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب[2].

ب- فأين الإقحام في أيٍّ من هذا؟ هل لدى نولدكه ملاحظات على شيء مما أثبته القرآن المدني هنا لإسماعيل؟ إذا كان لديه منها شيء؛ فلماذا لم يصرح به؟ لا مناص إذن من أن نعد دعواه هنا -من حيث المنهج- مجرد دعوى فارغة غير ذات مضمون.

ثالثًا: بعد أن تناولنا بالتفصيل كلًّا من الآيات المكية والمدنية المشار إليها، من حيث ذكرها أو عدم ذكرها إسماعيل بشكل متصل مع الآباء الإسرائيليين؛ بقيت زاوية لا تقل أهمية عما ذُكر، هي: تَعَلّقُ ما لاحظناه من فارقٍ بالجانب العقدي الذي يُعَالَج في كلٍّ:

أ- فمن المعلوم أن محل النزاع مع المشركين في مكة كان منصبًّا حول نفيهم الوحي والرسالة من حيث المبدأ؛ لذا فقد كان اهتمام القرآن متوجهًا في المقام الأول إلى: إثباتهما في ذاتهما، ثم إثباتهما لمحمد ﷺ والأنبياء من قبله - صلوات الله عليهم جميعًا - مع ذكرِ عدد من هؤلاء الأنبياء.

ولما كان الحال أن معظم من ذُكر منهم من ذرية إبراهيم كانوا من فرع إسحاق ويعقوب، ولم يكن واحد قبل محمد ﷺ قد بعث من فرع إسماعيل؛ ناسب ألا يُذكر: إسماعيل بين من سماهم نولدكه (الآباء).

---

(1) البقرة: ١٣٦: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ الآية، وآل عمران: ٨٤: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ الآية.

(2) النساء: ١٦٣: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ الآية.

ب- أما في المدينة؛ فلقد كان محلّ النزاع بين القرآن من جانبٍ؛ وأهلِ الكتاب من جانب آخر مُنصَبًّا في المقام الأول حول نبوة محمد ﷺ وصدقها؛ وليس حول الوحي والنبوة بإطلاق؛ لذا كان الاهتمام متوجهًا في المقام الأول إلى إثباتها له.

ولمَّا كان أهل الكتاب يُرَوِّجُون لمفهوم (حصر النبوة في فرع إسحاق بن إبراهيم دون فرع إسماعيل)؛ فإن القرآن المدني راعَى مُقتضى الحال وأقام الحجة عليهم، وحَرِصَ على هدايتهم وتبصيرهم بالحق، ووضعَ الأمورَ في موضعها الصحيح؛ حتى لا ينخدع بترويجهم أحد. لذا فقد أعاد الاعتبار لإسماعيل الذي كان أهل الكتاب يكتمون كل ما ثبت لديهم عنه من حق، ولا يروجون عنه سوى أنه (ابن الجارية)، وأمر بالإيمان بكل ما أُنزل على الأنبيـاء من قبل - ومن جملتهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب - بالإضافة للإيمان بما أُنزل على محمد. وأمر ألا يُفرَّق بين هؤلاء الرسل[1].

رابعًا: إن القضية الأساسية التي كان من الواجب أن يبحثها نولدكه هنا هي الجواب عن: هل جاوز القرآن الحقيقة فيما قرره عن إسماعيل، سواء في القرآن المدني أو القرآن المكي؟

وهل ما أثبته القرآن المدني لإسماعيل ناقَض شيئًا مما ذكره عنه القرآن المكي؟

وما موقف العهد القديم مما نسبه القرآن لإسماعيل؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة هي التي كان من الواجب أن ينشغل بها نولدكه، وليس مكان نزول ما قرره القرآن بشأن إسماعيل!

(١) البقرة: ١٣٦: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ الآية، وآل عمران: ٨٤: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ الآية.

لقد ذكرنا من قبل أن القرآن المكي ليس فيه ما يناقض كون إسماعيل عليه السلام واحدًا ممن سماهم نولدكـه (الآباء)؛ وأن أسفار اليهود المقدسة ليس فيها ما يناقض ذلك أيضًا؛ بل فيها أنه من نسل إبراهيم، وأنه ابنه البكر، وأن الله أعطى عهده لنسل إبراهيم جميعًا، وأنه بورك، وأن إبراهيم وُعد من قِبَـل الله أن يجعل إسماعيل أمة كبيرة[1].

فما الذي يمنع أن يُذكر إسماعـيل في القرآن المدني مع هؤلاء الآباء، وهو واحد منـهم؟

٨- أما دعوى نولدكه أن إسماعيل قد رُقي في القرآن المدني ليصير مؤسسًا مشاركًا للكعبة؛ معتمدًا على عدم ذكر القرآن المكي مشاركة إسماعيل لإبراهيم في بنائها؛ فمردود عليها بالآتي:

أ- إن القرآن قبل أن يصل بالمسلمين لأن يجعل الكعبة قبلة فقد مهَّد لهذه النتيجة بممهدات؛ منها: أن أَقَـرَّ في وجدان المسلم أن إبراهيم وإسماعيل نبيان من أنبياء الله كريمان؛ وأن ملة إبراهيم هي الحنيفية؛ وأنه كان لإبراهيم علاقة بمكة والبيت الحرام: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ الآية[2]، و﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ الآية (٣٧ إبراهيم). ولقد تم جانب كبير من هذا في القرآن المكي؛ لأنه كان محل نزاع مع المشركين أيضًا.

ب- ولما استقرت هذه الحقيقة؛ بيَّن القرآن في المدينة أن إبراهيم وإسماعيل - وهما بهذا الشأن العظيم الذي اتضحت معالمه للمسلمين في القرآن المكي - قد رفعا قواعد البيت الحرام. وتمت

(١) سبق أن ذكرنا ذلك.

(٢) إبراهيم: ٣٥.

الإشارة إلى هذا في المدينة[1]؛ ولم تتم بنفس الحسم في مكة؛ لأن علاقة إبراهيم بالبيت، وكذلك إسماعيل لم تكن محل نزاع مع المشركين؛ إنما الذي كان محل نزاع معهم هناك؛ هو صلتهما بدين الإسلام، وهي التي عولجت هناك.

* * *

(١) البقرة: ١٢٥: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾، والبقرة: ١٢٧ والتي بعدها: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾.



المبحث الثالث
دعاواه بشأن علاقة النبي بإبراهيم عليه السلام

يناقش هذا المبحث نولدكه فيما ادعاه من أنه لما كَوَّن النبي في المدينة تصورًا جديدًا عن إبراهيم؛ فإنه وصل نفسه به في آيات مدنية، وقَدَّر ملته على نحو خاص، واتجه إلى الكعبة في الصلاة، وأدخلها ومكة في شعائر الحج.

ولنناقش هذه الدعاوى بالتفصيل:

الدعوى الأولى: أن الصلة التي بين النبي وإبراهيم لم توجد إلا في القرآن المدني، وأنها جاءت بتأثير يهودي أو نصراني:

أعيد هنا ترجمة قول نولدكه الذي ذكرته في مطلع هذا الجزء:

"قد أقنع محمد العرب في البداية أن يؤمنوا بما تلقاه المسيحيون من عيسى، وما تلقاه اليهود من موسى، ودعا بتفاؤل غير المؤمنين الذين يحتاجون للمعرفة إلى سؤال العارفين حتى يصلوا إلى معرفة حقيةِ رسالته: الآية ٤٥ النحل و٧ الأنبياء[١]. وتأتي خيبة الأمل في المدينة، إذ إن أهل الكتاب لا يريدون الاعتراف به. لذا وجب عليه أن يبحث عن جهة أعلى مرجعية[٢] لا تعارض نصوص وحيه الأول. ولذا مد يده نحو الأنبياء القدامى الذين لا يمكن لطوائفهم أن يظهروا في مواجهته [يعارضوه]. يصرح بهذا الهدف بكل وضوح في موضع واحد فقط: ١٢٩ البقرة[٣]".

---

(١) ختمت كل آية منهما بـ ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

(٢) عبارته الألمانية هي:

So muß er sich eine über ihre kontrolle erhabene Instanz suchen.

(٣) ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾ الآية.

ويقول[1]:

"Daß sich Muhammed später gerade Abraham am meisten verwandt fühlte, darf nicht Wunder nehmen. galt doch dieser Patriarch den Christen wie den Juden als vollendetstes Muster der Gerechtigkeit und des Glaubensgehorsams, als der «Vater» aller Frommen und der Freund Gottes. Die Bevorzugung Abraham's durch Muhammed hängt weiter aufs engste zusammen mit der Ansicht von Sur. 2.119,121, daß jener der Gründer des mekkanischen Heiligtums sei"

وترجمته:

"لا يجوز لنا أن نستغرب أن يشعر محمد في النهاية[2] بصلة مع إبراهيم؛ فإن هذا البطريرك الذي يُنظر إليه لدى كل من اليهود والنصارى -على حد سواء- على أنه النموذج الأكمل للإخلاص والانقياد للدين، ويعامل كأب لكل الأتقياء وأولياء الله. إن اصطفاء محمد لإبراهيم يتعلق بما يستمد من سورة البقرة، الآيتين ١١٩ و١٢١ من أن إبراهيم هو مؤسس الحرم المكي".

وأقول عن الشق الأول من هذه الدعوى:

١- لقد أوجد القرآن المكي الصلة بين النبي ﷺ وإبراهيم عليه السلام دون أن يتأخر هذا إلى الفترة المدنية؛ قال تعالى في سورة الأنعام المكية[3]: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وقال في سورة النحل المكية أيضًا[4]: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ

(١) ص١٤٧.
(٢) لاحظ تعبير: (في النهاية).
(٣) ١٦١.
(٤) ١٢٠-١٢٣.

﴿حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾. وسأوضح بعد قليل صلة الأبوة الإبراهيمية للنبي والعرب[1].

٢- وليس إبراهيم عليه السلام وحده هو الذي عقد القرآن بينه وبين النبي هذه الصلة؛ فبنَصِّ القرآن المكي والمدني أيضًا نجد أن لكل الأنبياء قبل إبراهيم وبعده مثل هذه الصلة مع محمد ﷺ فكلهم جميعًا أرسلوا بدين الله الواحد:

ففي القرآن المكي: بيَّن الله الصلة بين النبي ومن قبله من الأنبياء من حيث إنه شرع له نفس ما وصى به نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى؛ فقال[2]:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾. ثم قال بعدُ[3]: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

وفي القرآن المدني وُجدت هذه الصلة كذلك:

من حيث وحدة مصدر الوحي لدى جميع الأنبياء؛ قال تعالى[4]: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ

(١) وإن كان التشهد في ختام الصلاة قد شرع في العهد المكي لكان معنى ذلك أن إبراهيم وآله يذكرون في الصلاة منذ العهد المكي، ويُربط بينهم وبين محمد وآله، على الجميع الصلاة والسلام.

(٢) الشورى: ١٣.

(٣) الشورى: ١٥.

(٤) النساء: ١٦٣-١٦٦.

تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾.

ومن حيث إن جميع الرسل مُصطفَون منه تعالى؛ قال[1]: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾.

ومن حيث إن من عقيدة المؤمن عدم التفريق في الإيمان بين أحد من رسل الله؛ قال[2]: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾. وقال أيضًا[3]: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

أما الشق الثاني، وهو ادعاء نولدكه أن الصلة الخاصة للنبي مع إبراهيم عليه السلام قد جاءته بتأثير يهودي أو نصراني، فمردود عليه بالآتي:

١ - إذا كان المقصود بهذه الصلة أُبوة إبراهيم عليه السلام للمسلمين؛ فإن هذه الأبوة هي الأبوة الروحية لكل المسلمين: أبوة النبي والرسول الذي جاءت كل الأنبياء من بعده من ذريته؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾، وقال: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾[4].

وحين يبين القرآن هذه الصلة فهو ليس متأثرًا باليهودية أو النصرانية في ذلك؛ لأنه عارَض أصلًا كون اليهود والنصارى متبعين لإبراهيم؛ فقال: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾

(١) آل عمران: ٣٣.
(٢) البقرة: ٢٨٥.
(٣) النساء: ١٥٢.
(٤) الآية ١٦١ الأنعام ومن الآية ٧٨ الحج.

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ (1).

فكيف يكون القرآن متأثرًا باليهودية أو النصرانية في بيانه الأبوة الروحية لإبراهيم عليه السلام للمسلمين، وهو قد بين ضلال اليهود والنصارى عن ملة إبراهيم؟

وإذا كان القرآن تأثر بالمسيحية في هذه الجزئية المتعلقة بإبراهيم عليه السلام؛ فلم خالفها في الاعتقاد أن الذي يموت يذهب إلى حضن إبراهيم (2)؟

كما أنه ليس مستغربًا أن يعترف المسلمون واليهود والنصارى بفضل إبراهيم عليه السلام؛ يقول الرازي عنه (3): "يعترف بفضله جميع الطوائف والملل؛ فالمشركون كانوا معترفين بفضله مُقرّين بأنهم أولاده، واليهود والنصارى والمسلمون كلهم معظمون له معترفون بجلالة قدره". وقال (4): "ثم إنه عليه السلام سأل ربه فقال: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾ (5). فوجب في كرم الله تعالى أن يجيب دعاءه، ويحقق مطلوبه في هذا السؤال؛ فلا جرم أن أجاب دعاءه وقبل نداءه وجعله مقبولًا لجميع الفرق والطوائف إلى قيام القيامة".

٢- وإذا كان المقصود هنا أبوة إبراهيم للعرب التي قال عنها نولدكه (6): "إنها لا تستدعي أن تتخذ موضوعًا للنقاش"؛ فهي ثابتة أيضًا لا يحتاج القول بها إلى تأثر بيهود أو نصارى؛ فقد كان شعور العرب المستعربة بنسبتهم

(١) البقرة: الآيات: ٦٧، ٦٨، ١٤٠.

(٢) جاء في إنجيل لوقا (١٦: ١٩-٢٢) أنه كان هناك في زمن المسيح عليه السلام مسكين اسمه لعاذر؛ كان لا يجد الطعام؛ وكانت الكلاب تلعق قروحه فمات، فحملته الملائكة إلى حضن إبراهيم.

(٣) التفسير الكبير: المجلد ٦ ج١٢ ص٣٧٥.

(٤) المرجع السابق ص٣٧٦.

(٥) الشعراء: ٨٤.

(٦) راجع هامش ٤١١ ص٢١٠ من هذا الجزء.

لإبراهيم عن طريق ولده إسماعيل عليهما السلام شعورًا عامًّا أكده بحث الحنفاء الحثيث عن بقايا دين إبراهيم عليه السلام في أرض العرب[١].

ويعترف العهد القديم أيضًا بهذه الأبوة؛ فقد جاء فيه أن إسماعيل سكن برية فاران[٢]، وهذا الاسم هو الإطلاق العبري على جبال مكة.

وجاء فيه كذلك قائمة بأسماء أبناء إسماعيل الذين كانوا أصول عدة قبائل في بلاد العرب[٣]، وأن هؤلاء الأبناء "سكنوا من حويلة إلى شور التي أمام مصر، حينما تجيء نحو أشور"[٤]. أي: "شمال جزيرة العرب وفلسطين وأرض مابين النهرين"[٥].

ويقول الأستاذ عبد الوهاب النجار[٦]: "حويلة، هي خولان: قبيلة يمانية تسكن سراة اليمن مما يلي الحجاز؛ وهذا دليل على أن مكة تشملها مساكن إسماعيل وبنيه".

كما يعترف أهل الكتاب أيضًا بهذه الأبوة؛ فلقد ذكر چورچ زنانيري[٧] أن بطرس المبجل *Petrus Vernabiles* (١٠٥٩-١١٥٦م) سمى العرب: (أبناء إسماعيل). كما أن المسيحيين السريان، كما يقول أليكسي جورافسكي[٨]

---

(١) ستأتي الإشارة لذلك بعد قليل.

(٢) الترجمة العربية للعهد القديم تك ٢١: ١٤-٢١، وفيها النص عن إسماعيل: "وسكن في برية فاران"، وكذلك نفس النص في الترجمة الألمانية *Genesis, 21-21*.

(٣) تك ٢٥: ١٢ - ١٨.

(٤) تك: ٢٥: ١٨ وفي النص الألماني:
'Sie wohnten von Hawila an bis nach Sur, das ; östlich von Ägepten liegt, gegen Assur hin " Genesis, 25: 18
وترجمتها: وسكنوا من حويلة إلى صور التي تقع شرق مصر في اتجاه أشور.

(٥) دائرة المعارف الإسلامية مجلد ٣ ص٣٦٠- ٣٦٢.

(٦) قصص الأنبياء ص ١٣٦، ١٣٧ نهاية هامش ١.

(٧) في كتابه بالفرنسية: *L, Eglise etl. Islam (Paris 1969) PP177-178*

(٨) الإسلام والمسيحية ص ٧٢.

"أطلقوا على المسلمين لفظ: (أبناء الجارية)"، ويضيف(١): "طبقًا لقصص التوراة والقرآن؛ فإن العرب تحدروا من نسل إسماعيل بن إبراهيم وهاجر جارية سارة، وبهذا الصدد كتب ماسينون قائلًا: إن تاريخ الجنس العربي يبدأ من دموع هاجر، الدموع الأولى في الكتاب المقدس".

وفي دائرة المعارف الإسلامية(٢) أن "إسماعيل هو أبو العرب الذين كانوا في شمال الجزيرة العربية".

ولعل من المفيد هنا أن أختم هذه الجزئية بقول الأستاذ محمد حسين هيكل(٣):

"إن المنطق ليؤيد رواية التاريخ؛ فإبراهيم الذي خرج من العراق فارًّا من أهله إلي فلسطين وإلى مصر أَلِفَ الترحال وأَلِفَ اجتياز الصحارى. والطريق ما بين مكة وفلسطين كان مطروقًا من القوافل منذ أقدم العصور؛ فلا محل إذًا للريبة في واقعة تاريخية انعقد الإجماع على جملتها".

وإذا كنا نقول بإمكان «انتقال جماعة من أبناء إبراهيم وإسماعيل بعد ذلك من فلسطين إلى بلاد العرب، واتصالهم وإياهم بصلة النسب، وما ندري - وهذا الإمكان جائز عندهم في شأن أبناء إبراهيم وإسماعيل - كيف لا يكون جائزًا في شأن الرجلين بالذات ... وكيف لا يكون بحيث لا يأتيه الريب، وقد ذكره القرآن وتحدثت به بعض الكتب المقدسة الأخرى»(٤).

وأقول إذن: إنه على أي وجه كانت الصلة التي بينها القرآن بين محمد ﷺ وإبراهيم عليه السلام فهي ليست بتأثير من اليهود أو النصارى.

* * *

(١) المرجع السابق ص ١٢٤.

(٢) مجلد ٣ ص ٣٦٠ - ٣٦٢.

(٣) ص١٠٧ حياة محمد في معرض رده على وليم موير.

(٤) ص١٠٧ حياة محمد.

الدعوى الثانية: أن تقدير القرآن لملة إبراهيم والإخبار بأنها كانت الإسلام، وكذا الأمر باتِّبَاعها؛ هي أيضًا وجهات نظر جديدة للنبي في المدينة، وحَدد نولدكه وقت إقرارها بما بعد غزوة بدر؛ زاعمًا أن معظم الآيات التي تشير لذلك، هي بكل يقين مدنية، مشككًا في مكية الباقي منها، مثل آية النحل: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾؛ يقول[1]: "إن الفترة إثر هذه الغزوة [بدر] هي زمن نزول الآيات ٨٧ –١١٣ من سورة آل عمران[2]. وفي هـذه الآيات [كما يقول] تقدير لملة إبراهيم: آيـة [3]٨٩، وإدخال للحج إلى مكة في عبادة الإسلام: آية ٩٠، وما بعدها[4]".

وعن الآية ١٢٤ من سورة النساء[5]؛ وفيها ذكر ملة إبراهيم يقول[6]: "إنها لم تنزل قبل غزوة بدر".

وأقول:

أولًا: فيما يتعلق بتقدير القرآن لملة إبراهيم، وكذا الأمر باتِّبَاعها؛ فإن كل ذلك قد بدأ في مكة، وليس في المدينة:

١- فقد ورد في القرآن المكي: وَصْفُ إبراهيم بالحنيفية وعدم الشرك؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وقال على لسان إبراهيم: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

كما أُمر النبي في القرآن المكي أن يتبع الفطرة، فيكون حنيفًا غير مشرك؛

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٩١ – ١٩٢.

(٢) [من: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الآية إلى: ﴿قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، وفيها مواجهة مع اليهود، وأمر باتباع ملة إبراهيم، وإشارة إلى البيت الحرام بمكة، وفرض الحج إليه على المستطيع ... إلخ]. [المؤلف].

(٣) ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

(٤) ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ الآية، والتي تليها.

(٥) ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾.

(٦) ص٢٠٣-٢٠٤.

قال تعالى: ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾، وقال: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، وقال: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ﴾ الآية[1].

إن نولدكه لم يدَّع أن آياتِ الأنعام، ويونس، والروم مدنية هي الأخرى.. وأتساءل الآن: إذا كانت هذه الآيات قد تضمنت أن إبراهيم كان حنيفًا ولم يكن مشركًا، وأن الله أمر رسوله أن يكون حنيفيًّا؛ لأن ذلك هو الفطرة؛ وإذا كان نولدكه لم يدع مدنيتها، فكيف ساغ له أن يجازف بهـذا الحكم؟

٢- كما أُمِرَ النبي صراحة في القرآن المكي أن يتبع ملة إبراهيم؛ قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾. وقال الله آمرًا نبيه محمدًا ﷺأن يعلن أن الله هداه إلى صراط مستقيم؛ هو ملة إبراهيم؛ وهي الحنيفية: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[2].

بعد اتضاح أن كل هذه آيات مكية؛ نخلص إلى أن الأمر باتِّبَاع ملة إبراهيم كان مكيًّا؛ وليس وجهة نظر جديدة للنبي في المدينة؛ كما زعم نولدكه دون أي سند علمي يسوغ له ذلك.

٣- لكن نولدكه يفاجئنا بتشكيكه في مكية آية النحل المذكورة أعلاه: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾؛ ثم لا يكتفي بهذا، بل يحكم بيقين أنها مدنية؛ يقول[3] عنها:

"إن الأصل المكي لها محل شك[4]؛ لأن معظم الآيات التي هي مثل هذه،

(١) الآيات مرتبة هي: النحل: ١٢٠، الأنعام: ٧٩، يونس: ١٠٥، الروم: ٣٠، ٤٣.
(٢) النحل: ١٢٣، الأنعام: ١٦١.
(٣) ص١٤٦ - ١٤٧.
(٤) أَستمِدُّ أدلة الحجج الآتية من: سنوك هورجروني *Snouck Hurgronje*: الأعياد المكية، طبعة=

وتشير إلى الإسلام على أنه دين إبراهيم أو ملة إبراهيم: ١٢٩و١٣٤البقرة، و ٨٩ آل عمران، و١٢٤النساء، و٧٧ الحج[١]؛ حسب مضمونها الكامل هي بكل يقين مدنية. ويتقوى هذا الظن بأسباب داخلية؛ فقد أقنع محمد العرب في البداية أن يؤمنوا بما تلقاه المسيحيون من عيسى، وما تلقاه اليهود من موسى، ودعا بتفاؤل غير المؤمنين الذين يحتاجون للمعرفة إلى سؤال العارفين حتى يصلوا إلى معرفة حقيةِ رسالته: الآية ٤٥ النحل، و٧ الأنبياء[٢]. وتأتي خيبة الأمل في المدينة؛ إذ إن أهل الكتاب لا يريدون الاعتراف به. لذا وجب عليه أن يبحث عن جهة أعلى ليتخذها مرجعية؛ بحيث لا تعارض نصوص وحيه الأول. ولذا مـد يده نحو الأنبياء القدامى الذين لا يمكن لطوائفهم أن يظـهروا في مواجهتـه [يعارضوه]. يصرح بهذا الهدف بكل وضوح في موضع واحد فقط: ١٢٩ البقرة[٣]».

٤- **لكن تشكيكه هذا حوى عدة أخطاء:**

أ- أنه لم يعتمد فيه على أية رواية إسلامية تدعم حكمه؛ اللهم إلا روايته عن المستشرق سنوك هورجروني!![٤] فالروايات الإسلامية لا يذكر

= ليدن ١٨٨٠ ص٢٨-٤٠. يبرز هذا المؤلف أيضًا، وبحق في الرسائل المتأخرة أهمية إبراهيم لتطور موقف الوحي المحمدي المبكر. (نولدكه).

(١) الآيات مرتبة هي: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ الآية، و﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾ الآية، و﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، و﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، و﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾. ولقد نسب نولدكه ص ٢١٥ إلى عمر بن محمد - دون أن يذكر اسم كتاب - أن الآيات ٧٥ إلى ٧٨ من سورة الحج: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ الآية، إلى آخر السورة - وفيها أن الإسلام هو ملة إبراهيم الذي هو أب للمسلمين - تعد مدنية؛ وذلك بسبب إعلان الجهاد".

(٢) ختمت كل آية منهما بـ ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

(٣) ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾ الآية.

(٤) راجع هامش ٤ من الصفحة السابقة.

فيها كونها مدنية؛ فالواحدي وابن حجر والسيوطي[1] لا يستثنون من آيات سورة النحل المكية؛ فيجعلوها مدنية؛ سوى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ الآية ١٢٦ والتي بعدها.

ب- أنه رأى مدنيتها بناء على دعواه مدنية معظم الآيات التي لها نفس المضمون[2]. وهو بهذا يضعنا - على فرض صحة دعواه - أمام قاعدة لا يحتمل كلامه غيرها؛ هي: أنه إذا كانت قد ثبتت مدنية بعض الآيات التي تناولت حقيقة تاريخية معينة؛ فإن هذا يعني مدنية الآيات الأخرى التي تناولت الحقيقة التاريخية ذاتها، أو حقيقة أخرى على علاقة بها، يقينًا أو احتمالًا. وهذه القاعدة واضحة البطلان؛ إذ إن كثيرًا من الحقائق التاريخية[3] عولجت في القرآن المكي والمدني على حد سواء؛ وإن اختلف السياق الذي ترد فيه هذه الحقيقة، والزاوية التي تعالج من خلالها في هذا السياق، والضوء المراد تسليطه عليها.

ج- أنه اعتمد في زعمه مدنيتها على ما سماه: الأسباب الداخلية التي عندما نقرؤها نجده يعني بها: ما ادعاه من تحول النبي في البحث عن مرجعية من أهل الكتاب إلى إبراهيم؛ رغم أن ثبوت دعوى التحول تلك يلزمه -إلى جانب أدلة أخرى- أن يثبت أولًا مدنية هذه الآية. فجعلنا نولدكه إزاء هذه الصيغة غير المنطقيـة:

مدنية الآية المذكورة دليل على تحول النبي في البحث عن مرجعية.

وتحول النبي في البحث عن مرجعية دليل على مدنية الآية المذكورة.

(١) الواحدي: أسباب النزول صفحات ٢٣٣-٢٤٠ وابن حجر: الفتح ج٩ ص٤١ في شرحه للحديث رقم (٤٩٩٦)، والسيوطي: لُباب النقول، صفحات ١٩٣-١٩٧.

(٢) انظر مناقشتي له فيما مضى.

(٣) وغيرها عند التحقيق.

فجعل كلًّا منهما بالنسبة للآخر دليلًا ومستدلًّا عليه.

د- وعلى فرض صحة زعمه مدنيتها، ووصوله بهذا إلى القول بأن الأمر باتباع إبراهيم مدني؛ فماذا عساه قائلًا في آية الأنعام: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا﴾[1]؟ حيث يأمر الله فيها نبيه محمدًا أن يعلن أن الله هداه إلى صراط مستقيم؛ هو الحنيفية ملة إبراهيم، ومعلوم أنه لا اختلاف من حيث المضمون بين اتباع ملة إبراهيم، والهداية إلى ملة إبراهيم.

إن نولدكه لم يلتفت لهذه الآية فأفلتت لحسن الحظ من قبضة أحكامه.

ثانيًا: فيما يتعلق بزعمه مدنيةَ إخبار القرآن أن ملة إبراهيم كانت الإسلام؛ فالحق أن الآيات التي تشير إلى ذلك صراحة مدنية؛ وهي: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[2]، و﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾ الآية[3]. وأن الذي ورد في المكي: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[4]. وقول الله على لسان إبراهيم: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[5].

فصحيح أن القرآن المكي لا يذكر بصريح اللفظ أن إبراهيم كان مسلمًا؛ في حين أن القرآن المدني ذكر ذلك صراحة؛ لكن هذا لا يمكن أن يفيد نولدكه في دعواه أن وصف إبراهيم بالإسلام كان خصيصة للمرحلة المدنية. وذلك لأن القرآن يسوي في الإطلاق بين الإسلام والحنيفية؛ يتضح ذلك من خلال الآتي:

١- إن بعض الآيات المدنية -مَثلُها في ذلك مَثَل الآيات المكية - أثبتت

---

(١) الأنعام: ١٦١.
(٢) آل عمران: ٦٧.
(٣) الحج: ٧٨.
(٤) النحل: ١٢٠.
(٥) الأنعام: ٧٩.

الحنيفية لإبراهيم دون أن يرد فيها وصفه بالإسلام؛ قال تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾، و﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾. والاقتصار عند الحديث عن إبراهيم في بعض الآيات المدنية على وصفه بالحنيفية فقط؛ لا يعني مطلقًا استبعادَ وصفه بالإسلام فيها؛ فلِم يُتوقع هذا الاستبعاد في المكي فقط؟ إن القرآن يكمل بعضه بعضًا.

٢- كما أن بعض الآيات المدنية سوَّت في الإطلاق بين (إسلام الوجه لله)، و(اتباع ملة إبراهيم حنيفًا)، وبينت أنهما شيء واحد؛ قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾(١) ؛ فقد بينت الآية أن اتباع الإنسان ملة إبراهيم حنيفًا هو إسلام الوجه لله.

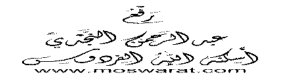
٣- كما ورد في بعض الآيات المدنية أيضًا أن ملة إبراهيم - التي أُمر النبي في مكة باتباعها - هي الإسلام لله؛ فقد جاء على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾، و﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾(٢) .

نخلص إذن إلى أن (إثبات القرآن المكي أن إبراهيم كان قانتًا لله حنيفًا، وأنه وجّه وجهه لله).. هذا الإثبات ينطوي بالضرورة على إثبات (أنه كان مسلمًا)؛ حيث ظهر لنا أن القرآن يُسَوي في الإطلاق بين الإسلام والحنيفية. وبهذا تبطل دعوى نولدكه أن حديث القرآن عن أن الإسلام هو دين إبراهيم يُعد وجهة نظر جديدة للنبي في المدينة. ويبطل استدلال نولدكه بهذه الدعوى على تحول النبي إلى إبراهيم مرجعية.

ثالثًا: أما نَفْيُ كونِ إبراهيم عليه السلام يهوديًّا أو نصرانيًّا فقد نزل هذا النفي في المدينة، وهذا هو المناسب، ولا يُتصور نزوله في مكة، حيث لم يكن ثمة جدل بهذا الشأن بين أهل الكتاب، والنبي يَستدعي أن ينزل الوحيُ بذلك. ولنأخذ مثلًا الآيات: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ

(١) النساء: ١٢٥.

(٢) البقرة: ١٢٨، ١٣٠.



لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ [1] وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[2]؛ فهل كان يتوقع نولدكه أن تنزل هذه الآيات الكريمة وأمثالها بمكة، فيُخاطَب بها أهلُ الكتاب المقيمون بالمدينة في حين أن الرسول ما زال بمكة؟

إن الحاجة لتقرير هذه الحقيقة (التاريخية والعقلية في آن معًا) لم تكن قد نشأت بعدُ لدى الجماعة المسلمة؛ لذا تَرَكَ القرآن إقرارها لوقت الحاجة إليها لتكون عندئذ أوقع وأكثر تأثيرًا.

وأرى أن هذه مناسبة لأشير إلى طرف من منهج القرآن في عرض الحقائق المتعلقة بتاريخ العقيدة. إن القرآن يريد أن يربي المسلمين على هذه الحقائق بشكل يخالط العقل والقلب معًا، ولا يتأتى هذا بالتقرير النظري المباشر لها؛ لذا فإن المقطع القرآني المعين لا يعرض تلك الحقائق في نظريات مجردة جامدة معزولة عن الواقع، وإنما يعرضها حية متحركة تلامس الظرف الزماني والمكاني لنزوله. وتطبيق هذا في الشأن الذي معنا أننا نلاحظ أنه في حين لم يتطرق القرآن المكي إلى نفي يهودية إبراهيم ونصرانيته فإنه نَفَى كونه من المشركين؛ لأن طرح هذه الحقيقة التاريخية الأخيرة بشأنه هي التي تناسب الظرف المكي. فهل لم تفلح السنوات الطوال التي قضاها نولدكه مع القرآن في جعله يفهم منهجه؟

***

الدعوى الثالثة: أن الاتجاه للكعبة قبلة للصلاة يأتي في سياق التصور الجديد عن إبراهيم؛ يقول[3]:

"إن سبب تحويل قبلة الصلاة الأورسالمية يندرج فيْ إطار التصور الجديد عن أديان الوحي القديمة، الذي ناله محمد بالتدريج في المدينة؛ ففي حين أنه كان يشعر في الماضي

(١) حادثة جدال أهل الكتاب فيما بينهم في شأن إبراهيم رواها ابن هشام (ج٢ ص٣٦٠).
(٢) آل عمران: ٦٥-٦٧.
(٣) ص١٧٥ الهامش.

أنه وثيق الصلة باليهود والنصارى؛ فقد حركه إخفاق دعايته بين هؤلاء إلى أن يولي وجهه للارتباط بآخَرَ؛ وجده أخيرًا في دين إبراهيم الذي ربط الوحي بينه وبين الكعبة[1]، ولذا أصبح مكان الطقوس الوثنية حرمًا للإسلام، واتخذ مكانًا مثل هذا قبلة للصلاة، و كما كانت أورسالم بالنسبة لليهود. إن القبلة المكية التي وجب على محمد – حسب نظريته عن دين إبراهيم – أن يعدها الحق الأوحد؛ لم تقتصر على رفع إحساس المسلمين بذاتهم الذي شكل عائقًا جديدًا بين اليهود المواجهين المستنكرين وبين الإسلام[2]؛ وإنما أيضًا سهلت الدعاية بين القبائل الوثنية".

ويقول[3]:

"يحاول محمد في الآيات من ١١٦–١٣٥ من سورة البقرة[4] إثبات أن الكعبة ودين إبراهيم كانا أفضل بكثير من اليهودية. وما كان يلمح به قليلًا أو كثيرًا في هذه الآيات والتي قبلها؛ يشير إليه بوضوح صراحة في الآيات من ١٣٥–١٤٥ [5] التي فرض فيها على المسلمين صرف الوجه في كل الصلوات جهة الكعبة، ويخبر القرآن هنا أن كثيرين سيأخذهم الانزعاج بسبب هذا[6]".

وأقول: إن خلاصة دعواه هنا أن النبي كان في البداية وثيق الصلة باليهود والنصارى؛ لكن بعد إخفاق دعايته بينهم ولى وجهه نحو إبراهيم، فاتخذ الكعبة قبلة؛ وهذا التحول يندرج تحت الإطار الذي يزعمه نولدكه، وهو (التصور الجديد الذي حصله النبي

(١) يعترف نولدكه بالوحي إلى محمد ﷺ إذن.

(٢) لم يكن اليهود بحاجة لعائق بينهم وبين الإسلام؛ فقد تنكروا له من البداية، وجعلوا أنفسهم في موقف العداء له. [المؤلف].

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٧٧.

(٤) الآيات من ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إلى ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ﴾ الآية.

(٥) من: ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡ﴾ الآية إلى ﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ﴾ الآية.

(٦) يحيل نولدكه هنا إلى كتاب سنوك هورجروني *Snouck Hurgronje,*: الأعياد المكية.

بالتدريج عن إبراهيم عليه السلام في المدينة) أو تحول النبي إلى إبراهيم ليتخذه مرجعية، وأرد بالآتي:

١- إن تحول النبي إلى الكعبة كقبلة لم يكن رد فعل على عدم إيمان اليهود به؛ لأن هذا التحول ووقته كان أمرًا من الله تعالى، لم يكن للنبي فيه اختيار؛ ولو كان للنبي مثل هذا الاختيار لما تأخر في التحول إلى الكعبة؛ فلقد كان وقت اتخاذه بيت المقدس قبلة يَوَدُّ لو تحول للكعبة؛ لكنه وهو الوقاف عند أمر ربه لا يتجاوزه ولا يقدم بين يديه؛ ما كان ليفعل ذلك. وكان كل ما يفعله بهذا الشأن أن يقلب وجهه في السماء منطويًا قلبه على رجاء خَفِيٍّ لربه أن يأمره بذلك، لكن مع حياءٍ أن يعبر عن ذلك بلسـانه.

ولقد أشار القرآن إلى هذا فقـال: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾[1] .

٢- فإذا كان الأمر كذلك.. فكيف نفهم تأخرَ الأمر بتحويل القبلة ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا بعد الهجرة[2] ؟

هل يمكن أن يفسر على النحو الذي فسره به نولدكه؟..

إن القرآن يبين أن الأمر بتحويل القبلة سُبِق بعدة حقائق بشأن إبراهيم وإسماعيل ومِلَّتِهِمَا، وكذلك بشأن بيت الله الحرام؛ فيما يشبه أن يكون مقدمة تمهيدية للأمر بتحويل القبلة؛ وأعني بهذا الآيات: ١٢٤-١٤١ من سورة البقرة[3] التي تشير إلى إمامة إبراهيم، وقيامه هو وإسماعيل برفع قواعد البيت وتطهيره للعابدين، وجعله بيتًا لله وحده. كما تشير إلى كون إبراهيم وسائر الأنبياء مسلمين وليسوا يهودًا أو نصارى. وتشير كذلك إلى

(١) البقرة: ١٤٤.

(٢) هذا التحديد الزمني من حديث البراء رضي الله عنه البخاري بشرح ابن حجر ج٨ ص ١٧١ رقم (٤٤٨٦).

(٣) من ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ إلى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾.

أن صبغة الله هي اتباع ملة إبراهيم كما عرفها القرآن؛ وهي في نفس الوقت ملة يعقوب وبنيه من بعده. وتبين الآيات أن السفيه وحده هو الذي يتنكب تلك الملة؛ ومن ثم فيجب على النبي وأهل الكتاب اتباعها. كما تقرر الآيات وراثة النبي إمامة إبراهيم[١]. هذه هي المقدمة التي سَبَقت الأمر بتحويل القبلة، وأراها ضرورية[٢].

٣- فلقد تأخر الأمر الإلهي بتحويل القبلة حتى تستقر هذه الحقائق في وجدان المسلمين؛ فنحن نعلم أنه حين أمر الله تعالى بتحويل القبلة إلى بيته الحرام كانت الأصنام ما زالت تحتل باحته، وتضفي على أجوائه طابعًا وثنيًّا زائفًا؛ فلو كان الأمر بالاتجاه إليه في الصلاة قد صدر من قِبَل الله في بداية العهد المدني أو قبله؛ دون ما أشرت إليه من تمهيد تأصيلي عقدي يبين صلة دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بالبيت الحرام؛ لأمكن للحملات التشكيكية التي صدرت من اليهود بهذا الشأن أن تُحدث بعض التأثير السلبي في نفوس بعض المسلمين؛ وألا تكون استجابة المسلمين لأمر الله بالاتجاه للكعبة بنفس القدر الذي حصل عندما قُدِّم للأمر بتحويل القبلة بذلك التمهيد.

لذا فإن الترتيب المنطقي يقتضي أن يتم التأصيل من كافة الجوانب أولًا لعلاقة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بالكعبة؛ وأن يُزال من وجدان المسلمين أي غبش عقدي يفرضه الواقع حول أصالة النظر للكعبة كبيت الله. فلقد أخَّر الله تحويل القبلة إلى الكعبة إلى أن ينطبع في وجدان المسلم وشعوره أنها بيت التوحيد الخالص لله تعالى. ثم لما استقر هذا جعلها الله قبلة للمسلمين.

(١) الآيتان: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، و﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾.

(٢) كما أن القرآن بعرضه هذه الحقائق في هذه المقدمة؛ جعل المسلمين يعتبرون وجود الأصنام حول الكعبة – مهما طال زمنه – مجرد لحظة عابرة استثنائية يمكن تجاوزها والعودة بعدها إلى الأصل. كما جعلهم يتوقعون أن عليهم أن يكونوا أداة لتحقيق هذا.

من هذه الزاوية وحدها يجب أن يُنظر لتأخر تحويل القبلة؛ وليس من زاوية وجود (تصور جديد حصله النبي عن إبراهيم عليه السلام في المدينة) أو (تحول من قبل النبي في البحث عن مرجعية)، أو حتى من زاوية كونه رد فعل على كفر اليهود.

٤- وإذا لم تكن الرغبة في التحول عن اليهود إلى إبراهيم ليست هي السبب في تغيير القبلة. فما السبب إذن؟ إن الآيات الآمرة بتحويل القبلة تبين ما يمكن أن يكون أسبابًا لهذا التحويل:

أ- فالجهات - كما يقول الشيخ محمد عبده[(١)]: "كلها لله تعالى لا فضل لجهة منها بذاتها على جهة؛ وأن لله أن يخصص منها ما شاء فيجعله قبلة لمن يشاء، وهو الذي يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم"؛ قال تعالى ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[(٢)].

ب- كما أن هذه القبلة الجديدة علامة على تميز ووسطية الأمة المسلمة[(٣)]، بحيث لا تتبع قبلة كان اليهود يتبعونها؛ بل يكون لها قبلة خاصة علامة على الخصوصية؛ قال تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ الآية[(٤)].

ج- وأن تولية الوجه شطر المسجد الحرام هي الحق من الله تعالى،

(١) ص٤ ج٢ مجلد ١ تفسير المنار.

(٢) البقرة: ١١٥، ١٤٢.

(٣) ورد في أحكام القرآن للجصاص (ج١ ص٨٦): "قيل: إنهم كانوا أُمروا أن يتوجهوا إلى بيت المقدس ليتميزوا عن المشركين الذين كانوا بحضرتهم يتوجهون إلى الكعبة؛ فلما هاجر الرسول إلى المدينة كانت اليهود المجاورون للمدينة يتوجهون إلى بيت المقدس؛ فنقلوا إلى الكعبة ليتميزوا من هؤلاء، كما تميزوا من المشركين بمكة".

(٤) البقرة: ١٤٣.

وأهل الكتاب يعرفون ذلك؛ قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[1]، وقال: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ الآية[2].

د- وأن تولية الوجه شطر المسجد الحرام تقطع على اليهود قالةَ السوء التي كانوا يتفوهون بها في أثناء اتخاذ بيت المقدس قبلة؛ من قبيل: "يتبع قبلتنا ويوشك أن يتبع ديننا"؛ قال تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[3].

هـ- وأنها تُشعر بتوجيه قصد المسلمين وهمتهم نحو تطهير هذا البيت من الأصنام؛ ليصلوا في النهاية إلى إعادته إلى سابق عهده كبيت لتوحيد الله، منزه عن مظاهر الشرك؛ ويُفهم هذا من وعد الله لهم في آخرِ آيةٍ معنا: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[4]؛ وهي تشبه وعد الله لرسوله في مطلع سورة الفتح: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾؛ وقد عُدَّت الأخيرة بُشْرَى بفتح مكة.

ذكر الشيخ محمد عبده[5]: "أن الكعبة كانت في أول الإسلام مشغولة بالأصنام والأوثان، وكان سلطان أهل الشرك متمكنًا فيها، والأمل في انكشافه عنها بعيدًا؛ فصرفه الله أولًا عن استقبال بيت مدنس بعبادة الشرك، إلى بيت

(١) البقرة: ١٤٤.
(٢) البقرة: ١٤٩.
(٣) البقرة: ١٥٠.
(٤) الآية نفسها.
(٥) تفسير المنار مجلد ١ ج٢ ص٢١-٢٢.

المقدس قبلة اليهود؛ الذين هم أقرب من المشركين إلى ما جاء به من التوحيد والتنزيه. ولما قرب زمن تطهير البيت الحرام من الأصنام والأوثان وعبادتها وإزالة سلطة الوثنيين عنها؛ جعله الله قبلة للموحدين؛ ليوجه النفوس إليه؛ فيكون ذلك مقدمة لتطهيره وإتمام النعمة والاستيلاء عليه والسير فيه على ملة إبراهيم من التوحيد والعبادة الصحيحة لله تعالى".

***

الدعوى الرابعة: زعم نولدكه أن إدخال الحج إلى مكة في عبادة الإسلام؛ يأتي كذلك في سياق التصور الجديد عن إبراهيم؛ قال[١]:

"إن الفترة إثر هذه الغزوة [بدر] هي زمن نزول الآيات ٨٧-١١٣ من سورة آل عمران[٢]. وفي هذه الآيات [كما يقول] تقدير لملة إبراهيم: الآيات ٨٩ [٣]، وإدخال للحج إلى مكة في عبادة الإسلام: آية ٩٠ وما بعدها[٤]".

وقال[٥] عن الآيات ١٨٥-١٩٩ من سورة البقرة[٦]:

"تُقدم هذه الآيات، باستثناء الجزء من ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ في الآية ١٩٦ إلى نهاية الآية ١٩٨ [٧]، الذي يُحتمل أن يكون مكيًا؛ مجموعة من القواعد التي تتعلق بالمنطقة

---

(١) ص١٩١ - ١٩٢.

(٢) من: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الآية إلى: ﴿قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، وفيها مواجهة مع اليهود، وأمرٌ باتباع ملة إبراهيم، وإشارة إلى البيت الحرام بمكة، وفرض الحج إليه على المستطيع ... إلخ. [المؤلف]. من هذه الآيات: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

(٣) ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

(٤) ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ الآية، والتي تليها.

(٥) ص١٨٠.

(٦) من ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ إلى ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

(٧) يشير إلى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم =

الحرام في مكة؛ وبهذا يظهر بلا شك أصلها المدني. لكن لا يجزم بشيء بشأن ترتيبها الزمني. على أنه يمكن أن يصلح مؤقتًا أنها: تأتي من ناحية بعد آيات مثل ١٢٤ النحل[١] و١١٩ و١٢١ البقرة[٢]؛ التي فيها التصورات الرئيسة عن الكعبة؛ ومن ناحية أخرى ترجع إلى السنوات ٦، ٧، ١٠ التي قام فيها محمد بالحج، وما ينتمي إليه من زيارة (عمرة)".

وأقول هنا:

لم يكن تشريع الحج في شكله الأخير عنصرًا من عناصر تصور جديد، حصَّله النبي ﷺ عن إبراهيم عليه السلام في المدينة كما ادعى نولدكه؛ وذلك للآتي:

١-أ- على المستوى النظري؛ فإن تقدير الوحي للكعبة وتحريم مكة أُوحي إلى النبي في مكة؛ ففيها نزلت الآيات الآتية:

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾، و﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ الآية، و﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾، و﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، و﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، و﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾[٣].

وقال النبي عند الهجرة من مكة[٤]: «**والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت**».

= مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

(١) ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، ولقد سبق أن بينت أن هذه الآية ليست مدنية.

(٢) ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ الآية، و﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

(٣) أرقام الآيات وسورها بالترتيب: قريش: ٣، إبراهيم: ٣٧، الإسراء: ١، النمل: ٩١، القصص: ٥٧، العنكبوت: ٦٧.

(٤) سنن ابن ماجه ج٢ ص١٠٣٧ رقم (٣١٠٨).

وحتى بالنظر إلى ما سميت أو وصفت به الكعبة؛ فالفارق ضئيل جدًّا في ذلك بين القرآن المكي والقرآن المدني؛ إذ نلاحظ أنها سميت في القرآن المكي: ﴿ٱلْبَيْتِ﴾، و﴿بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾، و﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[1]. وتكرر ذلك في القرآن المدني - ما عدا لفظ ﴿بَيْتِكَ﴾[2]. وزِيدَ الآتي: ﴿بَيْتِيَ﴾، و﴿ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾، و﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾، و﴿ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾[3]. وكلها - كما لاحظنا - لها أصل في القرآن المكي ما عدا وصف البيت بـ (العتيق)، وتسميته (كعبة)، وهو فارق ضئيل لا يتيح لنولدكه أن يدعي أن ثمة تصورًا جديدًا عن الكعبة حصَّله النبي في المدينة.

ب- إن نولدكه - صاحب الترتيب الزمني لآيات وسور القرآن - لا ينتبه إلى أن تقدير القرآن للكعبة لم يأت فقط في المرحلة المدنية؛ بل كان واضحًا منذ بداية الطور المكي الأول حسب ترتيبه هو، وهذا أمر غريب حقًّا؛ لكن الأغرب منه أن يأتي مستشرق ألماني لاهوتي، هو «باول شفارتزيناو» *Paul Schwarzenau*، ويستخدم ترتيب نولدكه نفسه، فيصل منه إلى ما لم يستطع نولدكه أن يصل إليه منه؛ حيث يشير «شفارتزيناو» - في معرض رده على «رودي بارت» الذي يتابع «هورجرونيي» و«نولدكه» في هذا الادعاء- إلى أن موقف القرآن من الكعبة لم يتغير؛ يقول[4]:

"لا يوجد في القرآن أدنى أثر لجدل ضد الكعبة. إن محمدًا لم يُسَوّ أبدًا *niemals.... In eins geworfen* بين بيت العرب المقدس وبين عبادة الأصنام[5] حولها. فالله - وليس أي إله محلي - هو رب البيت، سورة

(١) المواضع بالترتيب هي: ٣ قريش، ٣٧ إبراهيم، ١ الإسراء.

(٢) في الأنفال ٣٥، و البقرة ١٢٥، ١٢٧، ١٥٨، وآل عمران ٩٦، ٩٧، والتوبة ٧، ١٩، ٢٨، والحج ٢٥، والفتح ٢٥، ٢٧.

(٣) أرقام الآيات وسورها بالترتيب هي: ٢٦ الحج، و٢٩، ٣٣ الحج، و٢ و٩٧ المائدة.

(٤) *Korankunde für Christen (Ein Zugang zum heiligen Buch der Moslems) S. 87, 88.*

(٥) هو يقصد أن النبي طَوّحَ بعبادة الأصنام وهاجمها، لكنه لم يفعل الشيء نفسه مع الكعبة رغم أن الأصنام كانت حولها.

قريش الآية ٣ [١]، وهي تأتي في بداية الطور المكي الأول، وسورة النمل الآية ٩١ [٢]، وهي تأتي في الطور المكي الثاني... إذن لم ينكر محمد منذ البداية لا الحرم ولا الحج.. ولا حق اللجوء إلى الكعبة *das Asylrecht*؛ بل أنكر فقط ما أدخل عليها من الشرك وتعدد الآلهة".

ونولدكه نفسه لا يستطيع أن يتجاهل كون تقدير الكعبة ورد في القرآن المكي، فهو يقول عن سورة قريش[٣]:

„Die wohlwollende Stimmung, welche hier zum Ausdrucke kommt, deutet darauf hin, daß die Sura noch vor dem Konflikte mit diesem Stamme entstanden ist. Sonst wird der Ka'ba in keiner mekkanischen Sura mehr gedacht“.

وترجمته:

"أجواء الرضا التي تنطبع علينا من جراء هذه السورة تدل على أنها نشأت قبل الأزمة مع هذه القبيلة. ولن نجد الكعبة مذكورة في أية سورة مكية غير هذه".

ونولدكه حين يدعي عدم ذكر الكعبة في أي سورة مكية غير سورة قريش، فهو يكذب ويزور بشكل فج، وقد ذكرتُ قبل قليل الآيات المكية التي فيها ذكرٌ وتقديرٌ وتكريمٌ للكعبة، وهي: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ الآية، و﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾، و﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، و﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾، و﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡ﴾[٤].

(١) ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾.

(٢) ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾.

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٩١.

(٤) أرقام الآيات وسورها بالترتيب: ٣ قريش، ٣٧ إبراهيم، ١ الإسراء، ٩١ النمل، ٥٧ القصص، ٦٧ العنكبوت.

وليس لدي من تفسير سوى أن اهتمام نولدكه بدعم نظريته جعله يسقط من اعتباره هذا الموقف القرآني المعظم للكعبة منذ بداية نزول القرآن.

٢- وعلى المستوى التطبيقي من النبي نجد الآتي:

أ- لقد كان النبي قبل أن يوحى إليه يطوف بالكعبة ويعظمها، باعتبارها رمزًا على توحيد الله تعالى؛ قال عبد الله بن الزبير[١]: "كان رسول الله يجاور في حراء... وإذا قضى جواره كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره: الكعبة، قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعًا، أو ما شاء الله من ذلك...".

ب- وفي بدايات بعثته كان يطوف بها هو والمسلمون معه؛ حيث ورد أن رسول الله ﷺ "أقبل حتى استلم الركن ثم مر بهم (أي بمشركي مكة) طائفًا بالبيت" إلخ[٢]. ولم يرد أنه أقلع عن ذلك طوال المرحلة المكية.

ج- كما أنه صحيح أن تشريع الحج بتفاصيله لم يتم إلا في سنوات ما بعد الهجرة، ولم يكتمل إلا بحجة الوداع التي قال فيها النبي: «**لتأخذوا مناسككم؛ فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه**»[٣].

هذا صحيح... لكن ثبت أن رسول الله ﷺ أدى الحج على نحوٍ ما في العهد المكي قبل الهجرة؛ فعن جبير بن مطعم قال: أضللت جملًا لي يوم عرفة، فانطلقت إلى عرفة أبتغيه، فإذا أنا بمحمد واقف في الناس بعرفة على بعيره عشية عرفة، وذلك بعدما أنزل عليه... الحديث[٤]. ويقول ابن حجر

(١) تاريخ الطبري ج٢ ص٣٠٠، وابن هشام السيرة النبوية ج١ ص١٤٧.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ج ١ ص١٤٨، وانظر ص١٧٣.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي المجلد ٣ ج٩ ص٤٤ - ٤٥ رقم (١٢٩٧).

(٤) مسند أحمد ج٤ ص٨٤ رقم (١٦٨٢٢)، وورد بلفظ مقارب في المستدرك ج١ ص ٦٥٦ رقم (١٧٧٣)، وفتح الباري ج٣ ص ٥١٦ -٥١٧.

في شرحه له: قال الكرماني: ويحتمل أن يكون لرسول الله وقوف بعرفة قبل الهجرة. اهـ، وهو المعتمَد.

كما أن البيعة الثانية من مسلمي يثرب تمت أواسط أيام التشريق بالعقبة[1] في منى، في موسم الحج؛ ووجود الرسول بينهم يعني أنه شارك في أعمال الحج.

فتقدير الكعبة وتعظيمها، وجعل مكة حرمًا، وأداء الحج على نحو ما؛ لم تكن أمورًا مدنية، وإنما كانت قد أُنزلت قرآنًا، أو نفذها النبي في مكة.

٣- أما تأخر تشريع الحج بشكله النهائي إلى سنوات ما بعد الهجرة، فيفسَّر على النحو الآتي:

أ- إن الحج قد فُرض على المستطيع بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ الآية[2] التي جاءت في سياق الجدل مع اليهود بشأن الضجة المفتعلة التي أثاروها حول تحويل القبلة إلى الكعبة.

ولننظر إلى الآيات التي ورد فيها هذا الأمر؛ يقول تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ الآيات[3] فبعد أن ردَّ القرآن عليهم دعواهم مخالفته للتوراة في إباحة بعض الأطعمة المحرمة فيها رغم أنه مصدق لها؛ ردَّ عليهم فيما كانوا

(١) راجع ابن هشام: السيرة النبوية ج٢ ص٢٧٨، المقريزي: إمتاع الأسماع ٥٤-٥٥.
(٢) آل عمران: جزء من الآية ٩٧.
(٣) آل عمران: من ٩٣-٩٧.

مستمرين في التشكيك فيه، وهو تحويل القبلة؛ بأن أمر رسوله أن يعلن أن الله صادق فيما قرره هنا في شأن الطعام؛ كما كان صادقًا من قبل حين أمر بالتوجه إلى البيت الحرام في الصلاة(١)؛ وأن هذا كله كان اتباعًا لملة إبراهيم. ولأن هذه القبلة هي أول بيت وضع للناس، لذا فيجب عليهم - إن استطاعوا - أن يحجوا إليه. فالحج بشكله النهائي إذن مرتبط بجعل الكعبة قبلة؛ وقد جُعلت قبلة في المدينة للحكمة التي ذكرناها من قبل؛ لذا شُرع في المدينة ولم يشرع في مكة.

ب- والحج بشكله النهائي قد فُرض على المستطيع مع بعض العبادات؛ كالصيام والزكاة في السنة الثانية من الهجرة(٢)، وهو الأمر الذي يتسق مع منهجية التدرج التي آثرها الإسلام في تثبيت أركانه بعد إقامة المجتمع المسلم؛ دون أن يكون لذلك أدنى علاقة بما زعمه نولدكه عن تصور جديد لدى النبي عن إبراهيم عليه السلام.

ج- كما أنه لم يكن ميسورًا للنبي أن يُتِم الحج أو العمرة على النحو الذي استقرا عليه إلا في ذلك الوقت المتأخر بعد الهجرة؛ وذلك لوجود معوقين كبيرين:

أولهما: تلك المواجهات التي فرض على دولة الإسلام الفتية أن تدخل فيها؛ إذ كيف كان يمكن أن يؤدي المسلمون الحج أو العمرة في بداية العهد المدني، وكيانهم ذاته مهدد من اليهود والمنافقين والمشركين، سواء أكانوا مكيين أو من قبائل أخرى وثنية مجاورة.

---

(١) وهو الأمر الذي عالجته الآيات ١٤٢-١٥٠ من سورة البقرة، ومقدماتها (١٢٤-١٤١)، وفيها أن الله جعل البيت مثابة للناس وأمنًا؛ وأن إبراهيم وإسماعيل رفعا قواعده وطهراه؛ وأن الله جعله قبلة المسلمين، وأن ملة إبراهيم هي الحق، وأن أهل الكتاب يعلمون أن البيت الحرام وملة إبراهيم هما الحق من الله تعالى... إلخ.

(٢) وإن تأخرت تفاصيل بعض مناسكه إلى الأعوام ٦، ٧، ١٠ هـ.

كيف كان يمكن أن تُلتقط الأنفاس للقيام بمثل تلك الرحلة الروحية، وقد فُرض على المسلمين حتى العام الخامس من الهجرة فقط تسعة عشر مواجهة [1] بين المسلمين وغيرهم من يهود ومشركين، سواء أكانوا مكيين أو من قبائل أخرى وثنية مجاورة. وقد تغاضى نولدكه عن كل ذلك كتفسير لتأخر كل من الحج والعمرة واختار - بغير حق - أن يفسره بكونه تصورًا جديدًا طرأ على فكر محمد في المدينة كرد فعل لصدامه مع اليهود وتكذيبهم.

وثانيهما: معوق العلاقة بين النبي ﷺ وأهل مكة الذي لم يكن ليتيح للنبي الحج أو العمرة في بداية العهد المدني.

فلقد كانت بين أهل مكة وبين النبي مواجهات عسكرية قاسية، منها بدر وأحد والخندق. وكانوا يفرضون لونًا من التضييق أمام من يقصد الحرم من المسلمين. لكن نولدكه تغاضى تمامًا عن كل هذا، وكأن الطريق نحو مكة كانت مفتوحة طوال الوقت - حتى في أثناء المواجهات - أمام النبي ليدخلها ويحج إليها؛ لكنه لم يفعل لأنه لم يكن قـد كون تصوره الجديد عن إبراهيم!!

هكذا أراد نولدكه أن يصور لقارئه الأمر..

فهل كان يجهل تلك الملابسات التي شابت العلاقات بين النبي وأهل مكة، وذلك التضييق الذي كانوا يفرضونه على المسلمين الراغبين في زيارة البيت، واستغرق سنوات ستًّا من العهد المدني؟ إنه بكل تأكيد ما كان يجهله..

وهل كان يجهل منع المشركين النبي والمسلمين من أداء العمرة وزيارة البيت عام ست من الهجرة؟ إنها حادثة أشهر من أن يجهلها

(١) ما بين سرية قادها أحد أمراء رسول الله، أو غزوة قادها رسول الله بنفسه، أو يوم غدر كما في يوم الرجيع وبئر معونة.

دارس مبتدئ للإسلام - وذلك لارتباطها بصلح الحديبية - فكيف بمن هو في سعة اطلاع نولدكه؟

ويبقى السؤال: لماذا تجاهل نولدكه ذلك كله؟ والجواب: إنه أراد أن يصل إلى إقناع قارئه بشتى الوسائل: أن إدخال الحج إلى مكة في شعائر الإسلام ليس إلا تصورًا جديدًا طرأ على فكر محمد في المدينة؛ باعتباره رد فعل لتكذيب اليهود به وصدامهم معه. ولذا اجتهد نولدكه في صرف الأنظار عن هذين المعوقين الماديين اللذين جعلا من الحج والعمرة في بدايات العهد المدني أمرًا شبه مستحيل.

د- لكن على الرغم من هذا فقد أدى العمرة في الفترة قبل غزوة بدر بعض أصحاب النبي، الذين يأمنون على أنفسهم عند قريش كسعد بن معاذ. وهذا يبطل نظرية نولدكه من أساسها.

فقد ورد في الحديث الصحيح أن سعد بن معاذ انطلق معتمرًا قبل غزوة بدر وبعد الهجرة، فنزل على أمية بن خلف أبي صفوان، وكان أمية إذا انطلق إلى الشام فمر بالمدينة نزل على سعد، فقال أمية لسعد: انتظر حتى إذا انتصف النهار وغفل الناس انطلقتَ فطُفت؛ فبينا سعد يطوف إذا أبو جهل، فقال: من هذا الذي يطوف بالكعبة؟ فقال سعد: أنا سعد. فقال أبو جهل: تطوف بالكعبة آمنًا، وقد آويتم محمدًا وأصحابه؟ فقال: نعم. فتلاحيا بينهما. فقال أمية لسعد: لا ترفع صوتك على أبي الحكم؛ فإنه سيد أهل الوادي. ثم قال سعد: والله لئن منعتني أن أطوف بالبيت لأقطعن متجرك بالشام... الحديث[1].

ثبت بهذا الحديث الأخير أن العمرة وزيارة البيت الحرام معتمدة

(١) البخاري بشرح ابن حجر ج٦ ص٦٢٩ رقم (٣٦٣٢).

إسلاميًّا في بداية العهد المدني، كما كانت معتمدة في العهد المكي كله، ولم تأت رد فعل لتنكر اليهود للنبي.

لكنها بطبيعة الحال كانت في نطاق شخصي ضيق، نظرًا للتضييق الشديد الذي مارسته قريش ضد من يريد ذلك من المسلمين، وقد اتضح هذا جليًّا من الحوار بين أبي جهل وأمية بن خلف من جانب، وسعد بن معاذ من جانب آخر. لكن نولدكه أتى ليستغل جهل قارئه الغربي بدقائق وتفاصيل السيرة النبوية، فربط بين تأخر قيام النبي بعد الهجرة بالعمرة للعام السابع، وبين ما ادعاه من تكوينه تصورًا جديدًا عن إبراهيم، وزيارة البيت أحد معالمه!!! وقد ظهر لنا خطؤه.

وخلاصة القول أننا نرفض دعوى نولدكه الرئيسة في هذا الفصل، وهي: أن النبي ﷺ كَوَّن في المدينة تصورًا قرآنيًّا جديدًا عن إبراهيم عليه السلام؛ لم يُشَر إليه في القرآن المكي. عناصر هذا التصور هي: أن ثمة صلة بين النبي وإبراهيم، وأن الأخير كان حنيفًا مسلمًا ولم يكن مشركًا ولا يهوديًّا ولا نصرانيًّا، وأنه يجب على النبي أن يَتَّبع ملة إبراهيم، وأنه وإسماعيل رفعا قواعد البيت الحرام؛ ولذا ورد الأمر القرآني بتقديره وتعظيمه والتوجه إليه في الصلاة، وجَعَل مكة حرمًا؛ وأدخلها القرآن المدني هي والبيتَ في شعائر الحج.

وكان رفضي بناء على ما ثبت لديَّ أن بعض عناصر هذا التصور (المدَّعَى كونُه مدنيًّا) قد وردت في القرآن المكي؛ وهذه العناصر هي: إثباتُ الصلة بين النبي وإبراهيم، وأن الأخير كان حنيفًا مسلمًا، ولم يكن مشركًا، وأنه يجب على النبي أن يَتَّبع ملة إبراهيم، وتقديرُ البيت وتعظيمُه، وجَعْل مكة حرمًا. كما أن واحدًا منها على الأقل قد مارسه النبي وهو في مكة قبل الهجرة وهو أداؤه بعض شعائر الحج.

أما الذي انفرد القرآن المدني بتقريره منها فهو نفيُ كون إبراهيم يهوديًّا أو نصرانيًّا، وإسنادُ رفع قواعد البيت الحرام إليه هو وإسماعيل، وجعلُ

الكعبة قبلة، وشعائر الحج المفصلة؛ على النحو المفصل في الجدول الآتي.

وكان لتأخر نزول كل منها إلى العهد المدني تفسير بينته عند الحديث المفصل عن كلٍّ. ومن ثم تسقط دعوى نولدكه في هذا الفصل.

* * *

النبي إبراهيم عليه السلام بين القرآن المكي والقرآن المدني
(ما تحته خط اختص القرآن المدني بإثباته)

موضع المقارنة	في القرآن المكي	في القرآن المدني
الموقف من إبراهيم عليه السلام	تقديره	استمرار تقديره
الصلة بين إبراهيم والنبي	القول بهذه الصلة	استمرار القول بهذه الصلة
ملة إبراهيم	* كان حنيفًا غير مشرك * الأمر باتباع ملته: (الإسلام)	* استمرار الوصف بالحنيفية * استمرار الأمر باتباع ملته * لم يكن يهوديا ولا نصرانيا
علاقته بمكة والكعبة	الربط بينه وبين الكعبة ومكة	١- استمرار الربط بينه وبين الكعبة ٢- أنه رفع قواعد الكعبة هو وإسماعيل
مكة والكعبة	تقدير الكعبة وتحريم مكة	١- استمرار تقدير الكعبة وتحريم مكة ٢- جعل الكعبة قبلة ٣- شعائر الحج التفصيلية

* * *



الملاحق



ملحق (١)
الإسلام دين الأنبياء جميعًا

لقد بين القرآن أن الإسلام بمعناه العام - بغض النظر عن الفروق في بعض تفاصيل الشرائع - هو دين الله الواحد الذي أرسل به جميع الأنبياء والرسل، من لدن آدم إلى خاتمهم محمد؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[١]؛ فلقد كان كل رسول يأتي قومه يقول لهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾. قالها نوح وهُود وصَالح وشُعَيب[٢]. ووُصف بالإسلام البيت الناجي من قوم لوط[٣].

وأعلن الأنبياء أنهم مسلمون؛ فهذا نوح يقول: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[٤]. وهذان إبراهيم وإسماعيل يدعوان ربهما: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٥]. وهذان إبراهيم ويعقوب يوصيان أبناءهما: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٦].

كما يرد الوصف بالإسلام على لسان موسى ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾[٧]؛ ومن ثم يطلب المؤمنون به أن يتوفاهم الله عليه ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[٨].

---

(١) الأنبياء: ٢٥.
(٢) الأعراف: الآيات: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥.
(٣) الذاريات: ٣٦.
(٤) يونس: ٧٢.
(٥) البقرة: ١٢٨.
(٦) البقرة: ١٣٢.
(٧) يونس: ٨٤.
(٨) الأعراف: ١٢٦.

وأعلنه سليمان: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾[1]. وطلب حصوله من ملكة سبأ: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾[2]. واستجابت: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3].

كما أعلنه فرعون موسى عند الغرق[4]. وأعلنه حواريو عيسى: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[5].

وأصول الأخلاق من آدم إلى محمد كانت ثابتة، وكذلك كان الإيمان باليوم الآخر؛ لنستمع إلى شعيب وهو يقول: ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[6]، ويقول أيضًا: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾[7].

ولنستمع إلى صوت اليقين الصادر من سحرة فرعون بعد أن آمنوا بنبي الله موسى: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾[8].

كما بين القرآن أن الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله لعباده، ولا يرتضي لهم غيرَه، وأن جميع الأنبياء يصدق بعضهم بعضًا، ومن كفر بواحد منهم فقد كفر بهم جميعًا. وأن خاتمهم محمدًا ﷺ، يجب على أهل الكتب السابقة -الذين شهدوا مبعثه أو سمعوا عنه- أن يؤمنوا به. ومن لم يؤمن به فقد كفر بدين الله ودين جميع الأنبياء.

---

(١) النمل: ٤٢.
(٢) النمل: ٣١.
(٣) النمل: ٤٤.
(٤) يونس: ٩٠.
(٥) آل عمران: ٥٢.
(٦) الأعراف: ٨٥.
(٧) هود: ٨٤.
(٨) طه: ٧٢-٧٥.

لنقرأ معًا الآيات الآتية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾(١).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(٢).

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾(٣).

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾(٤).

﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾(٥) الآية.

﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾(٦).

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾(٧).

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾(٨).

* * *

(١) النساء: ١٣٦.
(٢) النساء: ١٥٠-١٥٢.
(٣) الطلاق: ٨.
(٤) الشورى: ١٣.
(٥) الشورى: ١٥.
(٦) المائدة: ٥٩.
(٧) البقرة: ٤.
(٨) آل عمران: ٨٤.



ملحق (٢)
تحديد زمن نزول الآيات ١-٨٣ آل عمران

يرى نولدكه أن زمن نزول الآيات من بداية آل عمران إلى قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ غير معلوم؛ لأن الروايات لا تساعدنا إلا قليلًا؛ فمن الممكن أن تكون كلها متأخرة عن غزوة بدر.

ويميل إلى أن بعض الآيات تشير إلى أحداثٍ بعد غزوة بدر مباشرة، ويرى أنه يتعذر جدًّا كونها في العام السادس أو السابع.

لكنه يرى -بلا دليل- أن بعض الآيات متأخرة جدًّا؛ يقول[١]:

"إن وقت نزول الآيات من ١-٨٦[٢] من آل عمران غير معلوم نوعًا ما. وإذا كان كله ينتمي لوقت واحد، فإنه من الواجب أن يكون متأخرًا عن غزوة بدر؛ حيث إن الآية[٣] ١١ تشير لهذا بشكل واضح. ويتعذر جدًّا أن نظن أن التأليف كان في العام السادس أو السابع.... إن التفاسير التاريخية التي تقدمها الروايات لبعض الآيات لا تساعدنا إلا قليلًا.

إن الآية ١٠[٤] تتعلق -حسبما يقول كثيرون- بيهود بني قينقاع، وبهذا نصل لنقطة زمنية ثابتة. وفي هذا الوقت أيضًا تقريبًا تشير الآيات ٥٨[٥] ،وما بعدها التي تجعل أهل الكتاب مضادين لدين إبراهيم؛ لأن هذه الفكرة كانت مقدمة متفهمة لتضعضع العلاقة

---

(١) تاريخ القرآن "بالألمانية" ق١ ص١٨٩-١٩١.

(٢) إلى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

(٣) ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾ الآية.

(٤) ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ﴾ الآية.

(٥) ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الآية.

بين النبي واليهود، ولانهيار أمله أن يدخلوا في الإسلام باختيارهم... ينبغي بالتأكيد أن تكون آية [1]٧٩ من سورة آل عمران متأخرة؛ حيث فيها يُفتح العذاب الأبدي على كل الكافرين".

ويرفض أن يكون نزول صدر آل عمران مرتبطًا بقدوم وفد نصارى نجران، مستدلًّا بأن ذلك القدوم لا يُذكر له تاريخ عند ابن هشام والبخاري؛ ويحدده بالفترة قبل وفاة النبي؛ يقول[2]:

"إن الروايات بأن وفد نصارى نجران كان سبب بداية سورة آل عمران لا قيمة لها. إن هذه الحادثة لا يؤرخ لها عند ابن هشام والبخاري؛ لكن من الممكن - ولأسباب داخلية - أن تكون حدثت فيما بعد في آخر حياة محمد؛ وذلك لأنه كيف يتسنى له أن يفرض في هذا الوقت المبكر شروطًا على قبيلة تقطن بعيدًا عنه؟".

ولأهمية هذه الجزئية لفهم بعض الأفكار التي يطرحها نولدكه لا بد من أن أبين وجه الحق في ذلك:

لقد نقل ابن كثير[3] قول ابن إسحاق: إن صدر آل عمران إلى ثلاث وثمانين آية منها نزل في وفد نصارى نجران. وأضاف إليه أن قدوم ذلك الوفد كان في العام التاسع الهجري. وهو بهذه الإضافة ربط بين رواية ابن إسحاق في سيرته[4]، التي لم يحدد فيها زمنًا لقدوم ذلك الوفد؛ وقول الزهري: «كان أهل نجران أول من أدى الجزية إلى رسول الله؛ وآية الجزية إنما أنزلت بعد الفتح»، أي: فتح مكة في العام الثامن.

لهذا فلكي نصل لرأي واضح في مسألة زمن نزول الآيات المذكورة؛ لا بد من أن نعالج بشيء من التفصيل مشكلين:

(١) ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾، وهي في مصحفنا الآية رقم (٨٥)، وليست (٧٩) كما في مصحف فلوجل الذي استخدمه نولدكه. [المؤلف].

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ هامش ٣ ص ١٩٠.

(٣) التفسير ج١ ص ٣٢٤ و ٣٤٨ و ٣٥٠.

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية: ج٢ ص٣٧٨.

مشكل زمن قدوم وفد نصارى نجران، الذي قيل إن الآيات نزلت بشأنه، ومشكل الارتباط بين نزول الآيات والوفد:

أولًا مشكل الزمن:

إنه على فرض أن الآيات الكريمة المذكورة أو بعضها نزلت في ذلك الوفد؛ فإن تحديد زمن نزولها بالعام التاسع هو قول غير دقيق بالمرة؛ وذلك للآتي:

١- إنه من الخطأ أن يُستدل على قدومهم في العام التاسع بأن "المال الذي اتفقوا مع النبي على دفعه كان جزية، وهي لم تشرع إلا في العام الثامن"؛ حيث إنه لم يكن جزية، وإنما كان صلحًا، لحديث البخاري(١) الذي لا يَذكر كونه جزية؛ ولم يرد فيه إلا قولهم: إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلًا أمينًا... فقال النبي: «**قم يا أبا عبيدة**».

كما أن البخاري(٢) أيضًا ومسلم(٣) وأحمد بن حنبل(٤) لا يذكرون بشأن هذا الوفد إلا أن العاقب والسيد صاحبي نجران أتيا رسول الله يريدان أن يلاعناه... الحديث. ولقد ورد في بعض الروايات التصريح بأن المال كان مال صلح؛ فهذا ابن حجر(٥) يرد على الزهري - دون أن يصرح بذلك - فيرى أن ما ذهب أبو عبيدة عامر بن الجراح ليقبضه كان مال صلح ولم يكن جزية. أما هي فقد أرسل الرسول عليًّا فيما بعد ليأخذها ممن لم يسلم منهم، ويأخذ ممن أسلم الصدقة(٦)؛ ويستشهد

---

(١) بشرح ابن حجر ج٨ ص٩٣-٩٤ رقم (٤٣٨٠) و(٤٣٨١).

(٢) الموضع نفسه.

(٣) بشرح النووي ج١٥ ص١٩١ رقم (٢٤٢٠).

(٤) المسند ج١ ٤١٤ ص ٣٩٣٠.

(٥) الفتح ج٨ ص٩٤ - ٩٥.

(٦) وذكر ابن هشام (السيرة النبوية ج٤ ص ٤٤٤) "أن النبي ﷺ بعث علي بن أبي طالب إلى أهل نجران ليجمع صدقتهم، ويقدم عليه بجزيتهم". وهو وإن لم يحدد تاريخًا إلا أنه يذكره مباشرة قبل أن يتكلم عن حجة الوداع التي كانت في السنة العاشرة من الهجرة؛ كما يعنون بعد ذلك للموضوع التالي بـ"موافاة علي في قفوله من اليمن رسول الله في الحج" ج٤ ص ٤٤٦. وهذا كله يعني أن إرسال علي إليهم كان في أواخر العام التاسع من الهجرة.

بـ "رواية يونس بن بكير أنه صالحهم على ألفي حُلّة...".

وفي إمتاع الأسماع[1] أنهم "صالحوه على ألفي حُلة: ثمن كل حلة أربعون درهمًا".

وفي سنن أبي داود[2] قول ابن عباس: «صالَح رسول الله أهل نجران على ألف حلة.. النصف في صفر والبقية في رجب.. الحديث».

كما أن ابن كثير نفسه[3] يرى احتمال أن قدوم وفد نجران كان قبل الحديبية؛ وأن الذي بذلوه لم يكن جزية، وإنما كان من باب المهادنة والمصالحة.

٢- ومما يُذكر هنا ليشكك في ذلك التحديد أن ابن إسحاق ذاته لم يحدد -عند حديثه عن ذلك الوفد[4]- زمن قدومه؛ لكنه يروي أن قدوم الوفد عاصَر وجود الأحبار اليهود في المدينة، وأن الجميع اجتمعوا عند النبي؛ وهذا يعني أن قدومهم كان قبل السنة الثالثة من الهجرة أو في أثنائها، ولم يتأخر عن ذلك؛ لأن ذلك الوقت هو الذي يتصور فيه إمكان أن يلتقي رسول الله ﷺ بأحبار اليهود قبل التصادم معهم؛ ابتداء من أحداث بني النضير بعد غزوة بدر؛ يقول ابن إسحاق[5]: "وقال أبو رافع القرظي: حين اجتمعت الأحبار من يهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ دعاهم إلى الإسلام..." إلخ.

كما أن أبا نعيم أخرج في الدلائل[6] عن ابن عباس أن نصارى نجران وأحبار يهود اجتمعوا عند رسول الله، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهوديًّا. وقالت النصارى: ما كان إلا نصرانيًّا، فأنزل الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ ﴾ الآية، والتي تليها.

(١) المقريزي ٣٦٢.
(٢) ج٣ ص١٦٥ رقم(٣٠٤١).
(٣) التفسير ج١ ص ٣٢٤ و ٣٤٨ و ٣٥٠.
(٤) السيرة النبوية ج٢ ص ٣٧٦ – ٣٨٥.
(٥) المصدر نفسه ٣٦٠.
(٦) ج٥ ص٣٨٤، والآيتان الكريمتان هما: ٦٥ – ٦٨ آل عمران.

٤- يذكر البيهقي[١] أن الراهب ليث بن أبي شمر الزبيدي (وكان في الوفد النجراني) بقي في المدينة متخلفًا عن الوفد «سنين يسمع كيف ينزل الوحي والسنن والفرائض والحدود». فكيف يمكن تفسير ذلك إذا كنا قصرنا قدوم ذلك الوفد على السنة التاسـعة؟؟

٥- إذا أخذنا كل الذي مضى في اعتبارنا، فإنه يجعلني أصل إلى ما أرجحه بشأن زمن قدوم وفد نجران، الذي قيل: إن الآيات المذكورة من آل عمران كلها أو بعضها نزلت فيه؛ فأرى أنه كان العام الثالث من الهجرة أو حوله للأسباب التي ذكرتها.

٦- ولا يعني هذا استبعاد أن يكون قد جاء من نجران وفد آخر في العام التاسع؛ بل قد يترجح ذلك نظرًا لتعدد الأسماء التي تجعلها الروايات على رأس وفد نجران؛ فبعضها يتحدث عن أبي حارثة بن علقمة، وأخيه كرز بن علقمة[٢]. وبعضها يجعل الرئاسة فيه لشرحبيل بن وداعة الهمداني، وعبد الله بن شرحبيل الأصبحي، وجبار بن فيض الحارثي[٣]، وبعضها يتحدث عن رئاسة أبي الحارث ومعه السيد والعاقب، وهما اللذَان سلم الرسول لهما لقومهما كتابا؛ ويتم التصريح في طبقات ابن سعد أن قدومهما كان في السنة التاسعة[٤] وأنهما لما رجعا لقومهما أسلما[٥].

يمكن إذن أن يكون قد أتى من نجران وفدان - على الأقل؛ أحدهما في العام الثالث تقريبًا (هو الذي نزل بشأنه بعض آيات آل عمران، وهو الذي أرسل النبي معهم أبا عبيدة لأخذ مال الصلح)؛ وثانيهما في العام التاسع؛ جاءوا إلى النبي بعد كتابِه إليهم مرجِعَه من تبوك. ولا علاقة لهذا الوفد بسبب نزول الآيات المذكورة أو بعضها؛ وهو الوفد الذين أرسل النبي معهم علي بن أبي طالب ليأخذ الجزية ممن لم يسلم، والزكاة ممن أسلم.

(١) الدلائل ج٥ ص٣٩١.
(٢) البيهقي: دلائل ج٥ ص٣٨٣.
(٣) المصدر السابق ص٣٨٥، ٣٨٦، ٣٩٠.
(٤) انظر ابن حجر: الفتح ج٧ ص٩٣ - ٩٤.
(٥) المصدر نفسه ج٨ ص٩٥.

ثانيًا: مشكل الارتباط بين نزول الآيات والوفد:

١- إن رواية ابن اسحاق التي تربط بين نزول صدر آل عمران إلى الآية ٨٣ منها وبين قدوم الوفد هي أيضًا خطأ؛ إذ إنه بغض النظر عن أن ابن حجر[١] قال عنها: إنها مرسلة الإسناد. فإن ابن إسحاق ذاته يروي أسباب نزول أخرى لآيات من صدر آل عمران[٢] هي: ١٢-١٣، ٢٣-٢٤، ٧١-٧٣، ٧٩-٨٠، ٨١ من سورة آل عمران، وكلها تشير للآيات بشكل جزئي، وليست بالشكل الذي ذكره داخلة في هذه المجموعة التي حددها في الرواية التي معنا. كما أن أحاديث أخرى كثيرة أقوى من ناحية السند وأكثر توافقًا مع سياق الآيات تجعل لبعض تلك الآيات أسباب نزول أخرى؛ منها:

أ- روى البخاري[٣] أن الآية ٧٧ من السورة ذاتها[٤] نزلت في تخاصم بسبب بئر بين الأشعث بن قيس ورجل آخر؛ فطلب النبي من المدعَى عليه اليمين؛ فقال المدعِي (وهو الأشعث) خائفًا: إذًا يحلف يا رسول الله (أي سيحلف كذبًا)؛ فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٥].

ب- وروى البخاري[٦] أيضًا أن الآية ٦٤ من نفس السورة، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾. هذه الآية وردت في كتاب النبي ﷺ إلى هرقل سنة ست من

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج٨ ص٩٤.
(٢) سيرة ابن هشام ج٢ ص ٣٥٩ - ٣٦١.
(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج٨ ص٢١٢ - ٢١٣ رقم (٤٥٥٠).
(٤) وهي ضمن ما يدعى أنه نزل مرة واحدة في السنة التاسعة.
(٥) آل عمران: ٧٧.
(٦) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج٨ ص٢١٤-٢١٥ رقم (٤٥٥٢).

الهجرة[١]، وبسبب رواية البخاري هذه فإن ابن كثير نفسه[٢] يحكم على ما قاله ابن إسحاق بأنه "ليس بمحفوظ".

ج- ورُوي[٣] أن الآية ١٢ من السورة، وهي قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾؛ نزلت بعد غزوة بدر ردًّا على اليهود في تحديهم للنبي أنهم ليسوا كأهل مكة الذين هزموا، فلو قاتلوه هم لأدرك أن قتالهم ليس مثله قتال!!

د- وكذلك كان الأمر[٤] مع الآيات ٢٣، ٢٦، ٢٨، ٣١، ٦٥، ٧٢ من السورة نفسها.

٢- والذي صح هو أن ما نزل بشأن وفد نصارى نجران هي آيات محدودة؛ فقد أخرج البيهقي في الدلائل أنها الآيات: ٥٩-٦١ من السورة؛ قال: «فأصبح الغد وقد أنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ﴾... إلى قوله: ﴿ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾.

وعند الواحدي[٥] أن الذي نزل من القرآن في هذه المناسبة هي الآيات من ٥٨- ٦٣، وهي قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

(١) وتحديد التاريخ للمقريزي: إمتاع الأسماع ٢٣٤.

(٢) التفسير ج ١ ص ٣٥١.

(٣) السيوطي: لباب النقول ص ٦٢، وعزاه لأبي داود في السنن والبيهقي في الدلائل، والغريب أنها من طريق ابن إسحاق أيضًا!

(٤) المرجع نفسه (لباب) صفحات: ٦٢- ٦٧.

(٥) في: أسباب النزول ص٩٠-٩١، وقد اختار فايل *Weil* ذلك في كتابه: (*Das Leben Muhammeds* ج٢ ص٣٠٢ وج٣ ص٣١٢).

أما السيوطي[1] فروى أن الذي نزل في تلك المناسبة هي الآيات من ٥٨-٦٠ فقط.

٣- وأختم هنا بأن أشير إلى ضرورة اعتبار الجو العام للآيات، الذي يمنع كونها متأخرة في نزولها نظرًا لطبيعة المعاني الواردة فيها والملابسات التي تواكبها؛ فالآية الكريمة: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾[2]؛ واضح من لفظها زمن الرواية كذلك أنها بشأن بعض اليهود الذين توعدوا الرسول بعد انتصاره في بدر؛ وبالتالي لا علاقة لها بالسنة التاسعة. كما أن الآيات من ١-١١، ومن ١٤-١٨، ومن ٢٦-٣٢، وغيرها تعالج الأسس الإيمانية والضوابط التربوية للجماعة المسلمة الفتية، وهذا لا علاقة له بالسنة التاسعة كذلك.

وهذا الاعتبار بالمناسبة محترم لدى نولدكه؛ لكنه يخضعه في التطبيق لانتقائية واضحة؛ مَثَله في ذلك مَثَل كثير من آليات منهجه.

وقد فطن لذلك الاعتبار سيد قطب رحمه الله؛ قال[3]: "ونحن نستبعد أن تكون السنة التاسعة هي زمن نزول هذه الآيات؛ فواضح من طبيعتها وجوها أنها نزلت في الفترة الأولى من الهجرة، حيث كانت الجماعة المسلمة بعد ناشئة، وكان لدسائس اليهود وغيرهم أثر شديد في كيانها وفي سلوكها". وقال عن نفس الآيات[4]: "نحن أميل إلى اعتبار هذا كله غير مقيد بحادث وفد نجران في السنة التاسعة، وأنه كانت هناك مناسبات أخرى مبكرة، هي التي نزل فيها هذا القرآن من هذه السورة".

---

(١) لباب النقول ص ٦٤ – ٦٥.

(٢) آل عمران: ١٢، ١٣.

(٣) الظلال ج١ ص٣٥٢، ولقد أشار سيد قطب إلى ذلك على عجل تقتضيه ضرورة منهجه في الظلال؛ من عدم الخروج إلى تفريعات وتحقيقات لإثبات أو نفي أو تحقيق مسألة علمية محددة.

(٤) المرجع نفسه ص٣٦٢.

نخلص إذن إلى أننا هنا إزاء رواية لابن إسحاق، تجعل صدر آل عمران مرتبطًا بوفد نجران الذي جاء في السنة التاسعة من الهجرة؛ لكنها فوق كونها ضعيفة فإنها معارضة بأربع عشرة رواية أخرى ـ منها خمسة لابن إسحاق نفسه ـ يُجعل فيها أسباب نزول أخرى لأربعة عشر موضعًا من صدر آل عمران. كما أنها معارضة كذلك بما صح من روايات، تجعل ما نزل بشأن ذلك الوفد آيات محدودة بذاتها، وليس كل ما تحدث عنه ابن اسحاق. ويمنع من قبولها كذلك كون عدد من المعاني المعالجة في الآيات الثلاثة والثمانين لا تمت بصلة إلى حوارات ذلك الوفد مع النبي؛ بل تتعلق أكثر بتوجيه الخطاب إلى المؤمنين وتربية صفهم.

بناء على هذا فلا يمكن أن يكون شيء من هذه الآيات من ١-٨٣ من آل عمران متأخرًا في النزول إلى العام التاسع من الهجرة. وعلى القول إن وفدًا نجرانيًّا قدم في العام الثالث؛ فإن بعض الآيات المذكورة لا كلها؛ هو الذي يمكن أن يكون قد نزل متعلقًا بهذا الشأن.

* * *



نتائج الجزء الثالث

أثبت هذا الجزء من الدراسة بطلان الدعوى الرئيسة لنولدكه فيه: أن النبي ﷺ بحث عن مرجعيةٍ، وأنه تحولَ في ذلك من كونها أهلَ الكتاب؛ (وذلك في العهد المكي، وبداية العهد المدني) إلى كونها: إبراهيمَ عليه السلام (بعد ذلك).

وأبطلنا هنا كل ما استندت إليه هذه الدعوى من دعاوى فرعية:

ففيما يتعلق بدعوى نولدكه: (اتخاذ النبي أهل الكتاب مرجعية في العهد المكي، وبدايات المدني)؛ فقد أبطل هذا الجزء من الدراسة مزاعم نولدكه أن معارضة النبي لأهل الكتاب في مكة كانت ذات أهمية أقل، وأن آيات الهجوم على اليهود مدنية في غالبها، وأن ما في القرآن المكي من إنكار لبعض عقائد النصارى إنما هو موجه لعقائد المشركين لا النصارى، وأن النبي أوجد (تساويًا وصداقة بينه وبين المسيحيين في مكة)، و(أن القرآن اعتبر نصر الروم على الفرس نصرًا للموحدين على الكفار).

كما أظهر هذا الجزء خطأ استدلال نولدكه على دعواه المذكورة بـ(أن القرآن المكي دعا العرب أن يؤمنوا بما تلقاه المسيحيون من عيسى وما تلقاه اليهود من موسى، وأن يسألوا أهل الكتاب عن حقيقة النبي ﷺ)؛ حيث أثبتنا هنا أن القرآن المدني، وليس فقط القرآن المكي، استمر في مواجهة أهل الكتاب بعرض حقيقة أنهم يعرفون النبي. كما أثبتنا أن ما ذكره القرآن المكي من (معرفة أهل الكتاب للنبي وأن بعضهم آمنوا به) لا ينطلق من نظرية نولدكه المزعومة عن اتخاذ النبي إياهم مرجعية؛ بل يرتبط بوقائع تاريخية ثابتة، وأن القرآن المدني أيضًا واصل تجلية هذه الحقيقة خلافًا لما يزعم نولدكه.

وأثبتنا هنا من خلال القرآن بطلان دعوى نولدكه (أن بدايات القرآن المدني لم تنكر

على اليهود)؛ حيث قدمنا الدليل على أن القرآن في بداية العهد المدني -وقبل الصدام العسكري مع اليهود- هاجمهم وفضح أخطاءهم.

كما أبطلنا -بالرجوع للقرآن- دعوى نولدكه (تغَيُّر موقف القرآن من أهل الكتاب: من اعتماد إيمانهم وقبوله في العهد المكي وبدايات المدني؛ إلى رفضهم وتكفيرهم بعد ذلك)؛ حيث أثبتنا: أن الوصف بالإيمان في القرآن المكي لم يكن فقط لأتباع موسى وعيسى -كما ادعى نولدكه- بل شمل أتباع الأنبياء جميعًا. وأن الذين عدهم القرآن مؤمنين من أتباع عيسى عليه السلام هم الذين لم يغالوا فيه ولم يحرفوا عقيدة التوحيد التي جاء بها وماتوا على ذلك قبل رسالة محمد ﷺ أو بعدها دون أن يسمعوا عن النبي ﷺ. وأن القرآن المدني استمر في موقفه الذي يصف بالإيمان كل من اتبعوا بحقٍّ الأنبياء، بمن فيهم موسى وعيسى عليهما السلام. كما أثبتنا أن الكافرين برسالة محمد ﷺ من المسيحيين أو اليهود المعاصرين للنبي أو الذين جاءوا بعده لا يعدهم القرآن مؤمنين حتى لو كانوا موحدين عاملين للصالحات.

وعلى صلة بهذا فقد انتهى هذا الجزء من الدراسة إلى وجه الحق في المواضع القرآنية المدنية الأربعة التي يثنى فيها الله تعالى على المؤمنين من أهل الكتاب -وظن بعض الباحثين بشكل خاطئ- أنه ثناء عام يشمل حتى من لم يؤمن منهم برسالة محمد ﷺ.

وأثبتنا هنا -من خلال القرآن- بطلان دعوى نولدكه أن (القرآن في معظم العهد المدني لم يهاجم النصارى، وأن الهجوم عليهم لم يحصل إلا في أواخر العهد المدني بسبب الصدام العسكري).

وفيما يتعلق بدعوى نولدكه (تحول النبي عن أهل الكتاب)؛ فقد أبطلنا هنا دعواه (أن غزوات النبي ﷺ ضد اليهود كانت بسبب أنهم لم يتركوا دينهم ويتبعوه)؛ حيث أثبتنا أن النبي ﷺ اعتمد وثيقة لتنظيم العلاقة بينه وبين اليهود في المدينة، وأن كل مواجهة تمت بينهم وبين رسول الله ﷺ كان لها أسبابها الخاصة التي ليس من بينها كونهم يهودًا. كما أثبتنا بقاء قبائل وأفرادٍ من اليهود في المدينة حتى بعد تلك المواجهات.

وأبطلنا زعم نولدكه أن (النبي لم يبين انحراف اليهود عن الدين إلا بعد أن انهار

أمله فيهم). وأبطلنا دعواه أن (تكفير غير المسلم جاء في نهاية العهد المدني)؛ حيث أثبتنا أنه لم يكن متأخرًا كما زعم؛ بل كان موجودًا في القرآن المكي والمدني على حد سواء.

وفيما يتعلق بدعوى نولدكه تحول النبي ﷺ إلى إبراهيم عليه السلام كمرجعية؛ كشف هذا الجزء من الدراسة النقاب عن أن علاقة النبي بإبراهيم عليه السلام كانت موردًا لآراء استشراقية متناقضة، وأبطل الدافِعَين المزعومين اللذين زعم نولدكه أنهما شجعا النبي في المدينة على تشكيل تصوره المدَّعى عن إبراهيم. كما أثبت تهافت ما يطرحه نولدكه من دليل على ذلك.

وأبطلنا في هذا الجزء دعوى نولدكه أن (خبر القرآن عن تأسيس إبراهيم وإسماعيل الكعبة إنما جاء رد فعل على عداء اليهود للنبي ﷺ)؛ حيث أقام أربع أدلة على صدق هذا الخبر. كما أبطلنا دعواه (مدنية الآيات التي تربط بين إبراهيم والحرم المكي) بأن أثبتنا وجود آيات مكية يتضح فيها بجلاء هذا الربط.

وكذلك أبطلنا دعواه (أن القرآن المدني أقحم اسم إسماعيل بين من سماهم نولدكه الآباء الإسرائيليين بشكل لم يحصل في القرآن المكي)؛ حيث أثبتنا أن التفاوت بين القرآن المكي و القرآن المدني في (ذكر إسماعيل بين من سماهم نولدكه الآباء الإسرائيليين) له حكمته المتعلقة بالسياق وبالجانب العقدي المعالج في كل من المكي والمدني، ولا علاقة له بتحول مدعى من قبل النبي في المرجعية.

وأبطلنا زعم نولدكه (أن الصلة التي أوجدها القرآن بين النبي وإبراهيم لم توجد إلا في القرآن المدني، وأنها جاءت بتأثير يهودي أو نصراني)؛ حيث أثبتنا أن القرآن المكي أوجد الصلة بين النبي ﷺ وإبراهيم عليه السلام دون أن يتأخر هذا إلى الفترة المدنية، وأن القرآن سواء: المكي والمدني قد وصل النبي بكل الأنبياء؛ وليس بموسى وعيسى أو إبراهيم فقط. كما أبطلنا زعم نولدكه (أن تقدير القرآن لملة إبراهيم؛ والإخبار بأنها كانت الإسلام، والأمر باتِّبَاعها؛ هي وجهات نظر جديدة للنبي في المدينة). حيث أثبتنا هنا أن ذلك قد بدأه القرآن (لا النبي) في مكة وليس في المدينة.

وأبطلنا كذلك زعم نولدكه أن (الاتجاه للكعبة قبلة للصلاة، وإدخال الحج إلى مكة في عبادة الإسلام؛ يأتيان في سياق التصور الجديد عن إبراهيم)؛ حيث أثبتنا أن تحول النبي إلى الكعبة قبلة لم يكن رد فعل على عدم إيمان اليهود به؛ إذ إن هذا التحول كان أمرًا من الله تعالى ولم يكن للنبي فيه اختيار. كما أثبتنا أن العمرة وزيارة البيت الحرام كانا - على نحوٍ مّا - مُعْتَمَدين إسلاميًّا في العهد المكي كله وكذلك في بداية العهد المدني؛ ولم يكونا رد فعل لتنكر اليهود للنبي.

كما أوقفنا هذا الجزء من الدراسة على بعض أخطاء نولدكه في اللغة والفقه؛ حيث لم يُفرق بين (الحرب) و(الحرابة). وحيث إنه تجاوز في فهمه كل وجه للفهم حسب اللغة العربية حين حمل الآيتين ١٩، ٢٠ من سورة الفتح على الماضي رغم أنهما صريحتان في إفادة المستقبل.





خاتمة عن أخطاء نولدكه المنهجية

بالإضافة لما ذكرته في نهاية كل جزء؛ فإن هذه الدراسة بأجزائها الثلاثة قد كشفت عن عدة أخطاء منهجية وقع فيها المستشرق الكبير تيودور نولدكه. بعض هذه الأخطاء سببه الشعور بالاستعلاء والتمحور حول الذات، وبعضها مرجعه إلى المغالاة في التأثر بالشك المنهجي عند ديكارت، وبعضها يمكن رده إلى خطأ منهجي أساسي هو تحكم الآراء المسبقة في بحث نولدكه:

فمن الأخطاء التي سببها الشعور بالاستعلاء والتمحور حول الذات أن نولدكه فهم بعض الأحاديث الشريفة فهمًا خاصًّا به، ومن ثم بنى على فهمه هذا أحكامًا خاطئة مكتفيًا بالإحالة إلى مصادر تلك الأحاديث دون ذكر نصها أو حتى مضمونها فارضًا بذلك فهمه على قارئه دون أن يتيح له فرصة الفهم بعيدًا عن إيحاءات وسطوة أفكاره. وأنه طرح دعاوى بلا دليل؛ حيث ادعى أن في القرآن نصوصًا بدائية خيالية دون أن يذكر أمثلة ويبين وجه حكمه عليها.

ولم يطرح نولدكه آراءه على أنها فرضيات تقبل النقاش وتحتمل الخطأ.

ومن الأخطاء التي مردها إلى المغالاة في التأثر بمنهج الشك المنهجي عند ديكارت؛ أنه بلا أدنى مبرر يصير إلى التشكيك في روايات صحيحة متعلقة بسبب نزول آيات معينة، بحجة كونها مجرد تزيد من الشراح من أجل التفسير. كما أنه كان أحيانًا يترك الرواية الثابتة إلى رأيه الذي يبنيه على الظن والوهم.

أما أخطاء نولدكه التي يمكن ردها إلى خطأ منهجي أساس هو تحكم الآراء المسبقة في بحثه، (بمعنى أن نولدكه تتحكم فيه آراء استشراقية معينة ثم يدور يتلمس لها ما يظنه أدلة عليها ويتغافل عما يعارضها)؛ فتتضح من الآتي:

١- لقد وجدناه لا يلتزم بموقف واحد إزاء مرسل الصحابي؛ حيث رفضه حين لم يساعده في دعم آرائه المسبقة، وقبله حين ظن أنه يدعم تلك الآراء.

٢- اعتمد روايات ضعيفة ليثبت خوف النبي الجنون على نفسه متجاهلًا في ذات الوقت الآيات التي ترد التهمة عن النبي.

٣- التزم برواية ضعيفة دون تحقيق، وخلص منها إلى حكم عام نسبه لكل المسلمين، وتجاهل كافة الروايات الصحيحة الكثيرة؛ بل وآراء علماء المسلمين بهذا الشأن؛ وذلك فيما يتعلق بالرأي الزاعم نزول القرآن خمسًا خمسًا؛ وما ذلك إلا من أجل أن يدعم رأيه أن وحي النبي كان ناتجًا عن نوبات صرعية.

٤- لم يتوحد لديه معيار الحكم؛ حيث أثبت الوحي بصلصلة الجرس استنادًا لحديث نبوي؛ في حين رفض الأنواع الأخرى رغم ثبوتها بالقرآن والسنة.

٥- كان أحيانًا يجتزئ من النصوص الإسلامية ويضعها في غير السياق الذي وردت فيه في مصادرها.

٦- كان يتعامل أحيانًا بانتقائية مع النص الحديثي الواحد؛ حيث يختار منه ما يظن أنه يؤيد رؤيته ويسكت عما يعارضها بيقين.

٧- بالانتقائية ذاتها كان تعامله مع المصادر أحيانًا.

٨- وظف نولدكه نتائج (ترتيبه سور القرآن حسب النزول) في الحكم بقضايا جوهرية بشأن الإسلام ونبيه رغم أن هذا الترتيب في مجمله لم يحز حتى على ثقة نولدكه نفسه.

٩- من أجل أن يدعم نولدكه استدلاله بقصر سور الطور المكي الأول على أن (وحي الله لمحمد ﷺ ليس سوى نوبات تهيج عصبي حيث إن النوبة الصرعية لا تدوم طويلًا)؛ فإنه أتى إلى سور من آخر ما نزل بمكة فزعم أنها من أول ما نزل بها؛ وما ذلك إلا لأنها قصيرة. وأتى إلى سور من أوائل ما نزل بمكة فلم يُثبت ذلك لها؛ وما ذلك إلا لأنها طويلة.

١٠- من أجل أن يدعم نولدكه دعواه أن النبي كان يتخذ اليهود مرجعية في بدايات العهد المدني؛ عمد إلى (آيات تعارض اليهود نزلت في بدايات العهد المدني) فحدد لها زمن نزول متأخر.

١١- من أجل أن يدعم دعواه أن النبي في بداية العهد المدني كان يضع اليهود مع المؤمنين في جبهة واحدة؛ فإنه رجح -على وجه يخالف الروايات الصحيحة- أن الآيـة ٣١ المدثر تنتـمي لبداية العهد المدني.

١٢- من أجل أن يتهرب من وجود قرآن في أوائل الفترة المدنية يهاجم اليهود؛ فإننا وجدنا أنه كان عندما يجد آيات كثيرة تعارض دعواه؛ كان يتناولها بشكل عابر وبما يبعدها عن مضمونها الحقيقي.

١٣- ولكيلا يقف الأصل المكي لبعض الآيات التي تتحدث عن إبراهيم والحرم المكي؛ مانعًا من قبول نظرية نولدكه الملفقة؛ فإن نولدكه عمد إلى تلك الآيات المكية فادعى أنها مدنية. ولجأ للتشكيك في مكية آية النحل: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾، وحكم بيقين أنها مدنية؛ لا لشيء إلا من أجل أن يدعم نظريته أن الأمر باتباع ملة إبراهيم كان في المدينة؛ وذلك لدعم نظريته الملفقة عن تحول النبي في البحث عن مرجعية.

١٤- كان اهتمام نولدكه بدعم نظريته المشار إليها يجعله يسقط من اعتباره الموقف القرآني المعظِّم للكعبة منذ بداية نزول القرآن.

والحمد لله أولًا وآخرًا، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليمًا كثيرًا.





المصادر والمراجع

مصادر ومراجع الدراسة

أولا: المصادر

أ- القرآن الكريم:

- طبعة القاهرة.
- طبعة ج. فلوجل *Flügel G., Leipzig* ١٨٣٤.

ب- السنة النبوية:

١- ابن الأثير: المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري (٥٤٤-٦٠٦م): النهاية في غريب الأثر، مراجعة: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، دار الفكر بيروت ١٩٧٩م-١٣٩٩هـ ٥ أجزاء.

٢- أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني (١٦٤-٢٤١هـ): مسند الإمام أحمد بن حنبل مؤسسة قرطبة، مصر، ٦أجزاء.

٣- أحمد بن عمرو بن الضحاك: أبو بكر بن أبي عاصم الشيباني (٢٠٦-٢٨٧)، الآحاد والمثاني، مراجعة د. باسم فيصل أحمد الجوابرة، دار الراية، الرياض ١٩٩١م-١٤١١هـ، ٦ أجزاء.

٤، ٥- البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري (١٩٤ - ٢٥٦):

- الجامع الصحيح المختصر، بشرح ابن حجر تحقيق الشيخ عبد العزيز ابن باز، ومحمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب، مكتبة الغزالي، ومؤسسة مناهل العرفان، دمشق وبيروت ١٤ مجلدًا.

• الأدب المفرد، رواها عن الإمام البخاري أحمد بن محمد بن الجليل البزار، مكتبة الآداب بالقاهرة ١٤٠٠هـ-١٩٧٩م.

٦، ٧- البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى (٣٨٤-٤٥٨هـ):

• سنن البيهقي الكبرى، مراجعة محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة ١٩٩٤م -١٤١٤هـ، ١٠ أجزاء.

• دلائل النبوة، تحقيق د. عبد المعطي قلعهجي، دار الريان للتراث القاهرة، ودار الكتب العلمية بيروت، مطابع الأهرام التجارية، الطبعة الأولى القاهرة ١٩٨٩م.

٨- الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى (٢٠٩-٢٧٩هـ) الجامع الصحيح سنن الترمذي، مراجعة أحمد محمد شاكر وآخرون، بيروت بدون تاريخ، ٥ أجزاء.

٩- الحاكم النيسابوري أبو عبد الله محمد بن عبدالله (٣٢١-٤٠٥هـ): المستدرك على الصحيحين، دار الكتب العلمية، مراجعة: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت ١٩٩٠م -١٤١١هـ ٤ أجزاء.

١٠- ابن حبان: أبو حاتم محمد بن أحمد التميمي البستي (ت٣٥٤): صحيح ابن حبان، مراجعة: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت: ١٩٩٣م-١٤١٤هـ، ١٨ جزءًا.

١١- ابن حجر: شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ): فتح الباري بشرح صحيح البخاري: تحقيق الشيخ عبد العزيز بن باز، ومحمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب، مكتبة الغزالي، ومؤسسة مناهل العرفان، دمشق وبيروت، ١٤ مجلدًا.

١٢- الدارقطني: أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني البغدادي (٣٠٦ - ٣٨٥):

سنن الدارقطني، دار المعرفة، مراجعة: السيد عبد الله هاشم يماني المدني، بيروت ١٩٦٦م - ١٣٨٦هـ ٤ أجزاء.

١٣- الدارمي: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن (١٨١-٢٥٥): سنن الدارمي، مراجعة: فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٧م - ١٤٠٧هـ جزءان.

١٤- أبو داود: سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (٢٠٢-٢٧٥هـ) سنن أبي داود، دار الريان للتراث مصورة عن دار الحديث القاهرة ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، ٤ أجزاء.

١٥- أبو داود الطيالسي: سليمان بن داود الفارسي البصري (ت ٢٠٤هـ) مسند أبي داود الطيالسي، دار المعرفة بيروت جزء واحد.

١٦- الطبراني: أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب (٢٦٠-٣٦٠هـ): معجم الطبراني الكبير، مراجعة: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل ١٩٨٣م - ١٤٠٤هـ، ٢٠ جزءًا.

١٧- ابن ماجه: أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (٢٠٧-٢٧٥هـ) سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الريان للتراث مصورة عن دار إحياء الكتب العربية لفيصل الحلبي مجلدان.

١٨- محمد بن سلامة بن جعفر: أبو عبد الله القضاعي (ت٤٥٤هـ): مسند الشهاب، مراجعة: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٦م- ١٤٠٧هـ جزءان.

١٩- مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري (٢٠٦-٢٦١هـ): صحيح مسلم، بشرح النووي، مكتبة الغزالي ومؤسسة مناهل العرفان دمشق وبيروت، طبعة حديثة بدون تاريخ، ٦ مجلدات.

٢٠، ٢١- النسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب (٢١٥-٣٠٣هـ):

- سنن النسائي الكبرى، مراجعة: د.عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩١م-١٤١١هـ ٦ أجزاء.
- سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية السندي، دار الحديث ودار الريان القاهرة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م. ٤ مجلدات.

٢٢- أبو يعلى: أحمد بن علي بن المثنى الموصلي (٢١٠-٣٠٧هـ) مسند أبي يعلى، مراجعة: حسين سليم أسد دار المأمون للتراث، دمشق ١٩٨٤م-١٤٠٤هـ. ١٣ جزءًا.

٢٣- الهيثمي، علي بن أبي بكر (ت٨٠٧هـ)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الريان للتراث، دار الكتاب العربي القاهرة، بيروت ١٤٠٧هـ، ١٠ أجزاء.

ج- التفسير وعلوم القرآن:

٢٤- الرازي: الإمام فخر الدين محمد بن عمر (٥٤٤-٦٠٦هـ)، التفسير الكبير، دار الغد العربي ط١، القاهرة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، ١٤ مجلدًا.

٢٥، ٢٦- السيوطي: الحافظ جلال الدين (٨٩٤-٩١١م):

- الإتقان في علوم القرآن، دار مصر للطباعة ومكتبة مصر، الفجالة القاهرة دون تاريخ أو رقم طبعة.
- لباب النقول في أسباب النزول، تحقيق ياسر صلاح عزب، المكتبة التوفيقية طبعة حديثة بدون تاريخ.

٢٧- الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ): تفسير الطبري تحقيق وتعليق: محمود شاكر، مراجعة وتخريج أحاديث: أحمد محمد شاكر دار المعارف سلسلة تراث الإسلام سنة ١٣٧٤هـ.

٢٨- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت٦٧١ هـ/ ١٢٧٣م):

الجامع لأحكام القرآن، مكتبة الغزالي، ومؤسسة مناهل العرفان، دمشق بيروت، طبعة حديثة بدون تاريخ، ٩ مجلدات.

٢٩- الواحدي: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري: أسباب النزول، تحقيق: أيمن شعبان، دار الحديث، ط ٤، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م، القاهرة.

د- السيرة النبوية والتراجم والتاريخ الإسلامي:

٣٠- الأزرقي: أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت٢٢٣هـ): أخبار مكة وما جاء فيه من الآثار، تحقيق: رشدي الصالح ملحس، الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م، دار الثقافة لبنان، جزءان معًا.

٣١- البلاذري: أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر: أنساب الأشراف. تحقيق: د. محمد حميد الله. القاهرة، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، ودار المعارف، سلسلة ذخائر العرب رقم ٢٧، سنة ١٩٥٩م.

٣٢- ابن حجر: شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ): الإصابة في تمييز الصحابة، مراجعة: علي محمد البجاوي، دار الجيل بيروت، ١٩٩٢م - ١٤١٢هـ، ٨ أجزاء.

٣٣- ابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦): جوامع السيرة النبوية، مكتبة التراث الإسلامي، ١٩٨٢م.

٣٤- الشهرستاني: أبو الفتح (٤٧٩ - ٥٤٨هـ): موسوعة الملل والنحل، مؤسسة ناصر للثقافة، الطبعة الأولى ١٩٨١م.

٣٥- الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ): تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، سلسلة ذخائر العرب، دار المعارف، ط٤، ١٩٧٩م.

٣٦، ٣٧- ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر (٣٦٨-٤٦٣هـ):

• الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي محمد البجاوي، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، الفجالة القاهرة، بدون تاريخ.

• الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق شوقي ضيف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٣٨٦هـ-١٩٦٦م.

٣٨- ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم (٢١٣-٢٧٦هـ) المعارف، تحقيق: د. ثروت عكاشة، إصدار وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مطبعة دار الكتب ١٩٦٠م.

٣٩- محمد بن حبيب: بن أمية بن عمرو الهاشمي البغدادي ت ٢٤٥هـ: المحبر، نشرة: د. ايلزه شتيتر طباعة جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدرأباد، سنة ١٣٦١هـ-١٩٤٢م.

٤٠- محمد بن سعد: الطبقات الكبرى[1]، نشرة:
Buchhandlung und Druckrei vormals E.J.Brill Leiden

القسم الأول من الجزء الرابع بتحقيق بروفيسور يوليوس لبرت طبعة ليدن ١٣٢٢هـ-١٩٠٦م، والقسم الأول من الجزء الثاني بتحقيق: جوزيف هوريفيتس ١٣٢٥هـ-١٩٠٩م، والقسم الأول من الجزء الثالث بتحقيق: إدوارد زخاو ١٣٢١هـ-١٩٠٥م، والقسمان الأول والثاني من الجزء الرابع بتحقيق: بروفيسور يوليوس لبرت ١٣٢٢هـ-١٩٠٦م، والجزء الخامس تحقيق: سترستين طبعة ليدن ١٣٢٢هـ-١٩٠٦م.

٤١- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ)، إمتاع الأسماع، تحقيق: محمد عبد الحميد النميسي، مراجعة: د. محمد جميل غازي، دار الأنصار القاهرة ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

(١) في معظم هذه الدراسة رجعت إلى هذه الطبعة التي كانت موجودة بين يدي في أثناء دراستي في ألمانيا لكن بعد عودتي لمصر وفي بعض المواضع القليلة جدًا رجعت لطبعة بيروتية من دار صادر، وقد أشرت لهذه الطبعة عند مواضع الرجوع إليها.

٤٢- ابن هشام: أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري: السيرة النبوية تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي، القاهرة، ١٣٧٥هـ-١٩٥٥م أربعة أجزاء في مجلدين.

٤٣- الواقدي: محمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧هـ): المغازي، تحقيق: د. مارسدن جونس، مطبعة جامعة أكسفورد ١٩٦٦م.

٤٤- ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل (٧٠١ - ٧٧٤هـ): قصص الأنبياء، دار عمر بن الخطاب، الإسكندرية، ط١، ١٩٨١م.

هـ- الكتاب المقدس:

- العهدان: القديم والجديد، النص العربي، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، طبعة العيد المئوي ١٩٨٣م.
- *Das Alte Testamen, Verlag der Zürcher Bibel, Deutche Bibelgeselschaft Zürch,* ١٩٩١.

ثانيًا: المراجع

أ- مراجع عامة:

٤٥- أحمد سمايلوفيتش، الدكتور: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دار المعارف القاهرة، ١٩٨٠م.

٤٦- أحمد عبد الحليم عطية، الدكتور: المماثلة والمقابلة قراءة ثانية في موقف بدوي من المستشرقين، مجلة المسلم المعاصر، قبرص، عدد ٧٩ السنة ٢٠.

٤٧- إدوارد سعيد: الاستشراق المعرفة السلطة الإنشاء، نقله إلى العربية: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، الطبعة العربية الأولى، ١٩٨١م.

٤٨- أرنولد، توماس (ت ١٩٣٠): الدعوة إلى الإسلام، ترجمة وتعليق:

د. حسن إبراهيم ود. عبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوي، ط٣، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، سنة ١٩٧٠م.

٤٩- أكرم ضياء العمري، الدكتور: السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، الرياض ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

٥٠- الألباني، محمد ناصر الدين الألباني: تخريج أحاديث (بهامش) فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي ط ٨، دار الكتب الإسلامية، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، القاهرة.

٥١- بارت، رودي: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدَكه، ترجمة: د. مصطفى ماهر، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧م.

٥٢- بروكلمان، كارل: تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية: الدكتور عبد الحليم النجار وآخرون، ط٥، ١٩٨٣م، دار المعارف بتكليف من جامعة الدول العربية والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

٥٣- بلاشير، ريجي، (١٩٠٠-١٩٧٣م): القرآن، نزوله، تدوينه، ترجمته، تأثيره. ترجمة: رضا سعادة، بيروت ١٩٧٤م.

٥٤- جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام، مراجعة: د. حسين مؤنس، دار الهلال دون رقم طبعة أو تاريخ.

٥٥- جورافسكي، أليكسي: الإسلام والمسيحية، ترجمة: د. خلف محمد الجراد مراجعة وتقديم: د. محمود حمدي زقزوق عالم المعرفة ٢١٥ الكويت ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

٥٦- جولدتسيهر، إجناتس: مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة: د. عبد الحليم النجار، دار اقرأ، بيروت، ط٣، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

٥٧- ديكارت، رينيه: مقال عن المنهج، ترجمة: محمود محمد الخضيري، مراجعة وتقديم: د. محمد مصطفى حلمي، ط٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م.

٥٨- ساسي سالم الحاج: الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية،، مركز دراسات العالم الإسلامي، الطبعة الأولى، مالطا. الجزء الأول ١٩٩١م، الجزءان الثالث والرابع (معًا) ١٩٩٢م.

٥٩- سامي الصقار، الدكتور: دور المستشرقين في خدمة التراث الإسلامي، مقال بمجلة المنهل العدد ٤٧١ عدد خاص عن الاستشراق مايو ١٩٨٩م.

٦٠- سيجال، م. ص: حول تاريخ الأنبياء عند بني إسرائيل، ترجمة: د. حسن ظاظا منشورات جامعة بيروت العربية، مطابع النفري، بيروت بدون تاريخ.

٦١- سيد خميس: القصص الديني بين التراث والتاريخ، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠١م.

٦٢- السيد عبد العزيز سالم، الدكتور: تاريخ العرب قبل الإسلام، الطبعة الثانية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة ذاكرة الكتابة، رقم ١٢، سنة ٢٠٠٠م.

٦٣- سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق، الطبعة ١٧، ١٩٩٢م، ٦ مجلدات.

٦٤- شاخت، وبوزورث، ج. شاخت (ت١٩٦٩م) وكليفورد إ. بوزورث وآخرون: تراث الإسلام، ترجمة: د. محمد زهير السمهوري، وآخرون، الجزء الأول، ط٢، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٨م.

٦٥- صبحي الصالح، الدكتور، مباحث في علوم القرآن، وزارة المعارف بالسعودية، دار العلم للملايين، بيروت ط ٩، ١٩٧٧ بيروت.

٦٦-٦٨ صلاح الدين المنجد، الدكتور:

- المستشرقون الألمان: تراجمهم وما أسهموا به في الدراسات العربية، ج١، دار الكتاب الجديد، لبنان.

• جهود المستشرقين في تحقيق التراث العربي، مقال، المنهل، السعودية، العدد ٤٧١ (عدد متخصص بعنوان الاستشراق والمستشرقون) رمضان ١٤٠٩هـ/ مايو ١٩٨٩م، صفحات ٢١٠-٢١٧.

• الاستشراق الألماني في ماضيه ومستقبله، ضمن: حوار بين الألمان والعرب، إعداد: د. مصطفى ماهر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٦٩- عائشة عبد الرحمن، الدكتورة: تراجم سيدات بيت النبوة، دار الريان للتراث، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٨٧م.

٧٠- أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٤٤ هـ): الأموال؛ تحقيق وتعليق: محمد خليل هراس، ١٤٠١هـ-١٩٨١م، مكتبة الكليات الأزهرية - دار الفكر القاهرة.

٧١، ٧٢- عبد الرحمن بدوي، الدكتور:

• موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٨٩م.

• دفاع عن محمد ﷺ ضد المنتقصين من قدره، ترجمه عن الفرنسية: كمال جاد الله، الدار العالمية للكتب والنشر، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٩٩م.

٧٣- عبد الله الشاذلي، الدكتور: الحكمة العربية في أصالتها الفطرية، مؤسسة سعيد للطباعة بطنطا، ط١، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

٧٤- عبد الستار إبراهيم، الدكتور: الحكمة الضائعة الإبداع والاضطراب النفسي والمجتمع، عالم المعرفة، الكويت، العدد: ٢٨٠، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

٧٥- عبد الوهاب النجار، الشيخ: قصص الأنبياء، مكتبة دار التراث، سنة ١٩٨٥م، القاهرة.

٧٦- عمر فروخ، الدكتور، الاستشراق ما له وما عليه، مقال بمجلة المنهل، العدد ٤٧١، عدد خاص عن الاستشراق، مايو ١٩٨٩م، ص١٥-٢١.

٧٨- عمر لطفي العالم: المستشرقون والقرآن: دراسة نقدية لمناهج المستشرقين، مركز دراسات العالم الإسلامي، مالطا، ١٩٩١م.

٧٩- عياض: القاضي أبو الفضل بن موسى بن عياض اليحصبي (٤٧٦-٥٤٤هـ): الشفا بتعريف حقوق سيدنا المصطفى، ط ١٩٩٣م.

٨٠- فون جروينباوم، جوستاف: حضارة الإسلام، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة: عبد الحميد الصاوي، سلسلة الألف كتاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م.

٨١- قاسم السامرائي، الدكتور: الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، ط١، دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، السعودية، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٨٢- كويلرينج، ت.، وآخرون: الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته، تقديم: فيليب حتى. ترجمة: د. عبد الرحمن محمد أيوب. مراجعة: د. أبو العلا عفيفي، د. محمد محمود الصياد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٢م.

٨٣- لوبون، جوستاف: حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، مكتبة الإيمان، وعيسى البابي الحلبي، بدون تاريخ أو رقم طبعة.

٨٤- مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ترجمة: د. عبد الصبور شاهين، تقديم: د. محمد عبد الله دراز والشيخ محمود محمد شاكر طبع بتاريخ ١٩٩٢م، دار الفكر المعاصر بيروت، ودار الفكر دمشق، مصورة عن الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

٨٥- مجموعة من المستشرقين: دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة: أحمد الشنتناوي وإبراهيم خورشيد وعبد الحميد يونس، مراجعة: د. محمد مهدي علام.

٨٦- مجموعة من العلماء المسلمين: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية

الإسلامية، مكتب التربية العربي لدول الخليج، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مطبعة مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م. (مجلدان)

٨٧- محمد البهي، الدكتور: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، مطبعة وهبة، ط١٢، ١٤١١هـ-١٩٩١م.

٨٨- محمد حسين هيكل: حياة محمد، دار المعارف القاهرة، الطبعة ١٦، ١٩٨١م.

٨٩- محمد عبد الله دراز، الدكتور، النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، الطبعة الرابعة، دار القلم، الكويت، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.

٩٠- محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، جزءان.

٩١- محمد عبد الغني شامة، الدكتور: الإسلام في الفكر الأوربي، القاهرة، مكتبة وهبة، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

٩٢- محمد عبده، الإمام، والشيخ محمد رشيد رضا: تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م، ٧ مجلدات، لم يكتمل.

٩٣-٩٧ محمود حمدي زقزوق، الدكتور ووزير الأوقاف المصري:

- الإسلام في تصورات الغرب، الطبعة الأولى، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- الإسلام في مرآة الفكر الغربي دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.
- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري كتاب الأمة، ط١، ١٤٠٤هـ، مطابع الدوحة الحديثة قطر.

- الأزمنة التي نشط فيها الاستشراق، مقال بمجلة: المنهل، عدد ٤٧١، متخصص (الاستشراق والمستشرقون) السعودية، سنة ١٩٨٩م. ص٢٠٢-٢٠٦.
- في مواجهة الاستشراق، بحث بمجلة المسلم المعاصر، مؤسسة المسلم المعاصر، قبرص، السنة السابعة عشرة، المحرم - جمادى الآخرة ١٤١٣هـ، العددان ٦٥-٦٦ معًا، ص١١-٤٠.

٩٨- محمود محمد شاكر، الشيخ العلامة المحقق: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ١٩٩٧م.

٩٩- مري، بنيلوبي، وآخرون: العبقرية، تاريخ الفكرة، ترجمة محمد عبد الواحد، مراجعة: د. عبد الغفار مكاوي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد ٢٠٨، سنة ١٩٩٦م.

١٠٠- مركز الثقافة والمعارف القرآنية: تابع للحوزة العلمية بمدينة قم بإيران: علوم القرآن عند المفسرين، ط١، إيران ١٤١٦هـ.

١٠١- مصطفى السباعي، الدكتور، السنة ومكانتها في التشريع، ط٢ المكتب الإسلامي دمشق بيروت، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

١٠٢- نجيب العقيقي: المستشرقون موسوعة في تراث العرب مع تراجم المستشرقين ودراساتهم عنه منذ ألف عام حتى اليوم، الطبعة الرابعة الموسعة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠م، ثلاثة مجلدات.

١٠٣- هونكه، زيجريد: الله ليس كذلك، ترجمة: د. غريب محمد غريب، الطبعة الثانية، مؤسسة بافاريا للنشر والإعلام، ميونيخ، ألمانيا، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

١٠٤- الهيئة القبطية الإنجيلية: علم اللاهوت النظامي، دار الثقافة المسيحية، القاهرة، ١٩٧١م.

١٠٥- همام عبد الرحيم سعيد، الدكتور: الفكر المنهجي عند المحدثين، كتاب الأمة، ط١، قطر، المحرم ١٤٠٨هـ.

١٠٦- وات، مونتجمري: محمد في مكة، تعريب: شعبان بركات، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، بدون تاريخ.

١٠٧- ويلز، هـ. ج.، معالم تاريخ الإنسانية، ج٣، ترجمة: عبد العزيز جاويد، لجنة التأليف والترجمة والنشر بجامعة الدول العربية، القاهرة، ط٣، ١٩٧٢م.

ب- المعاجم والقواميس:

١٠٨- الرازي: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت ٧٢١هـ) مختار الصحاح مكتبة لبنان، مراجعة: محمود خاطر، بيروت، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

١٠٩- عبد المنعم الحفني: المعجم الفلسفي، عربي، إنجليزي، فرنسي، ألماني، لاتيني، الدار الشرقية، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

١١٠- ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري: لسان العرب، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٦م.

١١١- محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مكتبة الغزالي ومؤسسة مناهل العرفان، دمشق بيروت، دون تاريخ أو رقم طبعة.

١١٢- مجمع اللغة العربية: المعجم الفلسفي، القاهرة ١٩٨٣م.

١١٣- منير البعلبكي: المورد، قاموس إنجليزي عربي، دار العلم للملايين، ط٣١ بيروت، لندن، ١٩٩٧م.

ج- الدوريات:

١١٤- الرسالة، مركز الإعلام العربي، مصر، السنة الأولى، العدد ٤، رجب ١٤٢٣هـ-سبتمبر٢٠٠٢م.

١١٥- رسالة الجهاد، ليبيا، السنة التاسعة، مايو ١٩٩٠م.

عالم الفكر، الكويت، العدد ٢ المجلد ٣١ أكتوبر- ديسمبر ٢٠٠٢م.

١١٦- فكر وفن، دار انترناسيونيز، د. أردموته هللر، ألمانيا، العدد ٤٤، العام ٢٣، سنة ١٩٨٦م.

١١٧- المسلم المعاصر، مؤسسة المسلم المعاصر، قبرص، السنة السابعة عشرة، المحرم - جمادى الآخرة ١٤١٣هـ العددان ٦٥-٦٦ معًا.

١١٨- المنهل، العدد السنوي، المتخصص (الاستشراق والمستشرقون)، السعودية، العدد ٤٧١ رمضان وشوال ١٤٠٩هـ إبريل ومايو ١٩٨٩م.

د- المراجع الأجنبية:

119. *Bavaria (Verlag), Die Bedeutung des Korans , Sure Al _ Anfal Teil 9, und 10, Bavaria Verlag & Handel GmbH, München.*

120. *Becker, (C.H.), Lebensbilder bekannter Islamforscher , Islamstudien, II, Georg Olms Verlag , Hildesheim, 1967.*

DAAD; Deutscher Akademischer Austauschdienst, Studying in Germany, Information for foreigners on university Studies. 5th edition 1997.

121. *Fück(Johan): Die arabischen Studien in Europa, bis in den Anfang des 20. Jahrhunderts, Ottoharrassowitz. Leipzig 1955.*

122. *Götz Schregle, unter mitwirkung von Fahmi Abu l-Fadl , Mahmoud Hegazi ,...: Deutsch-Arabisches Wörterbuch , Libraire du Liban Berut, Macdonald & Evans LTD, London, printed in Lebanon 1977.*

123. *Halder (Alois) \ Max Műller: philosophisches Wöterbuch 3. Auflage Herder\Spktrum, Freiburger Graphische Betriebe 1997.*

124. *Juda (A.), Hőchstbegabung. Ihre Erbverhaltnisse sowie ihre Beziehungen zu Psychischen Anomalien Műnchen, 1953*

125. *Nöldeke (Theodor), G. Bergsträsser und Otto Pretzl: Geschichte des Qorāns, Dritter Teil*

126. *Richard Brunt, Karl-Dieter Bünting, und andere: Wörterbuch Englich Deutsch, Deutsch Englich, 1977 by ISIS Verlagsgesellschaft AG Chur, Schweiz*

127. *Schwarzenau, (Paul): Korankunde für Christen, Ein Zugang zum heiligen Buch der Moslems, 1. Aufl. Kreuz Verlag, Stutgart; Berlin , 1982*

128. *Sprenger (Aloys), Muhammed und der Qorān, eine psychologische Studie, Hamburg 1889.*

129. *Weil (Gustav), Das Leben Muhammeds, 2. Aufl. Stuttgart 1864.*

130. *Maudsley, (H.) The Pathology of Mind London, 1867.*





الفهرس المفصل للموضوعات



الفهرس المفصل للموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الصفحة	الموضوع

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: ٤٩٦ / ٢٠٠٩

الرقم الدولي (ردمك) : ١ - ٥٢ - ٤٤ - ٩٩٩٢١







رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com